

أوراق في الفيزياء المتأرجحة والخشبية

١٧٨٩ - ١٩٥٠

تأليف

هنا ولد تمبزي

أ. ج. جرانت

مراجعة

الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

ترجمة

بهاء الدين

الناشر
مؤسسة سبنل العرب



أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين

بإشراف
إدارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

اهداءات ٢٠٠١

الأستاذ الدكتور / محمد الفتاح منصور

أَوْزُونَا فِي الْفَنِّ وَالْإِنْسَانِ وَالْعُشْرِ

١٧٨٩ - ١٩٥٠

تأليف

أ. ج. جرانت

أستاذ التاريخ بجامعة ليدز سابقاً

هارولد تمبلي

أستاذ التاريخ الحديث بجامعة كامبريدج سابقاً

ترجمة

بهياء فهد

الملاحق بجامعة الدول العربية

مراجعة

الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

أستاذ التاريخ الحديث بجامعة عين شمس

الناشر
مؤسسة سجل العرب

أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين
١٧٨٩ - ١٩٥٠

تأليف

أ.ج. جرانث • هارولد تمببلي

راجعت النص الإنجليزى وأضافت إليه وتحدثته

ليليان م. بنسون

دكتوراه في اللغتون

دكتوراه في الآداب

أستاذة التاريخ الحديث بجامعة لندن

ترجمه إلى العربية

(عن الطبعة السادسة المنقحة)

بمها فـهـمـي

راجع الترجمة

الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

تنويه

ورد في هذا الكتابُ بعضُ آراءٍ شخصيةٍ للمؤلفين ، وذلك حين تعرضا للسياسة البريطانية في منطقة الشرق الأوسط .
وقد أشرنا الى هذه الآراء وبيننا وجه الحق فيها وسجلنا ذلك في هوامش الكتاب .

هذه ترجمة الجزء الأول من كتاب :

Europe in the Nineteenth and Twentieth Centuries.

تأليف

Grant and Temporley.

المحتويات

الجزء الأول

الثورة الفرنسية و نابليون

الفصل الأول

الصفحة

٣٥

أوروبا الحديثة

وحدة الحضارة الأوروبية ، نظام الدول ذات السيادة في أوروبا والتوازن الدولي ، فرنسا في نهاية القرن الثامن عشر ، البيت المالك النمساوي ، الدول الألمانية ، روسيا ، أول تقسيم لبولندا (١٧٧٢) الفلاسفة الفرنسيون - فولتير ومونتسكيو وروسو ، الاقتصاديون أو « الطبيعيون » .

الفصل الثاني

٥٩

الثورة الفرنسية قبل نشوب الحرب العامة

لويس السادس عشر ، تيرجو ، نيكرو ، الفوضى المالية ، كالون ومجلس طبقات الأمة ، الجمعية الوطنية وسييز ، استسلام الملك ، القوى الثلاث: البلاط والجمعية والشعب ،

الصفحة

سير مظاهرة « الخبز » الى فرساي (٥ و ٦ أكتوبر) ،
«الهجرة» «اعلان حقوق الانسان» (أغسطس)، المناقشات
الدستورية ، دستور ١٧٩١ ، التشريعات الكنسية ، هروب
الملك الى فارن ، مذبحه شامب دى مارس (١٧ يوليو ١٧٩١).

الفصل الثالث

٨٩

الثورة بعد نشوب الحرب العامة

الأحزاب فى الجمعية التشريعية ، أسباب الحرب ، المسألة
البولندية ، فرنسا والامبراطورية ، اتفاقية بلنيتز (٢٧
أغسطس ١٧٩١) ، وزارة الجيروندي والحرب (٢٠ أبريل
١٧٩٢) ، يوم ٢٠ يونية ١٧٩٢ فى باريس ، ظهور
اليعاقبة ، سقوط الملكية (١٠ أغسطس ١٧٩٢) ، «مذابح
سبتمبر» ، معركة فالمى (٢٠ سبتمبر ١٧٩٢) ، اعدام
لويس السادس عشر (٢١ يناير ١٧٩٣) ، تألب أوروبا ضد
فرنسا ، هزيمة دمورييه وحياته ، الحرب فى «لافنديه» ،
لجنة الأمن العام ، سقوط الجيروندي ، دانتون وروبسبير ،
محكمة الثورة ، الحرب الفندية ، كارنو وأساليب الحرب
الجديدة ، تقسيم بولندة الثانى (١٧٩٣) ، الانتصارات
الفرنسية ، انقسام حزب اليعاقبة ، الكوميون ، اصلاحات
١٧٩٣ ، سقوط أنصار هيبر ودانتون ، سقوط دانتون
واعدامه ، قانون بريريال (١٠ يونيو ١٧٩٤) . خطاب
روبسبير فى المؤتمر (٢٦ يوليو ١٧٩٤) ، اعتقال روبسبير
وموته (٢٨ يوليو) نهاية عهد الارهاب ، حركتنا «جرمينال»
و «بريريال» ١٧٩٥ ، دستور السنة الثالثة ، حركة
« فندمير » (أكتوبر ١٧٩٥) ، خليج «كويرون»

الصفحة

(١٧٩٥) ، تقسيم بولندة الثالث «١٧٩٥» ، صلح بازل
بين بروسيا وفرنسا (٥ ابريل ١٧٩٥) .

الفصل الرابع

١٣٩

ارتقاء نابليون الى السلطة

نابليون في أول حياته العملية ، إيطاليا في ١٧٩٦ ، أساليب
نابليون ، انتصارات الفرنسيين في لودي وريفولي ، صلح
كامبينو فورميو (١٧ أكتوبر ١٧٩٧) ، تسوية نابليون لوضع
إيطاليا ، حكومة الإدارة ، انقلاب فروكتيدور ، الحملة
الفرنسية على مصر ، معركة الاهرام (امبابة) (٢١ يوليو
١٧٩٨) ومعركة النيل (أبي قير البحرية) (أول أغسطس
١٧٩٨) ، إيطاليا وهولندة (١٧٩٨) ، سويسرا ونابولي ،
دخول روسيا الحرب (ديسمبر ١٧٩٨) ، هزائم الفرنسيين
(١٧٩٩) ، حكومة الإدارة ونابليون ، انقلاب برومير
(٩ - ١١ نوفمبر ١٨٩٩) ، القنصلية .

الفصل الخامس

١٦٩

نابليون الامبراطور ورجل الدولة

النمسا وبريطانيا العظمى تواصلان الحرب ، معركة تمارانجو
(١٤ يونيو ١٨٠٠) وهولندة (٢ ديسمبر ١٨٠٠) ،
صلح لونيفيل (٩ فبراير ١٨٠١) ، صلح اميان (٢٧ مارس
١٨٠٢) ، نتائج صلح اميان ، اضطراب الأحوال في ألمانيا ،
مؤتمر راشتاد ديسمبر ١٧٩٧) ، تسوية نابليون الأولى
لأوضاع ألمانيا ، تنصيب نابليون قنصلا أول ، تنصيب

الصفحة

نابليون امبراطورا للفرنسيين (١٨ مايو ١٨٠٤) ، الاتفاقية
البابوية ، مجموعات نابليون التشريعية ، فرنسا في ظل
نابليون .

الفصل السادس

١٩٩

هزيمة حكومات أوروبا

التوازن الدولي ، جمهورية شمال إيطاليا أو ما وراء الألب ،
(سيرالين) سان دومينجو والهند ، مالطة والنزاع مع
انجلترا ، الحلف العظيم ، معركة الطرف الأغر (٢١
أكتوبر ١٨٠٥) ، نابليون وبروسيا ، «ألم» و«أوسترليتز» ،
اتحاد الراين (١٨٠٦) ، نهاية الامبراطورية الرومانية المقدسة
(٦ أغسطس ١٨٠٦) ، «بيننا» (١٤ أكتوبر ١٨٠٦) و«إيلاو»
(فبراير ١٨٠٧) معاهدة تيلسيت (٧ يوليو ١٨٠٧) ،
نابليون في أوج سلطانه .

الفصل السابع

٢٢٣

ظهور أوروبا الجديدة

مراسيم برلين ، « النظام القارى » ، ضم هولندا الى
فرنسا ، انتعاش بروسيا ، نابليون يحارب أسبانيا ، مؤتمر
ارفورث ، النمسا تستأنف الحرب (١٨٠٩) ، نذر المستقبل .

الفصل الثامن

٢٤٩

تكبة نابليون

السويد وبرنادوت ، النمسا وروسيا ونابليون ، «الجيش
الأعظم» يغزو روسيا (١٨١٢) ، الانسحاب من
موسكو ، الهبة القومية في بروسيا ، عروض مترنيخ

الصفحة

للصلح ، معركة درسدن (أغسطس ١٨١٣) وليزيج .
(أكتوبر ١٨١٣) ، غزو فرنسا (١٨١٤) ، نزول نابليون
عن العرش (٦ أبريل ١٨١٤) ، عودة البوربون ، « المائة
يوم » ، واترلو (١٨ يونيو ١٨١٥) .

الجزء الثاني

٢٧٣ من الحكومة العالمية الى الثورة (١٨١٤ - ١٨٤٨)

الفصل التاسع

٢٧٥ اخفاق الحكومة العالمية (١٨١٤ - ١٨٢٥)

معاهدة شومون (٩ مارس ١٨١٤) ، معاهدة باريس
الأولى (٣٠ مايو ١٨١٤) ، معاهدة باريس الثانية (٢٠
نوفمبر ١٨١٥) ، معاهدة فيينا (٩ يونيو ١٨١٥) ، الحلف
المقدس (٢٦ سبتمبر ١٨١٥) والمحاكمة الرباعية (٢٠
نوفمبر ١٨١٥) ، مؤتمر اكس لاشابل (١٨١٨) ، كاسلر
يعلم سياسة بريطانيا (٥ مايو ١٨٢٠) مؤتمر تروباو
(١٨٢٠) ، كاننج ، مؤتمر فيرونا (١٨٢٢) ، فشل نظام
المؤتمر .

الفصل العاشر

٢٩٧ الحكم الفردي والحكم الدستوري والثورة (١٨١٥ - ١٨٤٨)

الاتحاد الألماني ، مراسيم كارلسباد (١٨١٩) ، الاصلاح في
بروسيا ، الزولفرين ، فردريك وليم الرابع ، فرنسا تحت
حكم البوربون الجديد ، لويس فيليب وملكية الأورليان ،
ثورة بلجيكا ، بالمرستون وبلجيكا وأسبانيا والبرتغال ،

الصفحة

ضعف ملكية الأورليان ، الثورة في فرنسا (فبراير ١٨٤٨)،
الثورة في بولندة ، إيطاليا - محاولات الثورة، الاتجاهات
العامة في تلك الفترة .

الجزء الثالث

٣٣١ الامبراطوريات الفرنسية والألمانية والروسية

الفصل الحادى عشر

٣٣٣ ثورة ١٨٤٨ وقيام الامبراطورية في فرنسا
باريس والثورة ، سان سيمون ، لويس بلان ، الثورة :
الاشتراكية ، لويس نابليون ، أعماله في الرئاسة ، الانقلاب
(٣ ديسمبر ١٨٥١) ، الامبراطورية الثانية .

الفصل الثانى عشر

٣٥٣ ثورة ١٨٤٨ - ١٨٤٩ في ألمانيا وفي امبراطورية النمسا وفي المجر
أشكال الثورة المختلفة ، ألمانيا ، النمسا والمجر ، وبروسيا
الجمعية الوطنية الألمانية، ويندشجراتز يجمع الثورة التشيكية في
براغ ، جلاكيثش حاكم كرواتيا يهاجم المجر ، فشل الثورة
في النمسا ، كبت النزعات التحررية في بروسيا ، المجر
وكوشوط وجورجى ، إعادة فتح بودابست ، التدخل
الروسى ، استسلام المجر ، فرار كوشوط .

الفصل الثالث عشر

٣٧١ الحكم الرجمى في ألمانيا والنمسا والمجر (١٨٤٩ - ١٨٦٠)
الجمعية الوطنية الألمانية تعرض التاج على فردريك وليم

الصفحة

ملك بروسيا ، رفضه للتاج (٣ أبريل ١٨٤٩) ونهاية الجمعية
(سبتمبر ١٨٤٩) ، اذلال النمسا لبروسيا في أولتزر (٢٨
نوفمبر ١٨٥٠) ، السياسة الرجعية في النمسا ، النتائج
الثابتة للشورات .

الفصل الرابع عشر

٣٨١

الحركات الثورية في إيطاليا

البابا المتحرر بيوس التاسع ، بيوس يمنح الدستور
(مارس ١٨٤٨) ، التمرد ومنح الدستور في صقلية (فبراير
١٨٤٨) وفي توسكانيا (فبراير ١٨٤٨) ، شارل ألبرت ملك
سردينيا ، نجاح الثورة على النمسا في ميلانو (٢٣ مارس
١٨٤٨) ، شارل ألبرت يعلن الدعوة الى قيام ايطاليا
المتحدة ، هزيمة الايطاليين في كستوزا (٢٥ يوليو) ،
الاضطرابات والغاء الدستور في نابولي وتوسكانيا، هزيمة
شارل ألبرت في نوفارا (٢٣ مارس ١٨٤٩) ، تمسك فيكتور
عمانويل بدستور بيدمونت ، انسحاب غاريبالدي ومازيني
عن روما (٣٠ يونيو ١٨٤٩) ، ومائين عن البندقية (٢٤
أغسطس ١٨٤٩) .

الفصل الخامس عشر

٤٠١

المسألة الشرقية وحرب القرم

القسم الأول - مسألة الشرق الأدنى ١٨٠٤ - ١٨٥٣

الأتراك والدول العظمى وشغبو البلقان ، ثورة الصرب
(١٨٠٤) ، ثورة اليونان (١٨٢٠) ، معركة تفارين (أغسطس

الصفحة

(١٨٢٧) ، الحرب الروسية التركية (١٨٢٨ - ١٨٢٩) ،
معاهدة أدريانوبل (١٤ سبتمبر ١٨٢٩) ، استقلال اليونان
(١٨٣٢) ، سياسة روسيا (١٨٢٩ - ١٨٤٠) ، محمد علي
يهاجم تركيا ، معاهدة هنكيار سكلسى (٨ يوليو ١٨٣٣) ،
الأتراك يهاجمون محمد علي (يونيو ١٨٣٩) ، بالمرستون
يعقد اتفاقية لندن (١٥ يوليو ١٨٤٠) ، رضوخ
محمد علي (٢٥ نوفمبر ١٨٤٠) ، اتفاقية المضائق (١٣
يوليو ١٨٤١) .

٤١٧

القسم الثانى - حرب القرم

ضعف تركيا المتزايد ، مطالب روسيا الدينية ، مقترحات
القيصر (يناير ١٨٥٣) ، الأماكن المقدسة ، لورد
ستراتفورد دى ردكليف ، روسيا فى ولايتى الدانوب ،
تركيا تعلن الحرب على روسيا (٤ أكتوبر ١٨٥٣) ، فرنسا
وبريطانيا تعلنان الحرب (٢٧ مارس ١٨٥٤) ، النقاط الأربع ،
حصار سيستبول (سبتمبر ١٨٥٤ - سبتمبر ١٨٥٥) ،
مؤتمر فيينا (مارس - مايو ١٨٥٥) ، سقوط سيستبول ،
مؤتمر باريس ومعاهدة الصلح (٣٠ مارس ١٨٥٦) ،
التصريح الخاص بالقانون البحرى ، فشل تركيا فى اصلاح
أمورها ، التغيرات فى البلقان - اليونان والصرب والجبل
الأسود ورومانيا .

الفصل السادس عشر

بعث ايطاليا وتحقق الوحدة الايطالية

الروح القومية فى ايطاليا ، مازينى ، بيدمونت وظهور

الصفحة

كافور ، كافور في مؤتمر باريس ، كافور ونابليون الثالث ،
النمسا تهاجم بيدمونت (أبريل ١٨٥٩) ، نابليون الثالث يغزو
إيطاليا ، معركتنا ماجنتا (٤ يونيو) وسولفرينو (٢٤ يونيو) ،
مقدمات الصلح في فيلا فرانكا (١١ يوليو) ، خطوات
إيطاليا إلى الوحدة ، ضم نيس وسافوي لفرنسا ، نابولي ،
غاريبالدي ، غزوه لصقلية (مايو ١٨٦٠) ، دخوله إلى
نابولي (٧ سبتمبر) ، مملكة إيطاليا .

٤٦٧

الفصل السابع عشر

تطور الامبراطورية الفرنسية

الصعوبات تواجه نابليون الثالث ، المعارضة ، مغامرة
المكسيك (١٨٦٢ - ١٨٦٧) ، الموقف البرلماني ، تيير
وأوليفيه ، مركز فرنسا العسكري ، الامبراطورية
السمحة ، مسألة روما .

الفصل الثامن عشر

٤٨١ ألمانيا حتى حرب الأسابيع السبعة (١٨٤٨ - ١٨٦٦)

النمسا : منحة أكتوبر (١٨٦٠) ، بروسيا : الزولفرين ،
الملك وليام الأول ، زون وبسمارك ، بسمارك في أول حياته
العملية ، مؤتمر فرانكفورت ، التمرد البولندي (١٨٦٣) ،
مسألة شلفيغ وهولشتاين ، النمسا وبروسيا تهاجمان
الدنمرك ، معاهدة فيينا (٣٠ أكتوبر ١٨٦٤) ، بسمارك
وإيطاليا (١٨٦٥) ، الاحتكاك بين النمسا وبروسيا ،
بسمارك ونابليون الثالث ، دييت فرانكفورت (يونيو
١٨٦٦) .

الصفحة

الفصل التاسع عشر

هزيمة النمسا واقترب الحرب مع فرنسا ٥١

مولتكه والجيش البروسي ، هزيمة النمساويين في سادوا (٣٠ يوليو ١٨٦٦) ، هزيمة الايطاليين في كستوزا (٢٤ يوليو) معاهدة براغ (٢٣ أغسطس ١٨٦٦) ، مطالب نابليون الثالث في الراين وبلجيكا ولوكسمبرج ، اتحاد دول ألمانيا الشمالية ، فرنسيس جوزيف والمجر ، التسوية (١٨٦٧) ، أسبانيا تحت حكم الملكتين ، ترشيح الأمير الهوهنزولرى للتاج الأسباني ، السياسة الفرنسية وبسمارك وبرقية ايمز .

الفصل العشرون

الحرب الفرنسية والألمانية وآثارها ٥٢٥

مولتكه ، نكبات الفرنسيين (أغسطس ١٨٧٠) ، سيدان (أول سبتمبر) ، انهيار الامبراطورية ، حصار باريس (٣٠ سبتمبر ١٨٧٠ - ٢٨ يناير ١٨٧١) ، سقوط باريس والهدنة (٢٨ يناير ١٨٧١) : روسيا والنصوص الخاصة بالبحر الأسود ، اعلان قيام الامبراطورية الألمانية (١٨ يناير ١٨٧١) ، الدستور الألماني الجديد (١٨٧٣) ، الجمعية الفرنسية بفرساي ، معاهدة فرנקفورت (١٠ مايو ١٨٧١) .

الصفحة

الفصل الحادى والعشرون

٥٤٥ قيام الجمهورية الفرنسية الثالثة

الكوميون ، ثير ، هزيمة أنصار الكوميون ، دفع
التعويضات لألمانيا ، الملكيون يسقطون تير ، الدستور
الفرنسى الجديد ، جريفى يخلف مكماهون ، مغامرة
الجنرال بولانجيه .

الخريطة

الخريطة	الصفحة
١ - مقاومة أوروبا للثورة الفرنسية ونابليون	٨٨ - ٨٩
٢ - أوروبا في عام ١٨١٠	١٩٨ - ١٩٩
٣ - أوروبا في عام ١٨١٥	٢٧٢ - ٢٧٣
٤ - أوروبا (١٨١٥ - ١٩١٢)	٢٩٦ - ٢٩٧
٥ - الاتحاد الألماني (١٨١٥ - ١٨٦٦)	٢٩٩
٦ - أوروبا عام ١٨٧١	٣٣٠ - ٣٣١
٧ - التوزيع العنصري في النمسا والمجر	٣٥٥
٨ - توحيد إيطاليا	٣٨٣
٩ - تشكيل ألمانيا الحديثة (١٨١٥ - ١٨٧١)	٥٠٣
١٠ - أوروبا عام ١٩٢٧	٥٤٤ - ٥٤٥

كلمة تـصـديـر للـطـبـعة السـادسـة

بقلم

مراجعة النص الانجليزية

ان هذه الطبعة تمثل محاولة فيها شىء من الجدة . فلقد أضفنا الى الكتاب حتى وصلنا به الى يونيو ١٩٥٠ جريا على سنة المؤلفين الأصليين اللذين حاولا دائما المضى بالكتاب قدر المستطاع حتى يلحق بالأحداث الجارية وقت ظهور طبعاته الجديدة . ولقد أتاحت المادة الجديدة التى ترتبت على هذا العمل الفرصة لا لتعزيز الاضافات التى أدخلت على الطبعة السابقة فحسب بل أيضا لإعادة النظر الى حد بعيد جدا فى الجزء الأخير من الكتاب . فان مرور الزمن وظهور وقائع جرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥ على الأخص قد استلزما تنقيح ذلك الجزء من الكتاب الذى يتناول الفترة التالية لعام ١٩١٩ تنقيحا كبيرا . على أننا قد حرصنا فى الوقت نفسه على الاحتفاظ بما أمكن بصياغة الكتاب الأولى صيانة لطابع الكتاب الأصيل .

لقد وافق المنية المؤرخين العظمين اللذين قاما بتأليف هذا الكتاب بعد ظهور طبعته الخامسة فى ١٩٣٩ . فقد توفى الأستاذ تمبرلى فى يوليو ١٩٣٩ أى قبل أن تؤدى الأحداث التى كانت محل اهتمامه البالغ، الى كارثة تلك السنة بأسابيع معدودة . أما الأستاذ جرانت الذى كان يكبره بسنوات فقد عاش حتى مايو ١٩٤٨ فشهد بالتالى انقضاء سنوات الحرب والمراحل الأولى للعصر الجديد الذى تلاها . وبذلك

تيسر لى ، وقد كنت على صلة وثيقة بكلا المؤلفين الأصليين فى ميدان العمل التاريخى ، أن أبحث مع الأستاذ جرائت ما أحدثته من تعديلات فى هذه الطبعة .

ان اجتماع هذين المؤلفين بخبرتهما الواسعة — على اختلافها — وتخصصهما المشترك فى التاريخ الأوروبى ، قد أكسب الكتاب خاصيتين يتميز بهما ، هما الفردية والأصالة الفكرية . ولقد كانا يرغبان فى أن تظهر للكتاب طبعات متتالية تحتفظ بقسط على الأقل من هاتين الخاصتين مع مراعاة اختلاف زاوية النظر بحلول عصر جديد .

وقد نوه المؤلفان فى الكلمة التى صدرت بها الطبعة الخامسة بخبرة الأستاذ تمبرلى الشخصية فى هيئة أركان حرب الامبراطورية البريطانية ابان الحرب العالمية الأولى ومفاوضات الصلح . وأشادا بمعاونة عدد من أصدقائهم الشخصيين وبعض هؤلاء غابوا عنا فلم يعد الرجوع اليهم مستطاعا . ووجهها الشكر على الإخص الى الفيلدمارشال لورد بيردود Field-Marshal Lord Birdwood لما أبداه من انتقادات على الفصل الذى يتناول حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ، والى المستر (اللورد فيما بعد) ج . م . كينز J. M. Keynes لمعوقته فى الكتابة عن القسم الخاص بالتعويضات والقسم الاقتصادى من معاهدة فرساي . كما نوها بمشورة السير أرنولد ولسون فى كل المسائل المتصلة بما كان يعتبر حينذاك التاريخ الحديث للشرق ، وبتعقيب المستر ل . س . امرى L. S. Amery على القسم الذى يتناول بناء الديمقراطية من جديد بعد الحرب العالمية الأولى ، وبمشورة الماجور جنرال ا . س . تمبرلى (شقيق أحد المؤلفين) فى تاريخ نزع السلاح والتطورات الأخيرة فى عصبة الأمم .

كما اعترف المؤلفان فى تلك الكلمة بدينهما للمستر ريموند

يوستجات Raymond Postgate لتولييه كتابة جزء من الفصل الذى يناول الماركسية وروسيا . ومازال هذا الدين قائما لأننا قد انتفعنا الى حد بعيد من الفصل الذى ساهم فى تحريره . الا أنه كان من الضروري إعادة النظر فى هذا الفصل وتوجيهه وجهة جديدة نوعا ما على ضوء الأحداث التى وقعت منذ اعداد الطبعة الخامسة .

وانى أود أن أزجى الشكر لا الى الذين قدموا العون للمؤلفين الأصليين وحدهم بل أيضا الى مس وينيفرد بامفورث Winifred Bamforth الحاصلة على درجة الماجستير فى الآداب ، لمعوتها العظيمة فى أعمال البحث التى تطلبها اصدار هذه المطبعة الجديدة . فلقد ساهمت بنصيب جوهري فى اعداد الكتاب للمطبعة وفى المراجعة الشاملة للإشارات والاقتباسات .

ليليان . م . بنسون

يوليو ١٩٥٠

مقدمة الطبعة السادسة المنقحة

ليس من المستطاع ضغط تاريخ القرن ونصف القرن الماضيين حتى حرب ١٩٣٩ وما بعدها ليحتويه مجلد واحد من ستمائة صفحة (١) . وليس بوسع هذا العدد المحدود من الصفحات أن يضم في أحسن الفروض أكثر من صورة تقريبية اجمالية أو بضعة انطباعات وخطوط عزيزة . الا أنه يمكن ، كما في الصور اليابانية ، احداث التأثير العام المطلوب باستخدام الخطوط الصحيحة . ولقد قدم المؤلفان الأصلان هذا الكتاب الى جمهور القراء على أنه تصوير للكيفية التي تتدخل بها - في حسابانها - وتتشابك ، الخيوط الرئيسية للفترة التي يتناولها حتى تؤلف نسيجاً منمقا كاملاً . ان الخطة التي وضعها للكتاب باقية كما هي دون تعديل جوهري وهي تسير وفقاً للأسس التالية :
يزيح الجزء الأول الستار عن انفجار عظيم هو انفجار الثورة الفرنسية مفصلاً لنا كيفية امتداده الى سائر أنحاء أوروبا وما أبقاه نابليون وما نبذه من ثمار هذه الحركة الروحية والقومية الكبرى . ثم يأتي الجزء الثاني فيرسم لنا كيف راحت الدول العظمى الأربع في أوروبا تتجاهد عبثاً بعد اسقاط نابليون لاقامة نظام للحكومة العالمية وكيف أصبح فشل تلك المحاولة مؤكداً بسبب كائنات الذي كان يفضل قيام حكومات قومية قوية ويصف النظام الجديد بأنه خطير وسابق لأوانه ،

(١) صدرت الطبعة السادسة في مجلد واحد يضم ستة أجزاء الا ان هذه الترجمة للكتاب تصدر في مجلدين يشمل أولهما ، وهو الذي تقدمه الآن لأول مرة الى القارئ العربي ، الأجزاء الثلاثة الأولى وبالفصل الحادى والعشرين وموضوعه انشاء الجمهورية الفرنسية الثالثة . أما الأجزاء الثلاثة الأخرى فيشمئها المجلد الثانى الذى يصدر قريباً باذن الله .

كما يرسم لنا ظهور الحكم الدستوري في فرنسا وأسبانيا واستقلال بلجيكا وصراع القومية الدفينة المكبوتة في بولندة وإيطاليا . ويبدأ الجزء الثالث بانتشار الثورة في وسط أوروبا وغربها في ١٨٤٨ ثم يسرد لنا قصة حرب القرم وما تمثله من خطأ مفجع وقصة الوحدة الإيطالية وانتصارات بروسيا المذهلة في الدبلوماسية وفي الحرب . ثم تنتهي الفترة التي يتناولها بيعث فرنسا .

ويبدأ الجزء الرابع بالحرب الروسية التركية وانطلاق العواطف العنيفة في البلقان إبان السنوات ١٨٧٦ - ١٨٨٦ . ثم يتناول الفصل الثالث والعشرون تطور الاستعمار ونمو الامبراطوريات فيما وراء البحار طوال القرن . وتلى ذلك قصة انشاء شبكتي الاحلاف الأوروبية الكبرى ، وكيف تجمعت الدول العظمى تدريجيا في معسكرين متخاصمين . ثم يبين لنا الفصل الخامس والعشرون كيف بدأت إنجلترا نفسها تتخلى عن عزلتها فدخلت في حلف مع اليابان وفي اتفاقين مع فرنسا وروسيا . ويتناول الفصل التالي أوروبا عشية الحرب فيحكي لنا قصة كل من أزمات الجزيرة الخضراء والبوسنة وأغادير ، وأخيرا يبين لنا كيف زادت حروب البلقان الاحتكاك بين الاتفاق الثلاثي والحلف الثلاثي وكيف انغمست دول أوروبا في النهاية وسط المشاكل المتزايدة في غمار الحرب .

وفي الفترة التي يتناولها الجزء الرابع ، وهي التي تمتد من ١٨٧٨ الى ١٩١٤ ، كما في الفترة التي يتناولها الجزء الخامس ، عولجت الموضوعات علاجا أوفى بعض الشيء وأضيفت الاشارات الى بعض الوثائق التي يمكن الرجوع اليها . وقد رؤى أن المرغوب فيه في مؤلف مثل هذا المؤلف الاشارة ما أمكن الى الكتاب الذي يكون أدنى الى متناول القاريء ، ولكن هذا لا يعنى أن المؤلفين لم يستعينا

في اعداداه بالمصادر غير المنشورة كذلك .

ويتناول الجزء الخامس حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ ومعاهدات الصلح وظهور القوميات الجديدة . وقد خرج المؤلفان في الفصل التاسع والعشرين وعنوانه « الحرب » على القاعدة التي اتبعها فقدا للقارىء خطة لمعركة حربية ، هي معركة المارن في سنة ١٩١٤ ، مصحوبة بدراسة خاصة لهذه المعركة . اذ أنه رأى أن أهمية تلك الأزمة تبرر هذا الاستثناء . فان دراسة خطط ألمانيا العسكرية التي فشلت في المارن ليست دراسة شيقة جدا من الوجهة العسكرية فحسب بل ان لها أيضا مضمونا سياسيا وأديبا بالغا . ومن المفيد بنفس الدرجة استعراض وجهة نظر فالكنهاين في الموقف العسكرى خلال عامى ١٩١٥ - ١٩١٦ وقراره أن يضرب أولا ضد روسيا ثم في فيردون ، ثم تتبع الوجهة التي وجه اليها الاستراتيجية الألمانية « هندنبرج » و « لودندورف » واستقصاء الأسباب التي حدثت بهما الى الاقتناع بشن حرب الغواصات بلا هوادة . ومن المهم كذلك تقدير السبب في فشل استراتيجية لودندورف ونجاح استراتيجية هايج وفوش في ١٩١٨ . فاذا انتقلنا الى الفصل الثلاثين رأينا أن الاستراتيجية قد أصبحت استراتيجية السلم لا الحرب . والواقع أن دراسة طباع ولسن ولويد جورج وكليمنصو المتباينة ليست أمرا شيقا في حد ذاته فحسب بل هي أيضا المفتاح الحقيقى لمغاليق معاهدة فرساي . فهذه الدراسة تساعدنا كثيرا على تفسير أهمية ميثاق عصبة الأمم ، ونشأة نظام الانتداب ، وصرامة الشروط المفروضة على ألمانيا .

أما الفصل الحادى والثلاثون فيعالج تكون الأمم في أوروبا الحديثة . ان موضوعه الأمم لا الرجال ، ان نشأة هذه الأمم وطباعها تسيطر اللثام عن التطورات الغريبة في شخصيتها القومية . وقد وجهت العناية فيه كذلك الى المشاكل التي أثارها الأقليات العنصرية والدينية المنفردة في

أنحاء الكثير من الدول الجديدة . كما يعرض نفس الفصل للحرب الأهلية الروسية . وينتقل الفصل الثانى والثلاثون بنا الى الشرق فيحاول أن يبين لنا كيف أثرت انتفاضة أوروبا فى آسيا : انه يحكى لنا كيف أصبح الأتراك شعبا جديدا وكيف بقى للأرمن وجود بعد الكوارث المروعة التى أنزلها بهم الأتراك ، وكيف شق العرب طريقهم من مكة الى دمشق وكيف بدأت بلاد الفرس والصين واليابان ترسم مصائرهما الغريبة .

أما الجزء السادس فقد روجع مراجعة كبيرة وأطيل ليتناول سيرة دول أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى وسنوات ما بين الحربين ثم الحرب العالمية الثانية وأعقابها .

وفى الفصل الثالث والثلاثين نجد بعض التكرار الضرورى للأحداث السالفة الذكر بقصد معالجة الحركات العامة لتلك الفترة . وقد اختص الفصل بعنايته بعدد قليل من بين الحركات العديدة التى كان يمكن تتبعها فتضمن دراسة لتطور الماركسية لأن هذه الدراسة تلقى ضوءا يساعدنا على اقتفاء تطور الاتحاد السوفيتى منذ الثورة حتى اندلاع الحرب فى ١٩٣٩ . ويلي تلك الدراسة وصف لطبيعة النظم الدكتاتورية فى إيطاليا وألمانيا والأحداث التى أدت الى نموها . كما يعالج الفصل نفسه الحكومات البرلمانية فى فرنسا وبريطانيا ويعرض لافتقار فرنسا الى الاستقرار السياسى ، ذلك الافتقار الذى يعد من العوامل المؤدية الى انهيارها فى ١٩٤٠ .

وببدأ الفصل الرابع والثلاثون بالمشاكل التى واجهت عصبة الأمم مسجلا المحاولات المتتالية التى بذلت لعلاج هذه المشاكل . وبعد فترة العشرينيات الحافلة بالاستبشار والأمل ، يأتى الاستعداد للحرب فى الثلاثينيات والتخلى عن مشروعات نزع السلاح وعن المثل العليا لعصبة

الأمم . فالأزمات الدولية تتعاقب واحدة بعد أخرى حتى تجد أوروبا نفسها قد اشتبكت في الحرب الكبرى الثانية في القرن العشرين ، وهي التي يتناولها الفصل الخامس والثلاثون .

ثم يعالج الفصل السادس والثلاثون أعقاب الحرب ويعرض لما تم من تسويات سياسية في أوروبا منذ ١٩٤٥ وللمبادئ الكامنة وراء معاملة الحلفاء للدول التي كانت معادية . أما البحث الخاص بالحركات الهادفة الى تحقيق التعاون والوحدة على الصعيد الأوروبي والدولي ، وهو الذي كان يشكل في الطبقات السابقة جزءا من الفصل الرابع والثلاثين ، فقد أفردت له الخاتمة بعد أن روجع مراجعة كبيرة وأضيف اليه بحيث يشمل هيئة الأمم المتحدة .

كما أضيفت الى الكتاب خرائط جديدة تمثل شمال أفريقيا والبحر الأبيض المتوسط عند اندلاع الحرب في ١٩٣٩ ، والمدى الذي بلغته الفتحاحات الألمانية حتى يناير ١٩٤٢ ، وأوروبا بعد انتهاء الحرب في ١٩٤٥ ، وتقسيم ألمانيا الى مناطق في ١٩٤٥ .

وقد وجهت عناية خاصة للتأكد من صحة التفاصيل ومراجعة التواريخ والبيانات ، غير أنه لا مفر مع ذلك من تسرب بعض الأخطاء .

المجلد الأول
الثورة الفرنسية ونابليون

الفصل الأول أورُوبَّا الحديثة

ان كلمة أوروبا ليست مجرد اصطلاح جغرافى ، فهى لا تدل على رفعة محددة من سطح الأرض فحسب وانما تشير كذلك الى لون معين من الحضارة . ففى مفاهيم الدول الأوروبية المتعلقة بالحياة الاجتماعية والحكم والدين والفن والعلم ، تشابهه معين يكمن وراء كل ما بينها من فروق - تشابه قد يصعب تعريفه ولكنه يبدو مؤكدا لاشك فيه اذا ما قورنت هذه المفاهيم بأفكار الحضارات القديمة فى آسيا أو بالأحوال فى أفريقيا أو العالم الجديد . وهذا الأساس من الأفكار والسنن المشتركة ليس نتيجة لوحدة الجنس ، فإن أجناس أوروبا عديدة وبعضها يعيد كل البعد عن البعض الآخر ، وانما هو نتيجة للتطور التاريخى للبلاد الأوروبية . فجميعها قد ورث علم الاغريق وفنهم وفلسفتهم وان تفاوتت الدرجة . وجانب كبير منها اندمج فى الامبراطورية الرومانية . وقد كان لقوانين روما ولغتها ونظمها أثر عظيم حتى فى البلاد التى ظلت خارج الامبراطورية . الا أن العصور الوسطى هى التى شاهدت أعظم التقدم نحو ما يمكن أن يسمى بالوحدة الأوروبية . اذ تابعت الكنيسة المسيحية - سواء فى صورتها الشرقية أم الغربية - مهمة روما وان يكن ذلك على صعيد مختلف تماما . وأصبحت الآراء المسيحية فى العقيدة والأخلاق والعبادة تلقى قبولاً عاماً فى جميع أنحاء أوروبا . وقد ظلت هناك حقا اختلافات كبيرة بين الشرق والغرب وبين الأمة والأخرى ، ولكن دعائم ثقافتهم المشترك قد أرسيت ولم تقو الثورات المقبلة على القضاء عليه قضاء تاما .

غير أن وجود هذا الأساس المشترك من الثقافة في أوروبا لم يساعد في شيء على اقرار السلام بين دولها وأجناسها المختلفة ، فان تاريخ أوروبا إنما هو سجل لحروب متصلة منذ القرن الثاني الميلادى فصاعدا . حقا ان تعاليم الكنيسة الرئيسية كانت تعترف بوحدة الانسانية وتشيد بفضائل السلام ولكن النظم المدنية التى تشجع هذه الأفكار تشجعا فعلا لم توجد ولم تكن هناك هيئة تستطيع أن تفرض تطبيقا . ومع ذلك فيجدر بنا أن نذكر هنا أيضا أن أقوى الجهود التى بذلت لتحقيق وحدة أوروبا ، كجزء من الوحدة الانسانية الكبرى ، قد بذلت في أثناء العصور الوسطى ، فالامبراطورية الرومانية المقدسة - التى لاقت مالاقت من سوء الفهم والنقد الجائر - إنما كانت تأكيداً للفكرة القائلة بوجوب اجتماع أوروبا في تنظيم سياسى واحد وخضوعها لسلطة عليا تسمو على الدول المختلفة وتستطيع أن تفصل بينها ، ولكن هذه الامبراطورية أخفقت اخفاقا مزميا في سعيها لبلوغ هذا المثل الاعلى ولكن مجرد احتفاظها به حيا كان شيئا يستحق الذكر في حد ذاته . كما أن تنظيم الكنيسة كان حتما دولى الهدف والطابع ، وكانت لنظم الاقطاع والفروسية والمنظمات النقابية والجامعات صفة دولية الى درجة لا مثيل لها في العالم الحديث قبل القرن التاسع عشر .

وقد اقترن زوال دنيا العصور الوسطى - كعلة ومعلول معا - بنمو الشعور القومى وتأكيد فكرة استقلال كل دولة . وهذا أوضح بين الامم التى سبق أن فصمت رباطها بروما ولكن الظاهرة شائعة في الواقع بالنسبة للجميع . فان استقلال اسبانيا وفرنسا عن السيطرة البابوية لم يكن يقل تقريبا عن استقلال انجلترا وألمانيا . كانت الأفكار الدولية التى سادت العصور الوسطى قد أخذت تتلاشى من مدة فاختلفت الآن من العالم تماما حتى كمجرد الهام نظرى . فنحن لانكاد

نعر - من نهاية القرن الخامس عشر الى نهاية القرن الثامن عشر - حتى على مجرد صدى لتلك الآراء التي كانت فيما مضى شائعة - أيا كانت غرابة الصورة التي اتخذتها - والقائلة بأن الأمم المسيحية تؤلف كلا واحدا وبأنها يجب أن تصطنع من النظم ما يؤكد هذه الوحدة ويصونها ، اللهم الا عند مفكرين فرادى من أمثال السير توماس مور ورابليه وسولى وليبنيتز وكنت وروسو .

كانت الدول الأوروبية على ذلك يواجه بعضها بعضا مواجهة الخصوم المدججين بالسلاح الذين لا يأمن الواحد منهم للآخر فهي لا تعترف بأية قاعدة للسلوك سوى مصلحتها الخاصة ، والمحالفات التي تدخلها وقتية تدفعها اليها عوامل الخوف أو الرغبة في الكسب . وقد أطلق على هذه العلاقات الوقتية غير المستقرة بين دول أوربا اسم التوازن الدولي Balance of Power

وقد مجّد البعض هذا « التوازن » باعتباره كفيلا بضمان السلم الأوروبي وحماية العالم من الاستبداد ، واستنكره البعض الآخر ووصفوه بأنه السبب في حروب أوربا . والحق أنه لم يكن هذا ولا ذاك ، وانما هو مجرد تسمية مناسبة للطريقة التي تتصرف بها الدول حيال بعضها البعض عندما يخلو الجو من نفوذ يحملها على الاتفاق أو قوة تكرهها عليه اكراها ، أو بلاط معين تكون هذه الدول جميعها على استعداد للاعتراف بسلطانه . وتطبيق هذا النظام - وان لم يكن في الحقيقة نظاما - يشاهد في أوضح صورهِ بين الدويلات اليونانية في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد . وهذا النظام نفسه هو السر في الأحوال السياسية الدائبة الثقلب بإيطاليا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، حتى اذا جاء القرن السادس عشر وجدناه ينتقل من إيطاليا الى مجال أرحب ، هو أوربا التي نظمت

على أساس الدول ذات السيادة (١) وان كنا نستطيع أن نشاهد عمل نفس القوة - قوة التوازن الدولي - في كثير من الأحيان أثناء العصور الوسطى نفسها ، فان أبرز سمات النظام الأوربي القائم على الدول ذات السيادة تحت تأثير فكرة التوازن الدولي ، هو تحالف الدول الأضعف - من وقت لآخر - ضد أية دولة تعقد لنفسها لواء الزعامة في أوروبا أو تطلب هذه الزعامة . وعلى هذا نرى في القرن السادس عشر مجموعة من الدول على رأسها إنجلترا وفرنسا تناهض قوة أسبانيا . وكما شهد القرن السابع عشر نهوض فرنسا الى مكان الصدارة في أوروبا نراه قد شهد أيضا اتحاد أعدائها ضدها ، الى أن شاهدت السنوات الأولى من القرن الثامن عشر اندحارها . وهناك أوجه من الشبه بين المثليين اللذين قدمناهما وبين الاتحاد بين القوى اثنتي تمكنت في القرن الثامن عشر من كسر شوكة السيادة البحرية بريطانيا - الى حين - وأدت الى استقلال الولايات المتحدة .

وتكاد السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر تخلو من أى أثر للأعمال أو الإيماني الدولية . ولكن عصر الجهود الدولية يبدأ من جديد بمجى الثورة الفرنسية (ولهذه الملاحظة أهميتها) ويستمر في أشكال مختلفة - بالرغم من الحروب التى يمتلىء بها سجل القرن التاسع عشر - حتى ينتهى الى تلك المحاولة الجريئة التى تتمثل في غصبة الأمم .

ونحن اذ نسرّد قصة بلاد أوروبا المختلفة في هذا الكتاب سنحاول تجنب أن يصرفنا الجزء عن متابعة الكل ، وسنعمل على أن نولى عناية خاصة لدراسة القوى التى أدت من وقت لآخر الى اقرار السلم أو اشعال الحرب .

وينجدر بنا أن نبدأ أولاً باستعراض أحوال الدول الأفريقية في أواخر القرن الثامن عشر ، ولن تكون بنا حاجة الى الافاضة في الحديث عن بريطانيا بالذات ، فيكفى أن نذكر أنها كانت لا تزال تعد من أعظم الدول بالرغم من المهانة التي حاقت بها نتيجة لفقدان مستعمراتها الأمريكية . فقد استعادت بحريتها قواها بعد خسوفها البوقى ، كما أن الثورة الصناعية التي بدلت حياتها قد جلبت لها ثراء عظيما ، ومكنتها من تحمل عبء صراعها الطويل مع فرنسا و نابليون . وكانت حكومتها رغم ما أطلق عليها من أسماء حكومة أوليجركية محدودة ، غير أنها كانت تحكم بالاشتراك مع برلمان كانت قوته تتزايد باطراد منذ نهاية العصور الوسطى . كما أنها أتاحت لصحافتها حرية أوسع مما تمتعت به أية صحافة أخرى في أوروبا ، وكانت عمودا على اتصال أوثق بقطاعات هامة كبيرة من الأمة من أية حكومة أخرى في القارة الأوروبية ، والتأييد الكبير الذى كانت تتمتع به هو الذى يفسر لنا سر صمودها في الوقت الذى أطاحت فيه عاصفة الثورة بجميع حكومات القارة تقريبا .

أما فرنسا فكانت قد فقدت مكائنها العسكرية عندما ألحق بها تحالف بريطانيا مع بروسيا هزيمة منكرة في حرب السنوات السبع . وكان الملك لويس الخامس عشر الذى توفى عام ١٧٧٤ نموذجاً كاملاً لانحطاط الملكية . فقد كانت الملكية الفرنسية مدينة يقوتها لزعامتها الايجابية للأمة في الحروب ، ولكنه كان غارقاً في مبادله عاطلاً عن أية حماية عسكرية أو حماسة دافقة ، فحاقت بالأمة في عهده هزائم كبرى لم تقو على علاجها من بعده ، وقد خلفه حفيده لويس السادس عشر عام ١٧٧٤ ، وحالف التوفيق رايات البلاد من جديد في خرب الاستقلال الأمريكى . ولكن خزينة فرنسا كانت خاوية الى حد مزيج ، وقد فتت المعارضة الارستقراطية في عضد نظامها الملكى وكذلك فعلت الطبقة

الوسطى المتزايدة القوة والسخط ، والآمال والعواطف الجديدة التى نشرتها كتابات كبار كتاب العصر فى شتى أنحاء البلاد . واذ هبت عاصفة الثورة أول ماهبت بفرنسا أصبح من المؤلف أن ينظر الناس الى دستورها وحياتها الاجتماعية على أنها مثل فريد فى نوعه تماما للجزور والعجز والأدواء الاجتماعية . بيد أن الكثير جدا مما كان بفرنسا حينذاك لم يكن الا نموذجا للأحوال السائدة فى شتى أرجاء أوروبا . فهاهى ذى ملكية قامت بأعمال عظيمة من أجل تأمين سلامة فرنسا ورخائها . ملكية أطاحت بشتى منافسيها على السلطة من الأرستقراطية الاقطاعية الى رجال القضاء والهيئات النيابية المركزية والاقليمية والبلدية جميعا ، وراحت تحكم بمقتضى « الحق الالهى » وحده ودون أن تعترف بأية تبعية لمجموع الأمة أو مشاركة له ، وتمسك بزمام الأمور وحدها عن طريق موظفيها الرسميين وبيروقراطيتها الخاصة . انها أوسع ملكيات أوروبا ثراء وأكثرها فخامة وأقواها نفوذا ولكن جيوشها قد استنفدت وقواها قد تبددت الى حد بعيد . ويرجع ذلك جزئيا الى أخطاء لويس الرابع عشر وهزائمه ، والى مبادئ لويس الخامس عشر وطيشه ، غير أن نظام الملكية الاستبدادية نفسه لم يعد متجاوبا مع آراء العصر وحاجاته . فقد كان للمثال الذى قدمته حكومة بريطانيا - بنجاح - تأثيره الضخم طوال القرن ، وسرعان ما سيأتى الوقت الذى يصبح لزاما فيه على جميع الحكومات أن تشرك الشعب معها على نحو أو آخر ، وعندما حلت عشية الثورة كان نظام الحكم القديم فى فرنسا قد فقد جميع أنصاره تقريبا . اذ كان هناك تطلع يكاد أن يكون عاما الى شىء جديد . وقد مست الروح الجديدة كافة الطبقات فى صور مختلفة بل ان الملك نفسه كان يعطف على الكثير من آراء العصر الانسانية . أما ماهية هذه الآراء الجديدة فهذا ما سنتناوله بالبحث بعد قليل . ومن الجلى أن انتصار

للملكية التام على كافة خصومها قد ساعد بذاته على اسقاطها وتحقيق الفوز الكامل للشورة . اذ أن سقوط الحكومة المركزية قد وضع حدا لكل مقاومة . فقد كان المدافعون عن النظام القديم - الذى يطلق عليه عادة اسم العهد البائد - معدودين ، ولم تكن لهم هيئات أو تنظيمات يستطيعون العمل بوساطتها ، فكأنما كانت تسيطر على فرنسا كلها قلعة واحدة ما ان سقطت حتى آذن ذلك بانتهاء كل مقاومة .

وللنظام الاجتماعى الذى كان قائما بفرنسا الكثير من الخصائص المشتركة مع العديد من دول أوروبا ، وله كذلك بعض الخصائص التى تنفرد بها فرنسا وحدها . فالسكان كانوا ينقسمون - شأن معظم سكان البلاد الأوروبية - الى طبقتى الممتازين وغير الممتازين . الطبقة الأولى تتألف من رجال الدين والنبلاء وذوى الصلة بالبلاط ، وتعيش فى عالمها الخاص الذى تغلق أبوابه دون سائر سكان فرنسا . حقا ان هذه الطبقة لم تكن تحكم فرنسا ، فقد وجدت الملكية فى النبلاء أخطر منافسيها فأبعدتهم عند انتصارها عن أهم المناصب الادارية . ولكن هؤلاء النبلاء كانوا يتمتعونهم ورجال الدين والبلاط بامتيازات اجتماعية هائلة . فقد كانوا معفين من ضرائب كثيرة يدفعها غير الممتازين ، وكانت الرتب العليا فى الجيش مقصورة عليهم ، ومنهم كان يتألف بلاط فرساي بكل ما عرف عنه من رونق وأبهة . وقد غقت آثار معظم هذه الأحوال فى القرن العشرين ولكنها كانت توجد فى ذلك الحين - مع بعض التعديلات - فى جهات شتى من أوروبا : فى أسبانيا وإيطاليا ومعظم الولايات الألمانية وبولندية وروسيا . فلم تكن أحوال الشعب الفرنسى الاجتماعية على هذا فريدة شاذة لا من حيث نوع المظالم ولا مداها . كان عبء الضرائب الأكبر يقع على كاهل سكان القرى والفلاحين ، فقد كان الفلاحون

هلاكا لأراضيهم الى حد كبير جدا ، فلتن كانت الثورة قد زادت من ملكية فلاحى فرنسا للأراضى فانها لم تكن بحال من الأحوال المصدر الأول الذى نشأت عنه هذه الملكية . وهذه الطبقة التى أصبحت منذ الثورة طبقة محافظة بل وأكثر طبقات فرنسا رضاء بحالها ، كانت قبل الثورة مفعبة بالمرارة والسخط . فالفلاحون كانوا يملكون أراضيهم حقاً ولكن كواهلهم كانت تنوء بعبء الضرائب الفادح . وقد كان العبء قادحاً لأن الطبقات الممتازة كانت تأبى حمل نصيبها العادل من هذه الضرائب . وقد كان على الفلاحين فضلاً عن ذلك أن يؤدوا كثيراً من الواجبات ذات الأصل الاقطاعى التى كانت تمثل فى وقت من الأوقات العلاقة القائمة بينهم وبين ساداتهم الاقطاعيين ، فأصبحت الآن يعد أن فقدت كل معناها الاجتماعى مجرد أعباء مثيرة للسخط . فالفلاحون وحدهم هم الذين كانوا يدفعون ضريبة عقارية على المساكن والأراضى هى ضريبة الـ *taille* ثم كان هناك احتكار الملح المعروف باسم *gabelle* أما من حيث الواجبات الاقطاعية فقد كانوا يدفعون حصة عينية من محصولاتهم فضلاً عن الرسوم المفروضة على عصر أعنابهم وطحن غلالهم الى غير ذلك من الأعباء . كان وضعهم كملاك أحرار لأراضٍ مثقلة بالضرائب والقروض التى لا معنى لها مثيراً للاستياء بوجه خاص ، وهو يفسر بسهولة الدور الذى لعبوه فى مشاهد الثورة الأولى . ولكن علينا أن نعقب مرة أخرى على هذا كله بالقول بأن وضعهم لم يكن فريداً فى نوعه بالمرة فقد كانت له نظائر فى معظم الدول الأوروبية . بل إن حالة الفلاحين فى بعض هذه الدول ولاسيما هولندية كانت أسوأ بمرحلة . وقد كان لسكان المدن الفرنسية شكاواهم الخاصة أيضاً : فقد كانوا يجدون فى نظام طوائف الحرف المتداعى الفاسد عائقاً فى سبيل تقدمهم . وكانوا اذ يشاهدون ما تحققه الطبقات التجارية فى انجلترا من تقدم سريع فى طريق الرخاء يحسبون

بغيره طبيعية ، فلما بدأت الثورة كان لهم النصيب الأكبر في توجيهها واستخدامها .

كان الخصم العنيد لفرنسا قبل ١٧٨٩ هو البيت النمساوى أو
بعبارة أدق مجموعة البلاد المتعددة الصفات والمنشأ التي كانت تخضع
لحكم بيت الهابسبورج العظيم مع تفاوت كبير في الطريقة التي تحكم
بها ودرجة السلطة التي يمارسها عليها هذا البيت . وكان الناس
يتحدثون في بعض الأحيان عن فرنسا والنمسا باعتبارهما قطبي
التوازن الدولي ، فان حروبهما وخصوماتهما تملآن جانبا ضخما من
تاريخ أوروبا ابتداء من سنة ١٥٠٠ ، ولقد وجدت فرنسا في النمسا
ألد خصومها منذ نشوب حروب الثورة حتى سقوط نابليون . ان
هذه الأراضي النمساوية تؤلف قائمة طويلة متنوعة وسكانها ينتمون
الى قوميات ولغات وأديان عديدة . وقد جمعت هذه الأراضي بعضها
الى بعض عوامل شتى من الارث الى الزيجات الديبلوماسية والحرب
بل والشراء . وفيما يلي بيان بتقسيماتها أو مجموعاتها الرئيسية :

(١) نواة سلطة آل هابسبورج ويوجد في الأراضي الألمانية المتاخمة
تقينا والواقعة جنوب غربى هذه المدينة ، ولم يكن ثمة فارق هام من
حيث اللغة أو الجنس بين هذه الأراضي وتلك التي يطلق عليها في
العادة اسم ألمانيا .

(٢) بوهيميا ومورافيا الكائنتان شمال العاصمة ويسكنهما أساسا
شعب تشيكي كان قد لعب دورا كبيرا في تاريخ أوروبا ولكنه منذ
نهاية حرب الثلاثين عاما في القرن السابع عشر يبدو قانعا بالخضوع
للهابسبورج الألمان .

(٣) مملكة هتغاريا المجرية العظيمة الممتدة الى الشرق حيث يتحكم
المجريون في أجناس عديدة من رومانين وكرواثين وصربين . وكانت

هذه الأجناس المنقسمة على نفسها دينيا تعيش في مجتمع ذى طابع
اقطاعى وتدين بالطاعة على مفض للملك الهابسبورج .

(٤) دوقية ميلان الغنية الآهلة بالسكان الى جنوب الألب حيث
كان ملوك الهابسبورج يحكمون جمهرة من الايطاليين الغرباء عنهم
جنسا وطبعا .

(٥) تلك الأراضى الوطيدة المتطرفة فى غرب أوروبا التى نطلق عليها
الآن اسم بلجيكا ، التى خضعت للنمسا بحكم مصادفة المولد أولا ثم
نتيجة للحرب . وسكانها — وبعضهم فلمنكيون والبعض الآخر
فرنسيون جنسا ولغة — يختلفون اختلافا بينا عن سكان بقية الممتلكات
النمساوية .

وكان حكم هذه الأراضى المتناثرة المتناينة مشكلة عويصة ، ومع
أن القرن الثامن عشر لم يكده يعرف ذلك الشعور الحديث بأن الأمة
والدولة يجب أن تكونا متطابقتين ، بقدر الامكان ، الا أن صعوبة
حكم هذه العناصر المختلفة كانت قد تجلت بالفعل . فرغب الامبراطور
جوزيف الثانى (١٧٩٠ — ١٧٩٥) — تمشيا مع اتجاه العصر — فى
ادخال شكل من أشكال الحكومة المركزية الموحدة فى ممتلكاته .
وحاول أن يجعل الألمانية لغة رسمية فى كل مكان ، وأن يضع جميع
أجزاء ممتلكاته تحت حكم موظفيه المباشر ، وأن يدخل التسامح
الدينى ويقيم المساواة بين جميع رعاياه تحت حكمه الشخصى .
وكانت المحاولة طيبة المقصد ولكنها تحطمت تماما على صخرة العزة
القومية والتعصب الدينى لشعوبه العديدة . ولم تبلغ الإصلاحات
التى اعتمها جوزيف الثانى من الثورية مثلما بلغت بالنسبة لبلجيكا
حيث أزمع التخلص — علاوة على ماسبق — من القيود التى فرضتها
غيرة بريطانيا وهولندا طوال ما يربو على قرن كامل على
الملاحة فى نهر شيلد التى نجم عنها القضاء على ازدهار ميناء أنتورب

العظيم ، ومع ذلك فإن مشروعات جوزيف الثانى لم تلق من المقاومة العنيدة مثلما لقيت فى بلجيكا . فقد هب هذا الشعب الذى تدين غالبية بالولاء للكنيسة الكاثوليكية يحتج احتجاجا عنيفا على مقترحات اغلاق الأديرة وانتزاع التعليم من سيطرة رجال الدين ، وانضم أنصار التحرر الى صفوف الثوار بدافع النفور من مشروعات الامبراطور الاستبدادية . وبلغ الأمر مبلغ الحرب الصريحة التى أخذت ظاهريا عام ١٧٨٨ فلم تلبث أن شبت من جديد عام ١٧٨٩ ولم تخمد هذه المرة . وعندما مات جوزيف الثانى عام ١٧٩٠ كان المطلب الذى ينادى به البلجيكيون عن طريق مندوبيهم ببروكسل هو اقامة جمهورية فيدرالية . وقد خلف جوزيف ، ليوبولد الثانى الذى كان يقف بحرصه وتمسكه بالنسق القديم للأمور على النقيض من طباع سلفه المندفع الميال الى التجديد ، فانتهج السياسة النمساوية التقليدية فى المحافظة على النظام عن طريق اثاره المصالح المتعارضة ضد بعضها البعض وأحرز فى ذلك نجاحا كبيرا . ومع ذلك يجدر بنا أن نذكر ، عند انتقالنا فى الفصل التالى الى الثورة الفرنسية العظمى ، أن هناك ثورة أخرى قد شبت قبلها فى الأراضى البلجيكية المجاورة وأنها - رغم اختلافها الكبير عما حدث فى فرنسا - كانت ثورة على أية حال أدت الى اضعاف سلطة النمسا وتشجيع الفرنسيين على الاعتقاد بأنهم سيجدون حلفاء لهم على حدودهم الشمالية .

لقد أطلقنا على جوزيف الثانى لقب الامبراطور . واستحقاقه لهذا اللقب يرجع الى أنه كان يرأس الامبراطورية الرومانية المقدسة . الا أن هذا اللقب القديم البراق لم يكن فى الواقع يتعدى الولايات الألمانية . ولعل من الأهمية أن نسجل هنا أن جوزيف بوصفه امبراطورا كان يتحمل ، ومن بعده خلفاؤه ، قدرا من المسؤولية عما يحدث فى ألمانيا . ولكننا نستطيع على أية حال أن نسقط هذه

الامبراطورية من حسابنا عند تناولنا العلاقات الدولية في القرن الثامن عشر رغم أن لقب امبراطورها كان يعتبر أسمى الألقاب في أوروبا ، ورغم أن سخرية فولتير الذائعة في وصفه لها بأنها « ليست امبراطورية ولا رومانية ولا مقدسة » تنطوى على تجن على عظمتها السالفة ومثلها الأولى . ونحن اذ نسقطها الآن من حسابنا انما نفعل ذلك لأنها لم تكن تملك أية سلطة ، فلم يكن بوسعها أن تجند جنديا أو تجمع فلسا واحدا في صورة ضريبة الا بموافقة الدول الألمانية المختلفة ، وإلى هذه الدول ينتقل بنا البحث .

لقد وصفت ألمانيا في القرن السابع عشر بأنها « فوضى شاءتها العناية الالهية » وكانت تشمل في ذلك الزمان مايزيد على ٣٠٠ دولة . وهذه الفوضى وان رجعت جزئيا الى أخطاء الدول الألمانية نفسها الا أنها كانت كذلك من تدبير وصنع السياسة الفرنسيين المتعاقبين . وقد بلغت الفوضى ذروتها في غرب ألمانيا . فلم تكن ثمة دولة قوية تسيطر على الراين أو تراقب مدخل ألمانيا من ناحية فرنسا . وقد وقعت الألزاس واللورين في يد الفرنسيين منذ أواخر القرن السابع عشر . فكنت لا تجد على الحدود الغربية الا أطلال ولايات كانت تبدو هامة في الماضي ولا سيما ورتمبرج وبادن . بيد أن أبرز مظاهر تلك الفوضى كانت تتجلى في الولايات الكنسية الواقعة على نهر الراين أو بالقرب منه حيث كان الأساقفة يحكمون حكما لا يتسم بالجور أو القسوة وانما يتسم بالافتقار التام الى الكفاية ، ويصرفون الأمور على نحو لا يهيء فرصة كبيرة لمقاومة أى غاز . فإذا اتجهنا الى الشرق وجدنا دولا أقوى وأحسن تنظيما مثل هانوفر عند مصب نهري ويزر والب التي كانت متصلة ببريطانيا بالنظر الى أن « ناخبها » كان في الوقت نفسه ملكا على بريطانيا ، وكذلك سكسونيا على مجرى الألب الأعلى ، وإلى الجنوب عند أعالي

لدانوب بإفاريا الشديدة التمسك بكاثوليكيتهما والتي تغار من جارتها الشمالية بروسيا . أما بروسيا فقد مرت بمحنة قاسية في محروبها مع نابليون فبدأ في وقت من الأوقات أنها قد تنهار . ولكن مصير ألمانيا يكاد يرتبط قبل ذلك بقرن كامل وبعد ذلك بأكثر من قرن بمصير بروسيا . ولم يكن لبروسيا أية مزايا جغرافية « فإن الطبيعة لم تكن قد تنبأت بظهور بروسيا » . كانت نهايتها تقع عند المجرى الأوسط لنهرى الألب والأودر ، وعاصمة هذه النواة برلين ، وكانت « مجسد برج » و « فرنكفورت » على نهر الأودر المركزين الأمامين ذوى الأهمية الكبرى على نهرى الألب والأودر . ولما كانت بروسيا محرومة من الحدود الطبيعية الصالحة للأغراض الدفاعية فقد تعين عليها أن تعتمد على القوة العسكرية للمحافظة على كيائها . وعلى هذا ظهرت فيها منذ القرن السابع عشر التقاليد العسكرية التى تتسم بالصرامة والكفاءة وهى التى تساعدنا على تفسير التقدم المطرد الذى حققته هذه الدولة . وقد كان لبروسيا حكام عظام قبل فردريك الأكبر (١٧٤٠ - ١٧٨٦) ولكنه هو الذى ارتفع بهلاده ، من دولة من الدرجة الثانية الى دولة من الدرجة الاولى . فقد استخدم بنموغ عظيم الجيش الممتاز الذى ورثه عن أبيه ، فحارب حربين طويلتين ضد حلف من الدول الأوروبية وققت فيه النمسا موقف العدو الدائم ، بينما حالفته فرنسا أولا ثم بريطانيا . لقد كسب بحد السيف وادى الأودر الأعلى الغنى بالخيرات الذى يسمى سيليزيا ، وبالدبلوماسية كسب في ١٧٧٢ الجزء الشمالى من بولنده وهو الذى يضل ما بين أراضى براندبرج الوسطى وبروسيا الشرقية ، كان هذا الضم الخطوة الأولى فى عمليات تقسيم بولنده التى ستوجه إليها عنايتنا فيما بعد . وهكذا صار لبروسيا بعد ١٧٧٢ كتلة ضخمة متناسكة من الأراضى فى أوروبا الشرقية ولكن هذه الكتلة ظلت منعزلة عن أراضيتها

الواقعة على نهر الراين أو بالقرب منه (مارك وكليميز ... الخ) . وفى الفترة التى يتناولها هذا الكتاب سنشاهد كيف تم الالتجاء للسيف البروسى لتحقيق الاتصال بين الجزأين . وقد كرس فردريك الجانب الأخير من حياته للإدارة السلمية النشطة فازداد رخاء البلاد ازديادا كبيرا وعلت مكائنها فوق مكانة أى بلد آخر فى أوروبا بحيث أصبح الحكام من أمثال جوزيف الثانى والكتاب من أمثال فولتير يعتبرون بروسيا نموذجا لما ينبغى أن تكون عليه الدولة . كان يبدو أن جيشها يملك سرا خفيا يكفل له النصر ، وقد حققت بروسيا هذه الانتصارات دون اشراك الشعب أو الاعتراف بالحاجة الى الحرية . وباستثناء نفر قليل من المراقبين أمثال ميرابو الذى سيكتسب شهرة كبيرة فيما بعد فى قصة الثورة الفرنسية لم يكن ثمة من يرى أن عظمة بروسيا انما تعتمد على المواهب الشخصية للملكها أو يتنبأ بظهور المتاعب عند زوال يده القوية وانطفاء عقله الجبار .

كانت الدول العظمى الرئيسية فى أوروبا هى بريطانيا وفرنسا وبروسيا والنمسا وقد تأثرت جميعها بنشوب الحرب مع فرنسا عام ١٧٩٢ تلك الحرب التى سنتجه اليها بأفكارنا بعد برهة . أما روسيا فننقل بعض الشئ فى أهميتها عن هذه الدول وان ازداد أثرها - المباشر وغير المباشر - باشتداد الصراع . فان سكانها الكثيرين الذين كان يعوزهم التنظيم لم يكونوا داخلين فى نطاق الحضارة الأوروبية الا بصعوبة . فالهوة بين روسيا وأوروبا الغربية من حيث الطباع والآراء كانت دائما واسعة ومازالت كذلك . ولكن روسيا كانت قد اعتنقت فى العصور الوسطى المسيحية فى صورتها الشرقية أو الأورثوذكسية فاستقرت تقاليدها وآراؤها فى أعماق الضمير القومى ، ثم جاء فى القرن السابع عشر ذلك العبقرى الفذ والشرير فى بعض الأحيان ، بطرس الأكبر ، فوسع حدودها حتى بحر البلطيق من

باحية وحتى البحر الأسود - الى حين - من الناحية الأخرى فهي لها بذلك أسباب الاتصال البحرى الذى يعد من وسائل نشر الحضارة لما فرض على أرسنقراطيتها طرفا من المظاهر الخارجية لحياة أوروبا الغربية بل وشيئا من لغتها وعلمها . انه ليتعذر على المرء فعلا أن يستبعد روسيا تماما من نطاق أوروبا فى وقت لعبت فيه دورا هاما متصلا فى العلاقات الدولية الأوروبية ، وفى تقدم أوروبا الفنى والفلسفى . وقد واصلت القيصرية كاترين الثانية الألمانية المولد التى جلست على العرش الروسى من ١٧٦٢ الى ١٧٩٦ ، الجهود التى بذلها بطرس الأكبر فى سبيل التوسع الاقليمى وصنع البلاد بالصيغة الأوروبية .

وثمة مسألة كانت تحظى بعنايتها الخاصة هى مسألة بولندية . كانت بولندية تحتل مساحة كبيرة على خريطة أوروبا فى مطلع القرن السادس عشر . وكانت قريبة الشبه بروسيا من حيث اللغة والجنس الا أننا نلاحظ أن بولندية تقدم لنا - فى الوقت الذى كانت تمضى فيه روسيا قدما نحو الوحدة السياسية والتوسع الاقليمى - صورة للتدهور السياسى والعسكرى لا يكاد يوجد لها نظير فى تاريخ أوروبا كله .

وليس بوسعنا هنا أن نتصدى لتشخيص «مرض بولندية» وحسبنا أن نقول اننا اذا ما نظرنا اليها قبيل نهاية القرن الثامن عشر رأينا دستورها يضمنى الصنفة القانونية على القوضى اذ يعطى لكل من النبلاء سلطة الاعتراض (الفيتو) على أى تشريع ، ووجدنا نظامها الاجتماعى يحتفظ من النظام الاقطاعى بأبشع مساوئه دون مسراته أى مزاياه التى عرفت عنه فى العصور الوسطى ويقضى بالأخص على سكانها الفلاحين بالعيش فى حال من الرق أسوأ من كل ما كان مشاهدا فى فرنسا ، ولمسنا فى سواد الشعب تدهورا خلقيا كبيرا دون أن نعرث لدى طبقات المجتمع العليا الا على النزر اليسير من الميول الذهنية

ولفكرية . ولم تكن لحدود بولندة تحصينات دفاعية طبيعية ولكن حكومتها لم تحذ حذو بروسيا التي عالجت هذا النقص بإنشاء جيش قوى ، فكانت النتيجة وقوع الاختيار عليها لتكون لقمة سائغة لاجاراتها . وقد حدث أول تقسيم لبولندة عام ١٧٧٢ فكان نموذجا صادقا لدبلوماسية ذلك العصر . وقصته أن خطر نشوب الحرب بين النمسا وروسيا في شبه جزيرة البلقان قد ظهر في الأفق ، فأسرع فردريك ملك بروسيا يتدخل في الأمر مقترحا اشباع شهية الدولتين بأراضي الدولة البولندية التي لم تقترب اثما أو جرما ، وأن يأخذ هو نفسه لبروسيا نصيبا متساويا مع الآخرين وفقا لما تمليه في مثل هذا الموقف فكرة التوازن الدولي . ولقد بقيت لبولندة حتى بعد اتمام هذا التقسيم أراض واسعة تجذب الأنظار . ولم تشبع شهية جاراتها بما التهمت فراحت تفكر في تقسيم جديد بل تقسيم نهائى أخير . فشرعت بولندة التي بدأ يساورها أخيرا الانزعاج الحقيقى تحاول جاهدة أن ترتب شئونها الداخلية تحت حكم آخر ملوكها ستانيسلاس بونيا توفسكى . وعندما نشبت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ كانت المسألة البولندية هم أهم المسائل في نظر بروسيا وروسيا والنمسا . فقد كانت هذه الدول حريصة على مغانمها تغار من بعضها البعض وأخشى ماتخشاه كل منها أن تفوقها الأخرى حيلة ومكرا . ولسوف نجد في التفاعل بين المشكلة البولندية والثورة الفرنسية مفتاحا يرشدنا الى الكثير مما قد يستغل علينا من دبلوماسية السنوات التالية .

أما الدول الأوروبية الصغرى فلا حاجة بنا الى أن نسهب في الحديث عنها رغم أنها قد ساهمت بالكثير في بناء حضارة أوروبا ورغم أن تيار الثورة الفرنسية وحروب نابليون قد جرفها جميعا ودون استثناء . كانت أسبانيا قد تنحت فيما يبدو عن حركة التقدم الأوروبي

نتى لعبت في وقت من الأوقات دورا كبيرا فيها ، ولكن شعبها لن يلبث أن يلعب مرة أخرى وقبل فوات زمن طويل دورا عظيما في قصة أوروبا . وقد كانت ملكيتها تعاني من الارهاق والعجز درجة تفوق كثيرا كل ماعرفته فرنسا . وكان بيتها المالك فرعا من أسرة البوربون التي تحكم في فرنسا وكان مصير البلاد قد ارتبط مؤخرا ارتباطا وثيقا بمصير فرنسا . أما إيطاليا فكانت مقسمة الى عدد من الدويلات المستقلة اسميا هي جمهوريتا البندقية وجنوا ، ودوقيات ميلانو وبارما ومودينا وتوسكانا ، والولايات البابوية الدينية ، ومملكة نابولي ، ولكن هذه الدول كانت خاضعة في الواقع لنفوذ البيت المالك النمساوي الذي كان يعد ميلانو ضمن أراضيه ويمارس نفوذا عظيما غير مباشر على بقية شبه الجزيرة الإيطالية . أما هولندا والدول الاسكندنافية فكان يسكنها قوم مسالمون يعيشون حياة تتسم بالرخاء والنشاط ويخلو تاريخهم من الأحداث البارزة في الفترة الأخيرة ، ولسوف نراهم يدفعون هم أيضا تدريجيا وبالرغم منهم الى حومة الصراع الأوروبي .

وهكذا تمثل أماننا دول أوروبا عشية الثورة الفرنسية دولا مستقلة متفرقة تسعى كل منها وراء مصلحتها الخاصة وحدها ولا يساورها أدنى شك في أن ثمة طريقا أخرى تستطيع أن تسلكه فهي تعقد المحادثات الوقتية وفق ما تمليه مصلحتها المباشرة وفكرة التوازن الدولي ، وتنبذ في حياتها العامة أية سيطرة للدين أو التزام نحو البشرية . الا أن أوروبا عرفت في الوقت ذاته تيارا فكريا قويا ومتزايد القوة ذا لون مغاير تماما . ولعل أبرز الظواهر الثورية في ذلك العصر هي ذلك التناقض بين تصرفات الساسة من ناحية وآراء خيرة رجال الفكر وأقواهم نفوذا من الناحية الأخرى . ويجدر بنا أن نعمل على ايضاح الخصائص العامة لهذا الفكر بايجاز شديد .

كانت فرنسا تحتل المكانة الأولى في عالم الفكر . والحركة الفكرية تعالج عادة كما لو كانت فرنسية صرفة ولكن الفرنسيين كانوا في الواقع مجرد قادة لحركة عامة بدأها منذ زمن رجال من أمثال بوك وليبنز ، فان هيبوم وجيبون وروبرتسون في إنجلترا ، وليسنج وكنت وجيتة وشيلر في ألمانيا ، وبنجامين فرانكلين في أمريكا انما هم جزء من نفس الحركة شأنهم في ذلك شأن فولتير ومونتسكيو وديدرو وروسو . فهل عسانا نستطيع أن نحدد الخصائص العامة لهذه الحركة الواسعة الانتشار الى هذا الحد ؟ انها أولا وقبل كل شيء عالمية في نظرتها وهي بذلك تقف في جلاء على النقيض من الطابع الغالب على سياسة العصر . فنحن الا نجد الأدب ينحى في أى من البلاد التى ذكرناها منحى وطنيا أو قوميا ، لقد اشتبكت فرنسا مع إنجلترا في حروب استغرقت معظم القرن الثامن عشر ولكن رغم هذا كان الاتصال الفكرى بين البلدين في ذلك الوقت أدوم وأقنع للجانبين منه في أى وقت آخر ، ولقد حرك فردريك ملك بروسيا أوتار الوطنية في النفس الألمانية فردد أدب ذلك العصر - ولا سيما أدب شيلر - بعض أصداء هذه الدعوة ولكن النظرة العامة لهؤلاء المؤلفين الألمان العظام الذين ذكرناهم تظل مع ذلك نظرة عريضة وانسانية قبل كل شئ . فان الخاصية العامة الثانية للفكر في ذلك العصر هي انسانيته . وهذا الاتجاه الانسانى لم يحدث أن اختفى تماما في أية فترة من فترات عصر المسيحية كله بل وقبل ذلك العصر ولكننا نراه في القرن الثامن عشر يحتل مكان الصدارة والأهمية . فالاهتمام الرئيسى الذى وجه الى الدين والى الحكومة والى التقاليد الاجتماعية هو افتقارها جميعا الى الانسانية ، ولهذا السبب قبل غيره كانت تدان . والخاصية الثالثة والأخيرة هي أن فكر ذلك العصر كان ينظر بعين النقد بل والعداء لدعاوى الكنائس والديانات القائمة . حقا ان بعض هؤلاء

الكتاب كانوا من ذوى الطبيعة الدينية ولكن أحدا منهم لا يندرج فى
عداد أنصار أية هيئة أو عقيدة كنسية معينة .

ويمكننا اختيار فولتير ومونتسكيو وروسو لنتحدث عنهم باعتبارهم
أثر هذه المجموعة من الكتاب نفوذا وأصدقهم تمثيلا لها . كان
فولتير بالذات أشهرهم وأكثرهم قراء . ان تفكيره لم يتسم بالعمق
قط وهو لم يصف أى جديد هام الى أى جانب من جوانب الفكر
الأوروبى ولكنه كان صاحب الأثر الأكبر فى ترويض أفكار كانت
معروفة فى أوربا من قبل . وكانت أمضى سهامه موجهة الى آراء
الكنيسة وأفعالها . وهو لم يكن من الوجهة السياسية نصيرا للتحرر
أو الديموقراطية بل كان يعتبر ملكية فردريك الأكبر المستبدة المخلصة
انخيرة شكل الحكومة الذى ينبغى أن يحتذى . وقد هاجم فى كتاباته
وأعماله التعصب الدينى فى عصره قبل أى شئ آخر . كانت أيام
محاكم التفتيش المهولة قد أصبحت حقا فى خبر كان ولكن
البروتستانت ظلوا يعانون فى فرنسا من مظالم قاسية تودى بهم أحيانا
الى الموت نفسه . ويمكننا أن نصف فولتير بأنه كان - فى احتجاجه
على هذا كله وفى عدة نواح أخرى - متحدثا بلسان الضمير الانسانى .
ونحن نلمس طوال القرن الثامن عشر والثورة الفرنسية آثار لودعيته
وسخرياته وأسلوبه الصافى ودعوته الانسانية .

وكان مونتسكيو باحثا متعمقا فى المسائل الدستورية ومحافظا
بطبعه . وكتابه « روح القوانين » انما هو بحث عام فى أشكال
الحكومة . وقد صار هذا الكتاب المعين الذى يتزود منه بالأفكار
أولئك الذين انصرفوا الى مهمة البناء السياسى لبلادهم وهى مهمة
ستصبح شائعة فى السنوات التالية . وقد تأثر به دستور الولايات
المتحدة الأمريكية الى حد بعيد . على أن الكتاب نفسه متأثر الى
حد بعيد بدوره بالدستور الانجليزى ، الأمر الذى يعترف به عن

طبيب خاطر مونتسكيو نفسه الذى كان معجبا بهذا الدستور الأخير
أيما إعجاب شأن الكثيرين من الفرنسيين فى زمنه . فمونتسكيو يشيد
بالحكومة المقيدة التى تخضع فى تصرفاتها لمجموعة من الضوابط
والمراجع ويعجب فى النظام الانجليزى بوجه خاص بما أسماه « فصل
السلطات » أى استقلال فروع الدولة الثلاثة - التشريعية والتنفيذية
والقضائية - عن بعضها البعض وان كنا نرى الآن بجلاء أنه قد
أخطأ فى ظنه أن السلطين التنفيذية والتشريعية فى إنجلترا منفصلتان
احدهما عن الاخرى .

أما روسو فهو بين كتاب عصره الذى أثار أشد المشاعر تباينا من
حب وبغض ولم تتفق الآراء بشأنه حتى يومنا هذا ، ان مزاجه
العاطفى التأملى لا يكاد يمت الى عصره ، ورغم أنه يمثل من عدة
أوجه احدى القوى الكبرى فى التيار الرئيسى لعصره الا أنه يبدو
من أوجه أخرى كما لو كان يلقي بنفسه عكس هذا التيار ويحاول أن
يسبح ضده . وأسلوبه المؤثر يفتقر الى الوضوح الذى تتسم به
كتابات فولتير . وقد كان شديد الميل الى الدين بطبعه ولكنه لم يكن
كاثوليكيا ولا مسيحيا . كان يحس بشرور عصره وآلام الناس ولكنه
لم يمنح رضاه لى من الحلول المقترحة . وكتاب « العقد الاجتماعى »
الذى نشر عام ١٧٦٢ يلخص آراءه فى الحكم ولكنه يفعل ذلك على
نحو جعل الناس يختلفون على حقيقة مراده حتى يومنا هذا . وهو
يبدأ باحتجاج صارخ على طغيان عصره « ولد الانسان حرا فما باله
مكبلا بالأغلال فى كل مكان » ، ثم يؤكد أن الدولة مدينة بوجودها
للشعب وأنها تمت اليه وحده دون سواه وأن من حقه دائما - وبالرغم
من جميع المعاهدات أو الدساتير - أن يعدل أو يلغى أشكالها . ومع
ذلك فهو لا يرى أن الديمقراطية ممكنة الا فى الدول الصغيرة الحجم
ويؤمن بأن اللجوء الى ديكتاتور قد يصبح لازما ، ويختم بتأكيد

ضرورة الدين في أى دولة داعيا الى فرض صورة مدنية بسيطة منه على الجميع ، بل ومعاقبة الخارجين عليه بالاعدام اذا اقتضى الامر . وقد امتد تأثير آراء روسو وعباراته الى أبعد من دائرة دارسى مؤلفاته بكثير . والثورة الفرنسية تحمل من أولها الى آخرها آثار تفكيره .

حقا انه مامن كتاب فرنسيين من كتاب ذلك العصر حظوا من الأجيال التالية بمثل هذا الاهتمام الذى ناله هؤلاء الثلاثة : فولتير ومونتسكيو وروسو ، ولكن ثمة جماعة أخرى كان لها تأثير عظيم بين معاصريها وكانت لها صلة هامة بأعمال الثورة ، وقد عرفت هذه الجماعة باسم الاقتصاديين أو الطبيعيين Physiocrats ، وقد تأثر هؤلاء الى حد بعيد بكتابات الاقتصادى الانجليزى آدم سميث . ومثلوا هذه الجماعة الرئيسيون فى فرنسا هم ميرابو أبو السياسى الذى ذاع صيته فى الثورة ، وسائى ، وقبل هؤلاء جميعا كوينزائى المفكر الحقيقى فى هذه الحركة الذى وصف بعضهم كتابه الغامض المعقد « الجدول الاقتصادى » « Tableau Economique » بأنه الدواء الناجع لمتاعب فرنسا . وكتاب هذه الجماعة لم يخفوا كثيرا بتأملات العصر النظرية المجردة ولم ينالوا استحسان فولتير ومونتسكيو . ويمكننا أن نستخلص من كتاباتهم الضخمة المبادئ التالية باعتبارها تعاليم أساسية : استخدام العمل فى الأرض هو مصدر كل ثروة . العمال هم فى الحقيقة أكثر الطبقات انتاجا بل وربما كانوا الطبقة المنتجة الوحيدة . تدخل الحكومة يجب أن يقل الى أدنى حد : الاصلاحان الاساسيان اللذان يلزم تنفيذهما فورا هما اطلاق الحرية الكاملة للتجارة وانشاء نظام عام للتعليم : جميع الضرائب يجب أن تلغى وتتركز فى ضريبة واحدة هى ضريبة الأرض . فيرابو يرى أن هذه المبادئ كفيلة « باصلاح كل مافسد واعادة عصر سليمان » وقد بذل

تيرجو الذى كان تلميذا حصيفا من تلامذة هذه المدرسة جهودا ضخمة لتطبيق تعاليم كوينزاي كمفتش فى الأقاليم (intendant) ثم كوزير للمالية ، وقد كان لهؤلاء الاقتصاديين أثر محسوس فى مجرى الثورة الفرنسية ولكن أهميتهم لا تقرب مطلقا من أهمية أتباع روسو وفولتير .

ولما حانت ساعة التغير العظيم يلورت الثورة أهدافها فى الشعار الثلاثى : الحرية والمساواة والاخاء . ومن العسير أن نجد تعريفا دقيقا للكلمات الثلاث عامة والكلمتين الأوليين خاصة ، وقد اتسعت معانيها مع سير الحركة ومازالت تتسع . الا أن الفرنسيين كانوا يقصدون بالحرية بادىء الامر تأمين الفرد ازاء تصرفات الدولة ، وبالمساواة ، المساواة فى الحقوق أمام القانون والغاء الامتيازات الخاصة . أما الاخاء فقد كان فى نظرهم هو الاخاء بين الافراد خاصة وقد تمثل فى عدة اجتماعات حماسية عقدت عشية ١٧٨٩ وتأخى فيها النبلاء والفلاحون . ذلك أن مفكرى العصر لم يعنوا كثيرا بالشئون الدولية ولا بالاخاء بين الدول ، ولكن ثمة مفكرين هما كنت وروسو لمسا خطورة المشكلة وتناولوها بالبحث . فقد كتب روسو فى ١٧٥٦ رسالة عن « السلام الدائم » بناها على مؤلف قديم لسان ييبير ولكنه ضمنها آراءه ومشروعاته الخاصة . وفى هذه الرسالة نراه يتطلع الى قيام تعاهد أوروبى يكفل الأمن من أهوال الحرب ويشيد ذلك السلام الذى يتحدث عنه بشعور نبيل . فهو يدعو الى قيام تحالف دائم لا رجعة فيه بين عواهل أوروبا ، وانشاء برلمان دائم يضم مفوضيهم ، والى ضمان الجميع لسلامة كل دولة من الاعتداء على حقوقها وأراضيها ، واعتبار أية دولة تقدم على مثل هذا الاعتداء خارجة على القانون فى أوروبا ومن ثم تتولى سحقها قوات أوروبا ، كما دعا الى عدم اكتفاء هذا البرلمان بالعمل على المحافظة على السلام بل عليه أن

يعمل كذلك من أجل الخير العام للجنس البشرى . وقد أعاد كنت فى عام ١٧٩٥ صياغة هذه المقترحات فلم يدخل عليها تعديلا جوهريا يذكر ، ولسوف تبين كيف تعين على هذه الدعوة أن تنتظر ما يربو على قرن ونصف قرن قبل أن تظهر أول محاولة لتحقيقها فى « عصابة الأمم » .

الفصل الثاني

الثورة الفرنسية قبل نشوب الحرب العامة

اعتلى العرش في سنة ١٧٧٤ لويس السادس عشر آخر ملوك فرنسا الذين حكموا في ظل العهد القديم ، وأعدم بالمقصلة قبل انصرام عشرين عاما على ذلك التاريخ . وان من الخطورة بمكان أن نسمح لهذه المأساة وكل ما ترمز اليه بالتأثير على حكمنا على السنوات الخمس عشرة الاولى من عهد هذا الملك . فلقد يخيل الينا أن فرنسا كانت تستأثر في تلك الفترة باهتمام أوروبا ، وأن الجو كان منذرا بالعاصفة المقبلة . ولكن الواقع أن الشخصية التي كانت تتعلق بها أنظار أوروبا قبل غيرها كانت شخصية فردريك البروسي ، فان حروبه كانت قد انتهت مخلفة له ولدولته صيتا ذائعا من حيث النظام والقدرة على احراز النصر . وكانت أطماع بروسيا العسكرية والاقليمية قد أشبعت في الفترة التي نتحدث عنها ، فقد خرجت بروسيا من تقسيم بولنדה الذي نفذ في ١٧٧٢ دون اللجوء الى السلاح بمغانم أكبر مما خرجت به من صراعها الطويل الحاد في حرب السنوات السبع . ولما ظهرت في ١٧٧٨ مشكلة عويصة اصطدمت فيها مصالح النمسا بمصالح بروسيا ، هي مشكلة ولاية الحكم في بافاريا ، سوى النزاع بطريق المفاوضة . وهكذا أمكن لفردريك أن يكرس جهوده للنهوض بالتجارة والصناعة في بلاده وانشاء النظام الاداري البروسي ، وهو نظام أوتوقراطي يتسم بالاستقامة الصارمة ويتصف بأعظم قدر من الكفاية يمكن أن يتصف به نظام لا يعترف بضرورة الحرية . وقد صادفت آمال العصر الجديدة قبولا طيبا في ألمانيا . كان فولتير مقيما منذ فترة بابلط الملك فردريك ، وكان كتاب فرنسا يستثيرون في جوثه وشيللر ومفكرى

ألمانيا الرغبة في المحاكاة تارة ، والمعارضة تارة أخرى . أما الملك البروسى فقد مضى فى سبيله صارما هازئا فى أسلوبه وحديثه وان أضمر الكثير من العطف على الآراء الجديدة .

وفى فرنسا كان اعتلاء لويس السادس عشر للعرش يبدو بشيرا . بعهد أفضل . فجميع طبقات فرنسا تقريبا تنفست الصعداء لانتهاه حكم لويس الخامس عشر الذى لم يكفر عن خلاعة بلاطه بتحقيق أية انتصارات خارجية . ومع أنه كانت لفرنسا فى الخارج مكانة هائلة بفضل كتابها ، إلا أن البلاط والحكومة لم يستفيدا من تلك المكانة لان الفكر الفرنسى كان مناوئا لنظام لويس الخامس عشر بقدر ما كان ميالا لحكم سلفه لويس الرابع عشر . وعلى هذا قبول مجيء الملك الجديد بالترحيب لانه كان يمثل تغييرا على أية حال ، بيد أنه كانت هناك أيضا أسباب كثيرة تؤهل لويس السادس عشر لأن يكون ملكا محبوبا . فقد كان هو نفسه متأثرا بآمال العصر الانسانية ومستعدا لتعديل النظام السائد . وما فتىء يعلن فى السنوات الأولى من حكمه والساعات الأخيرة من عمره أنه « أحب الشعب » ، ولا يرى التاريخ مبرا للطعن فى صدق دعواه . كانت زوجته ماري انطوانيت أميرة نمساوية وابنة لماريا تيريزا . وكانت امرأة ذكية طيبة القلب رائعة الحسن . وكان أصلها النمساوى وبالا عليها وعلى زوجها فقد جلب عليها كراهية البلاد عندما اشتبكت فرنسا من جديد فى صراع مع النمسا (فى أثناء الثورة كان الأهالى يرمزون اليها باسم « المرأة النمساوية على سبيل الازدراء) ، وقد حال ذلك الأصل بينها وبين فهم فرنسا أو العطف - كزوجها - على الآراء الجديدة ، بينما جعلتها ارادتها الأقوى . والإوضح بكثير من ارادته مستشارته النافذة الكلمة على خطورة آرائها ساعة الأزمة . ولكن هذه الاعتبارات تمت الى فترة متأخرة عما نحن الآن بصددده . وحسبنا أن نقول هنا انه قد

بدأت في فرنسا باغتيال لويس السادس عشر للعرش جهود متصلة صادقة بزعامة الملكية لتعديل طبيعة الحكومة وهدفها . وقد صادفت تلك الجهود بادىء الأمر تأييدا حماسيا من الطبقات الحاكمة والمثقفة .

وكان للاعتبارات الانسانية دخل كبير في هذه الجهود ، غير أن النظام القديم كان على أية حال في موقف لا يسمح لأحد بالدفاع عنه لسبب بسيط هو أنه كان عاجزا عن العيش بدون استبدانة . وكانت التجارة والصناعة في غاية التخلف بالقياس الى التقدم الملحوظ الذي أحرزته انجلترا . كانت أراضى فرنسا غنية منتجة ولكن نظام الامتيازات بـ الذي كان يعفى النبلاء ورجال الدين والمتسبين الى البلاط من جانب كبير . وان لم يكن من كل الضرائب التي يجب أن يتحملوها بـ جعل من المستحيل على الحكومة أن تستخدم هذه الثروة لمجابهة تبعاتها . ومن الجائز أن « الثورة » بـ أو أن ثورة بـ كانت ستدخل الى فرنسا من أى باب ولكن عجز الدولة المالى كان هو الباب الذى دخلت منه فعلا . ذلك أن الاجراءات التى اتخذت لمواجهة تكاليف حروب القرن الثامن عشر الكبرى كانت قد ألفت بالنظام المالى لفرنسا في حال من القوضى ميثوس منها . كانت الحاجة الرئيسية هى موازنة الدخل والمصروفات ولسوف يتبين أن ذلك أمر صعب المنال مالم تتغير نظم الحكم الفرنسية تغيرا كاملا .

وقد أعطى لويس السادس عشر أكبر مناصب وزارته الأولى لـ « موزييه » ولكن الاسم الذى سيحظى بالنصيب الأوفر من الاهتمام هو اسم « تيرجو » المراقب العام للمالية الذى كان من أتباع الاقتصاديين . وكان صيته قد ذاع من قبل بفضل شخصيته وكتاباته . وكان قد اكتسب خبرة قيمة كناظر لمقاطعة ليموزين . وقد بقى في منصبه الوزارى نحو عشرين شهرا لاغير ولم يكن لجهوده أثر دائم

كبير ، ولكن الناس ظلوا يرجعون بأبصارهم الى تلك الفترة القصيرة باعتبارها الفترة التى كان لا يزال فيها ثمة أمل فى أن تؤدى الاصلاحات المرسومة بحكمة والمنفذة بعزم وهمة الى تفادى وقوع كارثة «الثورة» . كان تيرجو راغبا فى ادخال الأمانة والكفاية الى دوائر الخدمة العامة - وتلك ثورة بحق - وعازما على الحد من سلطة الكنيسة الضخمة الى درجة خطيرة وعلى ايجاد نظام عادل للضرائب ، وتوفير حرية التجارة داخل وخارج حدود المملكة . ولم يكن يرى ضرورة لاشراك الشعب بدعوة أى مجلس للأمة وان كان بعض زملائه قد أشاروا عليه بذلك . وقد انكب على اعداد مشروعاته بغيرة وحماسة لأفكار العدالة والانسانية . ولكن مقترحاته أثارت انزعاج الطبقات التى اشتتمت فيها تهديدا لمصالحها ، فتآمرت عليه عصابة من أفراد البلاط ساهمت فيها مارى انطوانيت بدور ، ولم يكن للويس من قوة الشخصية مايسمح له بمساندة وزيره بعد أن فقد محبة البلاط ، فأعفاه من منصبه وعين (نيكرو) مراقبا للمالية بدلا منه .

كان نيكرو مصرفيا بروتستانيا ، فأثار تعيينه مراقبا للمالية بعض الصعوبات التى تم التغلب عليها بالرجوع الى حق الملك فى ممارسة اختصاصاته ، وقد سهل هو بدوره الأمر على الملك بتنازله عن المرتب المخصص للوظيفة . وقد ظل لفترة طويلة - حتى ١٧٩٠ - محبوبا أكثر من أية شخصية أخرى من الشخصيات العامة بفرنسا . ومن أسباب ذلك نكرانه لذاته وأمانته ، وصلته القوية بعالم الفكر . والاعتقاد السائد بأنه يمثل الأمانى العامة لعصره . وكان طويل الباع فى الشئون المالية ولكنه لم يكن سياسيا عظيما . وقد قبل النظام المالى والادارى فى فرنسا على غلاته آملا فى أن تسير شئون الحكم دون احداث تعديل جوهرى وذلك بالتوفير وعقد القروض التى يسرت له خبرته وسمعته المالية الحصول عليها بفائدة أقل من ذى قبل . ولم

ترك كل هذه الجهود أثرا دائما كبيرا في تاريخ فرنسا ، وهي تقع خارج نطاق هذا الكتاب . ذلك أن حادثا عظيما كان له تأثير قوى على مجريات الأمور في أوروبا وقع فيما وراء الأطلنطي في أثناء عهده . فقد أسفرت حالة التوتر التي كانت قائمة بين الحكومة البريطانية والمستعمرات الأمريكية عن نشوب تمرد صريح عام ١٧٧٥ . وكان العداء شديدا بين حكومتى فرنسا وبريطانيا خلال القرن الثامن عشر . وقد خسرت فرنسا في حروبها مع إنجلترا معظم مستعمراتها في أميركا والهند . فكانت فرنسا بسبب ذكرى تلك الهزائم مهياة لانتهاز فرصة الانتقام التي سنحت الآن بجلاء . وقد ترددت الحكومة بإدىء الأمر خوفا من التكاليف ومن قوة غريمتها البحرية ، ولكن الأعمال الفردية عوضت الى حد ما عن توانى الحكومة . اذ قاد لافاييت الشجاع الرومانيكى العامر القلب بالعطف النبيل على القضية الامريكية ، جماعة من المتطوعين . ولم ينس الأمريكيون قط تلك المغامرة الكريمة التي ماقتت ذكراها تجذب الولايات المتحدة الى صف فرنسا . وسرعان ما أرغم رأى العام الحكومة الفرنسية على مؤازرة مجهود لافاييت بمجهود الدولة . وللتطورات التالية أهميتها القصوى في تاريخ العالم وأثرها الهام في الثورة الفرنسية . فقد ساهمت معونة فرنسا بصورة حاسمة في فوز القضية الأمريكية . وانضمت أمم أوربية أخرى في الاعتراض على سيادة بريطانيا البحرية . وتحققت هزيمة الأسطول البريطانى على يد الفرنسيين بالقرب من الساحل الأمريكى وكان من نتائج تلك الهزيمة المباشرة سقوط يوركتاون ، وانشاء عالم جديد بمعنى الكلمة . وقد ترك الكثير مما حدث في هذا الصراع انطباعا عميقا في أذهان الفرنسيين . فقد تمكن جيش من المواطنين من ازال الهزيمة بجنود إنجلترا « المرتزة » وكان العمل يجرى لوضع دستور الولايات المتحدة وكانت الخطوة الأولى هى اصدار إعلان

الاستقلال الذي زدد آراء روسو ترديدا واضحا لا يكاد يخطئه أحد ومضى العمل في وضع الدستور متأثرا بكتاب (روح القوانين) لمونتسكيو (أما دين الدستور الأمريكى الاكبر للدستور الانجليزى فقد ترك بطبيعة الحال بعيدا عن الأضواء) فهامى ذى الحرية التى طالما كتبت عنها فرنسا وحلمت بها وتكلمت تنهض أخيرا ظافرة رائعة فيما وراء الاطلنطى ، فيعزز ذلك الايمان بأن أرض فرنسا يمكن أن تشهد حركات وانتصارات من نفس النوع .

على أن أثر الحرب الأمريكية الخطير المباشر انما كان على مالية فرنسا . فقد عجزت تدابير نيكر الاقتصادية الحريصة عن مواجهة نفقات الحرب ، فأصدر بيانه المعروف الذى شرح فيه الموقف المالى في فرنسا . ولقد أثبتت الشبهات حول دقة ما جاء في هذا البيان والدوافع الكامنة وراء نشره ولكنه كان أشبه ينداء للرأى العام تخطى حدود الاوساط الادارية العادية التى كان الاهتمام بالمسائل المالية مقصورا عليها حتى ذلك الحين . وقرأ الناس البيان وناقشوه فرأت طغمة الملك أن لهذه الخطوة خطورتها مما أدى الى طرد نيكر من منصبه (١٧٨١) . حتى عاد اليه مرة أخرى عندما أوشكت العاصفة أن تهب .

ولا تزال أماننا ثمانية أعوام قبل مجيء الثورة وليس في حالة فرنسا مانع بعينه يتحول دون تدارك الأمر واصلاح مالية الحكومة . فشروة البلاد لم تستنفد بحال ، وقد سبق أن ذكرنا أن لا محل للاعتقاد بأن فرنسا كانت تنفرد ببؤس سكانها وفاقتههم عن سائر البلاد الأوروبية . كانت الملكية كنظام لا تزال تلقى قبولا من الجميع تقريبا ، بل انها كانت تتمتع فعلا بحب جانب كبير من شعب فرنسا . وقد أظهر فردريك الأكبر ملك بروسيا ما يمكن أن يفعله ملك قدير باحزام في موقف أسوأ بكثير من ذلك الذى يتعرض له لويس السادس عشر : ولكن لويس

السادس عشر كان تقيضا على التمام لفردريك الأكبر . فقد كان وديعا ورعا طيبا تعوزه تماما حيوية فردريك الخارقة . وكان يعرقل سير دولاب الحكم في فرنسا تراث طويل من الاثرة والفساد ، فما أشد حاجة شاغل العرش الفرنسي الى تلك الارادة الحديدية التي تستطيع وحدها أن تسخر ذلك الدولاب من أجل غايات قومية ! ان الاتهام الذي طالما وجه الى لويس السادس عشر بأنه قاوم الثورة بأكثر مما ينبغي فتسبب بذلك في نهايته المفجعة ، انما يكاد يكون عكس الحقيقة تماما، ذلك أن آفة لويس كانت ضعف ارادته لا النقص في مرونته فقد سمح للثورة بأن تأتي مدفوعا الى ذلك بضعفه وعاطفته الانسانية الصادقة ، فلما أنت الثورة وجاء شكلها مغايرا تماما لما توقع تأمر عليها في خيانة وضعف . ومن ثم جاءه الخلع والسجن والاعدام على أعواد المقصلة .

تولى كالون وزارة المالية فيما بين ١٧٨٣ - ١٧٨٧ . وكان محبوبا في البلاط لا يحاول المساس بمبذله الباهظة التكاليف لايمانه أن انبلاط الباهظ النفقات ييسر الاستدانة ، وكانت حياته قائمة على الاستدانة بنوائد متزايدة الارتفاع . وقد تبين حتى لكالون أن الملكية لن تستطيع حل مشكلتها المالية دون اطلاق جانب من الأمة على حقيقة الموقف ، فرجع الى تقاليد الملكية في القرنين السادس عشر والسابع عشر ودعا مجلسا من «الأعيان» ، وهؤلاء رجال كان يستدعيهم الملك وقتما شاء لابتداء المشورة في أى موضوع يعن له أن يطرحه عليهم ، وهم لا يشكلون مجلسا دستوريا وليست لهم أية صفة نيابية . وينتسبون الى الطبقات المميزة ، وكان المأمول أن يقترحوا فرض الضرائب على طبقتهم ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل أشاروا بوجوب دعوة مجلس طبقات الأمة باعتباره وحده القادر على معالجة احتياجات فرنسا .

كان مجلس طبقات الأمة هيئة تمثل رجال الدين والنبلاء والعامّة في الدولة كلها ، مما يميزه عن مجالس المقاطعات التي تضم ممثلين لكل مقاطعة على حدة ، ولم يكن مجلس طبقات الأمة قد دعى للاجتماع منذ سنة ١٦١٤ ولذلك فإن أحدا لم يكن يعلم شيئا عن حقيقته اللهم الا المؤرخين هواة الآثار . والواقع أن هذا المجلس كثيرا ما تحدى سلطان الملكية ابان ضعفها الى أن أدى انتصارها على يد ريشيليو الى اختفائه من الوجود . وفي الوقت الذي نتحدث عنه كانت الحماسة كبيرة لفكرة اجراء انتخابات عامة وقيام التمثيل النيابي فكان من الطبيعي أن يتجه الفرنسيون بأذهانهم الى المؤسسة القومية الوحيدة في ماضيهم التي تجمع بين الشيتين . ومع ذلك فان مجلس طبقات الأمة لم يكن بالذي يصلح في شكله التقليدي لمواجهة الأزمة . فقد كانت طبقاته اثلاث : رجال الدين ، والنبلاء ، والعامّة ، تجتمع في ثلاث قاعات متفرقة . وبذلك يكون للطبقات صاحبة الامتيازات غرفتان بينما لا يملك العامة الا غرفة واحدة . بل الأهم من ذلك أن هذا المجلس لم تكن له أية سلطة فليس له الا أن يقدم المطالب والمقترحات . اذ أن حكومة فرنسا لم تكن قد سلمت له في أى وقت من الاوقات بأى نصيب في فرض الضرائب أو سن التشريعات . كان كل عضو يحمل معه من دائرته بيانا بالشكاوى (Cahiers des doléances) ، وكانت مهمة كل « طبقة » هي اعداد بيان عام برغباتها وتقديمه الى التاج بصورة منفصلة . فاذا تم ذلك انقض المجلس ولم يعد له عمل آخر . فما أضخم الفارق بين هذا المجلس والبرلمان البريطاني المعاصر ولا نقول المؤتمر الوطني الواسع السلطات الذي سيقدر له بعد آونة قصيرة أن يوجه مصائر الثورة الفرنسية !

سقط كالون عام ١٧٨٧ فخلفه الكاردينال « دى برين » الذي كان آخر اسم في قائمة طويلة من الساسة الكرادلة الذين استخدمتهم

الملكية الفرنسية القديمة ، فنادى بسياسة كان يمكن أن تؤدي الى النجاح لو انتهجت من قبل وتفتت بهمة وعزيمة . فقد اقترح اللجوء الى السلطة الملكية لفرض الضرائب على الطبقات صاحبة الامتيازات . ولم يكن في فرنسا فقيه دستوري يستطيع أن ينكر أن فرض الضرائب يدخل في حدود السلطنة الملكية . ومع هذا فقد فشل مشروعه ، اذ كانت هناك هيئة من رجال القانون تحمل اسما غريبا هو برلمان باريس . وكانت مهمتها هي تسجيل المراسيم الملكية ، وهذه لا تصبح نافذة الا بعد تسجيلها على هذا النحو . وقد رفض «البرلمان» تسجيل المراسيم الخاصة بالضرائب مطمئنا الى قوة التأييد العام له في موقفه ، فلجأ الملك الى كل الوسائل التي كانت لها قوتها في الماضي ولكن دون طائل ، اذ أن الرأي العام قد أصبح قوة سياسية حقيقية على نحو لم تشهده فرنسا من قبل ، فقد أثار فولتير ورفاقه في الشعب الفرنسي الشعور بقوته . ولو أن الجالس على العرش كان ملكا قويا مثل هنري النافاري أو لويس الحادي عشر أو لويس التاسع الأمكن للملكية أن تخرج من الأزمة وقد تبذلت وقويت في آن معا . ومع هذا فقد اتخذ لويس السادس عشر خطوة حكيمة في مواجهة الانفعال الشعبي والمعارضة الشعبية ، فطرد دي برين واستدعى نيكر من جديد وأعلن عن اعتزامه دعوة مجلس طبقات الأمة الى الانعقاد ، وقد وجهت الدعوة بادىء الأمر لاجتماع المجلس في ١٧٨٨ ، ولكن الاجتماع الفعلي لم يتم الا في مايو سنة ١٧٨٩ وذلك في فرساي على مسافة تقرب من اثني عشر ميلا من باريس .

ان افلاس البلاد قد اضطر الملك الى دعوة ممثلى شعبه لابتداء الرأى ، وليس في هذا الموقف بذاته ما يحتم وقوع كارثة أو يفتح بالضرورة صفحة جديدة في تاريخ العالم ، فلقد أظهرت انجلترا كيف يمكن للملكية وممثلى الشعب أن يعملوا معا لصالح البلاد . فماذا يمنع فرنسا من بلوغ نفس الهدف ؟

لم تشهد الثورة الفرنسية أوقاتاً عصيبة كنتلك الأسابيع الأولى لمجلس طبقات الأمة . لقد دارت مناقشات كثيرة حول تكوين المجلس وإجراءاته ، وبنتأثير نيكرو حصل العامة على نحو ستمائة مقعد بينما تقرر أن يكون لكل من رجال الدين والنبلاء ثلاثمائة نائب . ولكن بقيت مسألة عويصة من مسائل الاجراءات هي كيف يجلس الأعضاء الـ ١٢٠٠ ويتناقشون ويصوتون ؟ أيجلسون في قاعات ثلاث فيكون البت في المسائل بأغلبية القاعات أم يجلسون معا ويكون البت بأغلبية أصوات الأعضاء ؟ ان الطريقة الأولى كفيفة باعطاء أصحاب الامتيازات أغلبية قاعتين ضد قاعة واحدة ، بينما الطريقة الثانية تضمن الحصول على أغلبية ضخمة للإصلاح لان بعض النبلاء والكثيرين من رجال الدين كانوا يعطفون على العامة . ثم هناك مسألة أخرى : أيشكل هؤلاء كما في سالف الأزمان ، مجلسا لمجرد اسداء المشورة أم يشكلون جهازا حقيقيا من أجهزة الحكم ؟ وإذا قدر لهم أن يحكموا أيصبحون أداة في يد النبلاء أم الأمة بأسرها ؟ ولو أن الملك اتخذ قرارا في الأمر لكان من الجائز أن يقبل قراره في البداية ، ولكنه لم يكن قد استقر على رأى عندما اجتمع المندوبون بفرساي .

لقد عقد النصر الكامل للعامة فما ان حل أول يوليو سنة ١٧٨٩ حتى كانوا قد حققوه . ويمكننا أن نسجل في تلك الأسابيع السبعة ، المراحل الحاسمة التالية .

أولا رفض العامة التعاون مع الحكومة بأي شكل من الأشكال حتى تسلم لهم بمبدأ اجتماع الطبقات الثلاث في قاعة واحدة و « التصويت بالرأس » . وأهوا حتى اتخاذ الخطوات الأولية اللازمة لاثبات صحة انتخابهم قبل أن ينضم اليهم مندوبو الطبقتين الآخرين . واستمرت هذه المقاومة السلبية حتى ١٠ يونيو . وقد عانى الملك ومستشاروه من القلق البالغ في تلك الأسابيع ، فالبلاد كانت في

لمريقها الى هاوية سحيقة من القوضى ، والضرائب لم تكن تدفع ، وقد كان بوسع الملك أن يفض المجلس بتهمة التمرد والعناد ، ولكن الضائقة المالية ستظل على ما هي عليه من جسامه . وعلى هذا لم يفعل الملك شيئا . ووطد تواني الحكومة من ثقة العامة بأنفسهم ، وبدأوا يتعرفون على زعمائهم ويتفهمون سلطاتهم .

وفي ١٠ يونيو قدم الأب سبيز - وهو أحد نواب الطبقة الثالثة اشتهر بدراساته في الأشكال الدستورية - اقتراحا بتوجيه دعوة أخيرة لرجال الدين والنبلاء للانضمام الى العامة في قاعة واحدة ، على أن يعلن العامة تشكيل المجلس منهم وحدهم اذا مارفض رجال الدين والنبلاء الاستجابة لدعوتهم ، وأن يتصرفوا دون حساب لهم . كان العامة قد عقدوا العزم على ألا يرضخوا للطبقتين الآخرين ، فقد شعروا بأنهم من القوة بحيث يستطيعون السيطرة عليهما وقد صمموا على الحصول لأنفسهم أيا كان قرار رجال الدين والنبلاء على نصيب ضخم من حكم فرنسا ، واصطناع اسم من شأنه أن يعلن على الملأ السلطة التي يطلبونها لأنفسهم . وفي ١٤ يونيو بدأت مناقشة حول اختيار هذا الاسم فاقترح سبيز عليهم اسم « الجمعية الوطنية » ليكون في ذلك اعلانا لحقهم في التكلم باسم الأمة والتصرف نيابة عنها حتى وان لم ينالوا تأييد الطبقات الأخرى . وكان البعض ولا سيما ميرابو يؤثرون التسمي باسم ينطوى على تحد أقل ، ولكن الموافقة على اسم « الجمعية الوطنية » تمت في ١٧ يونيو بأغلبية ساحقة (٤٩١ مقابل ٩٠) . وهذا القرار يعد صورة مصغرة للشورة الفرنسية ، فهاهم العامة يزعمون لأنفسهم حق التصرف باسم الأمة رغم أنف الملك والطبقتين صاحبتى الامتيازات . فهل تراهم ينتقلون حقا من الأقوال الى الأفعال ؟ لقد تيقظ الملك وأعوانه أخيرا الى الخطر الذى يتهنددهم . واقتنع الملك بأن عليه ، كى يفرض على العامة

العدول عن سياستهم ، أن يلجأ الى اجراء كاد يطويه النسيان . ففى قديم الزمان كان يتعين على مجلس طبقات الأمة أن يطيع كلمة الملك ان هو توجه اليه بنفسه وعقد « جلسة ملكية » وعلى هذا قرر نويس أن يعقد الآن جلسة ملكية يعلن فيها مشيئته فتقبلها فرنسا كلها . ولكن الخطة فشلت فشلا ذريعا ، ذلك أن العامة لم يكونوا على استعداد للتسليم . فلما حالت الاستعدادات التى كانت تجرى للجلسة الملكية دون اجتماعهم فى غرفتهم التقوا فى ملعب مجاور للتنس ، وأقسموا على الاستمرار فى اجتماعاتهم رغم أية معارضة يلقونها من أى جهة كانت الى أن « يضعوا دستورا » (٢٠ يونيو) . وقد وجدوا تشجيعا من رجال الدين الذين كانوا متفاوتين فى أصلهم الاجتماعى منسقين على أنفسهم فى موقفهم من دعاوى العامة . لقد درج البعض على اعتبار الكنيسة ألد أعداء الثورة ، غير أن رجال الدين هربوا فى ١٩ يونيو بأغلبية صوت واحد الاتحاد مع العامة . وفى ٢٢ يونية - عشية الجلسة الملكية - انضم مايقرب من نصفهم فعلا الى العامة . وقد أعلن الملك فى الجلسة الملكية التى انعقدت فى ٢٣ يونيو عن اصلاحات هامة عديدة فى الشئون المالية والادارية ، وقبل اعتبار مجلس الطبقات جزءا دائما من النظام الأساسى للدولة ، ولكنه أصر على أن تجرى المناقشة والتصويت على طريقة « القاعات الثلاث » . وبهذا استسلم للطبقتين صاحبتى الامتيازات لا للأمة . وكان فى موقفه هذا تحد للعامة ، وقد عززه بتهديد يكاد أن يكون صريحا باستخدام القوة لسحق المعارضة . الا أن ماتلا ذلك كان بالغ الغرابة . فغندما قاوم العامة ورفضوا اخلاء غرفتهم لم يتبع الملك أقواله بالأفعال بل ناشد رجال الدين والنبلاء الخروج على أوامره السابقة والانضمام الى العامة ! وفى ٢ يوليو اجتمع جميع ممثلى الطبقات الثلاث الحاضرين (كان هناك عدد كبير من المتخلفين) فى

عرفة واحدة حيث يستطيع دعاة الإصلاح أن يطمئنا الى الحصول على أغلبية محسوسة . والسببان الرئيسيان لهذه النتيجة المفاجئة هما شجاعة زعماء العامة وحكمتهم من ناحية ، وحاجات العرش المالية من ناحية أخرى . بيد أنه كان لتضارب الرأى بين مستشارى الملك أثر هام كذلك . وكان بين هؤلاء من يؤمن بأن من الأوفق الرضوخ فى تلك اللحظة الى أن تسنح الفرصة فيما بعد لتسديد ضربة أقوى .

لقد أصبحت هناك الآن قوى ثلاث رئيسية فى فرنسا . فهناك أولا :نبلاط وعلى رأسه الملك الذى سلم للعامة ، وثمة عناصر فى هذه الجماعة أسفت لاضطرار الملك الى الاستسلام ، وراحت تتربق الفرصة لكسب الأرض المفقودة من جديد ، ولا نخسب أننا بجانب الصواب إذا عددنا من هذه الفئة الملكة ماري انطوانيت والكونت دارتوا شقيق الملك الأصغر . ثم كانت هناك « الجمعية » التى اتسمت بثلاثة أسماء مختلفة فى أوقات مختلفة . فقد كانت تدعى أولا مجلس طبقات الأمة ثم تحولت كما رأينا الى الجمعية الوطنية . وسرعان ما اعتبرت وضع الدستور مهمتها التى تفوق فى أهميتها جميع المهام الأخرى فأطلقت على نفسها اسم الجمعية التأسيسية . وقد استمر عدد كبير من رجال الدين والنبلاء فى حضور جلساتها ، الا أنها كانت واقعة تحت سيطرة العامة . وكان ممثلو العامة جميعا من أبناء الطبقات المتوسطة ، والكثيرون منهم من أبناء البورجوازية التجارية الميسورى الحال بل والأثرياء ، وكان رجال القانون ممثلين تمثيلا قويا ، ولم يكن هناك عمال أو ممثلون للطبقات العاملة بالذات . وقد صمم الأعضاء على وضع دستور سياسى وكانت لهم أفكارهم الواضحة الى حد يعيد عن سمات هذا الدستور العامة . ولكن اهتمامهم بالنسائل الاجتماعية كان أقل بكثير ، وقلما ساروا فى هذا الصدد الى أبعد من التعميمات الغامضة والعاطفية نوعا ما . هاتان

إذن هما القوتان الظاهرتان ، ولكن ثمة قوة ثالثة هامة وإن كان يصعب تعريفها : وهذه القوة كان يرمز إليها في بعض الأحيان باسم غامض هو « الشعب » أو « شعب باريس » وتسمى أحيانا أخرى « جيش الثورة » . فقد شل انتصار العامة أجهزة الحكومة الفرنسية ، فلم تعد الضرائب تدفع ، ووقعت في الريف عشرات الاغارات على مساكن السادة والنبل ، وساءت أحوال التجارة وتفشيت البطالة ، وأصبحت باريس تضم أعدادا ضخمة من العمال الذين يكادون يموتون جوعا ، وهم الذين حضروا إليها في بدء الثورة . وكان هؤلاء بؤساء ساخطين ، أثارتهم أفكار العصر وإن لم يدركوا كلها . وكان مطلبهم الأول هو الغذاء وتحسين أحوال معيشتهم بصفة عامة . وقد زودوا دعاة الثورة بسلاح قيم وخطير في آن واحد ، سلاح يصعب التحكم فيه ، ولكنه يستجيب بسرعة في بعض الأحيان لما يراد منه . والتحالف غير الرسمي بين الجمعية التي كانت في جوهرها مجلسا للطبقة الوسطى وبين تلك القوة هو الذي قاد الجمعية الى النصر .

وقد قرر الملك أن يضرب ضربته (ويستخدم هنا لفظ الملك كمرادف للفظ الحكومة ، فانه ليتعذر على المرء أن يجدد دور لويس السادس عشر الشخصى فيما حدث) . فصدرت الأوامر للتقويات بالتقدم نحو باريس ، واستمر زحفها بالرغم من احتجاج الجمعية الوطنية . وفي ١١ يوليو سنة ١٨٧٩ تأيدت المخاوف والهواجس بوصول الأنباء من باريس الى فرساي باعفاء نيكير معبود الشعب من منصبه . لقد صار من الجلى أن انقلابا ملكيا يوشك أن ينفذ ، ولم تكن باريس في مزاج يسمح لها بالانتظار حتى يقع . ولم تكن في باريس اذ ذاك حكومة بلدية بمعنى الكلمة ، ولكن « الناهيين » - أى أعضاء اللجنة الكبيرة التي كان لها الرأى الأخير في اختيار أعضاء مجلس طبقات الأمة - اجتمعوا وشرعوا يؤلفون حكومة . وقد

أنشأوا أيضا حرسا مدنيا سرعان ما كبر وتحول الى الحرس الوطنى
دى الأهمية البالغة . وكان هذا الحرس عبارة عن مجموعة من الرجال
هم وسط بين الجنود والشرطة ، سلحوا ودربوا للدفاع عن حقوق
شعب باريس وأملاكه . وقد اقتنح هؤلاء دار السلاح المعروفة
باسم « أوتيل دى انفاليد » واستولوا على كميات كبيرة من الأسلحة
لمخزونة هناك . وبذلك أصبحت باريس تملك بعض وسائل الدفاع
عن نفسها . وثمة قوات أخرى كان لها نفع حقيقى أكبر من الحرس
الوطنى هى قوات « الحرس الفرنسى » التى تتألف من جنود نظاميين
كانوا معسكرين بباريس وقد تشربوا روح الثورة فانضموا الآن
علانية الى أهالى باريس . وفى ١٤ يوليو هاجمت الباستيل قوات
باريس الصاخبة بزعامة كميل ديمولان - اذا صح القول بأن أحدا
قد تزعمها - وهو محام شاب وكاتب لامع وخطيب قوى التأثير رغم
ما يشوب نطقه من التلعثم . وكان هذا الحصن المنيع قد فقد كل
أهميته العسكرية ولم تترك به الا حامية صغيرة تقتصر الى المئونة .
ولكن اسم الباستيل بقى رمزا للبطغيان القديم ، ومن الجائز أن
يستخدم من جديده لاختضاع باريس ، ولا ريب فى أن شن هجوم ناجح
عليه سيكون نذيرا للملكية واظهارا لقوة المدينة فى آن واحد .

والواقع أن الهجوم لم يؤثر فى الحصن شيئا ، ولكن المحافظ
« دى لناى » De Launay استسلم عصر اليوم نفسه ، فقدانا منه
لرباطة جأشه أو يأسا من وصول الغوث . وقد حصل على وعد بتأمين
حياته ، ولكنه قتل فى الفوضى التى صاحبت الاستسلام . واندفع
الجيش الباريسى الى داخل الحصن العظيم وبدأ على التوفى هدمه .
لم يغير سقوط الباستيل الموقف العسكرى فى شيء ، فالقوات التى
تأتمر بأمر الملك كانت من الضخامة والولاء بما يكفى لسحق عصيان
باريس ، ولكن لويس استسلم مرة أخرى ويرجع استسلامه الى جنبه

من ناحية ، ولكنه يرجع من ناحية أخرى وبدرجة أكبر الى مشاعره الانسانية الصادقة . وقد حضر بنفسه الى باريس ليعن رسميا رضاه عما تم ، وشهد هناك صلاة الشكر التي أقيمت في تلك المناسبة بكتدرائية نوتردام .

كان سقوط الباستيل كما أسلفنا عديم الأهمية من الوجهة العسكرية ، ولكن عواقبه السياسية كانت هائلة . فقد أحرز العامة النصر على الملك للمرة الثانية . كان الملك محبوبا بادىء الأمر ولكن شعبيته أخذت تتدهور بسرعة لتحل محلها الشكوك والريب . وانصرفت الجمعية الوطنية الى وضع الدستور في طمأنينة أكثر من ذي قبل .

والأهم من هذا كله أن باريس بدأت تحس بوجودها وفازت بحكومة فعلية ، فقد شكلت حكومة بلدية كاملة ، واختير م . باي M. Bailly - وهو عالم فلكي مرموق اختطفته حماسة الساعة من نشاطه العلمى - أول عمدة للمدينة وسرعان ما تطور الحرس الوطني وكبر وأسندت قيادته الى المركز الشهير لافاييت ، فبدأت بحق سيطرة باريس على الثورة .

لقد مضت الجمعية التأسيسية - وهذا هو الاسم الذى يتعين علينا أن نطلقه عليها منذ الآن - فى عملها - واثقة من نفسها بعد أن لقيت تشجيعا من هذه الأحداث . وسوف نتناول بالبحث بعد هنيهة نتائج عملها هذا ، ولكن علينا أن نسجل أولا الأحداث الغربية التى اكملت بعد مضى ثلاثة شهور ، العمل الذى بدأ بسقوط الباستيل .

لم تكن السمات العامة للموقف قد تغيرت . فهذا بلاط رضىخ بعد تردد وراح يتحين الفرصة لاستعادة مركزه ، وتلك جمعية واثقة مفعمة بالأمل ولكنها ترتاب فى الملك وتناوىء البلاط ، وهذا جمهور

جائع متهيج يشكل أداة طيعة في أيدي المتآمرين . وانه ليتغذر على المرء أن يحدد الى أى مدى كان هناك اعداد منظم لانتقلا ب ملكى رجعى من ناحية وتآمر مدبر ضد الملكية من الناحية الأخرى .

ولأريب فى أن حالة باريس النفسىة كانت قد بلغت درجة من الخطورة لم تبلغها من قبل . لقد أخذت الصحف فى الظهور . وكانت الصحافة السىاسىة ظاهرة جديدة لم تعرفها فرنسا من قبل ، وأصبح لها نفوذ عظيم . وتألفت الأندىة لمناقشة المسائل المطروحة على الجمعية والتأثير فى الرأى العام ، ومنها أندىة معتدلة وأخرى محافظة ، بيد أن الأهمىة الأولى كانت للأندىة الثورىة مثل نادى الكوردليين ونادى اليعاقبة . وهذا النادى الأخير أصبح فيما بعد احدى القوى الهائلة التى أضفت على الثورة شكلها الذى عرفت به ، وقد نافس الجمعية فى النفوذ ، بل وعمد الى ارغامها على الخضوع لمشيئته بالقوة فى بعض الأحيان . ولقد أدى تفشى البطالة الى افتتاح مصانع عامة لتشغيل العاطلين وهو حل سريع براق ، الا أن نتيجته تأتي دائما مخيبة للآمال ، فقد أقبلت جموع العاطلين من شتى أنحاء فرنسا الى باريس ، وأصبحوا عبئا لا تطيقه مالية البلاد المهركة مما أدى فى النهاية الى اغلاق تلك المصانع فى أوائل أكتوبر ، والقاء آلاف العمال فى الطرقات ليتسولوا أو يموتوا جوعا .

وقد وقعت فى فرساي ، التى ظلت حتى ذلك الحين مقر الملك والبلاط ، أحداث أثارت حفيظة باريس . فقد استدعيت الى فرساي كنيىة جديدة — هى كنيىة الفلاندرز التى تتألف فى معظمها من جنود غير فرنسيين — وفى المأدبة التى أقيمت تكريما لضباطها عند وصولهم ، ألقىت الخطب الحماسىة المتطرفة فى تأييدها للملكىة ، فعززت الرأى القائل بأن البلاط يدبر ضربة لباريس ، وراحت الصحف العامة تطالب بانتقال الملك للاقامة فى باريس وكانت الرغبة فى ذلك قد أبدت

بصورة عامة قوية قبيل افتتاح مجلس طبقات الأمة ، فآن الأوان لوضعها موضع التنفيذ . وفي ٥ أكتوبر ١٧٨٩ أغريت جمهرة من الناس الذين احتشدوا أمام دار البلدية مطالبين بادىء الأمر «بالخبز» بالسير الى فرساي لعرض رغباتهم على الجمعية والملك فبلغوها عصرا . وقد توجه لافاييت للحاق بهم على رأس حرسه الوطنى . وانقضى اليوم فى التماسات ومظاهرات لم تكن فيما بدا عظيمة الأهمية . غير أن الجمهور لم يلبث أن نفذ بعد منتصف الليل الى داخل القصر ، فأوشكت حياة الملك والملكة أن تتعرض للخطر لولا وصول لافاييت الذى ضمن لهما سلامتهما الشخصية . ولكن لافاييت نفسه قد طلب حضور الملك للإقامة فى باريس . ومن ثم فقد رأى الملك - كعادته - أن الاستسلام هو أحكم السبل . فغادر عصر ٦ أكتوبر فرساي التى اقترن اسمها اقترانا وثيقا بمجداد الملكية الفرنسية ، قاصدا « التويلزى » الذى كان فيما مضى قصرا لملوك فرنسا فى العصور الوسطى ولكنه لم يعد الآن بالمكان المهيأ لاقامته . وسرعان ما تبعته الجمعية . وسوف نرى من الآن فصاعدا كيف طوقت باريس حكومة فرنسا وسيطرت عليها . ذلك أن الثورة أخذت تتركز فى باريس ، وتتطبع بطباع تلك المدينة العظيمة .

وتلك هى النتيجة الأولى لسقوط الباستيل والزحف على فرساي ، بيد أن هناك نتيجة أخرى لها أهميتها الكبرى هى بدء ما عرف باسم « الهجرة » . ولكى تفسر تلك الحركة ينبغى أن ندرك أنه وان كان الملك قد استسلم فإن الكثيرين من النبلاء كانوا ينظرون الى تنازلاته بعين الازدراء والكراهية والخوف ، فعز عليهم البقاء فى فرنسا الخاضعة لمبادئ ييمقثونها وآثروا الانسحاب الى ما وراء الحدود . فرحل نفر قليل منهم الى انجلترا بينما رحلت الأغلبية الى الولايات الألمانية الواقعة على نهر الراين ولاسيما ولايتى هينز وكوبلنز . وقد

بدأ هذه الحركة أميران من البيت المالِك هما شقيق الملك الكونت دارتوا والأمير دى كوندى . وحذا حذوهما عدد غفير من النبلاء . وراح هؤلاء يقلدون فى المدن الألمانية التى استقروا بها مظاهر الملك فى فرساي ويتحدثون عن هزيمة الثورة الوشيكة ، ويجمعون القوات استعدادا لليوم الموعود . وقد أعلنوا أن تنازلات الملك للثورة ليست ملزمة فى شىء لأنها تبت تحت الاكراه والضغط . والحق أن تأثيرهم كان ضارا من كل وجه ، فان خير ما كان يرجى لفرنسا هو أن تحدث بين الملك والثورة مصالحة حقيقية وأن يعامل كل منهما الآخر بثقة واحترام ، وذلك أمر جعلته الهجرة عسيرا ان لم يكن مستحيلا . « فالملكية لم تنكب بشىء » على حد قول أعظم مؤرخى عصر الثورة « مثلما نكبت بتلك الهجرة والا كان هناك ما هو أخطر أثرا منها فى مجرى الثورة » .

وقد استمرت عملية وضع الدستور وسط نواقيس الخطر هذه جميعا ، دون توقف . فأولا استقر رأى على وضع اعلان لحقوق الانسان يكون أساسا للدستور كله . وقد تمت الموافقة على هذا الاعلان فى أول أغسطس ١٧٨٩ وفيما يلى طائفة من أبرز فقراته : « ان ممثلى الشعب الفرنسى المجتمعين فى شكل جمعية وطنية اذ يؤمنون بأن تجاهل حقوق الانسان واغفالها وازدراءها إنما هى الأسباب الوحيدة للنكبات العامة وفساد الحكومات ، قد عقدوا العزم على أن يسجلوا فى اعلان جليل حقوق الانسان الطبيعية المقدسة التى لا يمكن التنازل عنها ، حتى يكون فى هذا الاعلان المائل على الدوام أمام جميع أعضاء الهيئة الاجتماعية تذكرة مستمرة لهم بحقوقهم وواجباتهم ، وحتى تكتسب تصرفات السلطتين التشريعية والتنفيذية التى يمكن على الدوام مضاهاتها بغايات كافة النظم السياسية المزيد من الاحترام لهذا السبب ، وحتى تتجه دائما مطالب

المواطنین القائمة من الآن فصاعدا على مبادئ بسيطة لا خلاف عليها ،
الى صيانة الدستور واسعاد الجميع .

ومن ثم فان الجمعية الوطنية تعترف وتعلن في حضرة الكائن الأعلى
وبرعايته الحقوق التالية للانسان والمواطن :

(١) يولد الناس أحرارا ومتساوين في الحقوق ويظلون كذلك .
والامتيازات الاجتماعية لا تقوم الا لمنفعة عامة .

(٢) هدف كل تشكيل سياسى هو المحافظة على حقوق الانسان
الطبيعية غير القابلة للبطلان ، وهذه الحقوق هي حق الحرية والملكية
والأمن ومقاومة الظلم .

(٣) الأمة مصدر السعادة الكاملة ولا يجوز لأية جماعة أو فرد
ممارسة السلطة مالم تكن مستمدة من الأمة .

(٤) الحرية تتمثل في السماح للفرد بأن يفعل كل مالا يضر الآخرين .

(٦) القانون هو تعبير عن الارادة العامة . ولجميع المواطنين حق
الاشتراك في وضعه . بأشخاصهم أو عن طريق ممثليهم ...

(١٠) لا يجوز أن يضار أى شخص بسبب آرائه ولو كانت آراء
دينية على شريطة ألا ينطوى الاعراب عنها على الاخلال بالنظام العام
الذى يقيمه القانون .

(١١) حرية تبادل الأفكار والآراء هي من أعلى حقوق الانسان ...

(١٧) لا يجوز حرمان أى فرد من الملكية التى هي حق مقدس

لايمس الا اذا اقتضت ذلك بجلاء ضرورة عامة نص عليها القانون ...

ان انتقاد هذه لوثيقة الشهيرة أمر ميسور ، فان حاجات فرنسا
العملية كانت يومذاك عاجلة ملحة ، وقد أهملت ابان المناقشات المطولة
حول « حقوق الانسان » . ثم اننا لم نعد نتحدث في القرن العشرين
عن « حقوق الانسان » ، فهذه العبارة وهذه الفكرة التى تنطوى
عليها ، انما تمتان بالأحرى الى فلسفة القرن الثامن عشر . كما أنه

قد تبين عند الدخول في تفاصيل الدستور ، ان بعض المبادئ التي أعلنت بهذه الطريقة المدوية لم تكن ملائمة بالمرّة . فالفقرة السادسة مثلا تتضمن مبدأ الاقتراع العام ، والجمعية لم تكن في طورها الأخير في موقف يسمح لها بتطبيق هذا المبدأ ، فأتاح هذا التفاوت بين المبادئ والتطبيق فرصة للهجوم أسرع الى اغتنامها الثوريون المتأخرون . الا أن اعلان حقوق الانسان يمثل على كل حال أصدق تمثيل الجانب النبيل من الثورة - ذلك الجانب الذي لولاه ما كانت ذلك الحدث العظيم في تاريخ أوروبا الذي كاتته . ولطالما أشار الباحثون في هذا الصدد الى الفارق بين الثورة الفرنسية والثورة الانجليزية . فبينما اكتفى البرلمان الانجليزي في اعلان الحقوق الذي أصدره بتبيان حقوق الانجليز التاريخية والقانونية حيال التاج ، بنت فرنسا اعلانها على مبادئ عالمية وجعلت من نفسها متحدثة فيه بلسان الجنس البشري كله . ليس من المستغرب إذن أن تعتبر الثورة الفرنسية نقطة بدء جديدة لآمال وجهود كافة الأجناس والأمم في حين لا تعد الثورة الانجليزية في نظر غير الانجليز الا تعديلا مؤقتا للدستور اقتضسته المصلحة . ولقد ظل « اعلان حقوق الانسان » طوال ربع قرن شعارا وميثاقا لجميع الثوريين ودعاة الاصلاح في أوروبا (١) .

(١) اوصفه لورد أكتون بأنه كان « أقوى من كل جيوش نابليون » . والنص الذي قدمناه منقول عن النص الوارد في مقدمة دستور ١٤ سبتمبر سنة ١٧٩١ « أنظر كتاب ل. ج. ويكهام ليچ: الوثائق المختارة الموضحة لتاريخ الثورة الفرنسية » المجلد الثاني الصفحات ٢١٦ - ٢١٨ (مطبعة كلارندون ١٩٠٥).

L. G. Wickham Legg : Select Documents Illustrative of the History of the French Revolution, vol II : pp. 216-218 (Clarendon Press, 1905).

وفي ٤ أغسطس ، وسط مظاهر الانفعال والحماسة البالغة ، أعلن إلغاء « الاقطاع » وسأهم أبناء الطبقات المميّزة أنفسهم في تحطيم الأساس القانوني لمركزهم . وكانت لحظة هذا الاعلان من لحظات الحماسة النبيلة حقاً ، على أنه كان من العسير على المرء أن يحدد بالضبط مضمون ذلك « الالغاء » بعد أن تم اقراره . لقد كانت دلالاته يومئذ أن يد الجمعية قد أصبحت مطلقة تماماً في العمل على إعادة تشييد البناء السياسى للبلاد وأن الميدان مفتوح أمامها لا تحده حدود .

وتعتبر مناقشات اعداد الدستور من أكثر المناقشات المعروفة في تاريخ أوروبا تشويقاً للنفس . فالأوان قد آن لترجمة فلسفة مونتسكيو وروسو السياسية الى نظم واقعية ، ولم يكن في ماضى فرنسا الكثير مما يساعد المشرعين في مهمتهم . وقد تأثر هؤلاء الى حد ما بدستور الولايات المتحدة ، ولكن النموذج الأول الذى نقلوا عنه — وان لم يعلنوا ذلك — هو الدستور الانجليزى . فان صوتاً واحداً لم يرتفع بالمناداة بالنظام الجمهورى ، ونظام الملكية المستبدّة الخيرة على النمط الروسى كان قد فقد سحره على النفوس ، فرأى الناس في انجلترا المثل الوحيد العظيم على التوفيق بين الملكية والنظم الشعبية .

وقد دارت مناقشات حامية الوطيس حول المركز الذى يمنح للملك . وفي النهاية أعلن لويس السادس عشر « ملكاً للفرنسيين بعون الله ومشيئة الأمم » وقد تأثرت الجمعية في تحديدها لسلطته تأثراً كبيراً بنظرية مونتسكيو في « فصل السلطات » أى بالفكرة القائلة بأن العناصر التنفيذية والتشريعية والقضائية في الدولة يجب أن تكون منفصلة بعضها عن بعض انفصالاً تاماً . فتقرر أن يرأس الملك السلطة التنفيذية وأن يعين كبار ضباط الجيش ووزراء الدولة . ولكن الجمعية أثبتت أن تنهج على المنوال الانجليزى حيث يشغل الوزراء مقاعد

في الجمعية التشريعية ويتوقف استمرارهم في مناصبهم على تأييدها ، وذلك تمشيا منها مع النظرية السالفة الذكر وخوفا من اساءة استغلال الملك لسلطته . وهكذا نشأت هوة واسعة بين ممثلي الشعب ووزراء الملك . فاذا اختلفت أهدافهما تعذر ايجاد التوافق والانسجام بينهما أللهم الا باقامة الدعوى ضد الوزراء أو اعلان الثورة . ولقد انبرى ميرابو - الذي يعد أكثر الزعماء الشعبيين ميلا الى البناء والمحافظة - يثير هذه النقطة . وعثا راح يطالب بتطبيق النظام الانجليزي . وباعت بالفشل أيضا محاولته اعطاء ملك فرنسا نفس الحق الذي يملكه التاج البريطاني في نقض (فيتو) أى تشريع . فلم يحصل الملك الا على حق النقض الموقوت لا النقض المطلق ، أى حق تأخير أى اجراء لمدة دورة واحدة . ويعتبر المركز الذى حصل عليه الملك في الدستور مركزا موفور العزة والنفوذ ينطوى على المزيد من السلطة الفعلية عما كانت تتمتع به الملكية البريطانية المعاصرة . ولكن لويس السادس عشر كان سليل أقوى ملوك أوروبا ، فبدا أن في اعطائه مثل هذا المركز اذلاله أى اذلال . ولما كانت الأمور لم تستقر في انجلترا بعد الثورة الا بتغيير الأسرة المالكة فقدّم كان هناك من يرى أن من الخير أن تحذو فرنسا حذو انجلترا في ذلك أيضا ، وأن ينقل التاج الى بيت أورليان الذى اعتنق مثله الدوق فيليب قضية الشعب بحماسة ظاهرة .

وتقرر أن يعهد بالسلطة التشريعية الى مجلس واحد مؤلف من ٧٤٥ عضوا ، وقد أثّرت فكرة تأليف مجلس ثان ولكنها هزمت عند التصويت بأغلبية ساحقة ، وقيل في هذا الصدد ان المجلس الثانى لن يكون الا ملاذا للأرستقراطية القديمة أو مهذا للأرستقراطية جديدة . وفرنسا لم تكن في مزاجها يومئذ براغبة في وجود ارستقراطية من أى نوع . وقد أوقفت ممارسة الحقوق السياسية - على النقيض تماما مما جاء في اعلان حقوق الانسان - على الذين يستوفون شرط الملكية ،

الأمر الذى يعنى استبعاد أغلبية أرباب الحرف فى المدن من دائرة الناخبين .

وأعيد تشكيل النظام القضائى الفرنسى فتقرر تعيين القضاة بطريق الانتخاب والغاء التعذيب واستحداث نظام المحلفين .

وقضى على نظام الحكم المحلى القديم قضاء مبرما . فتقرر الغاء مقاطعات فرنسا التاريخية القديمة مثل بريتانى ونورماندى وشامبانى وجبين وبورجاندى وبروفانس .. الخ وكلها أسماء لها فى تاريخ فرنسا مكانة تسمى حتى على مكانة يوركشير ولا نكشير وكنت وكورنوال فى التاريخ الانجليزى . وقسمت فرنسا الى ثلاث وثمانين مديرية أطلقت عليها أسماء تتناسب مع المظاهر الطبيعية التى تميزها ولا تتصل بأى تراث أو تستثير فى نفوس الأهالى أية عاطفة اقليمية ، الأمر الذى يبدو فى نظر معظم الإنجليز مؤسفاً وان كان متعمداً مقصوداً من جانب الفرنسيين . ذلك أن التقاليد المحلية البديعة كانت جزءاً من الماضى الذى صممت الثورة على هدمه . كما أنها كانت تقف كذلك فى طريق الوحدة القومية التى صممت الثورة على تحقيقها والتى أبرزت فيما بعد فى شعار « جمهورية واحدة لا تتجزأ » .

وننتقل أخيراً الى السياسة التى اتبعتها الجمعية التأسيسية فيما يتعلق بالدين . كانت هذه المسألة تثير عواطف عنيفة ، فإن الحركة الفكرية فى ذلك القرن كانت تتجه دائماً الى مناهضة سلطة الكنيسة فى فرنسا ودعائها . كما عادت الى الظهور بمجىء الثورة طائفتان دينيتان كان الاضطهاد قد أرغمهما على الاختفاء عن الأبصار . فكان فى الجمعية الكثيرون من البروتستانت وهؤلاء لم ينسوا القسوة والمظالم التى تترتب على الغاء مرسوم « نانت » كما كان لليانسينيين Jansenists - الذين سسموا أيضاً بالنظاميين أو المنهجيين Methodists فى الكنيسة الفرنسية - تمثيل قوى كذلك .

وكان هؤلاء حريصين على تسوية حسابهم القديم مع الكنيسة والملكية التى قمعتهم بكل قسوة وحماقة . ثم ان ارتباط الكنيسة الوثيق بالنتاج منذ بداية القرن السادس عشر قد أصبح الآن مصدر خطر عليها اذ أنه لم يعد الآن من المستطاع وقد انتهى عهد الملكية المطلقة أن تترك الكنيسة التى كانت سند هذه الملكية الأول دون تغيير . وتناولت الخطوات الأولى أملاك الكنيسة . فتقرر الغاء العشور باعتبارها مظهرا من مظاهر الاقطاع . ثم بدا أن فى موارد الكنيسة الهائلة مخرجا من الافلاس الذى يهدد الدولة . فتقرر بناء على اقتراح من تاليران أسقف أوتن الذى يبدأ الآن حياته السياسية المدهشة ، أن تتسلم الدولة ثروة الكنيسة وتتولى بنفسها الانفاق على الخدمات الكنسية ودفع رواتب رجال الدين . وهكذا نزعت الدولة من الكنيسة أملاكها وأسبغت عليها صفة الرسمية فى قرار واحد . ثم خطت الجمعية الخطوة الأولى فى ذلك المنزلق الخطير الذى سيودى بفرنسا الى الافلاس مرة أخرى ، وذلك باصدارها أوراقا نقدية أو صكوكا سميت (Assignats) بضمان هذه الاملاك الجديدة . وقد ارتفعت بعض الأصوات بالاعتراض على هذا كله ، وان لم يظهر خطر وقوع انشقاق دينى . ثم انتقلت الجمعية الى اعادة تنظيم الكنيسة اداريا بعد أن أصبحت تنفق عليها الدولة كما أسلفنا . فتقرر الغاء الأسقفيات القديمة وانشاء أسقفيات جديدة تتمشى مع التقسيم الادارى الجديد . وأعيد تقدير رواتب رجال الدين فأُنقصت رواتب الأساقفة بنسبة كبيرة فى حين رفعت رواتب صغار القساوسة بعض الشيء . والأسوأ من هذا كله أنه تقرر أن يكون تعيين الأساقفة والقساوسة عن طريق الانتخاب العام الذى يشترك فيه جميع المواطنين بغض النظر عن عقائدهم الدينية . وقد دافع البعض عن هذه الطريقة باعتبارها عودة الى تقاليد السلف ، ولكن البابا استنكر التدابير

الجديدة عندما عرضت عليه وهدد جميع المشاركين فيها بالحرمان الدينى . فلم تتراجع الجمعية ازاء الصراع المنتظر ، بل ردت على استنكار البابا بأن فرضت على جميع رجال الدين أن يقسموا يمين الطاعة « للملك والقانون والأمة » وكلمة القانون تشمل بالطبع هذه التدابير الجديدة التى عرفت باسم « الدستور المدنى لرجال الدين » . وقد انقسمت الكنيسة الى طائفتين ، الذين رفضوا والذين قبلوا اليمين الجديدة أو المخالفين والدستوريين . وقد أبدت الدولة كرما بادىء الأمر نحو القساوسة الذين شعروا بأنهم لا يستطيعون أداء هذا القسم فمنحتهم معاشات خاصة .

ويجدر بنا أن نخص بالذكر عاقبتين كبيرتين من العواقب السيئة لهذه التشريعات الكنسية . فقد تسببت أولا فى انقسام الشعب الفرنسى على نفسه فى مشاعره نحو الثورة كما لم ينقسم من قبل : وأعلن النبلاء « المهاجرون » الحرب عليها فعلا ، بيد أن معارضة هؤلاء لم تكن لتؤدى الا الى زيادة تماسك الشعب ككل . الا أن بذور الفرقة كانت قد بذرت فى شتى أرجاء البلاد ، ولن تلبث أن تؤدى فعلا الى نشوب حرب أهلية قبل مضى زمن طويل . ثم ان الملك الذى كان قد قبل الثورة فى شئ من التردد — ولكنه قبلها على أية حال — وجد نفسه الآن يقف منها موقف المعارضة الواضحة الصريحة . فقد كان شديد التدين بطبعه ولقد وقع على تشريعات الكنيسة هذه خوفا من عاصفة الاحتجاج التى كان من المحتم أن يثيرها اعتراضه ، ولكن استنكار البابا أشعره بقلق بالغ ، فكتب يقول « انى أسأل الله أن يقبل توبتى العميقة لأنى وضعت اسمى وان يكن على غير ارادتى على تصرفات تتعارض مع نظام الكنيسة الكاثوليكية وعقيدتها » .

وكانت التشريعات الكنسية من بين الأسباب الرئيسية التى دفعت الملك الى الهروب من باريس ، ذلك الهروب الذى جاء وبالا عليه .

فقد حاول يوم عيد الفصح عام ١٧٩١ التوجه الى قصر سان كلو (على مسافة سبعة أميال من باريس) كيلا يضطر الى تلقي المناولة من يد قسيس « دستورى » ، فاعترض سبيله جمهرة من أبناء الشعب الذين ساورتهم الشكوك فى نواياه ورفض هؤلاء التراجع أو الاستجابة لنداءات لافاييت نفسه . وقد صار جليا بعد تلك الحادثة أن الملك أصبح حبيس قصر التويليرى . وأخذت لهجة الصحافة تشتد فى اظهار العداء نحوه والتشكك فى نواياه . وكان ادعاء النبلاء المهاجرين بأنهم سرعان ماسيخفون لنجدته وتخليصه من أسرهم ، مضدر خطر جدى عليه ومبعث انزعاج شديد له . وكانت فكرة الهروب من باريس وتعديل الدستور قد تسلطت على ذهنه منذ زمن . وقد ألح عليه المركز ميرابو قبل وفاته فى ابريل ١٧٩١ أن يتوجه علانية وفى اقدام الى « روان » ثم يستدعى الجمعية الى جانبه ويدخل بعض التعديلات على الدستور ، على أن يفعل ذلك كله بطريقة لا تتيح مجالا للشك فى ولائه لمبادئ الثورة الأساسية . ولكن ميرابو لم يكن يحظى من الملك أو الملكة على السواء بأى ثقة حقيقية . فقد كانا يميلان الى اعتباره ديماجوجيا انحاز الى جانب الملكية لتحقيق مآرب شخصية . وقد قضى موته على كل احتمال لتنفيذ خطته . غير أن الملك أصبح الآن مصمما أكثر من أى وقت مضى على الهروب من سجنه فى باريس . وكانت خطته تقضى بأن يتصل بالجنرال بوييه الذى يرأس الجيوش الفرنسية على الحدود الشمالية الشرقية ثم يملأ - بتعصيب هذه الجيوش - التعديلات التى يرغبها فى الدستور ولا سيما إلغاء قوانين الكنيسة ومنح النبلاء سلطة أكبر ، وتقضى أيضا بأن يناشد دول أوروبا العظمى العون والتأييد اذا لزم الأمر .

ولم تكن هذه الخطة مسرفة فى الخيال بالمرة بل انها كادت تنجح فعلا . فقد تمكن الملك من الهرب مع زوجته وأولاده من التويليرى متخفيا

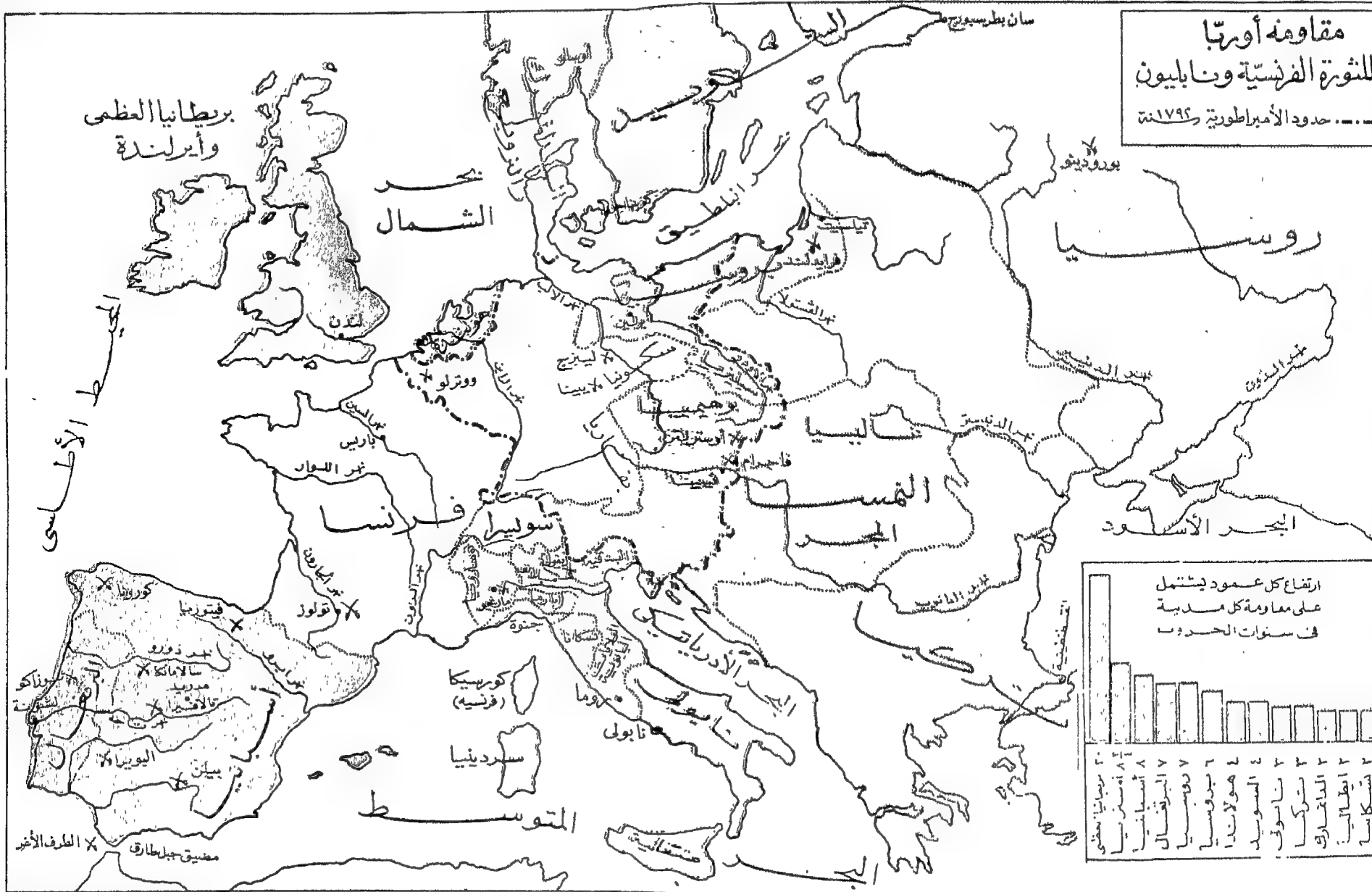
فى زى تابع لمريية أولاده دون أن يلحظه أحد . وقد عشر على عربة للسفر خارج المدينة مضت به حتى فارن وهى مدينة صغيرة على نهر ميز . ولو أنه بلغ الجانب الآخر من الجسر لصار فى مأمن ، ولكن شخصيته كانت قد عرفت فاعتقله العمدة بالاشتراك مع صاحب منزل باحدى القرى المجاورة .

وقد ساد باريس انزعاج بالغ الشدة عندما ذاع نبأ هروب الملك . وكان قد ترك خطابا يعلن فيه رفضه قبول الدستور ، فشاع الاعتقاد بأن التدخل الأجنبى أصبح قاب قوسين أو أدنى . وقد هدأت أنباء القبض عليه من هذه المخاوف ولكنها أثارت مشاكل عويصة للغاية . فماذا يفعل الناس بملك هارب ؟ لقد أوحى المثل الذى ضربه جيمس الثانى الإنجليزى بهرويه الموفق للبعض بأن لويس السادس عشر كان يحسن صنعا لو أنه تمكن هو أيضا من الإفلات . ونادى البعض بتغيير البيت المال والاعتراف بدوق أورليان ملكا على البلاد ، ولكن أغلبية الجمعية قررت إعادة الملك الى باريس ووقفه عن ممارسة سلطاته ريثما تفرغ الجمعية من النظر فى التنقيحات الأخيرة للدستور ، على أن يعرض عليه الدستور بعد ذلك لاقراءه ، فان أقره أصبح ملكا من جديد وان رفضه فقد عرشه وتعين على الجمعية أن تواجه مشكلة اختيار من يخلفه . كان هذا هو القرار الذى اتخذته الجمعية ، بيد أنه كانت بالجمعية أقلية صغيرة تتمتع بتأييد قوى فى باريس طالبت بخلع الملك على الفور وإعلان الجمهورية ولا يكاد المرء يعثر قبل هذه الحادثة على أى أثر للمشاعر الجمهورية . ولكن أعضاء نادى الكورديليين أعدوا الآن عريضة بهذا المعنى ووضعوها على مائدة فى الميدان المعروف باسم شان دى مارس لجمع التوقيعات عليها . ولم يكن فى الأمر ثمة مخالفة للقانون ، ومع ذلك فقد صدرت التعليمات لـ « باتى » عمدة باريس بتفريق الجمهور الذى تجمع حول العريضة

خوفا من اضطراب الأمن فاستدعى الحرس الوطني لأداء هذه المهمة ، ولما أبى الجمهور أن يتفرق بعد توجيه أول نداء له بذلك أطلق عليه الحرس وابلا من النيران ، ففقدت أرواح عديدة من جراء هذه الطلقات وفي الهرج والمرج الذى أعقبها . وقد عرف هذا الحادث باسم مذبحه شامب دى مارس (١٧ يوليو ١٧٩١) . وهو يعد نقطة البدء للحركة التى حولت فرنسا الى جمهورية بعد فترة لا تتجاوز العام بكثير . وأصبح باتى الذى أصدر الأمر باطلاق النار هدفا لمقت الجباهير .

وفي سبتمبر ١٧٩١ تم وضع الدستور فقبله الملك وبدأ أن الثورة قد انتهت . فقله تم اقرار دستور مشابه لدستور بريطانيا العظمى دون ماعنف كبير أو خسائر فادحة فى الأرواح . وتنبأ الكثيرون من المراقبين الأجانب لفرنسا بحياة دستورية هادئة .

مقاومة أوروبا للتوثة الفرنسية و نابليون حدود الامبراطورية ١٧٩٢م



الفصل الثالث

الثورة بعد نشوب الحرب العامة

ان فهم الثورة الفرنسية يصبح مستحيلا اذا نحن عزلنا تطوراتها الداخلية عن ظروفها الخارجية . فكلما أمعنا النظر في سيرها وضح لنا أن مرحلتها المتأخرة قد توقفت كلها على الحرب الكبرى التي نشبت واستمرت دون أن تترك أى فسحة من السلام الحقيقى طوال ثلاثة وعشرين عاما . وسنتناول بعد هنيهة أسباب الحرب وكيف حلت بفرنسا ، ولكن علينا أولا أن نبحث حالة البلاد عند نشوبها .

انعقدت الجمعية التشريعية لأول مرة فى خريف عام ١٧٩١ . وقد حظر كما أسلفنا (١) على أعضاء الجمعية التأسيسية أن يدخلوا فى الجمعية الجديدة . وبذلك تركت مقادير فرنسا فى يده جماعة من الرجال ليس لهم صيت ذائع أو ارتباطات حزبية محددة . فكان أن جاءت الجمعية الجديدة ضعيفة واهية ، وأصبح النفوذ الحقيقى على مجرى الحوادث يكمن فى الصحف والأندية أكثر مما يوجد بين أعضائها .

ان الكثيرين من أعضاء هذه الجمعية الجديدة لم ينتسبوا قط بصورة واضحة الى أى حزب سياسى معين ، ومع ذلك فيمكننا أن نشاهد وجود التكتلات التالية فى صفوفها : حزب المحافظين أو اليمينيين الذين عرفوا فى الجمعية باسم « الفويان » Feuilleants وكان يمثل داخل الجمعية آراء لافيتت خارجها ، ولعله كان أضخم الاحزاب أولا ولكن نفوذه سرعان ما تقلص بالقياس الى الاحزاب

(١) راجع اصفحة ٣٢ من الاصل الانجليزى

الآخرى . أما الجانب اليسارى أو الراديكالى من الجمعية فلم يلبث أن انقسم الى جماعتين ، أولاهما عرفت باسم « الجيرونديين » لأن الكثيرين من زعمائها كانوا من اقليم الجيروندي ، ومعظم هؤلاء من الشبان المتحمسين الذين يملكون ناصية البيان . ويعتبرون الجمهورية مثلهم الأعلى وان رضوا بالملكية مؤقتا . وكان التأييد الرئيسى لهم يأتى من الأقاليم والمناطق الريفية خارج باريس ، وقد أصبحوا فيما بعد ممثلى الطبقة الوسطى بالذات ، وان كانوا قد اعتبروا بادئ الأمر من الثوريين الخطرين الذين يخشى بأسهم ، وزعماءهم الرئيسيون هم « بريسو » و « بيزو » و « فرنيو » و « رولان » . وكانت زوجة الأخير تتمتع على الدوام بنفوذ هام فى مجالس الحزب ، وقد اتجهت إليها الأنظار بسبب شخصيتها ونهايتها المفجعة ، وأكثر مما اتجهت الى أى من هؤلاء الأربعة . ولم يكن اليعاقبة يختلفون فى شئ بادئ الأمر عن الجيرونديين . وقد سبق أن أشرنا الى النادى الذى سمي حزب اليعاقبة على اسمه وكان نفوذ هذا الحزب فى باريس أقوى منه داخل الجمعية . وكان زعماءه روبسبير ومارا ودانتون أصحاب أقوى نفوذ سياسى فى المدينة .

وقد كان من حق الملك أن يعين الوزارة دون اعتبار لرغبات الجمعية ، فاختار وزارته الأولى من حزب المحافظين أو « الفويان » وسرعان ما نشأ بينه وبين الجمعية احتكاك عنيف . كان هروبه قد قضى على شعبيته السابقة وبات الكثيرون ينظرون بارتياح الى نفوذه ويتشككون فى أخلاقه . وكان كل ما يفعله يقول على أسوأ وجه . فلما رفض الموافقة على قانون يفرض عقوبة الموت على النبلاء المهاجرين الذين لا يغودون الى البلاد قبل يناير ١٧٩٢ ، اعتبر ذلك منه مظهرا من مظاهر العطف على أعداء الثورة ، وتكرر نفس الشئ حين رفض التصديق على قانون بالغ الصرامة فى معاملة القساوسة

الممتنعين عن أداء اليمين الدستورية . وقد بلغ الاحتجاج على تصرفاته من الشدة حدا جعله يؤثر السماح لوزارة المحافظين بالاستقالة وتعيين وزارة جديدة من الجيرونديين بدلا منها . وقد شغل « رولان » منصب وزير الداخلية في الوزارة الجديدة ، الا أن الاسم الذي كانت له الأهمية الأولى بين وزرائها هو اسم « ديمورييه » الذي أسندت اليه ادارة الشؤون الخارجية للبلاد وان لم تكن له أية صلة وثيقة بحزب الجيروندي . ولما كانت الشؤون الخارجية قد أصبحت تحتل في تلك الفترة العصبية مكان الصدارة ، فيجدر بنا أن ننصرف الآن اليها وأن نرى كيف زجت الظروف بفرنسا في حرب خارجية .

لقد اختلف الرأي في تحديد سبب تلك الحرب منذ نشوئها حتى يومنا هذا ، فالبعض قد عزاها الى أطماع الثورة واندفاعها بينما نسبها البعض الآخر الى غيرة الدول العظمى وخوفها . ولقد كان في الموقف الأوروبي حقا الكثير من عوامل الخطر ومع ذلك لم يكن ثمة من هو على استعداد ، على الأقل بادىء الامر ، للدخول في حرب مع فرنسا ، وفرنسا من جانبها قد استنكرت في دستورها فكرة الحرب لغير الأغراض الدفاعية استنكارا صريحا . أما بريطانيا فقد بدت عازفة في البداية عن استئناف صراعها القديم مع فرنسا ، اذ كان الشعور السائد في انجلترا عند بدء الثورة هو العطف عليها . فقد بدا أن فرنسا تقلد النموذج الانجليزي وتختار لنفسها شكلا من أشكال الحكومة يشابه الشكل الانجليزي الى حد بعيد . ولقد ارتفعت بعض الأصوات حقا بالتحذير - ولا سيما صوت « بيرك » معلنة أن روح الثورة الفرنسية مغايرة تماما لروح الحركة الانجليزية في عام ١٦٨٨ ، وانها تهدد بعقائدها وبالمثل الذي تضربه النظام المستتب في كافة أرجاء أوروبا ، ولكن هذه التحذيرات كان يقابلها من ناحية أخرى حماسة الشعراء ورضاء الساسة . فقد أشاد الشاعران « وزدزورث »

و « كولريدج » بالثورة عند نشوبها وتغنيا بما بعثته في نفسيهما من آمال كبار . فقال وردزورث « انها سعادة لا توصف أن يعيش المرء يرى ذلك الفجر » وان « النعيم كل النعيم في أن يكون المرء شابا » وبلغ من ايمان كولريدج بعظمة الحركة التي تجتاح فرنسا أنه « نكس رأسه وبكى اسم بريطانيا » لانها وقفت منها موقف المعارضة . وفي صفوف الساسة كان « بيت » على استعداد تام للتعاون مع فرنسا ، ورحب بها « فوكس » باسم طائفة من الاحرار (whigs) بسرور بالغ . وقد كان من دواعي قلق الحكومة الانجليزية اذ ذاك أن حركة ثورية قامت في هولندا حيث أخذت الأحزاب الثورية تهدد سلطان الحاكم فتحالف مع بريطانيا العظمى وبروسيا . فلما تمكنت بروسيا من قمع هذه الحركة في يسر وسهولة قلت الأهمية التي كان يعلقها الناس على الخطر الآتي من فرنسا . وعلى هذا يتعين علينا أن نتجه بأبصارنا الى أوروبا الوسطى لنعثر على الحوادث التي لن تلبث أن تؤدي الى نشوب الحرب ، وان كنا نستطيع أن نلمس هنا أيضا الرغبة القوية في تجنبها . كان تنظيم الامبراطورية الرومانية المقدسة يفتقر الى الكفاية الى أقصى حد . ولم تكن بها هيئة تستطيع أن تؤلف جيشا أو تفرض ضريبة . فقد كانت الامبراطورية حقا بناء مفككا واتحادا لا حول له ولا طول ، وقوة ألمانيا لم تكن تكمن في الامبراطورية كما شاهدنا في الفصل الأول ، وانما في دولها متفرقة ، ولا سيما في النمسا وبروسيا . وكانت النمسا وبروسيا غريمتان قديمتان بينهما غيرة دائمة وعداء مقيم . ولما كانت ذكرى حرب السنوات السبع والمهانة التي حاقت بالنمسا لاتزال توغر الصدور في فينا ، لم يكن التعاون بين الدولتين ميسورا . زد على ذلك أن النمسا كانت مشغولة بمهام أخرى كانت تبدو لها يومذاك أخطر وأدعى لاهتمامها من مهمة قمع الحركة الثورية في فرنسا . فان حكم جوزيف الثاني كان قد زلزل الأحوال الاجتماعية والسياسية في مختلف أنحاء الامبراطورية المفككة،

فصارت الحاجة المباشرة هي احوال الهدوء محل الهياج واشاعة الرضى محل السخط والمعارضة . وكانت بلجيكا تزخر يومئذ بالاحتجاج الثائر على التعديلات المقترحة ، وهنغاريا أمست على شفا الثورة . بل لم يكن ثمة اقليم تقريبا في الممتلكات النمساوية كلها الا وقد عمه الاضطراب بصورة أو أخرى . فكانت النمسا على ذلك أزهد ماتكون في اضافة عبء حرب خارجية الى أعبائها الداخلية العاجلة . ثم ان الأزمة البولندية كانت تبدو في نظرها أهم من تطور الأحداث في فرنسا . ولقد سبق أن شاهدنا طرفا من الحالة في بولنده وقتلنا انها كانت أسوأ بكثير من كل ناحية من الحالة في فرنسا ، كما شاهدنا كيف أن ضعفها قد عرضها في عام ١٧٧٢ الى التقسيم الأول على يد بروسيا والنمسا وروسيا . ولكن فرص بولنده قد تحسنت الآن كثيرا عما كانت عليه في تلك السنة . كان ستانيسلاس قد نصب على العرش البولندي في عام ١٧٦٤ بفضل نفوذ قيصرة روسيا كاترين الثانية ، وقد كان عشيقها المفضل ولكنه أظهر في مهمته الجديدة همة صادقة وحرصا حميدا على الصالح العام . وقد رأى أن لا رجاء في مستقبل بولنده طالما احتفظت بدستورها الموروث الذي يقضى عليها بالنقض ويعرضها لعدوان من جاراتها لا تملك له دفعا ، وأن الضرورة الأولى هي اعطاء البلاد دستورا يتسم بالكفاية الحقيقية ويعصف بامتيازات النبلاء الفوضوية ، وتمكينه شخصا من اصدار القوانين وتوجيه الشئون الخارجية للبلاد ، فتقدم فعلا بهذا الدستور وحصل له على قدر لا بأس به من التأييد ، ولكن الدستور القديم كان يمكن أية معارضة مهما تضاعل شأنها من القضاء على أى مشروع ولو حاز تأييدا قويا . فلما وجد الملك أنه ليس ثمة أمل في امرار الدستور بالطرق القانونية قرر أن يأخذ المسؤولية على عاتقه وأن يخرق الدستور لمصلحة الشعب والدولة . وفي عام ١٧٧١ فرض الدستور المعدل مستعينا بقوات الدولة المسلحة . فبدا حينذاك أن بولنده على أبواب عهد جديد عامر

بالرجاء ، ولكن مفتاح الموقف كان فى الحقيقة الجمهورية التالية : ألا وهى أن جاراتها لم يردن لها أن تقوى وتزدهر ، اذ كن أنفسهن السبب فى ضعفها . وكن راغبات أشد الرغبة فى ابقائها على حالها بل وزيادتها ضعفا على ضعف ، فما أن وضع الدستور الجديد حتى شرعت بروسيا والنمسا وروسيا تفكر فى معاودة التدخل والتقسيم . وكانت كاترين الثانية قيصرة روسيا هى بلا ريب صاحبة النفوذ الأقوى فى الشؤون البولندية بين هذه الجارات . فلئن كان التردد قد ساور الآخرين فانها كانت تعرف ماتريد حق المعرفة . فقد كانت تسعى عن وعى وقصد الى اقحام الدول الأخرى فى شؤون فرنسا حتى تتمكن هى أثناء انشغالهم غربا من وضع يدها على المقاطعات البولندية التى تشتهىها . ولم تكن الدول الأخرى بغافلة عن نواياها . ولقد كان لوجود مركزين مختلفين يتنازعان اهتمام أوروبا أكبر الأثر فى العلاقات الدولية فى تلك الشهور والسنوات البالغة الأهمية . فبينما كانت الدول تراقب بانزعاج تطور الحركات الثورية والجمهورية فى باريس ، كان يعتمورها قلق أعنف ازاء مايجرى فى بولندة . فلئن كان من المحتمل أن تهدد حوادث فرنسا نظم هذه الدول أو سلطانها ، فانها كانت أشد حرصا على ألا تقطع أوصال بولندة على نحو يؤدى الى الاخلال بالتوازن الدولى فى أوروبا وذلك بأن تحصل دولة من الدول العظمى على نصيب الأسد من الأراضى البولندية . ولهذا جعلت روسيا والنمسا وبروسيا ترقب بعضها بعضا بغيرة بالغة ، فحال ذلك بينها وبين التعاون بصورة فعالة ضد فرنسا . وهذا أحد الأسرار التى تفسر لنا النصر المذهل الذى حققته الثورة الفرنسية ضد التحالف الأوروبى .

كانت العلاقات بين فرنسا والامبراطورية قد أصبحت شائكة منذ فترة . ذلك أن القرارات التى تبسدها لأمول وهلة داخلية بحصة قد

أثرت في علاقات فرنسا الخارجية . فقد حرم الغاء الاقطاع مثلا الرعايا
الألمان الذين يملكون أراضي داخل الحدود الفرنسية من الفروض
الاقطاعية التي كانوا يحصلونها . كما حرمت التشريعات الدينية التي
أصدرتها الجمعية أسقفى كولون وماينز من العشور التي كانا يتلقياها
من الرعايا الفرنسيين . وأخرج تقسيم أسقفيات فرنسا الجديد من
طاغتهما أبرشيات ومناطق . ظلت تتبعهما أمدا طويلا . فلم يكن مناص
من أن تولد هذه المسائل كلها الاحتكاك بين فرنسا ورعاياها الألمان ،
ومن أن تدافع الامبراطورية كما يقضى واجبا عن مطالب الألمان
الذين زعموا أنهم أصيبوا بالضرر . ثم انه كانت للفرنسيين أيضا
شكاواهم ضد الامبراطورية . فقد رأينا كيف أن عددا كبيرا من أمراء
فرنسا ونبلائها قد هربوا اثر سقوط الباستيل وعقب حوادث أكتوبر
١٧٨٩ خوفا أو اشمئزا من الثورة المقيمة ، وعرفنا أن معظمهم قد
استقروا في الولايات الألمانية القائمة على حدود فرنسا الشرقية . وقد
راح هؤلاء يحتفظون في « ترييه » و « ماينز » بمظاهر البلاط
وأنشأوا يجندون الجند ويدربونهم ، ويصدرون شتى البيانات
ويتحدثون عن عودة العهد القديم وشيكا . فكان من المستحيل أن
تسكت فرنسا على هذا التحدى مهما كان قميئا بالازدراء . وقد
ناشدت الامبراطور ليوبولد أن يشتت هؤلاء المهاجرين فأعرب عن
استعداده للقيام بذلك . ولكنهم لم يغادروا الأراضي الألمانية فعلا
فظلت اقامتهم هناك مصدر شكوى لفرنسا .

ثم جاء هروب الملك من باريس والقبض عليه بفارن وعودته وسجنه
واذلاله . ولم يكن من المستطاع أن ينظر ليوبولد الى هذه الأحداث
دون قلق ولو على الأقل لأن ماري انطوانيت كانت شقيقته . ومع
ذلك فان الرغبة في التدخل العسكرى لم تزاوده قط . فقد كان يأمل
فى أن يوفق الى عمل شيء للزوجين الملكيين الفرنسيين عن طريق

الديبلوماسية التى تهدد بالحرب وان لم تقصدها بالفعل . ففاتح فى الأمر فردريك وليم ملك بروسيا الذى كان رجلا غريب الشخصية مختل الذهن نوعا ما ، وان يكن سريع الاستجابة لنداء العاطفة وأفكار القروسية . وتم اجتماعهما بقلعة بيلنتز (٣٧ أغسطس ١٧٩١) 'تقريبه من درسدن على نهر الألب . وهناك سويا أولا الخلافات البارزة العديدة بينهما التى حالت دون اتفاق البلدين ، ثم انتقلا الى الشئون الفرنسية فقررا اصدار تصريح - سعى بتصريح بيلنتز - يعلنان فيه أن عودة النظام الى فرنسا مسألة تهم جميع الدول الأوروبية وأنهما على استعداد « اذا تعاونت معهما الدول الأوروبية الأخرى » للتدخل للحصول للويس ومارى انطوانيت على مركز أفضل . وقد بدا فى أول الأمر أن هذا التصريح يحمل وراء العبارات الدبلوماسية الحذرة تهديدا خطيرا . الا أنه لم يكن فى الحقيقة كذلك ، لأن ليوبولد لم يكن ينوى أن يتبعه بأى اجراء . فقد ترك لنفسه عندما اشترط تعاون دول أوروبا الأخرى ثغرة يستطيع أن ينفذ منها لأنه كان يعلم أن بريطانيا لن تتعاون . وقد كتب فى خطاب الى وزيره يقول « ان كلمتى « عندئذ » و « فى تلك الحالة » كاتتا لى شريعة ونبراسا فاذا ما خذلتنا انجلترا لم يعد هناك مجال للتدخل » . ولكن الفرنسيين لم يدركوا المغزى الدبلوماسى الخفى للتصريح ، فبدا لهم أن ملكيات أوروبا تهدد بالتدخل فى شئون فرنسا الداخلية ، ولم يكن حدوث التهديد لمصلحة مليكهم بالذى يدفعهم الى الشعور بالمزيد من العطف عليه .

وفى تلك اللحظات العصيبة بالذات جاءت وزارة الجيرونند الى الحكم . وكان الجيرونند عامة من أنصار الدخول فى حرب أجنبية . فمدام رولان كانت ترى أن الحرب هى الكفيلة باثارة حماسة فرنسا للنظام الجمهورى واتاحة الفرصة لقلب الملكية . وكان دى مورييه

وزير الشؤون الخارجية يحلم بعقد تحالف ديبلوماسى يتيح لفرنسا فرصة رائعة للفوز . اذ كان يأمل فى الحصول على تأييد بريطانيا وبروسيا ، بل انه قد تبادر الى ظنه أن الجيوش الفرنسية قد تجد فى دوق برونزويك البروسى قائدا يمضى بها نحو النصر بتطبيق أفضل تقاليد فردريك الأكبر الاستراتيجية . وقد أخذت حماسة فرنسا تتأجج كلما تقدمت المفاوضات مع بروسيا ، وانتشر الاستعداد للحرب ، ولم تظهر أية معارضة صريحة لها الا فى صفوف أولئك الذين أصبحوا فيما بعد من اليعاقبة المتطرفين أمثال مارا ودانتون وروبسبير . وقد ألقى الأخير خطابا يعد أحكم الخطب التى أُلقيت طوال عصر الثورة عارض فيه فكرة الحرب معربا عن رأيه فى أن النصر المباشر بعيد الاحتمال وان من المستبعد تماما أن تأتى عواقب الحرب فى صالح الثورة سواء فى فرنسا أو أوروبا . ولكن خطابه صادف آذانا صماء ، اذ رحب الجميع بما فى ذلك الملكيين أنفسهم بشكرة الحرب . فقد كان هؤلاء يعتقدون أن الحاجة الى تقوية السلطة التنفيذية ستتجلى فى الحرب فيهيء ذلك السبيل لاعادة السلطة الملكية الى شىء من قوتها السالفة . وفى ظل تلك الظروف أخذ التوتر والمرارة يسودان جو المفاوضات مع النمسا ، ومات الامبراطور ليوبولد الثانى فى أول مارس سنة ١٧٩٢ . ليخلفه فرنسوا الثانى الذى كانت تعوزه خبرة سلفه ورجاحة رأيه . فلم تلبث مطالب الخارجية الفرنسية أن رفضت . وفى ٢٠ أبريل سنة ١٧٩٢ توجه لويس السادس عشر الى الجمعية تطبيقا لأحكام الدستور الجديد وهناك أعلن والدموع تتساقط من عينيه الحرب على فرنسوا لا بوصفه امبراطورا وانما باعتباره ملكا لهنغاريا وبوهيميا .

وخابت آمال ديموريه فى عقد المحادثات ، فقد وقفت بريطانيا بمنأى عن النزاع بعض الوقت ، أما بروسيا فقد انضمت الى النمسا . ورسم (٧)

الفرنسيون خطة للهجوم على الأراضي المنخفضة المجاورة التابعة للنمسا حيث كانوا يأملون في أن ينال غزوهم التأييد والعطف نظرا لوجود الحركات الثورية التي كانت تضطرم هناك فعلا . الا أن مصير هذه الحملة الاولى في حروب الثورة كان فشلا ذريعا . فقوات فرنسا كانت تفتقر الى النظام الدقيق ، والكثيرون من الضباط لم يضمروا ولاء صادقا للثورة ، وخطط الحملة كانت بعيدة عن الأحكام . وقد تغلغت الجيوش الفرنسية في أراضي بلجيكا لمسافة بسيطة ولكن سرعان ما تراجعت الى الحدود في فوضى واضطراب ، مما اضطر الفرنسيين الى الاعتراف بفشل هذه الحملة التي علقوا عليها الآمال الكبار . وقد كان لهذا الفشل رد فعل مباشر في باريس ، فقد ساورت الوزراء والشعب الشكوك في صدق نوايا الملك ، ونسبوا الهزيمة لا الى قصص الاستعداد وانما الى خيانة الملك وتديراته . وفي ٢٠ يونيو ١٧٩٢ اقتحمت قصر التويلري الضعيف الحراسة جمهرة من الباريسيين الذين أحاطوا بالملك والملكة فأهانوهما بشتى المهتافات والمطالب ، واحتلوا القصر لفترة وجيزة الى أن أخرجهم الحرس الوطني عقب وصوله . والحادث في ذاته عديم الأهمية ، لكنه يرسم لنا مع ذلك صورة مصغرة للأسباب التي أدت الى سقوط الملكية بل ومجيء عهد الارهاب . فقد كانت البلاد مشتبكة في حرب خارجية خطيرة وقد تعرضت للهزيمة على حدودها فشعر الناس جميعا أن الشرط الأول للفوز هو أن تتوفر لدى رئيس الدولة العزيمة الكافية والرغبة الصادقة في تحقيق النصر . وكانوا يعتقدون أن الملك اما فاجر النفس واما خائن . لذلك بدالهم من الضروري أن يفرضوا عليه انتهاج سياسة أقوى همة أو أن يبعده اذا تعذر ذلك من حكم فرنسا . وكانت الجمعية التشريعية عاجزة تماما عن السيطرة على الموقف رغم أنه لم يمض على انتخابها عامان ، فان قادة الرأي العام الحقيقيين لم يكونوا بين أعضائها . فراحت تنظر الى تطورات الحوادث بعين

القلق والعجز . ولا ريب في أن الشعور السائد بين جماهير الشعب في فرنسا عامة ولا سيما بين الفلاحين في المناطق الريفية - كان محافظا أكثر منه راديكاليا . فالثورة قد فعلت الكثير لهؤلاء الفلاحين حتى بدا لهم أنها قطعت شوطا بعيدا لاداعي لتجاوزه . وكانوا مرتبطين - بحكم التقاليد - بالملكية فلا ينتظر منهم التدخل العنيف لاسقاط العرش . لم يعد اذن ثمة مفر من أن يأتي هذا التدخل الذي بدا ضروريا لانتقاذ فرنسا - وربما كان ضروريا بالفعل - لا من الجمعية ولا من شعب فرنسا ككل وانما من أقلية حازمة . وقد وجدت هذه الأقلية الحازمة في صفوف اليقاقة .

وكان هؤلاء فريقا من الرجال مختلفي المنشأ ولكن المنتسبين منهم الى الطبقات العاملة كانوا قليلين ان هم وجدوا على الاطلاق . وكانت بين اليقاقة خلافات في الرأي حول نقاط عديدة أدت فيما بعد الى ظهور صراع عنيف بينهم ، الا أنهم كانوا متحدين في حب فرنسا وفي اخلاصهم المتعصب لمبادئ الثورة ذلك الاخلاص الذي يكاد يبلغ مبلغ التدن .

وكان ضعف الحرب الخارجية والخطر الذي تحمله في طياتها على مبادئ الثورة هو الذي وطد عزمهم على اسقاط العرش والاستيلاء على الحكم لمصلحة الثورة ومصلحة فرنسا وهي في نظرهم واحدة . لقد كانت الطبقة الوسطى - أو البورجوازية - هي المسيطرة على الثورة حتى الآن ، ولكن السلطة أخذت تنتقل بسرعة الى أيدي أولئك الذين يستندون الى تأييد جماهير باريس ، وكانت الحرب هي السبب في احداث هذا التغير بكافة نتائجه التي لا تعد ولا تحصى .

كان الموقف العسكري قد تدهور منذ فشل الحملة البلجيكية ، فقد انضمت بروسيا الى النمسا وتقرر أن يتولى دوق برونزيك البروسي قيادة القوات النمساوية والبروسية الى داخل فرنسا . ويمكن للمرء أن يتخيل الهياج والانفعال الذي عم باريس في تلك

انظروا . كانت القوات التي جمعت في الأقاليم تمر في كثير من الأحوال بالعاصمة فكان مرورها يتخذ فرصة للقيام بمظاهرات وطنية صاخبة ، وقد حدث ذلك بوجه خاص عندما وصلت قوات مارسيليا في ٣٠ يوليو وهي تنشدا لأول مرة نشيد « المارسيليز » الوطني .

وانه لما يستحيل علينا تماما أن ننفذ الى جميع الاستعدادات التي اتخذت للضربة الوشيكة الوقوع ، ولكننا نعلم أن « لجنة الثورة » قد تألفت من نفر من اليعاقبة الأقل شهرة برياسة دانتون الذي سيبهرز من الآن في قصة الثورة ، وأن مجالس الأقسام الثمانية والأربعين التي تقابل - تقريبا - الأحياء في المدن الحديثة قد اعتبرت مجالس « دائمة » بمعنى أنها تستطيع الاجتماع دون الحصول على إذن من المجلس البلدى ، وأن الحزب الثورى المتطرف قد صارت له الغلبة فيها . ونعلم كذلك أن أبواب الحرس الوطنى الذى كان يعد في وقت من الأوقات دعامة الطبقة الوسطى ، قد فتحت لجميع المواطنين ، وأن روحه قد أصبحت أكثر ثورية من ذى قبل بكثير . وفي ١١ يوليو أعلنت البلاد « في خطر » . وزاد من هياج الخواطر رفع علم أسود في ٢٢ يوليو على دار البلدية Hotel de ville . وفي ٣ أغسطس نشر بيان دوق برنزويك قائد جيوش الغزو الذى هدد فيه باريس بالدمار التام اذا تعرض الملك لأية اهانة جديدة ، الأمر الذى أثار - بطبيعة الحال - روحا عدوانية أقوى في صفوف الشعب الباريسى

كان الملك يقيم مع الأسرة المالكة طوال تلك الفترة بالتويلرى . وكانت حراسة القصر مسندة من جهة الى رجال الحرس الوطنى الذين أصبح ولاؤهم الآن مشكوكا فيه للغاية ، ومن جهة أخرى الى حماة العرش التقليديين وهم رجال الحرس السويسرى المخلصون وإن كانوا من المرتزقة . وقد جاءت الضربة المتوقعة في الساعات الأولى من صباح ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٢ . ففي الواحدة صباحا توجه

الأعضاء الجدد الذين انتخبهم مجالس الأقسام الى مقر المجلس البلدى وعزلوه ، وان احتفظ الكثيرون من أعضائه القدامى بعضوية المجلس الجديد . ثم أرسل هذا المجلس الجديد فى طلب « ماندا » فائد حامية القصر للمشول أمامه فى دار البلدية . وقد اعتقل فور وصوله ثم قتل بعد ذلك بقليل . وفى الصباح الباكر استعرض الملك رجال الحرس الوطنى ولكن صيحاتهم أظهرت له مدى ضعف التأييد الذى يمكنه أن ينتظره منهم ساعة الهجوم . فقرر فى الثامنة والنصف صباحا ، عندما بدأ خطر الهجوم يتجلى فعلا ، أن يترك القصر ليضع نفسه فى حماية الجمعية . وقد سمح له بالدخول فى قاعة المناقشة ، وأفسح له وللملكة والأطفال مكان فى مقصورة الصحفيين . وأثناء غيابه وقع الهجوم على القصر فقد اخترق الجنود والجمهور الحقائق ، ولذا اقتربوا من القصر قوبلوا بوابل من نيران الحرس السويسرى . وكان من المحتمل جدا أن يتم اخراجهم من الحقائق لولا أن الملك سمع طلقات النيران من ملجئه فأرسل أوامره الى السويسريين بالاستسلام لأن الصراع لم يعد له أى معنى . فخفضوا أسلحتهم وبدأوا فى الانسحاب ، ولكن الكثيرين منهم قتلوا بيد مقتحمى القصر . وقد توجه الجمهور الشائر بعد الاستيلاء على القصر الى الجمعية حيث طالب بخلع الملك وإعلان الجمهورية . فأشار البعض الى استحالة ذلك فى ظل دستور سنة ١٧٩١ ، فتقرر إيقاف الملك عن ممارسة وظائفه ، وتشكيل جمعية جديدة تسمى « المؤتمر الوطنى » بوساطة الاقتراع العام لجميع البالغين من الرجال فى أقرب فرصة . وترك أمر البت فى التعديلات الدستورية اللازمة الجديدة ، ولكن الجمهورية كانت قد قامت فعلا فى كل شىء عدا الاسم .

لقد انقضى مايربو قليلا على ثلاثة أسابيع بين سقوط الملكية ووقوع مذابح سبتمبر ، ومن الأهمية بمكان أن تتابع تطور الأحداث

فى تلك الفترة . فأولا عينت الجمعية وزارة جديدة معظم أفرادها من حزب الجيرونديين ، واختير رولان وزيرا للداخلية ، ودانتون وزيرا للعدل . ولا يفوتنا أن نذكر أيضا أن لافاييت حاول اثر تلقيه أنباء سقوط الملك اثارة احتجاج مسلح بين القوات المسلحة . بيد أنه تبين أن رجال هذه القوات لا يميلون الى تأييد الملكية ضد الحركة الثورية الجديدة ، وسرعان ما شعر بأن الخطر محقق به ، فترك الجيش وعبر الحدود ، وانتهى دوره فى تاريخ الثورة . أما فى باريس فان الكوميون أو المجلس البلدى الجديد اكتسب أهمية تفوق أهمية الجمعية التشريعية التى هجرها معظم أعضائها ولم يبق لها فى الوجود الا أيام معدودة . وكان روبسبير هو صاحب النفوذ الأكبر فى المجلس البلدى . وقد طالب باحالة التحقيق فى الجرائم التى ترتكب ضد الدولة الى هذا المجلس ، فلم يكن ثمة مناص من اجابة مطلبه . كما عينت أيضا « لجنة الاشراف » وهى لجنة تنفيذية خاصة كان مارا الشخصية الموجهة فيها .

وأخذت الانباء الواردة من الحدود تتدهور من سىء الى أسوأ على مر الأيام . فعرف فى ٢٦ أغسطس نبأ سقوط « لونجوى » ، وراجت اشاعة سابقة لأوانها بأن حصن فردان العظيم قد سقط هو أيضا . فأخذت حمى الشك التى تجتاح باريس تتفاقم يوما بعد يوم . وفى ٢٨ مارس طلب دانتون بوصفه وزيرا للعدل اعطائه سلطة تفتيش البيوت فى باريس بحثا عن أعداء الثورة ، وهكذا تم القبض على آلاف المشبوهين خلال الأيام الثلاثة التالية ، وفاضت سجون المدينة برجال من مختلف الأنواع بعضهم برىء والكثيرون منهم من المتأمرين حقا على ادعاء الملكية، وكلهم من المشتبه فى ارتكابهم جريمة مناداة بحكم البعاقبة . كان موقف البعاقبة عصيا الى أقصى حد ، ودانتون يعطينا فى احدى خطبه الشهيرة مفتاحا للموقف ، ففيها يقول ان الثورة بين

تأريين : عدو على الحدود وعدو في الداخل ، فلا بد من « ارباب العدو » ان أربد للشورة الاستمرار والبقاء .

وفي يوم الأحد ٢ سبتمبر بدأت عملية ارباب العدو . فشكل الكوميون محكمة ارتجالية في سجون باريس ، كان المسجونون يمثلون أمامها جماعات لا فرادى في أغلب الأحوال فيستجوبون على عجل ، ولا ريب في أن بعض الجهود قد بذلت للتمييز بين أعداء الشورة الحقيقيين وغيرهم ، فكان المسجونون يعادون الى السجن اذا رؤى أنهم من الأبرياء . ويصدر الأمر بنقلهم الى سجن آخر اذا اعتبروا مذنبين . وكان أمر النقل هذا يعنى حكما بالاعدام . فيلقى الصادر بشأنهم هذا الأمر في الطريق حيث يجهز عليهم أناس هيئوا لهذا العمل . وقد قتل بهذه الطريقة مئات في باريس خلال يوم ٢ سبتمبر واليومين التاليين ، ومن المستحيل أن نحصى عددهم بالضبط . وقد دارت وستدور مجادلات ومناقشات طويلة حول منشأ مذابح سبتمبر والمسئولية عنها والقصد منها . بيد أنه من الواضح أنه ان كان أى فرد بريئا فان مارا كان مذنباً . ومن الواضح كذلك أن الكثير من التدبير والتنفيذ يمكن أن ينسب الى لجنة الاشراف ، وان يكن من المؤكد أن عواطف الجماهير الثورية التى أججتها الأنباء السيئة الآتية من الحدود ، لم تجعل الأمر يستلزم الا أقل القليل من التدبير والتوجيه . فقد انبثقت هذه المذابح عن العواطف المتأججة أكثر مما انبثقت عن أية سياسة مرسومة ، فكانت ضربة وحشية هوجاء من أفراد اشتبه في أنهم من الأعداء في وقت ساد فيه الاعتقاد بأن الأعداء يحيطون بقيادة الشورة من كل جانب . ولن تمضى برهة وجيزة حتى نرى الجميع ، بما في ذلك غلاة الشوريين أنفسهم ، يحرصون على التنصل من أى قسط من المسئولية عن « مذابح سبتمبر » .

وقد شاهد سبتمبر سنة ١٧٩٢ أحداثا لها أهمية قصوى على الحدود كذلك . فقد بدا نصر الحلفاء مؤكدا ، وراحوا يتنبأون عن ثقة بقرب احتلال باريس . الا أنه كانت هناك الى جانب حماسة الجيوش الفرنسية وشجاعتها ، عوامل أخرى خفية أضعفت الحلفاء وعرضتهم للخطر . فقد دب بين النمسا وبروسيا - رغم اتحادهما ضد فرنسا - خلاف حول بولندية . ومن المؤكد أن الخوف مما يحتمل أن يحدث في بولندية قد حال دون بلوغ جيوش الحلفاء القوة التي كانت مرسومة لها أولا . وقد ظهر خلاف آخر بين دوق برونزويك وفردريك وليام ملك بروسيا حول طريقة سير الحملة . اذ كان الملك يلح في تسديد ضربة عاجلة ، في حين كان برونزويك يؤثر الحيطة والتأني . وقد كانت نسبة المجندين الجدد في الجيوش التي جابهت بها فرنسا الغزاة طفيفة . فقد أسندت القيادة العليا الى دي مورييه الذي وجد نفسه مضطرا الى الاعتماد أساسا على الجيش القديم الذي تتألف غالبية ضباطه من غير العاطفين على الثورة بل من الواجدين تليها لأكثر من سبب ، ولكن عامة الجند كانوا في معظمهم مدفوعين بالحماسة الصادقة للثورة . وقد سقط حصن فردان في ٢ سبتمبر فبدأ أن الطريق الى باريس قد أصبح مفتوحا للأعداء ولكن ديمورييه احتل بناء على تعليمات سرفان وزير الحربية ، تلال ارجون الواقعة على الطريق الى العاصمة ، وهناك صمد الفرنسيون أمام جيوش الحلفاء فترة من الزمن ، فلما تمكن الغزاة أخيرا من الوصول بحركة انتفاخ الى مؤخرة الفرنسيين وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام جيش فرنسي جديد على تل فالسي . وفي هذا المكان وقع في ٢٠ سبتمبر سنة ١٧٩٢ اشتباك شهير وهام بالنظر الى النتائج التي أسفر عنها وان لم يكن في ذاته جديرا بأن يعد من المعارك الكبرى . فقد قصف البروسيون التل بمدافعهم ثم حاولوا الاستيلاء عليه بهجوم مباشر ،

بردهم الفرنسيون على أعقابهم وكبدوهم بعض الخسائر . بيد أن هذا الحادث الصغير صار له شأن عظيم بفضل ما تلاه حتى أصبح يدرج في عداد المعارك الحاسمة في العالم . ذلك أن دى موريه ودوق برونزويك دخلا على أثره في مفاوضات حافلة بالدهاء والحييلة من الجانبين . وقد وافق دوق برونزويك على الانسحاب ، وسمح له دى موريه ببلوغ الحدود في أمان ، اعتقادا منه بأنه مازال في الامكان ، حتى في تلك اللحظة ، اغراء البروسيين بالانفصال عن النمسا . ولكن هذا كله ضئيل الأهمية الى جوار الحقيقة الكبرى التالية ألا وهي أن باريس التي كانت تعتقد في ٢٠ سبتمبر أنها مهددة بخطر الهجوم الداهم وربما الحصار ، وجدت نفسها قد خرجت من الغمة متحررة ظافرة .

وقد بدأت انتخابات المؤتمر الوطني الجديد في تاريخ مقارب لتاريخ مذابح سبتمبر . واعتبرت نتيجتها بادىء الأمر نصرا كبيرا للمعتدلين . فقد امتنع جانب كبير من الناخبين عن الادلاء بأصواتهم ، ولم يكن بين الأعضاء المنتخبين الا نحو خمسين من المعروفين بانتمائهم الى اليعاقبة ، بينما كان هناك ١٢٠ من الجيروندي وما يربو على ٦٠٠ ممن لا ينتسبون انتسابا محكما الى أى من الحزبين . وقد عين المؤتمر الوطني الجديد الوزراء وأسند السلطة التنفيذية الى اللجان منذ البداية .

وكان مصير الملك هو أول شيء يجب البت فيه ، وسرعان ما اتخذ المؤتمر قراره في هذا الشأن فأعلن بالاجماع في ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٢ إلغاء الملكية وقيام الجمهورية . ثم جاءت مسألة محاكمة الملك ، ويبدو أن المؤتمر قد فشل في العثور على أى سند قانوني لمحاكمته وكان الدستور قد تضمن النص على فقدان العرش كعقوبة قانونية من جرائم معينة ولاسيما الامتناع عن مقاومة الغزو الأجنبي . فلتن

كان من الجائز أن الملك قد ارتكب هذه الجريمة فإن من المؤكد أنه قد أدى عقوبتها . فأى اتهام آخر يمكن أن يوجه إليه (١) ؟ بيد أنه كان من الجلى أن الحزب المسيطر فى الجمعية لن يسمح للاعتبارات القانونية بالحيلولة دون بلوغ غرضه ، وعلى هذا فقد تقرر تقديم الملك الى المحاكمة . وصدر قرار الادعاء فى ١١ ديسمبر متضمنا اتهام الملك بانتآمر ضد الأمة ، وبامداد القوات التى أعدها المهاجرون فى الخارج بالمال ، وبمحاولة قلب الدستور . وقد سمح له بممارسة حق الدفاع . ودافع عنه محاميوه دفاعا بليغا جسورا . ثم أدلى أعضاء الجمعية بأصواتهم جهرا الواحد تلو الآخر ، فأدين المتهم بالاجماع . وتقرر تطبيق عقوبة الاعدام بأغلبية صوت واحد لا أكثر . وفى ٢١ يناير ١٧٩٣ أعدم لويس السادس عشر بالمقصلة فى الميدان الذى كان معروفا فيما مضى باسم « ميدان لويس الخامس عشر » ثم سمي الآن «ميدان الجمهورية» .

وأصبح مصير الجمهورية كله متوقفا على نتيجة الحرب فالحرب هى التى كان لها النفوذ الحاسم على كل صغيرة وكبيرة فى تاريخ فرنسا الداخلى ، ورغم احراز النصر فى فالى نان الموقف العسكرى أخذ يتدهور بسرعة . ويعد دخول بريطانيا الحرب بعد اعدام الملك أخطر ضربة تلقتها فرنسا فى ذلك الحين . وقد أدت الى هذه النتيجة عوامل

(١) والنصان الحاسمان فى الدستور هما البندان «٦» و «٧» من القسم الأول من الفصل الثانى «أذا وضع الملك نفسه على رأس جيش ووجه قواته ضد الأمة» أو اذا لم يقاوم رسميا مثل هذا العمل اذا ارتكب باسمه، يكون فى حكم من نزل عن عرشه ٠٠٠٠ وبعد هذا النزول ينتمى الملك الى طبقة المواطنين ويجوز اتهامه ومحاكمته مثلهم عن الأعمال اللاحقة لنزوله» أنظر كتاب ل. ج. ويكهام ليچ «الوثائق المختارة الموضحة لتاريخ الثورة الفرنسية» المجلد الثانى . ص ٢٢٦ (مطبعة كلارندون ١٩٠٥)

L.G. WICKHAM LEGG : Select Documents illustrative of the History of the French.

Revolution, vol. II. p. 226 (Clarendon Press, 1905).

عدة ، فإن الحرب نادرا ماتنشأ عن سبب واحد . فقد أثار الهجوم على الملك حفيظة الرأى العام الانجليزى ولم يلبث استيائه أن ازداد عند اعدامه ، وأخذ الكثيرون يستجيبون الى بيرك وهو يندد فى فصاحة رائعة بطبيعة الثورة وأهدافها . بيد أنه كانت هناك أسباب عملية أيضا . فقد أحرز الفرنسيون بعد معركة فالملى سلسلة من الانتصارات الهامة وعبروا الراين عند « ماينز » ، والأهم من ذلك أنهم غزوا بلجيكا ودحروا الجيش النمساوى فى ٦ نوفمبر فى معركة « جيماب » (التى تعد أعظم بكثير من معركة فالملى) فأصبحوا يسيطرون بانتصارهم على البلاد بأكملها ولم تلبث بروكسل أن سقطت فى أيديهم بعد أيام معدودة . فاتخذوا عندئذ خطوتين هامتين مشكوكا فى سلامتهما الى أبعد حد . فقد أعلنوا جادين فى ١٩ نوفمبر أنهم سيقدمون الاخاء والعون لجميع الشعوب الراغبة فى استرداد حريتها ، فكان هذا الاعلان بمثابة دعوة صريحة لجميع الشعوب أن تثور على حكامها ، وتهديد صريح لكل الحكومات التى تعتقد أن شعوبها راغبة فى الثورة عليها . ثم أعلنوا بعد ذلك بفترة وجيزة أن نهر شيلد الذى ظل مغلقا فى وجه السفن الضخمة نتيجة عدة حروب ومعاهدات سيفتح لجميع أنواع التجارة وذلك استنادا الى ما هو مفروض لكل شعب من « حق طبيعى » فى ملكية مصب أى نهر يمر بأراضيه . وكانت بريطانيا ترى - ولعلها مخطئة فى ذلك تماما - أن بقاء نهر شيلد مغلقا مسألة لها أهمية قصوى لتجارها ويؤكد البعض أنها كانت طامعة كذلك فى الاستيلاء على بعض جزر الهند الغربية الفرنسية . وهكذا التقت الاعتبارات العاطفية مع المصالح التجارية ، فطردت انجلترا السفير الفرنسى أثر وصول أنباء اعدام الملك ، وفى أول فبراير سبقت فرنسا انجلترا الى اعلان الحرب ضدها وضد هولندا ، ولم تلبث أسبانيا أن انضمت الى صفوف الدول المتحاربة .

وهكذا أصبحت فرنسا في حرب ضد ائتلاف أوروبى هائل يجمع
بروسيا والنمسا وبريطانيا وهولندا وسردينيا وأسبانيا . فشاهد ربيع
سنة ١٧٩٣ الأخطار والنكبات تتلاحق على جميع حدودها تقريبا . وقد
حلت بها أولى النكبات الجدية في بلجيكا التى كانت مسرحا لأول
انتصارات الثورة الحاسمة . فقد كان لدى البلجيكيين بعض الاستعداد
للتحريب بالغزة الفرنسيين ولكن الاجراءات التى اتخذها هؤلاء
الأخرون لحكم البلاد سرعان ما قضت على شعبيتهم . فقد عمدوا
الى اضطهاد الكنيسة وفرضوا على البلاد عملتهم الورقية . والأسوأ
من هذا كله أنهم أعلنوا ضم البلاد الى فرنسا استنادا الى بعض
العرائض التى قدمت لهم ، فجلبوا على أنفسهم بذلك العداء الأكيد
من بلد كان من الجائز أن يصبح حليفا لهم . وكانت هذه السياسة
من املاء باريس وقد اعترض عليها ديمورييه قائد الجيوش الفرنسية
دون طائل . وهاهو الآن يتلقى من القيادة العامة أمرا بالتقدم الى
هولندا فيطيعه كرها لانه يرى أن بلجيكا في حالة خطرة ولا يمكن
الاطمئنان اليها كمؤخرة لزحفه . واذا بالتوفيق يحالفه في مراحل الحرب
الأولى ولكنه لا يلبث أن يضطر في ١٨ مارس سنة ١٧٩٣ الى التقهقر
لحماية قوات ملازمه « ميراندا » الذى يتعرض لهجوم النمساويين ،
فيلتحجم مع العدو في معركة « نيرفندن » العظيمة التى تسفر ، بعد
صراع عنيف متكافئ في معظم الوقت ، عن انتصار النمساويين . كانت
هزيمة الفرنسيين حيث اعتادوا النصر شيئا سيئا في حد ذاته ولكن مما
زاد الطين بلة أن قائدهم بدأ في التخاير مع العدو على الفور . وهو لم
يعطف عطفًا صادقا قط على أهداف الثوريين . فطفق يحلم الآن باعادة
الملكية واعطاء التاج لدوق شارتر الشاب الذى ارتضى والده عن طيب
خاطر في أحضان الثورة رغم الدماء الملكية التى تجرى في عروقه .

وكان الشك في نواياه قد بلغ باريس فبعثت مفوضيها الى الجيش الا
أن ديمورييه اعتقل هؤلاء ومضى في تنفيذ خطته ، ولكن جيشه رفض
أن يؤازره ، فخشى على حياته وهرب في ٥ أبريل الى صفوف
النمساويين . كان الخطر جسيما فأثار خوفا بالغاً . فهذه هي المرة
الثانية التي يحاول فيها أحد القواد تأليب الجيش على الحكومة (أشرنا
من قبل الى محاولة لافاييت) ومن الآن فصاعداً سيصبح الخوف من
خيانة الضباط من بواعث القلق الأولى عند الثوريين . وبوسعنا أن
نرى في فعلة ديمورييه شبغ نابليون يحوم حول الثورة منذراً مهدداً .

كان الموقف الخارجى خطيراً وقد زاد من خطورته نشوب قلاقل
كبيرة في الداخل . فقد ظهرت الى جنوب اللوار في المنطقة المعروفة
باسم « لافنديه » حركة تطورت الى حرب أهلية وظلت طوال عامين
تستنزف كل القوى التي تستطيع فرنسا الاستغناء عنها في صراعها
الخارجى . كانت لافنديه تختلف في طبيعتها عن بقية فرنسا ، اذ كان
نبلاؤها وملاكها يقيمون في ضياعهم . وكان فلاحوها يكونون الولاء
للكنيسة ولا يضرون عداء للنبلأ . وكان الاقليم في الكثير من جهاته
مكسوا بالغابات التي يصعب اختراقها ويسهل الدفاع عنها .

ولئن كانت الحركة الثورية لم تستقبل بالترحيب بادىء الأمر في
تلك الجهة المتأخرة من البلاد الا أنها لم تجابه أية مقاومة ، بل ان بعض
نتائجها صادفت ارتياحاً في نفوس الفلاحين . وانما كانت مطالبة
الأهالى بتقديم أبنائهم للخدمة العسكرية ومحاولة تنفيذ ذلك بالقوة
هى التى أدت الى نشوب التمرد في فبراير ١٧٩٣ . وقد شجع التساوسة
حركة العصيان ، وتزعمها رجال من كافة طبقات المجتمع ، أشهرهم
« كاثلينو » ، وهو فلاح وبائع جوال ، « ولاروشجاكلين » وهو من
النبلأ ذوى الأصل العريق ، « وشاريت » وهو ضابط بحرى شاب
كان على الأرجح أقدر من زميله في الشؤون العسكرية . ولما كانت

الشورة تواجه حربا أجنبية فانها لم تتمكن من ارسال أية قوات لهذه الجبهة الغربية ، فحقق المتمردون مكاسب كبيرة . وفي مارس سنة ١٧٩٣ سقطت « فونتناى » و « نيور » فى أيديهم ، فتجلت خطورة حركتهم .

وقد اتخذ المؤتمر الوطنى تدابير حازمة حيال هذه الأخطار المنجمعة . فركز السلطة فى يد الحكومة وأتاح لها القدرة على التصرف بسرعة وفى سرية دون التقييد بأية قوانين أو قواعد تحد من نشاطها ، وقد طفق الكثيرون من الفرنسيين يتقبلون عن طيب خاطر قرارات الحكومة المركزية لأنها كانت تحارب ضد العدو المشترك رغم نفورهم من تصرفاتها فى الداخل . وفى ٢٩ مارس سنة ١٧٩٣ تقرر تشكيل محكمة الثورة لتتظر - وفقا لاجراءات خاصة - فى أمر جميع المتهمين بمناهضة الحكومة . وفى ٦ أبريل عينت « لجنة الأمن العام » وهى الهيئة التى ستحكم فرنسا أكثر من عامين والتى يرجع اليها الفضل فى اتخاذ معظم التدابير التى كفلت للبلاد الخلاص والنصر . وقد شكلت اللجنة من تسعة أعضاء ، وضعت تحت تصرفهم مبالغ طائلة من المال لاستخدامها كمصروفات سرية ، وصار بوسعهم إلغاء أى قرار يتخذه الوزراء الذين تحولوا الى مرءوسين لهم تقريبا . وكانت مداوات اللجنة سرية ولا يسأل أعضاءها الحساب الا المؤتمر الوطنى عند تقديم تقريرهم الدورى اليه . وقد استحدثت فى نفس الوقت تقريبا نظام المفوضين وهؤلاء رجال يعينهم المؤتمر ويرسلهم الى كافة أنحاء فرنسا لغرض التعبئة العامة للحرب اسما ، ولإقرار سيادة الحكومة المركزية على جميع أنحاء فرنسا فعلا . وهكذا نجد أن الثورة التى بدأت بالدعوة الى اقامة شكل لا مركزى للحكومة تعود الآن تحت تأثير الحرب الى تقاليد المركزية القديمة التى تميزت بها الملكية الفرنسية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر .

كان حزب الجيرونديين هو الداعي الى تأليف « لجنة الأمن العام » ولكن أعضاء اللجنة اختيروا أساسا من اليعاقبة ، وتجلّى من البداية أن أقواهم نفوذا هو دانتون الذى أصبح الآن شهيرا بفضل الدور الذى قام به فى إسقاط الملكية . ان شخصية دانتون تبدو لنا شخصية غريبة نوعا ما فى تاريخ الثورة . فهو يعد غالبا ضمن غلاة اليعاقبة وأشدّهم سفكا للدماء . وقد كان الشعار الذى نادى به ابان أزمة أغسطس سنة ١٧٩٢ هو « الاقدام . الاقدام . والاقدام دائما » .

عنى أننا كلما أمعنا النظر فى سيرته اتضح لنا أنه وان كان قادرا على اتخاذ اجراءات عنيفة كلما بدا أن الظروف تتطلب ذلك فانه كان يعمل دائما على الحيولة دون وقوع الثورة فى هابوية الفوضى واراقة الدماء التى نعلم أنها كانت فى انتظارها . فقد كان راغبا فى العودة الى الأساليب القديمة فى عدة نواح ، وقد راح يدعو الى الرحمة والى الخضوع للسلطة واحترام الحكومة فى وقت كانت فيه هذه الدعوة كنفيلة بتعريض صاحبها للخطر . ومع أنه كان يعقوبيا فقد سعى فى البداية الى التعاون مع أعضاء حزب الجيرونديين وفتحهم فى ذلك ، ولكنهم رفضوا عروضه رفضا حاسما . فقد بات هؤلاء يعدون اليعاقبة حزبا يمثل لا مجرد العنف فحسب بل والوحشية أيضا ، وجعلوا ينظرون الى أعضائه على أنهم الاعداء اللأداء لجميع أهدافهم المثالية والفلسفية . وسرعان ما ألقى الجيرونديون أنفسهم وقد دخلوا برفضهم عروض دانتون ، فى صراع رهيب مع حزب اليعاقبة كله . وهذا الصراع بين الحزبين انما هو الحلقة الأولى فى سلسلة الاصطدامات التى وقعت فى صفوف الجمهوريين أنفسهم وما فتئت تنتقل بالحكم الى يد جماعات أصغر عددا حتى انتهى بها المطاف الى اقامة حكم نابليون الاستبدادى الفردى . وفى هذا الصراع كانت للجيرونديين مواطن ضعف عديدة . فان باريس هى التى غدت تسيطر الآن بالفعل على الثورة والجيرونديين كانوا يمثلون الأقاليم ولا يتمتعون

الابتأيد طفيف في العاصمة . وقد اتهموا بـ « الاتحادية » (أو « الفيدرالية ») التي فسرت بأنها الرغبة في القضاء على وحدة البلاد وإقامة شكل أقل مركزية من أشكال الحكم في اللحظة التي تواجه فيها فرنسا اثتلافا أوريبيا معاديا .

ومن المحقق أن التهديدات الطائشة التي وجهها عضو من أعضاء حزبهم يدعى « ازنار » الى مدينة باريس ، قد زادت من حقن العاصمة عليهم وكانت صلتهم بديمورييه الذي صار يعتبر الخائن الأول منذ معركة « فيرفندن » من عوامل ضعفهم أيضا . وكانت صحف باريس التي يحررها رجال من طينة « مارا » و « هير » تقف منهم موقف المعارضة . ولو كان الزمن زمن سلم وطرح الأمر على الشعب لأدلت أغلبية الفرنسيين - على الأرجح - بأصواتها في صالحهم ، ولكنهم في تلك اللحظة بالذات كانوا عاجزين عن السيطرة على القوى الفعلية التي يحسب لها الحساب . وفي ٢٤ أبريل قدموا لمحكمة الثورة أبغض انيعة جميعا اليهم « مارا » ولكنه برىء فكانت النتيجة ازدياد حقن الثوريين في باريس عليهم . فقد كانوا لا يكتفون عن الاحتجاج الصارخ على تصرفات الكوميون الذي دمجوه بالتآمر على حرية المؤتمر الوطني ، ونعلمهم كانوا على شيء من الصدق في هذا الاتهام ، ومع ذلك فقد أثار احتجاجاتهم هجوما جديدا عليهم . ففي ٣١ مايو سنة ١٧٩٣ هبت جماهير باريس تطالب باعتقال الجيروندي بوصفهم أعداء للثورة . وقد فرقت هذه الهبة الأولى ولكن هبة أخرى قامت في ٢ يونيو . فقد طوقت قاعة المؤتمر جمهرة من الباريسيين المسلحين تسليحا كافيا تحت قيادة قديرة سجن أعضاء ريشا تجاب مطالبها . فأصبح من الضروري النزول في النهاية على حكم القوة الشعبية فصدرت الأوامر باعتقال نفر كبير من الجيروندي . وأرسل هؤلاء الى السجن ليتمروا هناك بمحكمة الثورة ومنها الى المقصلة .

ويمكن القول بأن « عهد الارهاب » الذى بدأ فى الواقع فى أغسطس سنة ١٧٩٢ قد بلغ ذروته بسقوط الجيرونديين وفجوى هذا أن أقلية بل وأقلية صغيرة حازمة قد استولت على مقاليد الحكم ساعة المحنة وضربت بالاشكال الدستورية العادية عرض الحائط وراحت تسعى وراء هدف واحد هو الدفاع عن البلاد وابقاء السلطة فى أيديها. ولقد عرف التاريخ عهود ارهاب كثيرة ، بمعنى أنه شاهد الكثير من الحكومات التى احتفظت بسلطتها عن طريق العنف واشاعة الخوف فى نفوس معارضيه . الا أنه من دواعى السخرية أن اليعاقبة ظلوا - رغم قيام حكمهم على محكمة الثورة والمقصلة - يمارسون السلطة طوال الوقت باسم الديمقراطية وباسم سيادة الشعب .

أخذ عدد أعضاء المؤتمر الوطنى فى التناقص عام ١٧٩٣ وأخذت سلطته تنتقل تدريجيا الى اللجان . وجعل الكثيرون من أعضائه يتهربون من حضور الجلسات خشية المسؤولية ومع ذلك فقد ظل المؤتمر من الوجهة الاسمية أساس الحكم فى فرنسا ، فكانت تعرض عليه جميع أعمال اللجان للتصديق عليها .

وكانت « لجنة الأمن العام » هى أهم أجهزة الحكم فى فرنسا . وقد ظل يسيطر عليها حتى ١٠ يوليو « دانتون » الذى وقف نشاطه على تجنيد الاهالى وتجهيز الجيش واتخاذ التدابير الدبلوماسية التى يأذن له بها المؤتمر وزملاؤه . وقد اعترف خصومه أنفسهم بأن فرنسا مدينة ببقائها الى حد بعيد لمجهوده واخلاصه . وبالرغم من ذلك فقد سقطت عنه عضوية اللجنة حينما عرضت الاسماء على المؤتمر فى ١٠ يوليو ليصدر قراره باعادة تشكيل اللجنة وفقا للعرف المتبع .

وبوسعنا أن ننسب هذه الواقعة الغامضة الى ماجبل عليه دانتون نفسه من اهمال وقلة اكتراث من ناحية ، والى طموح خصومه الشديد من ناحية أخرى . وسرعان ما شغل مكانه فى اللجنة روبسبير الذى

اشتهر حتى ذلك الحين ، كأحد أتباع تعاليم روسو وكخطيب مفوه في الجمعية وفي نادى اليعاقبة . وهو لم يكن قد لعب دورا بارزا في سقوط الملكية ، كما ينبغي ألا يقرن اسمه بالذات بمذابح سبتمبر . على أنه قد تحمس لإعلان الجمهورية واعدام الملك ، وسوف يصبح اسمه من الآن فصاعدا حتى وفاته سنة ١٧٩٤ أبرز الأسماء في تاريخ الثورة . ولقد ظل حتى النهاية مثاليا يحلم ببناء مجتمع جديد في فرنسا عند زوال الأخطار الراهنة - مجتمع يقوم على الفضيلة ويستند الى الدين وقيم دعائم السلم ، وإن ارتبط - في الوقت الحاضر - بذلك النفر من اليعاقبة الذين يؤيدون استمرار حكم الارهاب وتعبئة كل قوى الحكومة للحرب ضد أعداء الثورة في الخارج والداخل . وقد كان روبسبير خطيبا يستحوذ على اعجاب مستمعيه ، وهو يعد قياسا على الذوق الانجليزى أبرع خطيب أنجبته الثورة ، وبعض خطبه تعتبر من الروائع أسلوبا وأفكارا . وقد كان يستمد معظم قوته من وقوفه خطيبا في الجمعية وفي نادى اليعاقبة . وهو لم يظهر قدرة خاصة على معالجة تفاصيل الحكم ولكنه كان محاطا بأصدقاء وزملاء مخلصين يعوضون نقصه . وقد أصبحت « لجنة الأمن العام » تضم الآن اثني عشر عضوا يمكننا أن نقسمهم على الوجه التالى : أولا ، مجموعة تضم خمسة أعضاء بزعامة كارنو تكاد تحصر عنايتها في تنظيم الجيش والبحرية ولا تتناول الشؤون الداخلية الا عندما يكون ذلك ضروريا لمصلحة الحرب ، ثم روبسبير وكوتون وسان جوست أو «الثاوث» كما كانوا يسمون وقد تكلمنا عن أهدافهم من قبل ، ويأتى أخيرا ثلاثة أعضاء هم « بارير » و « بيلوفارن » « كولو دى أربوا » . وهؤلاء كانوا ينتهجون سياسة مستقلة وكانوا دائبي الاتصال بالكوميين .

وقد تقدم اليعاقبة فى سنة ١٧٩٣ بدستور جديد ديمقراطى للغاية لم يلبث أن أقر وقدم للشعب ليقف شاهدا على المبادئ التى ما زال اليعاقبة ينادون بها والتى سيهتدون بهديها عندما يتيح لهم السلم الفرصة لارضاء نزعاتهم الحقيقية ، ولكن الدستور لم يكدرى النور حتى عطل .

وقد ظلت محكمة الثورة تعمل فى تلك الاثناء بجهد ونشاط ، وقد هون عليها مهمتها صدور « قانون المشبوهين » - فى سبتمبر سنة ١٧٩٣ - الذى يسمح بالاعتقال والسجن دون حاجة الى تقديم الدليل . فازدحت السجون وأصبح الرجال والنساء المقدمون لمحكمة الثورة يؤلفون سبلا لا ينقطع . وكانت أحكام البراءة نادرة وكان الاعدام بالمقصلة هو العقوبة التى تطبق على الجميع . ومن أشهر الضحايا فى شهر أكتوبر الملكة ماري انطوانيت وقد كان دانتون ميالا الى انتقاد حياتها لاعتقاده بأنها قد تفيد فى مساومة العدو ، ولكن عواطف الساعة كانت أقوى من أن تسمح له بذلك ، فقد اعتبرت عدوة الثورة الاولى ولم يكن ثمة مناص من لحاقها بزوجها الى المقصلة . وفى آخر أيام شهر أكتوبر أعدم عدد كبير من الجيرونديين . وفى ٦ نوفمبر أعدم « فيليب » دوق أورليان رغم أنه قد آزر الثورة وأغار قصره لمثيرى الخواطر وأدلى بصوته مع من طأبوا برأس الملك . ذلك أن صلتته بديمورييه قد رجحت كفة الادانة . وفى ١٠ نوفمبر أعدم مدام رولان ، السيدة الفاتنة البليغة التى كان يلتقى عندها أعضاء حزب الجيرونديين . وفى ١٢ نوفمبر واجه الموت « باتى » العالم الفلكى وأول رئيس « للجمعية الوطنية » لاصداره الأمر باطلاق النار فى سنة ١٧٩١ على الجمع الذى طالب باعلان الجمهورية . ولا يفوتنا أن نشير الى اعدام بعض القادة العسكريين من أمثال « كوستين » و « بيرون » بتهمة الخيانة أو التواني فى مطاردة العدو .

وفي أغسطس سنة ١٧٩٣ صدر الأمر « بالتجنيد الشامل » بمعنى أن جميع المواطنين أصبحوا مدعوين لاداء الخدمة العسكرية للدولة . ولكن بفضل تأثير دانتون عدل الامر الى صورة أيسر تنفيذا هي التجنيد الاجبارى لجميع من تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين ، فأدى هذا الاجراء الى اضافة ما يقرب من نصف مليون مجند الى عداد الجيش .

ويجدر بنا أن نلاحظ أخيرا أن قانون « الاربعين فلسا » قد أقر في سبتمبر سنة ١٧٩٣ وبمقتضاه يدفع هذا المبلغ لكل من يحضر الاجتماعات السياسية التى تعقدها الاقسام أو الاحياء الباريسية ، فجاء عاملا مشجعا على ازدياد مؤيدى اليعاقبة .

وهكذا قامت فى باريس حكومة صارمة حازمة بل وقوية أيضا لولا الانقسامات القائمة فى صفوفها . وقد واجهت هذه الحكومة أعداء خطرين فى الداخل والخارج على حد سواء . اذ نشبت فى عهدها حرب أهلية كبرى علاوة على الحرب فى لأقنديه وكان السبب الأكبر فى نشوب هذه الحرب هو سقوط حزب الجيروندي والخوف من أن يكون موقف الحكومة الجديدة عدائيا من الاقاليم . وقد ساد الاعتقاد فى البداية بأن معظم أقاليم فرنسا قد تمردت على العاصمة وأن الاغلبية الساحقة من سكان الريف على استعداد لحمل السلاح وسحق اليعاقبة . على أن هذه الحرب الأهلية سرعان ما انحسرت فى دائرة ضيقة نسبيا . فقد رفعت ليون راية العصيان أما طولون فلم تكتف باعلان مناهضتها للحكومة وانما فتحت ميناءها أيضا للاميرال «هود» والاسطول الانجليزى . فأرسل اليعاقبة قوات كبيرة الى الجهتين . وقد اقتحمت قوات الحكومة ليون فى سبتمبر سنة ١٧٩٣ وأنزلت عقابا قاسيا بسكانها . أما القوات التى زحفت على طولون فقد واجهت مهمة أشق لأن الاهالى كانوا يتلقون العون من بحارة السفن

البريطانية الأسبانية وقد قاد تلك القوات « ديجومية » ولكن أنظار الأجيال التالية تعلقت بأعمال مساعدة نابليون بونابرت . وقد استمر الحصار بعض الوقت ولكن الاستيلاء على المدينة تم في ١٩ ديسمبر سنة ١٧٩٣ فانسحب الاسطول البريطانى على الفور من الميناء بعد أن أحرق السفن والعديد من المخازن .

وبقيت الحرب فى لافنديه فكانت مهمة التغلب عليها أشق ، فقد أظهر الثوار الذين كانوا يحاربون فى أراضيهم وضد قوات جمعيتها الجمهورية على عجل ، صلابة نادرة ، وأرغموا الجمهوريين على الارتداد على أعقابهم المرة تلو المرة . عندئذ شجع النصر الثوار على توسيع نطاق عملياتهم فتجاوزوا حدود قوتهم . لقد تمكنوا حقا فى يونيو سنة ١٧٩٣ من الاستيلاء على مدينة « سومر » الهامة على نهر اللوار ولكنهم عندما زحفوا منها للهجوم على « نانت » منوا بالفشل وقتل قائدهم « كاثلينو » . وفى يوليو سنة ١٧٩٣ تمكنت الجمهورية من ارسال جيش أقدر على محاربة المتمردين ، ذلك أن مدينة «ماينز» استسلمت فى ذلك الشهر للبروسيين فسمح هؤلاء لحاميتها بالانسحاب بعد أن أخذوا على قواتها عهدا ألا يعودوا الى محاربة الحلفاء . وقد أول ذلك العهد على أنه يطلق لهذه القوات حرية محاربة الفنديين . فتبدل الموقف العسكرى فور وصولها الى المسرح الغربى للحرب . وفى أكتوبر سنة ١٧٩٣ نشبت معركة « شوليه » فهزم الفنديون فيها هزيمة ساحقة وقتل قائدهم . وأصبح هؤلاء يواجهون عدوا ظاهرا انتفوق . وقد أسفرت محاولتهم الأخيرة لعبور نهر اللوار بقصد التوغل الى نورماندى للحصول على معاونة العاطفين عليهم هناك ، عن هزيمة منكرة لهم عند « انجير » وكان من المحتمل أن تنتهى المتاعب الجدية التى تسببها حركة الفنديين عند هذا الحد لولا أن « كارييه » مندوب اليعاقة قد عمد الى تطبيق اجراءات تتسم بالقسوة

الوحشية ، فأثارت أحكام الاعدام التى أصدرها والفظائع التى ارتكبها المزيد من المقاومة واشتعلت نيران التمرد من جديد أكثر من مرة بعد أن كادت تخبث . فلما عهد الى « هوشيه » ، وهو أحد القادة الجدد الذين رقوا من صفوف الجند ، بقيادة الحملة هناك لجأ الى أساليب أكثر انسانية . فمنح فى ديسمبر سنة ١٧٩٤ العفو العام للفننديين . وفى فبراير سنة ١٧٩٥ انتهت الحرب فى الجهة الغربية بمعاهدة « لاجوناي » .

أما الحرب ضد القوات الاجنبية فقد تقلبت أحوالها بين النصر والهزيمة فمن فشل فى ربيع ١٧٩٣ وصيفه الى استعادة للقوى ثم انتصار فى خريف ١٧٩٣ وعامى ١٧٩٤ و ١٧٩٥ . وقد كان منتصف صيف ١٧٩٣ هو أحلك فترات هذه الحرب . ففى يوليو من ذلك الصيف استولى البروسيون من جديد على مدينة (ماينز) ومضت قواتهم لغزو الألزاس وفى نفس الشهر استولى النمساويون والهولنديون والانجليز على حصن « كوندى » الشمالى الهام . وفى أغسطس من نفس العام استسلم ميناء طولون كما أسلفنا الى الأميرال الانجليزى « هود » ، ولما كان العصيان قد شمل عدة مناطق ، فقد تبادر الى أذهان الأجانب أن انهيار حكومة الثورة قد أصبح أمرا وشيكاً . ومع ذلك فإن ما كان ينتظر فرنسا لم يكن الانهيار وانما كان النصر التام . وقبل أن تتناول الحوادث التى تمثل فيها هذا النصر سنبحث أسبابه بإيجاز .

ان السبب الأول هو أن فرنسا قد أصبحت تتمتع الآن بحكومة تتسم بالكفاية والهمة ، حكومة مصممة تماما على السيطرة على البلاد وشن الحرب النشطة ضد العدو الاجنبى . فان تشكيل لجنة الامن العام وسيطرة دانتون على هذه اللجنة وتوجيه كارنوت لدفة الحرب هى العوامل التى مكنت لنصر الفرنسيين . وكارنوت لم يث فى الجيش روحا جديدة فحسب بل زوده أيضا بأسلحة أجود ونظام أفضل.

وأفكار جديدة في الاستراتيجية والتكتيك مضمونها الأول التغلّي من الدفاع السلبي واتخاذ خطة الهجوم الحازم المتصل ، فهو لم يفتأ يردد أن سر الدفاع يكمن في الضربة المضادة ، فكان ذلك تطبيقا في مجال الحرب لعبارة دانتون الشهيرة « الاقدام . الاقدام . والاقدام دائما » ثم ان ضباطا جددا قد بدأوا يبرزون الآن من بين صفوف الجند ، وهؤلاء رجال كانوا ينتسبون الى الطبقة الوسطى ، ولبن كانوا قد تدربوا حقا في خدمة الجيش القديم فانهم قد وجدوا في الظروف الجديدة الفرصة السانحة لاطهار مواهبهم ونبوغهم . وكان أبرز هؤلاء « هوش » و « جوردان » و « بيشجرو » و « مورا » وهم من مؤيدي الثورة الغيورين عليها فهي وحدها التي يسرت لهم فرصة تترقى الى أعلى القيادات . وقد راحوا يحاربون العدو دون أن يحسبوا أى حساب للملكية أو العهد القديم . وقد سرت حماستهم في صفوف الجيش كله ، وللحماسة أهميتها الكبيرة . ومع ذلك فان الكتاب العسكريين الفرنسيين مجمعون على تحذيرنا من المغالاة في تقدير دور الحماسة وتنبيهنا الى أن الحماسة وحدها لا تكسب المعارك والحروب والى أن الفكرة التقليدية القائلة بأن الثورة الفرنسية قد كسبت حروبها بالحماسة قد أضرت اضرارا بليغا بخطط فرنسا العسكرية في بعض المناسبات التالية .

ان الفضل في تحول مجرى الحرب وفي تحقيق النصر الكامل على جيوش الحلفاء انما يرجع في المحل الاول الى فرنسا نفسها . ومع ذلك فان أسباب هذا التحول لا توجد كلها في فرنسا . فمن الاهمية بسكان أن ندرك أن الحلفاء لم يقفوا بحال وقفة رجل واحد ، وانه كان بينهم تباين في المصالح والاغراض ، وان التوتر بين بروسيا والنمسا قد بلغ في مسألة معينة ، هي مستقبل بولندا ، حدا كبيرا بحيث أنه في ذاته يكاد أن يكون كافيا للقضاء على فرص انتصار الحلفاء . ويمكننا أن نلخص الموقف بالنسبة للمسألة البولندية في

ذلك الحين كما يلي : راقبت جارات بولندة بعين الانزعاج عملية اعادة تنظيم الدولة تحت حكم الملك ستانيسلاس . فقد كانت هذه الجارات تخشى أن تجد نفسها ذات يوم مضطرة الى مواجهة دولة عسكرية خطيرة الشأن لا جارة ضعيفة تستطيع أن تسلب منها ماثشاء من المغنم . وعلى هذا فقد استقر رأيها على التدخل من جديد ، واقتطاع جانب من خيرة أراضي بولندة سواء وجدت الذريعة لذلك أم لم توجد . فقد تم الاتفاق على التقسيم الثانى فى يناير سنة ١٧٩٣ . فتقرر أن تنقسم بروسيا وروسيا الاراضى البولندية المتفق على اقتطاعها وأن تعوض النمسا ، الامر الذى يعتبر من حقها تطبيقا لفكرة التوازن الدولى ، فى الالزاس واللورين عندما يتم الاستيلاء عليهما من فرنسا . وقد تضاعف بمضى الوقت الامل فى امكان غزو هذين الاقليمين ، فصار موقف النمسا من حلفائها أقرب الى العداء الصريح وبدأت الدول الثلاث تشعر أنها قد تضطر الى استخدام جيوشها على ضفاف نهر الفيسستولا لا الى جواز الراين . وقد فرض هذا التقسيم الثانى على البرلمان البولندى بجرودنو فى سبتمبر سنة ١٧٩٣ . وهكذا نجد أن الشؤون البولندية كانت - فى اللحظة التى سنحت فيها الفرصة لتسديد ضربة حاسمة ضد فرنسا - تستأثر بالمزيد من الاهتمام الدول الشرقىة .

وفى ظل هذه الظروف تحول مجرى المعركة الى صالح فرنسا . وليس هدف هذا الكتاب أن يقدم سردا مفصلا للمعارك الحربية . على أنه لابد لنا من أن نذكر الوقائع البارزة . فى سبتمبر سنة ١٧٩٣ سار الجيش الفرنسى لفك الحصار الذى ضربه الجيش الانجليزى بقيادة دوق يورك على دنكرك ، فالتحم الجيشان عند « هوندشوت » وخرج الفرنسيون من المعركة ظافرين وتحقق لهم فك الحصار عن دنكرك . وقد تردد فيما بعد أنه كان بوسع القائد الفرنسى هوشار

أن ينزل بالانجليز هزيمة ساحقة لو أنه أظهر مزيدا من الهمة فأعدم بالمقصلة عقابا له على تقصيره الموهوم . وفى أكتوبر ١٧٩٣ أحرز « جوردان » نصرا عند « واتينيه » فتمكنت القوات الفرنسية من عبور الراين من جديد . وفى يونيو سنة ١٧٩٤ هزم جوردان قوات الحلفاء بقيادة دوق « كوبرج » عند « فليرى » . فلم يبذل الحلفاء أية محاولة أخرى لاسترداد بلجيكا من الفرنسيين ، وقد أظهر البروسيون الذين اتناهم القنوط وساورتهم الشكوك فى نوايا حلفائهم فى بولندة رغبتهم الواضحة فى الانسحاب من الحرب . وفى نهاية سنة ١٧٩٤ أرسل الجيش الفرنسى مرة أخرى لغزو « الأقاليم المتحدة » (هولندة) الأمر الذى فشل فيه ديموريه عام ١٧٩٣ . ولم تحدث أخطاء هذه المرة فدخل القائد الفرنسى « بشيجرو » امستردام فى يناير ، وكان الاسطول الهولندى عاجزا بسبب الجليد عن التحرك من مكانه بالقرب من الساحل الهولندى فتمكنت فصيلة من الفرسان الفرنسيين من الاستيلاء عليه لدهشة أوروبا كلها . ولم تنته الحرب الا أنه أصبح من الجلى بمجئ ربيع ١٧٩٥ أن فرنسا ستتمكن من التفاهم مع بعض أعدائها على الأقل .

ويجدر بنا أن ننتقل من انتصارات الثورة الفرنسية العسكرية هذه الى تاريخها الداخلى . ان حزب اليعاقة الذى حقق نصرا كاملا على خصومه من الجيرونند والدستوريين على السواء قد أصبح الآن منقسما على نفسه انقساما شديدا . ولقد شاهدنا كيف أن دانتون قد أسقطت عنه فى ١٠ يوليو سنة ١٧٩٣ عضوية لجنة الأمن العام ليحل محله روبسبير . ولقد ظل مع ذلك شخصية سياسية هامة ولكن أهدافه تغيرت بتغير الموقف ، وأصبح الآن وهو الذى كان يعد من غلاة الثوريين من دعاة الاعتدال والعودة الى النظام والاستتباب . وأصبح على صلة وثيقة فى هذه الشهور الاخيرة من حياته بكميل

ديمولان الذى تزعم الهجوم على الباستيل وكان ، باللسان والقلم ، من أبرز دعاة الثورة المتطرفين . وقد راح هذا الاخير ينادى بالاشتراك مع دانتون ، من فوق منصة المؤتمر الوطنى وعلى صفحات صحيفة جديدة أنشأها باسم « الكوردلى القديم » ، بالتخلى عن الارهاب والعودة الى نظام قوامه الانسانية والقانون متسترين فى أغلب الاحيان بأساليب الثورية والفكاهة الساخرة . وقد لقى هذان الرجلان تأييدا محسوسا فى المؤتمر وان لم يسيطرا مرة أخرى على أى من أحداث الثورة العظام .

وثمة جماعة أخرى من الساسة كانت تتألف من روبسيير وكوتون وسان جوست (الذين أطلق عليهم اسم الثالوث) وثلاثتهم من أعضاء لجنة الامن العام . وهؤلاء لم يعنوا بصفة أساسية بتسيير دفة الحرب وانما كان جل اهتمامهم منصبا على توجيه السياسة العامة الداخلية للثورة . وقد كان روبسيير بلا جدال شخصية محبوبة الى أقصى حد فى باريس ، وكان يؤازره عدد غفير من الاصدقاء والمعجبين المخلصين . وان مأساة حياته وسر فشله انما يتمثلان فى اضطراره الى القيام بما قام به من محاولات لبعث فرنسا وبنائها من جديد فى جو من الحرب والعنف . ولعل فشل هذه المحاولات كان مؤكدا على أية حال ، ولكن هذا الفشل جاء فى تلك الظروف عاجلا بل فوريا فكان فيه القضاء عليه . فهو قد حظى كما سنرى بساعة قصيرة من النصر تلاها سقوطه مباشرة . ويشبغى ألا تكون صفاته الحسنة سببا فى اغماض أعيننا عن نقائصه الواضحة ، فقد كان قبل كل شئء مجبولا على الخوف فكان من السهل اغراؤه - شأن الكثيرين ممن هم على شاكلته - باتخاذ اجراءات تتسم بالقسوة . وكان ذا خيلاء زاده خيلاء اعجاب أصدقائه به . وهكذا أصبحت الفترة التى سيطر فيها على فرنسا هذا النبى من أنبياء الانسانية والتلميذ الامين لروسو هى نفس الفترة التى عرفت فيها فرنسا عهد الارهاب فى أبشع صوره وأشدّها دمارا وهولا .

والى جانب هذين الحزبين يجب أن نذكر حزبا ثالثا كان يرتكز أقوى ما يرتكز على الكوميين أو مجلس باريس البلدى وأشهر أعضائه « هيبير » و « شوميت » . وقد صدرت منه عدة اجراءات هامة أقرها المؤتمر الوطنى . ولم تكن كل مقترحات أعضاء هذا الحزب متسمة بالتطرف أو السخف ، فاليهم يرجع الفضل فى ادخال عدة اصلاحات فى مستشفيات باريس ومدافنها ، وهم أصحاب فكرة ذلك النظام العشرى للموازين والمكاييل ، وهو نظام جدير بالاعجاب أصبح الآن مطبقا فى معظم أنحاء العالم وفيه نشاهد نموذجا واضحا لاسلوبهم فى التفكير ، فقد كانوا ينبذون كل ما هو تقليدى ويطبقون المقاييس التى تبدو لهم منطقية و « طبيعية » ، فكوحدة لقياس الابعاد نسبة معينة من محيط الكرة الارضية ، وكوحدة للوزن نسبة معينة من حجمها . ومن هذا الحزب أيضا جاء الاقتراح باستحداث تقويم جديد . فقد كان هناك شعور عام بأن الثورة تسجل بداية عصر جديد . ورويسبير نفسه قال ان فرنسا « تسبق بقية أنحاء أوروبا بألف عام » لذلك تقرر أن يتخذ هذا التحول العظيم بداية لتقويم جديد بحيث يوافق اليوم الاول من السنة الاولى فى هذا التقويم يوم اعلان الجمهورية فى سبتمبر سنة ١٧٩٢ على أن يعاد ترتيب الشهور . وقد بذلت محاولة - وهى لا تعد بحال المحاولة الاولى فى التاريخ - لتغيير الأسماء التقليدية العجيبة التى تطلق على مختلف شهور السنة واستبدالها بأسماء مشتقة من الظواهر الطبيعية التى تفترن بها . وبعد السنة والشهر جاء دور الاسبوع فتقرر الاستغناء عن الاسبوع المكون من سبعة أيام بمنشئه الشرقى وارتباطاته الدينية ، وتقسيم السنة الى أقسام من عشرة أيام يكون أحدها يوم عطلة . وقد طبق هذا التقويم الجديد بخواصه الطريفة العديدة فى فرنسا حتى قيام امبراطورية نابليون فى سنة ١٨٠٤ . ثم جاءت فكرة اتخاذ ديانة جديدة . كانت الديانة المسيحية - فى صورتها الكاثوليكية الرومانية خاصة - لا تزال

بلا ريب عقيدة السواد الاعظم من الشعب الفرنسى ، وسوف يبين المستقبل أنه مامن خطوة ستقتر بتأييد شعبى أقوى من رد اعتبارها والعودة الى الاعتراف الرسمى بها . ولكن الثورة كانت فى صورتها اليعقوبية تناوىء بشكل قاطع المسيحية والكاثوليكية معا . ثم انه كان ثمة شعور عام بأن الاوضاع الجديدة التى أوجدتها الثورة لن تكتمل ما لم تقترن بتغيير دينى ايجابى الامر الذى أعلنه روسو صراحة فى كتابه « العقد الاجتماعى » . وقد بدأت حركة التغيير الدينى فى بعض مراكز الاقاليم قبل أن تتبناها باريس . فقد ظهرت فعلا محاولات تلقائية بين الثوريين فى شتى أنحاء البلاد لايجاد شىء يصلح لان يكون بديلا للمسيحية الكاثوليكية التى كانوا مهئين للتخلي عنها . ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن هذه الحركة لم تصبح قط حركة قومية بمعنى الكلمة ، وانه ليس صحيحا أن الثورة قد ألغت المسيحية فى فرنسا ، فقد انحصر الاهتمام الأكبر بهذه الحركة فى باريس . وفى خريف سنة ١٧٩٣ عرضت شتى المغريات على قساوسة باريس للتخلي عن كهنوتهم والتنكر لديانتهم . وفى أوائل نوفمبر تنكر « جوبل » كبير أساقفة باريس ، الذى كان قد أقسم اليمين على احترام الدستور المدنى وبالتالي كان مقطوع الصلة بروما ، لديانته أمام المؤتمر . وفى ١٠ نوفمبر انتهكت حرمة كاتدرائية نوتردام باقامة هائل « عبادة العقل » الخرقاء . ولم تكن العبادة الجديدة ضربة من الالحاد، بل كانت أقرب الى صورة مبهمة جدا من الايمان بالله . وفى ٢٤ نوفمبر أغلقت جميع الكنائس فى باريس . وامتدت الحركة الى الاقاليم ، وقدر عدد الكنائس التى حولت الى « معابد للعقل » بنحو ٢٤٠٠ كنيسة فى فرنسا كلها . وسلامة هذه الحركة من الوجهة السياسية أمر مشكوك فيه الى أبعد حد . فقد انطوت على اساءة جديدة للمشاعر الكاثوليكية فى فرنسا كما أنها لم ترض بحال جميع الثوريين أنفسهم . وقد أبى روبسبيير وأتباعه - ولهؤلاء وزنهم - أن تقوم بينهم وبين عبادة

العقل صلة . فقد كانوا على تنكرهم لعقيدة فرنسا التقليدية ، حريصين على اصطناع عبادة تؤكد وجود الله بصورة قاطعة . فكان أن خلقت هذه الشعائر الجديدة بين جماعة رويسبير وحزب الكوميين هوة واسعة ستكون لها عواقب هامة .

وهكذا نستطيع أن نشاهد ظهور ثلاث جماعات بين اليعاقبة لكل منها أنصارها ، والخطوط الفاصلة بين هذه الجماعات أبعد ما تكون عن الوضوح . ولاشك أننا نجانب الصواب في تفسير هذه السنوات الزاخرة بالاضطرب والبلبلة إذا نحن رسمنا لها خطوطا واضحة دقيقة . وحسبنا هنا أن نذكر أن هذه الجماعات الثلاث قد انتقلت من التعاون إلى الخصومة المريعة وراحت تحارب بعضها بعضا وانتهى بها المطاف إلى أن ترسل كل منها بالأخرى إلى المفصلة . ومن الغريب أن يتبدل بها الحال على هذا النحو فقد ظل أعضاؤها طويلا حلفاء في نضال عظيم والخلافات في السياسة بينهم لا تبرر حدة العداوة التي تولدت بينهم ، ولكن من سنة الثورات أن تحيل كل خلاف إلى كراهية متعصبة وأن تجعل الناس يؤمنون بأنه لا بد من انتصار آرائهم على جثث خصومهم . ولا ترجع تلك النتيجة التي توصلوا إليها إلى الحماسة أو التعصب وحدهما وإنما ترجع قبل كل شيء إلى الخوف . فإن الثورة قد أراقت بحارا من الدم . فما أكثر المرات التي حققت فيها أهدافها بالاعدام وجز الرقاب حتى لقد ارتجت أعصاب الرجال وأصبح كل منهم يرى في خصمه السياسى سافكا لدمة متى واثته الفرصة . ونحن إذا مارحنا نتتبع الصراع الدائر بين هذه الجماعات وجدنا في معظم الاحوال صعوبة بالغة في تبين العامل الذى يتوقف عليه النجاح أو الفشل . فقد كان الامر مرهونا قبل كل شيء بتأييد نموغاء باريس المسلحين وهو تأييد ما أيسر كسبه وما أيسر خسارته وكان كل حزب يضرب ضربته إذا ما أحس بالاطمئنان إلى هذا التأييد . ومن الغريب أن يكون الفائز في النهاية لا دانتون ذا الهمة

والمضاء ولا هيبير العنيف وانما روبسيير المثالى ، القليل الحظ من روح القتال . كان أنصار هيبير هم أول الداهيين . ذلك أنه بدأ لفترة من الزمن أن النصر قد ينعقد لهؤلاء فحدث التقارب بين روبسيير ودانتون لمقاومتهم . ولعل الاجراء الذى كفل لروبسيير وأصدقائه النصر هو القانون الذى اقترحه سان جوست والذى يقضى بأن تخصص لاغائة الفقراء جميع أملاك الذين يعتقلون للاشتباه فى أمرهم . اذ كان فيه رشوة كبيرة لباريس ومن ثم فقد تحرك بنسب الساعه فى اتجاه روبسيير بصورة قاطعة . وفى ١٧ مارس اعتقل أنصار هيبير وفى ٢٤ مارس نفذت فيهم أحكام الاعدام . وبذلك بقى فى الحلبه السياسيه حزبان ، وان كان يجب ألا يغرب عن المناقش أولئك الاعضاء العسكريون بلجنه الامن العام الذين ظلوا يديرون دفعه الحرب من مؤخره المسرح وينفكرون فى السياسه من زاويه الحرب وحدها ويساندون الارهاب من أجلها وتحيط بأعمالهم سرية بل وربما خطوره أكبر من تلك التى تحيط بأقربائهم الآخرين الذين نالوا حظا أوفر من ذبوع الصيت . وقد كانت تربط بين دانتون وروبسيير صداقه قديمه والسبب فى صراعهما المفجع غير واضح . كان الاتهام الذى أثير ضد دانتون هو أنه يميل أكثر من اللازم نحو الرأف والمصالحه . انه حقا لم يكن يشكل خطرا على حياة روبسيير وأصدقائه وسلطانهم ، ومع ذلك فقد كان ثمة احتمال قائم دائما فى أن يكون قد نظم داخل المؤتمر حركة ماضد رجال عهد الارهاب كما سبق له أن نظم الحركة الكبرى ضد الملكيه .

ومن ثم فقد أحس روبسيير أنه مهدد طالما ظل دانتون وأعوانه على قيد الحياة . فاعتقل دانتون وكميل ديمولان وآخرون فى ٣١ مارس سنة ١٧٩٤ . وفى ٢ أبريل حوكموا أمام محكمة الثورة وكانت محاكمتهم من أشهر المحاكمات التى استأثرت باهتمام الاجيال التالية . وبدأ فى احدى لحظات المحاكمة أن وقوف هؤلاء المشاهير من أبطال

الثورة في قفص الاتهام قد يؤثر في الرأي العام ويسفر عن نشوب عصيان خطير ، لذلك صدرت الاوامر من لجنة الامن العام بانهاء المحاكمة على وجه السرعة . فتوصلت المحكمة الى قرار بالادانة بالطبع وفي ٥ أبريل أعدم دانتون وديمولان .

ظل الموقف غامضا بعد سقوط دانتون وموته . كانت لجنة الامن العام هي القوة الكبرى الوحيدة في فرنسا وظل كارنو وأعضاء الجماعة العسكرية بها يكرسون أنفسهم بنجاح لقضية طرد العدو الاجنبى من اراضى فرنسا ومطاردته في اراضيه . أما روبسبير وسان جوست وكوتون الذين كانوا أيضا أعضاء باللجنة فانهم لم يكونوا يتدخلون الا قليلا - بل لعلهم لم يتدخلوا بالمرة - في تسيير دفة الحرب ، وقد قامت بينهم وبين كارنو وأتباعه غيرة مريرة . كان سان جوست أقوى مؤيدى روبسبير وكان يحلم - مثل زعيمه الذى فاقه شهرة - باعادة بناء المجتمع الفرنسى وفقا للمبادئ التى اقترحها روسو من ناحية ، ووفقا لتقاليد اليونان وروما من ناحية أخرى ، بحيث يصبح مجتمعا مسالما زراعيا ينشأ الناس فيه على الاخلاص لوطنهم ويخلق منهم التعليم فرنسيين من طينة مختلفة تماما عن طينة عامة الفرنسيين في القرن الثامن عشر .

اصطدمت عبادة العقل كما أسلفنا بأراء روبسبير الذى كان يحذو حذو روسو في رغبته في ايجاد شكل من الدين يجمع بين البساطة والاعتراف الصريح بوجود الله . وقد بلغ من سيطرة روبسبير الكاملة على كل مايتعلق بسياسة فرنسا الداخلية أن المؤتمر الذى أمر منذ فترة وجيزة بعبادة العقل عاد الآن فأمر بالاعتراف بدلا منها بعبادة « الكائن الاعلى » . وفي ٨ يونيو أقيم الاحتفال ببدء هذه الديانة الجديدة النقية الخالدة أيضا فيما أمل روبسبير ، وقد اختير روبسبير نفسه رئيسا للمؤتمر في هذه المناسبة ، فسار على رأس موكب

من أعضاء المؤتمر وغيرهم الى حديقة التويلرى حيث أحرقت صور كثيرة احراقا رمزيا واختتم الحفل بالتبارى فى القاء الخطب التى تجلت فيها خيلاء روبسبير بصورة غير عادية . ومن المشكوك فيه أن تكون هذه الحركة قد وافقت حقا رغبات الكثيرين الا أنها قوبلت بشيء من الترحيب لأنه كان مأمولا أن تؤدي الى انتهاء عهد الارهاب ، بيد أن عهد الارهاب لم يكن لينتهى لأنه كان مرتكزا كما وضعنا على الخوف قبل سواء ، ورغم أن الخوف من العدو الاجنبى كان فى طريقه الى الزوال فثمة خوف آخر ظل قائما ألا وهو خوف كل زعيم سياسى من خصومه ومن الهلاك الذى ينتظره ان هو خسر المعركة وسقط . وعلى هذا فان الارهاب بدلا من أن ينتهى صار أحمى وطيسا من ذى قبل . وفى ١٠ يونيو سنة ١٧٩٤ صدر قانون عرف باسم « قانون بريرىال » نسبة الى اسم الشهر الذى صدر فيه فى تقويم الثورة الجديد . وقد قضى هذا القانون بتعديل اجراءات محكمة الثورة وتعجيلها . ودعا جميع المواطنين الى الوشاية بالخونة ، وأزيلت عن أعضاء المؤتمر الحصانة التى تحول دون القبض عليهم ، وحددت الادلة التى يصح الاستناد اليها لاصدار حكم الادانة تحديدا أشد غموضا وخطورة من ذى قبل . وعلى هذا ارتفع عدد الضحايا بسرعة ، فبلغ عددهم فى باريس وحدها فيما بين ١٠ يونيو و ٢٧ يوليو وهو تاريخ سقوط روبسبير ١٣٧٦ ضحية أى مايقرب من نصف العدد الاجمالى (٢٧٥٠) ولا يتجاوز عدد المنتمين من هؤلاء الى الطبقات التى كانت تتمتع بالامتيازات فى الماضى بل والى الطبقة الوسطى كذلك ٦٥٠ شخصا . من ذلك نرى أن تحدى روبسبير لخصومه وللمؤتمر ولما بقى من المشاعر الانسانية لدى الثوريين كان مباشرا ومثيرا فلم تتأخر النتيجة الطبيعية طويلا . كان سان جوست قد دعا منذ فترة الى اقامة ديكتاتورية تمشيا مع اقتراح روسوفى « العقد الاجتماعى » ، ومع أن اقتراحه لم يقبل الا أنه من المؤكد أن روبسبير وأصدقائه قد

وطدوا العزم فيما بينهم على اقامة شكل للحكم أشد تركيزا كى يشعروا بالمزيد من الامن ويتمكنوا من الانصراف الى مهمة البعث الاجتماعى للبلاد التى لا نشك فى أنها كانت عزيزة حقا على نفوسهم .

وقد افتتح روبسبير الحملة فى ٢٦ يوليو سنة ١٧٩٤ بخطاب غريب ، يتسم - شأن جميع خطبه بالبلاغة وحسن الاعداد - ألقاه أمام المؤتمر وانبرى فيه للدفاع عن نفسه بل تقريرها والحديث عن ظلم المعارضة له وضخامة عدد الاعداء الذين يقاومونه دون أن يذكر أحدا بالاسم . ولعل غموض ذلك الهجوم هو الذى أدى الى سقوطه فلو أنه عرض قائمة بأسماء الضحايا لكان من الجائز أن يوافق المؤتمر على اعتقالهم أما تلك العبارات الغامضة فانها تكاد تنطوى على تهديد لكل عضو من أعضاء المؤتمر دون استثناء . وهكذا نجد أن روبسبير لم يكذب يفرغ من القاء خطابه حتى استجمع المؤتمر أطراف شجاعته وأعرب عن استنكاره له برفضه الموافقة على تداوله كأحد البيانات الرسمية للثورة . فكانت صدمة لم يعرف لها روبسبير مثيلا من مدة ، فاتجه الى نادى اليعاقبة وهو فى أشد حالات الاستياء وهناك أعاد القاء الخطاب وسط التهليل العام . وقد بيت النية على أن يعاود الكرة فقدم بنفسه فى اليوم التالى الموافق ٢٧ يوليو (أو التاسع من ترميدو وفقا لتقويم الثورة) الى اجتماع المؤتمر فى العاشرة صباحا وكان يزعم بلا ريب ازالة الغموض الذى أحاط بخطابه الاول وتحديد أهدافه تحديدًا واضحا ولكن أعداءه ، أو بالاحرى أولئك الذين يخشون بطشه ، كانوا قد اتخذوا أهبتهم واتفقوا على منعه من الكلام ، فلما اعتلى المنصة التى تلقى منها جميع الخطب قوطعت كلماته الاولى بضجة عنيفة ظلت تتجدد كلما حاول الكلام . ولم تكلل جهود أنصاره الذين حاولوا الكلام بأى نجاح . لقد كان مشهدا لا يضارع فى هرجه واضطرابه وعنفه ، فلا بد أن معظم المثلين الذين شاركوا فيه كان

(٩)

يساورهم الشعور بأن حياتهم قد أصبحت في كفة القدر . وأخيرا توصل المؤتمر الى قرار باعتقال روبسبير وسان جوست وأتباعه المباشرين ، فسلم هؤلاء الى حراس المؤتمر ليلقوا بهم في غياهب السجن وبدأ أن الصراع قد انتهى .

غير أنه لم يكن قد انتهى بحال . فان الكوميين أو المجلس البلدى لمدينة باريس كان قد دخل منذ سقوط هير وشوميت فى دائرة نفوذ روبسبير وأصدقائه الذين آلت لهم بالتالى السيطرة على سجون باريس . فلما بلغت أنباء اعتقال روبسبير دار البلدية صدر الامر باطلاق سراحه وأعيد ظافرا الى هناك . ومن ثم فقد تبين المؤتمر عند عرذته الى الاجتماع عصر اليوم نفسه أن عدوه الخطير مطلق السراح وأن المسألة لم تعد الآن مسألة اصدار قرارات أو الحصول على أغلبية الاصوات وانما أصبحت متوقفة على القوة والسلاح . فأصدر الاعضاء قرارهم باعتبار روبسبير خارجا على القانون ثم انصرفوا الى تنظيم المعركة .

وقبل أن ينقضى يوم ٢٧ يوليو كان الطرفان قد أعدا نفسيهما للقتال ، فأنيط الدفاع عن دار البلدية الى هنريو الذى كان من أنصار روبسبير الموثوق بهم وان لم يكن فى الحقيقة جديرا بهذه الثقة . وأعد المؤتمر من جانبه ما استطاع من قوة ثم زحف بها للهجوم على دار البلدية . فلم يدر القتال بالمعنى الحقيقى للكلمة ، ومن الجائز أن روبسبير بات مكروها حقا وان باريس قد سئمت عهد الارهاب الذى كانت تنسبه اليه . ومن الجائز أيضا أن هنريو قد قصر فى تدابير الدفاع ، الا أنه من المؤكد على أية حال أن استحكامات دار البلدية قد اقتحمت وأن المهاجمين قد اندفعوا يصعدون الدرج قاصدين الغرفة التى كان روبسبير مجتمعاً فيها بأصدقائه ، وأنهم عندما دخلوها وجدوا روبسبير مهشم الفك راقدا على المنضدة .

ولا يمكن القطع بما اذا كانت اصابته قد حدثت بيده هو أم بيد غيره . وكان عدد من حلفائه قد قفزوا من النافذة فتكسرت أطراف البعض وسقط البعض الآخر في أيدي أعدائهم المتربصين لهم بالخارج . ولما كان روبسبير قد اعتبر من قبل خارجا على القانون لم تكن ثمة حاجة الى محاكمته اذ أن التعرف عليه كان كافيا في حد ذاته ، ومن ثم فقد مضى بشخصيته التراجيدية الغريبة الى المصير المفجع الذي أرسل اليه مئات الناس من قبله .

كان من الممكن أن يعتبر سقوط روبسبير مجرد واقعة من وقائع عهد الارهاب الكثيرة ، لو أنه أدى مثلا الى أن تؤول مقاليد الحكم الى اراهابي آخر أشد منه عنفا وأقل ضميرا ، غير أنه من واجبنا أن نذكر لوجه الحقيقة والتاريخ أن عهد الارهاب قد صار - اعتبارا من لحظة سقوط روبسبير - الى زوال سريع . وأسباب ذلك عديدة . فالموقف كان متسما في جوهره بعدم الاستقرار . ولم يكن من المعقول أن يكتب الدوام لحكم المقصلة في فرنسا القرن الثامن عشر ، فأخذ الرأي العام في باريس يتحول الى مناهضته في وضوح وعنفة ، ولكن ثمة سببين أهم من سبواهما جعلتا من اختفاء عهد الارهاب في تلك اللحظة أمرا محتوما . أولهما أن الخطر الاجنبي كان في طريق الاندثار السريع . وسنعود الى هذه النقطة في نهاية هذا الفصل . وحسبنا الآن أن نذكر أن فرنسا قد تحولت بعد معركة فيري الى دولة معتدية ، وأن الهجوم على حدودها الشمالية والشرقية والجنوبية قد بء بالفشل الذريع ، فأخذ الشعور بالطمأنينة والزهو حيال الموقف العسكري ينمو ويتصاعد ، وقد أضفى ذلك الشعور على وجود محكمة الثورة وسوق أفواج الضحايا الى المقصلة بلا انقطاع ، مظهر السخف والاجرام . ذلك أن قيام حكم الارهاب كان اجراء عسكريا قبل كل شيء فلما بدأ الخطر العسكري يتوارى توارى معه عهد

الارهاب . أما السبب الثانى - وان يكن أقل أهمية من السبب الاول - فهو أن سقوط روبسبير كان يعنى انتصار المؤتمر قبل أى شىء آخر . ذلك أن الصراع كان على أشده بين قوى المؤتمر وقوى الكوميين ، بين الهيئة التى تمثل فرنسا والهيئة التى تمثل باريس ، وقد آل النصر فى ذلك الصراع الى المؤتمر ، أى الى فرنسا . ولاول مرة فى تاريخ الثورة باءت بالهزيمة والخذلان محاولة استخدام القوة الشعبية لسحق ارادة نواب فرنسا المنتخبين . فأحس المؤتمر بمزيد من الثقة وراح يتخذ الاجراءات الضرورية ليؤمن لنفسه تلك السلطة التى فاز بها بعد كل هذا العناء .

أغلق الكوميون فور سقوط روبسبير - وأوكلت مهامه الى اللجان والمفوضين . وأعيد تنظيم محكمة الثورة فى ١٠ أغسطس كى تتمشى مع الاجراءات العادية فى القانون الفرنسى ، ألغى قانون « بريرال » . أعيد تشكيل اللجان التنفيذية فى أول سبتمبر ووضعت تحت اشراف المؤتمر المباشر ، فلم يعد للجنة الامن العام - رغم بقائها - ذلك الكيان المستقل الذى كانت تتمتع به من قبل . وفى ١٢ نوفمبر أغلق نهائيا نادى اليعاقبة ، ذلك المصدر الدائم للشورات . وفى هذه الاثناء أخذت أحكام الاعدام تتضاءل عددا بحيث يمكننا القول بأن عهد الارهاب قد انقضى بحلول شتاء ١٧٩٤ . ومن الحقائق الرمزية الملفتة للنظر أنه قد سمح لخمسة وسبعين من أعضاء حزب ليجيرونند المسجونين بالعودة الى مقاعدهم بالمؤتمر حيث صاروا عضدا قويا لحركة الردة عن عهد الارهاب . على أن العاصفة لم تسكن الا بعد تجدد الاضطرابات من حين لآخر . وثمة مصادفة شجعت على ذلك هى أن شتاء ١٧٩٤ - ١٧٩٥ جاء قاسيا بدرجة مروعة . فكان من المحتم أن تكابد البلاد عناء شديدا على أية حال ، ولكن تفشى الفقر واضطراب أحوال التجارة والمعاملات أدبا الى

تفاقم الشعور بهذا العناء . فقامت في باريس خلال شهر أبريل سنة ١٧٩٥ هبة من تلك الهبات التي باتت باريس تعرفها جيدا سميت بهبة جرمينال نسبة الى اسم الشهر الذي وقعت فيه في تقويم الثورة . وكان مطلب الثوار هو « الخبز ودستور سنة ١٧٩٣ » والارجح أن هذه الهبة لم تصل في أية لحظة من لحظاتها الى مرحلة الخطورة الحقيقية ، وقد تمكن « بيشجرو » الذي كان على رأس قوات باريس المسلحة من القضاء عليها بسهولة . وهكذا انتصر المؤتمر مرة أخرى ، فاقترن انتصاره باتخاذ المزيد من الاجراءات ضد اليعاقبة وعهد الارهاب . ومن ذلك نفى كبار الارهابيين واعادة تشكيل الحرس الوطنى ليصبح درعا للطبقة الوسطى ، ورد أملاك ضحايا المقتولة الى ذويهم .

وقد قامت هبة أخرى في مايو سنة ١٧٩٥ (هبة بريرال) . وكانت أهدافها ذات صبغة سياسية أوضح هذه المرة اذ كانت من تنظيم أعضاء حزب اليعاقبة القديم . وقد شكلت في احدى لحظاتها خطرا جديا اذ احتل الثوار قاعة المؤتمر وحاولوا أن يفرضوا عليه إصدار تشريعات تعود بفرنسا الى مبادئ سنة ١٧٩٣ و ١٧٩٤ ، ولكن خف لئجدة المؤتمر الوطنى لا الحرس الوطنى وانما القوات النظامية بقيادة مينو ومورا ، فتم اخراج الثوار دون ما مشقة ، واتخذت الخطوات على الفور لتعزيز الدفاع عن المؤتمر ضد مثل هذا الهجوم في المستقبل .

ثم وقع في ١٠ يونيو سنة ١٧٩٥ حادث كانت له عواقب هامة . فقد مات في السجن ابن لويس السادس عشر الصغير الذى كان جميع الملكيين يلقبونه بلويس السابع عشر . ولا حاجة بنا لان نشغل أنفسنا بتفاصيل قصة حياته المفجعة الأليمة . ولكن من الأهمية بمكان أن

نذكر أن وارث العرش الفرنسي قد أصبح ، من الآن فصاعدا وبلا منازع شقيق الملك الراحل ، الكونت دي بروفنس الذي سيقدر له أن يحكم في سنة ١٨١٥ باسم لويس الثامن عشر ، وإن كان في الوقت الذي نتحدث عنه ضابطا في خدمة جيوش العدو الاجنبي الموجهة ضد فرنسا . ولما كان هناك الكثير من الفرنسيين ، الملكيين اسما ، الذين لايتوقع منهم أن يقرؤا بحق عدو لوطنه في تولى العرش ، فقد رؤى أن من الحكمة التقدم على الفور بدستور جديد يزيل كل غموض حول نوع الحكم ويساعد على كسب من يستطيع كسبهم . وقد عرف هذا الدستور باسم دستور السنة الثالثة وقد ظل قائما بتعديلات طفيفة جدا حتى أسقطه نابليون عام ١٧٩٩ . وهو يبدأ بإعلان واجبات المواطن وحقوق الانسان ، ويقصر حق الاقتراع على من تتوفر لهم شرط الإقامة لمدة معينة ودفع ضرائب محددة . وهو ينقض قرار سنة ١٧٩٠ الذي نبذ فكرة قيام مجلس ثان إذ أنه لايمكنه بالنص على تأليف « مجلس الخمسمائة » من نواب تزيد أعمارهم على الثلاثاء بل ينص أيضا على تأليف « مجلس الشيوخ » من أعضاء تزيد أعمارهم على الأربعين ، ولهذا المجلس الأخير حق تعطيل (فيتو) التشريعات التي يقرها المجلس الاول وذلك لمدة عام واحد . وينص الدستور كذلك على حق المجلسين في الاجتماع خارج باريس . وقد أورد ذلك النص بقصد التخلص من تأثير جماهير باريس الخطير الذي طالما أحسه الناس أثناء الثورة ، فساعد - كما سنشاهد - على صعود نابليون الى السلطة . ولم ينص الدستور على أن يكون على رأس الدولة ملك بالطبع ولا رئيس للجمهورية ولا قنصل ، وإنما لجنة مؤلفة من خمسة أعضاء تحل محل لجنة الامن العام وتسقط عضوية واحد من أعضائها كل عام وقد عرفت هذه اللجنة باسم « حكومة الادارة » أو الديركتوار وتضمن الدستور نصا أخيرا كان

السبب المباشر في وقوع الانفجار التالي ، ونعني به النص الذي يقضى بسقوط العضوية عن ثلث أعضاء كلا المجلسين كل عام على أن يكون ثلثا أعضاء أول مجلسين من أعضاء المؤتمر الحاليين . وقد قامت الهيئة ضد فقرة الثلثين بالذات اذ أنها كانت تعنى أن الانتخابات لن تؤدي الى أى تغيير مباشر في طبيعة الحكومة وأن المؤتمر سيطيّل حكمه ولو لفترة محدودة ، ومن ثم فقد التقى اليعاقبة والجيروند بل والملكيون في معارضتهم لهذه الفقرة البغيضة . وفي ٣ أكتوبر قامت آخر حركة تستحق الذكر وهى حركة « فندمير » . فقد هبت باريس كما فعلت مرارا من قبل ولكن هبتها هذه المرة كانت أقوى تنظيما من سابقتها . على أن المؤتمر كان من جانبه مصمما أشد التصميم على تنفيذ مشيئته ومستعدا كل الاستعداد لدعوة الجيش للرد على مظاهرات القوة الشعبية . وقد أنيط الدفاع عن التويلرى وقاعة المؤتمر الى الجنرال بارا ، وكان مساعده نابليون بونابرت الذى ذاع حسيته من قبل لحسن بلائه فى حصار طولون . ولما وقع الهجوم على المؤتمر فى ٥ أكتوبر قوبل المهاجمون بنيران المدفعية وردوا على أعقابهم بسهولة . وقد بولغ كثيرا فى تصوير ذلك القتال فان خسائر الشوار الاجمالية لم تتجاوز فيما يبدو ١٠٠ نسمة . وانما تتمثل أهميته فى أن الحكومة المركزية قد أخمدت - مرة أخرى وبحزم أشد من أى وقت مضى - هبة شعبية . ولم يعد اذن لكلمة الشعب سحرها القديم الذى يشل عن الحركة ، فهامى الحكومة تتمسك بحقوقها حيال الشعب نفسه . والحادث ذو دلالة خاصة أيضا لان قيادة الجيش فى الداخل أسندت على اثره الى نابليون اعترافا بدوره فى اخماد الحركة . وبذلك وضع قدمه على السلم الذى لن يلبث أن يتسلقه الى العلا . وما ان حل ٢٦ أكتوبر سنة ١٧٩٥ حتى قضى المؤتمر نحبه . والتاريخ لا يعرف هيئة نيابية تفوقه شأنًا ، ولا يضارعه فى الاهمية سوى البرلمان الانجليزى المديد فى القرن السابع عشر .

ويجمل بنا أن نختم هذا الفصل بالقاء نظرة سريعة على الموقف العسكري . في أول يونيو ١٧٩٤ وقعت أولى العمليات البحرية الكبرى في الحرب . اذ كانت بعض السفن الفرنسية تحمل تموينا في طريقها إلى دخول ميناء برست فلما خرج الاسطول الفرنسي لمرافقتها وجد نفسه وجها لوجه أمام أسطول بريطاني بقيادة لورد هاو . ولم تسفر المعركة عن هزيمة ساحقة للفرنسيين الا أنها كانت حاسمة . فلم تجابه ، لفترة طويلة بعدها سيادة بريطانيا البحرية في المانش بأى تحد . وفي يونيو من العام التالي (١٧٩٥) تعاون البريطانيون مع النبلاء المهاجرين في تنظيم هجوم على « بريتاني » . وكان المأمول أن تلتقى القوة الفرنسية التي يتم انزالها في خليج « كويبرون » العون من الفلول المتناثرة الباقية من لافنديه . وقد تم انزال القوة الفرنسية بالفعل ولكنها ألقت نفسها محاصرة في شبه جزيرة كويبرون بجيش فرنسي بقيادة الجنرال هوشيه . فاضطر الملكيون إلى الاستسلام في النهاية وأعدم عدد كبير منهم . وبذلك خابت كل الآمال التي عقدت على قيام عصيان ناجح في الغرب ضد حكومة الثورة . وفي البر كذلك كان التوفيق حليف جيوش فرنسا في كل مكان تقريبا ، ولم ينشب أى قتال كبير يستحق الذكر . وكانت أهم حقيقة في الموقف أن بروسيا والنمسا قد أصبحتا تتخذان أحدهما من الأخرى موقف الخصومة الصريحة وان ظلتا حليفتين بالاسم . ونحن نستطيع أن نجد في الشئون البولندية - كما في الماضي - سببا من أسباب هذه الخصومة . ذلك أن التقسيم الثاني قد ترك هذا البلد التعيس عاجزا كل العجز عن تدبير شئونه بنفسه أو الاحتفاظ بمركزه كدولة من الدول الأوروبية ، فقرر أولئك الذين سطوا عليه مرتين من قبل أن يعادوا الكرة للمرة الأخيرة ، وقد دارت مفاوضات التقسيم الثالث بين النمسا وروسيا ، وأخفى أمرها عن بروسيا ورغم أنها منحت تصيبا من الغنيمة فإن ذلك لم يخفف بالمرّة من شعورها العدائى المفعم

بالظنون . وكان البروسيون ينفقون في الفترة الاخيرة من الاعانات المالية التي يتلقونها من الحكومة البريطانية ولولاها لتركوا الحرب من مدة ، ومؤرخوهم يعترفون بما في موقفهم يومئذ من مهانة ويتأسفون على ذلك . وأخيرا تم في سنة ١٧٩٥ اقرار السلام بين بروسيا وفرنسا في صلح بازل . وبوسعنا أن نلخص شروطه الهامة كما يلي : الشروط العلنية وهي تتضمن احتلال فرنسا للضفة اليسرى للراين الى حين عقد صلح عام وتعهد فرنسا بالامتناع عن القيام بأية عمليات حربية في شمال ألمانيا وبالاغتراف بحق بروسيا في القيام بدور الوسيط لاية دولة ترغب في الصلح . والشروط السرية وهي تتضمن التعهد بتعويض بروسيا عن الاراضى التى جلت عنها على الضفة اليسرى للراين بأراض أخرى في ألمانيا ، وبذلك قبلت بروسيا أن يكون تعويضها عن الاراضى الألمانية التى رضيت بالتخلي عنها لفرنسا على حساب الولايات الألمانية الصغرى وتقرر أن يتم الاتفاق سرا فيما بعد بين فرنسا وبروسيا على رسم حدود أراضى شمال ألمانيا التى وافقت فرنسا على الامتناع عن القيام بأية عمليات حربية فيها .

كان الصلح مهينا لبروسيا وقد حالت شروطه دون اعتبارها في ذلك الحين مشكلة أو حامية بأى وجه من الوجوه لمصالح ألمانيا ككل . وكان كسب فرنسا هائلا . اذ كان الصلح بمثابة انتصار ، وان لم يكن عسكريا بحثا ولكنه انتصار على أية حال ، على أعظم دولة عسكرية في القارة الأوروبية ، فبدأ بشيرا بانهيار كل مقاومة للجمهورية الفرنسية . وفي مايو سنة ١٧٩٥ عقدت هولندة صلحا مع فرنسا ووعدت بالانضمام الى صفها في الحرب ضد انجلترا وتم ضمها الى الجمهورية الفرنسية في كل شىء عدا الاسم ، وفي يوليو سنة ١٧٩٥ انسحبت أسبانيا من الحرب بعد أن نزلت عن جزيرة سان دومينجو للجمهورية الفرنسية وتعهدت بالتنازل عن بعض

الاراضى الاخرى . فبقيت النمسا وانجلترا وحدهما فى الميدان .
واسوف يقتضى الامر عدة سنوات من الحرب لارغامهما على قبول
الصلح ، ولكن النصر الذى تحقق حتى الآن كان فى ذاته مذهلا .
وكلمنا راح الناس يتذكرون بأية ثقة كانوا يتنبأون بسقوط الجمهورية
العاجل فى ١٧٩٢ ثم فى سنة ١٧٩٣ ، ثم يجيلون النظر فى هجمات
جيوش تلك الجمهورية وتكتيكاتها الحديثة واستراتيجيتها الجريئة
وكيفية انتصارها فى النهاية ، اتضح لهم أن دولة جديدة من نوع
خطير يتجاوز كل تقدير قد دخلت تاريخ أوروبا .

الفصل الرابع ارتقاء نابليون إلى السطوة

ومن الآن فصاعدا ستنافس انتصارات الجيوش الفرنسية قصة التطور الداخلي في فرنسا في إثارة انتباهنا ، حتى تصبح عرضة لان تلقى أنفسنا قد نسينا ما يدور داخل فرنسا نفسها كلية وركزنا أبصارنا على انتصارات نابليون الفردية وحدها . لقد كان نابليون بلا ريب رجلا خارقا في حدة ذكائه وقوة شخصيته ، ولن يتعذر على من كان مثله أن يشق طريقه إلى أسمى المناصب تحت أى ظروف وفي أى بلد . فقد كان يتميز بجلده على العمل ، وقدرته الهائلة في التنظيم ، وبصيرته الحاضرة ، وشجاعته الفائقة واستعداده الكامل لتحمل المسؤولية ، ومضائه في تنفيذ أية خطة يأخذ على عاتقه تنفيذها - أى أن جميع صفات الجندي قد اكتملت في أعلى صورها . وكان يملك الى هذا كله موهبة العبقرية التي تستعصى على التحليل . ولكن في صعوده ما هو أكثر بكثير من مجرد قصة رجل قدير يفوز لنفسه بمكانة سامية في العالم . فان هذا الحادث انما يعكس كذلك أحد القوانين العامة التي نستطيع أن نقتفى آثارها على سطح التاريخ . فبوسعنا أن نشاهد دائما كيف تنتهي حقبة الاضطراب والثورة باقامة حكم قوى غالبا مايكون حكما فرديا . والمثلان اللذان يرد ذكرهما عادة كلما تناول المؤرخون سيرة نابليون هما انشاء الامبراطورية الرومانية على يد يوليوس قيصر بعد قرن من الاضطرابات والثورة في روما ، وقيام حكم أوليفر كرومويل الفردي على أثر نورة « البيورتان » ولكن هذين المثلين انما هما أبرز الامثلة فقط ،

فنحن نستطيع أن نجد أيضا شيئا من هذا القبيل في مجيء ملكية
التيودور بعد حروب الوردتين وفي انتهاء حرب المائة عام في فرنسا
بما جلبته من اضطرابات وآلام بتركيز السلطة في يد الملكية على عهد
شارل السابع ولويس الحادي عشر ، وكذلك في انتشار الحكم
الفردى بصورة عامة جدا عقب حرب الثلاثين عاما في ألمانيا . ومثل
هذا التطور الذى يتخذ شكل الظاهرة العامة لا بد وأن تكون له
أسباب مشتركة وهى أسباب ليس من العسير علينا أن نتيينها . فان
المجتمعات التى تمر باضطرابات كبرى لأى سبب من الأسباب تشعر
بالحاجة الى قيام نظام مستتب ، باعتباره أول مستلزمات حياتها
الاجتماعية . فاذا عجزت عن بلوغ مرادها بالوسائل الدستورية وعن
طريق الاتفاق المتبادل وممارسة الحرية ، رضيت بالحصول عليه على يد
جندى قوى . وبوسعنا أن نشاهد أيضا كيف ينتقل البت في مصائر الأمور ،
في مثل هذه الثورة التى كنا تتناولها بالبحث وفي الفترات التى
يسودها الاضطراب كتلك التى أشرنا اليها ، الى أولئك الذين
يملكون زمام أكبر قدر من القوة بمعناها المادى . وفي فرنسا على
وجه التخصيص نجد أنه لم يكن لارادة الشعب وأصوات المواطنين
القرار الاخير فى أية مسألة هامة تقريبا منذ ١٧٩٣ رغم ما كان يكال
لهذه الارادة من ضروب الثناء والتعجيد . فقد سقطت الملكية بالعنف
، بالعنف قامت الجمهورية وبالعنف أُنقذت ، وبالعنف صعد روبسبير
وبه سقط . لذلك أصبح من الطبيعى أن تحكم فرنسا آخر الامر
بوساطة العنف فى أرقى صوره : لا بوساطة غوغاء باريس الصاخبة
وانما بوساطة كتائب فرنسا المدربة الظافرة . ويجدر بنا أن نلاحظ
أخيرا أن فرنسا كانت قد بدأت تسأم المشاحنات السياسية
والاجتماعية . لقد تحققت جزئيا آمال سنة ١٧٨٩ الحماسية بيد أنه
ثبت فى أغلب الحالات أنها غير قابلة للتحقيق . واذ راح الناس
ينظرون بعين السخرية والعداء الى مشاحنات الساسة الحزبيين الذين

لم يترجموا قط أقوالهم الرنانة وأمانيتهم الضخام الى أفعال ، أخذ انهيأرهم بالانتصارات التي أحرزها قواد الجمهورية يتزايد ، تلك الانتصارات التي لن يلبث نابليون بونابرت أن يمنحها للجمهورية في صورة أوفى وأروع . ان ماكاد يوصى به روسو في « العقد الاجتماعي » وما تنبأ به « بيرك » في فقرة رائعة من « تأملاته حول الثورة في فرنسا » يوشك الآن أن يتحقق . فلن يلبث المطاف أن ينتهي بتلك الحركة التي بدأت بالرغبة المتوقدة بل الرغبة المغالية في نيل الحرية ، الى قيام حكم دكتاتوري عسكري (١) .

ولد نابليون في سنة ١٧٦٩ بأجاسيو بجزيرة كورسيكا من سلالة ايطالية ، بعد مضي عام على انفصام الرابطة الطويلة بين كورسيكا وايطاليا وضم الجزيرة الى فرنسا رغم ما بذله « باولي » من جهود لصيانة استقلالها وعطف بريطانيا على هذه الجهود ومؤازرتها لها بين

(١) تأمل روسو في أواخر كتابه « العقد الاجتماعي » في ضرورة وجود صك يقضى بتكليف أفضل المواطنين يرعاية شئون الدولة عندما تتعرض سلامة البلاد للخطر . ويقول في جزء متقدم من الكتاب « ان قلبي يحدثني بأن هذه الجزيرة الصغيرة (كورسيكا) ستذهل أوروبا في يوم من الأيام » على أن قوله هذا لا يعدو بأن يكون رجما بالغيب شاءت له الصدفة أن يصدق أما كلمات « بيرك » التالية التي كتبها في بداية الثورة الى « شاب صغير في باريس » فهي من قبيل النبوءة التاريخية الأصلية لأنها تنبعت عن الادراك الصادق للموقف: « ان ضباط الجيش يطلون اذا مازالت عن السلطة القديمة هيبتها وراح الجميع يتذبذبون ، متمردين منقسمين على أنفسهم لفترة ما حتى يظهر في صفوفهم قائد يجيد فن كسب قلوب الجند ... فترنو اليه ابصار الجميع ، وتطيعه الجيوش تقديرا لشخصه هو ... على أنه بمجرد أن يحدث ذلك سيصبح الشخص الذي ياتمر الجيش فعلا بأمره سيدكم وسيد ماليكم (وليس هذا بالشئ الكبير) وسيد جمعيتكم وسيد جمهوريتكم بأسرها » انظر « تأملات حول الثورة في فرنسا » (اكتوبر ١٧٩٠) المجلد الثاني من الكتابات المختارة لبيرك (مطبعة كلارندون ١٨٧٧ ص ٢٦٠ .

الحين والحين . وهكذا ولد نابليون مواطنا فرنسيا . واذا كان من أبناء أسرة ضخمة فقد رأى له أن ينشأ منذ باكورة صباه نشأة عسكرية فأرسل في سنة ١٧٧٩ الى الاكاديمية العسكرية في « بريين » . وفي سنة ١٧٨٥ عين ملازما ثانيا في احدى كتائب المدفعية وكان حينذاك متقد الحماسة لآراء « روسو » ولفكرة قيام جمهورية على النمط الكلاسيكي واستقلال كورسيكا . فلما نشبت الثورة رحب بها . وقد حظى الجمهوريون باعجابه الشديد ومن المعروف أنه عقد صداقة وثيقة بعض الشيء بشقيق روبسبير . وعندما سقطت الملكية على اثر الهجوم الذي قامت به جماهير باريس في ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٢ كان هو عاطلا عن العمل . وقد شاهد طرفا من أحداث ذلك اليوم وسجل اعتقاده بأنه كان في الامكان تفريق الجماهير الظافرة دون ماصعوبة بواسطة عدد من الجنود المدربين . وقد اشترك بعد ذلك بقليل في اخماد ثورة في كورسيكا ، ومنذ ذلك الحين أخلت وطنيته المحلية السبيل لاخلاصه الصادق لفرنسا . وفي ديسمبر سنة ١٧٩٣ لعب دورا هاما — وان لم تكن أهميته بالدرجة التي صورت بها في بعض الأحيان — في الاستيلاء على طولون من البريطانيين . وفي سبتمبر سنة ١٧٩٥ أُنقذ المؤتمر كما رأينا في ختام الفصل الثالث من هجوم الثوريين . وفي سنة ١٧٩٦ أى في السابعة والعشرين من عمره تزوج أرملة هي جوزيفين دي بوهارنيه البالغة من العمر اذ ذاك الرابعة والثلاثين ، ويبدو أنها كانت غافلة تماما عن شخصية الرجل الذي تزوجته والمستقبل العريض الذي ينتظره فرفضت مصاحبته الى أول حروبه ومشاركته مشاقها وأمجادها .

ظلت الجمهورية كما شاهدناها في حالة حرب مع بريطانيا والنمسا . رغم أنها قد أخرجت من الميدان معظم أعدائها . ولا حاجة بنا الى الافاضة في الحديث عن بريطانيا . حسبنا أن نذكر أنها تخلت بعد

سلسلة من المحاولات الفاشلة عن التفكير في إيقاع الهزيمة بالفرنسيين برا ، ولكن سيطرتها على البحار ظلت تشكل خطرا دائما على مستعمرات فرنسا وممتلكاتها ، فقدمت بذلك عونا كبيرا غير مباشر للنمسا . وقد شرعت حكومة الادارة ، وهو الاسم الذى أطلق على الحكومة الفرنسية الجديدة ، ترسم الخطط كى تسدد الى قلب الدولة النمساوية ضربة قاضية تحقق لها النصر والسلم . وتحقيقا لهذه الغاية تقرر أن تزحف جيوش فرنسا الرئيسية انى فينا بقيادة الجنرالين « مورو » و « جوردان » عن الطريق المعروف جيدا ، طريق الغابة انسوداء والدانوب . كما تقرر أن يساند جيش آخر الهجوم الرئيسى وان يستدرج جزءا من الجيش النمساوى الى ميدان آخر وذلك بشن هجوم على الممتلكات النمساوية فى ايطاليا . وقد عهد بهذا الهجوم الثانوى الى نابليون بونابرت فجعله بعبريته الفذة الضربة الأكثر أهمية .

لم تكن ايطاليا قد لعبت منذ عدة قرون أى دور مستقل هام فى السياسة الأوروبية ، ولم تسهم منذ قرن ونصف قرن الا بالقليل فى حياة أوربا الفنية والأدبية والعلمية . الا أن ريحا جديدة لن تلبث أن تهب على شبه الجزيرة بعد غزو نابليون لها ، فتتحرك جوها الساكن وتوقظها من سباتها لعميق فلا تعود اليه تط . وقد كانت ايطاليا تتألف حينذاك من عدة دول . فكانت هناك أولا على جانبى جبال الألب مملكة سردينيا التى يعد اطلاق هذا الاسم عليها من الأمور العجيبة لان مركزها الحقيقى لم يكن يوجد فى الجزيرة التى سميت باسمها وانما فى أودية نهر « البو » العليا المعروفة باسم « بيدمونت » وفى جبال سافوى بسكانها الاشداء الذين عرفوا بروحهم العسكرية وحسن خضوعهم للنظام . وكانت هذه المملكة قد أصبحت منذ مدة بيدفا هاما فى لعبة الدبلوماسية الاوروبية بسبب موقعها الجغرافى وطبيعة

شعبها . على أنه لم يكن ثمة ما يجعلها تستحق أن توصف في ذلك
الحين بأنها أكثر تحررا من أية دولة أخرى في إيطاليا ، ولا كان هناك
قطعا ما يوحى بأن القدر قد اختار ملوكها لتتال إيطاليا على أيديهم
الحياة الدستورية الموحدة التي حلم بها مفكروها . فاذا ما اتجهنا
فليلا الى الشرق وجدنا دوقية ميلان الهامة التابعة للبيت النمساوى ،
وقد أضفينا عليها صفة الاهمية بسبب ثرائها العريض وامكانياتها
التجارية الضخمة ولأنها تسيطر كذلك على الطريق الذى تمر منه
القوات النمساوية عبر التيرول الى إيطاليا ، فحسون ماتتوا ولنأجو
وفيرونا وبيشيرا التى تؤلف الرباعى الشهير هى التى كانت تحافظ على
الاتصال بين النمسا وإيطاليا . واذا ما توغلنا الى الشرق مرة أخرى
شاهدنا أقدم الدول الاوربية وأشهرها فى بعض النواحي ، ألا وهى
جمهورية البندقية الغارقة الآن فى حال من التأخر والتى لن تلبث أن
تسقط بضربة هينة من الفاتح العظيم الذى يوشك أن يدخل إيطاليا .
فاذا اتجهنا الى الجنوب قليلا وجدنا دوقيات مودينا وبارما وتوسكانيا
وكلها مرتبطة بالبيت المالك النمساوى ارتباطا وثيقا سواء بحكم
المصاهرة أو الاتفاقات السياسية . والى الغرب نجد جمهورية جنوا
التي تعد نظيرة لجمهورية البندقية وان تكن أقل تشويقا منها ، وقد
كانت مثلها غارقة فى حال من التأخر . وفى وسط إيطاليا كانت تمتد
الولايات البابوية التى تؤلف حكومة من أغرب الحكومات الاوربية ،
ولا يتوفر لها سوى القليل من مقومات الدولة الحديثة وان درج
القانون العام الاوروبى على الاعتراف بها كدولة مستقلة وحظيت
باحترام خاص من جانب كبير من أوروبا بسبب ارتباطها برئيس
الكنيسة الكاثوليكية الرومانية . أما جنوب إيطاليا فكانت تشغله
أكبر الدول الايطالية طرا وهى مملكة نابولى التى تقرب مساحتها من
نصف مساحة شبه الجزيرة الايطالية برمتها . وكانت هذه المملكة
تختلف وشعبها اختلافا بينا عن بقية البلاد حتى أن الوحدة التى أدت

الى ادماجها جميعا فى دولة مركزية واحدة بدت فى نظر الكثيرين غير طبيعية ومنافية لدواعى الحكمة . وكان ملك نابولى سليلا للبوربون وصهرا للبيت النمساوى . فاستهدفت المملكة بذلك لكراهية فرنسا الخاصة وصار من حقها فى الوقت نفسه أن تتطلع الى صداقة النمسا ومؤازرتها .

ان الحملة التى تبدأ الآن تعد من أكثر حملات نابليون استرعاء للنظر لاسيما وأنها أظهرت لأول مرة مدى عبقرية نابليون ، وأبرزت جسامته وسرعته فى اتخاذ القرارات والعمل ، وقدرته الاكيدة على التمييز بين الممكن وغير الممكن ، تلك القدرة التى لم تفارقه حتى مرحلة متأخرة من حياته العملية . ومن الوجهة العسكرية البتحة يجدر بنا أن نشير الى الأهمية الكبرى التى كان يعلقها على استخدام المدفعية وأن نوه باصراره على تجنب الوقوف موقف الدفاع وتمسكه بنوجيه الحملة على أسس هجومية حتى عندما تكون قواته أقل عدداً من قوات العدو . ويجدر بنا أن نلاحظ كذلك ملاحظه العسكريون فى عصره من أن طبيعة جيشه قد مكنته من أن يفعل ما لا تستطيع أن تفعله الجيوش الأخرى . ذلك أن جيشه كان يتألف فى معظمه - وان ضم عناصر شتى - من جنود معينين بأمر القضية التى يحاربون من أجلها ولا ينظرون الى قائدهم نظرتهم الى حاكم فظ قضت ظروف العيش أن يعملوا فى خدمته لقاء أجر بخس يدفعه لهم كآرها . فكان بوسعه أن يرسلهم فى مهام استطلاعية ، فرادى أو جماعات صغيرة ، دون أن يخشى فرارهم ، الأمر الذى لا تستطيعه القوات التى يحاربها . ولئن كنا سنفرد - تمشياً مع الخطة التى رسمناها لهذا الكتاب - أقل حيز ممكن لتفاصيل هذه الحملات الفريدة فان هذا الاغفال للتفاصيل من جانبنا لا ينبغى أن يفهم منه أن هذه الحملات لم تكن لها أهمية قصوى فى تحديد تطور أوروبا ورسم مصائرها . فمن السخف البالغ

أن تستبغ مقادير القارة الأوروبية دون أن نضع اعتبارا للحروب التي دارت بكل تلك الكثرة فوق أرضها . فما من بلد أوربي لم ترتعن حالته بحرب كسبت أو حرب خسرت ، وما من جانب من جوانب حياة القارة العمامة الا وقد تركت الحرب فيه آثارها . ونحن لا نستطيع أن نتفهم حياة أوروبا التجارية أو الفكرية أو السياسية ما لم نرجع الى تاريخها العسكري .

كان الجيش الفرنسي عندما عهد الى نابليون بقيادته واقفا عند سافونا الى الغرب من جبال الالب الايطالية ، وقد مضت عليه فترة من الزمن وهو يحاول عبثا أن يجد أو يشق لنفسه طريقا عبر الجبال . فما هي الا برهة وجيزة على تولى نابليون القيادة حتى وجد الطريق . وقد ألقى نابليون نفسه أمام جيش مشترك من السردنيين والنمساويين الا أنه استطاع أن يعزل بينهما وينزل الهزيمة بالسردنيين في موقعة موندوفي ويفرض عليهم قبول هدنة كيراسكو (٢٨ أبريل ١٧٩٦) التي انسحبوا بموجبها من الحرب متنازلين عن سافوى ونيس لفرنسا

وبقيت النمسا في المعركة فلم يضيع نابليون وقتا في منازلتها ، فزحف الى ميلانو لا بقصد الاغارة على المييلانيين فحسب وانما لعزل النمساويين عن بيدمونت كذلك . وكانت أولى معاركه الكبرى عند لودى في ١٠ مايو سنة ١٧٩٦ ، وقد أسفرت عن نصر عظيم له . فانسحب النمساويون على الفور الى مسافة بعيدة شرق ميلانو وتركوها لنابليون فدخلها وسط مظاهر الحماسة الشعبية الفائقة ، ذلك أنه لم يبدأ الامر غازيا وانما بدا محررا فقبول مقدمه بالترحيب لا من جانب أنصار التحرر وحدهم وانما من جانب رجال الدين في المدينة كذلك . فلما تبين للايطاليين فيما بعد أن نابليون يريد منهم أن يدفعوا تكاليف الحرب ، وشاهدوه يفرض عليهم الضرائب الباهظة وينهب مدنها اذا مارفضوا دفعها ، تبدل شعورهم نحوه سரா ، على

آن المؤرخين الايطاليين مجمعون وان اختلفوا في حكمهم على نابليون على أن هذه الاحداث انما تسجل بداية الحركة التي قادت الايطاليين بعد مايزيد قليلا على ستين غاما ، الى الوحدة والحرية . وقد ضرب نابليون بعد دخول ميلانو الحصار على الحصن النمساوى الرئيسى فى ايطاليا ألا وهو حصن مانتوا العظيم الذى كانت تحصيه مدفعية قوية وتحيط به من معظم الجوانب بحيرات ومستنقعات يصعب اجتيازها . وكان مفهوما أن سقوط مانتوا سوف يعنى سقوط الحكم النمساوى فى ايطاليا ، فلم يكن تصميم النمساويين على فك الحصار عنه بأقل من تصميم نابليون على تشديد الخناق عليه . وقد اضطر نابليون فى أربع مناسبات مختلفة الى تخفيف حصاره له ليتمكن من منازلة الجيوش النمساوية التى أرسلت لقتاله فكان يهزمها المرة تلو المرة ، حتى أنزل بالنمساويين ضربة أخيرة حاسمة فى ١٤ يناير سنة ١٧٩٧ عندما تمكن فى موقعة ريفولى من تشتيت جيش نمساوى قوامه ٧٠.٠٠٠ جندى بقيادة ألفينزى . ولم يبق بعد ذلك مزيد من الامل لحصن مانتوا فاستسلم بعد فترة وجيزة . ولكن السلم لم يأت على الفور ، فقد اضطر نابليون كى يفرضه الى التقدم فى شمال ايطاليا الشرقى ميمما شطر جبال الالب الشرقية حتى بلغ مدينة لايباخ . ولم يكن مركز نابليون نفسه خاليا من الصعوبات . كما أن تقدم الفرنسيين فى ألمانيا كان بطيئا ولا يقارن بحال تحركاته الخاطفة فى ايطاليا . لذلك رأى من الحكمة ، مراعاة لمركزه الخاص من ناحية ولاحتياجات فرنسا من ناحية أخرى ، أن يوجه للأرشيدوق النمساوى شارل نداء لوقف الحرب . وقد أمكن الاتفاق على الهدنة فى ليوبن فى أبريل ١٧٩٧ . ورغم التوقيع على المقدمات فقد مرت فترة قصيرة من الزمن قبل أن يتطور الامر الى صلح . ذلك أن النمساويين لم يكونوا على استعداد لقبول الهزيمة ، فجعلوا يرقبون الاحداث فى باريس آملين فى نشوب ثورة ملكية هناك ، ولكن فآلهم خاب وأصبحت الجيوش الفرنسية

تضيق الخناق عليهم لا شرق الادرياتيک فحسب وانما على الدانوب كذلك . وعلى هذا اضطروا في ١٧ أكتوبر سنة ١٧٩٧ الى التوقيع على صلح كامبو فورميو في صورته الاخيرة . وقد تضمن الصلح بنودا علنية وأخرى سرية . وقد تم التنازل لفرنسا بموجب البنود العلنية التي سنوفيا حقها من الشرح بعد هنيهة عن الاراضى البلجيكية ، وتقرر اقامة جمهورية في شمال ايطاليا تسمى جمهورية شمال ايطاليا أو ماوراء الألب Cisalpine وأعطيت الجزر الأيونية لفرنسا ، وسمح للنمسا بالاحتفاظ بالبندقية وجميع أراضيها في ايطاليا وبحر الادرياتيک (وسنعود الى بحث هذه السياسة بحثا أدق فيما بعد) . وأخيرا تقرر دعوة مؤتمر في راشتاد تتم فيه تسوية شئون ألمانيا في اجتماعات تعقد بين ممثلى فرنسا والامبراطورية . أما البنود السرية فقد تعهد الامبراطور بموجبها بالتنازل لفرنسا عن مناطق ضخمة على الضفة اليسرى للراين على ما في ذلك من تخل مزر عن حماية الامبراطورية لا يستطيع أن يجاهر به . وتعهدت فرنسا من جانبها بأن تحصل النمسا على ولاية سالزبورج الكنسية الهامة ، وجانب من بافاريا ، كما تعهدت بأن يروسيا غريمة النمسا اللدود لن تنال أى تعويض على الاطلاق في التسوية الألمانية . هذا هو صلح كامبو فورميو الذى يعد نموذجا صادقا لديبلوماسية نابليون التي أثبت فيها براعة تكاد تضاهي براعته في فن الحرب ، وهو خير شاهد على استعداد الامبراطور الهابسبورجى في ذلك العصر للتخلى عن حماية ألمانيا سعيا وراء مغائم شخصية ضئيلة ، وهو يعطينا في النهاية فكرة صحيحة عن الطريقة التي ما برح يستخدمها نابليون طوال حياته العملية في تهدئة عداوة خصومه الأقوياء بالسماح لهم بابتلاع أراضى الدول الصغرى في أوروبا .

ويجدر بنا أن نوجه الآن المزيد من العناية الى التسوية الإيطالية التي تمت على يد نابليون والتي سيتوقف عليها مستقبل ايطاليا الى

حد بعيد . لقد شاهدنا كيف عوملت سردينيا في هدنة كيراسكو . كما شاهدنا أيضا كيف تم الاعتراف بجمهورية ما وراء الألب في صلح كامبو فورميو . وقد اتخذ هذا الاسم الغريب من تاريخ روما القديمة الذى كان يحرك في تلك الفترة خيال الفرنسيين . وقد تألفت هذه الجمهورية أول الامر من أراضى ميلانو وحدها تقريبا ، ولكن قامت بعد ذلك ثورات في بولونيا وفيرارا ورافينا وريجيو جنوبا وكانت كلها مرتبطة بالدولة البابوية ارتباطا واهيا . وقد انتهت هذه الثورات بادماج هذه البلاد في الجمهورية الجديدة بمطلق ارادتها . وبذلك قامت على أرض ايطاليا دولة جمهورية على النمط الحديث متأثرة بجميع المثل السياسية والاجتماعية التى بشرت بها الثورة الفرنسية . ان اسم هذه الجمهورية لن يلبث أن يتغير الى مملكة ، وطبيعتها سوف تتبدل ، ولن يقدر لها البقاء بعد موقعة ووترلو ، ولكنها رغم ذلك كله قد أعطت الايطاليين أفكارا عن الحياة الاجتماعية والسياسية لن تمحى من مخيلتهم قط وأول هذه الافكار جميعا فكرة قيام دولة ايطالية مستقلة . وكانت الخطوة التى تلت قيام الجمهورية للألبية - وسوف نطلق عليها من الآن فصاعدا اسم جمهورية شمال ايطاليا - هى سقوط جمهورية جنوا العتيقة الفاسدة واعادة تكوينها ، بعد ادخال المبادئ الديمقراطية فيها باسم الجمهورية الليجورية ، وهو اسم مستعار هو الآخر من التاريخ القديم . أما مصير البندقية فهو أدعى الى الاهتمام من مصير جنوه . فقد بذلت هذه الجمهورية الشهيرة قصارى جهدها للاحتفاظ بحيادها في الصراع بين نابليون والنمسا والوقوف بمنأى عن الحرب الدائرة على حدودها . ولو صح ما يذهب اليه البعض من أن بوسع أية دولة أن تصبح فى مأمن من غوائل الحرب ان هى لم تتسلح واختطت لنفسها طريق السلام ، لما كتب تاريخ أوروبا على النحو الذى كتب عليه . ذلك أن عجز البندقية لم يؤد الا الى جعلها لقمة سائغة للمنتصر ، فان نابليون لم يجد حين عقد الصلح مع النمسا

ورغب فى اقامة علاقات طيبة مع عدوه المهزوم وسيلة أفضل لتحقيق غايته من أن يسلم الى النمسا ممتلكات وحرىات وكيان هذه الجمهورية ذات المجد العريق التى لم ترتكب ذنبا ولا جرما .

لم يكن ثمة ما يبرر القضاء على استقلال البندقية مثلما لم يكن هناك ما يبرر تقسيم بولندة المرة تلو المرة . بيد أنه لم يكن من الصعب ايجاد بعض الاعذار الواهية ، فقد قامت فى برشيا وبرجامو بعض الحركات المناهضة لحكومة البندقية الاوليغركية ، فأتاح قيامها لفرنسا فرصة الظهور بمظهر المدافع عن « الديموقراطية » . كما وقع صدام بين الخامية الفرنسية والاهالى الايطاليين فى فيرونا فقدت فيه أرواح فرنسية . ولما أطلقت النيران على سفينة فرنسية عند دخولها الى ميناء البندقية ، راح ناپليون يندد بمرتكبى الحادث ويصفه بأنه « أفظع حوادث القرن » . واذا أدركت حكومة البندقية الخطر الذى يتهددها أسرع الى قبول شكل ديموقراطى للحكم ، وطرد حراسها السلاقونيين الذين اشتهرت بهم ، والسماح بدخول عدد من القوات الفرنسية . على أن ذلك كله لم يعد عليها بظائل ، فقد أسلمتها مغاهدة كامبو فورميو الى النمسا ، ولم تجد محاولة رشوة أعضاء حكومة الادارة فى فرنسا فتيلة ، فتم انتقالها الى تبعية النمسا فى أوائل سنة ١٧٩٨ . وكان الفرنسيون قد أحرقوا الكتاب الذهبى الذى يضم أسماء أعيان البندقية . فجاء النمساويون . ليدمروا الترسانة العظيمة ويتركوا سفينة « البوسنتور » التى كان « يزف فيها الدوج الى (١) الأدرىاتيک ليصيبها البلى وينخر فيها السوس ، فحق فى ذلك قول الشاعر :

« فأننا نحن بشر ولا بد أن نأسى

إذا ما انقضى الطيف بعد سالف العظمة

(١) الدوج هو اللقب الذى كان يطلق على حاكم البندقية .

وقد كان على الولايات البابوية أن تدفع كذلك ثمن الهزيمة، ولكن نابليون كان حريصاً على ترك الباب مفتوحاً لاستئناف العلاقات الودية مع البابا. فلئن كان صلح توليتينو (فبراير ١٧٩٧) قد أرغم البابا على التنازل عن أفنيون لفرنسا، وعن بولونيا وفيرارا ورومانيا لجمهورية شمال إيطاليا، واضطره أن يسلم لنابليون أموالاً ومخطوطات وصورا، فإن الشروط التي كانت تود أن تفرضها حكومة الإدارة كانت أشد وأقسى. ومن ثم فقد شعر البابا بالامتنان نحو نابليون لنجاته من مهانة أشد بئس وربما من الهلاك!

ويجدر بنا أن نترك الآن حروب نابليون لنعود إلى بحث متاعب فرنسا الداخلية. إن تاريخ فرنسا الداخلي يفقد في الفترة ما بين سنة ١٧٩٥ و ١٧٩٩ تلك الأهمية التي كانت له حتى يوم حركة فندمير، فإن الصراع الذي دار بين زعمائها في تلك الفترة كان في معظمه صراعاً قردياً أنانياً. وقد بدأ الجيش يتدخل من حين لآخر فيما ينشأ من صراع، وأخذ الحكم العسكري يقترب بوضوح.

ولقد عرفنا شيئاً عن طبيعة الدستور، وشاهدنا كيف ظل « انفصال السلطات » مبدأ عزيزاً في نفوس أصحاب النظريات من الفرنسيين. وينبغي أن نشير الآن إلى صعوبة معينة بدأت تتجلى عند العمل بهذا الدستور ألا وهي فقدان توفر الانسجام بين أعضاء حكومة الإدارة الذين تتألف منهم السلطة التنفيذية من ناحية، وبين المجلسين التشريعيين من الناحية الأخرى. ذلك أن خدمة ثلث أعضاء المجلسين كانت تنتهي كل عام مقابل انتهاء خدمة عضو واحد فقط من أعضاء حكومة الإدارة الخمسة. وعلى هذا فإن ميول حكومة الإدارة لم تكن تتمشى بالضرورة مع ميول المجلسين أو ميول الناخبين. وقد تألفت حكومة الإدارة أول ما تألفت من كارنو « منظم النصر »، والمهندس ليتورنيه، وبارا الذي اشترك مع نابليون في حماية المؤتمر

يوم هبة فندمبير ، ولا رفيير - ليو وهو من الجيروندي ، وأهم من هؤلاء جميعا روبل وهو يعقوبى من الالزاس كانت تتركز في يديه السلطة الكبرى .

وكانت المشاكل التى يتعين على هؤلاء الرجال مواجهتها عديدة وعويصة . فالموقف المالى كان يبدو ميئوسا منه . فقد انخفضت قيمة العملة الورقية التى أصدرتها الثورة assignats الى ما يوازي ١/١٠ من قيمتها الاسمية . وكان الموقف الدينى منذرا بالخطر ، فان « الكنيسة الدستورية » التى أقامتها الثورة كانت تفقر الى الحيوية ولم يعد لها وجود تقريبا ، والحركة الدينية الجديدة التى سميت « حب الخير » ، وهى حركة أسسها انجليزى وأصبحت مشمولة الآن برعاية أعضاء حكومة الادارة لا سيما ليو ، لم تتمكن - رغم طقوسها المدروسة بعناية ، والكنائس العديدة التى خصصت لها والعون المالى الذى تالته - من كسب الانصار والمؤيدين ، ولن تلبث الاحداث أن تظهر مدى تعلق الشعب بالعقيدة الكاثوليكية الرومانية فى صورتها القديمة التى باتت محرمة مجردة من الاعتبار ، ومدى استعداد سواد الشعب الاعظم للترحيب بعودتها . ويجدر بنا أن نشير أيضا الى مسألة المهاجرين الذين لم يكن عددهم يقل فى أغلب الظن عن ٣٠٠٠٠ مهاجر . لقد صودرت ممتلكات هؤلاء المهاجرين جميعا ، بل لقد حدث فى حالات كثيرة أن ألصقت صفة « المهاجر » بأناس لا تنطبق عليهم حتى يتسنى الاستيلاء على ممتلكاتهم ، فكان أقرباؤهم يحتجون احتجاجا على هذه المظالم . ولعل أبرز سمتين من سمات تلك الفترة هما الاحتكاك بين المجلسين وحكومة الادارة ، وتدخل قادة الجيش . ويجدر بنا أن نسوق على ذلك مثلين ظاهرين .

ففى مارس سنة ١٧٩٧ أجريت الانتخابات لشغل مقاعد ثلث المجلسين ، فأسفرت النتائج عن كسب كبير للحزب المعتدل المناوئ

اليعاقبة ، في حين كان ثلاثة من أعضاء حكومة الادارة الخمسة من
اليعاقبة الذين لا يتطرق الى يعقوبيتهم شك . فنشأ عن ذلك موقف
شائك . فهاهو الشعب يدلى بصوته في انتخابات عامة على نطاق ضيق
ضد الحكومة فلا تبدى الحكومة أدنى استعداد للتنجى عن الحكم .
لقد ظن الكثيرون وقتذاك أن موجة من الرجعية توشك أن تجتاح
البلاد ، وأرجأت الحكومة النمساوية تحويل هدنة ليوبن الى صلح
حتى ينجلي الموقف ويحسم النزاع في باريس . الا أن الموقف لن
يخسب هذه المرة بوساطة أهالى باريس وانما على يد الجيش . ولقد
لجأ أعضاء حكومة الادارة أولا الى هوشيه ولكنه أبى أن يلعب الدور
الذى اقترح عليه ، فاضطروا الى اللجوء الى نابليون الذى كانت قد
بدأت تزعجهم شخصيته وعبقريته ونجاحه . فبعث نابليون ضابطه
أوجيرو لينفذ تعليماته . ولم تنشأ ضرورة تستدعى استخدام العنف .
اذ كان ظهور ذلك الجندى الخداع المنظر الفارغ العقل كافيا في ذاته ،
فأطيعت أوامره . وخلع كارنو الذى نصب نفسه متحدثا باسم
المعتدلين في حكومة الادارة وتم اعتقال عدد من النواب من بينهم
القائد العسكرى الرفيع الذكر بيشجرو . ثم ألغيت بناء على أمر
حكومة الادارة نتائج الانتخابات في ١٥٤ دائرة ، وتقرر التخلي عن
فكرة العمل على اصطناع مزيد من الاجراءات المتسامحة ، وعومل
المهاجرون والمخالفون لاتجاه الحكومة في شئون الدين ، بالصرامة
والشدة السابقة . لقد كانت الصلة التى افترض قيامها بين الرجعيين
ورخطط الحكومة النمساوية سببا مباشرا في القضاء عليهم . فقد هب
الجيش يثبت حكم اليعاقبة ليتمكن من املاء شروطه على العدو . وقد
عرف هذا الحادث باسم انقلاب فروكتيدور . بيد أن المستقبل سيبين
لنا أن التحالف بين اليعاقبة وقادة الجيش لم يكن تحالفا طبيعيا مقدرا
له الدوام . وقد حدث شيء من هذا القبيل نفسه في العام التالى عندما
ألغيت نتائج الانتخابات في ثلاثين مقاطعة لانها لم تكن مقبولة في نظر

حكومة الادارة . لقد أصبحت أحداث باريس متوقعة بصورة مباشرة على الحرب ، وعلينا أن نعود الآن إليها لكي نفهم الحركة الداخلية الكبرى التالية التي تدخل فيها الجيش بوساطة قائده العظيم ليطيح بالجمهورية وبالعاقبة من فرنسا .

قبلت النمسا الصلح الذي أملى عليها املاء ، ولكن بريطانيا ظلت منتصرة منيعة في البحر ، فراحت حكومة الادارة تبحث جاهدة عن نقطة ضعف في غريمتها ، وبدأ في بعض الاوقات أنها قد عثرت على مرادها . فقد نشبت في سنة ١٧٩٧ حركات التمرد الكبرى في الاسطول البريطاني المربط عند « نور » و « سيتهد » ، فخيّل الى الفرنسيين في لحظة من اللحظات أن شوكة بريطانيا في البحار قد كسرت . الا أن حركات التمرد لم تلبث أن سويت وبقيت قوة بريطانيا البحرية على ما هي عليه بلا نقصان . ولما قامت الثورة الايرلندية الكبرى في سنة ١٧٩٨ خف لمعاونتها جيش فرنسي تمكن من الوصول الى ايرلندة فعلا . ولكن الثورة الايرلندية خيبت - كما حدث مرارا من قبل آمال أعداء بريطانيا : فقد انهارت الحركة ، ولم تنفع فرنسا بشيء سوى الذكريات المريرة التي خلفتها . كيف السبيل اذن الى أن تسدد الدولة البرية ضربة خطيرة للدولة البحرية ؟ وأنى « للأسد » أن يفتك بـ « القرش » ؟ لقد خيل لأعضاء حكومة الادارة أنهم قد يجدون في مصر كعب « أخيل » الذي يمكن أن تهزم منه بريطانيا المنيعة . ولم يكن لدى فرنسا أى سبب وجيه لمحاربة مصر التي كانت تحكمها اذ ذلك طائفة المماليك العسكرية ولا كانت لها أية شكاية جديدة ضد سلطان تركيا الذي كانت له السيادة الاسمية عليها ، وانما كانت بريطانيا هي البلد المقصود بالهجوم فعلا عندما أبحرت الحملة الفرنسية الى مصر . ذلك أن النمو السريع للنفوذ البريطاني في الهند كان قد أشعل حماسة الفرنسيين لاسترداد تفوقهم السابق ، فأروا أن في وصول قوة فرنسية الى برزخ السويس تهديدا لمركز الانجليز في

لهند لأن فرنسا ستصبح اذ ذاك أقرب كثيرا الى الهند من بريطانيا . وكانت أول نقطة في التعليمات التى أعطيت لنابليون عند ارساله الى مصر هى « طرد الانجليز من جميع مستلكاتهم التى يستطيع بلوغها » ، تليها تعليمات أخرى : أن يشق قناة فى السويس ، وأن يحسن أحوال أهالى البلاد ، وأن يقيم السلم مع السلطان . وقد اصطحب نابليون معه عددا من علماء الدراسات المصرية القديمة لالقاء الضوء على آثار ذلك البلد الذى لم يكن يعرف العالم عنه الا النزر اليسير فى ذلك الحين . فكان من نتائج الحملة الوصول الى فك طلاسم الرسوم الهيروغليفية وسارت الامور بادىء الامر على أحسن مايرام ، فقد استسلمت جزيرة مالطة لنابليون فى ١١ يونيو سنة ١٧٩٨ ، وفى أول يوليو وصل الى الساحل المصرى ، ولم تمض على ذلك التاريخ ستة أيام حتى كان قد بدأ زحفه على القاهرة . وقد حاول أن يسترضى الاهالى ، ولكن المماليك ضمموا على القتال حفظا لسلطانهم . فهزمهم نابليون فى ٢١ يوليو هزيمة ساحقة فى معركة دارت على مرأى من الاهرام (١) ، وآلت اليه السيطرة على البلاد . ولكن بعد أيام معدودة وردت من الساحل أنباء سيئة . فقد عبر نلسون على الاسطول الفرنسى فى خليج أبى قير فدمره فى معركة النيل (٢) . وقد أدرك نابليون على الفور أهمية تلك الضربة ، اذ كان معناها أن تنقطع عنه الامدادات من فرنسا فى حين تتمكن بريطانيا من ارسال ماشاءت من القوات الى مصر . وقد تظاهر بالاستهانة بالامر قائلا : « يجب أن نمكث فى هذه البلاد حتى نتقدم منها عظماء كالأقدمين » ، ولكن الحملة كان مقضيا عليها بالفشل بسبب تفوق بريطانيا البحرى الذى قدر له أن يكون العامل الحاسم فى الكثير جدا من المسائل التى ستصادف نابليون فى حياته العامة . واذا كانت تركيا قد انضمت الآن الى

(١) وهى المعروفة باسم معركة الميابة (المترجم) .

(٢) وهى المعروفة باسم أبى قير البحرية (المترجم)

بريطانيا بصفة قاطعة ، فقد استقر رأى نابليون على أن يستبق الهجوم الذى ينتظره من الشمال ، بالزحف على سورية . وقد تحدث فيما بعد عن الخطط التى رسمها للزحف على القسطنطينية أو الهند ، ولكن تلك أفكارا راودته فى وقت متأخر ، فقد كان تفكيره منصبا وقتها على الخطر المباشر وحده . وقد بدأت حملته على سورية بداية موفقة ، اذ سقطت العريش بين يديه وتمكن من احتلال يافا . وقد أضر بسمعته اضرارا بالغا اقدمه على قتل الاسرى فى يافا « بعد الكثير من التروى » انتقاما لمصرع مبعوث فرنسى ، وأدى تفشى الوباء فى جيشه الى اضعاف قوته اضعافا جسيما . ولكنه مضى يشق طريقه مع ذلك الى عكا وضرب الحصار عليها . وقد خف السير سدنى سميت لمعاونة المدينة بسفنه البريطانية ، فتحققت هزيمة نابليون فى النهاية بعد أن كاد يظفر بالغنيمة مرارا ، وانسحب الى مصر متكبدا خسائر فادحة (مايو سنة ١٧٩٩) . وقد بقى له من القوة مامكنه من القضاء على جيش تركى أرسل الى مصر ، ولكن ذلك لم يؤد الى تحسين فرص نجاح الحملة تحسينا حقيقيا ، وهو ما لم يكن فى الامكان طالما ظلت للبريطانيين السيطرة على البحر . وأخذت الانباء التى تأتية من أوروبا تثير انزعاجه ، فقد أصبحت فرنسا تواجه ائتلافا جديدا وتكايد هزائم قاسية ، فرأى أن من الأفضل أن يغادر مصر لمصلحته ولمصلحة فرنسا . وأبحر من الاسكندرية فى ٢٣ أغسطس ، فهبط أرض فرنسا عند شاطئ « فريجو » فى ٩ أكتوبر بعد أن تعرض لخطر الأسر فى الطريق .

ويمكننا أن نلخص نهاية الحملة على مصر فى عبارات سريعة . لقد بقى الجيش الفرنسى بقيادة كليبر ثم مينو . فبدأ كليبر على الفور فى السعى الى التفاوض مع العثمانيين من أجل الوصول الى شروط مناسبة ، ولكن نلسون أصر على استسلام الفرنسيين بلا قيد أو شرط . وفى يونيو

سنة ١٨٠٠ اغتيل كليبر ورسم الأتراك والبريطانيون خطة للقيام بهجوم ثلاثي على الفرنسيين في مصر . وأصبح المضي في المقاومة ضربا من المحال ، فاستسلم في أغسطس سنة ١٨٠١ عشرون ألف فرنسي بالقاهرة والاسكندرية .

كانت الصورة في أوروبا قد تغيرت تغيرا كبيرا عما كانت عليه حين غادرها نابليون الى مصر . ذلك أن معاهدة كامبو فورميو لم تمنح أوروبا الا مايزيد قليلا على عام واحد من السلم . والسبب في الحرب الجديدة - وهى ليست الا امتدادا للحرب السابقة - واضح جلى . فقد أصبحت فرنسا تمثل قوة هائلة ، اذ حققت لها قوة جيشها وجاذبية المبادئ السياسية والاجتماعية الجديدة التى ترفع رايها ، مكاسب ضخمة حتى ابان فترة السلام الاسمى . وقد وجدت أوروبا - قبل أن تتمكن من التمتع بالسلم الذى كسبته بصعوبة - من الاسباب ماثير فرعها من جديد ، فاتحدت معظم دول القارة مع بريطانيا التى كانت لانزال في حرب مع فرنسا في عصبة جديدة ضد الخطر الدايم .

فأولا نشبت ثورة في روما حيث كانت عناصر قوية من السكان تناوئ السلطة البابوية . وقد تحركت هذه العناصر ، بتأثير عملاء فرنسا أو المثل الذى ضربته ، للمطالبة بالاصلاحات الديمقراطية . فساندها الجنرال الفرنسى برثيه وأقام جمهورية ذات حكومة يتولاها حكام سبعة يحمل كل منهم لقبا وقورا هو لقب « القنصل » وطرد الفرنسيون البابا بيوس الثالث ونفوه الى « سيينا » أولا ثم الى « فالنس » حيث توفى . ولكن سرعان ماتبين أن الجمهورية الناشئة ليست الا عميلة لفرنسا . فقد بقيت الحامية الفرنسية ، وعومت روما معاملة أشبه بالمعاملة التى يلقاها البلد المهزوم . ولم يختلف عن ذلك كثيرا ماحدث في هولندا . فقد أعلن فيها قيام « الجمهورية الباتافية » وان لهم يحدد شكلها بعد ، فقد انقسمت مشاعر أهل البلاد انقساما كبيرا :

ففرق يرغب في عودة أسرة أورانج ، وفريق آخر يريد جمهورية فيدرالية تمشيا مع تقاليد البلاد القديمة ، وفريق ثالث ، تؤازره فرنسا ، يدعو الى قيام دولة مركزية على نمط فرنسا نفسها . فأجرى استفتاء في الأمر أسفر عن فوز النموذج الفرنسي بمعظم الأصوات التي أعطيت ، بيد أن أكثرية المواطنين لم يدلوا بأصواتهم بالمرّة . وقد كان نفوذ فرنسا في الامر باديا للعيان طوال الوقت ، ولم تكن هولندة في ظل هذا الشكل الجديد سوى « ملحق للجمهورية الفرنسية على نحو لا يكاد أن يكون مقنعا » . وسيطرت فرنسا بوسائل مشابهة على شمال إيطاليا ، فلما أظهرت جمهورية شمال إيطاليا ميلا للسير في طريقها الخاص أخذ الجنرال برتشي على عاتقه « تطهير مجلس الجمهورية » . ورد الحكومة الى التبعية الكاملة لفرنسا . واذا اتجهنا الى الغرب قليلا وجدنا توسعا أشد سفورا في سلطنة فرنسا . فقد ظلت بيد مونت تابعة لمملكة سردينيا بعد هدنة كيراسكو ، ولكن الإغذار لم تلبث أن التمسّت لطرده ملك سردينيا من أراضيه الإيطالية ، وضم بيد مونت الى فرنسا بصورة قاطعة . وفي نفس الوقت طرد دوق توسكانيا ، فبدأ أن فرنسا تهدد استقلال إيطاليا بأسرها .

بل ان الكيفية التي آلت بها لفرنسا السيادة على سويسرة من الوجهة العملية ، تعد أهم من ذلك وأخطر . فقد كان « الاتحاد الهلفيسي » وهو الاسم السياسي الصحيح للبلاد ، خاضعا لحكم أوليجركية محدودة وان تفاوتت الأحوال بدرجة كبيرة بين مختلف المقاطعات . وكانت الأقلية الحاكمة في برن ذات سطوة شديدة بوجه خاص وتشتهر بانعزالها التام عن الشعب . وقد ناشدت مقاطعة «دي فود» فرنسا العون ضد حكامها المستبدين . وكانت الجمهورية الفرنسية قد أعلنت منذ ١٧٩٢ استعدادها لمعاونة الشعوب المضطهدة ضد حكامها . ومن ثم فقد دخل سويسرة - تمشيا مع تقاليد الجمهورية الفرنسية - جيش فرنسي قوامه ١٥٠٠٠ جندي بقيادة الجنرال

برون وأسقط في سهولة غير متوقعة « الاتحاد » الذى كان يتباهى باحتفاظه بحريته في وجه عدد كبير من الطغاة والغزاة ، وقامت محله جمهورية مركزية موحدة على النمط الذى تفره فرنسا بوجه عام ، هى الجمهورية الهلنيسية « واحدة لا تتجزأ » وكانت - شأن سائر الجمهوريات التى أنشئت في ظل النفوذ الفرنسى - خاضعة لفرنسا خضوعاً تاماً . وهكذا قدر لاستقلال سويسرة أن ينتهى وقدر لأوديتها أن تصبح ميداناً لحرب واسعة النطاق بعد فترة طويلة من الهدوء . ولم تمر هذه الأحداث دون احتجاج حتى في داخل فرنسا نفسها ، فقد رفض كارنو الذى تمسك بالكثير من مثل الثورة الاولى ، الموافقة على القضاء على استقلال سويسرة . وحفظت هذه الأنباء المتقبضة الشاعر « وردزورث » الى كتابة « السوناتا » الرائعة التى ناح فيها على اخماد « صوتى الحرية العظيمين » ، البندقيّة وسويسرة .

وكانت الضربة التالية من نصيب مملكة نابولى التى كان يحكمها سيليل البوربون الملك فرديناند الرابع وملكته ماري كارولين شقيقة ماري انطوانيت . وكان لحكومتها في سوء الادارة صيت ذائع ، وكان سكانها متأخرين أشد التأخر ، كارهين لكل سلطة ، مؤمنين بالخرافات ابماناً أعمى وغير مهئين لقبول أفكار الثورة الفرنسية . فلما بدا من معركة النهل أن جانب فرنسا آخذ في الضعف وكان من نتائجها دخول الأسطول الانجليزى بقيادة نلسون ميناء نابولى ، أرسل الملك قائده مالك (وهو نمساوى) للهجوم على روما وطرد الجمهوريين المقيمين منها . فأخذت الحامية الفرنسية على غرة ، واضطر القائد الفرنسى شامبيونيه الى الجلاء عن روما ، فدخلها فرديناند ليتمتع بانتصاره القصير الاجل . اذ سرعان ما رجحت الامدادات الفرنسية كفة فرنسا من جديد ، وشن الفرنسيون هجوماً على نابولى واحتلوها فالتجأت الأسرة المالكة النابولية للأسطول الانجليزى ، وأنشئت جمهورية

جديدة أخرى هي « الجمهورية البارنيوية ». وثمة حادثة يجدر بنا أن نذكرها لأنها تلقي ضوءا على القوى التي كانت تنشط تحت السطح في أوروبا . والتي سيتبين في النهاية أنها أقوى من أن يقهرها نابليون نفسه . فلقد أظهرت جيوش نابولي عجزها الذي كان مضربا للأمثال وفرت أمام الهجوم الفرنسي . ولكن ما إن هيء لشامبيونييه أن المقاومة قد انتهت تماما حتى راح أبناء الطبقات الدنيا في نابولي وريفها المعروفين باسم « اللازارونيين » (lazzaroni) يشنون حربا غير نظامية أثبتت أنها أخطر شأنا من مقاومة القوات النظامية . وقد هزم هؤلاء في النهاية ولكن حملهم للسلاح كان أول بادرة من بوادر المقاومة الشعبية القومية ضد الفرنسيين حتى في الوقت الذي جاءوا فيه يعرضون فيه الحرية والمساواة . فقد تجلت في كفاحهم لأول مرة تلك المقاومة الشعبية العنيدة التي لن تلبث أن تهدد في أسبانيا وفي التيرول ، وفي روسيا ، وفي بروسيا وألمانيا - عزم نابليون الجبار .

لقد أتت فرنسا لهذه الجمهوريات الشقيقة التي أقامت بحكم أفضل ومثل أسمى للحياة الاجتماعية ، وخففت عن أهلها الكثير من الأعباء . ولكن لا عجب في أن دول أوروبا قد راحت تنظر بعين القلق والازعاج التي تقدم الطوفان الفرنسي وتتلفت حولها بحثا عن الوسائل الكفيلة بصدده . كانت بريطانيا مستعدة بتوجيه « بت » للتعاون وتقديم المشورة والمال . ولكن الحماسة لفكرة محاربة فرنسا جاءت في أقوى صورها من جهة غير متوقعة . ففي سنة ١٧٩٦ خلف القيصر بولس القيصر كاترين على العرش الروسي . ومن الجائز أنه كان حقا « محنونا خطيرا » ولكنه كان ينظر الى مركزه في روسيا وأوروبا نظرة جديدة للغاية . وكان قد نصب حاميا لفرسان القديس يوحنا الذين سلبهم نابليون جزيرة مالطة وهو في طريقه الى مصر ، وكان يحلم بأن يجعل من روسيا دولة من الدول الهامة في البحر المتوسط . وقد أعطته نوايا فرنسا بالنسبة لبولندة مبررا أقوى للعمل ضدها . فمد يده في ديسمبر

سنة ١٧٩٨ لبريطانيا وبيت . وتقرر أن تدفع بريطانيا مغونة ضخمة للجيش الروسي وأن تعمل بريطانيا وروسيا معا على « إعادة فرنسا الى الحدود التي كانت عليها قبل الثورة » . وقد ترددت النمسا بادية الأمر ولكن التدخل الفرنسي في نابولي كان له أثر كبير في قبولها فكرة الاشتباك مع فرنسا في حرب جديدة . وقد وقعت في ألمانيا أحداث غريبة عجلت بدخول النمسا الحرب . فقد انعقد مؤتمر في « راشتاد » لبحث التعديلات التي يجب احداثها في ألمانيا تمشيا مع صلح كامبو فورميو ، حضره مبعوثون فرنسيون ، ولما أخذت سحب الحرب تتجمع صدرت الأوامر لهؤلاء بمغادرة ألمانيا . وقد وقع عليهم اعتداء على مسافة قريبة من المدينة بعد خروجهم منها فقتل اثنان وأصيب آخر بجراح بالغة . ومازال الغموض يحيط بالحادث حتى وقتنا هذا ، وليس من المستبعد أن يكون للحكومة النمساوية يد فعلا في تدبيره وأن يكون القصد منه هو الاستيلاء على أوراق هامة . فكان استيلاء الحكومة الفرنسية طبيعيا ومن ثم فقد نشأت حالة حرب بين البلدين على الفور .

وكانت المهمة الماثلة أمام فرنسا جد خطيرة . فقد كانت جيوش العدو متفوقة أشد التفوق على جيوشها من حيث العدد ، فقد قدر عدد رجالها بادية الأمر بـ ١٧٠ر٠٠٠ فقط مقابل ٣٥٠ر٠٠٠ لدى العدو . وكان أعظم قواها متغيا في مصر في حين كانت قوات العدو تحارب تحت قيادة قواد مشهود لهم بالنبوغ والهمة . فالقائد الروسي « سوفوروف » كان ذا همة متقدة تكاد تضعه في بعض الأحيان في مصاف العباقرة . ويصفه بايرون بأنه « بطل مهرج نصف شيطان ونصف دنس » ، والأرشيدوق شارل النمساوي حقق لبلاده انتصارات هامة . ومع ذلك فقد وضع الفرنسيون ، بادخالهم في سبتمبر سنة ١٧٩٨ نظام الخدمة العسكرية العامة ، الأساس الذي

(١١)

قام عليه نجاحهم المقبل . ولم يكن ميسرا . بالطبع أن ينفذ هذا النظام على الفور ، ولكن الفضل يرجع اليه في تزويد فرنسا بالقوات التي كسب بها نابليون انتصاراته فيما بعد .

وقد دارت الحرب على نطاق واسع ، وكانت إيطاليا وسويسرة مسرحها الرئيسى ، وبدأ أول الأمر أن الحظ في صف أعداء فرنسا على طول الخط . فقد طرد الفرنسيون من نابولي ، وهزمت الجيوش الفرنسية في سويسرة . وقد توج « سوفوروف » هذه الانتصارات في إيطاليا عندما أنزل بالفرنسيين - الذين كانوا بقيادة « مورو » - هزيمة ساحقة عند نوفى (أغسطس ١٧٩٩) فانهارت على الفور جمهوريتا شمال إيطاليا وروما . وكانت البشائر كلها في صالح الحلفاء ، وبدأ النصر مؤكدا إذا تطودت بينهم عرى الوحدة وساد التفاهم على خطة الحملة . الا أنهم كانوا يفتقرون الى تلك الوحدة وهذا التفاهم . فرغم أن المسألة البولندية لم تعد قائمة لتشل تصرفات الحلفاء ، فقد كان بينهم تباين واضح في الهدف . فبينما كانت النمسا تهدف الى ضم الأراضي في بافاريا وشمال إيطاليا ، كان القيصر حريصا قبل كل شيء على إعادة ملك سردينيا الى بيدمونت وآل البوربون الى فرنسا . وكان سوفوروف رجلا يصعب التعامل معه ، فدب الخلاف بينه وبين مجلس الحرب النمساوى . وقد أدى ذلك الى وقوع كارثة في أكتوبر سنة ١٧٩٩ . فقد صدرت الاوامر لسوفوروف بدخول سويسرة لينضم الى قائد روسى آخر أمام زيورخ ، فأظهر عزوفا شديدا عن الرحيل من إيطاليا ، ولكنه تحرك في النهاية . فلم يلق تعاونا من النمساويين واعتقد أنهم خانوه . وقد كان زحفه عبر الجبال عملا عظيما ، ولكنه وجد الجيش الذى كان مقررا أن ينضم اليه قد تشتت قبل وصوله ، فأفلت بصعوبة بالغة من الجيوش الفرنسية المحيطة به . وتلا ذلك تبادل غنيف للاتهامات بين القادة والحكومات ،

وأخذ التحالف يتداعى بكل وضوح . ويجب أن نلاحظ أن كل ذلك - أى هزائم الفرنسيين ونهوضهم منها - قد حدث أثناء غياب نابليون عن فرنسا .

ويجدر بنا أن نعود الى باريس حيث راحت حكومة الادارة تعاني صعوبات بالغة . وكانت طبيعتها مسئولة جزئيا عن تلك الصعوبات ، فقد كانت الحكومة مليئة بالفساد والفوضى . ولكن الحرب الخارجية هى التى حسمت النزاع الداخلى فى هذه المرة أيضا ، فحكومة الادارة لم تسقط بسبب فضائح الحكم وانما بسبب الهزيمة فى الحرب . ولقد سبق لأعضاء حكومة الادارة أن استخدموا قوة الجيش وهيئته مرتين من قبل ليعيدوا عن المجلسين نوابا معادين لسلطانهم انتخبهم البلاد ولكنهم أخفقوا هذه المرة (يونيو سنة ١٧٩٩) فى الحصول على تأييد الجيش بعد أن حاقت الهزيمة بالبلاد وأصبحت مهددة بالزبد من الهزائم ، فتشجع المجلسان وأقالا أحد أعضاء حكومة الادارة وأرغما عضوين آخرين على الاستقالة . وتألفت حكومة الادارة الجديدة من سيسيز ، وبارا وديكو ومولان وجوهييه . وهم آخر من تولوا عضوية هذه الحكومة . فلقد أطلت العنصرية الديمقراطية برأسها من جديد لأن البلاد قد اعتورها القلق فأصبحت على استعداد للشهيل لأى شخص يمنحها العزة والأمن .

وصل نابليون الى فرنسا فى أكتوبر سنة ١٧٩٩ فاستقبل بحفاوة فائقة ، ولم يؤخذ عليه فشل مغامرته فى مصر ، فقد حدث هذا الفشل فى مسرح بعيد وفى ظروف منبهة ، فذكر له الناس فقط جزوئه فى ايطاليا وكيف أرغمت النمساويين على قبول الصلح ، وعزز مسلكه سمعته الطيبة فقد بدأ متواضعا متحفظا ، لايسرف فى التباهى باتتصاراته ويخالط رجال العلم أكثر مما يخالط العسكريين . ومع

ذلك فليس ثمة شك في أنه كان يتطلع طوال الوقت الى القيام بدور سياسى كبير ، وفي أنه قد تدبر المشكلة وحلولها بعناية منذ وصوله الى فرنسا .

كان من المؤكد أن تغيرا ما لابد أن يحدث في الحكومة . فماذا تكون طبيعة هذا التغير ؟ لقد وطد نابليون علاقاته ببارا حليفه القديم ، وسيز صاحب النظريات السياسية ، وتاليران الأسقف السابق واليعقوبى ، أبرع مدبرى المؤامرات وأشدهم ضبطا للنفس . وراح يونابرت ينصت اليهم جميعا وان أبقى لنفسه الرأى الأخير . وكان أمله أن تبلغ شهرته بين جميع الطبقات حدا يؤدى الى المناداة به رئيسا للدولة بصورة تلقائية ، فيحكم استنادا الى شىء هو أقرب مايكون الى الحق الدستورى فى الحدود التى تسمح بها أوضاع فرنسا فى عهد الثورة ، ولا يضطر الى اشهار السيف أو اراقة الدماء . ونحن نستطيع أن نفهم المؤامرة الكبرى التى أقدم عليها بوضوح أكبر اذا نحن علمنا أنها لم تسر وفق الخطة المرسومة ، وأنه لم يكن راعبا فى اللجوء الى العنف ، وأن حاجته الى استعراض قوته - وان لم يضطر الى استخدامها - قد تركت فى مستقبل حياته العامة أثرا محسوسا .

ولقد ساعد الخطة أن أخاه لوسيان كان رئيسا لمجلس الخمسمائة . وكان نابليون يأمل أن يستخدم المجلسان حقهما الدستورى فى الانتقال الى سان كلو ، لأن باريس لم تزل - حتى فى ذلك الوقت - مكانا غير مناسب للقيام بثورة مضادة ، وفى أن يعهد المجلسان اليه بقيادة قوات باريس ، ثم يصوتان - فى اجتماع تحيط به القوات - لصالح تعديل الدستور ويكلفانه بالاشراف على هذا العمل وتوجيهه . ولم يكن يشك فى أن هذه الخطوات ستؤدى - ان تمت - الى انفرادة بالسلطة تقريبا . حقا انه لابد من التخلص أولا من أعضاء حكومة الادارة ، ولكنه كان يأمل أن يتمكن من اغرائهم بالاستقالة .

ولقد نفذت الخطة الى نقطة معينة . فقد استقال سيز وديكو ، اللذان كانا مشتركين في المؤامرة وان لم يكن اشتراكهما كاملا كما كانا يتصوران ، على أمل أن يحذو الآخرون حذوهما . وكان بارا يأمل أن ينال نصيبا من المسئولية والسلطة ، فأصابه الكمد عندما نبين أن الدور الذي ترك له كان سلبيا ، وفي النهاية استقال هو الآخر . وقد اعتقل العضوان الباقيان بحكومة الادارة اللذان رفضا أن يستقيلا . وفي ساعة مبكرة من صباح ٩ نوفمبر سنة ١٧٩٩ قرر مجلس الشيوخ الانتقال الى سان كلو ، وعهد بالقيادة المنشودة الى نابليون ، وفي ١٠ نوفمبر (١٩ برومير حسب تقويم الثورة) وقعت الأزمة الحقيقية . كان نابليون يعلم أن مستقبله كله متوقف على أحداث ذلك اليوم . وقد قال لسيز أثناء الرحلة الى سان كلو « سينتهي بنا المطاف اما الى هنا (مشيرا الى المكان الذي نصبت فيه المنقصة) أو الى قصر لوكسمبرج » . وفي سان كلو ألقى خطابا في كلا المجلسين على التوالي ، ولكن الأمور لم تعد تسير وفق الخطة المرسومة ، فالمجلسان لم يتأثرا بشعبية نابليون الى الحد الذي يدفعهما الى التصويت على الغاء الدستور ووجودهما ذاته . وقد استمع الشيوخ الى خطاب نابليون ببرود ثم أعلنوا ولاءهم للدستور وأخذوا يهتفون « لا كرومويل ! » أما أعضاء مجلس الخمسمائة فقد طردوه في شيء من العنف من قاعاتهم عندما مثل أمامهم . فأصبح جليا أن الشعبية والعبارات البراقة لن تحل المشكلة ، واضطر نابليون الى اللجوء مكرها الى حد السيف . فعندما أخطره أخوه أن زمام المجلس قد أخذ يفلت من يديه ، استدعى القوات لدخول القاعة وطرده الاعضاء وكانت لحظة عصيبة بالنسبة له ، فهل ياترى سيضرب جنود الجمهورية حراهم الى حكومة فرنسا الحرة ؟ لقد أطاعوا الأمر دون تردد يذكر ، فلأذ معظم أعضاء السلطة التشريعية بالفرار ، بينما صوتت البقية الباقية التي كانت متواطئة مع كبير المتأمرين ، لصالح

تعديل الدستور وعينت ثلاثة قناصل للاضطلاع بذلك . وهؤلاء الثلاثة هم نابليون وسيز وديكو ، وفي صبيحة ١١ نوفمبر عاد نابليون الى باريس وكان الانقلاب قد تم ، فتقبلته العاصمة وفرنسا كلها بهدوء مذهل . فلم يكن ثمة من يعطف على المجلسين أو أعضاء حكومة الادارة . وأصبحت البلاد مهية للدخول في تجربة جديدة .

لقد قرر انقلاب برومير وجوب تعديل الدستور ولكن ما طبيعة ذلك التعديل ؟ لقد ظهرت خلافات واسعة في الرأى حول هذه النقطة بين شخصيات المسرحية الرئيسية . فبطلا الانقلاب هما نابليون بونابرت والاب سيز ، والاول جندي بينما الثانى رجل كرس الكثير من فكره للنظريات السياسية وكان له نفوذ حاسم في مراحل الثورة المبكرة فكان يتوقع أن يعاد تشكيل الحكومة في هذه الأزمة وفقا لأرائه ، وأن يعترف له الجندي بتفوق المفكر . وقد رسم في ذهنه خطة واضحة مفصلة لنظام الحكم المنشود . وكان لا يزال متعلقا بمبدأ مونتسكيو في « فصل السلطات » فكان يرى أن السلطة التنفيذية يجب أن تكون مستقلة عن التشريعية وأن الحكومة ينبغي ألا تعتمد اعتمادا مباشرا على تأييد ممثلى الشعب المنتخبين . ومع ذلك فقد كان عارفا بخطر وقوع الصدام بين الوزراء والبرلمان ، فذلك خطر أوضحه تاريخ الثورة تماما . ها هنا السؤال اذن : كيف يمكن تشكيل حكومة لا تعتمد في وجودها على الشعب وتنال مع ذلك ثقة الشعب ؟ لقد اختار لحل هذا الاشكال شعارا من الشعارات التى كان مولعا بصياغتها هو « الثقة من أسفل والسلطة من أعلى » . أما تطبيقه العملى فكان عجيبا . فالشعب يضع قوائم بأسماء الرجال الذين يرى فيهم الجدارة لتولى المناصب العامة والذين يمكن أن يتمتعوا بثقته كحكام ، وذلك وفقا لنظام مفصل لا حاجة بنا الى الخوض فيه . ثم تأتى السلطة من أعلى متمثلة في شخص « الناخب الأعظم » الذى يرى سيز ضرورة تعيينه على الفور ومنحه راتبا كبيرا وتولية مجموعة من

الوظائف هي تقريبا نفس وظائف الملك الدستوري . فهذا الناخب الأعظم يقوم بتعيين جميع رجال الحكومة وأعضاء المجالس من بين الواردة أسماؤهم في القوائم التي ترسل اليه . ومن رأيه أيضا وجود قنصلين أحدهما للشئون الداخلية والآخر للخارجية ، ووجود مجلس للدولة يتقدم بمشروعات القوانين ، وهيئة مشرعين أو « مجلس تربيون » تتولى بحث ومناقشة التشريعات المقترحة ثم جمعية تشريعية تستمع الى الآراء المؤيدة والمعارضة للاجراء المقترح ثم تصوت دون مناقشة . ويرى كذلك وجود مجلس للشيوخ له حق النقض (الفيتو) .

وكان نابليون موافقا على الكثير من المظاهر السطحية لهذه الخطة . فقد كان يتوجس شرا من سيطرة الشعب ويفضل الجمعيات المعنية على المنتخبة ، ويفر من المناقشات البرلمانية ويخشاه . ولكنه كان يعارض جوهر تلك المقترحات معارضة تامة ، ذلك لأنها كانت تمثل مجموعة من الضوابط والقيود ، فالرئيس الرسمى للدولة لا يملك سلطة حقيقية وقائد الجيش خاضع خضوعا تاما ، بينما يرغب هو في قيام حكومة قوية تتركز في يد قائد الجيش وتتحرك على الفور تلبية لما يصدر اليها من أوامر ، حكومة فردية تتسم بالكفاية والبيروقراطية على أن يكون هو نفسه رئيسا لها . هاهنا اذن خلاف لا تحله العبارات الغامضة . فلا عجب في أن يشتمك سيزر ونابليون في صراع تكباد نتيجة أن تكون معروفة مقدما ، ذلك أن هيبة الجندي وسيفه هما اللذان اقتصر في برومير ، ومن ثم فلن يكون هناك مفر من استسلام سيزر . لقد تقرر اختيار خمسين عضوا من المجلسين للمفاضلة بين الخطتين ، ففاز نابليون بالطبع .

وقد انطوت الخطة الفائزة على الكثير من المظاهر الكاذبة . فقد أبقت - من الناحية النظرية - على مقترحات سيزر الخاصة بالنظم

«الانتخابية التي تستنبط بمقتضاها الثقة من أدنى ، وان لم تطبق عمليا
في المرة . وكانت أجزاء الجهاز تحمل نفس الأسماء الواردة في مشروع
سيزر ، وان اختلفت القوة المحركة اختلافا بينا ، فالحكم يتقلده قنصل
أول واحد لا يمكن أن يكون شخصا آخر سوى نابليون نفسه .
ونئن كان هناك قنصلان آخران - الأمر الذي يتفق جزئيا مع فكرة
سيزر - الا أن هذين القنصلين هما في الواقع نائبان للقنصل الأول
أكثر منهما ندين له . وقد اختير لهذين المنصيين كامبا سيريس ووليرون ،
وهذان لا يمكن أن ينافسا نابليون في الأهمية . وتقرر أن يتولى
مجلس الدولة الذي يشكل بطريق التعيين التقدم بجميع مشروعات
القوانين وأن يشكل « مجلس الشيوخ المحافظين » من ستين عضوا
يختارهم القناصل ، وهؤلاء يتولون بدورهم التعيينات وشغل مناصب
القنصلية الشاغرة وتعين « مجلس تربييون » من مائة عضو مهمتهم
مناقشة مشروعات القوانين المقترحة وكذلك تعيين جمعية تشريعية
من ثلاثمائة عضو يستمعون الى خطب الجانبين ثم يدلون بأصواتهم
في شأن المقترحات التي ترذ اليهم من مجلس التربييون . وبعض هذه
التفاصيل شيق وربما مفيد أيضا لكنها كانت كلها وهمية غير حقيقية ،
فان قائد جيوش فرنسا المظفر هو الذي حكم فعلا ، ولسوف يظل
يحكم وفقا للدستور الذي يروق له طالما ظل مظفرا وسيدا لجيوش
فرنسا ، ولن يلبث أن يستغنى عن بعض هذه المجالس كاشفا بالتدريج
عن المزيد فالمزيد من طبيعة حكمه الفردية . ولقد كان من دواعي سرور
« الشعب الفرنسي أن تسير الأمور على هذا النحو ، وعندما طرح
المشروع في استفتاء عام أذيع أن ١٣ر٠٠٠ر٣٠ قد صوتوا في صالحه
و ١٥٦٢ فقط صوتوا ضده

الفصل الخامس نابليون الإمبراطور وجبل الدولة

لقد فاز نابليون بالسلطة في ثورة برومير بوصفه قائدا مظفرا لجيوش فرنسا ، وكان يعرف حق المعرفة أن النصر هو وحده الكفيل بأن يحفظ له المركز الذي فاز به . ولقد قال لأحد أصدقائه بعد ذلك بزم من طويل « أنا لا أفعل شيئا إلا أن أحرك خيال الأمة، فإذا ما أخفقت في ذلك أصبحت لا شيء وخلفني غيري » . وهذه العبارة تفسر لنا أشياء كثيرة في سيرته ، ومنها نرى كيف أنه كان سيذا وأسيرا في آن معا ، ذلك أنه لم يكن يستطيع أن يتخلى عن السلطة التي فاز بها ، وكان عليه أن يبهز الفرنسيين باستمرار بالانتصارات والأعجاد لئلا تعود الى أذهانهم مبادئ الثورة القديمة « الحرية والاخاء والمساواة » أو يعودوا الى التفكير من جديد في المكانة السامية التي كانت تشغلها ملكية البوربون القديمة في أوروبا التي تكن لها كل اعجاب .

كانت النمسا وبريطانيا هما الدولتان الوحيدتان اللتان ظلتا تحملان السلاح ضد فرنسا . ولم يكن الهجوم على بريطانيا بالشيء الميسور في ذلك الحين ، فقالت نابليون الملك جورج الثالث في شأن البحث عن سبيل للوصول الى الصلح ، فما كان من الملك الا أن أجاب بتأكيد ضرورة إعادة ملوك فرنسا الشرعيين الى عرشهم ، متيحا بذلك لخصومه فرصة الرد بأنه لو صح القول بأن الملوك الشرعيين لا يطردون من عروشهم أبدا لما أصبح له هو نفسه أي حق في العرش الانجليزي إذ أنه يدين بمنصبه لثورة ١٦٨٨ . لقد بدا إذن أن النصر هو السبيل الوحيد للوصول الى السلم .

فأعد الفرنسيون خطة لهجوم مزدوج ضد النمسا على نمط مشابه لنمط العمليات الحربية التي وقعت في ١٧٩٦، والتي ذاع على أثرها - لأول مرة - صيت نابليون في أوروبا . وتقرر أولا أن يقود « مورو » جيشا فرنسيا عبر الراين الى وادي الدانوب ليهاجم فيينا من ذلك الطريق المعروف ، على أن يدخل نابليون ايطاليا في نفس الوقت على رأس جيش آخر ، وذلك عن طريق ممرات سويسره التي أصبحت مفتوحة أمامه بعد التغيرات الأخيرة هناك . على أن هذه الحملة الايطالية لم تكن ثانوية هذه المرة ، فنجاح الحكومة الفرنسية أو فشلها كان متوقفا عليها .

كان سلطان فرنسا قد زال تقريبا من ايطاليا ، فجمهورية شمال ايطاليا قد انهارت ومعها سائر مناطق النفوذ التي أقامتها فرنسا في ايطاليا ، ولم يبق لفرنسا سوى جيش فرنسي بقيادة ماسينا كان يعاني في ذلك الوقت من الحصار الذي فرضه عليه في جنوه القائد النمساوي ميلاس . وقد صمم نابليون على دخول ايطاليا لا عن طريق ساحل البحر المتوسط الذي سلكه من قبل وانما عبر ممر سان برنار العظيم . ولقد بالغ نابليون في تعظيم شأن زحفه هذا عبر الجبال ، وقارنه بمدحوه بغزوات هانيبال وفرنسوا الأول ، ذلك أن نابليون لم يكن قائدا عظيما فحسب وانما كان أيضا صحفيا لا يطاول . ومهما يكن من أمر فإن هذه العملية لم تكن في الحقيقة شاقة ولا عسيرة ، فإن المسافة غير الصالحة لمرور العربات لم تكن تتجاوز خمس فراسخ وسرعان ما هيأها له مهندسوه . وقد هبط في « فال دي أوستا » ومنه سار الى بيدمونت . وقد تردد برهة فيما اذا كان الأفضل أن يزحف على ميلانو أو جنوه . ولو أنه زحف على جنوه لكان من المحتمل أن يتم انقاذ الجيش الفرنسي الذي يقوده ماسينا ، بيد أن رأيه استقر على أية حال على السير الى ميلانو فدخلها دون مقاومة ، واضطر

« ماسينا » بالتالى الى الاستسلام بجيشه البالغ عدد رجاله عشرون ألفا ، على أن هؤلاء الرجال قدم سمح لهم - نتيجة لاهمال عجيب من جانب العدو - بالسير فى اتجاه نابليون وهم لا يزالون يحملون السلاح . وقد مضى نابليون فى زحفه نحو أليسنديريا التى اتخذت مقرا لقيادة القوات النمساوية ، وفى ١٤ يونيو ١٨٠٠ دارت معركة مارنجو بجوار أليسنديريا . وكانت هذه المعركة أول معركة يحاربها نابليون بعد حصوله على لقب القنصل الجديد ، وهى تدرج فى عداد انتصاراته العظمى ، وإن كانت فى الواقع أقرب الى الهزيمة . فقد هاجم النمساويون الجيش الفرنسى على حين غرة وهو مقسم الى ثلاثة أجزاء ، وتمكنوا من رده على أعقابهم متكبدا خسائر فادحة ، واذ ذلك اتجه القائد النمساوى الذى أنهكه الحرب - وقد كان طاعنا فى السن - الى مارنجو مطمئنا الى أنه قد حقق نصرا . يستطيع أن يترك للأحد مساعديه مهمة اتمامه . وفى تلك اللحظة بالذات وقعت مفاجأة مسرحية . فقد وصلت الى الميدان قوة فرنسية بقيادة ديزيه كانت قد كلفت مؤخرا بمراقبة النمساويين فى جنوه . ولم تكن لدى ديزيه أية تعليمات من نابليون ، ولكنه سمع دوى المدافع فاتجه اليها مباشرة ، ولما وصل الى مكانها وجد نابليون مهزوما ولكن الوقت لم يكن قد فات لكسب الجولة التالية . ولقد جاءت هذه الجولة نصرا كاملا للفرنسيين . فقد انسحب النمساويون الى ماوراء نهر منشييو ، وضاعت بضربة واحدة جميع ثمار انتصارات النمساويين والروس - منذ ١٧٩٨ ، وقبل أن ينتهى العام حلت بالنمساويين نكبة أخرى شمال جبال الألب . فقد اشتبك « مورو » بالجيش النمساوى الذى كان يقوده الأرشيدوق « جون » عند « هوهنلندن » . وانتهت المعركة العنيفة بنصر كامل للفرنسيين ، وأصبحت فيينا نفسها مهددة . ولاشك فى أن النمسا كانت ستضطر على أية حال الى قبول الصلح بعد هاتين الضربتين ، على أننا لا بد أن نشير الى التحول العريب الذى طرأ فى ذلك الحين

على روسيا فجعل قبول النمسا للصلح أمرا أشد حتمية . ذلك أن القيصر نصف المجنون « بولس » الذى ظل بعض الوقت حاملا لواء الدفاع عن الملكية الشرعية وعدوا لدودا للفرنسيين قد أضحى الآن من أنصارهم المتحمسين . وبات على استعداد للتعاون مع نابليون . وعلى هذا قبل النمساويون فى فبراير ١٨٠١ صلح لونيفيل الذى كان من عدة أوجه تكرارا وتعزيزا لصلح كامبوفورميو . وكانت أهم بنوده تسليم جميع الأراضى الكائنة على الضفة الغربية لنهر الراين لفرنسا ، وبذلك تم النزول لها عن سبع سكان الامبراطورية وعدد من أشهر المدن الألمانية مثل ماينز وكولون وآخن وتريه . كما تضمن الصلح النص على أن يحصل الأمراء الذين تضيع أملاكهم نتيجة هذه التنازلات على تعويض « وفقا للتدابير التى تقرر فيما بعد » ، وكان من الجلى أن هذا التعويض سيكون على حساب الولايات الألمانية الصغرى . ونص الصلح كذلك على أن ينوب الامبراطور عن الامبراطورية وأن يقبل قرارات مؤتمر راشتاد . وأعاد الصلح تأكيد معظم نصوص صلح كامبوفورميو المتعلقة بإيطاليا ، فتقرر النزول بموجبه لجمهورية شمال إيطاليا عن دوقية توسكانيا وجزيرة البيا ، واتفق على أن يعوض دوق توسكانيا فى ألمانيا عما فقده فى إيطاليا . ومما يذكر أيضا أن الصلح قد نص على ضمان استقلال الجمهوريات الشقيقة التى أنشأتها فرنسا فى مختلف جهات أوروبا . (١)

وبقيت بريطانيا وحدها فى الميدان ، وظل نابليون يائسا من توجيه أى ضربة ضدها فى تلك الآونة بواسطة العمليات المباشرة فى البحر ، ولكن الأمل ظل يراوده لفترة من الزمن فى امكان القيام بصورة غير مباشرة بما يعجز عن القيام به بصورة مباشرة . فثمة

(١) هذه الجمهوريات الشقيقة هى «البناتانية» (الهولندية) «السويسرية» و«السيزالبينية» (ماوراء الألب) والميجورية (الإيطالية).

حقيقة كانت معروفة ، وازدادت وضوحا أثناء الحرب مع المستعمرات الأمريكية وهى أن جميع الدول التى لها قوة بحرية تتبرم مما تدعيه بريطانيا لنفسها من حق تفتيش جميع السفن أيا كان نوعها فى زمن الحرب . بما فى ذلك السفن المملوكة للدول المحايدة بغية التحقق من أن هذه السفن لا تحمل بضائع مملوكة لأعداء بريطانيا . وتدمير هذه البضائع ان وجدت . وكانت الدول المحايدة قد ألقت فيما بينها رابطة تهدف الى مناهضة هذا الاجراء فى نهاية الحرب الأمريكية ، ولكن بريطانيا ظلت متمسكة به مع ذلك . فانضمت الآن الدانيمارك والسويد - بتوجيه من روسيا الى بروسيا فى رابطة تهدف الى معارضة هذا الحق . فبدأ ان فى الامكان تأليف قوة بحرية هائلة فى بحر البلطيق تناوىء بريطانيا وتستطيع القيام بعمليات خطيرة ضدها . الا أن بريطانيا ضربت ضربتها بسرعة وقبل فوات الأوان ، فهاجمت فى ٢ ابريل ١٨٠١ ، ودمرت الأسطول الدانيماركى وحطمت الرابطة ، وفى نفس الوقت كانت الاحداث تجرى فى مصر على نحو يشير بوضوح الى قرب استسلام الجيوش الفرنسية للبريطانيين وهو ماحدث فعلا خلال الصيف .

وبدا أن الحرب قد تستمر الى الأبد . ومع ذلك فقد كان الصلح فى مصلحة الطرفين . فلما تولى ادنجتون رئاسة الوزارة فى انجلترا بعد « بيت » الذى استقال بسبب خلافاته الحادة مع جورج الثالث حول شروط الوحدة مع ايرلندة ، كان أقل اصرارا من سلفه على مواصلة الحرب ، فبدأت المفاوضات وانتهت بتوقيع صلح اميان (٢٧ مارس ١٨٠٢) . وقد تضمن الصلح بنودا كثيرة ولكن بوسعنا أن نلخصها فى سطور قليلة . فقد اتفق فى هذا الصلح على أن ترد انجلترا جميع الأراضي التى كسبتها من فرنسا بطريق الغزو ، ولكن تبقى لانجلترا سيلان وترنداد اللتان تنازلت عنهما لها هولندة

وأسبانيا . أما مالطة التى استردها البريطانيون مؤخرا من نابليون فقد تقرر أن تعاد لا الى فرنسا وانما الى فرسان القديس يوحنا . والبند الذى يحدد كيفية اعادتها بند مطول يتضمن النص على ضمان بريطانيا والنمسا وأسبانيا وروسيا وبروسيا لاستقلال الجزيرة ، وعلى أن يتولى ملك الصقليين حراسة الجزيرة بقوات عددها ألفا رجل ، الى جانب تفصيلات أخرى . ولسوف تتبين أن هذه الشروط التفصيلية لم تنفذ قط ، وان بريطانيا قد امتنعت - استنادا الى ذلك - عن تسليم الجزيرة . وقد قوبل صلح اميان هذا بابتهاج فائق فى فرنسا وبريطانيا ، وفتح أبواب أوروبا من جديد لزيارات السياح البريطانيين ، واعتبره الكثيرون خاتمة لعصر من الحروب وفاتحة لسلم طويل ، بل ان البعض قد أصبح على استعداد لاعتبار نابليون رجلا له على البشرية أياذ بيضاء . بيد أن هذا الصلح لم يكن - فيما تبين - سوى هدنة مزعومة خداعة ليس الا . فسرعان ما انجسرت موجة الحماسة الأولى له فى إنجلترا ، وشاع الاستياء العام لاسيما بين الطبقات التجارية لاستمرار فرنسا فى الاحتفاظ ببلجيكا وهولندا ، أى استمرارها فى السيطرة على تلك الأراضى التى تبدو للانجليز ، اذا ما وقعت فى أيدي دولة غريمة ، « مسدسا مضوبا الى قلب لندن » . كما ثبت أن الآمال التى عقدت على التجارة مع فرنسا لم تكن فى محلها أيضا ، فلم يفتح الباب عن طيب خاطر للتجارة فى أى مكان ، بل انها حرمت فى بعض الأماكن تحريما قاطعا . بيد أن الصلح - على علاقه - قد أعطى فرنسا فترة استجمام كانت فى ميسس الحاجة اليها ، واستطاعت أن تدخل خلالها تغييرات كبرى فى حياتها السياسية والاجتماعية والدينية .

وقد يجدر بنا قبل أن نتعرض لهذه التغييرات ، أن نتابع أثر الهزات الكبرى التى زعزعت أوروبا ، على ألمانيا . كانت ألمانيا فى بداية الفترة التى نتحدث عنها خليطا غريبا ، كما أسلفنا يجمع بين دول

كبرى وصغرى ، علمانية ودينية ، حرة واستبدادية ، تعامل فيه المدن الحرة بل والقرى الحرة على أساس دستورى متساو مع دول كبرى مثل بروسيا وبافاريا والنمسا ، ولم يكن ثمة فوق هذه المجموعة العجيبة من الدول سلطة فعالة على الاطلاق . فالامبراطور كان اسما كبيرا فحسب ، والامبراطورية كانت كيانا شرفيا لا قوة تستطيع السيطرة على زمام الامور . فالسلطة الحقيقية لم تكن تتمثل فى الامبراطورية ككل وانما فى اجزائها المختلفة وفى حكام الدول التى تتكون منها الامبراطورية مثل النمسا وبروسيا وبافاريا وهانوفر وسكسونيا وورتمبرج . وقد شاهدنا كيف انسحبت بروسيا من الحرب عام ١٧٩٥ فى صلح بازل ، وكيف عقدت النمسا فى أكتوبر ١٧٩٧ أول صلح لها مع فرنسا فى كامبوفورميو . وفى هذا الصلح اتفق على دعوة مؤتمر فى راشتاد للبت فى شروط الصلح بين فرنسا والامبراطورية ، على اعتبار أن للامبراطورية كيانا منفصلا عن النمسا . وقد حوى صلح كامبوفورميو بنودا سرية تنظم مقدما بعض جوانب التسوية المقترحة ، اذ تضمن النص على أن تحصل فرنسا على الاراضى الكائنة غرب الراين ، وألا يسمح لبروسيا بالحصول على أية مكاسب ، وأن يعوض الأمراء الزمانيون (أو العلمانيون) الذين تنزع أملاكهم فقط بطريقة يتفق عليها مع الجمهورية الفرنسية . وقد كانت تلك اللحظة من اللحظات الحاسمة فى تاريخ ألمانيا ، ويمكننا أن نشاهد فيما أصاب كيائها وطراً على حياتها التى تمت الى العصور الوسطى من هزات ودمار ، بداية الحركة التى ستأخذ بيدها الى الوحدة والمنعة فى النصف الاخير من القرن التاسع عشر . ولكنها كانت تفتقر فى تلك اللحظة الى القوة والى القيادة السياسية الرشيدة التى تستطيع اغتنام الفرص التى يتيحها الموقف . فقد كان الامبراطور فرنسوا الثانى حقا على شئ من الدهاء الفطرى ، وكان شغوفا بالموسيقى وفن الدراما والتاريخ الطبيعى ، ولكنه لم يكن بالرجل

الفوى سواء من حيث قوة الفكر أو قوة الإرادة . وكان مستبداً بالسليقة يهاب الحرية فى كل شكل من أشكالها . وكان وزيره ثوجو Thugut سياسياً يتبع أهواءه الخاصة ويخلو رأسه من الأفكار الموجهة سواء بالنسبة لإدارة الممتلكات النمساوية أو إعادة بناء ألمانيا . وقد قال نابليون عنه أنه كان يتدخل فى كل شىء ويزج بنفسه فى دسائس أوروبا كلها دون أن يتبع أية خطة معينة . ولا كان من المستطاع أن تجد ألمانيا مرشداً لها فى بروسيا حين خذلتها النمسا ، فان أوان بروسيا لم يحن بعد . فقد كان الملك فردريك وليم الثالث الذى وصف بأنه « أكثر من حكم بروسيا وقارا وأشدهم افتقارا الى الميزات الخاصة » . يعتقد أن صلح بازل قد عزز من قوة بروسيا ، ويعارض أية آراء جديدة معارضة تامة . ولا نجد فى سياسته أثراً لأبة وطنية ألمانية شاملة أو أى ادراك لمغزى الاعصار الذى كان يجتاح أوروبا بالنسبة لبلاده بالذات أو ألمانيا ككل . على أن الحكومة البروسية كانت تضم رءوساً أحكم من رأسه ، وقد كان وزير خارجيته هاردنبرج رجلاً صادقاً غيوراً فى وطنيته . وكان هناك أيضاً عسكريون وساسة سيتعاونون عندما يأتى الأوان على بعث بروسيا ذلك البعث الذى سيؤدى بدوره الى بعث ألمانيا وانتصارها .

وهكذا نجد ألمانيا فى اللحظة التى تتحدث عنها بلاداً خاملة ، فى مجموعها وفى أجزائها ، تعاني من الفساد السياسى وتعجز بل وترغب فيما يظهر عن إبداء أية مقاومة جدية فعالة تجاه نويا فرنسا . على أننا ينبغى أن نحذر فى الوقت نفسه من التفكير فى الشعب الألمانى والحياة الألمانية باعتبارهما صورة للاضمحلال والضعف وحدهما ، فالواقع يسجل أن النصف الثانى من القرن الثامن عشر قد شاهد ازدهاراً رائعاً للفكر والفن الألمانين . فقد ظهرت منذ منتصف القرن حركة بعث قومية عظيمة فى الأدب والفكر ، كان المساهمون الرئيسيون

فيها « لسنج » و « جوتة » و « شيلر » و « كانت » . والسنوات قسما بين ١٧٨٠ و ١٨٠٥ تعتبر العصر الكلاسيكي للأدب الألماني الذي يتركز في ذلك الحين في مدينة فيمار ، وهيمنت عليه شخصيتا العملاقين جوته وشيلر . وفي الموسيقى رفع خلفاء باخ ، الذين يؤلفون صفا من المشاهير يضم هايدن وموزارت وبيتهوفن ، رأس البلاد التي تتحدث الألمانية عاليا في أوروبا . وإن روعة هؤلاء الفنانين والمفكرين إنما تنف على النقيض الظاهر من الضعف السياسي للدولة الألمانية في تلك الحقبة .

ولما اجتمع المؤتمر في راشتاد في ديسمبر ١٧٩٧ مثل ألمانيا « وفد » مؤلف من ستة وسبعين عضوا ، ولعبت فرنسا منذ البداية دورا قياديا فيه . وحضر نابليون المؤتمر بنفسه في الجلسات الأولى ثم خلفه أربعة دبلوماسيين فرنسيين وكانت لفرنسا مآرب واضحة في المفاوضات ، هي أن تؤمن لنفسها الضفة الغربية للراين ، وأن تبذر بذور الشقاق بين النمسا وبروسيا ، وأن تعوض الولايات الزمنية بالسماح لها بابتلاع الولايات الكنسية ، ولكن قبل أن يتم الوصول الى أية نتيجة نهائية في راشتاد وقعت الأحداث التي سبق أن ألمحنا اليها ، ألا وهي نشوب الحرب بين فرنسا ودول التآلب الثاني ومصرع المبعوثين الفرنسيين . فلما ارغمت موقعة «مارنيجو» و «هوهنلندن» ، النمسا على توقيع صلح لونيفيل استؤقت البحث في إعادة تخطيط ألمانيا . ولم يعد ثمة مقر من أن تنفذ القرارات التي اتخذت في راشتاد ، ومن أن يوقعها الامبراطور نيابة عن ألمانيا . الا أن القرارات عرضت على وفد آخر يمثل الامبراطورية ويقل عددا عن الوفد السابق بكثير ، فقد كان يتألف من ثمانية أعضاء فقط يمثلون ماينز وسكسونيا وبوهيميا وبرندنبرج (بروسيا) وبفاريا وورتمبرج وهسي كاسل والفرسان التيوتون . ولما رفض الوفد الموافقة على شيء منها ، تدخلت فرنسا وحليفاتها الجديدة روسيا باعتبارهما

وسيطتين ، فأملت شروطهما وعقدتا المعاهدات مع كل دولة على حدة . ان ذكرى تلك الايام انما تثير في نفوس المؤرخين الالمان احساسا أليما بالمهانة ، فقد ترك البت في مسائل لها كل المساس بمقدرات ألمانيا في مجموعها واجزائها ، لا للسلطة الامبراطورية أو حتى لملوك ألمانيا وأمرائها وانما للديبلوماسيين الفرنسيين وحدهم تقريبا . وأصبح مستقبل أراضى الاودر والألب والفيستولا رهنا باتقرارات التى تتخذ في وزارة الخارجية بباريس . وكانت غرف « تاليران » وزير خارجية نابليون الحائز على ثقته الكبيرة ، تكتظ بالامراء والموفدين الالمان الذين يسعى كل منهم للحصول بكافة الوسائل على مناصرة الوزير الخطير لنفسه أو لسيده . ولم ينته الأمر الا في فبراير ١٨٠٣ . ففى ذلك الشهر عرضت على الريشستاغ التسوية التى تم الوصول اليها في مكان آخر غير ألمانيا ، فما كان منه الا أن قبلها . وطبيعة هذه التسوية الألمانية واضحة تماما مما سبق أن ذكرنا : الغنم كل الغنم للدول القوية والغرم كل الغرم للدول الضعيفة . فقد محيت من الوجود مائة واثنى عشرة دولة ابتلعتها جاراتها الكبيرة ، كما اختفى من الوجود من جراء تلك العملية معظم فرسان الامبراطور وجميع المدن الامبراطورية عدا ست مدن . وأزيلت الولايات الكنسية من خريطة أوروبا باستثناء ولاية واحدة ، ذلك أن ماينز كانت قد ضمت الى فرنسا ولكن كبير أساقفتها كان مستشارا للامبراطورية ، فرؤى انه ليس من الحكمة القضاء على سلطانه كلية ، ومن ثم فقد نقل الى أسقفية راتزبون . وبقي الفرسان اثنيوتون وفرسان القديس يوحنا بعض الوقت ، ومنحت رتبة الناخب لأربعة أعضاء جدد ، ولكن الناس كانوا يشعرون بأن الامبراطورية التى عين ناخبوها بهذه الطريقة كانت في طريقها الى الزوال من العالم الأوروبى ..

لقد فقدت النمسا بجلاء سيطرتها على الامبراطورية المزعومة . فان حيازة بيت الهابسبورج للقب الامبراطورى ذهرا طويلا - حيازة أدت الى تحول ذلك اللقب الذى كان من الناحية الاسمية بالانتخاب الى لقب وراثى من الناحية العملية - انما كانت ترجع الى حد بعيد الى تزعم النمسا الدفاع عن مصالح الكاثوليكية ، ولكن أغلبية الناخبين أصبحوا الآن من البروتستانت ولم يعد ثمة احتمال كبير لتأييدهم لامبراطور من الهابسبورج . وقد أعطيت النمسا مدينة ترنت الهامة كنوع من التعويض . وخسرت بفاريا الكثير غربا - « جولير » و « بيرج » و « البالاتينات » - ولكنها عوضت أحسن تعويض باعطائها ورزبرج وبامبرج وكمتن واجزبرج . فقد كان من سياسة فرنسا الثابتة تدعيم بفاريا لتصبح منافسة لسلطة النمسا . وفاز دوق بادن الأعظم كذلك بأراض واسعة . وحصلت بروسيا على تعويض مناسب عما فقدته وراء الراين ، فقد كان نابليون ميالا فعلا الى كسب ودها ولو لبعض الوقت ، وكان يرمى الى تقسيم ألمانيا الى مجموعات ثلاث رئيسية : مجموعة بروسيا ومجموعة النمسا ومجموعة ألمانيا الجنوبية ، بل انه ألح كذلك الى أنه لايمانع فى حصول بروسيا على هانوفر ، لان ذلك كان كفيلا بأن يجعل الصداقة والتحالف بين بروسيا وبريطانيا ضربا من المستحيل .

ولقد تم قبول التخطيط الجديد فى ألمانيا دون مقاومة أو مجاهرة بالسخط ، وقد اقترن مجيء النفوذ الفرنسى الى ألمانيا بمجىء أشياء كانت تمثل تغييرا عظيما الى الأفضل ، فقد أدخلت بطبيعة الحال جميع النظم القانونية والاجتماعية التى فازت بها فرنسا نتيجة للثورة فى الأراضى التى ألحقت بها . ولم يقتصر هذا على تلك الأراضى وحدها فان فرنسا كانت تسير دفعة الأمور فى سائر الجهات أيضا بنفوذها القوى وبالمثل الذى كانت تضربه . ولقد شاهدت ألمانيا فى تلك الفترة نموا سريعا فى الاهتمام بالمسائل الاجتماعية والسياسية ،

وتحولاً في اتجاه الفكر الألماني ، واستعداداً طيباً لتعديل النظم القائمة . ورغم أن هذه الأشياء جميعاً ستستخدم فيما بعد ضد فرنسا فليس ثمة شك في أنها كانت تدين في نشأتها بالكثير لفرنسا نفسها .

ويجدر بنا أن نعود الآن مرة أخرى الى تاريخ فرنسا لتتابع الخطوط العريضة للتغيرات العظيمة التي طرأت على مركز نابليون ، وانشطه والاصلاحات التي ادخلها فيما سوف يسمى بعد وقت قصير بامبراطوريته ، مغفلين مؤقتاً جميع الأحداث العسكرية وان تكن لهذه الأحداث أقوى صلة وأوثقها بتاريخ فرنسا الداخلي .

لقد تولى نابليون حكم فرنسا بوصفه قنصلاً أول ، ولم يلبث أن ضرب عرض الحائط بنظم الحكم التي أنشئت على أثر ثورة برومير . فلئن كان لتلك النظم نفع بادئ الأمر كستار يخفي وراءه حكمه الفردي ، فانه لم يلبث أن ألقى نفسه في غنى عنها بعد أن ازداد ثقة بنفسه واطمئننا الى تأييد الرأي العام ، فأخذ يعصف بها وراح يحكم دون حتى مجرد التظاهر بأشراك الشعب معه . وهو لم يتجه بحكمه أكثر فأكثر نحو الأوتوقراطية الصريحة فحسب ، بل طفق يتخلى كذلك رويداً رويداً عن كل أثر لمنشئه الثوري ، ويزداد ميلاً الى التمسك بالأوضاع الراهنة واعتماداً على تأييد الجهات المحافظة كالكنيسة والفلاحين ، حتى أنه أصبح يكره فيما بعد أن يذكره أحد على أى نحو بصلاته وعقائده الثورية الأولى ، وفي ديسمبر ١٨٠٠ ألقيت عليه قبلة وهو في طريقه الى دار الأوبرا ، فأعلنت السلطات أن الحادث من تدبير « السبتمبريين » وهو الاسم الذي أصبح يطلق على سبيل الازدراء على اليعاقبة المتطرفين . وأجرى تحقيق في الحادث نفى على أثره ١٣٠٠ معتقوباً لا بسبب اللقاء القبلة وانما على حد قول المرسوم « بسبب مذابح ٢ سبتمبر و ٣١ مايو وكل محاولة تالية » .

وشنت الحكومة حربا شعواء حتى على النساء ، وألقت القبض على أرملتى مارا وشوميت . ومن الأمور التى تستحق الذكر فى هذا الصدد باعتبارها تكشف عن صلات نابليون القديمة ، أن شقيقة روبسبير قد منحت معاشا .

وقد اتخذت هذه الاعتداءات على القنصل الأول سببا أو مبررا للمزيد من تجميد الدستور . ثم جاء صلح اميان فى مارس عام ١٨٠٣ ، وألقت فرنسا نفسها قد أحرزت النصر على كافة أعدائها وأصبحت تتمتع بمكانة عسكرية لم يتمتع بها لويس الرابع عشر نفسه فى أوج سلطانه ، وبدا أنها مدينة بكل شئ لذلك الرجل المذهل الذى قادها من نصر الى نصر ، فلم يبق للحرية سوى أنصار قلائل ، ذلك أن الحكم الفردى قد جلب للبلاد الفوز وأصبح من المأمول أن يجلب لها الرخاء كذلك . ولا مراء فى أن نابليون نفسه كان شديد الرغبة فى الانفراد بالسلطة دون منازع وتثبيت حكمه الفردى على دعائم أقوى وأبقى ، ولكن رغبة شعبه قد ظهرت طموحه بل فاقتته . وقد تقدم البعض باقتراح بتجديد مدة قنصليته لفترة أخرى تبلغ عشر سنوات عرفانا بفضلته فى اقرار السلام ، ولم يلبث هذا الاقتراح أن عدل الى القنصلية مدى الحياة نتيجة لجهود نابليون نفسه ، وتقرر ألا يكون المنصب وراثيا على أن يسمح للقنصل - احتذاء بسنة الرومان - بأن يختار بنفسه من يخلفه . وأدخلت فى نفس الرقعة بعض التعديلات على الأجهزة الدستورية ، فتحول مجلس الدولة الى « مجلس خاص » يعين القنصل الأول أعضائه وله وحده حق التقدم بجميع الاقتراحات . ولم يعد مسموحا بالمناقشات الا فى هيئة المشرعين أو « مجلس التربيون » . فلم يكن ثمة ما هو أبغض الى نفس نابليون أو اثاره لمخاوفه من المناقشة سواء فى مجلس أو جمعية أو فى الصحافة ، أما مجلس التربيون فكان قد سبق أن أعيد تنظيمه

اثر الاعتداء على شخصه بحيث يختار القنصل الأول الأعضاء الذين تسقط عضويتهم كل عام . ويتمكن بذلك من التخلص من كل من يعارضه ، وفرضت على المناقشات فيه قيود صارمة . وقد قسم مجلس التربيون الآن الى خمسة أقسام تجرى مداولات كل منها سرا . وظل النظام الانتخابى قائما من الوجهة الاسمية بل ان بعض الاصلاحات قد أدخلت عليه ، ولكنه لم يكن مسموحا للناخبين فى الواقع بالتأثير على الحكومة على أى وجه من الوجوه . وهكذا أصبحت فرنسا تعيش فى ظل حكومة فردية تخضع لضوابط وقيود أقل من تلك التى كانت قائمة فى عهد الملكية القديمة . وقد طلب الى جميع المواطنين ابداء الرأى فى المقترحات الجديدة فأيدوا . مد حكم بابيون بأغلبية ثلاثة ملايين ونصف مليون صوت مقابل أقل من عشرة آلاف صوت . ان الاستفتاءات الامبراطورية ليست فوق مستوى الشبهات ، ولكن من الواضح أن الشعب كان راغبا فى أن يحكمه نابليون .

لقد أصبح نابليون امبراطورا من جميع الوجوه عدا الاسم ، وسرعان ما جاء الاسم وقد جعل بنا أن نتبع الكيفية التى جاء بها بعد القاء نظرة عابرة فقط على الشئون الخارجية التى كان لها أبلغ الأثر فى حصوله على هذا اللقب الجديد . لقد انهار صلح اميان فى مايو ١٨٠٣ ، وبدأ كما لو أن الحرب الجديدة التى نشبت مع بريطانيا أولا ثم مع تحالف أوربى كبير كانت تحدىا شخصيا لنابليون وحكمه فلم يعد ثمة مناص حيال مثل هذا الهجوم من أن تلتف فرنسا بكل حماسة حول الرجل الذى اختارته ليحكمها . وقد كان المؤامرة كادودال التى كشف النقاب عنها فى فبراير ١٨٠٤ ، أثر مماثل . وكانت هذه المؤامرة خطيرة حقا ، فقد أقسم جورج كادودال الذى كان ملكيا من لافنديه على أن يقتل نابليون ، واقرن باسمه فى هذه المؤامرة أسمنى شخصيتين أعظم منه هما « بيشجرو » القائد العسكرى المعزوف فى عهد الثورة و « مورو »

الذى أحرز النصر فى هوهنلندن ، ولم تكن الحكومة الإنجليزية أيضا بجاهلة أن ثمة شيئا فى الأفق . ولكن أحد المتآمرين كشف عن الخطة ، فأعدم كادودال ونفى مورو ومات بيشجرو فى السجن ميتة ثارت حولها بعض الشبهات .

وتسببت المؤامرة كذلك فى وفاة شخصية لم تكن لها أدنى صلة بها ، وهى دوق دنجان الذى كان أميرا من بيت كوندية ، هاجر مع النبلاء المهاجرين واستقر فى اتنهايم بولاية بادن على مقربة من حدود فرنسا . ومن العسير على المرء أن يتبين السر فى هذا العمل الشائن . الا أن نابليون كان يشعر بأنه محاط بالمؤامرات وقد ضاق ذرعا بالتحالف الذى كان ينمو ضده ، وخيل اليه فيما يبدو أن الدوق دنجان يتهايم لغزو فرنسا بمعاونة دى مورييه ، فسير جماعة من الفرسان الى اتنهايم قامت بالقبض عليه وأحضرتة الى ستراسبورج أولا ثم مضت به على وجه السرعة الى فنسين بالقرب من باريس حيث شكل له مجلس عسكري ، وبعد محاكمة عرجاء نفذ فيه على الفور حكم الاعدام رميا بالرصاص . ولم يلوث سمعة نابليون شئ بأكثر مما فعلت تلك الجريمة . وقد وقع فى نفس الوقت تقريبا حادث اختطاف « رومبولد » ممثل بريطانيا فى هامبورج ، وقد أُنقذت حياته بصعوبة من غضب نابليون . كما أرغمت فى تلك الفترة ولايات ألمانية عدة على ابعاد ممثلى بريطانيا من أراضيها .

ولم يكن للمؤامرات الموهومة والحقيقية ضد نابليون ولكراهية أوروبا المحمومة له ، ولاسيما بريطانيا ، من أثر سوى زيادة استعداد فرنسا لاعلان ثقتها به ، فقدم فى مجلس التريبون اقتراح بجعل حكمه وراثيا لم يلبث أن أجيز دون أن يعترض عليه ، تعلقا بالروح الجمهورية ، سوى كارتو . ثم منح نابليون بعد ذلك بقليل ، وفى ١٨ مايو ١٨٠٤ على وجه التحديد ، لقب « امبراطور الفرنسيين »

تقرار من مجلس الشيوخ . وكانت العلاقات الرسمية قد قامت بين البابا وحكومة فرنسا الجديدة نتيجة لتشريع سنتناوله بالبحث بعد هنيهة ، فجاء الى باريس حيث توج نابليون وجوزيفين في كاتدرائية نوتردام . وقد درست كافة تفاصيل الاحتفال بعناية وتقادى نابليون الاعتراف بأية سيادة للبابا فأخذ التاج من يديه ووضعه على رأسه بنفسه .

ولئن كان من حق نابليون أن يدرج المؤرخون اسمه في عداد عظماء الساسة ، فان هذا الحق الذى يضعه في مرتبة فريدة بين عباقرة العسكريين ، انما يستند أولا وقبل كل شئ الى التدابير التى اتخذها في مجال السياسة الداخلية في تلك الفترة ، وهى تدابير عديدة لها أهميتها الحيوية لافى تاريخ فرنسا وحدها وانما فى تاريخ أوربا ككل . ولقد اشترك الكثيرون بأدوار كبيرة فى رسمها مع نابليون ، ولكن مسئولية نابليون المباشرة عنها عظيمة ، ذلك أن هؤلاء جميعا كانوا يستمدون منه الوحي ويتأثرون به كل التأثير .

فأولا أوجد نابليون للمسألة الدينية التى ظلت قرحا دائما فى جسم فرنسا ، حلا . فان تحدى الثورة لعاطفة فرنسا الكاثوليكية وتعرضها لتنظيمات الكنيسة الكاثوليكية قد أثار حولها الكثير من أخطار الصعوبات التى صادفتها ، ومحاولتها اقامة كنيسة كاثوليكية دستورية مستقلة عن روما والبابا قد باءت بالفشل الذريع ، وألغى القساوسة الدستوريون أنفسهم بلا جمهور ، فتزوج الكثيرون منهم وشغلوا بأمور دنياهم . وكانت الخيبة التى منيت بها ديانة حب الخير - رغم مساندة الدوائر الحكومية لها - أشد وأقوى . ذلك أن فرنسا المتدينة كانت تشكل بالنسبة لفرنسا ككل جزءا أضخم مما يظن الناس فى العادة .

وقد تناول نابليون المسألة من وجهة نظر السياسى المحنك ، فان آراءه الدينية الخاصة لم تكن تتعدى كثيرا فيما يبدو الايمان المبهم بوجود الله . ولكنه أحس بفطرته السليمة بقوة الكنيسة الكاثوليكية ، وبخطر الاصطدام بهيئة يدين لها بالولاء كل هذا العدد الغير من ،فرنسيين . وكان راغبا في قيام كنيسة مستتبة لتكون سندا لعرشه ، ومن أقواله المأثورة « ان دولة بلا ديانة كسفينة بلا بوصلة » . وقد أظهر في حروبه الايطالية الأولى من الود نحو البابوية أكثر مما كان يروق للحكومة الفرنسية القائمة وقتئذ . ثم قطع « التقارب » بينه وبين البابا شوطا أكبر الى الأمام بعد معركة مارنجو . فقد احتفل بنصره في تلك المعركة باقامة صلاة الشكر وأعيد الى البابا بيوس السابع ولاياته ، فكان في موقف القنصل الأول تشجيع صريح للبابا على الدخول في مباحثات ودية مع فرنسا . على أن الأمر لم يخل أيضا من التهديد المستتر ، فقد احتفظ نابليون في روما بحامية فرنسية تستطيع ازعاج البابا ان استدعى الحال ، وتردد الحديث في بعض الأحيان كذلك عن المضى بفكرة « الحريات الغالية » التقليدية شوطا أبعد بحيث تقوم في فرنسا كنيسة تكون كاثوليكية لحما ودما دون أن تخضع لروما . وأسفرت المباحثات عن اقرار الاتفاقية البابوية وعودة فرنسا - بصورة اجمالية - في عيد الفصح عام ١٨٠٢ ، الى الدستور الكنسى الذى كان قائما قبل الثورة ، وهو الدستور الذى رسمت خطوطه الرئيسية اتفاقية بولونيا التى وقعها كل من الملك فرنسوا الأول والبابا ليو العاشر في ١٥١٦ . وهكذا عادت الصلات بين الكنيسة وروما ، وأصبحت الكاثوليكية مرة أخرى دين الدولة الرسمى ، وتقرر أن تنفق الدولة من أموالها على الخدمات والهيئات الكنسية . وتقرر من ناحية أخرى أن يكون الترشيح لجميع المناصب الكبرى في الكنيسة من حق القنصل الأول ، وألا يكون للبابا أى حق في الاعتراض على هؤلاء المرشحين الا على أساس الهرطقة أو الفساد

الخلقى ، فاذا لم يجد عليهم مأخذ من هاتين الناحيتين التزم بتنصيبهم وفقا للنظم الكنسية ، وبهذا يتمكن القنصل الاول من الاحتفاظ بسلطانه على الكنيسة عن طريق شغل المناصب الهامة فيها بأفراد يشق بتأييدهم له . غير أن الامر لم يقف عند هذا الحد ولا كان ذلك أسوأ شيء من وجهة نظر البابا ، فقد ورد في الاتفاق نص بأن « تتم العبادة جهرا مادامت متمشية مع تعليمات الشرطة التى ترى الحكومة لزومها حرصا على السكينة العامة » . وسرعان ما خرجت هذه التعليمات الى عالم النور ، وأعلنت الحكومة أن المراسيم البابوية لاتسرى على فرنسا ، وانه لايجوز عقد مجمع مقدس لقساوسة فرنسا دون اذن من القنصل الاول ، وانه ليس مسموحا لاي أسقف بأن يغادر أبروشيته حتى لو استدعاه البابا نفسه . والادهى من ذلك كله أن الاتفاقية قد ضمنت شرطا يقضى بتدريس اعلان الحريات العالية ، أى الحقوق والحريات الخاصة بالكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا ، لكافة من يعدون أنفسهم ليصبحوا قساوسة . وكان هذا الاعلان الذى صدر فى ١٦٨٢ مصدر خلاف دائم بين الملكية الفرنسية القديمة والبابوية ، وهو باختصار يحد من سلطة البابا فى شئون الكنيسة الفرنسية ، ويعلن أن هذه السلطة لاتصبح نهائية قبل أن تؤيدها موافقة تلك الكنيسة . ولقد وجد البابا الاتفاقية التى عرضت عليه قاسية الى درجة جعلته يتردد فى قبولها ككل بعد أن ألحق بها هذا الاعلان ، غير أنه قبلها فى النهاية .

وكانت فكرة نابليون الرئيسية فى هذا كله هى التحكم فى قوة عظيمة تؤثر فى تصرفات الناس من خلال مشاعرهم وعقائدهم . ولم يغفل نابليون أمر الكنائس الأخرى فوضع الكنيستين اللوثرية والكلفينية تحت سيطرة الدولة وجعلها تتولى الاتفاق عليهما ، ومنح اليهود كذلك معونة حكومية . وهكذا كتب للحياة الدينية أن تقوم فى فرنسا مرة ثانية ، وأن يجزل لها العطاء ، وقدر للعرش وأن

أخير مظهره كثيرا - ان يستند من جديد على محراب فرنسا أو محاربيها . والرأى يختلف اختلافا بينا في تقدير سلامة هذه الخطوات سواء من زاوية الدين أو السياسة . لقد كان من الواضح أن الوقت قد حان للسماح للشعب الفرنسى بالدخول من جديد فى صلة روحية حرة مع الكنيسة التى كان يفضلها . ولكن هل كانت سيطرة الدولة شيئا تقتضيه الحكمة ؟ وهل كان من صالح الكنيسة على طول المدى أن تربط نفسها الى هذا الحد بمصالح نابليون ؟ وهل كسب نابليون أية قوة لها صفة الدوام من هذه الرابطة ؟ حقا ان روح «بسوويه» (١) كانت لاتزال قوية فى فرنسا ولكن هذا القول يصدق أيضا بالنسبة لروح « فولتير » . ولقد شعرت الكنيسة الكاثوليكية وشعر الكاثوليكيون ، بالامتنان لنابليون لما أسداه لهم من خدمات ، ولكنهم لم ينسوا قط ارتباط حكمه بالثورة المقيتة . بينما نظر أصحاب العاطفة الثورية فى فرنسا الى الاتفاقية البابوية باعتبارها هجوما مباشرا على مبادئهم الجوهريّة . وقد أسماها جوزيف بوناپرت « خطوة رجاء الى الوراء » ، وقال آخى مخاطبا نابليون « ان مليونا من الناس قد ماتوا من أجل القضاء على ما أنت بسبيل اعادته » .

وثانيا شاهدة الفترة التى نتحدث عنها اتمام وإصدار « المجموعات التشريعية » أو « التقنيات » النابليونية (٢) ، وهى تعد من أقوى الأسانيد التى يستطيع الاعتماد عليها القائلون بأن نابليون ذو أمد بعيد على البشرية . وقد أعلن نابليون فى منفاه فى سانت هيلانة أن المجموعة التشريعية المدنية التى أصدرها ، لا انتصاراته فى الحرب ، هى مؤهله الاول للشهرة . وهذه التقنيات الفرنسية كانت أيضا

(١) أسقف شهير فى فرنسا عاش فى الفترة ما بين ١٦٢٧ - ١٧٠٤ م .
المترجم)

Napoleonic Codes (٢)

أفعل أداة في نشر أفكار الثورة الفرنسية التي أقرها ونهض بها نابليون ، في أنحاء شاسعة من أوروبا . ان فكرة التقنين لم تكن بالجديدة على فرنسا ، وهذه المحاولة للمضى قدما بالعمل الذي بدأته الامبراطورية الرومانية ذلك بتقديم قوانين فرنسا في أقل حجم ممكن وفي صورة واضحة ومنطقية وكاملة ، فيها حقا شيء فرنسي أصيل . فلقد قام لويس الرابع عشر بمحاولة من هذا القبيل . وأبدت الثورة رغبتها في أن ترى هذا العمل وقد سار شوطا أبعد الى الامام . ان انجاز مثل هذا العمل يتطلب دائما وجود حكومة قوية ، بل يتطلب عادة ارادة فردية قوية ، وقد زود نابليون فرنسا بذلك على أكمل وجه .

لقد كان نابليون ابن الثورة ، ولكنه قلب من عدة أوجه أهداف ومبادئ الحركة التي انبثق منها . وهذا القول ينطبق بوجه خاص على مجموعاته التشريعية . فالثورة لم تكن قد اكتسحت ماتبقى من الاقطاع والسيطرة الكنسية على الدولة فحسب ، بل هاجمت كذلك التقاليد التي كان يعتز بها فقهاء فرنسا . ولقد جاهدت قبل كل شيء من أجل المساواة ، فأصرت على تقسيم الميراث بالتساوى بين الابناء ، وفرضت حدودا ضيقة للوصية ، وأساعت الى مشاعر ذوى العاطفة الكاثوليكية بابتداع نظام الطلاق ، وانتزعت من الكنيسة كل سيطرة على مسائل الاحول الشخصية أى المسائل الناشئة عن الولادة والوفاة والزواج . وقد كان في ذلك كله الكثير مما لا يقره نابليون في مزاجه الجديد ، فقد تصادق مع الكنيسة وصار يقيم وزنا كبيرا لمبدأ السلطة ولايكن حبا كبيرا للمساواة . فمن الطبيعي اذن ألا يكتفى بتقديم تشريعات الثورة في قالب موجز ومنطقي بل أن يرغب كذلك في تعديل تفاصيلها الهامة .

ولم يكن نابليون فقيها ، فتناول المسائل بسعة أفق الرجل العادى وجهله كذلك . على أن تأثيره كان عظيما للغاية ، فهو لم يكتف بدفع مشرعيه الى القيام بتلك المهمة والاصرار على انجازها بل ترأس بنفسه كذلك الكثير من الجلسات ، ولا سيما تلك التى خصصت للمجموعة التشريعية المدنية ، وتدخل فى كثير من الاحيان تدخلا حاسما . وفى بعض أقواله عن عمل المشرعين من الطرافة ما يحفزنا الى اقتباسه « لقد كنت أحسب أولا أن بالامكان اختزال القوانين الى معادلات هندسية بسيطة بحيث يتمكن كل شخص يستطيع القراءة والربط بين فكرتين اصدار الاحكام بموجبها ، ولكنى سارعت الى اقناع نفسى بسخافة تلك الفكرة ... ولطالما لاحظت أن المبالغة فى تبسيط القوانين انما هى عدو لدود للدقة ، وأن الافراط فى تبسيط القوانين ضرب من المستحيل فان ذلك يؤدى فى معظم الأحوال الى تعقيد الامور بدلا من حلها . »

وكانت هناك خمس مجموعات تشريعية (Codes) هى : القانون المدنى وقانون المرافعات المدنية وقانون الاجراءات الجنائية وقانون العقوبات والقانون التجارى . وقد مرت هذه التقنينات بعدة مراحل قبل أن تصبح نافذة ملزمة فى فرنسا . وهناك هيئتان كان لهما الدور الحاسم فعلا فى اقرارها : هما اللجنة الابتدائية التى وضع فيها مشروع القانون المدنى ، ومجلس الدولة الذى عرضت عليه الاقتراحات وترأس الكثير من جلساته نابليون بنفسه . وكان نابليون ينظر الى واجباته بعين الجدد ، فحضر خمسا وثلثين جلسة من سبع وثمانين جلسة خصصت للقانون المدنى . وقد انحاز بطبيعة الحال الى جانب تدعيم السلطة فى الاسرة والدولة جميعا ، فناصر فكرة السيادة المطلقة للأب داخل الاسرة على الزوجة والاطفال على حد سواء ، وأيد بشدة مبدأ خضوع المرأة للرجل وقال فى هذا المعنى « ان الملاك قد أمر

حواء أن تطيع زوجها ، وتعاليم الاخلاق قد دونت هذه المادة بجميع اللغات ، فمن باب أولى أن تكتب بالفرنسية في القانون . » وسمح القانون المدني للاب بأشياء كثيرة تصل الى سجن أبنائه فكأنما عادت فرنسا الى تقاليد العهد البائد . وسمح بالطلاق ولكنه أحاطه بالقيود ، وأيد تقسيم الملكية فأصر على أن تقسم المساواة بين الأبناء حصّة كبيرة من التركة على الأقل ، وأمن الكثير من المكاسب التي حققتها اثورة ، ولكن نفوذ نابليون الشخصي كان مسئولاً عن تجميد تضيق كثير من الأحكام التي أتت بها الثورة من بنود واختفاء أحكام أخرى . فمثلن كان نابليون قد أتاح لمبادئ الثورة مجالا فسيحا تمارس فيه نفوذها ، مجالا ما كانت تبلغه لولاه ، الا أنه قد سلب منها طرفا من بهائها الأول . أما القوانين الأخرى فليس لها أهمية القانون المدني . فمحكمة الاجراءات الجنائية انما هي - من عدة أوجه - صورة للنموذج الانجليزى . على أن نظام المحلفين قد قوبل بهجوم عنيف ، وأعلن الكثيرون أنه في مصلحة المتهم بأكثر مما ينبغي وأنه يحد حدا خطيرا من سلطة الحكومة ، ولكن الرأى قد استقر على الاخذ به في النهاية ، والفضل في ذلك يرجع الى حد بعيد الى نفوذ نابليون . وقد روى أن تكون قرارات المحلفين بالاغلبية ، وأن تجرى المحاكمات علنا ، وأن يسمح بالدفاع في جميع القضايا . وتقرر - رغم معارضة الساسة الثوريين - الاحتفاظ في التقنين الجديد بذلك الاجراء الذى يميز المحاكمات الفرنسية وهو أن يصدر ضد المتهم « قرار اتهام تمهيدى سرى في الغالب من قاضى التحقيق . وسمح في العقوبات بعقوبات الوصم ومصادرة الاملاك ، وأحيط حق الاجتماع بقيود صارمة . ومع ذلك فان من الخطأ أن نبرز الجوانب القاسية وحدها في هذه القوانين . والمستز هـ . ا . ل . فيشر يختم الفصل الرائع (١) الذى كتبه عن

(١) « التاريخ الحديث » نشر جامعة كامبردج . الفصل السادس من المجلد التاسع .

قوانين نابليون (وهو الفصل الذى آفدنا منه فى بحثنا هذا) بكلمات لا يعلى عليها فى تلخيص المسألة برمتها . فهو يقول انه بالرغم من جميع النقائص والعيوب « فان هذه القوانين تحافظ على ما حققته روح الثورة من انتصارات جوهرية ألا وهى المساواة المدنية والتسامح الدينى وتحرير الارض والمحاكمة العلنية ونظام المحلفين » . ويضيف الى ذلك قوله ان هذه القوانين كانت بالنسبة لألمانيا وايطاليا « بمثابة أول رسالة وأنضج تجسيم للروح الجديدة . فقد قدمت لأوروبا ، فى شكل واضح موجز ، القواعد الرئيسية التى ينبغى أن تحكم المجتمع المتحضر » .

كما أعاد نابليون تشكيل النظام الادارى فى فرنسا ، وكانت تحدوه نفس الروح فى كل مافعل ، اذ كان راغبا فى قيام سلطة مركزية (لا يمكن الا أن تكون سلطته هو نفسه) توجه وتسيطر على كل ميدان من ميادين الحياة فى فرنسا . ولقد كان يزعم أن الثورة الفرنسية قد تجسدت فى شخصه ، ولطالما ردد الآخرون هذا الزعم ، ولكن الحق أننا نلمس فى عمله روح لويس الرابع عشر بأكثر مما نلمس روح الجمعية التأسيسية . ونحن نراه يستخدم فى بعض الاحيان عبارات تذكرنا بالاستعارات المأثورة عن « الملك الشمس » ، ومن ذلك قوله : « ان الحكومة تلعب دور الشمس فى النظام الاجتماعى الذى ينبغى أن تدور هيئاته المختلفة حول هذا الكوكب المركزى المنير ، على أن تلتزم كل منها فلکها الخاص لا تحيد عنه أبدا » . ولقد ثبتت القوانين النابليونية كما شاهدنا ، الكثير من المكاسب الاجتماعية التى حققتها الثورة ، وكان نابليون حريصا دائما على عدم المساس بحقوق الفلاحين ، ولم تنتج نيته قط الى اعادة نظام الامتيازات المالية ، ولكن عهده قد اقترن فى معظم النواحي الأخرى بالعودة - خطوة بعد أخرى - الى آراء الملكية القديمة وأشكالها ونظمها .

ومن ذلك أنه أعاد بسلسلة من المراسيم نظام الرتب المتصاعدة الذى ألغته الثورة فى حزم وتصميم . وبوسعنا أن نتقصى بداية ذلك الاتجاه فى انشاء وسام جوقة الشرف (الليجيون دونير) عام ١٨٠٣ ، وكانت فرنسا - اذ ذاك لا تزال جمهورية . ونابليون لا يزال يتحدث بلغة الثورة - وان يكن من المؤكد أن رجال المؤتمر الوطنى كانوا سينظرون بعين الفزع الى انشاء مثل هذه الرتبة التى راح نابليون يضيفها على العسكريين أولاً ثم على المدنيين الذين يقومون بأعمال ممتازة فى كافة ميادين الحياة . وقد أخذ نظام الرتب الهرمى المقترن بمظاهر التفضيم ينمو ويتسع ابتداء من عام ١٨٠٤ . فقد أنشأ نابليون ست رتب يأتى ترتيب أصحابها بعد أمراء البيت الامبراطورى مباشرة ويشغلها « ذوو المقام الامبراطورى الرفيع » وهم الناحب الافخم وكبير مستشارى الامبراطورية وكبير مستشارى الدولة ، وكبير أمناء الخزنة ، وكبير ضباط الجيش ، وكبير ضباط الاسطول . ويلى هؤلاء ضباط الامبراطورية العظام ويندرج فى عدادهم مارشالات الامبراطورية « وناظر الصدقات الافخم » و « كبير الياوران » و « ناظر الصيد الافخم » وبعجىء عام ١٨٠٨ اكتمل نظام الرتب الهرمى ، وأصبح العرش الامبراطورى محاطا بجمهرة هائلة من حاملى ألقاب « الامير والدوق والكونت والبارون والفارس » لا تقل عن تلك التى كانت تسند دعائم عرش لويس الرابع عشر . وكان الكثيرون من أصحاب الألقاب الرفيعة هؤلاء « رجالا جددا » رفعتهم عاصفة الثورة من صفوف الطبقة الوسطى والطبقات الدنيا ، ولكن نابليون صار أميل الى اختيار أبناء الاسر العريقة لشغل المناصب الخالية ومنح الرتب والألقاب . ولم يعد بوسع الثوريين أن يعتبروه حليفا . أما رجال العهد البائد فلم يشعروا نحوه بالولاء أو يظهرُوا له كبير وفاء .

وقد كان للثورة أمانها فى خلق نظام تعليمى موحّد فى فرنسا كلها ، ولكنها لم تجد فسحة من الوقت للقيام بأكثر من بداية فى هذا المضمار .

وهنا أيضا راح نابليون يترجم - بطريقته المعهودة وطاقته وارادته العظيمنتين - الأفكار الى حقائق ، ولكنه عدل كل الأفكار بحيث تتمشى مع انحيازه الشخصى لمبدأى المركزية والسلطة الحازمة . فقرر تقسيم المدارس الى أربع درجات هى : الابتدائية ، والثانوية ، ومدارس اللىسيه وهى مدارس داخلية شبه عسكرية لها طابعها المتميز ، والمدارس الخاصة للتدريب الفنى ، على أن تسيطر على هذا البناء كله وتقف على قمته الجامعة الامبراطورية التى تم تشكيلها فى عام ١٨٠٨ . فقد استقر رأى نابليون على أن تكون هناك جامعة واحدة لفرنسا كلها يتبعها سبعة عشر معهدا اقليميا خاضعا للمركز . وانعقدت نيته على اخضاع النظام التعليمى الفرنسى كله لسيطرة الجامعة ، وعلى عدم السماح لأحد بالتدريس فى المدارس الفرنسية ما لم يكن خريج احدى كليات هذه الجامعة ، غير أن المهام العسكرية والسياسية الضخمة التى استغرقت انتباه نابليون حالت دون وصوله الى هدفه فى هذه الناحية ، فلما سقطت الامبراطورية كان معظم تلامذة المدارس الفرنسية يتلقون تعليمًا خاصا اختياريا .

وكان « المجمع الفرنسى » الشهير قد أنشئ عام ١٧٩٥ للقيام بالأبحاث والدراسات العليا . ولعلاقة نابليون به دلالة واضحة . فقد دعمه تدعيما جوهريا وكان معجبا بالأعمال التى حققها فى العلوم الطبيعية والفنون الجميلة والرياضيات والأدب ، ولكنه رأى ضرورة اعادة تنظيمه لأنه كان يكره دراسة العلوم الأخلاقية والسياسية ، فحل بمرسومه الصادر فى ٢٣ يناير ١٨٠٣ القسم المخصص لهذه الدراسات بالمجمع . ولا مراء فى أن الشك فى الدراسات والتأملات المتصلة بالحياة الانسانية والمسلك الانسانى ، انما هو أقوى علامة مميزة للحكم الاستبدادى ، وليس ثمة شاهد أوضح على نظرة نابليون الاستبدادية فى جوهرها من ذلك العداء الذى أظهره نحو المشتغلين بعلوم الأخلاق والسياسة .

وقد عارض نابليون بنفس الشدة ، حرية التعبير في الصحافة والأدب . ففرضت في عهده الرقابة الصارمة على الصحافة بل انها في النهاية أخدمت اخمادا يكاد أن يكون تاما وكانت جميع الكتب تخضع للفحص قبل نشرها ، وشددت الرقابة على المسرح كذلك تشديدا خاصا .

كما حاكى نابليون أيضا المظاهر المفضلة في عصر لويس الرابع عشر محاكاة عجيبة ، فافتتح سلسلة كبيرة من الأشغال العامة . ووضعت في عهده مشروعات الطرق ونفذ الكثير منها ، وشقت القنوات ، وتمتع المنتجون الفرنسيون بنظام للحماية يرجع الفضل في قيامه الى طبيعة علاقات فرنسا السياسية والعسكرية بأوروبا وان يكن متمشيا أيضا مع أفكار نابليون الخاصة . ولا شك أن كولبير وزير لويس الرابع عشر العظيم كان سيسر لو أنه عاش ليشاهد فرض القيود الجمركية لابعاد المنتجات الأجنبية ، وتقسيم الصناعات الفرنسية الى نقابات من جديد ، واتخاذ الخطوات لادخال بعض أساليب الثورة الصناعية التي أحدثت كل ذلك التغير العميق في حياة بريطانيا . وفي عهده أيضا حسنت الزراعة بادخال أساليب جديدة تقلا عن بلجيكا وانجلترا ، وبعثت صناعة الحرير في ليون من جديد ويرجع الفضل في ذلك جزئيا الى استخدام نول « جاكار » الجديد ، واستجلب القطن من الشرق وبدأت عمليات تصنيعه باستخدام دولاب الغزل الذي استحضر من انجلترا . كما استخدم الغاز للاضاءة ، واتسمت حالة فرنسا العامة حتى بداية انهيار الامبراطورية بانتشار نوع من الرخاء بين كافة الطبقات . حقا ان الوضع الاقتصادي كان مصطنعا تماما ومعتمدا على الحرب من جميع النواحي ، الا أن العمل كان وفيرا والأجور كانت طيبة . ومع ذلك فقد كان أولئك الذين ينظرون الى مادون السطح ، يدركون أن العسر آت لا محالة في النهاية .

وكان وزراء نابليون وعملاؤه يستندون اليه وحده فلم يكن الاستحسان أو الاستياء الشعبى يؤثر فى بقائهم فى مناصبهم . ولقد خدمه بادى الأمر رجال ذوو مقدرة عظيمة سواء فى الجيش أو فى الادارة الداخلية . ومن بين هؤلاء الاخيرين يبرز اسمان بصفة خاصة هما : تاليران فى ادارة دفعة الشئون الخارجية ، وفوشيه فى المحافظة على النظام فى الداخل . وقد كان كلاهما على شئ من العبقريّة مع ما بينهما من اختلاف شاسع . فأولهما كان فطنا ساخرا أريبا بارعا فى نعومته ، وقارئنا ماهرا لبارومتر أوربا ، بينما كان الآخر قاسيا فاسدا ، ورئيسا لشبكة من الجواسيس والعملاء سريعا الى اكتشاف وقمع المؤامرات التى تدبر ضد سيده الامبراطور وليس فوق الشبهة أنه كان المحرض أحيانا على المؤامرات التى يسارع الى اكتشافها . ولقد أسدى الرجلان الى نابليون أجل الخدمات ولكنهما لم يسلما كلاهما من شكوكه . ولعلهما قد شاهدا بوضوح الاخطار المحدقة بحكمه رغم انتصاراته الهائلة ، فراح كل منهما يمهّد السبيل لكى يستقبل استقبالاً طيباً فى معسكر أعدائه . وتحوم حول تاليران شكوك قوية فى أنه قد اتصل بالحكومة البريطانية وقت معاهدة تلسيت فى ١٨٠٧ . ولقد اصطدم بنابليون فى ١٨٠٨ ، فلم يستخدمه بعد ذلك قط مشرفا على الشئون الخارجية . أما فوشيه فقد استمر فى الحكم زمنا أطول وكان يعد لفترة الرجل الاول فى فرنسا بعد الامبراطور ، ولكن تهمة العمل بوجهين والتفكير فى ملاذ لنفسه عند زوال حكم نابليون ، أثبت عليه من تاليران . وقد طرده نابليون من خدمته عام ١٨١٠ وطلق بحكم من ذلك التاريخ فصاعدا بوساطة أدوات أضعف وأشدّ خضوعا . وقد أصبح يرتاب - شأن لويس الرابع عشر والكثيرين غيره - فى ذوى المقدرة من مرءوسيه ويحاول تصريف شئون امبراطوريته الشاسعة بنفسه .

وثمة ناحية كان توفيقه فيها أقل من توفيق ذلك الملك الفرنسى الذى قارناه به . فان من العوامل التى دعمت عرش لويس الرابع عشر وزادته مجدا على مجده انه كان محاطا بصف من عظماء الرجال ، فى شتى نواحي الفن والفكر ، يدينون له بالطاعة عن طيب خاطر . ولقد كان نابليون مدركا تماما لاهمية مثل هذا التأييد ولكن بلاطه ظل دائما متكلفا غريبا نوعا ما لا تربطه صلة بأى مستوى رفيع للسلوك أو أية أسماء عظيمة فى مجالات الفن أو الفكر . كان عقل فرنس وقلبها ينبضان حقا بالحياة ولكنهما لم يكونا مدينين بالكثير لنابليون فلم يبدىا نحوه أى امتنان . لذلك نرى أن أعظم الاسماء فى عالم الادب كانت تقف من حكمه موقف المعارضة الأكيدة ، ومن بين هذه الاسماء « شاتوبريان » الذى انتظم فى وقت من الاوقات فى سلك انعاملين فى خدمة الامبراطورية . وقد مارس هذا الكاتب نفوذا عظيما على أذهان معاصريه ، ونال شهرة عريضة بفضل كتابه « عبقرية المسيحية » الذى نشر عام ١٨٠٢ . ورغم أن نابليون لم يصبه باضطهاد أه أذى فقد كان يرمى بثقل نفوذه كله فى كفة المعارضة للامبراطور . أما الصدام بين الامبراطور ومدام دى ستيل فقد كان مباشرا . وهذه السيدة هى ابنة « نيكرو » الذى اشتهر فى بداية الثورة الفرنسية ، وقد ألقت عددا من الروايات والبحوث . ورغم أنها كانت فرنسية خالصة فى شخصيتها وأسلوب كتابتها فقد كتبت كتابا بعنوان « فى ألمانيا » (١) حللت فيه خصائص الشعب وكالت له الثناء ، وتمكنت أثناء ذلك من توجيه أكثر من ضربة حاذقة لاساليب نابليون ، فوضعت تحت المراقبة وكادت تتعرض للسجن على يدى نابليون ولكنها تمكنت من الفرار ونشرت كتابها فى انجلترا ، فشخصت اليها أبصار أوروبا التى راحت تصفق لمقاومة المرأة الجريمة للطاغية وتبالغ فى قيمتها

(١) " In Germany "

كمفكرة وفنانة معا . وقد كانت هناك أسماء فرنسية شهيرة في العلوم وأخرى هامة في الفن في تلك الحقبة ، ولكن السنوات الخمس عشرة التي ظل فيها نابليون الشخصية الأولى في فرنسا لا تعد من الفترات العظيمة في الادب والفن والفكر الفرنسي . فكانت قوة البلاط الرئيسية تكمن — في أغلب الظن — في شخصية الامبراطورة جوزيفين . وقد عرفت هذه بشدة اسرافها ، فقد أنفقت في تقدير « ماسون » كاتب سيرة نابليون ، ما يربو على مليون فرنك في عام واحد على الملابس وحدها . ولكنها كانت جميلة فاتنة ومحبوبة الى حد كبير . وقد حدثه الى طلاقها اعتبارات سياسية ودولية ، ولكن هذا الطلاق كان غلطة على الأرجح . فان خليفتها لم تكسب قلب فرنسا قط كما سنشاهد في الصفحات التالية .

لقد قيل ان نابليون قد بلغ شأوا متساويا من العظمة كسياسي وجندي معا ، فهل لهذا القول سند قوى من الحقيقة ؟ لا ريب في أنه لم تتح له الفرصة لتطوير جميع أفكاره وسط عواصف الحرب التي لم تكده تنقطع ، فقد كانت سياسته الداخلية خاضعة طوال الوقت للمضغوطات الحربية . ولكن ينبغي ألا يغرب عن بالنا أن الموقف الأوروبي كان الى حد بعيد من صنع يديه ، وان سلطانه في داخل فرنسا كان وثيق الارتباط دائما بسمعته العسكرية وانتصاراته . ونحن لا نكاد نجد في برامج الاجتماعية والسياسية الا القليل جدا مما هو جديد . فقد مهدت الثورة الطريق لجزء منها ، ومهدت الملكية القديمة الطريق للجزء الآخر . وسر عظمته السياسية لا يكمن في جدة خططه وأصالتها وانما فيما بذله في تنفيذها من طاقة جبارة وفي قوة ارادته وعنايته بالتفاصيل . فلم يكن في أعماله من الطرافة — وربما التنكيف مع حاجات العصر أيضا — مثلما كان في أعمال كوليبر مع مافى أعمال الرجلين من شبه وثيق . وأخيرا فمن الجلي أنه لم يد في

كل تصرفاته أى تقدير لقيمة الحرية السياسية . ولئن كان هذا الشعار الأول من شعارات الثورة الثلاث العظيمة قد اجتذبه في يوم من الايام ، فإن حماسه الاولى له قد انطفأت تماما ، فصار يرى في الحرية عاملا مزعجا يحول دون توفر الكفاية في أعمال الدولة . وليس في كتاباته ، وأقواله أية اشارة تنم عن الايمان بأن الحرية انما هى القوة الكبرى التى تهبى أسباب الاستقرار والنظام والكفاية .

اُورپا (فعام ۱۸۱۰)

حدود فرنسا ١٧٩٢
حدود اتحاد الراين

فرنسا في نهاية عام ١٨٠٢

الأراضي التي ضمتها في الفترة ١٨٠٣-١٨٠٥

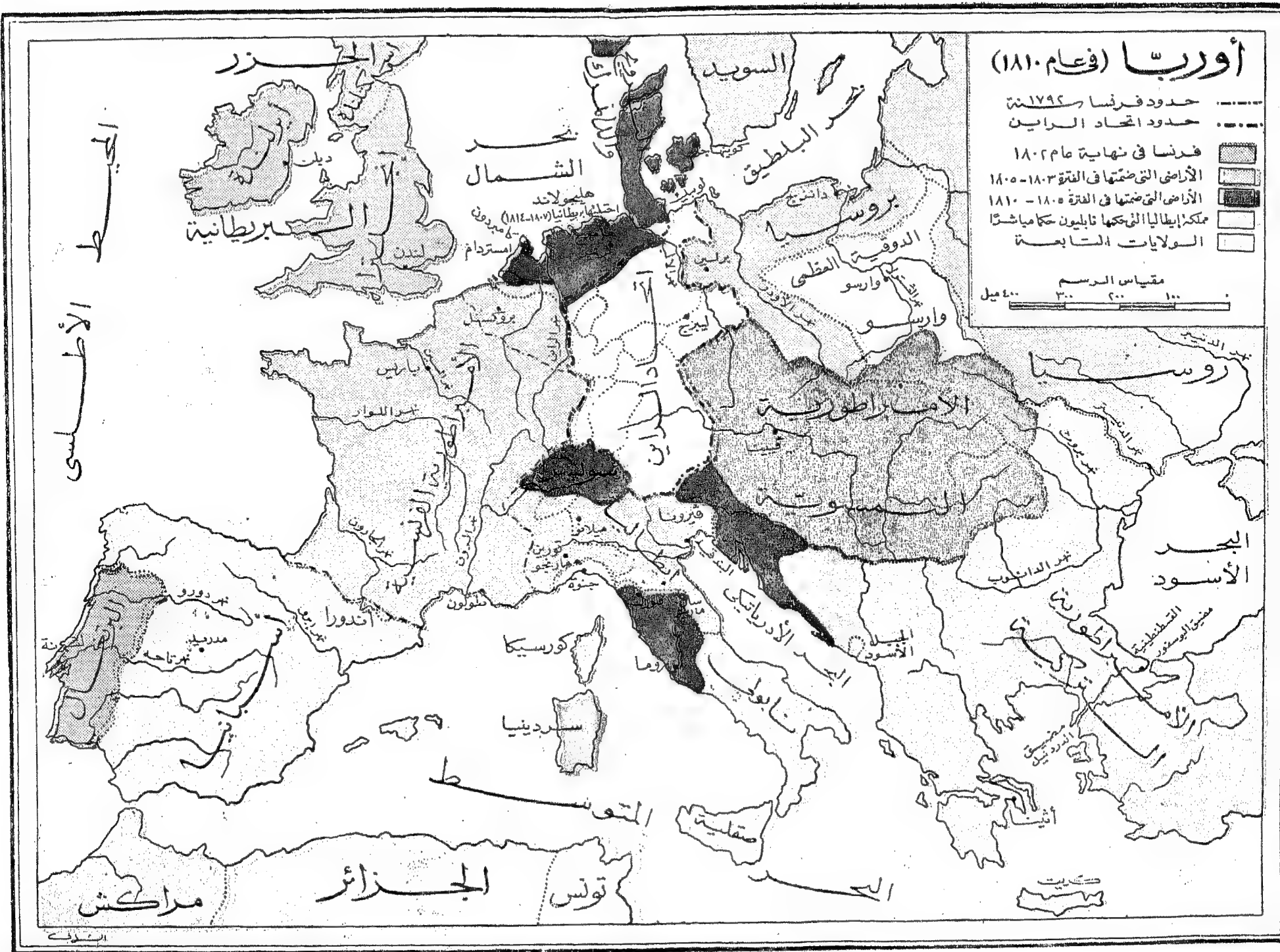
الأراضي التي ضمتها في الفترة ١٨٠٥ - ١٨١٠

ملِكُهُ إِيطَالِيَا الَّتِي حَكَمَهَا قَابِلْيُونُ حَكَمًا مِثْلًا شَرًّا

الولايات التابعة

مقياس الرسم

١:١٠٠ ٢:١٠٠ ٣:١٠٠



الفصل السادس هزيمة حكومات أوروبا

قوبل صلح اميان بترحيب وارتياح عميق في جميع دول أوروبا . وكان الترحيب به في بريطانيا العظمى أكثر منه في أى بلد آخر . فقد أمل الكثيرون في انتهاء عواصف فترة الثورة وفي أن تتمكن أوروبا من التمتع ولو بفترة موقوتة من السكينة والتطور السلمى . ومع ذلك فإن صلح اميان لم يدم الا أقل من عامين ، وسرعان ما حلت محله حرب - أشد عنفا وأطول زمنا - لم تتوقف توفقا حقيقيا الا عند انتهاء معركة ووترلو . فما هى أسباب الحرب الجديدة ؟ لقد ألفت كتب عديدة عن انهيار صلح اميان ، بيد أنه مازالت ثمة نقاط معينة يختلف الرأى حولها اختلافا جليا بين خيرة المؤرخين وأكثرهم اطلاعا على بواطن الامور .

ان هذا الانهيار يعطينا صورة عامة لما يحدث عندما توضع فكرة التوازن الدولى موضع التطبيق . فقد كانت دول أوروبا المختلفة تنظر الى بعضها بعضا نظرة الأعداء يتوقع كل منهم الشر من الآخر . وكان يبدو أن فى قوة أى دولة الخطر كل الخطر على بقية الدول . فلم يكن مناص ، وهذه الآراء هى السائدة ، من أن ينظر الى المركز العظيم الذى بلغته فرنسا قبل الصلح على أنه يشكل خطرا حقيقيا على سلامة سائر الدول الأوروبية . ثم ان المكاسب التى أحرزتها فرنسا بعد الصلح قد زادت ساسة أوروبا التقليديين قلقا على قلق . وعلى ذلك يجدر بنا أن ننتقل الى تبيان هذه التطورات الجديدة التى اتخذت ذريعة ، وكانت الى حد بعيد سببا حقيقيا ، فى نشوب القتال من جديد .

لقد شاهدنا كيف زحفت الحكومة الفرنسية على جاراتها ابان صلح
لونيڤيل . ويمكننا الآن أن نشاهد نفس الشيء يتكرر بعد صلح
١٨١٥ . فاقدمت فرنسا ست جمهوريات شقيقة في أوروبا ، وتضمنت
معاهدة لونيڤيل اعترافا صريحا باستقلال هذه الجمهوريات ولكن
فرنسا راحت تعاملها بطريقة تنطوى على أن هذه الجمهوريات انما هي
في الواقع طوع بناتها . فقد رابطت حاميات فرنسية فيها جميعا .
وضمت جمهورية شمال ايطاليا (Cisalpine) ، التي كان لنابليون
الرأى الأخير في سياستها الخارجية بالفعل ، الى فرنسا ضمنا كاملا في
كل شيء عدا الاسم . فقد حضر الى ليون أربعمائة وخمسون ممثلا لهذه
الجمهورية وراحوا يتناقشون هناك في شكل دستورهم ، واتفقوا
أخيرا على اعلان دستور مشابه تماما لدستور فرنسا وتعديل اسم
الجمهورية من « جمهورية شمال ايطاليا » الى « الجمهورية الايطالية »
واختيار نابليون رئيسا لها (حدث ذلك قبل اتخاذه لقب الامبراطور)
« لا بوصفه قنصلا أول لفرنسا وانما كفرد » . ولم تغير هذه التفرقة
من الامر شيئا فقد أصبحت الجمهورية الايطالية مرتبطة أوثق الارتباط
بمقدرات فرنسا . وضمت بيدمونت الى فرنسا كما شاهدنا بصورة
قاطعة في عام ١٨٠٢ ، ولم يدفع أى تعويض لسردينيا . زد على ذلك
أن فرنسا لم تكف عن التدخل في شئون سويسرة . فقد امتنعت عن
سحب قواتها الرابضة هناك مما أتاح لها أن تكون صاحبة الكلمة
الاخيرة في النزاع السياسى الداخلى الذى ظهر في سويسرة وقتذاك .
فقد احتدم الخلاف بين حزب ديموقراطى وآخر أوليجركى ، وراح
حزب يطالب بتشكيل حكومة مركزية بينما تبنى حزب آخر الدعوة
تقيام شكل من الاتحاد بين مختلف أنحاء البلاد . فأعلن نابليون وجوب
انقضاء سويسرة من نفسها ، وفرض عليها دستورا اتحاديا يضم تسع
عشرة مقاطعة . وقد أعلن استقلال سويسرة مرة أخرى في هذا

الدستور ولكنها ألزمت بتقديم أبنائها للخدمة في الجيش الفرنسى مما جعل استقلالها شكليا وهميا لا أكثر .

وكانت هذه الأمور تثير اهتمام بريطانيا ودول أوروبا على حد سواء ، ولكن ثمة حوادث معينة كانت تمس بريطانيا مسا مباشرا بل وتزعجها ازعاجا لما تحمله من دلالة على أن فرنسا وحاكم فرنسا لم يسقطا من حسابهما بعد فكرة تحدى سلطان بريطانيا على المستعمرات والبحار .

فقد وقعت أحداث غريبة في سان دومينجو : ذلك أن معظم سكان تلك الجزيرة التى نعرفها باسم هايتى كانوا ينحدرون من أصل زنجى ، وكانت الثورة الفرنسية قد أعلنت إلغاء العبودية فى كافة أرجاء الممتلكات الفرنسية ، بيد أن ذلك لم يسفر عن توفير السلام فى سان دومينجو ، بل جاءت النتيجة على عكس ذلك تماما ، فقد شن العبيد حربا شعواء على الفرنسيين وبرز فى تلك الحرب اسم « توسان الفاتح » Toussin I.'Ouverture الذى يعد أعظم قائد حربى من سلالة زنجية ، فقد تزعم السود المتمردين واحتل الجزيرة بأكملها تقريبا ، وأخذ يتصرف فيها كما لو كانت ملكا لشخصه . وقد رفض عروض المعونة الانجليزية ، وباعت محاولات الانجليز لاحتلال الجزيرة بالفشل . وشرع توسان المنتصر يحاكى أوضاع ومراسم القيادات العسكرية الأوروبية . وفى عام ١٨٠١ اتخذ لنفسه لقب القنصل مدى الحياة ، ومنح الجزيرة دستورا على نمط الدستور الذى أقر فى فرنسا . وبالطبع لم تقم لهذا الدستور قائمة الا على الورق . وهكذا نجد أنه عندما تمكنت فرنسا بعد صلح آميان من ارسال السفن عبر الاطلنطى من جديد كانت الجزيرة قد استقلت من الوجهة العملية عنها تماما ، وباتت واقعة تحت احتلال ذلك الزعيم الزنجى الفذ . ولم يكن ثمة مناص من أن يحاول الفرنسيون استردادها . ولا يبدو أنه كان هناك

أى سند وجيه لاستيلاء الحكومة الانجليزية من الطريقة التى تم بها ذلك الاسترداد . فقد أرسل الجنرال ليكليرك الذى كان زوجا لبولين بوناپرت على رأس جيش من عشرين ألف رجل . ولم يكن بوسع توسان أن يقاوم مثل هذا العدد الهائل مقاومة فعالة ، لقد أظهر حقا همة عظيمة وبعض البراعة التكتيكية ، ولكنه استسلم فى النهاية فنقل الى فرنسا ليسجن هناك . وقد هاجم المرض الجيش الفرنسى الذى تخلف بالجزيرة ونقص عدده تقصا بالغا ، فاستقلت سان دومينجو فى النهاية عن الحكومة الفرنسية من جديد . ومهما يكن من أمر فإن بريطانيا قد لاحظت بعين الانزعاج أن فرنسا قادرة على ارسال حملة ضخمة عبر البحار ، واعتقدت أن ارسال قوات الجنرال ليكليرك الضخمة هذه إنما يعنى أن فرنسا مستعدة للدخول من جديد فى صراع مع بريطانيا حول السيطرة على جزر الهند الغربية التى كانت وقتذاك من الممتلكات الاستعمارية التى تعتز بها امبراطورية بريطانيا أيضا .

كما وردت أنباء من الهند كذلك تدعو الى القلق . فقد أرسل الجنرال الفرنسى « دى كاين » De Caen الى الهند لزيارة الممتلكات الفرنسية الباقية هناك واحياء النفوذ الفرنسى والابلاغ عن الموقف بصفة عامة ، وبدا من التعليمات التى أعطيت له أن اقرار السلم مع انجلترا بصفة دائمة ليس من الامور التى تدور حقا بخلد نابليون . كما أرسل مندوب فرنسى آخر هو « سيسيتيانى » الى الشرق الأدنى وسورية تقريبا أيضا عن امكانيات فرنسا هناك ، ونتيجة لسهو غريب - ان كان الأمر سهوا - نشر تقريره فى الصحيفة الرسمية « مونيتير » ، وقد وردت فيه عبارة تفيد أن جيشا من ستة آلاف فرنسى يكفى لغزو مصر . فبدا من ذلك أن فكرة استئناف مشروعات فرنسا فى مصر قد خطرت - على الأقل - بذهن القنصل الأول . وعلاوة على هذه

المسائل التي تمس مصالح بريطانيا عبر البحار ، كانت هناك أمور أخرى ساعدت على ايجاد الشعور بالقلق والسخط . فقد ثبت أن الآمال التي علقتها بريطانيا على السلم عندما ظنت أنه سيفتح أبواب التجارة في فرنسا ، في غير محلها . بل حدث عكس ذلك تماما . فقد سدت أبواب الممتلكات الفرنسية سدا يكاد أن يكون تاما في وجه التجارة البريطانية ، فبلغ استياء الطبقات التجارية في لندن حدا عظيما . وكان نابليون من جانبه يشكو مر الشكوى من الهجوم على شخصه في الصحف الصادرة بانجلترا . فقد كان بعض المهاجرين الفرنسيين يستخدمون تلك الصحف لشن حملات من الهجوم العنيف المتواصل على القنصل الأول . وقد طالب نابليون باسكات هذه الصحف . ولم يكن ليقنع بالاعتذار بأن الصحافة حرة في انجلترا . وكان يشكو في الوقت نفسه من أن الانجليز يؤوون فوق أراضيهم أمراء البوربون الذين ما برحوا يطالبون بعرش فرنسا . وقد راح يحث الانجليز على طردهم ولكن دون طائل .

كان هنالك اذن ازدياد تدريجي في التوتر بين الدولتين ابان فترة الصلح . وقد تركز هذا التوتر في النهاية حول مسألة مالطة . فلقد وقعت هذه الجزيرة الهامة من حيث مناعتها الطبيعية وموقعها الجغرافي ، في أيدي نابليون أولا ثم انتزعها منه الانجليز . وقد تعهدت بريطانيا عند عقد صلح اميان باعادة الجزيرة الى فرسان القديس يوحنا بشروط معينة . على أن هذه الشروط لم تستوف فوجدت بريطانيا في ذلك عذرا معقولا لرفض الجلاء عن الجزيرة على أنه يجدر بنا أن نلاحظ أنه لم تبدل أية جهود لاستيفاء هذه الشروط ، وانه كانت هناك دلائل قوية على أن بريطانيا كانت مصممة على التمسك بحيازتها للجزيرة

مهما كانت الأعذار والمسببات (١) فقد استؤنفت العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا اثر توقيع الصلح ، وارسل اللورد هويتورث الى باريس ليمثل بريطانيا هناك . والتعليمات التى أعطيت له عند سفره تظهر بوضوح أن الحكومة البريطانية كانت قد وطدت العزم على الاحتفاظ بسيطرتها على مالطه . وتلت ذلك مجادلات شيقة للغاية ، ومسرحية الطابع فى كثير من الاحيان ، بين القنصل الاول واللورد هويتورث ، نجدها مدونة فى رسائل الاخير . وكان هذا نموذجا صادقا للانجليزى فى ذلك العصر ، يشعر بالاحتقار نحو فرنسا وحاكمها وتفوقه رؤىة الكثير من النقاط القوية فى وجهة النظر الفرنسية ، وهو فى الوقت نفسه ديباوماسى صلب عقد العزم على بذل قصارى جهده من أجل البلد الذى أرسله الى باريس . وقد راح نابليون يطالب بتنفيذ معاهدة اميان ويقول « معاهدة اميان ولاشئ غير معاهدة اميان » . بينما جعل اللورد هويتورث يستند من جانبه الى أن تنفيذ المعاهدة مرتبط بحالة أوروبا وقت توقيع تلك المعاهدة ، وأن المطالبة بذلك التنفيذ لم تعد جائزة بعد الخطوات الكبرى التى خطتها الحكومة الفرنسية منذ توقيع المعاهدة . ولقد بذلت محاولات ، ربما كانت صادقة المقصد ، من الطرفين لايجاد حل وسط . واشترك أخو نابليون « جوزيف » بدور رئيسى فى هذه المباحثات . بيد أنها لم تسفر عن أية نتيجة

(١) كتب اللورد هوكزبرى فى خطاب سرى ضمنه تعليماته الى اللورد هويتورث يقول « اذا دخلت الحكومة الفرنسية فى أى حديث معك حول موضوع جزيرة مالطة فمن الاهمية بمكان أن تتفادى الالتزام بشئ بالنسبة الى نوابا جلالة الملك النهائية حبال تلك الجزيرة ٠٠٠٠ وانى أوصيك على كل حال بأن تتفادى قول أى شئ يقيد جلالته باعادة الجزيرة حتى لو أمكن اتمام تلك التدابير وفقا للبند العاشر من معاهدة اميان نصاً وروحا (١٤ نوفمبر ١٨٠٢) . انظر «انجلترا ونابليون عام ١٨٠٣» الذى يضم رسائل هويتورث — طبعة أوبراوتنج (لندن ١٨٨٧) صفحتى ١٠٤٩

“ England and Napoleon in 1803,” being the Despatches of Lord Whitwite (Ed.) O. Browning (London 1887), pp. 9—10

طبية . وفي مارس ١٨٠٣ قطعت علاقات - بين بريطانيا وفرنسا اثر مشهد عنيف للغاية بقصر التويلرى . وألقى نابليون القبض على أولئك الانجليز الذين كانوا قد اغتنموا فرصة الصلح وراحو يستأنفون ، فى اعداد كبيرة ، عادة السياحة فى القارة . وقد ظل الكثيرون من هؤلاء التعساء وراء قضبان السجون مدة عشر سنوات .

اندلعت نيران الحرب ولكن مداها لم يتضح بعد ، فقد كان من الجائز أن تظل مقصورة على الدولتين العظيمتين اللتين كان خلافهما سببا فى اندلاعها . وظهر التنافس على أشده بين الجانبين من أجل الحصول على حلفاء . وفى النهاية ألفت القارة الأوروبية نفسها وقد انغمست بأسرها تقريبا فى الصراع .

وقد أعلن نابليون من جانبه على الفور أن التزامات صلح أميان لم يعد لها وجود . فأعاد احتلال نابولى ، وأرسل جيشا من ثلاثين ألف رجل الى هولنده ، ورأى كذلك أن توسعه أن يحصل فى ألمانيا على رهينة قيمة ضد انجلترا وذلك بالاستيلاء على هانوفر التى كانت تحت التاج البريطانى وان لم تدمج بالطبع فى الدولة الانجليزية . فأرسل ٤٠.٠٠٠ رجل لاكتساح هانوفر ، وأعلن أنه سيظل محتفظا بها طالما احتفظت انجلترا بمالطة ، وفاتح روسيا وبروسيا فى أمر التحالف معه . الا أن قيصر روسيا المجنون بولس الذى عرف باعجابه المفرط بفرنسا ، كان قد اغتيل وخلفه القيصر اسكندر وهو رجل مختلف الطباع والأهداف ، فقبولت عروض فرنسا بالرفض التناطح . وقد كانت هناك صداقة تقليدية بين فرنسا وبروسيا سعى الطرفان الى المحافظة عليها منذ صلح بازل ، ولكنها كانت أضعف من أن تدفع بروسيا الى دخول الحرب فى صف فرنسا . فلم يصادف نابليون نجاحا حقيقيا الا مع أسبانيا . كانت الحكومة القائمة فى أسبانيا من أكثر حكومات أوروبا فسادا وقصورا . وكانت الشخصيات

الرئيسية فيها هي الملك شارل الرابع ، ومليكته لويزه ، والوزير جودوى عاشق الملكة الذى كان فاسدا بلا جدال فى ادارته لشئون المملكة . وقد أسفرت المفاوضات بين نابليون والحكومة الأسبانية عن توقيع معاهدة مدريد فى مارس ١٨٠١ . وبموجب هذه المعاهدة سلمت أسبانيا لفرنسا لويزيانا فى أمريكا ، وتعهدت بشن الحرب على البرتغال حليفة بريطانيا منذ القدم . فى حين تعهد نابليون من جانبه بإقامة مملكة « أتوريا » فى إيطاليا ومنحها لدوق بارم زوج ابنة شارل الرابع . وقد غزت أسبانيا البرتغال تنفيذا للأحكام تلك المعاهدة ولكنها لم تحتلها الاحتلال الكامل الذى كان يرغب نابليون . وبعد انهيار صلح اميان حرضت أسبانيا ، بل فى الواقع أكرهت ، على دفع مبلغ ٤ ملايين فرنك شهريا للخزانة الفرنسية . وكان نابليون يعلم الكثير من خفايا جودوى فكان يوسع به أن يهدد بافشاء الكثير من الأسرار المتصلة بسلوكه وأخلاقه ان هو رفض الاستجابة لمطالبه . وهكذا شددت أسبانيا ، بلا حول أو اختيار ، الى عجلة فرنسا .

وسرعان ماظهر الى الوجود من الجانب الآخر ائتلاف عظيم . فقد خرج « بت » من عزلته التى أعقبت خلافه مع الملك جورج الثالث حول الوحدة الايرلندية ، فعاد الى الحكم فى عام ١٨٠٤ متلفها الى تسديد ضربة قوية لفرنسا ونابليون . وكانت خبرته بديبائوماسية أوروبا لا تضارع ، وكذلك كانت صلابته فى صراعه ضد عدوه العظيم . وسرعان ما أقام ائتلافا قويا جديدا ضد فرنسا . فقد كسب الى صفه أولا السويد التى لم تكن قد شاركت حتى الآن بأى دور ايجابى فى الحرب الأوروبية ضد فرنسا . وكان يجلس على عرشها فى ذلك الحين جوستاف الرابع الذى بدأ حكمه عام ١٧٩٢ . وكان فى عقيدته لوثرية متزمتا ، شديد الكره لمبادئ الثورة الفرنسية ونابليون ، فانضم دون متردد الى « الائتلاف الثالث » . وانضمت اليه روسيا؛

كذلك بحماسة . ذلك أن سياسة القيصر بولس الموالية لفرنسا لم تكن الا فاصلا عرضيا ، فقد كان ميل روسيا العام مناهضا للأفكار والطباع والأهداف الفرنسية . ولم يكن بوسع النمسا كذلك أن تبقى على الحياد . كان عاقلها « فرنسوا » قد بدأ يشعر بأن مركزه كإمبراطور أصبح ضعيفا بل ومشكوكا فيه للغاية . وكان قد اتخذ لنفسه لقب « إمبراطور النمسا » الوراثة علاوة على لقب إمبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة الذي أخذت قيمته تتلاشى سريعا . وكانت فرنسا قد وقفت حجر عثرة في سبيل النمسا في عدة مواقف ، وفرضت عليها صلحين مهينين حتى الآن . ثم ان انشاء الجمهورية - ثم المملكة - الإيطالية كان أمرا تضيق به تقاليد السياسة النمساوية . وقد ساد الاعتقاد بأن مركز النمسا المالي قد تحسن وأن نواحي الضعف في جيشها قد عولجت ، فدخلت الحرب من جديد وجلبت معها مملكة نابولي التي كانت دائما ظلا لها .

وثمة سؤال هام كان يتردد على الألسن : ماهو الموقف الذي ستخذه روسيا في المستقبل ؟ كانت بروسيا قد تمسكت بحيادها في اصرار . منذ صلح بازل عام ١٧٩٥ . ولقد راحت تتابع الآن زحف قوة فرنسا بازعاج حقيقى ، ولكنها كانت شديدة الغيرة من النمسا فرفضت دعوة الحلفاء للانضمام لهم . كما رفضت كذلك التحالف مع نابليون ، رغم أنه عرض عليها مملكة هانوفر ثمنا لذلك التحالف .

أصبحت فرنسا وأسبانيا تواجهان اذن حلفا أو ائتلافا عظيما . وكانت الأهداف المعلنة للائتلاف هى إعادة فرنسا الى حدودها القديمة ، ودعوة مؤتمر لتسوية المسائل الدولية المختلفة التى نشأت أثناء الحرب ، واقامة نظام فيدرالى للمحافظة على السلام فى أوروبا . وهذا الهدف الأخير يسترعى الانتباه بصفة خاصة ، فهو يبين لنا أن فكرة ايجاد أساس مستقر ما للمحافظة على النظام فى أوروبا قد

خطرت في الأذهان حتى في تلك الفترة المبكرة أثناء الصراع مع نابليون . ولسوف نشاهد كيف أن تلك الفكرة هي التي نشأ عنها ما عرف بالحلف المقدس اثر سقوط نابليون .

كان العدو الذي يتعين على نابليون أن يواجهه يتألف أولا من قوة بريطانيا البحرية الهائلة ، وثانيا من قوة النمسا وروسيا العسكرية الضخمة ظاهريا . فكيف له أن يهاجم ذلك العدو ؟ لقد هزم أعداءه برا من قبل ، ووجد أن ذلك لم يؤد الى استسلام بريطانيا التي ظلت منيعة عزيزة المنال وراء بحارها . ولكنه كان يرى - عن حق - انه لو قدر لبريطانيا أن تهزم ، فسوف يكون لتلك الهزيمة أثر كبير ، وربما حاسم ، على مركز حلفائها العسكريين . لذلك كانت فكرته الأولى هي انهاء الحرب بتسديد ضربة مباشرة لبريطانيا وذلك بغزو جزائرها وقهرها في عقر دارها . وكان نابليون قليل المعرفة بمسائل البحرية ، ولعله كان يشعر لهذا السبب بشيء من الغيرة من البحرية الفرنسية وقوادها . ومع ذلك فقد كرس في تلك اللحظة العصبية عبقريته وقدرته الخارقة على متابعة التفاصيل ، لتنظيم عملية النزول الى سواحل انجلترا . فحشد في هولونيا أسطولا كبيرا من القوارب المسطحة القاع . وأمر باستمرار التدريب بلا انقطاع على مناورة الاقلاع بحيث يتم ركوب القوات ونقلها عبر المانش ، متى سنحت الظروف ، في أقصر وقت ممكن . وكان يأمل بادئ الأمر في أن يتم هذا العبور في ظروف جوية ملائمة ودون الاشتباك في معركة سابقة مع البحرية البريطانية ، ولكنه كلما أمعن في دراسة المشكلة اتضح له أن النجاح لا يمكن أن يكون من نصيب تلك الخطة ، وأنه لابد من السيطرة على المانش بقوة بحرية فرنسية قبل ابحار أسطول الناقلات ان أريد له النجاح في مهمته . وكانت هناك ثلاثة أساطيل فرنسية صغيرة أولها في طولون والثاني.

في روتشفورت والثالث في بريست . فرسم نابليون خطة لابعاد الأسطول الانجليزى عن حراسة المانش وذلك بشن هجوم على جزائر الهند الغربية . وكان هدفه من ذلك الهجوم مزدوجا : فان سقطت الممتلكات البريطانية في جزائر الهند الغربية حقا بين يديه كان ذلك كسبا عظيم الشأن والقيمة ، وان غادر الأسطول البريطانى المانش لحماية جزائر الهند الغربية أتيت له الفترة المأمونة التى يحتاجها لعبور المانش .

ان الحوادث التى تلت ذلك وبلغت ذروتها في معركة الطرف الأغر انما تؤلف أشهر فصل في تاريخ بريطانيا البحرية . ونحن نجد أسباب النصر الذى أحرزته بريطانيا فأكد سيادتها البحرية طوال الفترة الباقية من الحرب ، في عبقرية نلسون وفي تنظيم الأسطول البريطانى المتسم بالكفاية ، ذلك التنظيم الذى يستند الى ماض طويل والذى أدخلت عليه بفضل تأثير « رودنى » تحسينات ملموسة بعد فشله في الحرب ضد الولايات المتحدة ، كما نجدها أيضا في افتقار البحرية الفرنسية الى تلك العبقرية وذلك التنظيم . ولقد اختلفت الآراء في مدى تأثير تلك المعركة على مجرى الحرب التى شنتها أوروبا على نابليون . ان كل مافعلته هو أنها أكدت من جديد سيادة بريطانيا البحرية الواضحة من قبل ، فهى لم تضيف الى هذه السيادة أى اضافة مادية . ولقد كان نابليون عالما من قبل بأن الأسطول البريطانى هو عدوه الاكبر فازداد الآن يقينا من ذلك . والأغلب أن نتيجة الحرب لم تكن لتتغير كثيرا لو أن هذه المعركة لم تنشب قط . ولربما عن لنا أن نتساءل عما كان سيحدث لو أن نابليون كان الفائز في معركة الطرف الأغر . لقد روى عنه أنه قال « لو أمكننى فقط أن أسود البحر لمدة ست ساعات لاختفت انجلترا من الوجود » . ولا جدال في أنه كان مخطئا في ظنه ان كان قد آمن حقا بهذا رأى ،

فالأمة والحكومة فى بريطانيا كانتا شيئاً واحداً على نحو لا مثيل له فى أى بلد آخر من البلاد المعادية لنابليون ، ولا ريب فى أنه كان سيواجه مقاومة قومية عنيدة فى ظروف ملائمة للدفاع . فلئن كان من المؤكد أن الجيش الأعظم - جيش نابليون - كان سيحقق انتصارات كبيرة لو أنه تمكن من النزول على شواطئ انجلترا ، فإن من المؤكد أيضاً أن نابليون كان سيجد نفسه قد تورط فى صراع - من النوع الذى سسينهك قواه فيما بعد فى أسبانيا - قد يورده ، مثلما فعل زحفه على موسكو ، موارد التهلكة .

كان نابليون قد تخلى قبل نشوب معركة الطرف الأغر عن خطة غزو انجلترا ، واتجه بكامل قوته صوب ألمانيا . وسرعان ما قلقت الانتصارات الخارقة التى كانت فى انتظاره هناك من أهمية معركة الطرف الأغر فى نظر معاصريه . كانت النمسا وروسيا تقفان ضده فى حزم واصرار ، بينما راحت بروسيا ترقب مجريات الأحداث وهى نهب للأمل تارة والخوف تارة أخرى . فإذا لم يكن لها بد من محاربة فرنسا فى يوم من الأيام فليس هناك وقت أنسب من الوقت الحاضر حيث يمكنها ضمان تحالف قيصر روسيا والامبراطور معا . ولو أن قواتها قد انضمت فعلا الى قوات القيصر والامبراطور لما جرؤ نابليون على القيام بزحفه الجسور الى قلب ألمانيا . ولكن نابليون كان على استعداد ، من الناحية الأخرى ، لأن يدفع ثمنا كبيرا لحياذ بروسيا . فيمكنها على هذا أن تكسب كثيرا بالديبلوماسية البارة . ويمكن مثلا سلب هانوفر من ملك انجلترا وضمها اليها فتزيد من أراضيها زيادة قيمة جدا . ويمكن أن تتاح لها كذلك فرصة تزعم ألمانيا الشمالية ، بل وربما أمكنها أيضا أن تتخذ لملكها اللقب الامبراطورى بموافقة نابليون نفسه . كان ملك بروسيا وحكومتها عاجزين عن التفكير الواضح والعمل المباشر . كان الملك - فيما

قبل - يأمل في خداع العالم كله والبقاء رغم ذلك رجلا آمينا ، وعلى هذا لم تحرك بروسيا ساكننا في وقت كان السكون فيه مهلكا . غير أن نابليون وفق رغم فشله في كسب بروسيا الى جانبه ، في التحالف مع ورتمبرج وبافاريا . كان فردريك الثانى ناخب ورتمبرج « سفاحا ميالا الى الشك » غريبا في عواطفه عن الشعب الذى كان يحكمه . وكان قد خدم في الجيشين الروسى والبروسى فكان يؤثر نوع الحكم الذى شاهده في هذين البلدين على النوع الذى كان سائدا في جنوب ألمانيا وهو نوع من الحكم ضعيف توازن فيه السلطات بعضها بعضا . ولم يكن بوسعه على أى حال أن يقاوم نابليون ان أراد ، ثم أن التحالف معه قد يمكنه من الحصول على المزيد من الاراضى ومن تعديل الدستور على النحو الذى يشده . وعلى هذا فقد آثر التحالف معه ، واستقبله عند وصوله بكافة مظاهر الحفاوة والتكريم . وكانت بافاريا قد أغريت من قبل - أو أكرهت - على التحالف مع نابليون كذلك . وكان ناخبها مكسمليان جوزيف يكن اعجابا صادقا للآراء الفرنسية وحاكم فرنسا العظيم ، وقد أعاد الى حده ما تنظيم ولايته وفقا للنموذج الفرنسى . ولم يكن بوسعه هو الآخر أن يقاوم فرنسا بعد أن أبى نابليون الاصغاء الى رجائه بالسماح له بأن يبقى محايدا . وقد استميل ناخب بادن الى نفس الجانب . وهكذا بدأ نابليون حربه في ألمانيا متمتعا بتأييد ألماني محسوس .

ان الانتصارات التى أحرزها نابليون في عامى ١٨٠٥ و ١٨٠٦ هى أكثر انتصاراته اثارة للذهول . فقد تغلب على ثلاث دول عسكرية عظمى - النمسا وروسيا وبروسيا - الواحدة تلو الأخرى . فبدأ أن « شارلمانا » جديدا بل يوليوس قيصر جديدا قد ظهر ، وظن البعض أن المستقبل يخبئ لأوروبا نظاما جديدا طويل الأجل . ولم يدر بخلد أحد يومئذ - اذا استثنينا عددا قليلا

من المفكرين ودعاة الوطنية - أن العاصفة ستتم بنفس السرعة التي أقبلت بها وأن السمات القديمة للحياة الأوروبية لن تلبث أن تعود الى الظهور خيرا كان ذلك أو شرا . ولكننا الآن وبعد مضي مايزيد على قرن كامل على تلك الأحداث نستطيع أن نرى أن ماحدث لم يكن ينطوى على أية معجزة خارقة ، كل ما هنالك أن قائدا عسكريا عبقريا قد هاجم بجيش كان أفضل جيوش العالم تجهيزا ، قوات كانت لا تزال تسير وفق روتين قديم ، وأن حكومة تولدت عن ثورة شعبية وكانت لا تزال مرتبطة الى حد كبير جدا بمصالح الشعب وأمانه ، قد دخلت في صراع مع حكومات من النوع القديم - حكومات كانت أشبه بالآلات منها بالأجسام الحية ، لا تربطها بالشعب صلة حيوية ولا تستثير في نفوس رعاياها أية حماسة كبيرة أو رغبة متقدمة في التضحية بالذات .

وهكذا زحفت جيوش نابليون من نصر الى نصر . فقد كان القائد النمساوى « ماك » مرابطا في « ألم » على رأس قوة نمساوية كبيرة ، وقد راح يتكلم في ثقة عن الانتصارات التي سوف يحرزها ، ولكن ضخامة الجيوش التي أخذت تزحف بسرعة لا نظير لها من بولونيا الى الدانوب لم تلبث أن أثارت انزعاجه فحاول الانسحاب ، بيد أن الأوان كان قد فات ، واذا ألقى نفسه محاصرا استسلم بقواته البالغ عددها نحو ٣٣٠٠٠ رجل . وتلا ذلك ما هو أجل وأدهى ، فقد سقطت فيينا دون صراع . ثم التقت قوات القيصر اسكندر والامبراطور فرنسوا بالقرب من « أوسترليتز » شمال فيينا . وهناك التحمت بالعدو وفي ٢ ديسمبر ١٨٠٥ في معركة أوسترليتز أو « معركة الأباطرة الثلاثة » كما تسمى أحيانا . فتحطمت جيوش النمسا وروسيا على نحو لا يرجى لها صلاح بعده . فقد تفرقت الجيوش النمساوية بحيث لم يعد من المستطاع أن يعاد تشكيلها ،

أما الجيش الروسى فقد انسحب الى الشمال الشرقى ولم يتمكن من الافلات قبل الاشتباك فى قتال آخر عنيف . اذن فقد أدى نابليون الجندى واجبه فى الوقت الحاضر ، وان بقيت أمام نابليون الديبلوماسية مهام كثيرة .

لقد غدت ألمانيا بين يديه رغم ورود أنباء بعض التحركات الغربية المنذرة بالسوء من برلين ، وهى أنباء سنتناولها بالبحث بعد هنيهة . فماذا عساه يفعل بألمانيا وأوروبا الوسطى ؟ لقد ألح من قبل الى التغيرات الكبرى التى يزمع احداثها اذ قال فى بيان له عند عبوره الراين « اننا لن نتوقف حتى نحقق للامبراطورية الألمانية استقلالها » ، كما قال لناخبورتمبرج « ان البيت النمساوى لا يخفى نواياه فى السيطرة على الكيان الألمانى والقضاء على جميع بيوته الحاكمة » . ان نابليون يحاول اذن أن يضيف على عملياته فى ألمانيا مظهر حرب التحرير ، وأن يبدو حاميا لألمانيا ضد النمسا . بل لقد أمل البعض فى أن يثبت فى أجهزة الامبراطورية الرومانية المقدسة العتيقة حيوية جديدة .

ولكن نابليون كان لا يزال ثوريا فى أعماقه . وقد وصف الـ « ديميت » (١) بأنه « بيت قروء حقير » ، ولم يكن يكن أدنى احترام للأجهزة الامبراطورية الرومانية المقدسة الصاعدة . وقد بدت ألمانيا تحت رحمته تماما ، فأزمع أن يعيد بناءها دون أن يضع اعتبارا كبيرا لتاريخها الماضى أو أمانيتها . كانت الخطة ترسم لذلك تلوا الخطة تم تنبذ . وكان الاعتبار الأول فى هذه الخطط جميعا هو خدمة مصالح فرنسا وامبراطورها ، ولكن ثمة عوامل أخرى كانت تتدخل فى رسم التفاصيل مثل دسائس الأمراء الألمان المتنازعين ، وآراء تاليران الخاصة والرشوة الصريحة التى يقدمها أمراء أو مدن بعينها .

(١) «الديميت» هو المجلس اندى يضم مستشارى الامبراطورية الرومانية المقدسة (المترجم)

لقد تقرر مصير ألمانيا في معاهدتين رئيسيتين : أولاها معاهدة برسبورج (٢٦ ديسمبر ١٨٠٥) وكان الهدف الأساسى منها هو تنظيم العلاقات بين فرنسا والنمسا ، وإبعاد بيت الهابسبورج من ألمانيا وإيطاليا حيث ظل يمارس سلطانا عظيما مدى قرون طويلة . وكانت هذه المعاهدة من الوجهة العملية بمثابة اعلان بأن الامبراطورية الرومانية المقدسة لم يعد لها وجود وان بقيت اسما . فقد سلبت مساحات شاسعة من الأراضى من البيت النمساوى الذى فقد ما يقرب من ثلاثة ملايين نسمة وتخلّى عن أراضيه المكتسبة حديثا فى البندقية ، وقد آلت هذه الى مملكة إيطاليا ، بخلاف أراض أخرى كثيرة فى إيطاليا وألمانيا . والمادة السابعة من المعاهدة تعلن أن ناخبى بافاريا وورتمبرج قد أصبحا حائزين على لقب الملك ، وأن امبراطور ألمانيا والنمسا سوف يعترف لهما بذلك . وقد كان اتخاذ عضو فى الامبراطورية للقب جديد دون اذن من الامبراطور أو « الديت » أمرا مخالفا تماما لتقاليد الامبراطورية ودستورها . كما نصت مادة تالية على أن ورتمبرج وبافاريا وبادن - وكل منها قد حصلت على أراض كبيرة على حساب النمسا - قد أصبحت من الآن فصاعدا أقاليم ذات سيادة . وهو نص غير واضح المعنى ، ولكنه ينطوى على أية حال على انكار تام لخضوعها للامبراطورية القديمة . وقد فسرحكام تلك الولايات هذه المادة بأنها تعنى أن بوسعهم الاستغناء من الآن فصاعدا عن دساتير ولاياتهم التقليدية ، فعصفوا بمجالسها أو برلماناتها وأقاموا حكما مركزيا مطلقا صريحا . فكانت تلك نتيجة غريبة لا تتصور رجل كان لا يزال يعتبر نفسه هو « الثورة » .

ثم جاءت فى ١٢ يوليو عام ١٨٠٦ المعاهدة التى أقامت اتحاد الراين . وقد اتخذ نابليون قرار قيام هذا الاتحاد بنفسه ودعا حكام ألمانيا لاعلان انضمامهم أو رفضهم فى غضون أربع وعشرين ساعة .

ولم يرفض التوقيع من ذوى الشأن الا واحد كان من أقلهم أهمية .
كان الهدف العام من الاتحاد هو تقسيم الاراضى الالمانية الى ثلاثة
أقسام بحيث تواصل بروسيا حكمها فى الشمال ، وتظل النمسا تدرج
فى عداد رعاياها المتنوعين ، عدة ملايين من الألمان فى الجنوب والشرق ،
أما فى الغرب فتنشأ تحت حماية فرنسا دولة ألمانية جديدة مستقلة عن
الطرفين ، وبذلك يتم تشكيل مسمى بـ « الثالث الألماني » . وقد
أظهر التاريخ أن التقسيمات التى خلقها نابليون لم يكن مقدرا لها
الدوام ، فلن تلبث الدول الألمانية أن تهب قبل مضى عشر سنوات
لمقاومة حكم نابليون باسم ألمانيا الموحدة التى تضم جميع الاراضى
والشعوب الألمانية . ولسوف يجسم بسمارك بعد ذلك بنصف قرن
تلك الامانى التى أعجز بها الألمان طويلا ، بل ان حرب ١٩١٤-١٩١٨
نفسها والثورة التى تلتها لم تقض على مشاعر الوحدة الالمانية وانما
أدت بالأحرى الى قيام مركزية أشد تمثلت فى حكم هتلر . ولكن عصر
القومية لم يكن قد بزغ بعد فى ١٨٠٦ ، وكان فى تاريخ ألمانيا
وتقسيماتها العنصرية الكثير مما يبرر خطة نابليون .

لقد رأى أن يقوم التنظيم الجديد على أساس انشاء اتحاد من
بعض الدول Confederation لا قيام دولة اتحادية . فظلت
الولايات الست عشرة التى أعلنت انفصالها عن الامبراطورية الألمانية
حتى يتسنى لها الاشتراك فى التنظيم الجديد ، مستقلة ذات سيادة .
وتقرر عقد « ديت » فى فرانكفورت تبحث فيه المصالح المشتركة
للاتحاد ، ولكن الديت لم يجتمع أبدا ، وظل دستور الاتحاد حبرا
على ورق . كما تقرر منع الاعضاء من تقديم رعاياهم للخدمة العسكرية
فى أى جيش سوى جيش الاتحاد أو جيوش حلفائه . وكانت للمادة
١٢ أهمية فائقة ، فقد أعلن فيها امبراطور الفرنسيين « حاميا للاتحاد »
وأعطته مادة تالية حق تحديد عدد الفراق التى يلتزم كل عضو

بتقديمها في حالة الحرب . وأعلنت المادة ٣٥ رسميا قيام التحالف
الحتمي بين الطرفين في حالة نشوب أى حرب يشتبك فيها أحدهما .
ولاشك في أن هذا الجزء من التدابير الجديدة سينفذ بكل صرامة .
على أن الأمل في نجاح نظام الثالث الألماني لن يلبث أن يتبدد تماما
عندما يظهر جليا للعيان أن أبراج الامبراطورية الرومانية المقدسة
الشامخة وقصورها الفاخرة لم تتداع الا لترتفع محلها قلعة حديثة
عصرية على قدر عظيم من الكفاية . ولكن السيف كان قد حكم
يومذاك ولا مرد لحكمه . وفي أول أغسطس أخطر نابليون دييت
راتيزبون بأنه قد قبل منصب حامى اتحاد الراين « من أجل السلام »
وأنه لم يعد يعترف بوجود الدستور الألماني . فلم يقابل هذا التصريح
بأية دهشة في أوروبا . وقبل مضي أسبوع على ذلك التاريخ وفي ٦
أغسطس على وجه التحديد ، أعلن فرنسوا تخليه عن لقبه الامبراطورى
القديم فانتهد بذلك الامبراطورية الرومانية المقدسة نهاية يصدق
فيها ماوصفت به من أنها « نهاية كل مهمل » .

لقد قبلت ألمانيا الغربية السيطرة الفرنسية ، ولم يكن بوسع النمسا
أن تبدى أية مقاومة وقتذاك . بقيت بروسيا ، التى أذلت
فرنسا في عهد فردريك الأكبر ، بروسيا التى أصبح يعتبرها الكثيرون
— بما فيهم جوته نفسه — البلد الذى يمثل القومية الألمانية بصفة
خاصة بالرغم من وجود عناصر أجنبية بين سكانه . فما قول بروسيا
ياترى في هذا التنظيم الجديد لألمانيا ؟

لقد كانت بروسيا نهبا للانقسام الى درجة تمنعها من الادلاء بصوت
جاسم . فقد كانت أحزاب البلاط تتجاذب مليكها الضعيف ، فهناك من
ناحية « الوطنيين » الذين يرون في فرنسا العدو اللدود لألمانيا ،
ويرغبون في امتشاق الحسام لانتقاذ بروسيا وألمانيا . وإلى هذا الحزب
كانت تنتمى الملكة لويز « الملاك الحارس للقضية العادلة » وهاردنبرج .

وزير الخارجية وبلوخر القائد العسكرى. ولكن الملك نفسه كان - ايارا
المعافية - ميالا الى كسب صداقة فرنسا ، وقد آزره فى ذلك الكثيرون
من وزرائه . وينبغى ألا يغرب عن البال أنه لم تكن قد نشأت بعد فى
تلك الأيام بين برلين وباريس تلك الخصومة العنيدة التى نمت
وتطورت فى القرن التاسع عشر ، بل قامت بينهما تقاليد من تعاون
واعجاب متبادل . الا أن زحف نابليون على ألمانيا وانتهاكه حرمة
الاراضى البروسية فى « انزباخ » و « بايروت » ألهما ذلك الزحف
أتاحا الفوز للحزب المنادى بالحرب . وتد زار القيصر اسكندر برلين ،
 واجتمع بالملك البروسى الشاب فردريك وليام الثالث فى جو من المهابة
والوقار عند قبر فردريك الأكبر . واستقر رأى بروسيا على دخول
الحرب ضد نابليون ، فأرسلت « هوجويتز » الى معسكر الفرنسيين
حاملًا معه انذارًا أخيرًا . ولكن معركة أوسترلتز نشبت قبل تقديم
الانذار ، فراحت بروسيا تنشد - فى نوبة من الذعر المفاجئ - يبررها
الموقف - السلم لا الحرب ولو كان الثمن اذلالها . وقد فهم نابليون
الموقف فى برلين على حقيقته ، ولكنه أبدى استعدادا لتقديم تنازلات
لبروسيا كانت فى حقيقتها أبلغ اذلال لها . فقد كانت هانوفر مفتاح
الديبلوماسية البروسية ، وكان ملك بروسيا قد وعد انجلترا باحترام
استقلالها ومراعاة صلتها بها . ولكن نابليون راح الآن يقدم الطعام
فقد عرض على بروسيا لا السلم فحسب وانما هانوفر كذلك ، فما
كان من بروسيا الا أن ابتلعت الطعام . وقد ندد فوكس بسياسة
بروسيا باعتبارها تجمع بين « كل مافى العبودية من حقارة وكل مافى
الجشع من صفات كريهة » . فقد خانت ألمانيا آملة أن تكون قد
وسعت بذلك حدودها .

الا أن بروسيا لم تتسلم ثمن عارها . فحصلوها على هانوفر لم يكن
مضمونا بحال ، فقد عرف أن نابليون تقدم بعرض مبدئى باعادتها الى

انجلترا . ثم ان ملك بروسيا كان قد تلقى اقتراحا من فرنسا بأن يشكل اتحادا لشمال ألمانيا وينصب نفسه حاكما عليه بلقب امبراطور ، ولكن نابليون لم يعد يبدى الآن ميلا الى السماح بتحقيق ذلك الحلم الرائع . وفى حين كانت مكاسب بروسيا موضع شك ، كانت خسائرها ألزمة وأكيدة . فقد نصب قائد نابليون « مورا » دوقا على كليش ومنح عضوية اتحاد الراين ، فراح يطالب باسن وفردن والتين - التى كانت بلا جدال أراضى بروسية - زاعما أنها جزء من ممتلكاته . وفى تلك الاثناء أخذت دعوة الوطنيين الى شن الحرب ضد فرنسا تلقى صدى قويا فى الجيش والبلاد ، وراح قادة الجيش يعربون عن قنيتهم فى النصر . وأثارت حفيظة البلاد اساءة ليس لها فى ذاتها المحل الاول من الاهمية . فقد حدث أن وزع على نطاق واسع كتيب بعنوان « ألمانيا فى مذلتها الكبرى » شبه مؤلفه الآلام التى تعاني منها المناطق المحتلة من ألمانيا بأبشع الآلام التى قاستها ألمانيا ابان حرب الثلاثين عاما . ولم تعرف شخصية المؤلف ولكن نابليون ألقى القبض على الناشر المدعو « بالم » واعدمه . وقد أنشأت بروسيا تتطلع حولها بحثا عن الحلفاء فتلقت وعودا بالعون من روسيا التى لم يكن قد قضى عليها قضاء مبرما فى أوسترلتز ، ومن جارتها سكسونيا . فما كان منها الا أن وجهت انذارا تطالب فيه بانسحاب القوات الفرنسية الى غرب الراين ، ولم يكن لذلك من معنى سوى الحرب .

ولقد جاءت النتيجة مفاجئة وحاسمة بدرجة مذهلة . ففي ١٤ أكتوبر ١٨٠٦ تحطمت ، على مرتفعات بينا وعند أورستادث التى تبعد عنها بضعة أميال الى الشمال ، هبة الجيوش البروسية تحطيمًا كاملا . فما من جيش نمساوى واحد قد انهار أمام نابليون بتلك الصورة الكاملة التى انهار بها أولئك البروسيون الذين كانوا فى يوم من الأيام (قوة لا تقهر) ولم تلعب الصدفة أى دور فى تحديد نتيجة المعركة ، فقد

نالت الضربات دون أن تبدى بروسيا أية مقاومة فعالة . فدخل الفرنسيون برلين واستولوا على القلاع والمدن بسهولة مذهلة ، وأكروهوا بلوخر نفسه ، على الاستسلام في النهاية بالقرب من لوبيك . وكان ملك بروسيا قد انضم الى الجيش الروسى فى الشمال الشرقى ، وقد أظهر الروس طرفا من قدرتهم المعروفة على المقاومة العنيفة . فاشتبكوا مع نابليون فى فبراير ١٨٠٧ فى معركة فى « ايلاو » لا تعد تتيحها نصرا حقيقيا للفرنسيين ، ولكن نابليون ضرب من جديد فى يونيو ١٨٠٧ فى فريدلاندر فلم يخطئ هذه المرة ، ولم يعد بوسع الجيش الروسى أن يواصل الصمود . وهكذا بلغ امبراطور الفرنسيين أوج قوته .

وسوف نتناول بالبحث فى الفصل التالى ، ظهور أوروبا الجديدة من بين أشلاء أوروبا القديمة . وكذلك الشكل الاقتصادى الجديد الذى اتخذته صراع الامبراطور ضد بريطانيا . كان هذا الصراع قد بدأ بالفعل ، وقد راح نابليون يبدى حرصا شديدا على كسب تأييد أوروبا كلها فى محاولته الاطاحة - بوسائل غير مباشرة - بالدولة التى أخفق فى مباراة أسطولها . وقد وجد أن قيصر روسيا على استعداد - لم يتوقعه - للتعاون معه . فان القيصر كان قد بدأ يظهر الكثير من التقلب الذى اتسمت به شخصيته فى السنوات التالية ، وكانت له شكاواه الخاصة من حكومة بريطانيا . فقد اضطر منذ معركة فينا الى تحمل النصيب الأكبر من عبء الحرب ، وقد طلب من بريطانيا أن تضمنه فى قرض بمبلغ ٦ ملايين جنيه ولكن طلبه رفض بأسلوب كان من شأنه أن يمس المواطن الحساسة عند الروس . كما أنه راح يحث الحكومة البريطانية على استدراج جانب من القوات الفرنسية كي تخفف عنه بعض ما يلقيه من عناء ، ولكنها لم تقم بأى عمل يذكر فى هذا الصدد . فكان أن تحول استياء اسكندر من بريطانيا الى كراهية عنيفة دفعته الى عقد الهدنة مع فرنسا ، ومقابلة نابليون فى ذلك

الاجتماع الشهير الذى عقد فى مظلة أقيمت فوق طوف وسط نهر. نيمن ، ووضعت فيه أسس الصلح . وقد تم الاتفاق أيضا على شروط الصلح المتعلقة ببروسيا علاوة على روسيا ، فى سلسلة اجتماعات عقدت بعد ذلك بين مندوبى الروس والفرنسيين والبروسيين فى مدينة نيلسيت ، بيد أن دور البروسيين كان مهينا الى أقصى الحدود ، اذ كان نابليون يجد - فيما يبدو - متعة خاصة فى توجيه الاهانات الى ملك بروسيا ومليكته . وهكذا تقرر مصير بروسيا فى الواقع على يد الامبراطورين الروسى والفرنسى .

وجاء فى المعاهدة أن الشروط المتعلقة ببروسيا قد وضعت بناء على رغبة الامبراطور الفرنسى فى اقامة الصداقة مع روسيا على أساس لا يتزعزع ، مما يعنى ضمنا أنه لولا وساطة القيصر لكانت هذه الشروط أشد مما جاءت وأقصى . وقد تقرر أن تؤلف الأقاليم البروسية على الراين مملكة جديدة تسمى مملكة وستفاليا ويجلس على عرشها « جيروم » شقيق نابليون ، كما تقرر أن تؤلف دوقية وارسو من الجانب الأكبر من الأراضى البروسية فى بولنده ، وأن تعطى هذه الدوقية لدوق سكسونيا ، وأمل الكثيرون فى أن يكون ذلك بداية لبعث بولنده المستقلة . وفقدت بروسيا اجمالا ما يقرب من نصف أراضيها وانخفض عدد سكانها من عشرة ملايين الى خمسة ملايين . أما روسيا فلم تواجه مثل تلك المهانة . بل حدث العكس فقد أضيفت الى أراضيها فنلنده وجزء من ممتلكات بروسيا فى بولنده ، وان تكن قد أجبرت بالطبع على الاعتراف بجميع التدابير التى رسمها نابليون لأوربا الوسطى . وكانت هناك بنود سرية بجانب البنود المنشورة (١) ، اتفق فيها على دعوة بريطانيا الى عقد الصلح والتخلى

(١) لم ينشر النص الكامل للبنود السرية حتى عام ١٨٩٠ ، ويمكن الاطلاع عليها فى كتاب ١ . فاندال «نابليون واسكندر الاول» Napoleon et Alexandre "I" «المجلد الاول» من تيلسيت الى إيرفورت "De Tilsit a Erfurt" (١٨٩١) ، الصفحات ٤٤٩ - ٥٠٧

عن دعاواها في السيادة البحرية فان هي رفضت الاستجابة لهذه الدعوة شنت عليها روسيا وفرنسا حربا مشتركة وأرغمتا الدانيمرك والسويد والبرتغال على أغلاق موانئها في وجه البضائع الانجليزية والاشترك معهما في الحرب ضدها . وبسرعة فائقة وقف الانجليز على شيء من طبيعة هذه البنود السرية ، وما زالت الطريقة التي كشفوا بها السر لغزا محيرا حتى يومنا هذا . فهل كان هناك جواسيس انجليز علموا شيئا عنها من بعض كبار المسؤولين الروس ؟ أم أن تاليران هو الذي أفشأها للوزير الانجليزى « كاننج » على سبيل التمهيد للتفاهم مع العدو اذا ماسقط نابليون ؟ ومهما يكن من أمر المصدر الذى تسربت منه تلك المعلومات فان الحكومة البريطانية قد سارعت الى العمل في ضوءها ، فطالبت الدانيمرك بتسليم أسطولها البحرى ، ولمارفضت الادعان الى ذلك المطلب أكرهتها على ذلك اكراهها بهجوم بحرئ وعسكرئ شنته على كوبنهاجن .

وقد أضيفت بعد ذلك الصلح أقاليم كثيرة أخرى الى أراضئ نابليون حتى بلغت أقصى مداها في عام ١٨١١ . ولكن عام ١٨٠٧ هو الذى شاهد مع ذلك أوج قوته . ولو أنه مات فى تلك السنة لبدت سيرته أكثر السير أعجازا فى سجلات تاريخ أوربا العسكرئ بل وربما تاريخ العالم كله . فقد وفق فى كل عمل ، ودحر كل عدو ، واعاد تنظيم أوربا على هواه . ولم يعد له منافس ولا نظير ، وقد دخل فى تحالف ودى وثيق فيما يبدو ، مع قيصر روسيا . وأصبحت تفصل بينه وبين الثورة الفرنسية التى خلفها وراءه مسافة شاسعة . لم تكن فرنسا هى التى أصبح لها الأمر والنهى فى أوربا وانما نابليون نفسه . ولقد حمل معه أسرته الى الثراء والشهرة والسلطة . فتقلدت أمه التى كانت فى يوم من الأيام ربة بيت بسيطة فى أجاكسيو ، منصب الامبراطورة الوالدة فى باريس . أما أخوه الأكبر « جوزيف » فكان قد نصب لتوه

ملكاً على نابولي - التي طرد منها فرديناند عام ١٨٠٦ - ولن يلبث أن يعتلى بعد فترة من الزمن عرش أسبانيا التاريخي العظيم . كما نصب ثالث أخوته « لويس » ملكاً على هولندا التي كانت تعتبر حتى ذلك التاريخ جمهورية مستقلة . وثمة أخ آخر له ، هو « جيروم » صار كما أسلفنا ملكاً على وستفاليا . وتزوجت شقيقته كارولين « مورا » الذي أصبح الآن دوقاً على برج والذي سيصبح على مر الأيام ملكاً على نابولي بعد نقل جوزيف إلى أسبانيا . وكان « بيت » أشد أعدائه تصميماً وأكثرهم مقدرة قد مات ، فبدأ نابليون الهلحلي ويحيى ويميت !

الفصل السابع

ظهور أوروب الجديدة

لم يسبق لشخصية ما أن طغت على حياة أوربا وأفكارها مثلما طغت عليها شخصية نابليون طوال عشر سنوات . وسوف يتعين علينا إذا أردنا أن نجد لهذه الشخصية شبيها أن نعود القهقري لنراجع سيرة يوليوس قيصر أو شارلمان ، وهذان لم يكن بوسعهما - لأسباب ظاهرة - أن يحققا نفس النفوذ العالمى الذى حققه نابليون . وأنه لما يتعذر علينا أن نغير الشئون الداخلية لاطاليا أو ألمانيا أو أسبانيا عناية كافية ابتداء من ١٧٩٥ حتى ١٨٠٧ . ذلك أن العاصفة الكبرى التى أخذت تمتد بسرعة هائلة من مركزها الرئيسى فى فرنسا قد اكتسحت تلك البلاد اكتساحا فى تلك الفترة فلم تترك مجالا للاهتمام بشئونها الداخلية . ولكن أحوال أوربا تتغير بعد ١٨٠٧ . أن نابليون بظل الشخصية الرئيسية فى المسرحية وسيبقى كذلك حتى تنتهى حياته العامة ، ولكن جيوشه وسياسته لم تعد تحترق الأنظار . فنحن نستطيع أن نشاهد - اذا ماتمنا وراء السطح قليلا - قوى صاعدة أخرى تعترض طريقه وتبدى مقاومة ثابتة بل وتضيق ثمار أعظم انتصاراته ، قوى لن تلبث أن تعجب على رأسه فى النهاية الهزيمة والكوارث .

ولكن هل كان بوسع أن ينهى حياته العسكرية فى تيلسيت ؟ هل كان باستطاعته أن يهيء لأوربا التى صنعها بنفسه ، تسوية دائمة وتطورا سلميا ؟ وما القول فى أمر تلك السنوات التسع من الحرب

التي مازالت تنتظر أوروبا ، أهى ترجع الى أطماع نابليون التي لا تقف عند حد أم الى غير ذلك من الأسباب ؟ وهل كان عقد تحالف ونيق بين الامبراطورية الفرنسية وروسيا وبريطانيا أمرا يدخل في حدود الممكنات السياسية حينذاك ؟ وهل كان من شأن مثل هذا التحالف أن يتيح للعالم سلما طويل الأجل ؟ يبدو من المؤكد أن الموقف في ١٨٠٧ لم يكن يحمل في طياته أى أمل في السلام . ومن الجائز أن نابليون كان سيرحب بمقدم السلام ان أمن له السلام سلطانا مستقرا في فرنسا وفي أوروبا ، ولكن السلم كان يحمل له - كما أوضحنا من قبل وكما كان يعلم هو - خطرا على مركزه في فرنسا . وفي أوروبا لم تكن الحكومات قد تخلت - رغم هزائمها المتكررة - عن الأمل في الانتقام . ووراء الحكومات كانت تقف الأمم التي حركت فيها الثورة الفرنسية واثنصارات نابليون الروح القومية ، فلم يكن ثمة احتمال في أن ترضى ألمانيا وإيطاليا وروسيا طويلا بمركز التبعية والخضوع الذي كان الشيء الوحيد الذي يمكن أن يقدمه لها السلام النابليوني . والحكومات لن تلبث أن تعيد - في حالات كثيرة - تنظيم نفسها تحت ضغط الهزيمة ، وستكون بروسيا أول دولة تبرهن على امكان هزيمة فرنسا باستخدام نفس أسلحتها ! وفضلا عن ذلك كانت هناك دولة لم تهزم - ألا وهى بريطانيا التي ظلت قابضة خلف بحارها في عداء وكبرياء وثقة . وقد خلف « بيت » في رئاسة الوزارة « فوكس » وكان شديد الإعجاب بالثورة الفرنسية ونابليون ، ولكن محاولته لاقرار السلام باءت بالفشل . وما أن توفي في عام ١٨٠٦ حتى عاد حزب المحافظين (Tory) الى الحكم ليواصل الحرب ضد فرنسا متمتعا بتأييد السواد الأعظم من الأمة .

وقد اتخذ الصراع مع انجلترا طابعا جديدا كان له أثر عميق في تعديل مجرى الحوادث في أوروبا حتى سقوط نابليون . فقديس نابليون

من افتتاح استحكامات بريطانيا البحرية ، ولم يجد ثمة ما يشجعه على امتتاع السياسة التي فشلت فشلا ذريعا في الطرف الأغر . ولكن هل يعقل أن يقف سيد أوروبا الأعلى عاجزا أمام أمة من التجار وأصحاب الصناعات والحوائث ؟ لقد كان يؤمن بأن قوة إنجلترا إنما تكمن في صادراتها ، وبأن دول أوروبا هي سوقها الرئيسى . ألا يستطيع إذن الحاكم الذى بسط سلطانه على أوروبا اقضاء السفن البريطانية عن جميع موانئ أوروبا فيفضى ذلك بريطانيا العظمى الى الموت جوعا ؟ لقد كانت تلك سياسة فرنسية تقليدية نوعا ما ، ولقد أقرتها الثورة فى أولى مراحل الحرب ، ولكنها لم تكن ، اذذاك فى مركز يسمح لها بتطبيقها .

وقد جاء اعلان السياسة الجديدة من برلين فى نوفمبر عام ١٨٠٦ . ولم يكن ثمة ما هو أبلغ دلالة على قوة مركز نابليون من اصداره مراسيمه من عاصمة فردريك الأكبر المهزومة . وقد نددت « مراسيم برلين » ببريطانيا لخرقها القانون الدولى ولأنانيتها فى سياستها التجارية ، وقررت الرد عليها بنفس أسلحتها ، فأعلنت فرض حالة انحصار على الجزائر البريطانية وتحريم كل أنواع التجارة بينها وبين الأراضى التى تخضع لحكم نابليون أو نفوذه . فلم يعد مسموحا للسفن البريطانية بدخول موانئ فرنسا أو حلفائها ، وأصبحت السفن التى تدخل بالرغم من ذلك الأمر ، عرضة للمصادرة .

وردت الحكومة البريطانية على ذلك بمراسيمها الملكية الصادرة فى يناير ونوفمبر سنة ١٨٠٧ . وفيها اتهمت فرنسا بالخروج على تقاليد الحرب ، وأعلنت أنه مادام الاتجار مع أوروبا محرما على بريطانيا فليكن محرما على الدول المحايدة كذلك . وضربت بريطانيا الحصار على الأراضى الفرنسية . وهكذا أقصى نابليون بقوة الحرية البريطانية عن التجارة مع أوروبا ، فعزلت بريطانيا بحريتها أوروبا الفرنسية عن

التجارة مع بقية العالم . ولم تكن هذه السياسة الجديدة مجرد فكرة عابرة أو تهديد أجوف . فقد تمسك بها نابليون باعتبارها الوسيلة القاطعة لانزال الخراب ببريطانيا ، وأرغم جميع الأمم الداخلة في دائرة نفوذه على انتهاجها . وكانت رغبته في توسيع مداها سببا في حروب أخرى . ولما كفل له صلح تيلسيت في نوفمبر وديسمبر ١٨٠٧ تأييد روسيا وأصبحت جيوشه تقف بلا منازع ، عاد يدعم ويؤكد من جديد في مراسيم ميلانو اعلانه السابق بحظر كافة أنواع التجارة بين أوروبا وبريطانيا .

ولا ريب في أن بريطانيا قد قاست من هذا الحظر الذي سمي بالنظام القاري ، فقد تفشت البطالة وكثرت حالات الافلاس واشتد غناء الناس من سوء الحالة التجارية الناشئة عنه . غير أنه وان كانت للأسواق الأوروبية أهمية قصوى بالنسبة لبريطانيا (١) ، فإن باقى العالم ظل مفتوحا أمامها . ثم أن الآلات والأساليب الجديدة التى أدخلتها الثورة الصناعية فى إنجلترا قد منحتها تفوقا كبيرا فى الإنتاج ، فقاست البلاد حقا ولكن مكابقتها قوت من عزمها على مواصلة الكفاح بدلا من أن تثبط ذلك العزم .

أما سكان فرنسا نفسها فكانوا يتمتعون فى تلك السنوات بالرخاء من عدة أوجه . فقد فتحت غزوات نابليون لتجارته مناطق جديدة واسعة . وشوهدت ثمار تشريعات الثورة الاجتماعية فى ازدهار أحوال الزراعة . ولما بدأت فرنسا تقاسى من انقطاع ورود حاصلات

(١) يوضح الدكتور هولاند روز أن نابليون كان سيتمكن على الأرجح من أرغام إنجلترا على الاستسلام لو أنه أوقف تموينها بالقمح من القارة ، لأنها كانت ستعجز عن استيراد الغذاء من العالم الجديد بالسرعة اللازمة والكميات الكافية (دراسات نابليونية «تموين بريطانيا بالغذاء أثناء حرب نابليون »)

المستعمرات نتيجة لسياسة بريطانيا ، تمكن العلم الفرنسى ، بمؤازرة الدولة وتوجيهها ، من تقديم بعض الحلول . فقد ارتفعت أسعار السكر ارتفاعا خياليا ، ولكن العلماء الفرنسيين تمكنوا من استخراج السكر من البنجر وأصبحت هذه الصناعة الجديدة من ذلك التاريخ موردا دائما من موارد الثروة الفرنسية ، كما صنعوا النيلة أو بمعنى آخر حصلوا على بديل . حقا ان بعض أنواع الصناعات لم تجد من يقلها من عثرتها ، ، ولكن أسوأ نتائج نظام نابليون القارى لم تكن تشاهد فى فرنسا نفسها وانما فى الدول الأوروبية الواقعة تحت سيطرتها . وقد تجلى هذا بصورة أقوى عندما عمده نابليون الى فرض رسم جمركى عال - وصل غالبا الى نصف القيمة - على جميع حاصلات المستعمرات ايمانا منه بأن كل مايصل منها الى أوروبا انما هو من تهريب البريطانيين .

وقد وجدت هولندة التى كان يجلس على عرشها شقيق نابليون « لويس » ، أن فى التدابير الجديدة قضاء تاما على حياتها التجارية ، فشكت واحتجت ولكن دون طائل . وكان الملك لويس يعطف على شعبه ويشك فى نجاح أخيه ، فتنازل فى النهاية عن عرشه المحاط بالصعاب . ولم يأت تنازله بأى غوث لبلاده ، فقد ضمت هولندة رسميا الى الامبراطورية الفرنسية فى يوليو ١٨١٠ . وأدت دوافع مشابهة الى ضم ساحل ألمانيا الشمالى الغربى فى ديسمبر من العام نفسه . وكان التبرير الرسمى الذى قدم لهذا الاجراء العنيف هو أن التجارة البريطانية « ستظل تتدفق الى القارة مالم يغلّق فى وجهها ابى الأبد مصبا نهري ويزر والب » . ولو افترضنا أنه كان هناك فى يوم من الأيام احتمال ما بأن ترضى أوروبا الوسطى بسيطرة نابليون ، فقد قضى النظام القارى على هذا الاحتمال . لقد أتى حكم فرنسا بالحرية الاجتماعية التى كانت موضع الترحيب وبنصوص التقنين

المدنى الانسانية ، ولكن هذه المزايا لم تكن لتقاس فى نظر معظم الأهالى بما أدت اليه الحرب الاقتصادية ضد انجلترا من ارتفاع ضخم فى الأسعار كاد يودى بهم الى الموت جوعا .

ولنتقل الآن الى ألمانيا وبروسيا لنرى الشكل الذى اتخذته القوى التى أخذت تختمر هناك . لقد كان سقوط بروسيا مذهلا وقت حدوثه ولكنه لا يستوقف النظر مثلما تستوقفه نهضتها من كبوتها ، تلك النهضة التى تكتب فى أحداث التاريخ البطولية وتندرج فى صف واحد مع انتصار الرومان بعد موقعة « كناى » والفرنسيين بعد « أجنكور » . ان كارثة بينا لم تدمغها بأى حال كدولة متداعية منحلّة . بل ان ألمانيا كانت على الضد مليئة بالنشاط من كل نوع ، ومطلع القرن يعتبر ، من عدة أوجه وبالرغم من « بينا » ، العصر الذى ترجع اليه ألمانيا بأبصارها بكل فخر واعتزاز . ومع ذلك فقد ركعت : - من الناحية العسكرية - وأثقلها فى الرغام .

ويمكننا الآن أن نشين بوضوح سبب الكارثة . فقد كانت بروسيا أكمل نموذج للنوع القديم من الحكومات الذى حطته الثورة الفرنسية - فى فرنسا بالعمل المباشر وفى سواها من البلاد بتأثيرها والمثل الذى ضربته . كان فردريك الأكبر قد أنشأ - بهمة تعادل همة نابليون وأن يمكن بغير عبقريته الابداعية - جهازا للحكم بالغ الكفاية يعتمد اعتمادا كليا على الملك بنفس الدرجة التى يعتمد بها الكتبة فى دوائر العمل على رؤسائهم ، ويعمل من أجل رفاهية الشعب دون أن يستشير أبدا ، جهازا لا يختلف فى صفاته الجوهرية عن الصورة التى كان ينطلق اليها لويس الرابع عشر أو جورج الثالث الانجليزى وان فاقها كثيرًا من حيث الكفاية . وكان الجيش يحمل نفس الطابع ، فلم تكن بأى وجه من الوجوه تجسيدا الروح الأمة وانما كان مجرد سلاح فى يد الملك يستخدمه فى الأغراض التى يراها مناسبة . وكان عامة

الجنود يجمعون من الفلاحين الأقنان ، بينما يشغل مناصب الضباط بالضرورة ذوو النسب العريق . وكان النظام قاسيا صارما . لقد كان الجيش فخورا حقا بالتراث الرقيق الذي خلفه فردريك الأكبر ، ولكن الجنود لم تكن تحسبهم الروح القومية أو الوعي بأن مصالحهم الشخصية إنما هي في رفاهية الدولة . لقد كان هذا النظام الذي « يرغم فيه الفلاح بوساطة العقوبات الوحشية على الدفاع عن البلاد التي تميته جوعا » منسجما مع الكثير من سمات القرن الثامن عشر ، ولكن مجيء الثورة الفرنسية ورواج أفكارها جعله أمرا غير محتمل في القرن التاسع عشر .

وإنه لمن مفاخر بروسيا في ذلك الحين أن وجد بها رجال في مناصب بارزة رأوا ضرورة أحداث تغييرات جوهرية ، وكانوا من القوة بحيث يحدثونها . وقد كان الطابع المميز لجميع تلك التغييرات هو الرغبة في إيجاد علاقة عضوية بين الدولة والشعب ، وإثارة حماسة الشعب الحقيقية لنجاح الحكومة . ولا يصح بحال القول بأن هذا المثل الأعلى قد تحقق ، ولكن ثمة خطوات كثيرة قد اتخذت في هذا السبيل ، وستحارب فرنسا من الآن فصاعدا بنفس أسلحتها . إن الحرية والأخاء والمساواة لم تكن حقا من الكلمات التي تناسب العقل الألماني ، ولكن الكثير مما كانت تعنيه بها فرنسا قد انتقل فعلا إلى حياة ألمانيا .

ويجدر بنا أن نبدأ بالأصلاحات العسكرية . وهذه كانت ثمرة جهود ثلاثة رجال أفذاذ هم « شارنهورست » و « نيبزناو » و « كلوزوفتز » . كان شارنهورست هو المنظم العظيم للجيش الجديد ، ولقد توفّر على مهمته بغيره دينية ، وكان يؤمن بأن عمله لن يتحقق إلا ببعث الشعب أخلاقيا . وكان « نيبزناو » مثاليا يجد في عمله العسكري ارضا للأسمى أمانيه ، وقد أعجب بأشياء كثيرة في

الثورة الفرنسية ، وكان - على ولائه للعرش البروسي - ذا شبهة ببعاقبة ١٧٩٣ الفرنسيين . أما « كلوزوفر » فكان من عظماء أصحاب النظريات في التكتيك العسكرى ، وقد اقتبس الكثير - بل معظم - النظريات التي ابتدعها نابليون وعدلها بحيث تتكيف مع ظروف ألمانيا . وهو يعتبر صاحب تلك الآراء في الاستراتيجية والتكتيك التي قادت بروسيا الى النصر في ١٨١٤ و ١٨٦٦ و ١٨٧٠ . وكانت أهم الإصلاحات العسكرية هي أن الجيش تحول الى جيش قومى بعد اقضاء الأجانب منه والغاء نظام الامتيازات ، ولم يعد الضباط يختارون من بين طبقة الأشراف وحدها ، كما أن الخدمة في صفوف الجند لم تعد علامة على الرق . فقد استدعى جميع المواطنين لأداء الخدمة العسكرية وأصبح اختيار الضباط يتم على أساس المقدرة . كما بث المصلحون في الجيش - بنجاح عجيب - روحا جديدة ، وأدخلوا مقاييس جديدة للشرف العسكرى ولوائح جديدة للسلوك ، فقليل عنه انه أصبح مدرسة للشرف لا مدرسة للرديلة . وكان نابليون قد فرض على بروسيا بنص صريح ألا يزيد جيشها على ٤٢٠٠٠ رجل . الا أن المصلحين العسكريين خفضوا مدة الخدمة بحيث يفرغ الجند منها بسرعة ، الأمر الذى مكنهم من انشاء قوة احتياطية ظلت على اتصال بالنظام والتدريب العسكرى . فلما دعا الداعى آخر الأمر لى النداء جيش بروسى مدرب يزيد عدده كثيرا على الحد الذى فرضه نابليون .

ولا تقل عملية اعادة التنظيم السياسى والاجتماعى لبروسيا أهمية عن الإصلاح العسكرى بل لعلها تفوقه أهمية . وقد كان دور الملك فيها ضئيلا ، أما الاسم الذى اقترن بها اقترانا وثيقا فهو اسم فون شتاين الذى كان بحكم المولد من مواطنى ولاية من أصغر الولايات الألمانية ، ثم انتقل بخدماته الى بروسيا عندما محا الطوفان الفرنسى مغالمة ألمانيا الغربية القديمة . ومن الذين قدموا مساعدات قيمة في

هذا الصدد كذلك هاردنبرج الذى أصبح فى تلك الآونة مستشارا للبلاد (١) . وهو رجل أرستقراطى فى مسلكه ومظهره ، بطيء فى الوصول الى القرارات وان أثبت فى النهاية أنه مؤيد متحمس لشتاين والحزب المناهض لفرنسا . وينبغى أن نذكر الى جانب هؤلاء ، الملكة لويز التى أصبحت رمزا للشعور القومى البروسى بل والألمانى . وكانت أهداف هؤلاء المصلحين المدنيين قريبة الصلة بأهداف المصلحين العسكريين . اذ كانوا راغبين بدورهم فى إيجاد علاقة حية بين الحكومة والشعب وفى أن يحيلوا الدولة البروسية الى حامية للرجل العادى لا أداة للاستبداد به . أما هدفهم الثابت - وان كتموه - فكان تحقيق استقلال ألمانيا من السيطرة الفرنسية .

وقد بدأ عملهم بالغاء رق الأرض ، ونص مرسوم التحرير على أنه « ليس فى بروسيا بعد عيد القديس مارتن عام ١٨١٠ سوى مواطنين أحرار » . لقد كان فلاحو بروسيا الأقنان فى حال أسوأ بكثير من حال فلاحى فرنسا ، فأصبحوا الآن فى مركز مشابه لذلك الذى كسبه الفلاحون الفرنسيون فى الثورة . فقد تحرروا من السخرة ومن الخضوع لقضاء ساداتهم الاقطاعيين ، ولم يعودوا عرضة لأن توقع عليهم العقوبات الجسدية المهينة فى الجيش . والأهم من هذا كله أن الأراضي التى كانوا يزرعونها للغير أصبحت ملكا خالصا لهم من حقهم أن يتصرفوا فيها بالبيع . وهذا الحق الأخير كان ينطوى على بعض الخطر ، اذ كان من المحتمل أن يتحول الفلاحون ، اذا ما باعوا أراضيهم ، الى أجراء بلا أرض مما يدفعهم الى الهجرة للمدن . ولم تصادف التدابير التى اتخذها شتاين لتجنب ذلك نجاحا كاملا . غير أن الفلاحين أصبحوا يشعرون الآن بأنهم اذ يحاربون من أجل بلادهم انما يحاربون من أجل شئ لهم فيه مصلحة شخصية .

(١) Chancellor وهو منصب يعادل فى المانيصة منصب رئيس الوزراء فى سائر الدول . (المترجم)

ثم انتقل شتاين يعد ذلك الى سكان المدن في بروسيا الذين كانوا يعيشون حياتهم المستقلة الخاصة وتسيطر عليهم النقابات المهنية الفاسدة ، وكانوا مبعدين من الخدمة في الجيش . فطبق لهم مبدأ حرية التجارة ، وقضى على الحواجز القانونية التي كانت قائمة بين مدن بروسيا وسائر البلاد . وهكذا ظهرت الحرية لأول مرة فوق أرض بروسيا ، ولكن البلاد لم تكن بالتربة الصالحة لنمو الحكم الذاتى . فرغم أن هاردنبرج قد أعلن فى « الوصية » التى خلفها أنه من أنصار « المبادئ الديمقراطية فى دولة ملكية » ، ورغم أن شتاين كان يشخص ببصره فى نفس الاتجاه ، فإن شيئا من ذلك لم يتحقق اذا استثنينا بعض المحاولات الأولية لتأليف المجالس الإقليمية .

على أن هذه التغيرات فى النظم ماكانت لتجدى كثيرا فى النهاية لو لم تعززها حركة مماثلة فى عقول الناس . لقد كانت بروسيا من الوجهة الفكرية متيقظة بل شديدة اليقظة شأنها فى ذلك شأن فرنسا قبل الثورة . وكانت النداءات المستجثة للهمم التى يوجهها للأمة « فيخته » و « شلير ماخر » ، والأشعار الوطنية التى ينظمها كتاب من أمثال « أرندت » أعز الى نفس ذلك الجيل من النظرة العالمية لعالمقة العصر الكلاسيكى « كانت » و « شيلر » و « جوته » . وقد عززت رابطة الفضيلة (Tugendbunt) التى تأسست بكونيجزبرج فى ١٨٠٨ المشاعر الوطنية والمثالية اللازمة لانتصار القضية الوطنية . وآزرتها فى عملها جمعية الألعاب الرياضية التى أسسها ف . ل . ياهن ، والتى كانت - على ما فى الكثير من مظاهر نشاطها من سخف ورغم أن نفوذها على رأى العام لم يكن فى الأغلب بالدرجة التى صوره بها البعض - بين القوى التى حركت رأى العام الألمانى فى تلك الحقبة وأيقظته .

وثمة ظاهرة مميزة أخرى لا يفوتنا أن نلاحظها ونحن فى مجال الحديث عن إعادة تنظيم بروسيا . لقد كانت أهمية التعليم فى تدعيم

قوة الدولة بل قوتها العسكرية ، عقيدة آمن بها البروسيون قبل أن تصبح فكرة مقبولة في سائر بلاد أوروبا . والمراحل الرئيسية في تقدم قوة بروسيا قد اقترنت دائما بتأسيس الجامعات . وهاهي ذى جامعة برلين تؤسس الآن عندما تجاسرت بروسيا ، ساعة انكسارها التام ، على الأمل في التحرر والنصر . كانت جامعة « هال » هى الجامعة الرئيسية في أراضى برندنبرج القديمة حتى ذلك التاريخ ، ولكن هال وقعت الآن تحت نفوذ نابليون ، وعطل نشاطها بعض الوقت فالتجتهت النية الى انشاء مقر جديد للعلم في برلين ، ورغم أن الفكرة قد صادفت بعض المعارضة التى تستند أساسا الى أن حياة العواصم الكبرى لا تهيم الجو الصالح للدراسة ، فقد قبل الاقتراح وبدأت هذه الجامعة التى كانت - ومازالت - لها أهمية بالغة في الفكر الأوروبى ، بداية متواضعة نسبيا . ولكنها اجتذبت منذ نشأتها الأولى رجالا ذوى مكانة بارزة ، ولم تلبث أن استقرت في أحد القصور ومنحت اعانة مناسبة من الدولة .

وضح اذن أن بروسيا ينبغي أن يحسب حسابها . لقد وافق نابليون بادىء الأمر على تعيين شتاتين في خدمة الحكومة البروسية ، اذ كان يعتقد فيما يبدو أن بروسيا عاجزة عن النهوض من كبوتها ، ولكنه أدرك فيما بعد دلالة الحركة الجارية في بروسيا وخطرها ، فأصر على عزل شتاتين ومصادرة أملاكه ، فما كان من الأخير الا أن انتقل الى خدمة قيصر روسيا واستمر في مناهضة نابليون .

وقد اضطر نابليون قبل أن يكتمل استعداد بروسيا لدخول الحرب من جديد بزمين بعيد ، الى امتشاق الحسام ضد دولتين آخرين أضعف منها هما أسبانيا والنمسا . وقد اضطبغت الحرب ضد هاتين الدولتين بصبغة تميزها تماما عن الحروب الأولى التى شنتها الجمهورية الفرنسية وخاض غمارها نابليون . فقد أصبح على نابليون الآن أن

يحارب لا الحكومات والجيش الرسمية فحسب وإنما الشعوب أيضا ، التي أخذت تضطلع بدور تلقائي في الحرب . وليس بوسعنا بعد أن نتحدث عن نمو الروح أو المشاعر القومية ، ولكن ما حدث في تلك الأيام كان تمهيدا لذلك . فقد وجد الرجل العادي أن أعمال الديبلاوماسيين والسياسة والقادة العسكريين تمسه مسا وثيقا . ولم تكن مصلحته الاقتصادية هي وحدها التي تتأثر ، فقد أصبح يجد كذلك أن بلاده تعنى شيئا بالنسبة له ، اذ صار يدرك أن هناك رابطة مشتركة تربطه بمواطنيه ، وغدا مهينا لمقاومة الغزاة ، لا بناء على أوامر الحكومة فحسب بل بدافع ذاتي كذلك فضلا عن المزايا المادية والاجتماعية التي قد تقدم له . ان الجيوش الفرنسية الرئيسية لن تهزم . حقا هزيمة تستحق الذكر على يد قوات عسكرية نظامية قبل عام ١٨١٣ ، ولكنها لن تلبث أن تواجه ، في أودية أسبانيا وجبال التيرول ، مقاومة شعبية تنهك قواها الى أقصى حد .

ان قصة الحرب مع أسبانيا قصة شيقة للغاية وملفتة للنظر من جميع الوجوه . فقد كان أبعد شيء عن الاحتمال أن تلقى فرنسا هناك أول وقف حاسم لحزبها في القارة . لقد لعبت أسبانيا حقا دورا عظيما في تاريخ أوروبا ، وكانت جرأة مشاتها وصلابتهم مضرب الأمثال في القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، ولكنها تخلفت طوال قرن كامل في سباق القوة والثروة ، فأصبحت النموذج الكلاسيكي للدولة المضحكة . وقد باءت بالفشل كل المحاولات التي بذلتها حكومتها للتدخل في الشؤون الأوروبية في القرن الثامن عشر ، ولم تظهر بادرة واحدة تشير الى حدوث أي تقدم من حكومتها في النزاهة أو بعد النظر . فلم يكن من المعقول أن يتوقع من الجيوش الأسبانية ابداء أية مقاومة فعالة لفرنسا : ومع ذلك فإن أول بارقة من الأمل في امكان تحرير أوروبا من سيطرة فرنسا النابليونية قد بزغت من أسبانيا

ولقد شاهدنا كيف تبدلت علاقات أسبانيا بفرنسا منذ نشوب الثورة . كان البيت المالك الأسباني فرعا من أسرة البوربون التي يرأسها ملوك فرنسا . وقد ساهمت أسبانيا في الائتلاف الأول ضد الجمهورية الفرنسية ولكنها انسحبت منه في ١٧٩٥ . ثم راحت أسبانيا تنجذب أكثر فأكثر في فلك فرنسا اعتبارا من ذلك التاريخ . فلما انهار صلح اميان قدمت لفرنسا معونة مالية وبحرية ، وأرسلت سفنها الى موقعة الطرف الأغر . وقد أخذ نابليون منذ ذلك الحين ، يمارس لونا من السيطرة على الأسرة المالكة الأسبانية ، وهذا يفسر لنا الفصل التالي من المسرحية . فقد كان البيت المالك الأسباني أشبه بصورة هزلية تتجسد فيها كل عيوب الملكية ، وقد هوى الى قرار سحق من الفساد والعجز لم يبلغه قط آل البوربون في فرنسا . فالملك شارل الرابع اشتهر بالعجز الشائن ، فكانت الشخصية المحركة في دوائر القصر هي شخصية « جودوى » الذى كان طموحا بخيلا وعشيقا مفضوحا للملكة . وكانت علاقة هؤلاء الثلاثة أسوأ ما تكون بفرديناند (أمير استورياس) وزوجته النابولية . ولم يكن فرديناند بأفضل من أبيه خلقا أو مقدرة ، ولسوف تبين لنا الصفحات التالية من سيرته كيف تردى في الدرك الأسفل من الجبن والخيانة ، ولكن عداؤه لأبيه و « جودوى » كان أمرا معروفا ، وكان في ذلك ما يكفى لجعله بطلا شعبيا تتعلق به الأمة في اخلاص مثير لثرء اذ جوزيت عنه جزاء سنمار . لم تبد الأسر المالكة الاسبانية اذن أى مظهر من مظاهر الوطنية أو الفضيلة ، فكانت الحاجة ماسة الى عاصفة الثورة لتطهير تلك الاصطبلات القذرة . ولسوف تجد روح فرنسا الثورية أشياء كثيرة تستطيع أن تغيرها تغييرا يعود بالنفع على البلاد ، فالتجارة كانت تخنقها قيود عتيقة ، والامتيازات الارستقراطية كانت بنفس الضخامة والسخافة التى كانت بها في فرنسا ، والحياة الفكرية كانت

تعانى من التبلد والخمول . ولعل أقوى مشاعر الشعب الواعية كانت
مشاعر الولاء للكنيسة ومنها سيستمد الكثير من قوته وتماسكه في
النضال العظيم الذى لن يلبث أن ينشأ . ولكن الكنيسة نفسها كانت
فاسدة غير مستنيرة ولا انسانية ، ولا تزال متشبثة بمبادئ محاكم
التفتيش وان قل الاضطهاد فى الآونة الأخيرة . كانت الحاجة اذن ماسة
فى البلاد الى مبادئ دستور ١٧٩١ وتقنين نابليون المدنى ، وكان
هناك قطاع هام ، وان يكن صغيرا ، من الشعب على أنهم استعداد
للترحيب بها .

وكان نابليون يحسب أن أسبانيا لن تبدي مقاومة أكثر مما أبدت
إيطاليا ، اذ كيف يتصور أن يتوفر ولاء الأمة لمثل هذا البيت المالك
الذى أخفق فى أداء كافة واجبات الملكية ، فلم يعد قائدا لجيوش
أسبانيا ولا ممثلا للوحدة القومية ولا مدافعا عن قضية الشعب فى
مجموعه ضد مطالب طبقة بعينها ؟ لقد قال نابليون : « اننى سأخط
على رايتى شعارات (الحرية ، والخلص من الخرافات ، والقضاء
على طبقة النبلاء) ، فأستقبل هناك كما استقبلت فى إيطاليا وتنحاز
الى جانبى جميع الطبقات ذات الروح الوطنية . لسوف أخرج هذا
الشعب الذى كانت له فى يوم من الأيام نزعات كريمة ، عنوة من
سباته ، وسوف تشاهدون كيف أنهم سينظرون الى كمبرر . وهذا
ما كان يعتقد فعلا ، وكانت تعزز رأيه حجج قوية . بيد أن السر فى
هزيمة نابليون وخيئته المريعة فى أسبانيا انما هو فى أنه أيقظ فى شعب
أسبانيا عاطفة القومية . لم تكن أسبانيا مثل إيطاليا مقسمة الى دول
منفصلة وخاضعة لحكم الأجنبى ، فلم تكن بحاجة الى أن تعود
بأبصارها الى الوراء أو أن تتطلع الى المستقبل البعيد لترى نفسها
موحدة . لقد كانت تعاني من الفقر وسوء الحكم ، ولم تكن ذات
شأن كبير بين دول أوروبا العظمى ، ولكنها كانت ، بالرغم من قوة

الشعور المحلى فى الأقاليم ، متحدة أبية تمقت الاجانب من أى نوع ، فصممت على ألا تخضع للحكم الأجنبى . وكانت خميرة الثورة الفرنسية قد بدأت تفعل فعلها فى سكان أسبانيا ، ولكن هيه الحقيقة نفسها قد انقلبت ضد نابليون ، فقد راح الأسبان يستصرخون العالم باسم الحرية والاخاء والمساواة ضد طاغية يحاول أن يفرض عليهم حكما أجنيا وأن يبذر بينهم بذور الشقاق .

لقد كانت لدى نابليون أسباب وجيهة لاختيار سياسة الحكومة الأسبانية والاستهانة بها ، فكان أن وقع فى خطأ طبيعى هو الخلط بين الحكومة والأمة ، وظن أن غزو البلاد برمتها سيتم فى يسر وبشمن زهيد . وقد أسدت الأسرة المالكة الأسبانية لنابليون خدمة ما كانت لتستطيع أن تسدى اليه خيرا منها لو أنها كانت تهدف - عن وعى وادراك - الى خيانة أسبانيا والقائها بين أيدي فرنسا ، فقد استجار الأمير فرديناند فى عام ١٨٠٧ بنابليون طالبا منه أن يمنحه حمايته الأبوية . وأن يفتح أعين « والدى الطيبين المحبوبين » . فما ان سمع الملك والمملكة بهذا النداء حتى ناشدا هما الآخران نابليون أن يعيتهما فى تسوية متاعبهم العائلية ، فشعر أنه ممسك بهم فى قبضة يده ، وراح يحلم بضم البلاد . وبدأ بارغام أسبانيا على خوض الحرب ضد البرتغال بغية حرمان الانجليز من اللوانى التى كانت تصل عن طريقها بضائعهم الى أسواق أوروبا بالرغم من مراسيم برلين .

وقد نجحت الحملة فى تحقيق أغراضها وأتاحت لنابليون ادخال أعداد ضخمة من القوات الفرنسية فى البلاد بحجة تدعيم مركزها فى الحرب ضد البرتغال ، وبذلك أصبحت أسبانيا فى حيازته تقريبا من الوجهة العسكرية . ولم ير كيف أن وجود جيوشه قد أخذ يثير ضده مشاعر هذه البلاد التى لم تكن عدائية نحوه بادىء الأمر ، بل راح يتهيجن الفرصة ليضرب ضربته قواته فى ١٨٠٨ . ذلك أن الخصومة

اللعيفة التى كانت حبيسة فى صدور الأسرة المالكة قد أسفرت فى النهاية عن صراع مكشوف . فقد احتشد جمع من الأهالى فى « أرانجيز » حيث كانت تقيم الجماعة الملكية وهاجموا مقر جودوى . ذلك العميل الملكى البغيض الذى كانوا يرون فيه بحق السبب الأول فى هوان البلاد ، فأفزع تصرفهم الملك الشيخ ودفعه الى توقيع وثيقة تنازل عن العرش لابنه فرديناند الذى هلت له البلاد بأسرها بوصفه الرجل الذى تقع على عاتقه مهمة بعث أسبانيا وتحريرها . ولكن الملك لم يلبث أن تراجع عن قرار النزول عن العرش فى خطاب الى امبراطور الفرنسيين الذى لا يعلو على سلطانه أحد ، وأعلن أن هذا التنازل قد انتزع منه بالتهديد . فما كان من نابليون الا أن استغل الفرصة السانحة الى أقصى حد . فحمل فرديناند بالخديعة والقوة على الحضور اليه فى « بايون » ، وقد لحق به الى هناك الملك والمملكة وجودوى . وواجه نابليون فرديناند برفضه الاعتراف به ملكا على أسبانيا وهدده بمحاكمته بتهمة الخيانة العظمى ، ثم دفع الملك الشيخ شارل الى توقيع معاهدة ينزل بموجبها عن جميع حقوقه فى عرش أسبانيا لامبراطور الفرنسيين ، وبذلك بات فى امكانه أن يدعى أن العرش الأسباني قد آل اليه بطريقة مشروعة .

لقد صار نابليون فى مركز لويس الرابع عشر عام ١٧٠٠ ، فقد أصبحت أسبانيا خاضعة لسلطان فرنسا . « ولم يعد لجبال البرانس وجود » . لاشك اذن فى أن القارة بأكملها ستجثو الآن عند أقدامه ، وفى أن شوكة بريطانيا ستتكسر آخر الأمر ! ولكن أسبانيا خيبت آماله مثلما خيبت آمال سلفه لويس الرابع عشر .

لقد كانت سياسته فى أسبانيا هى أعظم أخطائه . فقد أساء فهم المشكلة التى كان عليه أن يواجهها بأكثر مما فعل فى أية جهة أخرى فيما فى ذلك روسيا نفسها . فلم ير - وربما لم يكن بوسع أحد فى

أوروبا أن يرى - مدى انفصال أسبانيا عن حكومتها وقدرتها على المقاومة من تلقاء نفسها ، وما في التغلب عليها في جبالها وسهولها القاحلة من صعوبة بالغة . لقد كانت العاطفتان الرئيسيتان عند الشعب الأسباني هما الدين والعزة القومية ، فدفعته العاطفتان الى مقاومة الفرنسيين بعناد . لم تكن هناك حقا حكومة تتكلم باسم أسبانيا كلها ولكن حياة أسبانيا الاقليمية والمحلية كانت نشطة ، فراححت الأقاليم والمدن تعلن تلقائيا رفضها لحكم نابليون . وما ان أعلن اقليم استورياس الصغير الذي لا يتجاوز سكانه نصف مليون نسمة ، الحرب الرسمية ضد نابليون حتى أعلنت بريطانيا استعدادها لتقديم المعونة له وأسرت بارسالها فعلا . لقد كان نابليون خالي الذهن تماما من قسوة المهمة التي تنتظره . وآية ذلك أنه قال « لو أنى قدرت أن الأمر سيكلفني ٨٠٠٠٠ رجل ماشرت في القيام به . ولكنه لن يكلفني أكثر من ١٢٠٠٠ » . غير أنه في الواقع كلفه نصف مليون رجل وربما عرشه أيضا !

ان مجرى هذه الحرب يوضح بجلاء كيف تبادل نابليون وأعداؤه أسلحتهم والقضايا التي من أجلها يحاربون . فلقد اقتحم نابليون إيطاليا عام ١٧٩٦ ، باسم الحرية ، ووعد باحلال الحياة الدستورية محل الحكم الاستبدادي ، وقاد هناك جيشا قوميا ضد جيوش من النوع القديم المرتزق . بمعنى الكلمة . ولكن أسبانيا هي التي أخذت تنشد الآن الحرية ، وتطالب بحاكم تختاره بنفسها ، ومنها ستجىء أشهر التجارب القادمة في وضع الدساتير .

لقد أظهر نابليون باستدعائه أخاه جوزيف من عرش نابولي وتنصيبه على عرش أسبانيا أنه يعتبر خلع الأسرة المالكة الأسبانية قضاء مقضيا لا رجعة فيه . فكان الامر بمثابة طاغية ينصب طاغية ، أما الأوضاع الدستورية التي وعد بها فانها لم تر النور قط . وقد تولت المقاومة في

أسبانيا بادىء الأمر لجان محلية (juntas) تألفت منها فى ١٨٠٨
اجنة مركزية عليها . وفى ١٨١٠ دعى « الكورتيز » (برلمان أسبانيا)
الى الانعقاد ، تحت ضغط الشعب ، فى قادس بناء على نظام انتخابى
كامل متحرر ، فشكل الأعضاء من أنفسهم جمعية تأسيسية ورسوموا
للبلاد شكلا للحكم على غرار ما جاء فى دستور الثورة الفرنسية
الأول ، أقرت فيه سيادة الشعب وحرية الفرد والصحافة . وأعلن تحريم
التعذيب واصلاح الشئون المالية ، ووضع السلطة التشريعية فى يد
«الكورتيز» الذى تقرر أن يشكل - احتذاء بالمثل الذى ضربته فرنسا -
عام ١٧٩١ - من مجلس واحد ينتخب بطريقة معقدة أساسها على أى
حال الانتخاب العام للرجال . أما السلطة التنفيذية فقد وضعوها فى
أيدي ملكية وراثية تظل فى أسرة فرديناند الذى كان لا يزال محبوبا . وقد
أصبح دستور ١٨١٢ هذا الشعار للأحرار فى الجيل القادم . فلم يكن
فى أوربا يومئذ دستور آخر ينص بصراحة على الانتخاب العام للرجال
وقيام مجلس واحد ، وهو لم يقصر عن تحقيق مطالب الناس فى أوربا
الا فى نقطة واحدة - وهى نقطة تحمل طابعا أسبانيا خالصا - فقد
أعلن أن العقيدة الكاثوليكية هى وحدها العقيدة الصحيحة والديانة
الدائمة لأسبانيا ، وعلى ذلك لا يسمح بقيام أى شكل من أشكال
العبادة الاخرى فى البلاد .

لم يكن ثمة مناص اذن من أن يحكم السيف بين السياستين
المتعارضتين . وقد قدمت بريطانيا معونتها للأسبان منذ البداية، ولكن
هؤلاء تمكنوا بمفردهم من الحاق أول هزيمة جدية بجيوش نابليون
قبل أن يبدأ ولنجتون مقاومته العنيدة التى أدت فى النهاية الى
تحقيق النصر الكامل . وكان ذلك فى موقعة « بايلين » الشهيرة فى
يوليو ١٨٠٨ . فقد صدرت الأوامر للقائد الفرنسى «ديبون» بالخروج
من مدريد لاحتلال أشبيلية التى كانت فى أيدي الوطنيين ، فأحرز

عددا من الانتصارات الأولية في الطريق جعلته يستهين بقدرات الأسبان العسكرية ، وحصل جنوده على أسلاب كثيرة راحسوا يجرونها وراءهم في صف طويل من العربات ، ولكن قوات العدو لم تلبث أن قطعت عنه الامدادات والماء . ورغم ذلك فقد كان بوسع القائد الفرنسى ، في رأى النقاد العسكريين ، أن ينقذ الموقف لو أنه أظهر شيئا من الهمة والشجاعة . ولكنه آثر التسليم بقواته البالغ عددها ٢٠.٠٠٠ رجل ، فاهتزت أوروبا للنبا العجيب ، الا وهو استسلام قائد من قواد نابليون أمام جيش من الاسبان الازرياء . ولو أن أوروبا الوسطى حملت هى الأخرى سلاحها في تلك اللحظة لحلت به الهزيمة التى ستودى به فى « ليزج » و « واترلو »

لقد كان الموقف خطيرا الى درجة دفعت نابليون الى المجيء بنفسه لتولى القيادة ، فرد للجيش الفرنسية هيبته واحتل مدريد من جديد . وأعاد الى العرش شقيقه جوزيف الذى كان قد فر اثر معركة بايلين ، ودانت له العاصمة بالولاء الظاهرى . وكان سير جون مور قد تقدم فى زحفه على رأس الجيش الانجليزى فبلغ المنطقة المجاورة للعاصمة ، ولكنه استدار الى الساحل عند ذبوع نبا حضور نابليون ، وأفلت بصعوبة بجيشه الى كرونا . ولو كان بوسع نابليون أن يبقى فى أسبانيا مع الجزء الأكبر من جيشه لسارت الأمور - على الأرجح - على ما يرام . ولكن امبراطوريته الشاسعة الأرجاء كانت تتطلب اهتمامه ، وسرعان ماستطرا أحداث على الدانوب تستنزف جانبا ضخما من قواته .

لقد ألقى قواد نابليون ، وعلى رأسهم سولت وناى ، أنفسهم أمام مهمة رهيبة بعدما اعترى قواتهم من نقص . وقد قال الملك جوزيف يصف الحال « انه بلد ليس كمثله بلد ، فنحن لا نجد فيه من يقبل أن يكون جاسوسا لنا أو رسولا لنا » . وتبين مذكرات ماربو مدى (١٦)

الخطر الذى تعرضت له فصائل الجيش الفرنسى أثناء حياتها وسط سكان يضمرون لها عدااء شرسا . ان الأسبان لم يظهروا حقا استعدادا كبيرا للدخول فى عمليات الحرب النظامية ، وكان افتقارهم الى الدقة فى المواعيد وتفكك تنظيمهم يشير أعصاب ولنجنون الى حد الغليان فى بعض الأحيان ، ولكنهم شنوا الحرب غير النظامية بمثابرة ومهارة رائعة ، وأظهروا احتمالا خارقا وحماية نادرة فى الدفاع عن مدنها . وان حصار سرقسطة ليعد من أعظم الأعمال البطولية فى صحائف تاريخ أوروبا . اذ كان الدفاع عن المكان يبدو مستحيلا تقريبا ، ولكن المواطنين والجنود الأسبان دافعوا عنه فعلا ضد الجيوش الفرنسية وتمكنوا من إيقافها عند حدها من يونيو الى أغسطس حين جاءهم الغوث . ان أسبانيا «الصلبة التى لا تقهر» قد أبدت مرارا ، منذ عهد الرومان ، استعدادا طيبا للحرب غير النظامية . وقد كان لمعونة البريطانيين أقصى قيمة ممكنة فى الصراع ضد نابليون ، اذ وقع عبء العمليات الحربية النظامية على عاتقهم . ولكن المقاومة التى أبدتها الأسبان أنفسهم كانت أعظم مما يعترف به أحيانا . فان أسبانيا لم تبد فى أى يوم من الأيام ، ولا حتى فى ساعات الكرب والهزيمة ، أدنى استعداد لقبول النظام النابليوني أو جوزيف ملكا . وقد وصفت الحرب الأسبانية - عن حق - بأنها السرطان الذى استنزف قوة نابليون ، وقد دارت هذه الحرب فى وقت كان الموقف فى أوروبا يتطلب فيه كل عنايته وسرعان ماسيتطلب كل قوته .

لقد خلفت هزيمة بايلين وظهور الاخطار والصعوبات التى لا تنتهى فى أسبانيا أثرا عميقا فى أوروبا الوسطى . فتبادر الى ذهن البعض فى بروسيا والنمسا معا أن الوقت قد حان لقيام ثورة عامة ضد الحكم الفرنسى . ان هذه الثورة لم تحدث ، ولكن نابليون لم يكن غافلا عن الاخطار التى لم تكن بادية للعيان . وان من شؤم طالعه - بل

فإن ذلك قدر محتوم على من كان في مركزه - أن كل نصر يحققه كان بضيف إلى متاعبه ويجلب في طياته أسباب قيام حرب أخرى . وثمة فكرتان رئيسيتان كانتا تسيطران على سياسة نابليون في تلك الفترة هما : الحرب في أشد عنفها ضد بريطانيا ، وقيام تحالف وثيق بينه وبين روسيا . وكانت الفكرتان مرتبطتين أحدهما بالآخرى أشد الارتباط في ذهنه . كان لا يزال يؤمن بإمكان القضاء على قوة بريطانيا البحرية والتجارية بهجوم غير مباشر . ورغبة منه في اقناع العالم برسوخ سلطانه ، والجيلولة دون نشوء أية حركات جديدة ضده في ألمانيا ، دبر اجتماعا مع القيصر اسكندر في « ايرفورت » . فكان الاجتماع مشهدا يسجل ذروة مجده ، ففيه استعرضت فرنسا لا قوتها العسكرية فحسب وإنما أيضا عظمتها العلمية والأدبية والفنية والمسرحية . وظهر القيصر والامبراطور الفرنسي أمام الناس بمظهر الأصدقاء الحميمين ، واحتشد أمراء اتحاد الراين وملوكه لتحية الرجل العظيم الذي منه تلقوا ألقابهم واستمدوا سلطانهم . ووافق الكثيرون من قادة الفكر في ألمانيا على الحضور ، وكان بينهم «جوتة» الذي وجد نابليون واسكندر متسعا من وقتها لزيارته في «فيمار» . وقد أنعم نابليون عليه وعلى الشاعر والروائي العجوز « فيلاند » بوسام « جوقة الشرف (١) » . لقد نظم اجتماع ايرفورت تنظيمًا خلابا وكان فرصة لإعلان الولاء للقائم الفرنسي بصورة قوية التأثير في النفوس .

وقد أنجزت وسط تلك الولائم والاحتفالات والعروض المسرحية ، أعمال جديدة كثيرة أو بذلت المحاولات لانجازها . وفي هذا المضمار لم يكن نجاح نابليون عظيما بنفس الدرجة . لقد كان تاليران أبرز عملائه ، ولئن كان ثمة شك في أن تاليران قد خانه في تيلسيت فلاشك

مطلقا في أنه خانه في ايرفورت . ذلك أنه كان موقنا من أن سلطان سيده مزعزع ، فحاول أن يضمن لنفسه الحماية اذا ماسقط ، وذلك بإفشاء أسرار الدولة الى روسيا بل والى النمسا أيضا . وقد حاول نابليون بادىء الأمر أن يبهر القيصر بالتلويح له بانضمامه (أى نابليون) اليه في هجوم مشترك على ممتلكات سلطان تركيا بغية تقسيم أراضيه . ثم انتقل من ذلك الى ابداء الرغبة في أن ينضم اليه القيصر في مقاومة جميع الحركات التي من شأنها أن تهدد سلطان فرنسا في أوروبا الوسطى . وهنا لم يتمكن من الحصول على أى شيء نهائى قاطع من القيصر . لقد كان التحالف بين نابليون واسكندر غير طبعى حقا . فقد كانت تفصل بين الرجلين وبلديهما هوة سحيقة . ورغم الاحضان والمجاملات التي تبادلها في ايرفورت ، فقد بدأت العلاقات بين الرجلين في الفتحور ، وتسلمت الى مراسلات نابليون مع القيصر ومنذوييه نبرة من الحنق والشك . كانت الأرض تهتز في كل مكان تحت أقدام الامبراطور الفرنسى . وقد فقد حيال القوى الجديدة التي أخذت تدخل الحلبة - قوى الفكر والدين والمصلحة الاقتصادية - الكثير مما عهد عنه من صفاء البصيرة . فلم يعد يملك قدرته على « تمييز الممكن من غير الممكن » ، ولم ير علاجاً للأمور الا باستخدام القوة العسكرية ، في وقت كان الموقف فيه مستعصيا على الحلول العسكرية . وأحس نفسه محوطا في الداخل بولاء فاتر أو خيانة فعلية . ولم يكن تاليران بالخائن الوحيد ، فقد كان هذا على صلة وثيقة بفوشيه رئيس شرطة نابليون العظيم . فلما وصلت أنباء البلايا التي حلت بفرنسا في أسبانيا ، اتفق الاثنان على التدابير التي تتخذ في حالة سقوط نابليون . وقد نمت الى علم نابليون من ذلك ما حفزه الى اقضاء تاليران نهائيا من دائرة أعوانه المقربين . ولكن العشور على الاخلاص الصادق صار أمرا متعذرا . وأخذ ماريشالاته الذين

أسبغ عليهم الكثير من نعمائه يتأهبون للتخلي عنه . وتفشت روح أشبه بالخيانة بين أفراد عائلته أنفسهم .

ومن العجيب أن تلعب النمسا دورا رئيسيا في هذا العصر الذى اتخذت فيه المقاومة ضد فرنسا شكل الحركات الشعبية والقومية ، ذلك أن الملكية النمساوية كانت النقيض على التمام للقومية ، ولسوف تلقى مصرعها آخر الأمر بانتصار القومية . بيد أن دافع امبراطور النمسا الى العمل لم يكن الانتصار للقومية ، فان صلح برسبورج الذى وقعته بلاده مع فرنسا بعد موقعة أوسترلتز ، قد تركها دولة لا حول لها ولا قوة في أوروبا ، وقد شعرت بأن نوايا نابليون تشكل خطرا جديدا عليها . فظهرت فيها حركة احياء كانت أشبه بانعكاس باهت لما يجرى في برلين . وأعيد النظر في نظام الجيش . وقام الأرشييدوق شارل والكونت أوف ستاديون بالدور الرئيسى في هذه العملية ، بل لقد وافق الامبراطور والامبراطورة نفساهما على استشارة ولاء شعبهما على نحو ما . وبدأت المفاوضات مع كل من روسيا وروسيا . وقد زود تاليران المفاوضين بمعلومات مشجعة .

حز نابلليون ماتفعله النمسا فسبقها الى اعلان الحرب عليها . وراح يصف الصراع المقبل بأنه غير ذى أهمية ، ويتحدث عن النمسا وجيوشها بازدراء « لسوف ألطمها على أذنيها الاثنتين فتشكرنى وتسألنى عما عندى من أوامر » . ولكن جهوده لاجتذاب القيصر الى التعاون الصادق قد ذهبت أدراج الرياح . لم يكن بوسع القيصر حقا أن يرفض التزام الوعد الذى بذله في ايرفورت ، ولكنه أشعر القادة النمساويين بأنه لن يوجه اليهم ضربة قوية .

وأظهرت جيوش النمسا المزدرى بها مقاومة مستميتة تفوق كل ما واجهه نابليون من قبل . حقا ان الفرنسيين قد انتصروا بسهولة في الجزء الأول من حملتهم على بافاريا وتمكنوا من الاطاحة

بالنمساويين واخراجهم من ديارهم محملين بخسائر فادحة فيما عرف باسم « حملة الأيام الخمسة » رغم أن هؤلاء كانوا يحاربون تحت قيادة الأرشيديوق شارل الذى سيثبت فيما بعد أنه غريم لا يستهان به لنابليون . ولكن الأمر اختلف عندما اقترب نابليون من فيينا . فقد أسفرت محاولته الأولى لعبور الدانوب عن نشوب موقعة « أزبرن » Aspern العنيفة الدامية فى مايو ١٨٠٩ ، وفشلت فى تحقيق غايتها . فسرت - سريان النار فى الهشيم - اشاعة تصف الموقعة بأنها بايلين جديدة ، وتردد أن الفرنسيين قد هزموا هذه المرة تحت قيادة نابليون نفسه . ولكن نابليون درس الموقف بعناية قصوى وهى لساعته القوارب والكبارى اللازمة وخدع النمساويين فى أمر النقطة التى يزمع عبور النهر منها فكان أن عبره فى أمان . ثم تلت ذلك فى يوليو ١٨٠٩ معركة « وجرام » التى أظهر فيها الطرفان استماتة واصزارا فجاءت النتيجة نصرا كاملا للفرنسيين ، وقد اعتبرها البعض آية براعته الفنية . ولكن عدد القتلى من الجانبين كان هائلا . لقد أخذت صعوبة اخضاع العدو تتجلى أكثر فأكثر بعد كل نصر ، فقد راح يتعلم بسرعة أساليب نابليون نفسه . وفى هذا قال نابليون عندما شاهد تنظيمات العدو فى احدى المعارك التالية « لقد تعلم هؤلاء الأغبياء شيئا » . والحق أن عملية التعلم كانت قد بدأت فعلا وكان نابليون المعلم الأعظم الاوحد لجنود أوروبا . كما أن الجيوش الفرنسية كانت قد فقدت شيئا من صفاتها القديمة ، فلم تعد جيوشا فرنسية بمعنى الكلمة . فقد كانت تحارب بين صفوف الفرنسيين ، أعداد ضخمة من الجنود القادمين من اتحاد الراين وإيطاليا . وكان هؤلاء على حظ من الكفاية والشجاعة ولكنهم يفتقرون الى التلقائية والاندفاع اللذين تميزت بهما قوات الامبراطور فى حروبه الأولى . لقد أصبح نابليون الآن هو الذى يستخدم قوات مرتزقة فى جوهرها،

وأصبح يصادف مقاومة تصطبغ ، بصورة متزايدة ، بالصبغة القومية . ولم تجد محالفة القيصر له نفعا بالمرّة فقد امتنعت القوات الروسية عن الاشتباك في أى قتال حقيقى .

وقد قبل النمساويون ، على نحو غير متوقع بعض الشيء ، صلحا مهينا بعد موقعة واجرام . فقد استشير فى الأمر السياسى النمساوى العجوز « ثوجو » Thugut فأشار بالاستسلام . وقد روى أنه قال « اعقدوا الصلح بأى ثمن فان وجود الملكية النمساوية يتعرض للخطر ، وانحلال الامبراطورية الفرنسية ليس أمرا بعيدا . فققدت الامبراطورية النمساوية نتيجة لذلك ثلاثة ملايين ونصف مليون من رعاياها ، وتعين عليها أن تخفض جيشها الى ١٥٠.٠٠٠ رجل ، وأن تدفع تعويضا حربيا كبيرا . وقد نزلت لنابليون عن معظم ما يعرف الآن بكرواتيا ودالماتيا وسلوفينيا تحت اسم « المقاطعات الايليرية » . وآلت دوقية وارسو الى ملك سكسونيا (صلح شوينبرون . أكتوبر ١٨٠٧) . لقد حاق بالنمسا نفس الاذلال البالغ الذى حاق ببروسيا ، ولسوف يأتى انتقامها ونصرها فى نفس الوقت .

وتمت حوادث ثانوية توضح لنا حالة أوروبا بأفضل مما توضحها المعارك الكبرى . فقد ظهرت - رغم اصرار الحكومة البروسية على التزام السكينة - حركات فردية تدل على مدى تهيو بروسيا لخوض غمار حرب التحرير ، فألف الميجر « شيل » Schill كنيية من الفرسان ، واذا فشل فى الحصول على التأييد فى الداخل اندفع الى « سترالسوند » متوقعا من انجلترا عونا لم يحىء أبدا . وقامت حركات أخرى من نفس النوع فى ألمانيا ، ولكن الروع الذى أدخلته فى النفوس الأسلحة الفرنسية وموقعة واجرام أدى الى اخمادها جميعا . أما حرب التيرول فكانت لها خطورة أشد وأبلغ . فقد كانت التيرول جزءا من ممتلكات النمسا التى نزلت عنها لبافاريا ، ولما جاءت الحرب

هب أهالى التيرول لنصرة حكامهم القدماء من الهابسبورج ، فكان الصراع الذى دار أشبه بصورة مصغرة للحرب الأسبانية ، اذ كان يحدو الفلاحين حب للاستقلال وكرهية دينية لفرنسا . وكان أبرز قادتهم « اندرياز هوفر » وهو صاحب نزل ذو ملكات بدنية وذهنية فذة . وقد أثبت أهالى التيرول أن التغلب عليهم فى قلب بلادهم الجبلية المنيعه أمر بالغ الصعوبة . ذلك أن ثورتهم كانت ثورة شعبية حقيقية . ولم تكن الهزيمة فى المعارك لتترك أثرا كبيرا فى نفوسهم ، بيد أنهم غلبوا على أمرهم بعد موقعة وإجرام بسبب تفوق الفرنسيين العددي الهائل ، فألقى القبض على اندرياز هوفر وأعدم فى ماتتوا . ولكن النذر أخذت تتجلى للكثيرين فى أوروبا .

الفصل الثامن نكبته نابليون

ان الحوادث العسكرية التى سنتناولها الآن بالنظر تؤلف فصلا من أقوى الفصول الدرامية فى التاريخ العسكرى لأوروبا الحديثة ، اذ يتعين علينا أن نقلب فى سيرة الاسكندر الأكبر أو هانيبال لنجد حروبا حافلة بالمصالح الشخصية والعسكرية والقومية كتلك الحروب التى شاهدت سقوط نابليون ونهايته . ولكننا - تمشيا مع الأغراض العامة لهذا الكتاب - سنمر على قصة القتال مر الكرام جاعلين اهتمامنا الأول اعطاء فكرة ما عن القوى التى عملت على سقوط الفاتح العظيم .

ان ماوصف به أحد ملوك فرنسا السابقين من أنه كان « ذا أعوان مخلصين » ، لا ينطبق على نابليون . حقا انه كان له فى المراحل الأولى من حياته العملية أعوان أكفاء فى الحرب والسلام على السواء . بل انه هو نفسه أبدى غيرة من الشهرة التى نالها نقر منهم ، ولكن الكثيرين من هؤلاء قد أخذوا يتسللون من جانبه كلما تقدم به العهد وازداد عدد أعدائه اثر كل نصر ، بل لقد شرعوا يفكرون فى التفاهم مع أعدائه . ولقد رأينا ذلك فى سيرتى تاليران وفوشيه ويمكننا أن نشاهد نفس الاتجاه بين جنوده . لقد أصبح برنادوت مثالا واحدا من ألد أعدائه فى أواخر عهده . وبرنادوت هذا جندى من جنود الجمهورية لم يرحب بصعود نابليون الى السلطة العليا فى انقلاب برومير ، ولكنه تقبله كحاكم جديد لفرنسا ، وأدى خدمات جليلة تحت رئاسته . ورغم أن طريقته فى قيادة المعارك قوبلت فى بعض الأحيان

باننقده اللاذع ، فقد كسب الثراء والمجد والألقاب ، ورفع بعد معركة أوسترلتز الى رتبة الأمير ، فبدا أن مصيره قد ارتبط ارتباطا وثيقا بمصير الامبراطور .

الا أن أحد تقلبات الدهر العجيبة حملته الى عرش السويد وجعلت منه زعيما للأعداء فرنسا . وكان أهالي السويد قد لعبوا دورا كبيرا في حروب أوروبا في القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ، ولكنهم أنهكوا مواردهم وتعرضوا في ربع القرن الأخير للكثير من القلاقل الداخلية . فقد وقعت في السويد في ١٧٨٩ حوادث تشبه الثورة ، أدت الى إعادة توكيد سلطان الملكية الذي كاد يكون مطلقا . غير أن الملك جوستاف الثالث لم يلبث أن قتل في ١٧٩٢ ، ولم يقترب عهد ابنه جوستاف الرابع الا بالفشل في الداخل والخارج . وفي ١٨٠٩ جاءت ثورة أخرى أدت الى خلع الملك ، واحلال عمه محله في الحكم باسم شارل الثالث عشر ، ونظرا لأن هذا الأخير لم يكن قد أنجب أطفالا فقد وقع الاختيار على أحد أعضاء البيت المالكة الدانمركي ليخلفه .

كانت أحوال البلاد تعسة ، فقد أرغمها نابليون على الاشتراك في « النظام القاري » ، فحرمت بذلك من جانب كبير من تجارة بحر البلطيق التابع لها قانونا ، وجلبت على نفسها في الوقت ذاته عداوة بريطانيا ، وعلى أثر معاهدة تيلسيت سلمت فنلندة الى روسيا ، ألحقت النرويج بتاج الدانيمرك كسابق حالها لعدة أجيال . ولما توفي في ١٨١٠ ولي العهد الذي وقع عليه الاختيار منذ فترة وجيزة ، أمل أعضاء الديت في أن يوفقوا الى اختيار يعود على البلاد بمكاسب تجارية وربما اقليمية أيضا . وقد وقعوا في خطأ غريب اذ حسبوا أنهم قد يتمكنون ، اذا ما اختاروا أحد مارشالات نابليون ، من اقناع

الامبراطور بالموافقة على تخفيف وطأة « النظام القارى » لصالحهم .. وقد كانوا يتطلعون على أية حال الى كسب عطف الدولة العسكرية الكبرى الوحيدة فى أوروبا ، ومن ثم فقد عرضوا العرش على برنادوت ، فقبله وحكم البلاد فى النهاية باسم الملك شارل جون ، وان كنا سنستمر فى الاشارة اليه باسم برنادوت .

كان هذا الاختيار خطأ من النوع الذى تنبنى عليه الروايات الفكاهية . فقد كان « النظام القارى » هو محور سياسة نابليون ، فلم يكن من المستطاع بحال اقناعه بالتخلي عنه بمحض ارادته . ثم انه كان غير متيقن من اخلاص برنادوت ، فنظر الى ارتقائه العرش بشئ من الغيرة . وهكذا أدى ذلك الاختيار لا الى صداقة فرنسا المنشودة بل الى دخول السويد فى صراع مرير معها .

ولنعد الى فرنسا ونابليون . اننا لا نجد الآن فيه أثرا كبيرا لبطل الثورة العسكرية القديم والقائد السابق لجيوش فرنسا الوطنية فى حربها ضد « رايات الطغيان الدموية » ، فقد أصبحت جيوشه تضم أشتاتا من الجند ، ينتمون الى قوميات مختلفة ويخدمونه جميعا بحكم الضرورة وحدها . ولم يقترن حكمه فى الداخل الا بظل باهت من الحرية الدستورية . وقد راح يفاخر بصداقته لقيصر روسيا المستبد ولا يخفى اعجابه به . والأكثر من ذلك أنه استغل نفوذه عقب صلحه الاخير مع النمسا ليحصل لنفسه على زوجة نمساوية تحل محل جوزيفين التى طلقها مؤخرا ، لا لأسباب شخصية وانما لأسباب سياسية آملا فى أن تهيء له زيجته الجديدة وريثا لامبراطورية وتضمن له تأييد النمسا لمشروعاته . وهكذا أتت النعيسة مارى لويز من فيينا الى باريس ، وحملت للامبراطور ولدا ، وسرعان ما شاهدت نهيار مجده . وأصبح نابليون بهذا الزواج زوجا لابنة أخى مارى ، انطوائيت ملكة فرنسا التى أعدمت بالمقصلة .

لقد تغير الموقف في أوروبا ولكن هذا التغير لم يأت مطلقا وفق ما يشتهي نابليون . لقد كانت الفرصة الوحيدة لدوام « التسوية الأوروبية » التي وضعها نابليون ، هي في كسب تأييد الرأي العام الأوروبي لها باعتبارها نظاما جلب معه انتصار مبادئ الثورة الفرنسية . ولكن لم تظهر أية دلائل على ذلك التأييد ، بل أخذ الرأي العام يتجه الى مناوأة نابليون بصورة متزايدة ، وأخذ الشعور القومي بقوة ويشدد وقد أكسبته الصعوبات الاقتصادية التي سببها وعاء الخدمة العسكرية الاجبارية التي فرضه على الجميع ، عداء حتى أشد الناس ميلا اليه . وظلت الحرب الأسانية مستعرة الاوار ، وقبل أن يتمكن نابليون من الانصراف اليها بكل قواه وطاقته جاءه من الشرق خطر أشد وأكبر .

كان تحالفه مع روسيا هو الأساس الذي تقوم عليه سياسته الجديدة ، وجزءا لا يتجزأ من خطته ضد بريطانيا ، فاذا به الآن يواجه لا محالة روسيا بل حربا ضدها . ان العلاقات بين نابليون واسكندر لم تتصف قط بالاخلاص والصدق ولا حتى وسط مظاهر الاحتفال في أرفورت . وكان التحالف بينهما خالوا من عنصر الاستقرار ووحدة الهدف (١) فلم يكن نابليون راغبا في حقيقة الأمر الا في استخدام القيصر في تحقيق أغراضه الخاصة وتعزيز مركزه الشخصي في أوروبا . وكانت للقيصر بطبيعة الحال وجهة نظر مختلفة ، وسرعان ما ظهرت أسباب عديدة للاحتكاك . فالقيصر لم يمد لنابليون يد المعونة الحقيقية ابان الحرب النمساوية الأخيرة ، في حين كان في استطاعته — على الأرجح — أن يمنع نشوب الحرب لو شاء . كما أنه لم يبد أي

(١) « والمشكلة في أساسها هو من يستحوذ على القسطنطينية ؟ » هكذا كتب نابليون في (٣١ مايو ١٨٠٨) : وهذا هو أحد أسباب الخلاف بينه وبين اسكندر .

استعداد لقبول محاصرة بريطانيا والتعاون في تنفيذها ، بل على العكس من ذلك كان معروفا أن التجارة البريطانية يسمح لها بدخول روسيا - سرا - في الوقت الذي تفرض فيه - علنا - تعريف جمركية عالية على البضائع الفرنسية التي ترد الى روسيا . ولا كانت شكوى القيصر من نابليون بأقل عدداً أو أضال شأنا . فان زواجه بأميرة نمسوية كان ينهم فيها يبدو عن ميل الى التطلع الى تأييد النمسا بدلا من روسيا . كما أنه لم يراع المواطن الحساسة عند روسيا في أمور أجل ، وأخطر . فعندما ضم هولندا وشمال غرب ألمانيا في ١٨١٠ كى يسد الباب في وجه التجارة الانجليزية ، احتل فيما احتل دوقية أولدنبورج التي كان ولي عهدا صهرا للقيصر ، فكان أن غضب القيصر بطبيعة الحال . وثمة مسألة أخرى كانت أقرب الى حدود روسيا وأخطر شأنا . فقد أدمج نابليون معظم الأراضي البولندية التي حصل عليها من بروسيا - ومن النمسا فيما أسماه « دوقية وارسو » . كانت الحكومة الروسية دائما حساسة بصفة خاصة لما يجري في بولندا ، فقد كان بين رعاياها ملايين البولنديين الذين قد تترك فكرة الاستقلال أثرا غير مستحب في مخيلتهم . ولقد وعد نابليون بأن اسم بولندا لن يعود الى الظهور على الخريطة ، ولكن دوقية وارسو لم تكن سوى بولندا تحت ستار واه . فاستاء القيصر أبلغ الاستياء من سياسة نابليون البولندية ، ولعل المسألة البولندية كانت أهم أسباب النزاع جميعا .

لم يكن في مقدور الدبلوماسية أو التحكيم أن يحولا دون وقوع الصدام . فاذ أخذ الاستياء يتحول الى عداوة راح كل من الجانبين يعمل كالمحموم لانشاء المحالفات والحصول على التأييد العسكري . لقد أبقى الخوف قلب أوروبا في ركاب نابليون ، ولكن أحدا لم يكن ليجعل أن النمسا وبروسيا ستفلقان من قبضته ساعة الهزيمة . وقدمت

روسيا العروش للبولنديين على أمل كسبهم الى صفها ، ولكن هؤلاء كانوا الشعب الوحيد الذى تطلع بعين الحماسة ، الى الأمل فى نصر فرنسى جديد يحقق حلمهم فى قيام مملكة بولندية مستقلة . وقد صادفت روسيا نجاحا أكبر مع دول الشمال ، فاكتملت الى صفها برنادوت حاكم السويد الجديد بأن وعدته بالسماح له بضم النرويج . فبات يعد - من الآن فصاعدا - ألد أعداء نابليون ، وقد جلب معه للحلفاء خبرة قيمة بطبيعة الجيش الفرنسى وأساليبه . وعقدت بريطانيا معاهدة مع السويد وروسيا وقدمت - كمعادتها - مساعدات مالية . على أنه كان للقيصر حلفاء أثمن حتى من السويد أو بريطانيا ، فبعد المسافة وقسوة المناخ وقلة كثافة السكان وقوة الشعور الوطنى فى روسيا - كانت أعداء لا يقوى نابليون على قهرها .

وفى آخر يونيو ١٨١٢ اجتاز الجيش الأعظم نهر نيمن مقسما الى أربع فرق رئيسية قوامها حوالى ٦٠٠.٠٠٠ رجل ، فبدأت بذلك عملية غزو روسيا . لقد كانت القوات الغازية هائلة العدد حقا وإن لم تكن أضخم قوات جمعت تحت قيادة واحدة حتى ذلك الزمان ، وسيشهد التاريخ فيما بعد جيوشا تجاوزت هذا الرقم بكثير . وكانت قوات القائد الروسى باركلى أقل من نصف القوات الفرنسية ، فانسحب أمامها . وقد زحف نابليون حتى بلى فيتسرك Vitebsk التى تقع على وجه التقريب فى منتصف مسافة الخمسمائة ميل الفاصلة بين نهر نيمن وموسكو . وهناك راودته فكرة التوقف لتنظيم شئون المنطقة الشاسعة التى تركها له العدو ولكن الاخطار كانت محدقة به من كل جانب ، ثم ان الأمل فى تسوية جميع مشاكله باحراز نصر كبير واستسلام القيصر له قد أغراه بالمضى قدما فى زحفه نحو موسكو . وكان جيشه قد نقص نقصا خطيرا بسبب المرض وقرار الجند واضطراره الى اقامة الحاميات فى المناطق التى يمر بها . وقد

صمم الروس الآن على القتال . وحل كوتوزوف محل باركلي ، ووقف الجيش الروسى متربعا على ضفتى نهر برودوين (سبتمبر ١٨١٢) وجاءت نتيجة المعركة الدامية التى تلت نصرا لنابليون اذ انسحب الجيش الروسى وترك الطريق الى موسكو مفتوحا تماما ، ولكن خسائر نابليون بلغت ٤٠.٠٠٠ رجل ، بينما كانت خسائر الروس اقل من ذلك . وبعد فترة وجيزة دق نابليون أبواب موسكو متوقعا الظفر باستسلام رسمى . ولكن هذا الاستسلام لم يأت ، فدخل مدينة مهجورة خاوية على عروشها ، وعسكر فى الكرملين قصر القياصرة التليد ، فبدأ أنه بلغ فى تلك اللحظة ذروة انتصاراته .

على أن نابليون كان يعلم كم كان ذلك النصر وهميا . فان رسالة .الم تصله من سان بطرسبورج . وقد نشب فى موسكو حريق هائل - ليس بطريق المصادفة - فأتى على كميات قيمة من مؤن الرجال والجياد . ولعله كان فى استطاعة نابليون أن يقضى الشتاء بموسكو ثم يعود الى أوروبا عندما يأتى الربيع بدفئه وطعامه . ولكن ذلك المسلك لم يكن ليخلو من الاخطار على أية حال ، ثم ماذا عساه يحدث فى أوروبا أثناء غيبة نابليون ؟ . لقد بات واضحا أن هذه الحرب ليست حريا ضد الجيوش أو الحكومات ، والله قد أصبح عليه أن يقاتل الشعوب . فما ان وصلت الأنباء الى باريس حتى انشقت الصدور عن صيحة واحدة « انها حرب أسبانية أخرى ! »

لقد بدأ الانسحاب فى ١٩ أكتوبر . وكان نابليون يأمل فى أن يشق طريقه الى أقصى الجنوب ، وأن يعود من طريق تتوفر له فيه المؤن ، ولكن كوتوزوف سد هذا الطريق فى وجهه عند جاروسلافتز وتمكن من صد هجمات الفرنسيين . فاضطر نابليون للرجوع الى نفس الطريق الذى سلكه فى زحفه على موسكو وكان قد جرده تماما مما فيه من مؤن . فكان ذلك كهيلا بالقضاء الأكيد على جيشه . وقد حل

الشتاء الروسى فى ٥ نوفمبر . وكان الجيش الفرنسى قد خسر عدة آلاف من الجند بسبب البرد والمرض والفرار . ولكن أبشع مافى الأمر لم يكن قد أتى بعد . فقد قدرت خسائر نابليون عند بلوغه نهر نيمن فى ١٣ نوفمبر بـ ١٧٠.٠٠٠ قتيل . وهذا كل ما يسعنا أن نذكره عن هذه المأساة التى لا يكاد يوجد لها نظير فى التاريخ .

لقد استمعت أوروبا الغربية بدهشة يشوبها عدم التصديق للأنباء الآتية من موسكو . ولكن ما ان اتضح أن نابليون قد كابد هزيمة حاسمة وخسائر كفيفة بأن تشل من حركته حتى سرت فى النفوس هزة عامة سرعان ما اتخذت شكل المقاومة الواسعة النطاق . ودخلت الجيوش الروسية ألمانيا تحت قيادة القيصر نفسه ، وفى صحبته « شتاين » المصلح الروسى الذى أقصته عن روسيا أوامر نابليون ، والذى راح يدعو الآن إلى المقاومة الوطنية باعتبارها واجبا أساسيا . ولم يئأس نابليون بحال من استعادة قواه بعد نكبته فى روسيا ، فأخذ يدعو فرنسا أن تبذل له أقصى ما تملك من الرجال والمال . ورغم أنه سم يكن هناك استعداد عام لاطاعته ، ورغم أن روح التمرد قد تحركت فى لافندية وجهات أخرى من البلاد ، وأن القصص قد ترددت عن رجال هشموا أسنانهم أو بتروا ابهامهم للتهرب من الخدمة العسكرية إلا أن الخطر العظيم الذى كان يهدد فرنسا ، واعتزاز البلاد بانتصارات نابليون العسكرية قد فعلا الأعاجيب . فارتفع عدد جنوده إلى نصف مليون من جديد عام ١٨١٣ . وكان هؤلاء من الشبان الذين لا يضارعون محاربى الجيش الأعظم القدامى ، ولكن « ناي » NEY وسيد راحا يكيلان المديح لهؤلاء المجندين الشبان وينوهان بقوة احتمالهم وشجاعتهم . وطلق نابليون يحلم مرة أخرى بصلح يفرضه على أوروبا بالنصر الكامل . فلئن فرط فى جزء لأدى ذلك إلى التفريط فى الكل ، فى حين أن النصر سيتيح له استعادة ما فقدته فضلا عن الاحتفاظ بما فى .

يديه . وكان يأمل في ابقاء بروسيا الى جانبه باستعراض قوته ، ويحسب نفسه آمنا جانب النمسا بسبب زواجه بمارى لويوز والتفاهم الذى تم بينه وبين ميترنيخ ، ذلك المستشار الداهية الذى استقر فى الحكم منذ ١٨١٠ . صمم اذا نابليون على ألا يتنازل عن شىء - مع أن التنازلات الكبيرة للنمسا كان يمكن أن تؤدي الى بقائها مخلصة للتحالف مع فرنسا - وعقد العزم على الاحتكام للسيف . لم يكن بوسعه بعد أن يصدق أن السيف قد انكسر بين يديه ، على أنه فى الواقع لم يعد نابليون القديم نفسه ، فقد أصبح لدينا يغلب عليه التعب فى بعض الأحيان بل وفى اللحظات العصبية . لقد ظل حقا متمتعا بقوة الارادة الهائلة نفسها ، ويسود الاعتقاد بأن براعته التكتيكية والاستراتيجية لم يعثرها أى نقصان ، ولكنه فقد على أية حال الكثير من مرونة ذهنه ، ولم يعد يتمتع بتلك القدرة على الادراك السريع لحقائق الموقف التى عرف بها من قبل .

ولم يكن فردريك وليم ملك بروسيا على مثل استعداد شعبه لحمل السلاح . فقد كانت لديه خبرة مريرة بثقل ضربات نابليون ، فتردد فى منازلته من جديد . ولكن البلاد كانت تزخر بالحماسة . فقد اكتسبت رابطة الفضيلة The Tugendbund العديد من الأنصار ، ولعبت القصائد والأناشيد الوطنية التى ألفها ارندت وكيرنير وغيرهما دورا كبيرا فى الهاب مشاعر الشعب . وكانت هنالك كذلك قوى أعظم شأنها فى مؤخرة الصورة . فقد أمدت اصلاحات شتاين كيان بروسيا السياسى بحياة جديدة ، وهى لها اصلاح شارنهورست للجيش قوة قوامها ١٥٠,٠٠٠ رجل .

وقد جاءت أول حركة فى بروسيا ضد الفرنسيين بالرغم من ارادة الملك . فقد كان الكولونيل يورك Yorek يحاصر الروس فى ريجن (١٦)

كحليف للفرنسيين . فلما بلغت أنباء نكبة الفرنسيين في روسيا ، رفض على مسؤوليته الخاصة مواصلة الحصار ضد أولئك الذين كان يعتبرهم حلفاء ، وعقد معهم اتفاقا أعلن بموجبه أن جيشه جيش محايد . وهذا الحياد لم يكن ليختلف في الواقع عن مناهضة الفرنسيين . وأصبح لزاما على ملك بروسيا أن ينكر عليه هذا العمل ، ولكنه سرعان ما حذا حذوه . فقد هبت بروسيا الشرقية ثائرة من تلقاء نفسها عندما أخذت القوات البروسية تتقدم ، ودعيت الجمعية الإقليمية لبروسيا الشرقية الى الانعقاد فقررت وضع كل قواتها تحت تصرف أعداء نابليون ، فاستحال على ملك بروسيا أن يتباطأ أكثر من ذلك . ومن ثم وقع في يناير ١٨١٣ معاهدة كاليس مع قيصر روسيا ، وتعهد كل من العاهلين بالامتناع عن عقد أى صلح منفرد ، ووعد القيصر بأن تعود بروسيا الى حدودها القديمة وأن تنال ألمانيا حريتها . وصدر بعد ذلك بقليل تصريح فحواه أن كل أمير أو شعب في ألمانيا يمتنع عن الانضمام الى الحلفاء سيفقد استقلاله عندما يحين أوان التسوية ، وتوضع أراضيهم تحت تصرف الحلفاء . وقد انحازت انمسا الى نفس الجانب ولكن ببطء أكثر ومداورة أشد . فقد أكد مترنيخ للسفير الفرنسى أن تحالف بلاده مع سيده يتجاوب مع مصالح البلدين الدائمة ، ولكنه راح يفاوض بروسيا في نفس الوقت ، ولم يلبث أن انضم في النهاية الى اتفاق برسلاو . وقد طورد نابليون الى غربى نهر الألب ، وسرعان ما احتل جيش التحرير هامبورج ودرسدن الواقعتين على ذلك النهر . ولم يكن حلفاء نابليون هم وحدهم الذين تخلوا عنه ، فان قواده أنفسهم أو الكثيرين منهم على الأقل قد هموا بالفرار من خدمته . فبرنادوت صار قائدا من قواد أعدائه بالفعل ولن يلبث مورا وجوميني أن ينضما الى العدو هما الآخران . أما الماريشالات الذين بقوا معه فقد باتوا ميالين الى النقد والاهمال والقنوط .

ومع ذلك فقد حقق نابليون انتصارات لا شك أنها كانت ستعد عزيمة لولا النكبات التي توالى على أثرها سريعا . فقد هزم الروس والبروسيين المتحالفين فى لützen أولا ثم فى بوتزن Bautzen ، وكان هذان انتصارين لأربى فيهما وقد بثا القنوط فى نفس العدو ، ولكن نابليون دفع فيهما ثمنا باهظا ، كما أن أتباعه لم يعودوا ينفذون أوامره بالاخلاص والحماسة المعهودين ، فلم يكن ثمة شبه كبير بين هذه المعارك العنيفة وأوسترلتزوينا . ثم ان الحلفاء المنهزمين تراجعوا شرقا ولم يلبثوا أن أعادوا تشكيل جيوشهم وتهيأوا لمعارك جديدة .

وعلاوة على هذا فقد جاء انضمام النمسا الصريح الى الحلفاء فى تلك اللحظة العنيفة . وقد لعب مترنيخ أوراقه بمهارة فائقة وبالأدنى ضمير . فاقترح على نابليون عقد هدنة تستمر من ٤ يونيو الى ٢٨ يوليو عام ١٨١٣ ، على أن تستخدم تلك الفترة فى التمهيد لمؤتمر عام للصلح . فقبل نابليون الاقتراح ووقع الهدنة .

ولكن هل كان الصلح أمرا ممكنا حقا فى تلك الآونة ؟ وهل كان المتفاوضان الرئيسيان جادين فى سعيهما ؟ وعلى من تقع تبعة الفشل ؟ لم يكن الموقف يسمح فيما هو واضح بحل المشكلات حلا سليما ولم يكن الجانبان راغبين باخلاص فى وقف الحرب . فمترنيخ كان واعيا للحماسة المتزايدة فى ألمانيا وللقوى التي أخذت تتجمع بسرعة ضد نابليون . أما نابليون فما يرح يأمل من جانبه فى تحقيق تسوية عن طريق النصر ، اذ كان يعلم أن النصر وحده هو الكفيل بتأمين سلطانه سواء فى أوروبا أو فى فرنسا . وقد روى أنه قال لمترنيخ « ان بوسع الملوك الذين يولدون على عروشهم أن يهزموا عشرين مرة ثم يعودون ثانية الى عواصمهم ، ولكنى لا أستطيع ذلك لأننى محدث عرش » . وهذا القول يكشف لنا عن سمة لازمت نابليون فى حكمه ويفسر لنا الكثير من سياسته . وقد اقترح مترنيخ فى الاجتماع الذى عقده مع

نابليون في درسدن ، أن تتخلى فرنسا عن معظم أراضيها فيما وراء الراين . وكانت المقاتلة بين الرجلين عاصفة جدا ، وقد تحدث نابليون في احدى لحظاتها عن العودة الى فيينا مرة أخرى على رأس جيشه لتسوية النزاع . بيد أنه وافق على أية حال على اطالة أمد الهدنة وحضور مؤتمر للصلح في براغ : على أن المؤتمر لم ينعقد في الواقع بالمرّة . فقد وجهت النمسا انذارا أخيرا الى نابليون أنهف أن يرد عليه فأعلنت النمسا الحرب .

كان لدى الحلفاء ما يقرب من مليون رجل مسلح . وسيجد نابليون نفسه من الآن فصاعدا في مواجهة خصوم يفوقونه - في معظم الأحوال - عددا . وما برح الأمل يراود أعداءه في أن يتغلبوا عليه بسلسلة من الهجمات غير الحاسمة ويستنزفوا قواه بالانتصار عليه في معركة اثر أخرى بدلا من هزيمته مرة واحدة هزيمة كبرى . ومع ذلك فإن الحرب التي دارت بين الجانبين تمثلت في معركتين كبيرتين احدهما تستحق أن تدرج في عداد أعظم انتصاراته ، والأخرى تغد أخطر هزائمه بل هزيمته الوحيدة التي لم يفق منها .

قرر نابليون أن أعداءه سيعمدون الى مهاجمته ، فسبقهم اليها وأحرز نصرا كاملا . ولو أن مثل ذلك النصر قد حدث في أيامه الأولى لمضى قدما بهمة نارية ولربما حسم به الحرب في ألمانيا . ولكنه بدا الآن عاجزا عن تحمل الارهاق المتواصل على النحو الذي عهد منه في شبابه . كما أن ضباطه فشلوا في تعزيز خطته ، فأدت هزيمتهم في عمليات خمس متوالية الى التعفية على آثار معركة درسدن تقريبا . وحققت الدبلوماسية كذلك مكاسب هامة لأعدائه . فقد ألح مترنيخ في ضرورة التفاوض مع أمراء اتحاد الراين ، فكان أن عرض عليهم الاستمرار في الحكم وفي التمتع بألقابهم بعد الصلح ان هم انضموا لتوهم الى الحلفاء . قد أسف شتاين لهذا العرض على اعتبار أنه ينطوى على تضحية بجميع الآمال المعقودة على انشاء ألمانيا المتحدة

عند عقد الصلح . وقد قبل العرض معظم هؤلاء الأمراء . وانضمت بافاريا الى صفوف الحلفاء . ولم تبق على الاخلاص لنابليون سوى سكسونيا وحدها تقريبا .

وفي تلك الآونة عبر بلوخر والبروسيون نهر الألب ، وأصبح نابليون في درسدن في مركز يصعب الذود عنه فتراجع غربا . وفي ١٦ أكتوبر ١٨١٣ بدأت معركة ليبزج Leipzig أو « معركة الشعوب » كما سميت . ودار القتال فيها طوال ثلاثة أيام ، ولم يكن كله في صالح الحلفاء . وقد بلغت الخسائر حوالى ١٣٠.٠٠٠ رجل منهم حوالى ٥٠.٠٠٠ من الفرنسيين . أفلتت فلور الجيش الفرنسى من الطريق الوحيد الذى بقى مفتوحا أمامها بينما يمم نابليون بالبقية الباقية من قواته شطر الراين ، فحاول جيش قوامه ٥٠.٠٠٠ رجل معظمهم من البافاريين إيقافه عند « هناو » ولكنه أزاحه من طريقه بسهولة . ووصل الجيش الفرنسى الى الراين فى أول ديسمبر ، وقد فتك المرض به فتكا لا يكاد يقل عما فعل به السيف الألماني . وسرعان ما استسلمت الحاميات التى خلفها نابليون وراءه فى ألمانيا ، وعددها حوالى ١٩٠.٠٠٠ رجل ، فلم يبق أثر لسلطان نابليون شرقى الراين . وكانت الجيوش الفرنسية قد سحبت كلها تقريبا من أسبانيا ، فدخل ولنجتون فرنسا مظفرا من الجنوب .

وأصبح على فرنسا أن تواجه الآن أهوال الغزو التى أذاقتها بلادا كثيرة ، وان لم تعرفها هى نفسها منذ ١٧٩٣ . كانت فرنسا قد سئمت الحرب ، وتبددت كل أحلامها بالانتصار على العالم ، ونضب معينها من الرجال ، ولحق الخراب بتجارتها . وكان الاهتمام بشئون السياسة قد تضائل تضائلا عجيبا ابان السنوات العشر الأخيرة ، اذ كانت تحركات الجيوش تستأثر بانتباه الناس جميعا . ولكن الأذهان بدأت تسترجع وهى تتبع عودة الامبراطور مهزوما الى فرنسا مبادئها القديمة . وتجاسر بعض الأحرار على النطق مرة أخرى بشعارات

الثورة . ورأى الملكيون - بعد أن خابت آمالهم مرارا وتكرارا - أن الفرصة سانحة لعودة آل بوربون الى الحكم . وأصدر «لويس الثامن عشر» فهذا هو الاسم الذى صار يطلقه جميع الملكيين على شقيق لويس السادس عشر الذى حارب الثورة باسم الكونت دى بروفانس - أصدر نداء يحث فيه الفرنسيين على النظر الى الحلفاء الغزاة بنظرتهم الى الأصدقاء ، ويعددهم بتخفيض الضرائب واحترام الحقوق المكتسبة فى الأرض ، ويمنيهم بالسلم والعفو ، ولم تبدد طبقة الأشراف القديمة أى تردد فى العودة الى فرنسا فى صفوف الغزاة واتخذت الدعوة الى إعادة آل بوربون شكلا علنيا فى فرنسا . ومع ذلك فقد ظل هناك قدر طيب من الحماسة للإمبراطور . اذ كان يمثل ، فى نظر الكثيرين على الأقل ، قضية الدفاع عن أرض الوطن . وقد بقى للحكومة من القوة أو الشعبية ما مكنها من جمع ٣٥٠.٠٠٠ جندي من شتى أنحاء البلاد . فما كان نابليون ليسقط دون صراع .

ان عبقرية نابليون العسكرية كاستراتيجى لم تتجل قط بأوضح مما تجلت فى تلك الحرب التى دارت فوق أرض فرنسا . ومن الجائز أن الغزاة كانوا يأخذون الأمور ببساطة مفرطة وأنهم قدروا دون ماروية أنه ليس فى امكان الفرنسيين ابداء مزيد من المقاومة . ومن الجائز كذلك أن الحكمة والوطنية كانتا تقضيان بأن يعترف نابليون بأن لا مفر من الهزيمة فيوفر على فرنسا غوائل هذه الحرب الجديدة واستشارة المزيد من سخط الحلفاء . غير أن المرء لا يملك الا أن يعجب بشك الأعصاب الثابتة والارادة القوية التى بدا فى وقت من الاوقات أنها قد تحيل الهزيمة الى نصر . فقد هزم نابليون يلوخر مرتين وألحق به فى المرتين خسائر فادحة . وبدا لفترة من الوقت أن جيش الحلفاء برمته يتعرض فعلا لخطر الدمار اذ فقد الجنود ثقتهم بأنفسهم فى حضرة الفرنسيين وقائدهم العظيم ، ورفض جيش يبلغ عدده ضعف عدد الفرنسيين الاشتباك فى القتال . فبدا كما لو أن انتصارات فالى

ستتكرر على نطاق أضخم بكثير ، وغدا الامبراطور شخصية شعبية
محبوبة من جديد . وزادت فظائع الغزاة البروسيين والروس من
احساس الشعب بضرورة الدفاع عن البلاد ، فكان أن ووجه الحلفاء
الغزاة بمقاومة شعبية بمعنى الكلمة . وهب الفلاحون في أقاليم كثيرة
وقد أثارت حفيظتهم فظائع الغزاة ومظالمهم ، هبوا يحملون السلاح
على نحو يذكر المرء بالحرب في لافنديه . وبدأ أن الائتلاف يتعرض
حقا للانحيار .

وقد أبدى الديبلوماسيون نشاطا في تلك الشهور لا يقل عن نشاط
العسكريين .

بيد أن من الأمور النادرة أن تجد حربا - أثرت فيها مشاعر
المتحاربين الى درجة عنيفة - تنتهى بالمفاوضات قبل أن يصدر السيف
قراره الى درجة بعيدة . وقد دارت مفاوضات بقصد تسوية الأمور (في
مناسبتين) . ففي المناسبة الأولى استقبل مترنيخ مندوبا نابليون في
نوفمبر ١٨١٣ ، واقترح عليه أن تتخلى فرنسا عن جميع الأراضي التي
غزتها فيما عدا بلجيكا وكل ما يقع بين حدود الراين والألب ، ولعل
الاخلاص كان مفقودا من الجانبين ، فاستمرت الحرب كما أسلفنا .
وكانت المناسبة الثانية هي المؤتمر الذي عقد في شاتيون عندما أثبت
نابليون أنه مازال بوسعه أن يشكل خطراً كبيراً . وكان الاقتراح الذي
قدم هذه المرة هو تخلى فرنسا عن بلجيكا وعن كل الأراضي التي
كسبتها شرقا وجنوبا وعودتها الى حدود ما قبل الثورة ، وأبدت بعض
الآمال في أن تسترد بريطانيا جانبا من مستعمراتها التي سلبت منها
أثناء الحرب ، ولكن كل الآمال لم تلبث أن تبددت ، ولم يبق مفر
من الاحتكام للسيف .

أظهر نابليون في الحملة الأخيرة جسارة وأملا ، فقد أحرز أكثر من
نجاح ، ولتلى في بعض المواقع تأميذا رائعا من رجاله . ولكن مركزه

كان مزعزعا من أساسه ، فقواته كانت تعاني من الارهاق والايحاء ، حين كان العدو يملك احتياطيا هائلا من الرجال ، وخطته كانت تقوم على افتراض أن باريس ستقاوم ، ولم تكن باريس في مزاج يسمح لها بالمقاومة . ولما وضع نفسه بحركة جريئة في مؤخرة الحلفاء ، استقر رأيهم آخر الأمر على أن الشجاعة آمن من الحذر ، فاندفعوا لايبلون على شيء نحو باريس . وكان الامبراطور قد تنبأ بإمكان وقوع هجوم على باريس ، فأرسل أوامره بنقل الحكومة الى اللوار . ولكن أوامره لم تعد تنفذ الآن باخلاص ساعة ضعفه . وقد ثقلت الامبراطورة ومعها ابنها الذي علقت عليه الآمال أن يواصل أمجاد الامبراطورية ، ولكن جوزيف أخا نابليون بقي في المدينة ودارت معركة خارج باريس ، تداول فيها الطرفان النصر والهزيمة بعناد وخسرا فيها أرواحا كثيرة ، ثم سلمت المدينة . وقد راودت نابليون فكرة مواصلة الحرب خارج باريس . ولكنه تبين استحالة تنفيذ خطته . إذ أن ماريشالاته كانوا قد سئموا القتال وأصبح استعدادهم لاطاعة الأوامر أقل من استعداد الكثيرين من عامة الجند . وأخيرا وقع نابليون في ٦ ابريل وثيقة تنازله عن العرش - ونصها « نظرا لأن الدول المتحالفة أعلنت أن الامبراطور نابليون هو العقبة الوحيدة في طريق إعادة اقرار السلم في أوروبا ، فإن الامبراطور نابليون وفاء منه للقسم الذي أداه يعلن تنحيه هو وورثته من بعده عن عرش فرنسا وإيطاليا ، فما من تضحية شخص - حتى الجود بالحياة نفسها يضمن بها لصالح فرنسا » . ويظن أنه حاول الانتحار . وبعد أسبوعين ودع حرسه القديم وداعا مؤثرا وانزوى عن الأبصار في جزيرة البا حيث سمح له بالاحتفاظ بلقب الامبراطور الأجوف وما يقتزن به من المراسم .

أدى سقوط نابليون الى تسوية بعض المشاكل ولكنه خلق مشاكل أخرى تبين أنها عويصة للغاية . فمن الذي يسند اليه الحكم في فرنسا ، وبأي حق ، وبأية وسيلة ؟ وما العمل في الأراضي الأوروبية الشاسعة

التي كان يحكمها نابليون أو يمارس فيها نفوذا حاسما ؟ لقد عادت الى الظهور - بانحصار الطوفان - الكثير من المعالم القديمة ، ولكن بعض هذه المعالم كان قد انمحي تماما والى الأبد . وقد اشتركت في البت في هذه المشاكل قوى مختلفة ولكن ثمة شخصيتين طغتا على من عداهما . فلم يكن بين صفوف الحلفاء من يضاهاى نفوذا اسكندر فيصر روسيا الذى كان شخصية غريبة محيرة .

كان الفرنسيون والأجانب يتزلفون اليه زلفى لا حد لها ، وكان هو يتذبذب بين المثل الانسانية والدينية من ناحية ، والأغراض الانانية والروسية من ناحية أخرى . وفى الجانب الفرنسى كان تاليران بعد سيرته العجيبة ، يعقوبيا ثم رجلا من رجال الامبراطورية البارزين ، ومنفذا لخطط نابليون مشموولا بثقته ، ثم خائنا له ولما يبرح خدمته ، قد أصبح الآن الرجل الوحيد الذى له فيما يبدو كلمة مسموعة بين ساسة فرنسا المترددين . أما كاسلرى وولنجتون وسائر الساسة الانجليز فان شأنهم كان أقل فى ذلك الحين من هذين الرجلين .

وقد ترددت لحل المشكلات فكرتان هما اقامة وصاية على ابن نابليون الطفل أو نقل التاج الى أحد ماريشالاته وظلت الفكرتان قيد البحث بعض الوقت ، ولكن الرأى استقر فى النهاية على اعادة أسرة البوربون متمثلة فى شخص لويس الثامن عشر : وقد حاز هذا الحل موافقة جميع الحلفاء لاستناده الى مبدأ الشرعية . فكان أن اجتمع مجلس الشيوخ الذى كان هيئة عاجزة ، هى تقريبا كل ماتبقى من دستور برومير ، وبتوجيه تاليران أعلن المجلس الذى كان يضم بين أعضائه عددا ممن صوتوا فى يوم من الأيام لاعدام لويس السادس عشر ، أن « الشعب الفرنسى يدعو فى حرية لويس سنتانيسلاس . اكسافير دى فرانس شقيق الملك الراحل الى اعتلاء العرش » . وذيل المجلس دعوته ببعض النصوص الدستورية تأمينا لمبادئ الثورة . كانت اثنتان وعشرون سنة قد انصرمت منذ اختفاء البوربون من أرض

فرنسا ، وكان عدد أولئك الذين لا يزالون يعتزون بذكرهم ضئيلا . ولم يكن لفرنسا في مجموعها يد في المسألة ، غاية ما هنالك أن باريس قد قبلت قرارا هو في حقيقة الأمر من املاء جيوش الحلفاء فكان أن سويت المسألة وعاد الى باريس لويس الثامن عشر . وقد خيب هذا الملك الآمال بتخفظه المجوح وادعائه للحق الالهي وقلة عرفانه بالجميل لأولئك الذين أعادوه الى العرش ، وبروده على الأخص في معاملة القيصر . وقيل ان بعض القوات قد أصرت على ترديد الهتاف « بحياة الإمبراطور » عند دخول موكبه الرسمي الى باريس !

لقد قدر لفرنسا اذن أن يحكمها لويس الثامن عشر ، وان أنشأ البعض منذ تلك اللحظة يتساءلون عن المدة التي سيكتب له فيها البقاء . ولكن استنادا الى أى حق سوف يحكمها وداخل أية حدود ؟ لقد جاءت الاجابة عن السؤال الأول عندما « منح » لويس الثامن عشر الشعب الفرنسي دستورا ينظم أسلوب الحكم تجلى فيه اصراره على الاستناد الى « حقه الالهي » واعطاء الشعب من الحريات ما يراه مناسباً فقط . أما التسوية العامة للحدود فقد رأى الحلفاء تأجيلها ريثما ينعقد المؤتمر الذي اختاروا فيينا مكانا له . ولكن الاتفاق تم قبل اجتماع المفوضين في فيينا على رجوع فرنسا الى الحدود التي كانت عليها عام ١٧٩٢ أى حدودها قبل أن تبدأ حروب الثورة ، مع بعض التعديلات الطفيفة التي كانت كلها تقريبا في مصلحتها . كما اتفق على أن تمثل فرنسا في فيينا اذ لم يكن بوسع الحلفاء أن يترفعوا عن معاملة ملك وضعوه بأنفسهم على عرش فرنسا معاملة النذ للنذ ، ولكنهم حصلوا من الملك الفرنسي قبل اجتماع الديبلوماسيين في فيينا على وعد قاطع بقبول جميع قراراتهم .

وسوف نتناول في الفصل التالي أهداف هؤلاء الديبلوماسيين الذين اجتمعوا في فيينا ودسائسهم ومشاكلهم . وحسبنا هنا أن نقول انهم بينما كانوا منصرفين الى البحث عن حل ما وسط الخصومات العنيفة

التي وصلت في لحظة من اللحظات الى حد التهديد بخطر نشوب حرب جديدة ، وردت أنباء عودة نابليون الى فرنسا فكان لها في المؤتمر دوى القنبلة وقلبت مباحثاتهم رأسا على عقب . وكانت الاشاعات التي سمرت عن الخلاف بين الدول حول المسألة السكسونية البولندية قد شجعت نابليون على القيام بمغامرته الكبرى . كما أوحى اليه الأنباء التي أتته من فرنسا بأن عودته ستكون موضع ترحيب الكثيرين . فبالرغم من أن حكومة لويس الثامن عشر لم تكذب تبادلا عملها الا أن طبيعتها العامة كانت بادية للعيان . فقد اقترنت في الأذهان بفقدان الأراضي التي فتحها نابليون ، فأذت بذلك كبرياء الشعب الفرنسي . وكان الإشراف المهاجرون قد بدءوا في العودة وراحوا يتصايحون مطالبين باعادة أراضيهم المصادرة . فأحس الفلاحون ، وهم الذين ما برحوا يشكلون قوة لها أهميتها البالغة في قاعدة البنيان الاجتماعي في فرنسا ، بأن أملاكهم مهددة . وتفشى السخط كذلك بين جنود نابليون سواء منهم الذين ظلوا في الخدمة أو الذين فصلوا . فالكثيرون ممن سرحوا لم يتمكنوا من العثور على العمل . كما عين دييون الذي كان أول من أثبت باستسلامه في بايلين أن الحاق الهزيمة بجيش من جيوش نابليون أمر ممكن ، عين وزيرا للحريية فأثار ذلك استياء الجنود البالغ . وهكذا انتشرت همهمات التذمر ، وان لم يكن ثمة ما ينسب عن كل هذا التوفيق الخارق الذي كان في انتظار نابليون عند وصوله الى فرنسا .

لقد كان نفيه الى البابلون هام وبلاط أشبه باللعبة ، ضربا من السخف . اذ كانت مراقبته أمرا مستحيلا في حين أنه كان في وضع لا بد وأن يرغب في الهروب منه . فلما لم يدفع له الدخل الذي وعد به وجد في ذلك الحجة التي تعوزه فتسلل من البابلون وهبط أرض فرنسا بالقرب من أنتيب على الساحل الجنوبي للبلاد . ولم يكن له من سند يذكر سوى اسمه وذكريات عشرين عاما ، ولكن هذه ثبت أن فيها

الكفاية كل الكفاية . فالحكومة الجديدة لم تكن قد ضربت لها جذورا في الأرض ، ودول أوروبا التي هزمت نابليون لم تكن قد رأت ضرورة اتخاذ الاجراءات اللازمة لمساندة الملكية التي أعادتها الى الحكم . فكان أن هجر الجيش خدمة لويس الثامن عشر بالجملة تقريبا ، ورحب السواد الأعظم من الشعب بمقدم نابليون . وعاد « ناي » الذي وعد ، حين كلف بالذهاب لمقاومته ، باحضاره الى باريس « في قصص » ، عاد واحدا من أنصاره وقواده . فاضطر الملك وأخوه والأشراف المهاجرون الى استئناف « أسفارهم » من جديد !

ونحن نعلم أن التوفيق قد خان نابليون في هذه المعركة الأخيرة . ولكن من التسرع بمكان أن نفترض لهذا سببا أنه لم تكن أمامه في الحقيقة أية فرصة للنجاح . ذلك أنه كان يملك جيشا ضخما متحمسا زاد من عدده رجوع اعداد غفيرة من الأسرى من روسيا . ثم ان مؤتمر فيينا قد أظهر بجلاء عنف المنازعات الكامنة وراء الانسجام الرسمي للحلفاء . فلو أن نابليون تمكن من احراز نصر كبير لكان من المحتمل أن يعرض على خصومه شروطا معتدلة مدروسة ، ولم يكن قبولهم لها محالا . بيد أنه كانت هناك خصائص ثابتة في حياة أوروبا تجعل من عودة أيام مارنجر وأوسترلتز وينا أمرا بعيدا عن التصور . فقد استيقظت أمم أوروبا ، ولم تعد الحكومات في كافة أنحاء تلك الأجهزة العاطلة من الحياة على النحو الذي كانت عليه قبل الثورة الفرنسية . بل صارت تتمتع بتأييد شعبي حماسي ضخم . وغدت أوروبا تحارب فرنسا بنفس أسلحتها . ثم ان التأيد الذي لاقاه نابليون في فرنسا لم يكن بحال خالصا من التردد والشكوك . فما ان مرت لحظة الهوس الأولى حتى لم يبق في فرنسا الا القليلون ممن هم على استعداد حقيقي لتأييد فكرة عودة نابليون الى الحكم بنفس الطريقة التي كان يحكم بها في عام ١٨٠٥ . وقد أحس نابليون بحالة الرأي العام فأصدر مرسوما بتأليف مجلسين تشريعيين أحدهما ينتخبه الشعب ، واقرار

مبدأ حرية الصحافة ومسئولية الوزراء أمام المجلسين . ثم طرح ، بالرغم من أن مهمة تنظيم قوته العسكرية كانت تسترعى كل اهتمامه ، الدستور الجديد للاستفتاء . ولم يذهب الى صناديق الاقتراع الا مليون ونصف من الناخبين . ولكن التأييد الذي ناله من أغلبية كبيرة أضفى عليه مظهر الحاكم الدستوري . ولو أنه عاد بعد ذلك مظفرا من بلجيكا لما ترك الدستور على حاله في أغلب الظن ، فكل شيء كان متوقفا على نتيجة المعركة .

وقد ألقى نابليون نفسه بلا حليف في أوروبا . حقا ان « مورا » ملك نابولي قد جمع جيشا وراح يحاول كسب مشاعر الايطاليين لعلهم بأن مؤتمر فيينا سوف يطرده من عرش نابولي . ولكن نابليون كان يؤمن بأن تصرف مورا من شأنه المساس بفرصه هو في النجاح ، ولم تلبث هذه الحركة الايطالية أن أخمدت على أية حال . وقد رحل نابليون الى جبهة القتال في ١٢ يونيو ، راميا الى توجيه ضربة سديدة الى الجيشين البريطانى والبروسى قبل أن يتمكننا من حشد قواهما ، فأحرز نصرا محسوسا وان يكن جزئيا ضد البروسيين في « لينى » Ligny وكان ولنجتون قد تلقى وعدا من القائد البروسى بلوخر بالانضمام اليه عند مونت سان جان قبل الدخول في معركة ووترلو في ١٨ يونيو . استنادا الى هذا الوعد . ولم ينقض اليوم حتى كان نابليون قد هزم هزيمة لا يمكنه أن يسترد قواه بعدها . وفي ٣ يوليو استسلمت باريس ، ولم ينقض يوم ٩ يوليو حتى استسلم نابليون وأرسل الى جزيرة سانت هيلانة .

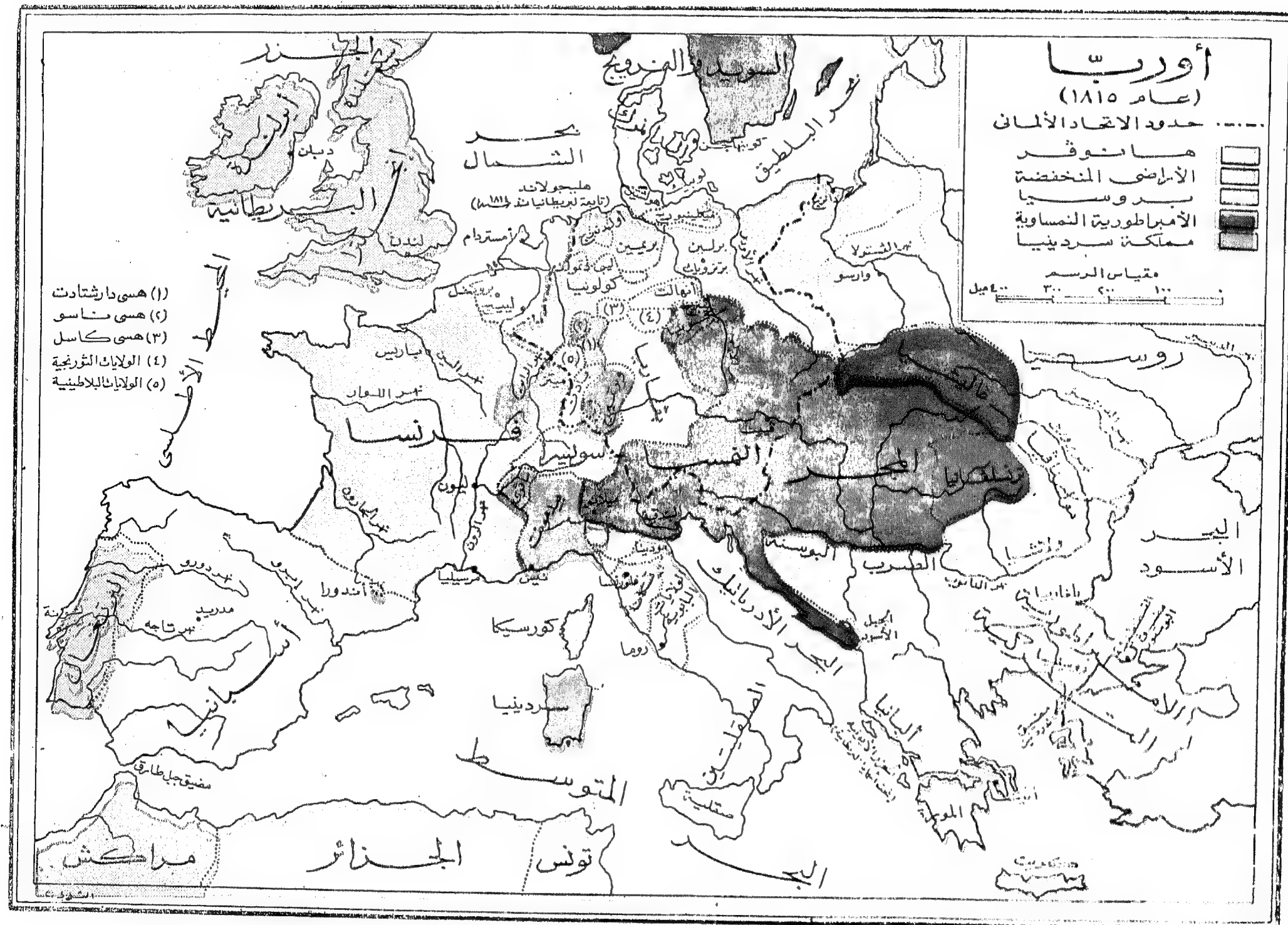
لقد بدلت قصة حرب المائة يوم الدرامية ، من نظرة أوروبا الى الأمور وذلك الى الأسوأ بلا أدنى شك . فقد كان الحلفاء على استعداد في ١٨١٤ لقبول الرأى القائل بأنهم يحاربون نابليون لا فرنسا . وكانوا على استعداد بالتالى لمنح فرنسا شروطا عادلة ان لم تكن سخية ، شروطا لا تفرض عليها أداء تعويضات عن الحرب

ولا تتمسك بقيام احتلال عسكري لأراضيها . وكانت فرنسا قد بدأت تلعب في مؤتمر فيينا بفضل براعة تاليران ، دور النديين دول أوروبا العظمى . ولئن كان الكثيرون يؤثرون أن تعاقب عقابا أشد إلا أن الجو كان يخلو اجمالا من المرارة بشكل ملحوظ . أما بعد ووترلو فقد تبدل موقف الدول . فكأنما دل الترحيب الذي قابلت به البلاد نابليون على أنها تربط مصيرها بمصيره . ففرض الحلفاء على فرنسا هذه المرة أن تدفع تعويضا قدره ٧٠٠ مليون فرنك وأن ترضخ لاحتلال عسكري قوامه ١٥٠٠٠٠ جندي بقيادة ولنجتون . وأعيدت الى أصحابها الكنوز الغنية التي جلبها نابليون من شتى أنحاء أوروبا الى باريس ، وهذا عدل لا مراة فيه .

ولم يكن مؤكدا بادىء الأمر أن لويس الثامن عشر سوف يعاد الى الحكم . فقد ظهر اقتراحان بديلان هما فرض وصاية على ابن نابليون الطفل أو تنصيب أحد أمراء بيت أورليان . ولكن الرأي استقر في النهاية على لويس . فان تصريحات الحلفاء السابقة والصعوبات التي لا بد أن تترتب على أى اجراء آخر قد جعلت من عودته أمرا حتميا . واحتدم الخلاف حول مسألة حدود فرنسا . فألمانيا برمتها كانت راغبة في ضم جانب من الأراضي الواقعة على حدود فرنسا الشرقية . وأصبحت بروسيا الناطقة بلسان الأمة الألمانية في المطالبة بالنزول لألمانيا عن الالزاس واللورين . ولكن روسيا وبريطانيا عارضتا في تقطيع أوصال فرنسا . وظل القيصر اسكندر أبرز شخصية في أوروبا بعض الوقت . وقد حددته الى الدفاع عن فرنسا عاطفة الكرم التي كانت قوية وأصيلة فيه ، وكذلك شعوره بأن وجود فرنسا قوية أمر حيوى لروسيا حيال التجمعات السياسية في أوروبا . كما حدث الاعتبارات السياسية والديبلوماسية كاسلري والحكومة البريطانية الى اتخاذ نفس الموقف وان لم يخلوا هما أيضا من الرغبة في الاستجابة الى نداء العدالة . وعلى هذا ظلت أراضى فرنسا على ماكانت عليه.

هبل بدء الثورة فيما عدا بعض الاستثناءات الطفيفة . وكان الألمان مندفعين بصفة خاصة في مناوأتهم لفرنسا ، وقد قوومت مطالبهم بصعوبة ولكنها قوومت على أية حال . فلم تسلم الألزاس واللورين ولم ينسف كوبرى بيننا كما أوقفت عمليات النهب التى انصرفوا اليها فى الأقاليم الواقعة تحت احتلالهم .

لقد كانت النية الصريحة لأولئك الذين حاربوا فرنسا هى مقاومة الثورة ومبادئها واعادة النظام القديم الذى قوضه نابليون . فشاع الظن بأن العاصفة التى اجتاحت أوروبا طوال مايقرب من ربع قرن سوف تنتهى ، وأن القارة سوف تستأنف حياتها وغاياتها وأساليبها القديمة . ولم يكن ديبلوماسيو ١٨١٤ - ١٨١٥ فى مزاج يسمح لهم بالاستفادة من الفرصة العظيمة المتاحة لهم لاجراء التجارب الاجتماعية والسياسية والعمل على اعادة بناء أوروبا على أسس جديدة . فكللمات الحرية والاخاء والمساواة والديموقراطية والتقدم والانسانية كانت كلها كلمات لها ارتباطات خطيرة فى الأذهان . ولكن سرعان ما سوف يتبين للجميع أن التحكم فى القوى التى ربطت نفسها بعجلة الثورة الفرنسية؛ ليس بمثل هذه السهولة . فقد كان المأمول أن تخدم روح الحماسة والانطلاق المتمثلة فى هذه القوى ، وأن يعود التوازن الدولى . ولكن التاريخ يسجل - رغم جهود ساسة ١٨١٥ لاعادة أوروبا القديمة - ظهور أوروبا جديدة من غمار تلك الأحداث .



الجزء الثاني
من الحكومة العالمية إلى الثورة
١٨١٤ - ١٨٤٨

الفصل التاسع

إخفاق الحكومة العالمية

١٨١٤ - ١٨٢٥

أعقبت هزيمة نابليون فترة طويلة من السلم بين الدول العظمى ، وهو سلم من ميزات أنه لم يكن يرجع الى الارهاق وحده . وقد بدأت هذه الفترة بقيام محاولة من جانب دول أوروبا العظمى للوصول الى اتفاق بناء من أجل السلام ، وهي أعظم محاولة بذلت من نوعها في تاريخ أوروبا حتى ذلك الحين ، ولها من الأهمية الكبرى ما يحفظنا الى اعتبارها ، عن حق ، بداية عهد جديد في العلاقات الأوروبية . ولا ينبغي أن يعمى انهيار هذه التجربة الدولية أبصارنا عن ضخامة نتائجها فان حربا عظمى لم تحدث في أوروبا طوال قرن كامل ، ولم تنشب أى حرب لها أهمية تذكر حتى ١٨٥٣ ، وظلت التسوية الاقليمية الأساس الذى قامت عليه الحياة السياسية الأوروبية طوال ثلاثين عاما . أما نظام حكم العالم في مؤتمرات (١) ذلك النظام الذى تحطم قبل نهاية العقد الأول ، فقد خلف من بعده سنة عقد المؤتمرات الدولية التى أورثها القرن التاسع عشر للقرن العشرين .

وسر هذا الانهيار يكمن في مجموعة من العوامل . فقد انتهجت معظم حكومات أوروبا سياسة رجعية وان تفاوت الشكل : فى النمسا بزعمامة مترنيخ ، وفى بروسيا التى أنقذتها نتائج اصلاحاتها السابقة من أسوأ العوائل ، وفى روسيا على نحو أشد وضوحا بعد أن خلف نيقولا الأول اسكندر في ١٨٢٥ حتى أن حكومة المحافظين فى إنجلترا بالقياس الى هذه الحكومات ، قد بدت حكومة ذات ميول تحررية

خطرة ، والخلاف الذى دب بين بريطانيا وحليفاتها الثلاث فى عهد كاننج لم يكن مسألة دبلوماسية بحتة ، فشمة اختلاف جوهري فى النظر إلى الأمور كان يكمن وراء الخلافات السياسية التى أخذت تظهر بينها وبين تلك الحكومات على مائدة المؤتمرات . وقد كان لبريطانيا بوصفها صاحبة نظرية الملكية الدستورية أنصار فى فرنسا والأراضى الوطية ، وفى اليونان والبرتغال وأسبانيا ، وكان الصراع الداخلى بين الأحزاب فى تلك البلاد يهيء الفرص للمنافسات الدبلوماسية . فإذا ما توغلنا الى أعماق البنيان السياسى الأوروبى ألفينا قوى عظمى هى قوى القومية والسخط الثورى تشق طريقها من آن لآخر الى السطح . فنشطت الثورات فى ايطاليا وأسبانيا وفى اليونان وبولندة وبلجيكا ، وان لم تنجح الا فى اليونان وبلجيكا . أما فى ألمانيا والنمسا فكانت كامنة تتم عن نفسها فى صورة حوادث وقلاقل لا حرب صريحة ، حتى جاء « عام الثورات » فحول مجرى الأمور فى أوروبا . ان المسئولية الرئيسية فى فشل هذه المحاولة التى قامت بها مجموعة من الدول العظمى لايجاد سلم دائم يجب أن تعزى فى المحل الأول الى أولئك الذين مثلوا دور « كبار كهان الرجعية » ، وفى المحل الثانى الى أولئك الذين ساقطتهم غيرتهم القومية وحماستهم للاتجاهات التحررية الى العمل على اصلاح الأمور بطريق العنف . كما يجب أن تلقى بعض المسئولية كذلك على كاهل سياسة بريطانيا المتتابعين الذين انتهجوا سياسة استئصال معها الاحتفاظ بوحدة المتحالفين .

ذلك أن الدول الأربع العظمى : النمسا وانجلترا وبروسيا وروسيا ، دخلت آخر الأمر فى محالفة عظمى بموجب معاهدة شومون (٩ مارس سنة ١٨١٤)^(١) . فقد تعهدت الدول الموقعة على تلك المعاهدة بتوحيد

(١) أن تاريخ « أول مارس ١٨١٤ » الوارد فى الوثيقة وهمى ولا سند له من الحقيقة .

جهدوها في محالفة مدتها عشرون عاما . واتفق رأيها أولا على اسقاط نابليون ثم الحيلولة دون عودته هو أو أسرته الى فرنسا ، وأخيرا على ضمان التسوية الاقليمية التى تضعها الدول المتحالفة لمدة عشرين عاما . وكانت المشادات بين النمسا (مترونيخ) وروسيا (اسكندر) قد كثرت الى حد جعل الاتفاق بينهما أمرا عسيرا ، والفضل فى تحقيق هذا الاتحاد والاتفاق انما يرجع الى نفوذ كاسلرى . وقد كان أثر المحالفة مباشرا ؛ فقد قرر الحلفاء ولما ينقض شهر مارس اعادة آل بوربون الى فرنسا . واحتلوا باريس بالفعل . وفى أوائل ابريل تنازل نابليون عن حقه وحق أسرته فى العرش ، فجلس الحلفاء ليشكلوا خريطة أوروبا من جديد وفقا لأهوائهم .

ولم تكن مهمتهم سهلة ميسرة . فقد كانت عودة البوربون الى فرنسا فى « متاع الحلفاء » سببا فى كراهية الفرنسيين للويس الثامن عشر . حتى ان البعض قد صورته فى صورة كاريكاتورية ممتطيا جوادا الى جانب أحد القوزاق ، والأخير يدوس على جثة فرنسى . ذلك أنه ظهر ، بوضع يده فى يد الحلفاء ، بمظهر من يحط من المجد الذى كسبته فرنسا فى عهد نابليون . ولم تتصف تصرفاته بالحذر ، فلتن كان قد أعلن حقا دستورا للبلاد فانه قد أكد بعض التوكيد نظرية « الحق الالهى » البائدة التى تشرب الفرنسيون مقتنها . كما بدأ أتباعه عهدا من « الارهاب الأبيض » ضد أنصار نابليون فأخذوا يعملون فيهم السلب والتقتيل . أما الجيش الذى كان مفخرة فرنسا فقد خفض عدده تخفيضا كبيرا وفصل منه عدد كبير من قواده العظام وعدد أكبر من جنوده الممتازين . والكنيسة التى هاجمها كل ذلك النفر الغفير من الفرنسيين ، ردت الى ما يشبه سلطانها وتعصبا القديم ؛ والأدهى من هذا كله أن الحلفاء طلبوا من لويس الثامن عشر الموافقة على انقاص برقة فرنسا . لقد كان المثل الأعلى الذى اعتنقته الثورة واعتنقه

نابليون هو أن فرنسا يجب أن تحقق حلم الدبلوماسية الفرنسية القديم بتوسيع أراضيها حتى تصل الى حدودها الطبيعية فتضم بلجيكا والصفقة الغربية للراين . وقد تحقق هذا المثل الأعلى ، وحازت فرنسا تلك الأراضي مايربو على العشرين عاما . وهاهى ذى الآن تطالب بتسليمها .

أما الحلفاء فلم يضيعوا وقتا في الزام فرنسا بأداء تلك التضحيات . وفى ٣٠ مايو وقعت معاهدة باريس الأولى ، وفيها روعيت فرنسا بالتقدير الذى تسمح به الظروف - وان لم يكن بالتقدير الذى يرضى مشاعر الفرنسيين الوطنيين - فلم ينزع سلاحها ولا هى طولبت بدفع تعويض حربى أو رد روائع الفن التى نقلتها من إيطاليا وألمانيا . ولم يتقرر أن تعود حدودها فى أوروبا الى ماكانت عليه عام ١٧٨٩ ، وانما الى ماكانت عليه فى ١٧٩٢ ، بل انها حصلت على بعض الأراضي فيما وراء تلك الحدود . على أنه رأى أن تظل جزيرة مالطة التى غزاها نابليون ثم انتزعتها منه إنجلترا فى أيدي البريطانيين . أما خارج أوروبا فقد عوملت فرنسا معاملة أقل سخاء . فمع أنه قد سمح لها بالاحتفاظ بجميع مراكزها وامتيازاتها التجارية فى الهند ، الا أنها أرغمت على إخلاء جميع حصونها ، والنزول لانجلترا عن جزيرة موريشيوس وهى قاعدة بحرية فى طريق الهند . على أن الحلفاء أعادوا اليها جزيرة جواديلوب الغنية ، ومعظم ممتلكاتها الأخرى فى جزائر الهند الغربية . أما توباجو وساتنا لوتشيا (اللتان كانت لهما أهمية استراتيجية كبرى) فقد نزلت عنهما لانجلترا ، كما نزلت عن جزء من سان دومنجو لأسبانيا . واحتفظت لنفسها بحقوق الصيد التى كانت لها فى سانت لورنس وعلى سواحل نيوفوندا لاند . لقد نقصت حقا امتيازات فرنسا العسكرية فى مستعمراتها ، ولكن ثروتها التجارية ظلت عمليا دون مساس ، ولو شاء الحلفاء لحرموها جميع مستعمراتها بلا استثناء .

وقد أعلنت الدول العظمى فى البنود العلنية لمعاهدة باريس الأولى عزمها على إعادة هولندة الى الوجود مع توسيع أراضيها ، وتشكيل اتحاد ألماني مستقل ، والاعتراف باستقلال سويسرة ، وتشكيل إيطاليا جديدة تتألف من دول ذات سيادة خارجية عن حدود تلك الأقاليم التى تقرر عودتها الى النمسا . وتضمنت البنود السرية للمعاهدة ، ولا حاجة بنا لأن نتوقف عندها الآن ، المزيد من تفاصيل هذا التخطيط الأولي العام للأرضى الذى بنيت عليه تسويات فينا .

فقد تم الاتفاق بين الحلفاء على الاجتماع فى مؤتمر يعقد بفينا فى الخريف للاتفاق على أساس لتسوية الأوضاع فى بقية أنحاء أوروبا (خارج فرنسا) . ولكنهم رتبوا أمرهم فى غيبة فرنسا ودون أن يضعوها فى الحساب ، بيد أن هذه لم تلبث أن طالبت بالاشتراك فى مباحثات فينا بعد أن رد إليها اعتبارها وغفرت لها ذنوبها وأصبحت مرة أخرى دولة ملكية قريية الصلة بالنموذج القديم للدول الأوروبية . حضرت فرنسا المؤتمر للصيد فى الماء العكر والعمل لحسابها الخاص ، وتمكن ممثلها تاليران بالفعل من تعكير المياه بنجاح كبير ، فاشتبكت روسيا وبروسيا فى ناحية فى عراق عنيف مع النمسا وانجلترا فى ناحية أخرى . وهنا تقدم تاليران يمسك الميزان بيديه ويستخدمه لصالح فرنسا . وأخيرا بلغت الخلافات فى فينا فى بداية ١٨١٥ درجة خطيرة حدثت بفرنسا والنمسا وانجلترا الى تأليف حلف دفاعي لمقاومة مطالب روسيا وبروسيا (١) . وقد أسفرت هذه الخطوة المتطرفة عن نتائج

(١) وقع هذا الحلف العجيب فى ٣ يناير سنة ١٨١٥ ، والمفروض أنه كان من الوجهة الرسمية سرى لا يعلم عنه شيئا القيصر أسكندر وملك بروسيا بيد أنهما علما قطعا بفحواه فى وقت عقده . فكان لذلك اثر فوري ملحوظ تماما على سياستهما . وكان محور الخلاف بين الكتلة البروسية الروسية والكتلة الانجليزية الفرنسية النمساوية بسيطا ، فبروسيا كانت راغبة فى ضم سكسونيا بأكملها مقابل الجانب الكبير من الأرضى البولندية التى كانت بصدد التنازل عنه لروسيا . وقد أثرها أسكندر فى

طيبة : فقد استسلم 'اسكندر' في بعض النقاط وخذت بروسيا حذوه . وكانت جميع الأمور قد سويت في الواقع عندما فوجيء العالم بأنباء انطلاق نابليون من أسره في البا ، وفرار لويس الثامن عشر ، واستقبال فرنسا من جديد للإمبراطور الذي حكمت بسقوطه بقية أوروبا .

لقد وصفت عودة نابليون من البا ومعركة ووترلو التي تلتها بأنيهما « أروع مغامرة في التاريخ » . فوقائعهما أشبه ماتكون بالخيال ، اذ نزل نابليون أرض فرنسا على رأس قوة صغيرة وفتح صدره للجنود الملكيين فأبى هؤلاء إطلاق الرصاص عليه ، ثم اجتاز نصف فرنسا دون ما صعوبة أو اراقة دماء حتى وصل في ٢٠ مارس قصر التويلري فدخله . في ساعة متأخرة من الليل محمولاً على أعناق الجماهير التي بلغ حماسها حد الهوس . لقد قام أعظم العسكريين الأحياء بغزوة لم تسفك فيها نقطة واحدة من الدم ، وهاهو ذا يعلن عن عزمه على أن يصبح حاكماً دستورياً في الداخل وأن يقيم علاقات السلام مع جميع الدول في الخارج . ولكن كل شيء سيصير الى زوال ولما ينقض على عودته مائة يوم . انه لم يتجاوز بعد السادسة والأربعين ، ولا يزال

هذا الى أقصى حد في حين رفض مترنيخ السماح لها بمثل هذا التوسع الضخم في أراض مملوكة للتمسك ، وأيده في ذلك كاسلري وفي النهاية تاليران كذلك . وتفاقم الخلاف حتى بلغ شفا الحرب فلم يستسلم 'اسكندر' الا عند إيقانه من استعداد الكتلة الأخرى للقتال . وانتهى الأمر بحصول بروسيا على حوالي نصف سكسونيا لا أكثر . وقد بالغ البعض في تصوير الدور الذي لعبه تاليران في هذه المسألة . فالحق انه لم يخلق الخلافات بين الحلفاء ، فهي خلافات جوهرية ، ولكنه زادها اشتعالاً واستغلها لمصلحة فرنسا على أن الكثير مما كسبه لفرنسا لم يلبث أن ضاع اثر عودة نابليون .

انظر كتاب س . ك . وبستر « مؤتمر فيينا ١٨١٤ - ١٨١٥ » - صفحة ١٠٦ والصفحات التالية . (طبعة بل سنة ١٩٣٤)

C. K. Webster: The Congress of Vienna, 1814-15, pp. 106 sqq. (Bell, 1934).

أمامه من عمره ست سنوات أخرى . ولكنه في مساء ١٨ يونيو سوف يمتطي جواده ويولى ظهره لووترلو وللتاريخ في آن واحد .

وحتى لو فرض أن نابليون قد كسب المعركة في ووترلو لما كان من المستبعد أن تسحقه الجيوش النمساوية الروسية الزاحفة من الشرق بعد قليل . على أن هزيمته قد أنهت الأمر . ولم يبد الشعب الفرنسي رغبة في التعلق به بعد نكبته ، فرضخ من جديد لعودة الحكم إلى آل بوربون المنتفخين الخاملين . وليس لمغامرة نابليون من أهمية سوى أنها جلبت المزيد من المصائب على فرنسا . فالشروط التي فرضتها أوروبا على فرنسا جاءت أشد وأقسى هذه المرة . إذ أجبرت على دفع تعويض حربي ، وإعادة الأعمال الفنية ، والرضوخ لاحتلال قوات الحلفاء لأراضيها حتى عام ١٨١٨ . كما أُنقصت رقعة أراضيها في أوروبا من جديد فأعيدت لا إلى حدودها عام ١٧٩٢ وإنما إلى حدودها عام ١٧٩٠ ، مع حرمانها من بعض المواقع ذات الأهمية الاستراتيجية على الحدود (١) . والحق أن فرنسا كادت ترغم على النزول عن الالزاس واللورين لولا كاسلري وولنجتون وآراؤهما الحائرة على الاعتدال .

وإذا طرحنا جانبا الشروط الأقسى التي فرضت على فرنسا ، وجدنا أن تسوية فيينا لم تتأثر تأثرا محسوسا بعودة نابليون من الباء . ولقد وقعت معاهدة فيينا بالفعل في ٩ يونيو وقبل يوم ووترلو الحاسم ، وهي تتألف من عدة أقسام رئيسية . وخير وصف للقسم الأول هو أنه تسوية « التوازن الدولي » . فالمبدأ السائد فيه هو حصول كل دولة عظمى على الأراضي التي كانت في حوزتها عام ١٨٠٥ أو

(١) سجلت هذه الشروط المشددة في معاهدة باريس الثانية الموقعة في ٢٠ نوفمبر سنة ١٨١٥ . أما التسوية العامة لأوروبا التي وضعتها معاهدة فيينا الموقعة في ٩ يونيو سنة ١٨١٥ فقد تركت دون تغيير جوهري كما سنتبين في السطور التالية .

ما يعادلها . وقد نفذ ذلك بانصاف اذا ما استثنينا حالة روسيا التى كانت تتفاوض شاهرة السيف فى يدها فنالت أكثر مما كان يود لها حلفاؤها . من ذلك حصولها على جزء كبير من بولندة يشمل العاصمة « وارسو » التى استردتها من بروسيا ، واعدة بتأليف مملكة بولندية وطنية لها دستورها الخاص . وكان استيلاؤها على كل هذه انسلطه وهؤلاء الرعايا ، زائدا عن الحد ومخلا بالتوازن الدولى فى نظر كاسلرى ومترنيخ معا . وقد زاد من دواعى الانزعاج احتفاظ اسكندر بجيش يقرب عدده من مليون رجل أى حوالى ضعف العدد الذى يراه ذوو الرأى السديد لازما .

وقد طبق مبدأ التوازن الدولى تطبيقا عادلا فى ألمانيا ، وان شكت بروسيا من أن الأراضى التى حصلت عليها أقل من تلك التى كانت تملكها عام ١٨٠٥ ، وكان هذا صحيحا ، ولكنها كانت تسيطر فى ١٨٠٥ على رقعة كبيرة من الأراضى البولندية وقد بادلت بها الآن نصف سكسونيا ومقاطعة الراين وهى أراض ألمانية الدم واللسان . ومن الغريب أن بروسيا لم تبد فى ذلك الحين حماسة خاصة للحصول على تلك الغنيمة الأخيرة التى جعلت منها فى نهاية المطاف البطة القومية لألمانيا فى مواجهة فرنسا .

وقد وازنت النمسا نفوذ بروسيا فى ألمانيا بمنعها من ضم سكسونيا كلها كما كانت ترغب . كما أعاد مترنيخ بناء بافاريا كدولة قوية تستطيع النمسا الاطمئنان الى تعاونها . وحصلت هانوفر بفضل صلتها ببريطانيا على كسب طيب من الأراضى . أما سائر الدول الألمانية الصغرى فقد رسمت حدودها وفصلت معالمها وفق أهواء النمسا أو بروسيا . ولم يوضع أى اعتبار تقريبا لمصالحها الخاصة ، وان تكن عملية تخطيط الأراضى وتسوية الخلافات القديمة قد اتسمت - عموما - بقدر طيب من حسن الادراك والتصرف . وقد هبط العدد الاجمالى للدول

الألمانية الداخلة في الاتحاد الجديد الى ٣٩ ولاية . واحتفظت النمسا
بزعامه ألمانيا الفعلية وان لم تتخلف عنها بروسيا كثيرا .

والواقع أن النمسا لم تكن تهدف الى الحصول على مكاسب في
ألمانيا وانما في ايطاليا فنالت « ولاية البندقية » واستردت لومبارديا .
أما بقية الدول الايطالية فكانت توابع تسير بالفعل في فلكها . وقد
حصلت بيدمونت على جنوا الأمر الذي يساعدها على الدفاع عن
شمال ايطاليا ضد فرنسا . وأعيدت الولايات البابوية الى الوجود .
وأنشئت مملكة نابولي من جديد تحت حكم ملك من سلالة البوربون .
ووعده ملك نابولي في معاهدة سرية عقدت بينه وبين مترنيخ (بموافقة
كاسلري) بالألا يمنح بلاده دستورا دون الحصول على موافقة النمسا .
وكان مترنيخ يهدف صراحة الى تحطيم ايطاليا وتمزيق أوصالها ، ويرى
في الدستور شيئا قد يؤدي الى تحرك الثورة على آرائه . ومن هنا
جاء تصرفه السالف الذكر . وقد أيد مؤتمر فيينا وأكد ماذهب اليه
مترنيخ من أن ايطاليا انما هي « تعبير جغرافي » ليس الا .

والجزء الهام التالي من التسوية يخص هولندة ؛ وبلجيكا ؛ فقد
أدمج البلدان في مملكة واحدة تحقيقا للفكرة ذاتها ، وهي تدعيم قدرة
الدول الصغيرة على مقاومة فرنسا . وأكثر من هذا أعاد كاسلري الى
المملكة المتحدة للأراضي الوطنية مستعمرة جاوا الهولندية ذات الثروة
الهائلة ، وأقرضها مليونين من الجنيهات لتحسين حدودها ضد فرنسا .
وقد وصفت هذه السياسة بأنها « حكيمة وان جانبها التوفيق » .
والحق أنها لم توفق بالفعل ، ذلك أن البلجيكيين كانوا يكرهون
الهولنديين ، ولم يلبثوا أن انفصلوا عنهم في مدى خمسة عشر عاما .
على أن ثمة شكاً في أن كاسلري كان يعتقد أن عروضة الاقتصادية
السخية ستؤدي الى ايجاد الوفاق بين الشعيين .

واعترفت جميع الدول بسويسرة دولة مستقلة وضمنت لها حدودها واستعادت كل من أسبانيا والبرتغال حدودها القديمة في أوروبا . أما الدانيمرك فقد حرمت من النرويج التي تقرر تسليمها الى السويد . وقد خلف هذا الاجراء الكثير من الضغينة ، اذ اضطر كاسلرى الى تهديد النرويج بالحصار حتى تستسلم . هذا الحادث في ذاته ، وان يكن بغیضا ، لم يكن بالذى يجعل كاسلرى موزعا للملامة في نظر الدبلوماسيين العمليين . ذلك أن السويد قد أبت في لحظة عصبية الانضمام الى الائتلاف ضد نابليون مالم تنل وعدا بالحصول على النرويج فاضطر كاسلرى الى دفع الثمن^(١) .

كما تم الوصول الى بعض التسويات الأخرى في معاهدة فيينا نفسها أو فيما ترتب عليها من تدابير . فتم النظر بعين الانصاف في مطالب الأفراد الذين أصيبت ممتلكاتهم في الحرب ، وسويت نهائيا المنازعات المنغصة الخاصة بقواعد الأسبقية والسلوك الدبلوماسى . وسن مبدأ ينظم شئون الأنهار الدولية ، الأمر الذى ستكون له أهميته في المستقبل . وأعلنت منافاة تجارة الرق للمبادئ الانسانية ، فحرمتها فرنسا وأسبانيا وهولندة والسويد ، ووعدت البرتغال بتجريمها . والفضل في هذه المكاسب العظيمة للكرام الانسانية يرجع الى كاسلرى وحده تقريبا والى حماسة الشعب البريطانى من ورائه .

ان استنكار أعمال صانعى السلام في فيينا بوصفهم من غلاة الرجعيين المناهضين للأفكار التحررية قد أصبح من الأمور المألوفة . كان هؤلاء الساسة حقا من رجال العهد القديم الذين لم يتأثروا الى حد كبير — بالآراء الجديدة ، ولكنهم كانوا يمثلون أفضل ما فى العهد

(١) ونحن نجد مثلا يكاد يكون مطابقا تماما لهذا في معاهدة لندن السرية (٢٦ ابريل ١٩١٥) التي حصلت ايطاليا بموجبها على تنازلات كبرى من فرنسا وانجلترا وروسيا ثمننا لدخولها الحرب . ومهما يكن من أمر فقد عرضت معاهدة كاسلرى على مجلس العموم قبل اكراه النرويج

التقديم لا أسوأ مافيه ، وقد جنبت التسوية التي وضعوها أوروبا أهوال حرب كبرى طوال أربعين عاما . وكانت هذه التسوية عادلة في نظرهم فقد عوملت فيها فرنسا برأفة ، ورسمت التوفيقات الخاصة بالتوازن الدولي وتقسيم الأراضي بالدقة والأمانة التي يزن بها البديل بضائعه أو المصرفي حساباته . وروسيا وحدها هي التي كسبت نصيبا أكبر مما يقتضيه الانصاف وذلك لأنها كانت تملك قوات مسلحة أكبر من اللازم . وقد ضربت التسوية عرض الحائط بالمطالب الوطنية وفرضت « وحدات غير طبيعية » على النرويج والسويد ، وبلجيكا وهولندا . ولكن الشريك الأقوى (السويد وهولندا) كان في كلا الحالتين قد طالب ، وهو الحليف ، بذلك فلم يملك حلفاؤه ردا لمطلبه . وثمة نقد أخطر شأنا ألا وهو ازدياد آراء الدول الصغرى . ذلك أن التسوية قد ضحت دون ما رحمة بالدول الصغرى لمنفعة الدول الكبرى رغم أن المفروض فيها أنها ترمى الى إعادة العهد القديم وإقرار الحقوق القائمة . ولا يستطيع المرء أن يلتبس لهذا الجانب من أعمال صانعي السلم عذرا كافيا وهذا النقد هو أخطر نقد وجه لهم .

وقد اكتمل العمل الذي بدأ في فيينا ثم عطله نابليون ، بتوقيع معاهدين في باريس في ٢٠ نوفمبر سنة ١٨١٥ . وقد ألزمت احدهما (وهي معاهدة باريس الثانية) فرنسا بتنفيذ التدابير الجديدة التي فرضت عليها أثر عودة نابليون ، والرجوع الى الحدود التي كانت عليها في ١٧٩٠ ، ودفع التعويض المقرر ، وإعادة الأعمال الفنية الى العواصم الأجنبية . أما الأخرى فهي معاهدة التحالف الرباعي بين الدول الأربع العظمى ، التزمت هذه الدول بمقتضاها المحافظة بقوة السلاح ولمدة ٢٠ عاما على التدابير التي تم الاتفاق عليها في شومون وفيينا وباريس ، سواء من حيث الحدود المرسومة أو اقضاء بونابرث وأسرته نهائيا عن عرش فرنسا . وأخيرا اتفقت الدول الأربع في المادة السادسة من المعاهدة على « العودة للاجتماع في فترات محددة » لبحث المسائل

« ذات الأهمية المشتركة » . وفي هذه المادة الأخيرة تكمن نواة الحكومة الدولية المقبلة .

أما نواة انهيارها فكانت تكمن في اعلان مهيب صدر في ٢٦ سبتمبر ١٨١٥ وكان اسكندر يسعى من ورائه الى ربط جميع أصحاب التيجان في اتحاد مسيحي قوامه البر والسلم والمحبة . وكان المفروض أن يكون التوقيع على الاعلان للملوك وحدهم . ولم يتمكن الوصى على عرش بريطانيا العظمى من توقيعه ، وان يكن قد بعث برسالة شخصية الى اسكندر معربا عن عطفه على المعانى الواردة به ، وفيما عدا هذا الاستثناء فقد وقع الاعلان جميع ملوك أوروبا وكذلك رئيس الجمهورية السويسرية (١) . وجاء اكتسابه للأهمية من قبيل المصادفة ، اذ أصبح الأحرار الأوروبيون يعتبرونه عصبة بغیضة من الطغاة ضد حريات البشر . والحق أنه لم يكن كذلك ولا كانت له أية قوة ديبلوماسية أو أثر ملزم . فالبر والمحبة ليستا من الأشياء التى يمكن تحديدها بعبارات ديبلوماسية ، ولم يكن ثمة من أخذ « المعاهدة » مأخذ الجد سوى اسكندر نفسه . فكان كاسلرى يسميها « قطعة من الهراء والتصوف الرفيع » وكان مترنيخ يطلق الدعايات الدنسة على المسيحية اذا ما تطرق الحديث اليها . وكلاهما لم يعتبر نفسه ملزما بها على أى وجه (٢) .

(١) الموقعون الاصلون هم عواهل النمسا وروسيا وبروسيا . ولم يطلب أحد الى السلطان العثماني التوقيع على الاعلان وقد فكر اسكندر في وقت من الاوقات في دعوة رئيس جمهورية الولايات المتحدة الى ذلك .

(٢) ويمكننا ان نعقد هنا مقابلة مفيدة بين نصين (كتاب ١٠ هرتسليت خريطة أوروبا كما رسمتها المعاهدة ١٨٧٥) الجزء الاول ، الصفحات (٣١٨ - ٣٧٥) :

= (E. Hertslet : Map of Europe by Treaty (1875), vol. I. pp. 318,375)

أما الميثاق الذي أعترف به كاسلرى ومترنيخ فهو المحالفة الرباعية . ولكنهما اختلفا فى تفسيرها اختلفا بينا ففى رأى كاسلرى كانت انجلترا ملزمة بحماية الحدود الاقليمية التى وضعت فى فيينا لمدة عشرين عاما ، وملزمة أيضا بالاجتماع مع حلفائها فى مؤتمرات دورية، ولكنها غير ملزمة بالتدخل فى حالة قيام الثورة الداخلية فى أى بلد (فيما عدا محاولة ارجاع نابليون) . أما مترنيخ فكان يذهب الى أن المحالفة الرباعية تلزم أعضاءها بالتدخل المسلح لقمع الثورة الداخلية فى أى بلد اذا رأى المؤتمر ذلك . فلم يكن ثمة مناص من أن يصطدم الرأيان فى النهاية .

تابع « ٢ » من هامش الصفحة السابقة

المادة السادسة من محالفة باريس الرباعية - ٢٠ نوفمبر ١٨١٥ :

تيسيرا وضمانا لتنفيذ المعاهدة الحالية ، وتدعيما للصلات التى توحدها ، فى اللحظة الحاضرة ، العواهل الأربعة توحيدا وثيقا من أجل سعادة العالم ، اتفقت الأطراف السياسية المتعاقدة على استئناف اجتماعاتها فى فترات محددة سواء بتشريف العواهل أنفسهم أو بحضور وزرائهم ، بغية التشاور فى مصالحها المشتركة والبحث فى انجع التدابير لتوفير طمأنينة الأمم ورخائها فى كل فترة من تلك الفترات ، والمحافظة على السلم فى أوروبا .

المادة الثالثة من اعلان الحلف المقدس - ٢٦ سبتمبر ١٨١٥ :

« ومن ثم يكون المبدأ الوحيد الشافذ المفعول ، سواء بين الحكومات المذكورة أو بين رعاياها هو أن يؤدى بعضهم لبعض خدمات متبادلة ويؤكدوا فى نية خالصة غير قابلة للتغيير أو التبدل المحبة المتبادلة التى ينبغى أن تكون رائدهم ويعتبروا أنفسهم جميعا أعضاء فى أمة مسيحية واحدة والعواهل المتحالفون الثلاثة اذ يرون أنفسهم مجرد مبعوثين للعناية الإلهية لحكم ثلاثة فروع من تلك العائلة الواحدة الا وهى النمسا وبروسيا وروسيا ، انما يعترفون بذلك بأن العالم المسيحى الذى يشكلونهم وشعوبهم جزءا منه ، ليس له فى الحقيقة ملك آخر سوى العلى القدير ... »

الآ يرى المرء فى النص الأول روح اسكندر الحماسية المتصوفة الغامضة وفى الثانى روح كاسلرى العملية الجادة ؟

وقد نجحت الرقابة الدولية بعض الوقت . فأقطاب السياسة في أوروبا كانوا يعرفون بعضهم بعضا معرفة شخصية ، وكانوا جميعا معينين ببقاء فرنسا ساكنة ماضية في أداء ديونها . وفي الاجتماع الأول من هذه الاجتماعات الدورية الذي عقد في اكس لا شابيل عام ١٨١٨ ، اتفق رأيهم على أن سلوك فرنسا كان مرضيا ومن ثم وجب جلاء قوات الحلفاء عن أراضيها فوراً . وهكذا غفر الحلفاء مرة أخرى لفرنسا ما تقدم من ذنوبها وردوا اليها اعتبارها وسمحوا لها بالانضمام من جديد إلى صفوف الدول العظمى . فكان أن ضمت إلى كتلة خماسية جديدة (تتألف منها ومن الدول الأربع العظمى) ودعيت للاشتراك في الاجتماعات الدورية التالية . على أن الحلفاء تمسكوا مع ذلك نمسكا شديدا بالمحالفه الرباعية ، فقد رأوا أنهم قد يضطرون بعد إلى استخدامها للعمل ضد فرنسا .

وفي ذلك الحين تقدم اسكندر مزهوا بمعاهدة الحلف المقدس مطالباً أصحاب التيجان بالاتحاد العام ضد الثورات . وقد أراد - فيما أراد - ارسال قوة مسلحة للحلفاء لمعاونة ملك أسبانيا على إخضاع مستعمراته الثائرة في أمريكا . فعارض كاسلري هذا المشروع بشدة وألح على المؤتمر بنقد فكرة استخدام القوة في أى عمل من هذا القبيل . ولكن اسكندر راح يواصل الضغط للأخذ بمبدأ التدخل الجماعي فما كان من كاسلري الا أن تصدى لمقاومته من جديد وانضم إليه مترنيخ هذه المرة . وأخيرا توصل الاثنان إلى ارضاء اسكندر وذلك بالاتفاق على صيغة غامضة عن التضامن الأدبي ، ذلك التضامن الذى لم يكن يعنى بالنسبة لهما الا أقل القليل وان بدا في نظر اسكندر ذا مغزى كبير .

وما برحت « الوحدة الأدبية » قائمة لمدة عامين آخرين ، حتى هبت عليها في ١٨٢٠ عاصفة هوجاء ، اذ نشبت ثورة عسكرية في أسبانيا راحت تطالب بدستور ١٨١٢ . الديمقراطى للغاية . وتعرضت حياة

الملك للخطر فاستسلم في النهاية لجميع مطالب الثوار . وقبل هذا الدستور غير العملى بالمرّة ، وأعلن نفسه ملكا دستوريا متحررا كل التحرر . ففزع اسكندر للأنباء اذ كان يخشى الجيش ويخافه ، الديموقراطية وكلاهما قد انتصر في أسبانيا . ولو تركت مثل هذه الحركات تنفثى لما أصبح هناك ملك واحد آمن على نفسه وعرشه . ولانحلت عرى الوحدة المسيحية . فما كان منه الا أن أصدر بيانا دوريا أعلن فيه أن من الواضح أن واجب سائر الملوك هو الاجتماع فورا في مؤتمر ، واستنكار دستور ١٨١٢ الأسباني ، وارسال جيش من الحلفاء لالغائه بالقوة اذا لزم الأمر ، زاعما أن الدول العظمى قد أقرت ذلك كله من قبل في اعلان الحلف المقدس في اكس لا شابل .

وازاء هذا التوسع المفرط في تفسير تعهدات فيينا اضطر كاسلري الى اعلان موقفه . فأصدر في ٥ مايو ١٨٢٠ وثيقة رسمية مطولة ، اتخذت أساسا للسياسة الخارجية البريطانية في القرن التاسع عشر^(١)، صرح فيها بأن انجلترا لم تتعهد الا بالحيولة دون عودة نابليون أو

(١) طبع النص الكامل لأول مرة في مجموعة «كامبريدج تاريخ السياسة الخارجية البريطانية»
المجلد الثاني الصفحات ٦٢٣-٦٣٣

ACmbridge History of British Foreign Policy, vol. II. pp. 623-633

انظر أيضا كتاب هـ لا تمبرلي ، ل بنسون

H. Temperley and L. Penson : "Foundations of British Foreign Policy" pp. 48-63 (C. U. P, 1938)

ونورد فيما يلي بعض المقتطفات «لقد كانت - (التحالف بين الدول العظمى) - اتحادا لاستعادة جانب كبير من القارة الاوربية وتحريره من السيطرة العسكرية الفرنسية . ويتحقق هزيمة الفاتح بسطت المحالفة حمايتها على الأوضاع التملك التي أقرها الصلح - بيد أنه لم يقصد بها أن تكون اتحادا لحكم العالم أو للاحرف على الشؤون الداخلية للدول الأخرى وقد تحوطت على وجه التخصيص ضد انتهاك فرنسا «لأوضاع التملك» التي تم اقرارها فنصت على الحيولة دون عبودة المفتصب (١٩)

أسرته الى فرنسا ، وبالمحافظة على التدابير الاقليمية المتفق عليها في فيينا بالقوة المسلحة لمدة عشرين عاما . وبين أنه يعتبر الثورة الاسبانية مسألة داخلية لا تشكل خطرا على البلاد الأخرى ، وأنه لا يرى مبررا لتأييد انجلترا أية محاولة لقمع تلك الثورة بالقوة . وأوضح لديلموماسيى القارة أن انجلترا تدين ، بأسرتها المالكة الحالية ودستورها ، لثورة داخلية . ومن ثم فانها لا تستطيع أن تنكر على البلاد الأخرى هذا الحق نفسه في تغيير شكل حكوماتها . فضلا عن ذلك فان الحكومة الانجليزية لا تستطيع أن تتصرف دون تأييد برلمانها وشعبها ، وهما لم يخطرا بأية التزامات سوى تلك التى تم الاتفاق

(نابليون) أو أى فرد من افراد أسرته الى العرش ، وجعلت الحكم انتورى الذى زلزل فرنسا ودمر أوروبا موضوع الانشغال بالها دائما - ولكن الاحتمالات التى انتوت اتخاذها كانت تنصب بصفة خاصة ضد الحكم الثورى في طبيعته العسكرية القائمة فعلا في فرنسا أكثر مما تنصب على المبادئ الديمقراطية التى كانت في ذلك الحين ، كما هي الآن ، منتشرة بصورة عامة جدا في شتى أنحاء أوروبا ...

«... وليس ثمة مالهو أكثر ضررا للدول القارة من اتخاذ شئونهم مادة للمناقشة اليومية في برلماننا ، وهو الأمر الذى سيترتب حتما على أسرع بعض الدول بأقلام نفسها في شئون الدول الأخرى ، اذا نحن وافقنا على المضي معهم بخطى متساوية في مثل هذا التدخل ...

«... والواقع أن شعورنا ليس واحدا ، ولا يمكن أن يكون كذلك ، بالنسبة لجميع المسائل ، فان وضعنا ونظمنا وطرائق تفكير شعبنا ومشاربهم تجعلنا نختلف عن غيرنا احتلافا جوهريا ...

«... وما من بلد يتبع نظام حكم نيابى يستطيع أن يتصرف وفقا لهذا المبدأ (مبدأ تدخل دولة بالقوة في الشئون الداخلية لدولة أخرى) - وكلما عجلنا بالعلان نكار أن مثل هذا المبدأ يكون - على أى نحو - أساس محالفتنا كان ذلك أفضل ...

«... ونحن - (انجلترا) - سنقف في مكاننا عندما يتهدد نظام أوروبا (الاقليمي) خطر حقيقى ، ولكن هذا البلد لا يمكن أن يتصرف ولن يتصرف وافق مبادئ الحيطة المجردة القائمة على التكهّنات ... »

مجمل القول أن المحالفة يجب أن تظل « داخل حدودها المعقولة » على حدة تعبير كاسلرى نفسه .

عليها في فيينا على النحو الذى أوضحه . وأكد أن إنجلترا سوف تنفى
بتلك الالتزامات ولكنها لا تعترف بالالتزامات سواها .

وقد حسب دبلوماسيو القارة لأول وهلة أن إنجلترا ليست جادة
فيما تقول . كما أن ثورات ديموقراطية أخرى نشبت في نابولي
وبيدمونت والبرتغال مطالبة هي الأخرى بـ « دستور ١٨١٢ » ولما
كانت الثورة في كل من نابولي وبيدمونت تمس مترنيخ فقد تحول
الى الموافقة على فكرة عقد مؤتمر لبحثها . ولما كان كاسلرى لا يزال
يتردد في حضور مثل هذا المؤتمر فقد أرسل بعض مرؤوسيه لتمثيل
إنجلترا فيه .

واجتمع المؤتمر في أواخر ١٨٢٠ في « تروباو » فاندفع اسكندر
بعنف وحمية الى غرضه ووفق الى اقناع مترنيخ وبروسيا بالاشتراك
في بيان دورى يؤكد أن الدول الثلاث لن تعترف أبدا بحق أى شعب
في الحد من سلطة مليكه . بل لقد ذهب عواهل أوروبا الشرقية الثلاثة
في الواقع الى حد التهديد بشن الحرب ، لمصلحة الملوك ، على الثورات
أينما رفعت رأسها . وما ان ذاع ذلك حتى بادر كاسلرى بنشر رسالة
(يناير ١٨٢١) ردد فيها المعانى التى أعرب عنها في ٥ مايو ١٨٢٠ .
وأعلن في البرلمان أن منشور تروباو « يعوزه الادراك السليم » .

وأخذت الهوة بين الحلفاء تتسع ، ولكن اسكندر مضى في طريقه
فأصدر بيانات دورية أخرى مليئة « بالمشاعر الرنانة » وكلف مترنيخ
بوصفه أداة المحالفة اخماد الثورة والدستور في كل من نابولي
وبيدمونت . وزحفت الجيوش النمساوية الى ايطاليا في مارس ١٨٢١
فقضت على دستورى بيدمونت ونابولي ونصبت مليكيهما على عرشيهما
من جديد . وأعلن كاسلرى صراحة تنصله من كل علاقة بتلك
الأفعال .

وسوف يتبادر الى الظن أن فترة الحكم الدولى قد انتهت عند هذا

الحد ، لكن هذا القول لن يصدق بعد . ففي مارس ١٨٢١ نشبت ثورة في اليونان ضد الأتراك . ولم تكن في الواقع ثورة ديمقراطية ولا كان هدفها المطالبة بالدستور بأي حال من الأحوال وإنما كانت ثورة قومية أو حركة قام بها المسيحيون اليونانيون للتخلص من طغيان أجنبي بغرض : بيد أن مترنيخ لم يكن ليعترف بأي فارق بين محمود سلطان تركيا وفرديناند ملك نابولي أو فردناند ملك أسبانيا . فقد كان يرى أن قضية الملكية تتعرض للخطر في جميع الأحوال على حد سواء ، وأن تأييد «الاتحاد المعنوي» واجب في هذه الحالة كذلك . ثم انه كان يرى أنه قد يستطيع باتخاذ هذا الموقف الحيولة دون اعلان اسكندر الحرب ضد تركيا على الفور لمصلحة اخوانه في الدين في اليونان . ولما كان تقادى هذا الاحتمال الخطير ضروريا ، فقد اجتمع مترنيخ وكاسلري في هانوفر قبيل نهاية ١٨٢١ وسويا خلافتهما واتفقا على دعوة مؤتمر آخر كانا يأملان أن يحولا بهوساطته دون اتخاذ اسكندر أى اجراء ايجابى ضد تركيا .

وقد حدد خريف ١٨٢٢ موعدا للمؤتمر . ولكن حادثين وقعا قبل أن يلتئم شمله ، أولهما أن القلاقل في أسبانيا بلغت في يوليو درجة من الخطورة حفزت فرنسا الى الحديث عن التدخل هناك ، وثانيهما أن كاسلري قد انتحر في ٣ أغسطس بعد اختلال قواه العقلية . وإذا كان قد أبدى في سنواته الأخيرة بعض الاعتراضات على نظام المؤتمرات نفسه ، فقد خلفه كاننج الذى جاء على يديه القضاء على هذا النظام .

وسرعان ما شغل المؤتمر الذى انعقد في فيرونا بأمر أسبانيا بدلا من اليونان . فقد سألت فرنسا الحلفاء في بداية المؤتمر عما اذا كانوا سيؤيدونها في غزو أسبانيا ، فأرسل كاننج ، الذى كان ينظر الى تلك المؤتمرات نظرة ملؤها الشك والريبة ، تعليماته بالألا تشترك انجلترا في

أى مشروع للتدخل بالقوة أو بالتهديد « مهما تكن العاقبة » . وأفضى ولنجتون بهذه التعليمات الى المؤتمر فى ٣٠ أكتوبر ١٨٢٢ ، فكان لها دوى القنبلة ، وحالت دون تدخل الحلف ككل تدخلا عسكريا فى أسبانيا ، وان تدخلت فرنسا بصورة منفردة (١) .

لقد أضر موقف كاننج فى ١٨٢٢ بـ « التضامن المعنوى » لأوروبا وبنظام المؤتمرات . ولكن هذا النظام لم يخفف من الوجود على التو . ففى ديسمبر ١٨٢٣ دعا ملك أسبانيا الذى أعيد الى عرشه ، الحلفاء الى عقد مؤتمر لبحث شئون أمريكا الأسبانية . وكم كانت دهشة أوروبا حين امتنع كاننج ببساطة عن ارسال مندوب عن حكومته (٣٠ يناير ١٨٢٤) فكانت النتيجة أن فشل المؤتمر . وقد حاول اسكندر بعد ذلك أن يدعو فى غضون عام ١٨٢٤ مؤتمرا لبحث مسألة تركيا واليونان . ولكن كاننج رفض فى النهاية حضور هذا المؤتمر نيابة عن انجلترا فى نوفمبر ١٨٢٤ . فاجتمعت الدول الأربع العظمى الأخرى رغم ذلك بسان بطرسبورج فى يناير ١٨٢٥ ، وان يكن مؤتمرها قد انفض فى مايو دون الاتفاق على شىء بعد أن دب بينها الخلاف وسوء التفاهم . فكانت تلك ، فى الحقيقة والواقع ، نهاية نظام المؤتمرات .

ونورد فيما يلى اعتراضات كاننج على ذلك النظام الذى كان يرمى الى اقامة حكومة دولية . قال ان عقد المؤتمرات شىء مناسب جدا لوضع معاهدة . أما نظام « الاجتماعات الدورية » للدول الكبرى فخطير للغاية . فالشعب الانجليزى أولا لا يروق له أن يرى مندوبه الذى يمثل دولة برلمانية ، يتفاوض سرا مع دول استبدادية ، ثم أن

(١) غزت فرنسا أسبانيا آخر الامر على مسئوليتها الخاصة فى أبريل ١٨٢٣ وأعادت الملك فردناند وألغت الدستور الأسباني .

لأنجلترا صوتا واحدا وقد يتغلب عليها الآخرون بأصواتهم . ونظام المؤتمرات ثانيا يتجه الى اقامة نظام للتدخل العام بالقوة في الشؤون الداخلية لمختلف البلاد ، ومثل هذا النظام لا بد أن تعارضه إنجلترا تمشيا مع طبيعة حكومتها . وثالثا أن الدول الصغرى ليست ممثلة في هذه المؤتمرات فحقوقها عرضة للاغفال أو الضياع . ولم يكن كاننج ليمانع في عقد مؤتمر يقتصر على سياسة « التضامن المعنوي » ويضع رغبات الدول الصغرى موضع الاعتبار وينبذ استخدام القوة . ولكن نظام المؤتمرات على الصورة التي تطور بها حتى عام ١٨٣٢ ، كان بعيدا عن ذلك كل البعد فرأى كاننج أن من الأفضل أن تعارضه إنجلترا كلية ، وقد وفق في هذه المعارضة توفيقا تاما . إذ لم يعد لنظام المؤتمر أى اعتبار من ١٨٢٥ فصاعدا . وحدد كاننج السياسة التي تنتهجها أوروبا بالآتي « كل أمة ترفع مصلحتها والله يرعانا جميعا ! »

بيد أنه ليس من الانصاف أن نترك هذه التجربة الجديدة الأولى للحكومة العالمية الدولية دون التنويه ببعض حسناتها . فان فكرة عقد الاجتماعات الشخصية ويجاد الثقة المتبادلة بين الحكام فكرة رائعة . وكان كاسلرى مخلصا في تشجيع تلك الاجتماعات وكذلك مترنيخ الى حد ما . ولكن اسكندر مضى شوطا أبعد وباندفاع أقوى مما يطيقان . فأصبح نظام المؤتمر بعد ١٨٢٠ أشبه في الواقع بنقابة للملوك تعمل لاختاد حريات الشعوب . ولم يكن بوسع إنجلترا البرلمانية أن توافق على استمرار ذلك النظام ، كما لم تشارك فيه فرنسا البرلمانية الا على مضض . أما الدول الصغرى التي لم تشترك فيه مطلقا فقد عارضته بطبيعة الحال . وقد انعقدت مرة أخرى في الثلاثينيات بعض المؤتمرات الأوروبية التي كان لها أثر حميد . ولكن لم تصدر منها ، رغم أن الزمام كان لا يزال في يد الدول الكبرى ، أية محاولة جماعية لبعث

مبادئ الحكم المطلق أو ادانة الثورات لمجرد أنها ثورات ، أو اعلان سياسة عامة للتدخل بالقوة ، وبذلك تمكنت انجلترا البرلمانية وفرنسا البرلمانية من الاجتماع بحرية مع ملوك شرق أوروبا الثلاثة المستبدين . والمؤتمر الذى سوى مسألة استقلال بلجيكا انما هو مثل طيب لامكان اجتماع الدول الكبرى دون ماحرج والقيام بعمل طيب يبقى على الزمن لأن كلا منها يحترم نظم الآخرين ويقدر الصعوبات التى تواجههم .

ويجدر بنا أن نقارن فترة الحكم بوساطة المؤتمرات بالمحاولة الكبرى الثانية لخلق منظمة دولية ، ونعنى بها المحاولة التى أخرجت الى الوجود عصبة الأمم فى ١٩١٩ (١) . ان اعلان الحلف المقدس لم تكن له فى الواقع صلة بمعاهدة فيينا ، فى حين أن ميثاق العصبة كان جزءا حيويا ، بل أكثر الأجزاء حيوية فيما هو ظاهر ، من معاهدة فرساي . وقد فشل الحكم عن طريق المؤتمرات لأنه حاول أولا أن يعزز ثم أن يفرض المبدأ الملكى على مختلف دول أوروبا . أما العصبة فكانت تضم ملكيات مستبدة ودستورية وجمهوريات وجماعات غير مكتملة السيادة . ولم يكن الأعضاء كما هو الحال فى الحلف المقدس « أعضاء فى أمة مسيحية واحدة » ، بل كانوا أعضاء فى عصبة للأمم تضم البوذيين والمسلمين والمسيحيين على السواء . وقد هاجم كاتنج نظام الحكم بوساطة المؤتمرات لأنه كان يمس حقوق الدول الصغرى . أما فى هذه المحاولة الثانية فكان بوسع الدول الصغرى أن تهزم بأصواتها الدول الكبرى فى « مجلس العصبة » وأن تبدى ماتشاهمن

(١) كتب هذا قبل قيام « الأمم المتحدة » وهى المحاولة الكبرى الثالثة (١) فى العصر الحديث لاقامة حكومة عالمية (راجع)

الآراء في الجمعية العامة للعصبة . وقد قضى نظام المؤتمر نخبه لتعذر التوفيق بين الحكم الاستبدادى ونظام الحرية البرلمانية ، أما عصبة الأمم فقد ظلت على قيد الحياة حتى قضى عليها نشوب حرب عالمية . وثمة حقيقة أضعفت المحاولتين اضعافا خطيرا هى أن صفة الشمول والعالمية كانت تعوزهما . ولم تتعلم الدول الكبرى فى المراتين سر التوفيق بين مصالحها القومية والصالح العام . ولم يحسن الوقت بعد لنقرر ما اذا كان صانعوا التجربة الكبرى الثالثة للتنظيم الدولى قد حفظوا الى ذلك السر .

الفصل العاشر الحكم الفردي والحكم الدستوري والثورة ١٨١٥ - ١٨٤٨

كان القصد من الاتحاد الألماني الذي أنشأته الدول الكبرى في ١٨١٥ هو تسليم ألمانيا للنمسا وبروسيا تنفيذاً فيها مشيئتهما. وسرعان ما أمسك مترنيخ بزمام القيادة في يديه . كانت أهدافه واقعية في بساطة وقسوة ، وإن أخفاها بكثير من الحذق تحت ستار من العبارات الطنانة . وقد اعتقد أن أول ما ينبغي عمله سحق الروح التحررية والدستورية والبرلمانية في ألمانيا . أما بروسيا فكانت على كل حال دولة عسكرية . (كان كاتنج يسميها « جندياً من الرأس الى أخمص القدم لا يفهم من السياسة الا دق الطبول وسوط الجندية ») فحتم على بروسيا اذن أن تسير في ركاب النمسا طالما انتهجت الأخيرة هذه السياسة الرجعية . ومن هنا جاءت ثقة مترنيخ في أنه سيكسب امتنانها وتأييدها بالفت في عضد التجارب الدستورية الواهنة التي قام بها حكام بافاريا وفرتمبرج وساكس - فايمر .. الخ . وقد أثبتت الأيام أن نجاحه في ذلك كان كاملاً .

فقد أسفر اجتماع الدول الألمانية في مؤتمر كارلسباد عام ١٨١٩ ، عن التصديق على مراسيم مترنيخ ، فووفق بالاجماع على التعليمات الخاصة بالتحكم في الصحافة وازهاق الجامعات وكبت حرية الرأي في شتى أنحاء ألمانيا . وبذلك أصبح مترنيخ يملك أداة بوليسية قوية راح يستخدمها دون ما رحمة أو هوادة . وقد وفق تماماً لفترة من الزمن ، فإن الثورات التي نشبت في أنحاء أوروبا خلال عاشر ١٨٢٠ - ١٨٢١ لم تمس ألمانيا حيث طفقت يد مترنيخ الحديدية تبث الرعب في

قلوب الأحرار . وقد نشأت بعض القلاقل الطفيفة في بعض الدول الألمانية على أثر الموجة الثورية التي قامت في أوروبا في ١٨٣٠ ، غير أنه لا شك في أن هذه الموجة كانت ستثير المزيد من القلاقل لولا مترنيخ . على أن سلطانه بدأ ينكمش منذ ذلك التاريخ . لم يكن لديه ما يقدمه لألمانيا الفتية سوى قمع الارهاب والحكم البوليسى ، وكان عهده قاحلا عقيما خلوا من الابداع . لقد كان من المحال أن يظل المد الصاعد في ألمانيا حبيس ذلك السد الضيق . فكان أن استمدت موجة ١٨٤٨ التي أطاحت لفترة من الزمن بجميع النظم القديمة في ألمانيا ، قوة مضاعفة من القمع نفسه ، وتكررت باختفاء مترنيخ والنمسا القديمة معا في ١٨٤٨ ، النهاية المعروفة لسياسة « من بعدى الطوفان » . لقد كان النظام الذى أقامه مترنيخ في ألمانيا جديرا بالاعجاب اذا نظرنا اليه كقوة سلبية ، ولكن مثل هذا النظام لا يمكن أن يدوم أبدا . ولئن جاز أن يفرض مثل هذا الحكم القائم على الكبت المقتصر الى الذكاء والكفاية على روسيا الى أجل غير مسمى ، فلقد قدر لمصير مترنيخ أن يكشف عن استحالة فرضه على « ألمانيا الانعزالية العميقة التفكير » ويسقوطة انهار — من أساسه — البناء المتعفن الذى نخره السوس ، وجاء البناء الجديد ، الذى سيثنيه بسمارك فيما بعد ، مختلفا في طبيعته تمام الاختلاف .

لقد اختفت النمسا القديمة من الوجود فعلا في ١٨٤٨ لأنها كانت دولة اقطاعية عتيقة مستبدة محتقرة . ولم تختف بروسيا القديمة من الوجود في ذلك الحين لأنها لم تكن في الواقع بروسيا القديمة وانما كانت بروسيا جديدة ولدت وسط المرارة والمهانة التى خلفها انتصار نابليون الساحق فى بينا . ذلك أن اصلاح الدولة البروسية فيما بين ١٨٠٦ — ١٨٤٨ قد شاهد تحولها من دولة تمت الى العصور الوسطى الى دولة حديثة تستثير الاعجاب بكفايتها وألميتها . وقد كانت النكبة التى حلت بروسيا فادحة الى درجة حفزت المحافظين أنفسهم الى

لاعتراف بضرورة الاصلاح ، وكانت المهانة التى أصابت الأمة كاملة الى حد أن كل طبقة كانت على استعداد لبذل التضحيات من أجل الاصلاح المنشود . لقد كانت بروسيا تتألف فى عهد فردريك الأكبر من طبقة من النبلاء الاقطاعيين الذين يحتكرون مناصب الجيش والدولة وطبقة صغيرة من سكان المدن الذين يصنعون الثروة وجموع من الأقتنان الذين كانوا وقودا للمدافع أو مصدرا لليد العاملة . أما فى ١٨٤٨ فلم يعد ببروسيا الا مواطنون أحرار هم أفضل تعليما وأكمل نظاما وأكثر همة وكفاية من أقرانهم فى سائر أنحاء ألمانيا .

كانت الحاجة الماسة الأولى بعد بينا هى الى اصلاح الجيش . وقد ألقى عبء هذه المهمة على كاهل شارنهورست^(١) ، ففرض التجنيد الاجبارى ونظام الخدمة القصيرة الأجل ، ودرب قوات ضخمة لا تنقل فى شجاعتها ومقدرتها وروحها المعنوية عن أية قوات أخرى فى أوروبا . وقد شحذ بلوخر - بنجاح - فى معارك ١٨١٣ و ١٨١٤ و ١٨١٥ ذلك السيف الذى صنعه شارنهورست ، فأصبح بمقدور النقاد ذوى الحكم المتزن أن يروا أن الجيش البروسى قد رد الى حال من الكفاية تفوق حاله السابقة . لقد كان الجيش فى بروسيا وقتئذ ، كعهده أبدا ، أهم عامل فى تطور الدولة . وما فتىء بسمارك يفسر نجاحه بقوله ان الجيش كان فى يده دائما . بيد أنه لولا « بينا » و « شارنهورست » لما أمكن أن تصل الآلة العسكرية البروسية الى ذلك الحد من الكمال على يد « رون » ، ليستخدمها « مولتكه »^(٢)

وقد تولى شتاين العظيم شئون الاصلاح الداخلى لفترة من الزمن ، فبدأ بالغاء الرق والنهوض بالتعليم وأتاح بذلك الفرصة لظهور الفرد

(١) تناولنا هذه التغييرات بتفصيل أكبر فى الفصل السابع .

(٢) فون مولتكه هو القائد البروسى الذى حقق النصر لبروسيا فى حرب

السبعين وفون رون كان وزيرا الحربى فى ذلك العصر .
(انظر فيما بعد فى الفصل ١٨ والفصل ١٩)

الحديث . فلقد أثبتت التجربة أن الاقتان في الدولة الحديثة ليسوا
أنفع كثيرا ، اقتصاديا أو سياسيا ، بل وعسكريا ، من العبيد الزنوج ،
وأن تحرير الفرد وتعليمه انما يعنيان جعله أنفع للدولة دون أن يترتب
على ذلك حتما أن تؤدي هذه التطورات الى الثورة أو انحلال الدولة .
فالكثير يتوقف على سابق تاريخ الشعب وسابق أسلوبه في التفكير .
والبروسيون قد عاشوا حياة الطاعة في ظل فردريك وفي ظل خلفائه
الضعفاء غير مدركين للتدهور الذي يحل بهم والنكبات التي تنتظرهم
في المستقبل ، وقبل أن تتاح لهم فسحة من الوقت للنهوض من تلك
النكبات ، قامت في بلادهم ثورة بدأها الملك بنفسه ، وتلتها في ظرف
سبع سنوات انتصارات عسكرية باهرة ومكاسب جديدة في الأراضي ،
فاستقر شعب بروسيا راضيا من جديد . ان مثل تلك الثورة لا بد وأن
تكون شيئا طيبا لاسيما وأن الملك هو الذي قام بها ، وقد ظلت
الثورات في بروسيا حتى عام ١٩١٤ « من صنع الملوك دائما » .

وهكذا نجد أنه بالرغم من حدوث تعديلات هائلة في كافة النواحي ،
فإن الجهاز الذي ظل يحكم البلاد ويحدث فيها التعديلات ، ظل
كما هو دون أن يطرأ عليه تعديل . والحق أن الملك لم يكن هو الذي
أحدث التعديلات وانما سمح لوزرائه باحداثها وان لم يدرك معظم
البروسيين تلك الحقيقة . وهكذا قامت البيروقراطية البروسية التي
تجمع بين الكفاية والنزاهة ، باصلاح الشؤون المالية وتنظيم أحوال
البلديات وتصريف أمور الدولة بمهارة متزايدة ، وأخيرا أطلقت الى
الوجود هيئة قدر لها أن تؤثر على ألمانيا كلها ، وذلك بالتسلل ، في
حيلة ودهاء ، الى كافة أوجه النشاط التجارى والامتزاج به .

ففي ١٨١٨ شرعت بروسيا في العمل على انشاء « زولفرين »

أو الاتحاد الجمركي (١) . وقد بدأت مساعيها بداية متواضعة وذلك بالتفاوض لعقد اتفاقيات جمركية مع بضع ولايات . وما برحت تعمل على تحقيق مصلحتها الخاصة في حذر وبراعة ودون ما هوادة ، فجعلت تعدل تعريفها الجمركية على نحو يعود بالنفع على الولايات الداخلة في الزولفرين ويضر تلك الباقية خارجه . كانت أساليبها أشبه بأساليب مدير الشركة الاحتكارية الذي يعتصر منافسيه الصغار بكل وسيلة عادلة كانت أو ظالمة ، مستخدما ما لديه من رأس مال أضخم وكفايات أبرع . فاذا ماتم مراده أصبح مستعدا لمواجهة منافسيه الكبار وسحقهم . ومن مظاهر غفلة النمسا أن مترنيخ جعل يثير حفيظة الولايات الصغرى بتنظيم الهجمات البوليسية وارهاب الصحفيين والإساتذة فيها في الوقت الذي انصرف فيه البروسيون الى المساومة مع رجال الأعمال في تلك الولايات . وقد أدرك مترنيخ الذي لم يكن له في الاقتصاد باع ، الموقف على حقيقته بعد ضياع الفرصة ، فعمل في سنة ١٨٣٤ على تنظيم المقاومة للزولفرين ، ولكن أوان المقاومة كان قد فات . فقد انضمت بافاريا وسكسونيا الى الاتحاد في ذلك العام ، وبحلول عام ١٨٤٤ كانت ألمانيا بأسرها تقريبا قد انضمت اليه فلم يبق خارجه سوى النمسا وهانوفر وأولدنبيرج ومكلينبورج ومدن هنسا الثلاث . وألقى الأعضاء أنفسهم مشدودين الى بروسيا بخيوط تلك الشبكة الاقتصادية الحريية التي وقعوا فيها قبل أن يفتنوا الى حقيقتها . وبمر السنوات أخذت الشبكة تقوى والقيود تزداد ، وكلما دخلت ولاية جديدة استعصى الانسحاب منه على الدول المنضمة اليه

(١) كانت حاجة بروسيا الى اتحاد جمركي ماسة بالطبع . ففي حين كانت أراضي النمسا نائية ومتمتعة بالاكتماء الذاتي الى حد ما ، لم تكن أراضي بروسيا تمثل أى وحدة اقتصادية حقيقية ، وكانت تلاصق حدود نحو من اثنتى عشرة ولاية ، ومن ثم فقد كان فرض تعريف جمركية ألمانية موحدة في صالح بروسيا الى أبعد حد .

ونعذرت مقاومته على الدول الخارجة عنه . وبعجى عام ١٨٤٨ صار فعلا لبروسيا التفوق الاقتصادى فى ألمانيا ، فكان ذلك بشيرا عاملا الى حد ما فى تفوقها العسكرى والسياسى المقبل .

ومن الجلى أنه كانت هناك بعض العيوب فى السياسة البروسية قبل ١٨٤٨ ، والا ما تعرضت للنكبة والمهانة فى تلك السنة . والحق أنه بالرغم من وضوح أفكارها الرئيسية فان تطبيق هذه الأفكار لم يتسم دائما بالثبات والاستقرار . اذ كان فردريك وليم الثالث (المتوفى ١٨٤٠) رجلا ضعيفا ولكنه أحسن صنعا بترك كل شىء لمستشاريه . أما فردريك وليم الرابع (١٨٤٠ - ١٨٦١) فكان فنانا رومانتيكيا نابها خاتته قواه العقلية فى نهاية حياته ، ولكن تدخله المضطرب قبل ذلك الحادث فى شئون الدولة قد أضر اضرارا بالغة بوحدة السياسة البروسية وتوجيهها . فمعاملة البولنديين فى بروسيا فى عهده لم تعالج بحكمة ، اذ كانت السلطات تسعى تارة الى تملقهم وتعمد تارة أخرى الى بث الرعب فى قلوبهم . ورغم أن اكتساب البولنديين بالطريقة الأولى ، أو ارهايقهم بالثانية ، كان أمرا ممكنا ، فانهم كانوا من الفطنة بحيث لم يملكوا الا احتقار ومناوأة تلك الحكومة التى عجزت عن أن تستقر على موقف بشأنهم ، سواء أكان موقف البر بهم أو القسوة عليهم .

وثمة مسألة أشد خطورة ألا وهى الموقف بالنسبة للبرلمان والدستور (١) . كان هاردنبرج - أحد كبار عظماء المصلحين الذين عرفتهم بروسيا بعد بينا - وكان من مؤيدى فكرة وجود الاثنين : البرلمان والدستور وكذلك تأمين قدر معقول من حرية الرأى والقول ، ولكن علله

(١) البرلمان والدستور لم يكونا شيئا واحدا تماما فى ألمانيا وعلى هذا يمكننا أن نصف تجارب فردريك الرابع آراء مجالس الطبقات estates فى دولته بأنها برلمانية وأن لم تكن دستورية .

الشخصية ومعارضة البيروقراطيين الآخرين حالت دون تحقيق فكرته . فقد كان التيار الغالب بين البيروقراطية البروسية مؤيدا للحكم المطلق المستنير ، لفكرة تصريف شئون الدولة بوساطة الخبراء ودون ما اعتبار للحكم النيابي أو الجمعيات التشريعية أو الصحافة . ولكن فردريك وليم الرابع أبى قبول ذلك الرأى .

لم يكن فردريك وليم الرابع من المؤمنين بالبرلمانات الحديثة وإنما بنظام المجالس القطاعية أو البرلمانات الاقليمية الصغيرة أو الجمعيات التى تنتظم كل منها فى طبقات مختلفة كسكان المدن أو النبلاء وغيرهم . وقد أجرى تجارب لا حصر لها فى هذه الاتجاهات ، فدعا صنوفا وألوانا من المجالس الطبقية الواحد تلو الآخر ، وخطبها فى بلاغة ملتبة ، ثم لا يلبث أن يسخط عليها بمجرد ابدائها أقل رغبة فى تأكيد استقلالها أو الحصول على ما يقرب من سلطات المجالس التشريعية الحديثة . لقد كانت سياسته كلها فى هذا الصدد غريبة محيرة ، حقا لقد فعل ماكان كافيا لاذكاء الأفكار البرلمانية بين رعاياه . وان لم يكن كافيا لاشباع تلك الأفكار على أى وجه . اذ كان يقر بضرورة ايجاد نظام برلمانى ما ، ولكنه لم يوجد نظاما متماسكا أو مفهوما ، فكان هذا الموقف وحده الكفيل باثارة السخط وايقاظ الألمانى . ونحن نجد فى استشاراته العاطفية لولاء شعبه وعجزه الغريب عن تحقيق رغبات الشعب سر الكثير من الفوضى والاضطراب اللذين شاهدتهم بروسيا خلال عامى ١٩٤٨ و ١٨٤٩ . كانت البيروقراطية تدعو الى ايجاد أداة حكومية مدنية يديرها عقل واحد وتتسم بالكفاية وتفعل كل شئ من أجل الشعب ولا شئ بوساطته يساندها فى ذلك حيش درب على الطاعة العمياء، وكانت هذه على الأقل سياسة متماسكة . ولو أن فردريك وليم انتهج هذه السياسة فى ١٨٤٨ لكان من الجائز أن تراق بعض الدماء ولكن لن تكون ثمة فوضى ولاخيبة رجاء . وأما الذى

حدث فعلا فهو أن الملكية قد جلبت على نفسها اللوم عن اراقة الدماء والفوضى وخيبة الأمل جميعا . ولكن البيروقراطية والجيش هما اللذان مكننا الملك من التغلب على العاصفة .

أما فرنسا فقد بدأت في ١٨١٥ تجربة الملكية الدستورية . ذلك أن اسكندر قد أصر على أن لا يعود البوربون اليها الا بعد منح الشعب ميثاقا ، والدخول في تجربة دستورية . فوافق لويس الثامن عشر على هذا التطور ولكنه حاول الاحتفاظ بأكبر قدر ممكن من السلطة . لقد كان أحكم من وزرائه ولكنه كان خاملا كسولا الى أبعد حد ، ومن ثم صارت الغلبة لسياسة وزرائه من أنصار الكنيسة وأنصار الحكم المطلق (١) والاستبداديين (الذين يطلق عليهم عادة اسم الغلاة) . وقد أظهروا افتقارهم الى الحكمة في كافة النواحي . فقد أنقصوا عدد الجيش ، وعمدوا الى تكميم الصحافة ، أو رشوتها أو اربابها ، وارتكبوا شتى صنوف الأخطاء فألغوا العلم المثلث الألوان ، وأعدموا المارشال ناي أثر هزيمة نابليون في ووترلو . فكان مما أثار حفيظة الفرنسيين أن يدان هذا الرجل الذي كان بطلا عسكريا لا شخصية سياسية ، بوسائل مريبة وأن يعدم في ظروف تتسم بالوحشية المفرطة . وذكر صراحة أنه أعدم بتوجيه من الحلفاء (وفي هذا القول نصيب من الصدق) . وذهب البعض الى أن سقوط البوربون إنما يرجع الى اعدام « أشجع الشجعان » .

كما جانب التوفيق حكام فرنسا الجدد فيما اتخذوا من تدابير داخلية على وجه الخصوص . فان رد أملاك المهاجرين اليهم والانعام على الكنيسة بالأراضي ، أوحيا الى الرجل العادى بأن البوربون يزعمون انتزاع الأرض من الفلاحين وقلب النتائج التي حققتها الثورة

رأساً على عقب . ورغم الجهود الضخمة المبذولة لاختاد المعارضة فقد أخذت هذه المعارضة تشتد في البرلمان وتقوى . وفي عام ١٨٢٣ قامت الحكومة بمغامرة جريئة اذ شنت الحرب على أسبانيا التي أرغمت ملكا بوربونيا على قبول دستور ديموقراطى ، ونجحت الحملة نجاحا مرموقا اذ أطلق سراح الملك وألغى الدستور وعاد دوق دانجوليم الذى كان على رأس تلك القوات الى باريس مظفرا . غير أن الكل كان يعرف أنه عديم التجربة وأن ماريشال نابليون الذى رافقه هو الذى كسب له أكايل الغار التي توجت رأسه ، فلم يكن لهذه الأمجاد الزائفة من أثر سوى ايقاظ غضب محاربى نابليون القديما وازدرائهم . وفي ١٨٢٤ مات لويس الثامن عشر فزال بموته آخر روادع التعقل على حرية الغلاة . بدأ شارل العاشر عهده بداية حسنة باعلانه الولاء للنظم البرلمانية وارضائه حب الفرنسيين للأبهة والمظاهر . ولكنه سرعان ما فقد حب الشعب ، اذ كان في الحقيقة من غلاة الرجعيين وأنصار الكنيسة قلبا وقالبا . فأخذت فرنسا تحس بالضجر والسامة ، وسامة الشعب في فرنسا خطر على حكامها أى خطر ! . وفي ١٨٢٧ اشتدت المعارضة في البرلمان ، وتزعزعت ثقة الحكام في الحرس الوطنى فلم يعد أمامهم محيص من حله ، وعزل فيليل الذى ظل رئيسا للوزراء منذ ١٨٢٢ ، فخلفه - بعد فترة - بولينياك الذى كان ديبلوماسيا بارعا في حيك الدسائس وغير صالح بالمرّة لهذا المنصب . اذ كان مترمنا في وطنيته وتلك سيئة ، مغاليا في ارتباطه بالكنيسة وتلك أسوأ ، وعدوا للبرلمان وهذه كانت القاضية . ولما كان يؤمن فيما يبدو بأن اتباع « سياسة خارجية نشطة » من شأنه أن يؤدى الى رضاء فرنسا بفقدان الحريات القليلة التي بقيت لها ، فقد أعد خطة لغزو بلجيكا (الأمر الذى كان يعنى حتما الدخول في حرب ضد انجلترا) وراح يتأمر في الوقت نفسه على قلب برلمان فرنسا ودستورها . وقد ثارت على تصرفاته ثائرة رأى العام ، فما كان من هذا المتأمر المزهو بنفسه الا أن أوغر في

النهاية الى الملك باصدار مراسيم لتعطيل البرلمان وتكسيم الصحافة .
ان خير ما يمكن أن يقال عن بولنيك هو أنه كان جاهلا تماما بقوى
الرأى العام فى فرنسا . والثورة التى تلت انما هى الى حد بعيد من
تدبير لافاييت وتاليران وهما رجلان قلما يتفقان ، فكان اتفاقهما فى
تلك المناسبة ذا دلالة بالغة . كانت خطتهما ترمى الى اقامة ملكية
دستورية من النوع الانجليزى يرأسها لوى فيليب (البوربونى من
فرع أورليان) بوصفه بورجوازيا متينا وملكا دستوريا . وقد تمكنا
بصعوبة ضئيلة نسبيا من اقناع الرأى العام باتاحة الفرصة لهذه
التجربة ، وقبول لوى فيليب حاكما . ولم يكن الاختيار سيئا ، وقد
انبهرت أوروبا لما حدث . فهاهى ذى ثورة تحدث فى فرنسا دون ارافقة
دماء وتقيم ملكية دستورية راسخة . فبدا يومئذ أن تلك بوادر العصر
الألفى الذى تنعم فيه كافة الأمم ببرلمانات وتنطبع فيه « المانجا كارتا »
فى القلوب ، وحسب الناس فعلا أن الديمقراطية قد تم ترويضها .
كان لوى فيليب يتمتع بصفات عديدة تؤهله لمنصبه . كان حذرا
وان لم يتقيد بأية مبادئ ، ومدركا تماما أن عليه ألا ينسى البتة
ضرورة تقمص دوره كملك دستورى ، وكان رجب الصدر فى الشئون
الدينية فى حين كان أسلافه متزمتين . وقد تعمد أن يجرّد نفسه بكل
وسيلة من صفة الحق الالهى ، فأرسل أبناءه الى المدارس العادية ،
وكان يتمشى فى الطرقات حاملا مظلمته تحت ذراعه . واتخذ قصر
التويلرى مقبرا له ، وكان يظهر فى شرفته عن طيب خاطر
لينحنى لأى جمهور يصفق له فى الشارع . وكان حريصا على أن يبدو
بمظهر الورث لكل الاتجاهات التاريخية لفرنسا . فكان يزعم أنه
- كبوربونى - يمثل الماضى التاريخى ، وأنه ابن للمساواة^(١) وجندى

.. (١) ابن للمساواة : كلن أبوه يدعى فيليب . مساواة : (ايجاليتيه) . وكان من
أنصار الثورة وحارب فى صفوفها « المراجع »

حارب في معركة «جيماب» وأنه قد شارك في أمجاد الثورة . وقد أعاد للبلاد العلم المثلث الألوان والحرس الوطني، بل إنه لم يمانع في الاعتراف بنابليون نفسه . ففي عهده أعيد جثمان الفاتح العظيم ، تحت إشراف أحد أبناء البيت المالكي ، من سانت هيلانة ليرقد في أروع مشوى بالأنفاليد . كما ملأ - أى لوى فيليب - قصر فرساي بصور تمثل كافة المعارك التي عرفها تاريخ فرنسا ، وكرس القصر في خشوع لجميع أمجاد فرنسا .

وسوف يبدو لأول وهلة أنه مامن حاكم كان يستطيع أن يفعل المزيد أكثر مما فعل لوى فيليب لأرضاء رعاياه . وهو قد فعل الكثير حقاً بيد أنه لم يفعل ما فيه الكفاية . وقد يكون السر في فشله أن الثورة أو نابليون قد حفرا هوة سحيقة القرار تفصل بين فرنسا البوربونية وفرنسا التي خلفتها بحيث يستحيل الوصل بينهما . فما برح الفرنسيون يفتقدون في عهده كلمات الحرية والمساواة المدوية ، والانتصارات الخارقة على الملوك ، والشخصيات الأخاذة الباهرة . وعلى كل فإن آل البوربون كانوا قد فقدوا نهائياً كل اعتبار ولم يكن في وسع لوى فيليب أن ينكر أنه بوربونى . كانت أهدافه هى السلم والتجارة وليس في هذين أى بريق من النوع المحبب الى نفوس الفرنسيين . على أن ثورة ١٨٤٨ ما كانت لتحدث في أغلب الظن بسبب السأمة التي أحستها فرنسا وإن أرجعها لامارتين إليها . فثمة أسباب أعمق من ضيق باريس برتابة حكمه . فقد كان البرلمان مجمعا لرجال الأعمال والبورجوازيين تسير فيه الأمور بالرشوة والاحتيال ، وكان للوى فيليب في ذلك نصيب موفور فلم يكن من المستطاع أن تجد فرنسا مثلها الأعلى في ملك برع في اللعب بأوراقه البرلمانية بل كان يشك في أنه كان يغش في ذلك اللعب .

لقد انتهى حكم لويس فيليب الى الفشل حقاً في فرنسا ، ولكنه لم يخل من فوائد لأوروبا . فقد قدم في أيامه الأولى عوناً كبيراً لقضية

الحكم الدستوري وقضية السلام، وإن لم تجيء النتيجة في أي منهما الصالحة فإن هولنديك كان قد أعد بالفعل - كما أسلفنا - خطة للاستيلاء على جزء من بلجيكا بالقوة ، ولأمر في أن لويس فيليب كان يمتنى أن يرى ابنه الأصغر قد تربع على عرش بلجيكا ، معززا بذلك نفوذ فرنسا وسيطرتها على بلد مجاور ، ولكن الدخول في حرب أمر محرج جدا للملك كان يباهى بدستوريته ووجهه للسلم .

وقد نشبت في أغسطس ، كنتيجة مباشرة لثورة يوليو في فرنسا ، ثورة في بلجيكا . كانت ارهاصات لها قد بدأت منذ أمد طويل . كان البلجيكيون يمتنون الهولنديين فكانت الحركة في جوهرها حركة استقلال قومي . وقصتها أن وفدا بلجيكيا تقدم بشكواه للملك الهولندي بلاهاي مطالبا بادیء الأمر بالانفصال اداريا عن هولندا لا أكثر ، ومبديا استعدادده لقبول أمير أورانج نائبا للملك . ولكن الملك أصر على احتلال القوات الهولندية لبروكسل قبل اجابة هذه المطالب ، وأدى دخولها الى العاصمة البلجيكية الى نشوب قتال في الشوارع دام ثلاثة أيام (آخر سبتمبر ١٨٣٠) وأسفر عن طرد تلك القوات . وهنا هبت بلجيكا عن بكرة أبيها فوجدت القوات الهولندية نفسها حبيسة أسوار « أنتورب » و « مايزترخت » . وشكل الثوار حكومة مؤقتة ودعوا الى الانعقاد « مؤتمرا وطنيا » وأعلنوا أن « المقاطعات البلجيكية المنفصلة بالقوة عن هولندا ستؤلف دولة مستقلة » .

فأملت الحكمة على ملك هولندا أن يناشد الدول الخمس العظمى التدخل على اعتبار أن التسوية الاقليمية المعقودة في فيينا تتعرض للخطر ، وكان على حق في هذا ، فالمحالفة الرباعية كانت تضمن الاحتفاظ بالقوة ولمدة عشرين عاما بالحدود الاقليمية المرسومة في فيينا . وقد أقرت فرنسا هذه الحدود . فاذا خرق لويس فيليب الاتفاق أصبح من حق الدول الأربع العظمى الاخرى أن تشن عليه الحرب . كان مركز

لوى فيليب اذن دقيقا للغاية ، فكثير من الفرنسيين كانوا راغبين في ضم بلجيكا أو جزء منها . فلو أنه استسلم لرغبات هؤلاء الوطنيين الفرنسيين لخاطر بدخول حرب ضد أوروبا ، ولو استسلم لرغبات أوروبا لخاطر بعرشه في فرنسا .

وكان الموقف شائكا بالنسبة للحلفاء الأربعة أيضا . فهاهى ذى أول ثغرة توشك أن تنشق في الصرح الذى شيد في فيينا . فهل يسمحون بذلك أم لا يسمحون ؟ ولحسن الحظ لم تكن ملكيات الشرق الكبرى الثلاث ذوات الحكم الاستبدادى مهياة لاتخاذ اجراء فورى في الأمر . فجاء الاهتمام الاكبر بالقضية من جانب انجلترا . غير أن الضجة التى أثيرت في انجلترا حول قانون الاصلاح الكبير أسفرت في نوفمبر ١٨٣٠ ، وقبل أن تقطع المفاوضات شوطا كبيرا ، عن تغيير الحكومة وتولى بالمرستون وزارة الخارجية . فكأنما بعثت العناية الالهية في تلك اللحظة بالرجل المناسب للموقف . كان بالمرستون مصمما كل التصميم على عدم السماح لفرنسا بكسب أى تفوذ في بلجيكا . ولكنه لم يكن مصمما بنفس الدرجة على التمسك بتسويات فيينا . فالمعاهدات مصيرها على كل حال أن تنتهى في وقت من الأوقات . وهو لم يكن يعتد كثيرا بتسوية فيينا بالذات . وكان كتلميذ لكاننج يعطف على فكرة القومية ، ويرى أن بلجيكا يمكن ، اذا ما تحولت الى دولة ، أن تستخدم درعا واقيا ضد فرنسا . وكان له من حسن الادراك ما مكنه من أن يرى أن بقاء بلجيكا بلدا متبرما ملحقا بهولندية من شأنه أن يعرئ فرنسا بالهجوم عليها ، في حين أن بلجيكا المستقلة الحرة ستكون أقدر على صد ذلك الهجوم . ولم يكن على هذا كله . يستبعد فكرة إمكان إقامة حكم ذاتى في بلجيكا على رأسه حاكم هولندى منفصل .

وقد اجتمع المؤتمر الوطنى البلجيكى في ١٠ نوفمبر ١٨٣٠ ببروكسل . وكان الأعضاء يميلون بمشاعرهم الى فرنسا ، ولولا الخوف من

انجلترا لاختير للعرش - على الأرجح - أمير فرنسى . غير أن الذى حدث فعلا هو أن المؤتمر أعلن خلع بيت أورانج وخلو العرش واختيار الملكية الوراثية المقيدة شكلا للحكومة المقبلة . فما كان من الدول الخمس العظمى الا أن أخطرت المؤتمر البلجيكي بضرورة الابقاء على بيت أورانج ، وهددت باحتلال الجيوش المتحالفة للبلاد ما لم يحدث ذلك . فرفض المؤتمر البلجيكي بأباء وشمم أن يستسلم ولكن كان من حسن طالعهم أن نشبت ثورة فى بولندة فى نهاية نوفمبر ، فاسترعت عناية القيصر المباشرة ، وأثارت ، على نحو غير مباشر ، اهتمام كل من النمسا وبروسيا اللتين كان رعاياهما البولنديون يعطفون على الثورة . ومن ثم فقد تحولت أنظار الدول الشرقية الثلاث إلى جهة أخرى ، وترك بالمرستون وحده لىواجه لوى فيليب .

وقد أرسل هذا الأخير تاليران إلى انجلترا ليحاول الحصول على مكاسب من بالمرستون . بيد أن الديبلوماسى العتيد وجد صنوه . كانت أوراقه خاسرة ، ولم يكن بالمرستون يهاب اللعب بأوراقه الراحبة . وقد أنشأ تاليران يطالب لفرنسا بلكسمبورج أولا ثم فيلبيفيل ومارينبورج ، فلم يظهر بالمرستون أدنى استعداد للتسليم بشئ من ذلك مما اضطر تاليران إلى التراجع . وكان الحل الذى أتقذ ماء وجه فرنسا هو اعلان حياد بلجيكا الدائم وأن تتعهد الدول الخمس بكفالاته . وقد أعلن هذا القرار فى يناير ١٨٣١ . فجعلت الحكومة الفرنسية تترغى وتزبد وتتحدث عن التنكر لما التزم به تاليران ، بيد أنها قبلت فى النهاية هذه الشروط وكذلك فعل ملك هولندة . أما المؤتمر البلجيكي فقد رفض ذلك الحل وبقي احتمال تعيين أمير فرنسى مائلا . وفى ٣ فبراير اختار المؤتمر فعلا الدوق دى نيمور الابن الثانى للوى فيليب ملكا 'بلجيكا' ، وحينئذ بعثت الدول الخمس بانذار نهائى لبلجيكا ضمنته مطلبها الخاص بحياد بلجيكا مما يستتبع الغاء اختيار الدوق دى نيمور . وكان الموعد المحدد فى الانذار هو أول يونيو . وفى ٤ يونيو استسلم

المؤتمر وتراجع عن قراره السابق وانتخب ليوبولد ملكا للبلاد .
كان « ليوبولد » دى ساكس - كوبورج - جوثا زوجا للأميرة شارلوت ، وقد ظل بعد موتها مقيما بانجلترا . وكان من الأحرار مبدأ ، ورجلا قديرا حسيما للغاية . وقد تمكن بكياسته البالغة وصبره الذى لا ينفد ، من وضع تسوية سميت « البنود الثمانية عشرة » ، أقنع الدول الخمس العظمى بقبولها ، وقبلها المؤتمر البلجيكي أيضا . بعد عناء طويل . ولكن ملك هولندا رفضها وأرسل قواته مرة أخرى الى بلجيكا فى أغسطس . فرد لوى فيليب على ذلك فى التو بتسيير القوات الفرنسية الى بروكسل واحتلالها . فبدت التسوية أبعد ما تكون . منالا ، وظهر الخطر الفرنسى جسيما كعهده أبدا .

الا أن بالمرستون عاد الى اتخاذ موقف التشدد . وكانت الثورة البولندية قد انتهت فأبدى القيصر وملك بروسيا استعدادهما لارسال قواتهما لطرد الفرنسيين . فما كان من بالمرستون الا أن أخطر فرنسا فى خشونة وقفاظة بضرورة الجلاء عن بلجيكا « فى غضون أيام » . فوافقت على ذلك فى سبتمبر وتم الوصول الى التسوية اللازمة فى معاهدة الدول الخمس مع بلجيكا الموقعة فى ١٥ نوفمبر ١٨٣١ . ولكن ظهرت صعوبات وتعطيلات لا حصر لها . فقد مانعت الدول الشرقية الكبرى الثلاث فى إبرام تلك المعاهدة ، كما رفض ملك هولندا الجلاء عن أنتورب أو قبول المعاهدة أصلا . وأخيرا حسم الأمر بتدخل جيش فرنسى قام بالاشتراك مع أسطول فرنسى - بريطانى بطرد الهولنديين نهائيا من بلجيكا (١٨٣٢ - ١٨٣٣) . واقتضى الأمر ست سنوات أخرى قبل أن توقع الدول الخمس العظمى فى ١٩ أبريل ١٨٣٩ معاهدة نهائية ترضى جميع الأطراف . ان هذه المعاهدة التى أقرت استقلال بلجيكا آخر الأمر هى بعينها « قصاصة الورق » الشهيرة التى مزقتها ألمانيا عندما غزت بلجيكا فى سنة ١٩١٤ . ولقد أحسنا صنعا بتناول قصة بلجيكا هذه بشيء من التطويل .

السبيين : أولهما أنها توضح متاعب لوى فيليب في حرصه على السلم خشية الوطنيين المتزمطين في بلاده واضطراره الى التذبذب بين أوروبا وفرنسا محاولا حفظ توازنه بينهما . والسبب الأهم من هذا كله أنها توضح لنا الشغرة التى فتحت فى معاهدة فيينا باسم الاستقلال القومى ، وتسجل انتصار الاتجاهات البرلمانية والدستورية فى فرنسا وبلجيكا وانجلترا . وقد كانت ثمارها لبلجيكا طيبة من كل النواحي . فقد حصلت على ملك دستورى مثالى ، وتمكنت من وضع دستور تميز بالرحابة والتحرر . وشيدت ، فى ظل الضمان الدولى لحياها ، حياتها وخصائصها القومية وفنها الخاص وأدبها ووطنيتها وذاتيتها المتفردة . فان توفر مقومات الأمة لبلجيكا فى ١٨٣٠ كان أمرا مشكوكا فيه ، ولكنه صار حقيقة مؤكدة بعد ذلك بشانين عاما . وهى تعد مدينة بحياتها لبارمستون وبتطورها الرائع لليكها الأريب .

لقد أحرز بالرمستون فى مسألة بلجيكا نجاحا حاسما فى تعزيز قضية النظام الملكى الدستورى المقيد فى أوروبا ، ذلك لأن البلجيكين كانوا بطبيعتهم شعبا منظما مهيبا لاطاعة القانون والتمتع بنعمة الحرية . ولكنه سوف يفشل - لسبب عكسى تماما - فى تلقين دروس الحرية فى البرتغال وأسبانيا ، وسوف يشتبك نتيجة لذلك فى نزاع غير مستحب مع لوى فيليب . كان الموقف بسيطا فى اجماله وان بدت تفاصيله معقدة . ففى أوائل الثلاثينيات كانت تحكم البرتغال وأسبانيا ملكتان طفلتان ، وكان مستشاروهما من أنصار الاتجاهات الدستورية . وكان ينازع هاتين الملكتين ويشعل الثورات ضدهما مطالبان بالعرش من أنصار الحكم المطلق . فانحاز بالرمستون الى الدستوريين فى الحاليتين وعرض آخر الأمر التحالف مع ملكتى البرتغال وأسبانيا لطرد منافسيهما ، فقبل عرضه وانضمت فرنسا كذلك (٢٢ أبريل سنة ١٨٣٤) الى هذا التحالف الذى عرف باسم التحالف الرباعى . وتم طرد المطالب بعرش البرتغال بسهولة (١٨٣٤) ولكن الأمر احتاج الى

بضع سنوات للتخلص من دون كارلوس في أسبانيا (١٨٣٩) . وكان بالمرستون يأمل عن طريق هذا التحالف في تأليف كتلة دستورية في غرب أوروبا تحقق التوازن مع الملكيات الاستبدادية الثلاث في الشرق . وكان يحسب أن إنجلترا ستمسك الزمام في يدها وتوفق إلى استخدام البرتغال وأسبانيا في اقناع فرنسا بالسير في نفس الركاب . ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، فان أهمية البرتغال وأسبانيا كدولتين دستوريتين لم تكن بأكثر من أهميتهما كملكيتين استبداديتين . وكان يصح أن تتركا - بكل اطمئنان - لانتهاء خلافاتهما العقيمة السخيفة دون ماعون من الخارج . فقد أثبتت الأيام أنهما لم تكونا عوناً لـ لانجلترا ولا لفرنسا ، بل ان الذي حدث هو العكس ، فقد أقحمت المسألة الأسبانية هاتين الدولتين في خلاف خطير ساعده على سقوط لوى فيليب .

وقد تميز عهد لوى فيليب في معظمه ، ورغم وقوع عدة حوادث لها خطورتها ، بالتعاون المتزايد بين إنجلترا وفرنسا ، فتبودلت الزيارات الملكية بينهما وقام نوع من الاتفاق الودى (١) بدا كاملا بحلول ١٨٤٥ . ولم تكن تلك الحقبة من الحقب التي لا تنسى في تاريخ البلدين فحسب ، بل كانت أيضا دعامة هائلة للوى فيليب في فرنسا . ولذلك فان النزاع الذي حدث بينهما في ١٨٤٦ حول أسبانيا يدعو إلى الأسف المضاعف . وكان محوره مسألة زواج الملكة الصغيرة ايزابيلا وشقيقتها فاقترح لوى فيليب أخيرا حسما للخلاف أن تتزوج الملكة من فرنسيس دوق قادس على أن تتزوج شقيقتها من الدوق دى مونت بنسييه . إلا أن هذه التداير التي احتفل بها في ١٠ أكتوبر ١٨٤٦ ، كانت تخفى حيلة دنيئة . ذلك أن الحكومة الفرنسية كانت قد وعدت الحكومة البريطانية ألا يتم زواج شقيقة الملكة من أمير فرنسي حتى يتم زواج ايزابيلا

وتنجب أطفالا . على أن الزيجتين عقدتا في وقت واحد ، وظهر أن دوق فادس عاجز عن انجاب الاطفال^(١) ، ومن الواضح أن لوى فيليب كان يجسب أنه قد ضمن بذلك أن يؤول العرش للأسباني الى ابنه ، وان كان هو نفسه قد ندم على التجائه لتلك الحيلة .

كان غضب بالمرستون عارما ، فاحتج أعنف الاحتجاج على بسط فرنسا « لنفوذها غير المباشر » وعلى « وسائلها غير المشروعة » حيال أسبانيا . ولئن كانت الحرب لم تنشب أثر ذلك فإن العداوة قد قامت بين البلدين ، وخسر لوى فيليب خير صديق له في أوروبا ، وقضى على التفاهم الودى . وتبدد أى أمل في تأييد انجلترا له وبات استمرار عرشه وبقاء أسرته في الحكم متوقفا ، من الآن فصاعدا ، على فرنسا وعليه هو نفسه .

لقد ظل الكثيرون يعتقدون حتى عام ١٨٤٦ أن فرنسا قد تمكنت أخيرا من أن تعى الأساليب الانجليزية وراحت تبنى نظامها على نمط برلمان انجلترا ودستورها . فما أقل من كانوا يعرفون فرنسا ! فان نذر العاصفة لم تلبث أن جاءت من كل حدب وصوب . فالصحف الفرنسية طفقت تشدد النكير في تعليقاتها على سياسة الخداع التى تنتهجها الحكومة فى الداخل والخارج . ونقل جثمان نابليون الى الأنفالىد

(١) اما الاطفال الذين اتجبتهم ايزابيلا فى النهاية فهم - فيما هو ظاهر - أبناء شخص آخر غير زوجها والدوق دى مونت بنسييه هو ابن لوى فيليب . والرأى الذى أوردناه هنا هو رأى بالمرستون . راجع مكتب الوثائق العامة ، وزارة الخارجية ٢١/٩٦ مضبطة ٢٠ سبتمبر ١٨٤٦ ، ومضبطة ٢٢ أغسطس ١٨٤٧ التى توصى بـ « أن يلغى زواج الملكة ويختار لها قرين آخر أنسب » .

Public Record Office, F.O. 96/21, minute of September 30, 1846 and of August 22, 1847.

وراجع كذلك كتاب س . ا . فايف « أوروبا الحديثه » (١٩٢٤) - المجلد الثانى صفحة ١٨٢ ، وكتاب كامبردج « التاريخ الحديث » المجلد الحادى عشر ص ٥٥٥ .

C.A. Fyffe : Modern Europe (1924), vol. II. p. 182; Cambridge Modern History, vol. XI. p. 555.

قد بعث « البونا برتية » وأحيا عبادة نابليون في أعنف صورها . وبينما انصرف « ثيير » الى التغنى في أشعاره بفضائل النظام الامبراطورى راح لامارتين يوقظ في قرائه مشاعر الحماسة للنظام الجمهورى بكتابة البليغ « تاريخ الجيرونديين » (١) وقد أدرك لوى فيليب ووزير خارجيته جيزو أن فرنسا تريد شيئاً ما ، ولكن معارضيهما أولوا استعدادهما لمعالجة الموقف بالتراجع فى بعض المسائل الصغيرة ، بأنه علامة من علامات الضعف .

لقد قامت ملكية أورليان على نظرية محددة : هى نبذ فكرة الحق الالهى وارساء قواعد حكم « العقل الخالص » ، فاستبعدت الحزب الكاثوليكي ودعاة الشرعية من أنصار البوربون ، ولكنها لم تبذل أى جهد للتفاهم مع الثوريين أو الديموقراطيين ، بل سعت الى اقامة حكم البورجوازية أو الطبقة الوسطى ، باعتباره « الوسط الذهبى » بين الغلاة والجمهوريين . فالمواطنون الذين يدفعون ضرائب تصل الى ٥٥٠ فرنك أو يزيد لهم حق الترشيح لعضوية البرلمان ، وأولئك الذين يدفعون ٣٠٠ فرنك لهم حق الانتخاب . وليس لغير هؤلاء أولئك أية حقوق . على أن البورجوازية الفقيرة كانت تتمتع بامتياز هام ، فمنها كان يتألف الحرس الوطنى وهو هيئة كانت تؤدى - دون ما كفاية وبغير انتظام - وظائف الشرطة والجنود ، فتملك بذلك سلطة محسوسة ، وان افترضت فيها الطاعة العمياء لأوامر البرلمان والبورجوازية الغنية . وقد أخذ التبرم يتفشى بين صفوف هذه الطبقة وبدأ رجال الحرس الوطنى يظهرون اخلالا بالنظام فى استعراضاتهم ،

(١) نشر كتاب لامارتين فى ١٨٤٧ ويذهب الدكتور جوتش فى وصفه له فى كتابه « التاريخ والمؤرخون » (١٩١٣) ص ٢٢٨ الى حد قوله : « لقد أدى أقل الكتب قيمة وأعظمها بلاغة دوره فجاءت الامبراطورية الثانية بعدد الملكية الدستورية » .

مما اضطر الملك الى الكف عن استعراضهم ليوفر على أذنيه سماع الهتافات العدائية التي ما فتئوا يرددونها لدى رؤيته . أما في البرلمان فقد كان مركز لوى فيليب آمنا بفضل ماسمى « براعة جيزو المهلكة » فى استخدام أدوات الفساد . كانت هناك حقا معارضة قوية يتزعمها « تيير » ، ولكن هذه المعارضة لم تكن لتؤدى فى حد ذاتها الى القضاء على حكم لوى فيليب ، فان هدف « تيير » كان العودة الى الحكم ووسائله كانت فى مجموعها دستورية . على أن الأحداث الغاضبة التى ما برحت تتردد فى البرلمان والصحف والمحافل العامة قد ساعدت على إثارة العناصر الأغنف ثورية فى الخارج وتحريكها .

وعلى هذا يتلخص الموقف فى نهاية ١٨٤٧ فى أن لوى فيليب كان يتمتع بأغلبية فى البرلمان وان واجه معارضة قوية فيه، وأن البورجوازية الفقيرة فى الحرس الوطنى كانت ساخطة غير مستقرة على حال . وكان اليمينيون واليساريون سواء بسواء يثيرون هياجا شديدا خارج البرلمان ، فغلاة اليمينيين ما برحوا يطالبون بعودة البوربون الشرعيين والنعلم الأبيض والتعليم الكاثوليكي فى المدارس ، أما اليساريون فكان يحركهم تياران قويان : فلامارتين راح ينادى بالرجوع الى أمجاد الجمهورية السابقة ، جمهورية حرة غازية مستنيرة ، بينما تزعم لوى بلان جماعة عززت بالدعاية الاشتراكية قوى السخط الديمقراطية التى كانت قوية بالفعل ، فقد أضاف الى الدعوة لحقوق الانسان والانتخاب العام والمساواة السياسية ، الدعوة لاقامة المصانع الأهلية، وانتهاج سياسة اجتماعية وشن الحرب الطبقة . على أن الشئ الذى أكسب هذه الهجمات الآتية من كل حذب وصوب قوة فى القضاء على لوى فيليب ، هو التقاء جميع عناصر المعارضة عند نقطتين : فمهما يكن من أمر حسنات لوى فيليب ، فان سياسته الداخلية كانت - باعتراف الجميع - وضيفة فاسدة ، أما سياسته الخارجية فقد انتهى بها المطاف الى استشارة عداء انجلترا . وكان لوى فيليب يعتمد على

انجلترا « لتزكيتسه » في بلاطات أوروبا والارتفاع به عن وضع الملك المحدث . فاذا بهذه السياسة التي نجحت في وقت من الأوقات تقول الآن الى فشل ذريع . لم يبق اذن للملكية البورجوازية ما تبرر به وجودها ، ولم تعد لها سياسة ثابتة مفهومة . وليس ثمة ما هو أدل على هذه الحقيقة من أن الكاثوليك والجمهوريين شرعوا يفتاحون بعضهم بعضا للتضامن في مهاجمة الحكومة .

وقد ندد جيزو في خطاب تعوزه الحكمة ألقاه في بداية عام ١٨٤٨ بـ « النزعات العدائية العمياء » التي ترمى الى القضاء على النظم القائمة ، فقررت المعارضة الكاثوليكية والمعارضة الجمهورية على السواء اقامة مأدبة كبرى في باريس للاحتجاج على قولة جيزو . وهددت الحكومة بمنع اقامة تلك المأدبة التي حدد لها يوم ٢٢ فبراير سنة ١٨٤٨ . فأفزع هذا الموقف الحازم لأول وهلة ذلك الائتلاف غير المتجانس الذي يضم غلاة الكاثوليك والجمهوريين الديموقراطيين والاشتراكيين ، ولكن غوغاء باريس تدخلوا ليلة ٢٢/٢١ فبراير ، فأفسر تدخلهم عن سقوط الملكية الدستورية في فرنسا (٢٥ فبراير) وفرار الملك وأسره الى إنجلترا .

لقد قدر للوى فيليب أن يثبت أن فرنسا لا تكن حبا للملكية الدستورية من الطراز الانجليزى . فالسعى الى تحقيق التوازن بين مختلف القوى ، وفرض القيود على الديمقراطية ، والتضحية بالمبادئ من أجل الحلول الوسطى ، لم تكن وقتذاك - ولا هي الآن - من الأمور التي تحبها فرنسا . وما أقل استساغتها لذلك الحل الوسط المتمثل في حكم لوى فيليب بالذات ، فما هو بحكم فكرة دينية مثل البوربون الشرعيين ، ولا هو حكم رجل قوى مثل نابليون ، ولا هو ديموقراطية مثل جمهورية ١٧٩٣ . فما كان من فرنسا الا أن أسقطت لوى فيليب في ١٨٤٨ لتعود من جديد الى تجربتها الجمهورية ثم النابليونية .

في هذه الحقبة من التاريخ الأوربي أرسيت بنجاح دعائم الحكم الدستوري في بلجيكا ، وقامت فرنسا بتجربة طويلة في نفس الاتجاه ، وحاكتها فيها - محاكاة هزيلة - البرتغال وأسبانيا ، ولكن كان ثمة أمتان أخريان في أوروبا أثارت تفتنهما على الحكم الأجنبي مشاعر أعنف دفعتهما الى الدخول رأسا في تجربة الثورة . وكلتا الامتين كانتا قد قسمتا ووزعت أراضيها على دول عديدة : فبولندا شقت الى ثلاثة أجزاء ، وإيطاليا الى سبعة .

أما بولندا فقد منحها اسكندر وقت حصوله على الجزء الأكبر منها عام ١٨١٥ ، دستورا وأعلن عن عزمه حكمها كمملكة لها كيائها القومي ، وكان صادق النية فأيده ، لفترة من الزمن ، كثيرون من الوطنيين البولنديين ومن أشهرهم النبيل زارتوريسكى . ولكن الروس والبولنديين كانوا أشبه بالزيت والخل لا يمتزجان . فالبولنديون ، وهم العنصر المغلوب على أمره ، كانوا يشعرون بالتفوق في كل شيء عدا القوة . اذ كانت لهم ثقافة لاتينية مقابل ثقافة الروس شبه اليونانية ، وتاريخ مجيد مقابل صحائف الروس الحافلة باراقة الدماء ، وتقاليد لحمتها المساواة الأرستقراطية مقابل خضوع الروس العبودي للحاكم ، وروح لبنتها الفروسية والاعتزاز بالحرية مقابل روح الطغيان والاستبداد عند الروس . ولم يبدل من الأمر شيئا أن اسكندر منحهم دستورا تحرريا تقديما . فان أية عطية يقدمها حاكم روسي ، مهما يكن عطوفا ، لا بد وأن تكون موضعا للريبة في نفوس معظم البولنديين الوطنيين . ثم ان اسكندر على ما يبدو من لطفه ووداعته ، عين أخاه الدوق الأعظم قسطنطين قائدا عاما عليهم ، وكان هذا طاغية أحرق راح يفرض سيطرته على نائب الملك الضعيف . وقد افتتح الديت الأول في ١٨١٨ ، ولكن الرقابة المشددة فرضت على الصحف في ١٨١٩ ، ومع أن الديت انعقد مرة أخرى في ١٨٢٠ ، فان اسكندر لم يلبث أن حله وامتنع طوال خمس سنوات عن دعوة المجلس الجديد للاجتماع .

وقد أخذت الجمعيات السرية تنمو وتقوى ، ولما افتتح اسكندر الديت الثالث في ١٨٢٥ حد من سلطاته حدا جعل الدستور من الوجهة العملية معطلا . فهو كما قال بايرون :

« لم يكن له اعتراض على الحرية الحققة سوى أنها تجعل الأمم حرة » .

ولما مات اسكندر في أواخر ١٨٢٥ ، قامت مؤامرة ضد خلفه اشترك فيها بولنديون . وكان القيصر الشاب نيقولا أوتوقراطيا بطبيعته . وقد أثار موقف بولندة حفيظته الى أبعد حد ، ورغم أن تصميمه على اخماد الحريات الضئيلة التي بقيت لبولندة يرجع على الأرجح الى ذلك التاريخ ، فقد أخفى عزمه بضعة أعوام ، ودعا الديت الرابع ، والأخير كما سنتين ، الى الانعقاد بعد خمس سنوات ، فاجتمع دورة قصيرة تجلّى فيها الشك من الجانبين . وقد أثارت الثورة الفرنسية التي هبت في يوليو ١٨٣٠ انفعالا كبيرا في نفوس البولنديين ، وأخذت الجمعيات السرية تنفث حتى في صفوف ضباط الجيش ، وأخيرا أدت الاستعدادات التي راح نيقولا يتخذها لاختماد الثورة في فرنسا وفي بلجيكا ، الى نشوب حركة تمرد في البلاد . ففي ٢٩ نوفمبر حدث عصيان في وارسو . وقف الدوق الأعظم قسطنطين رباطة جأشه ، فسحب القوات الروسية من العاصمة وغادر المملكة . فألفت قبل نهاية العام حكومة مؤقتة مناهضة للروس ومماثلة للشعور القومي .

وقد أظهر البولنديون ترددا كبيرا ، فرغم أن جيشهم كان يربو على ٥٠.٠٠٠ رجل ورغم أنهم قد أخذوا القيصر على حين غرة ، فقد راحوا يضيعون الوقت في مفاوضات عقيمة . على أنهم ، بخلعهم القيصر في يناير ١٨٣١ ، قد جعلوا وقوع الصراع أمرا محتوما . فكان أن دخل الروس ، بعد أن تمكنوا من حشد قواتهم ودخلوا المملكة في فبراير في أعداد ساحقة . الا أن المعارك الأولى لم تكن حاسمة ، فصمد البولنديون حتى مايو ، ولكنهم لم يستطيعوا تأخير النهاية الا الى سبتمبر . ففي

ذلك الشهر دخل الروس وأطاحوا في ضربة واحدة بالملكية الدستورية والحريات العامة . فقدّر لبولندة أن ترضخ مدى ربع قرن لحكم حديدي فقدت فيه حياتها العضوية المستقلة وساسها فيه السيف الروسى وحده .

ومما يجدر بالذكر أن ما أبداه البولنديون من الفروسية واندفاعهم الثورى ومقاومتهم الباهرة قد أثارت عطفًا كبيرًا في أوروبا . فاحتجت فرنسا وانبجرت لدى روسيا ولكن الأخيرة لم تكن في مزاج يسمح لها باعارة الاحتجاجات النظرية أدلة مصغية . فلم يجد شيء في صرفها عن تحقيق غرضها في محو كيان بولندة المستقل من الوجود . بيد أن من المهم أن نلاحظ أن روسيا قد حاولت إقامة نوع من الحكم الدستورى في بولندة ، وأن فشل تلك المحاولة يرجع - جزئيا - الى بولندة نفسها . الا أن الشعور القومى كان أقوى من أن يسمح بالتعاون مع روسيا بل أقوى من أن تخضعه تدابير القمع الوحشية التى استخدمتها روسيا . فلئن باتت بولندة بلا حول ولا قوة فإن روحها ظلت صلبة لا تقهر . وقد بقيت رغم تقسيمها الى ثلاثة أجزاء متمسكة بمثلها الأعلى في الوحدة القومية . فظلت كما كتب ميتلاند « ثلاث كسر لا تقوى على هضمها ثلاث معدات » . وقد آتحت للبولنديين الخاضعين للحكم النمساوى بل وأحيانا للبولنديين الخاضعين للحكم البروسى نفسه ، بعض الفرص للتعبير عن قوميتهم . وأثبتت الأيام أن ضم كراكاو للنمسا في ١٨٤٦ كان من العوامل التى ساعدت فعلا على بعث بولندة . فقد سمحت النمسا للبولنديين في جاليسيا بشيء يشبه « الحكم الذاتى » وفي ظل سيطرتها المعتدلة نما الشعور القومى وأصبحت كراكاو مركزا للثقافة البولندية والفن والأدب البولندى والدعوة الوطنية . ولسوف تكبر نواة القومية التى نبئت هناك فتشمل بولندة كلها في النهاية .

وأما إيطاليا فقد عاد حكم نابليون عليها بفوائد جمة . اذ أحسن الفرنسيون حكم المنطقة الشمالية وتوددوا عن حكمة الى الشعور القومي فيها . ووقعت مملكة نابولي من نصيب القائد الجسور «مورا» وقد انتهى به المطاف الى التفكير فى مشروع جرىء ألا وهو توحيد إيطاليا كلها تحت حكمه . ولم يلبث أن أدخل مشروعه فى طور التنفيذ خلال عامى ١٨١٤ - ١٨١٥ وأعلن قيام «إيطاليا المتحدة» . وقد هزم وأعدم آخر الأمر ، ولكن المثل الأعلى الذى أعلنه لم يمت . ومازال «مورا» رغم كونه فرنسيا ، موضع تبحيل الإيطاليين حتى يومنا هذا باعتباره أول بطل من أبطال وحدة إيطاليا واستقلالها فى العصر الحديث .

على أن إيطاليا أضحت فى ١٨١٥ فى حال تدعو الى القنوط التام . ففرديناند الملك البوربونى الذى أعيد الى نابولي ، كان طاغية خثونا فاسيا وكان رهن إشارة مترنيخ . وإيطاليا الوسطى استردها البابا وراح يحكمها بروح العصور الوسطى وتعصبها . ولم يكتف مترنيخ بالحصول للنمسا على كل من لومبارديا وولاية البندقية Venetia بل راح ييسط سلطانه أيضا على أمراء الشمال الثانويين . أما بيدمونت بلاد القساوسة والجنود فهى وحدها التى ظلت قوية نسبيا ، ولكن قليلين هم الذين كانوا يرون فيها يومئذ باعثة إيطاليا . وكان ملكها لا يزال ملكا مستبدا وبالتالى موضع ريبة جميع الأحرار .

وقد تألفت الجمعيات السرية فى شتى أنحاء البلاد (وأهمها الكاربونارى) للعمل من أجل الوحدة الإيطالية . وفى ١٨٢٠ قامت ثورة فى نابولي أرغمت فرديناند على تأدية يمين الولاء لدستور ديموقراطى ، وتلتها ثورة فى بيدمونت (١٨٢١) شارك فيها بمشاعره ولى العهد (الذى سيعرف فيما بعد باسم شارل ألبرت) ولم تلبث أن أخمدت على الفور تقريبا ، وإن هى الا فترة وجيزة حتى تمكن جيش نمساوى من الاجهاز على دستور نابولي ، فساد القمع الوحشى شتى أرجاء إيطاليا وباتت دماء الرجال تهدر - على حد تعبير بايرون -

« لمجرد أنهم حلموا بالحرية » . وقد التقى المتآمرون الذين فروا من ييدمونت بـمازينى الشاب فى جنوة ، فهز اخلاصهم وحزنهم مشاعره . وقد كتب يقول « فى ذلك اليوم عرضت لى ، لأول مرة وبصورة مبهمة ، فكرة لن أصفها بأنها فكرة الوطن والحرية ، وانما فكرة أن كتفاح المرء لتحرير بلده أمر ممكن وبالتالي أمر واجب » . وقد أخذت هذه الفكرة الغامضة تنضج فى ذهن مازينى الشاب حتى تحولت الى نبوءته الرائعة بقيام ايطاليا « حرة متحدة من الألب الى المحيط » . ذلك الحلم الذى لن يلبث أن يتحقق فى غضون أربعين عاما .

وقد بدا بعد هاتين التجربتين أن لاجدوى فى محاربة الطغاة بالسلاح ، فأخذت الثورة تشق لنفسها انفاقا فى الخفاء ، وراحت الجمعيات السرية تنشط بدعايتها المستترة فى كل مكان . وقد تسببت ثورات عام ١٨٣٠ فى قيام بضع انفجارات فى ايطاليا وأججت النيران المضطربة فى النفوس وفى العام التالى أنشأ مازينى فى مارسيليا جمعية « ايطاليا الفتاة » . فبلغ عدد أعضائها ٦٠ ألفا فى ظرف عامين . وقد أثر عنه قوله « ان الأفكار تنمو سراعا اذا ماروتها دماء الشهداء » . ولم تكن حركة تحرير ايطاليا بفقيرة الى الدماء . ففي ١٨٤٤ فر الأخوان « بانديرا » من البحرية النمساوية ليتزعموا ثورة فى كالابريا . وسرعان ما أحاطت قوات فرديناند ملك نابولى بهما وبأتباعهما وألقت القبض عليهم . وقد أعدم جنود فرديناند تسعة من هؤلاء الأسرى ضربا بالرصاص ، ماتوا جميعا والهتاف بحياة ايطاليا على شفاههم فكان لاستشهادهم معنى رمزى ، اذ كانوا يمثلون شتى أنحاء ايطاليا . فأخوان بانديرا كانوا من البنادقة فى حين كان سائر الشهداء الذين سقطوا معهم من رومانا ومودينا وبيروجيا . فكأنما ساقطت الأقدار هذا الحادث ليثبت أنه اذا لم يكن بوسع الايطاليين أن يعيشوا عيشة واحدة فان بوسعهم على الأقل أن يموتوا ميتة واحدة .

وقد استمدت الحركة المذهلة المناادية بالوحدة القومية التى راحت

تسرى الآن كالكهرباء في شتى أرجاء إيطاليا قوة جديدة من أحداث
ثلاثة وقعت قبيل حلول عام ١٨٤٨ . فأولا حدث أن اعتلى شارل البرت
عرش بيدمونت في ١٨٣١ . وكان فشل الحركة الدستورية عام ١٨٢١
قد أفقده اعتباره في نظر الإيطاليين ، كما كان كنسيا فحامت الشبهات
بالتالى في قوميته ، وزاد الطين بلة أن اجراءاته الأولى اتسمت
بالتقمع . ولكنه رغم حيائه وتردده كان مخلصا فأخذ المحيطون به
بدركون شيئا فشيئا أنه يؤمن في أعماق قلبه بقضية إيطاليا ويحلم بأن
تنال حريتها في يوم من الأيام . ولما شرع جيورتي يدعو الى الإصلاح
المعتدل ، أظهر شارل البرت في مجالسه الخاصة عطفًا على آرائه ، فبدأ
الناس يرون فيه قائدا محتملا للمستقبل . وكانت له ميزة في ناحية
من النواحي . ذلك أن سائر حكام إيطاليا المدنيين كانوا من أسوأ
طينة ولا يثيرون في النفس الا الازدراء أو السخرية . فتابولي كان
يحكمها فرديناند الثانى الذى كان فظا عديم المبالاة ، وطاقية مبتذلا .
أما مريدنا فكان على رأسها «لوكا» وهو حاكم أنانى مستبد ، مجنون
كئيب ، وبارما تحكمها أرملة نابليون التى تركت تصريف شئون الحكم
لعشيقتها فبدا شارل البرت بالقياس الى هذا الرباعى ، بطلا من أبطال
النور والحرية يمكن أن تعلق عليه الآمال لتخليص إيطاليا .
وفي هذه الأثناء أخذ ساعد « إيطاليا الفتاة » يشتد ، وأقنعت
دعايتها الكثيرين بأن الثورة الايجابية العنيفة هى السبيل الوحيد لانقاذ
إيطاليا . وكان أعضاء هذه الجماعة أعداء ألداء للمعتدلين من دعاة
الإصلاح . وقد أكسبهم ارهاب مترنيخ الصارم المزيد من الأنصار .
والصورة التى رسمها براوننج لإيطاليا توضح لنا مشاعر عامة الشعب ،
فهو يقص علينا كيف طربت خادمته لأبناء اصابة فرديناند ملك نابولي
على يد المتآمرين ، وأعربت عن أملها في « ألا يكونوا قد قبضوا على
الفاعلين » . وهو يقول على لسان ايطالى في انجلترا :
« فاذا كان لى أن أحقق لنفسى رغبات ثلاث

« فاني أعرف على الأقل منها واحدة
« فأراني ممسكا بمتريخ حتى أحس بالدماء
« تقطر حمراء من عنقه البليل
« بين يدي هاتين » (١)

ذلك أن أعمال القمع الوحشية التي ارتكبها كل من فرديناند
ومتريخ قد أدت الى استشارة عبقرية الايطاليين في تدبير المؤامرات
واذكاء حرصهم على الانتقام ، وأشعلت نفوسهم حقدا وكرهية . فلم
يكن ينقص هذا الشعور سوى الفرصة أو المخرج ليتفجر دماء
ونيرانا .

وقد عزز التيارين المندفعين نحو الوحدة القومية ، وهما تيار
الاصلاح المعتدل وتيار الثورة ، تيار ثالث أتى من جهة غير متوقعة .
فلأول مرة ، بل للمرة الوحيدة تقريبا في تاريخ ايطاليا ، يثبت أحد
البابوات أنه رجل قومي وطني متحرر . ذلك أنه في ١٨٤٦ انتخب
بابا جديد (بيوس التاسع) يقال انه تشرب المبادئ الوطنية عن
الكاربوناري في شبابه . ومن المقطوع به أنه قد أعرب صراحة ، عندما
كان كاردينالا في ايمولا عام ١٨٤٠ ، عن اشمئزاه من أساليب البوليس
النمساوي وأحكام السجن والنفي والاعدام . وقد كان ينتمى من
حيث المبدأ الى حزب الاصلاح المعتدل . ومع أنه كان رجلا لين العريكة
حملو المعشر أكثر منه قائدا جادا ، فان المركز المرموق الذي كان
يشغله ، والاجراءات الأولى التي اتخذها لم تركز عليه الأبصار
فحسب ، وانما دفعت كذلك الأمانى القومية دفعة عجيبة الى
الأمم . ففقد كان من أول الاجراءات التي اتخذها اعلان العفو في
الولايات الباباوية عن جميع المجرمين والمشبوهين السياسيين . فكان
لهذه الخطوة أثر لا يوصف . وكان هذا العمل وحده كفيلا بذئوع
صيته ، فراح الناس يستبشرون في حماسة بالغة ، بظهور بابا محب

(١) روبرت براوننج شاعر انجليزي مشهور عاش في الفترة ما بين ١٨١٢

(المترجم)

للحرية ، ويعتبرونها معجزة هبطت عليهم من السماء . فأسقط في يد مترنيخ وروى عنه أنه قال « لقد كنا مستعدين لكل شيء اللهم الا ظهور بابا متحرر . أما وقد ظهر لنا هذا البابا ، فليس ثمة حد لما تتوقعه » وكتب مراقب ثاقب النظر الى كارلو ألبرتو يقول « أن الثورة لا تحتاج الى صنع فقد تم صنعها بالفعل » . وأنشأ مترنيخ يفكر في ١٨٤٧ في استخدام القوة . وفي أوائل ١٨٤٨ بدأت الثورة المحتومة ، فقد منح شارل ألبرت شعبه دستورا في ٨ فبراير ، فأذاع بيوس التاسع في ١٠ فبراير موعظته التي تضمنت عبارته الشهيرة « فليبارك الله ايطاليا ! » وعاد البابا في اليوم التالي الى استخدام نفس العبارة في الخطاب الذي ألقاه من شرفة الكيرينال أمام الجماهير المحتشدة وأثار به حماسة بلغت حد الهوس . فالآن وقد أصبح لايطاليا بابا متحرر في روما وملك دستوري في تورين حانت ساعة الثورة . ولن يلبث مازيني ، الذي كان ستار النسيان قد أسدل عليه برهة من الزمن ، أن يحتل مكانه في الصفوف الأمامية أما غاريالدى فقد ظهر بالفعل على مسرح الحوادث ليتولى قيادة جيش « ايطاليا الفتاة » .

لقد بدأت الفترة ما بين ١٨١٥ الى ١٨٤٨ بمحاولة من جانب الديبلوماسيين الأوروبيين لتكليم القوى التي أطلقتها الثورة الفرنسية و نابليون . وأبرمت تسويات فيينا لتنسيق مطامع الدول الكبرى الاقليمية لا لارضاء المطالب القومية . الا أن هذه التسوية الاقليمية كانت - اذا قصرنا نظرنا على الدول الكبرى وحدها - ناجحة ، فقد أبقت أوروبا بمنأى عن الحروب الكبيرة طوال أربعين عاما . أما التجربة الأكثر طموحا ، ونعني بها تجربة الحكم الدولي أو الحكم بوساطة المؤتمرات التي استمرت من ١٨١٥ الى ١٨٢٥ فكانت نهايتها أليمة . فقد تحولت الى « نقابة للملوك » يشترك أعضاؤها في (بوليصه) تأمين متبادل ، وعجزت عن أن تدخل في اعتبارها حاجات ورغبات حكومة برلمانية تستند الى تأييد شعبي قوى مثل حكومة انجلترا .

فأسدى كائنات هذه التجربة المحفوفة بالمخاطر خدمة جليلة لا لانجلترا وحدها وانما لأوروبا كلها .

وكانت سياسة مترنيخ في النمسا وفي ألمانيا تمثل محاولة مماثلة فشلت لأسباب مماثلة . فقد رمى مترنيخ الى فرض نظام موحد للقمع على مجموعة من الشعوب والدول لم تكن لترضى بانكار رغباتها القومية وأمانها في الحرية . فهبت شعوب النمسا والمجر ودول ألمانيا تكافح ضد القيود التي أثقلها بها مترنيخ حتى حطمتها اربا في ١٨٤٨ . وسجلت ثورتها نجاحا دائما هذه المرة ، فلم يبق ، بعد انتفاضات ١٨٤٨ ، أثر لا لألمانيا ولا للنمسا كما عرفهما مترنيخ .

أما في بروسيا فقد سبق الثورة والاتجاهات التحررية مجموعة من الرجال الأكفاء بانتهاجهم سياسة حكيمة نيرة في التعليم والاصلاح وبفرضهم على الدولة نظاما عسكريا صارما أثبت أنه خير ضمان لسيادة القانون والنظام . وقد جاء هذا النظام ملائما للشعب البروسى الذى كان يقدر الذكاء والحكم القوى حق قدرهما ويدرك عدم كفايته السياسية ، فكان أن تكسرت أمواج ١٨٤٨ التى أحالت قصور مترنيخ الى أكوام من الرمال ، بعنف ولكن دون طائل على صخرة الدولة البروسية الراسخة .

وقد انتهجت انجلترا في ظل كائنات وبالمرستون سياسة قوامها الانتهازية البارعة والعطف المتزن على الألمانى القومية والمناصرة الصريحة للحكم البرلمانى والدستورى . وقد وفق الرجال فى عمل شيء ما للبرتغال وأسبانيا ، وفى تحرير اليونان وانشاء بلجيكا . وأثبت عام ١٨٤٨ أن فى انجيلهما خلاص الملوك ، فهما اللذان « جعلوا العالم مكانا آمنا للملكية الدستورية » - ولكن للملكية الدستورية وحدها !

ولو سئل لوى فيليب لما وافق فى أغلب الظن على هذا رأى ، فهو قد حاول أن يكون ملكا دستوريا ولكنه ألغى نفسه مع ذلك أول الساقطين فى ١٨٤٨ . غير أن النظام الذى طبقه لم يكن بالذى يناسب

"الامة الفرنسية . فهو لم يلق بالا للمساواة وحقوق الانسان اللذين كانا أبقي مافي تراث ١٧٨٩ ولم يكن لحكمه شيء من روعة العهد النابليوني واستنارته . ومثل هذه الحكومة القائمة على الانتخاب المقيد، المتبلدة غير النابعة ، المسالمة غير العسكرية ، الأوليجركية غير الديمقراطية لا بد وأن تفشل . ففرنسا قد تحكم بوساطة امبراطور واستفتاءات ، أو انتخاب عام وجمهورية ، ولكنها لم تكن لتحكم بوساطة حل وسط غير موفق بين الأمرين . لقد كانت جموع الشعب ، في بلجيكا وبيدمونت وانجلترا ، تتقبل راضية حكم الطبقة الوسطى في تلك الفترة . بخلاف الحال في فرنسا . ولهذا نجحت الملكية الدستورية في البلاد الأخرى لعين السبب الذي فشلت من أجله في فرنسا ، وبينما كان وجودها عاملا على تجنب قيام الثورات أو تهدئتها في سائر أنحاء أوروبا ، نراها قد ولدت الثورة وأكسبتها قوة في فرنسا .

أما بولندة وإيطاليا فكاتتا تختلفان عن فرنسا الثورية وعن البلاد الدستورية كذلك ، فهما قد أثبتتا أنهما أكثر حماسة للاستقلال القومى منهما للديموقراطية ، وللديموقراطية منهما للحكم الدستورى . وقد دفعتهما كراهيتهما للأجنبى الى الانغماس فى تيار الثورة باندفاع وقبل أن يؤون أوان النجاح . وقد بدا فشل بولندة جليا فى ١٨٣١ ، وإيطاليا فى ١٨٤٩ ، ولكن الجهود التى بذلت والحماسة التى أثارتهما بطولتهما وإخلاصهما لم تذهب أدراج الرياح فلئن كانت إيطاليا قد صنعت ثورة فانها قد صنعت فى نفس الوقت أمة ، وقد تسبب فشل الأولى فى نجاح الثانية . ولسوف تبلغ إيطاليا مرادها فى ١٨٦٠ وتفشل بولندة مرة أخرى فى ١٨٦٣ وان كانت ستكسب فى النهاية لا محالة استقلالها القومى ببذل النفس والتضحية ، شأن إيطاليا ، وان اقتضاها ذلك وقتا أطول .

ومهما يكن من أمر فاننا اذا نظرنا الى النتائج الفعلية أمكننا القول بأن الحكم الفردى والثورة قد فشلتا فى تلك الحقبة وأن الحكم

الدستورى قد نجح . فان الدول الأوتوقراطية قد أدت ، بمحاولتها
كبت القوة الدامغة للأفكار الجديدة بدلا من تلطيفها أو استيعابها ،
الى انفجار ١٨٤٨ ، وعندئذ اتضحت مزايا الحكم الدستورى . لم
يكن العالم « ناضجا للثورة » فى ١٨٤٨ ، ولكنه كان قد « جعل مكانا
مأمونا » للملكية المقيدة ، فجاءت نتائج تلك الانتفاضة فى صالح
الملكية الدستورية والاتجاهات التحررية « بالمرستونية » فى كل مكان.
عدا فرنسا .

أوروبا

(عام ١٨٧١)

مقياس الرسم
١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ميل



الشواهد

الجزء الثالث

الإمبراطوريات الفرنسية والألمانية والروسية

الفصل الحادي عشر ثورة ١٨٤٨ وقيام الإمبراطورية في فرنسا

كانت ثورة ١٨٤٨ من صنع باريس وحدها ، بل كانت من صنع جانب صغير فقط من سكان باريس . لقد كان هناك هياج في الأقاليم ضد تقييد حق الانتخاب، ولكن الأقاليم لم تسهم بنصيب في الحركة التي أرسلت أسرة أورليان « الى حيث تواصل أسفارها » . ولا يكاد يوجد شك في أن السواد الأعظم من الفرنسيين كانوا معارضين لما حدث .

كان لوى فيليب يأمل في ابقاء الحكم في أسرته في شخص حفيده تحت وصاية دوق أورليان . غير أن الجمعية لم تكن في مزاج يسمح لها بالموافقة على هذا الحل ولم تلبث جموع باريس أن اقتحمت فناءها مما أدى الى فض الاجتماع ، ولكن الأعضاء الذين بقوا نادوا ، تؤيدهم جموع الشعب ، بقيام حكومة مؤقتة تتألف من الاشخاص الواردة أسماؤهم في قائمة اقترحها عليهم لامارتين . وكانت صحيفة « ناسيونال » قد وضعت القائمة ونشرتها بالفعل ، وعلى هذا يمكن القول بأن ثورة باريس هذه انما تسجل ذروة النفوذ السياسى المباشر الذى مارسه الصحف . كانت القائمة تضم سبعة أسماء كلها لمصلحين وجمهوريين معروفين . وأبرزها لامارتين و«لدرورولين» Ledru-Rollin و«جارنييه باجس» Garnier-Pagès ولكن بينما كان ذلك يجرى في قاعة الجمعية شكلت حكومة أخرى في دار صحيفة « ريفورم » ذات الآراء الاشتراكية القوية . وقد ضمت هذه الحكومة أصحاب الأسماء الواردة في قائمة صحيفة « ناسيونال » ولكنها ضمت أيضا بعض الأسماء الأخرى ، وعلى الاخص اسم لوى بلان Louis Blanc الذى يعد ممثل الاشتراكية العظيم الأواحد في جيله . وقد أدمجت الحكومتان

في حكومة واحدة هي التي عرفت باسم « الحكومة المؤقتة » . وكان أعضاؤها يدينون بسلطاتهم للثورة وحدها ولم يكن لهم أى سند دستوري .

وقد قامت الخلافات الحادة بينهم منذ البداية . ذلك أن الجمهوريين المعتدلين المنتمين الى الطبقة الوسطى ، الذين كان لامارتين المتحدث البليغ بلسانهم والذين كانوا قانعين بقيام جمهورية وتوسيع نطاق حق الانتخاب ، لم يقبلوا مساهمة الاشتراكيين معهم في الحكم عن طيب خاطر . وكانوا ينظرون الى لوى بلان نظرة تقرب من العداء ، فكأنوا أبعد مايكونون عن الاستعداد لتأييد مشروعاته تأييدامخلصا . وقد اتخذت بعض الخطوات الهامة حال تكوين الحكومة . فأعلن حق الانتخاب العام لجميع المواطنين ، وتقرر أن يقوم الناخبون الجدد الذين يزيدون على تسعة ملايين بانتخاب جمعية تتولى البت في أمر الدستور في موعد قريب ، وأعلن فتح باب الالتساب الى الحرس الوطني لجميع المواطنين ، ذلك الحرس الوطني الذي ظل طويلا مقصورا على الطبقة الوسطى وحدها والذي مابرح يعتبر حارسا للملكية أولا وقبل كل شيء . كما كسب لوى بلان نصرا عظيما ، في الظاهر على الأقل ، لفكرته المفضلة . فقد أعلن لجماعة من أصحاب الالتماسات أن الحكومة تتعهد بأن تؤمن لجميع الفرنسيين العمل الكافي ليقوم أودهم ، وصدر على الفور مرسوم بانشاء « الورش انقومية » وكان لهذا القرار أهمية قصوى بالنسبة لمستقبل الجمهورية . ان مجرى أى ثورة يتبع حتما - اذا ما نشبت - نزعات العصر الفكرية . وقد كانت باريس ، وفرنسا كلها الى حد أقل ، عامرة بالنشاط الفكرى السياسى والاجتماعى قبل عام ١٨٤٨ . وكان سان سيمون Saint-Simon المشوفى عام ١٨٢٥ هو صاحب النفوذ الأول في هذا المضمار . وقد قدم هذا الرجل الغريب والمفكر العميق للعالم

حشدا هائلا من الأفكار بعضها علمى وبعضها الآخر خيالى (١) . ومقترحاته تستند الى نظرة عامة للتاريخ الانسانى . فقد كان يؤمن بأن حقبا يسودها النقد وحقبا يسودها الانشاء تتوالى حقبة بعد أخرى وأن الثورة الفرنسية التى قامت عام ١٧٨٩ تسجل نهاية آخر حقبة من حقب النقد والهدم ، وأن المهمة الماثلة أمام العالم عامة وفرنسا خاصة هى بناء نظام جديد . وكان يعتقد أن الهدف الأول من هذا النظام هو توفير حياة أفضل للطبقات الصناعية ، وأن تطبيقه ينبغى أن يتم بتوجيه من عقيدة جديدة ، عقيدة تؤمن بالله على نحو مبهم وان وجب أن يكون لها ، فى رأيه ، جهاز محكم من القساوسة والحكماء . وكان ينادى باحلال الصناعة الجماعية محل المشروعات الفردية فى النظام الجديد ، على أن يتحقق احلال هذا النظام محل النظام القديم دون ماعنف أو مصادرة . ان الكثير من تفاصيل مشروعاته وحياته يبعث على السخرية ولكنه مارس تفوذا عظيما على مفكرى الجيل الذى تلاه وساسته . وقد استرعى فورييه Fourier كذلك اهتمام الكثيرين من معاصريه ، ولكنه لم يمارس تفوذا يذكر على الفكر فى الأجيال التالية . وهو ينتمى فى الحقيقة الى عهد ما قبل الثورة ، حين كان الناس يؤمنون بأن الطبيعة خيرة كلها ، وأن الشر انما هو نتيجة لتحكم الانسان وتدخله فى شئونها . وكان يؤمن بأن الناس ان تركوا أحرارا فى تنظيم شئونهم سينقسمون الى مجموعات « طبيعية » لكل منها ميولها واستعداداتها الخاصة لمختلف المهن وبذلك تؤدى الأعمال التى يحتاج اليها العالم فى حرية وكفاءة وجبور .

وثمة حركة لها أهمية مباشرة تفوق أهمية مدرستى فورييه وسان سيمون ، وان تكن وثيقة الصلة بأفكار الأخير ، ألا وهى الحركة الاشتراكية التى غدت لأول مرة أثناء ثورة ١٨٤٨ تمثل قوة كبرى بين

شعوب أوروبا . ولقد تغير مدلولها كثيرا منذ ذلك التاريخ بتأثير كارل ماركس خاصة . وكان داعيتها الأول في فرنسا في تلك الحقبة لوى بلان وهو كاتب غزير الانتاج في الشؤون السياسية والاقتصادية . وقد كتب يصف بعاطفة قوية أحوال الطبقات الصناعية في باريس وغيرها من الجهات مطالبا الدولة أن تجعل علاج أحوالهم شغلا شاغلا . وكانت له في هذا المضمار مشروعات عديدة اتسمت بالكثير من الغموض والعاطفية . وفي رأيه أن تاريخ البشرية يكشف عن مراحل ثلاث : أولاها مرحلة السلطة في السياسة والدين ، تليها مرحلة الفردية متمثلة في الثورة البروتستانتية وفي الكتاب من طراز مونتاني Montaigne وأخيرا سيأتي عصر التأخر والزمالة . وقد كان بلوغ ذلك العصر هدفا كافحت من أجله البشرية في كافة العصور ، ثم بلغ الكفاح ذروته في الثورة الفرنسية الكبرى بشعارها الخالد « الحرية والاخاء والمساواة » . فعدت المهمة الماثلة أمام البشرية هي تنظيم الحياة على أساس من التأخر والزمالة . كان لوى بلان واثقا من النصر ، لأنه كان يؤمن بأن الطبيعة البشرية خيرة في جوهرها وأن الانتقال الى المرحلة الأخيرة سيتم بسهولة ودون اراقة دماء . « فكل مايلزم هو تزويد العمال بالمال واقامة الورش التعاونية ، فيأتي النجاح حتما » . وهكذا كانت نظريته تتسم بشيء من الخيال ولكن برنامجها كان عريضا شاملا تضمن خططها لكل جانب من جوانب الحياة والحكم . على أن الرأي العام قد تعلق بنقطة واحدة فقط وأساء تأويلها ألا وهي حق العمل . فباتت عبارة « سنعمل ونجيا أو نحارب ونموت » شعارا للذين كانوا يعتبرون أنفسهم أتباعه . ولقد شاهدنا كيف حملته التأييد الشعبي الى عضوية الحكومة المؤقتة وكيف أنه أعلن عن عزم الحكومة على توفير العمل للجميع . لم تكن آراء لوى بلان تروق لمعظم زملائه ولكن لن يكون ثمة مناص من بذل محاولة ما لتنفيذها . لقد كان الكثيرون من زملائه يأملون في أن تفشل خطته وفي ذلك بذلوا

قصارى جهدهم فعلا . وقد اقترح لوى بلان كذلك انشاء وزارة « للتقدم » على أن هذا الاسم الغامض لم يلق استحسانا من الحكومة المؤقتة فكان أن أنشأت بدلا من ذلك « اللجنة الحكومية للعمال » وعهدت اليها ببحث كافة المسائل المتعلقة برفاهيتهم .

والآن يحق لنا أن نتساءل عن فشل الورش القومية أهو راجع الى خطأ فى المشروع ذاته أم الى تأييد زملاء بلان الفاتر له بل خيانتهم الفعلية ؟ ان الاشتراكيين الحديشين مجمعون فى رفضهم لفكرة توفير العمل للعاطلين مالم يكن من المستطاع جعله عملا مفيدا مجزيا حقا . ولقد كان فشل مشروع لوى بلان أمرا محتوما على أية حال . فان فرصة الحصول على عمل ثابت بأجر طيب قد جذبت الى هذه الورش كل ذوى الأعمال العارضة فى باريس . ولم تلبث أن اجتذبت أيضا أعدادا هائلة من الأقاليم . ففى ظرف شهرين ارتفع عدد الذين يتقاضون منها أجرا - ولا تقول الذين يعملون بها - من ٢٥٠٠٠ الى ٦٦٠٠٠ . ولم يعد من المستطاع توفير عمل يزيد على يومين فى الأسبوع ، فكان العاطلون ينالون فى سائر الأيام منحة (سميت مرتب بطالة *salairé d'inactivité*) قدرها فرنك واحد فى اليوم . لقد سار المشروع فى اتجاه مغاير تماما لما تصوره لوى بلان ، اذ أنه كان يأمل فى أن يوفر بوساطة الاعانة الحكومية عملا حقيقيا منتجا فى ورش عادية . أما المشروع الذى طبق فعلا فكان فاشلا من جميع النواحي الاقتصادية والأخلاقية .

وفى ٤ مايو اجتمعت الجمعية الوطنية أو التأسيسية التى تم انتخابها بوساطة الاقتراع العام للرجال ، لتضع دستورا للبلاد . وقد بذلت شتى الجهود لكى تأتى الأغلبية من الجمهوريين فلم يكن بين أعضاء الجمعية التسعمائة أى ملكى صريح تقريبا . بيد أن السواد الأعظم من الأعضاء كانوا غير معروفى الميول وقد أظهروا موقفهم من المسألة

الاجتماعية التي كانت تثير اهتمام باريس البالغ ، بانشائهم حكومة تنفيذية تتألف من آراجو Arago وجارنيير - باجس ، ولامارتين ، وليدرو - رولان ولكن دون لوى بلان فيباريس وفرنسا لم تكونا على اتفاق في مسائل السياسة الكبرى ، وتعد تلك الحادثة بداية لذلك التعارض بين البلاد والعاصمة الذي سيصبح أحد الظواهر والعوامل البارزة في الحياة السياسية الفرنسية طوال السنوات الخمس والعشرين التالية .

لقد كانت باريس مغیظة من الحكومة لاتجاهها الرجعى واجدة عليها . لرفضها مد يد المعونة الى البولنديين في مقاومتهم لروسيا . فاقتمحت مظاهرة شعبية كبرى مقر الجمعية وحاولت حل الحكومة واقامة أخرى برئاسة لوى بلان . ولكن المحاولة باءت بالفشل ، اذ أخلى الحرس الوطنى قاعة الجمعية وانسحب لوى بلان من الحياة العامة منزويا في منفاه . فما كان من الجمعية الا أن انقلبت ، بعد خروجها من المعركة ظافرة ، على الورش التي كانت ترى فيها الدعامة الكبرى للمعارضة الاشتراكية . فأجرت تحقيقا في شأنها ولم يلبث الأمر أن انتهى باعلان اغلاقها في ٢٢ يونيو . وهكذا أُلقيت جموع من البؤساء الى شوارع باريس بلا معين أو رجاء . غير أنه كانت للحزب الاشتراكى تنظيماته ونواديه وصحفه فما كان منه الا أن قابل التحدى بمثله ، فنصبت المتارين في شوارع باريس الضيقة الملتوية وأعلن حل الجمعية واعادة فتح الورش . لقد كان ذلك ايذانا بنشوب حرب أهلية من نوع قريب الشبه بتلك الحرب التي ستشيع الدمار في العاصمة أيام الكوميون عام ١٨٧١ ، ولدوافع مماثلة تقريبا .

فكان أن منحت السلطة المطلقة للجنرال كافينياك (Cavaignac) فشن الحرب على معسكر الأعداء بهمة فائقة . ودارت رحى القتال المستميت طوال أربعة أيام راح كل طرف يتهم فيها الآخر بالخيانة وأرتكاب المذابح . وفي ٢٦ يونيو آلت السيطرة على المدينة للجمعية

من جديد ، ولكن تلك الحادثة المروعة تركت وراءها أحقادا دفينية وشكوكا مريرة وزادت من صعوبة مهمة ايجاد أساس للوحدة القومية في الأعوام التالية . اذ أصاب الذعر الطبقات الوسطى والمالكة فجعلت تطالب بقيام حكومة لها من القوة ما يمكنها من انقاذها من خطر فتنة جديدة .

أصبح بوسع الجمعية الآن أن تستأنف مهمة وضع الدستور . وكانت ثمة نقاط لا خلاف حولها . فبدأت الجمعية عملها باصدار اعلان مبهم لحقوق الانسان على الطريقة الفرنسية التقليدية ، ثم أقرت مبدأ الاقتراع العام أو بالأحرى الاقتراع العام للبالغين من الرجال . ومنحت السلطة التشريعية لجمعية واحدة تشكل من ٧٥٠ نائبا . وبقي مستقبل فرنسا معلقا الى حد بعيد على قرارها بشأن شكل الهيئة التنفيذية . استبعدت فكرة اقامة ملكية أو امبراطورية ، فقد أريد بفرنسا أن تكون جمهورية وأن يكون لها رئيس . ولكن أى نوع من الرؤساء ؟ رئيس رمزى أم حاكم فعلى ؟ رئيس على غرار رئيس الولايات المتحدة الذى هو الرئيس الفعلى للحكومة التنفيذية أم موظف عديم السلطات مثل رئيس الاتحاد السويسرى ؟ كانت حقا مشكلة عويصة . وقد أثبتت الأيام أن القرار الذى اتخذ فى شأنها كان قاضيا على وجود الجمهورية ذاته وان لم يكن بوسعنا أن نقطع بأن مسلك الجمعية لم يكن أحكم مسلك تمليه الظروف . فقد تأثر المشرعون باعتبارين أساسيين : فهم أولا كانوا يعتقدون - كما ظل الفرنسيون يعتقدون طويلا مدفوعين الى ذلك بتعاليم مونتسكيو وغيره - أن الهيئة التنفيذية يجب أن تكون منفصلة عن التشريعية ، وأنه لا ينبغى بالتالى أن تشق السلطة التنفيذية عن التشريعية وتعتمد عليها . وكانوا ثانيا متشيعين لمبدأ سيادة الشعب . فمادام الأمر كذلك فلم لا يكون الشعب هو الجهة التى تعين رئيس الدولة التنفيذى كما تعين أعضاء الجمعية التشريعية سواء بسواء ؟ ومادام من الأهمية بمكان أن يتم سن القوانين بوساطة

الاجتماعية التي كانت تثير اهتمام باريس البالغ ، بانشائهم حكومة تنفيذية تتألف من آراجو Arago وجارنيير - باجس ، ولامارتين ، وليدرو - رولان ولكن دون لوى بلان فباريس وفرنسا لم تكونا على اتفاق فى مسائل السياسة الكبرى ، وتعد تلك الحادثة بداية لذلك التعارض بين البلاد والعاصمة الذى سيصبح أحد الظواهر والعوامل البارزة فى الحياة السياسية الفرنسية طوال السنوات الخمس والعشرين التالية .

لقد كانت باريس مغيظة من الحكومة لاتجاهها الرجعى واجدةعليها لرفضها مد يد المعونة الى البولنديين فى مقاومتهم لروسيا . فاقتحمت مظاهرة شعبية كبرى مقر الجمعية وحاولت حل الحكومة واقامة أخرى برياسة لوى بلان . ولكن المحاولة باءت بالفشل ، اذ أخلى الحرس الوطنى قاعة الجمعية وانسحب لوى بلان من الحياة العامة منزويا فى منفاه . فما كان من الجمعية الا أن انقلبت ، بعد خروجها من المعركة ظافرة ، على الورش التي كانت ترى فيها الدعامة الكبرى للمعارضة الاشتراكية . فأجرت تحقيقا فى شأنها ولم يلبث الأمر أن انتهى باعلان اغلاقها فى ٢٢ يونيو . وهكذا أُلقيت جموع من البؤساء الى شوارع باريس بلا معين أو رجاء . غير أنه كانت للحزب الاشتراكى تنظيماته ونواديه وصحفه فما كان منه الا أن قابل التحدى بمثله ، فنصبت المتارين فى شوارع باريس الضيقة الملتوية وأعلن حل الجمعية واعادة فتح الورش . لقد كان ذلك ايذانا بنشوب حرب أهلية من نوع قريب الشبه بتلك الحرب التي ستشيع الدمار فى العاصمة أيام الكوميون

نام ١٨٧١ ، ولدوافع مماثلة تقريبا .

فكان أن منحت السلطة المطلقة للجنرال كافينياك (Cavaignac) . فشن الحرب على معسكر الأعداء بهمة فائقة . ودارت رحى القتال المستميت طوال أربعة أيام راح كل طرف يتهم فيها الآخر بالخيانة وارتكاب المذابح . وفى ٢٦ يونيو آلت السيطرة على المدينة للجمعية

من جديد ، ولكن تلك الحادثة المروعة تركت وراءها أحقادا دفينية وشكوكا مريبة وزادت من صعوبة مهمة إيجاد أساس للوحدة القومية في الأعوام التالية . إذ أصاب الذعر الطبقات الوسطى والمالكة فجعلت تطالب بقيام حكومة لها من القوة ما يمكنها من انقاذها من خطر فتنة جديدة .

أصبح بوسع الجمعية الآن أن تستأنف مهمة وضع الدستور . وكانت ثمة نقاط لا خلاف حولها . فبدأت الجمعية عملها باصدار اعلان مبهم لحقوق الانسان على الطريقة الفرنسية التقليدية ، ثم أقرت مبدأ الاقتراع العام أو بالأحرى الاقتراع العام للبالغين من الرجال . ومنحت السلطة التشريعية لجمعية واحدة تشكل من ٧٥٠ نائبا . وبقي مستقبل فرنسا معلقا الى حد بعيد على قرارها بشأن شكل الهيئة التنفيذية . استبعدت فكرة اقامة ملكية أو امبراطورية ، فقد أريد بفرنسا أن تكون جمهورية وأن يكون لها رئيس . ولكن أى نوع من الرؤساء ؟ رئيس رمزى أم حاكم فعلى ؟ رئيس على غرار رئيس الولايات المتحدة الذى هو الرئيس الفعلى للحكومة التنفيذية أم موظف عديم السلطات مثل رئيس الاتحاد السويسرى ؟ كانت حقا مشكلة عويصة . وقد أثبتت الأيام أن القرار الذى اتخذ فى شأنها كان قاضيا على وجود الجمهورية ذاته وان لم يكن بوسعنا أن نقطع بأن مسلك الجمعية لم يكن أحكم مسلك تمليه الظروف . فقد تأثر المشرعون باعتبارين أساسيين : فهم أولا كانوا يعتقدون - كما ظل الفرنسيون يعتقدون طويلا مدفوعين الى ذلك بتعاليم مونتسكيو وغيره - أن الهيئة التنفيذية يجب أن تكون منفصلة عن التشريعية ، وأنه لا ينبغى بالتالى أن تنشق السلطة التنفيذية عن التشريعية وتعتمد عليها . وكانوا ثانيا متشيعين لمبدأ سيادة الشعب . فمادام الأمر كذلك فلم لا يكون الشعب هو الجهة التى تعين رئيس الدولة التنفيذى كما تعين أعضاء الجمعية التشريعية سواء بسواء ؟ ومادام من الأهمية بمكان أن يتم سن القوانين بواسطة

رجال يختارون بطريق الانتخاب العام ألا يتساوى في الأهمية أن يؤدي الرجل الذي يتولى شئون الدولة عمله لصالح الشعب ؟ وبأغلبية ضخمة أعلنت الجمعية أن الرئيس يجب أن ينتخب بوساطة الاقتراع العام للرجال وأن يشغل منصبه لمدة أربع سنوات دون أن تجوز إعادة انتخابه . ان البعض يذهب الى أن الاشكال الدستورية لا أهمية حقيقية لها « وأن العبرة انما هي بحسن التنفيذ » . ولا يكاد يوجد تنبؤ أوضح لهذا الرأي مما حدث في تلك الحالة ، اذ سرعان ما أدى قرار الجمعية الى قيام الامبراطورية الثانية ، والى مجيء فترة بدا فيها أن فرنسا قد استردت مجدها العسكري ، ثم الى معركة سيدان والكوميون . ان تاريخ أوروبا مازال يحمل آثار تصويت الجمعية ذلك .

كان لويس بونابرت ابن ملك هولندا وابن أخى نابليون الأول ، أرشد آل نابليون . وكان العالم قد سمع الكثير عنه من قبل . فقد عاش في سويسرة وإيطاليا وإنجلترا وأمريكا ، وخالط الثوريين في إيطاليا وعاشر أوساط المجتمع الراقي في لندن . كان دائما يقدر لنفسه قيمتها ويؤمن بأن القدر قد ادخره لمصير رفيع . وفي سنة ١٨٣٦ دخل فرنسا فجأة آتيا من ستراسبورج ونشر العلم الامبراطوري ، ولكن محاولته باءت بفشل ذريع ، فقبض عليه وأرسل الى أمريكا . ثم عاود الكرة في ١٨٤٠ عند احضار رفات عمه الى مشواه الفخم في باريس ، فهبط أرض فرنسا عند بولونيا وسط مظاهر واستعدادات درامية كثيرة ، على أن الفشل السريع لم يلبث أن حاق به ثانية ، فأودع هذه المرة في حصن « هام » Ham على حدود فرنسا الشمالية حيث قضى ردحا من الزمن في حبس هين للغاية ، اذ كان يشاهد الأصدقاء ويكثر من الكتابة ، ووفق في النهاية الى الهرب دون عناء كبير . ولما سقط بيت أورليان تمكن من العودة الى باريس حيث انتخب عضواً بالجمعية .

علام تراه كان يستند ؟ كان صاحب أفكار ، ولكن أفكاره لم تكن قد عرفت في تلك الفترة . ولم تكن له حضرة تأسر الألباب ، ولكنه كان على قسط موفور من اللباقة ولطف الشمائل ، وكانت له القدرة على التزام الصمت بطريقة منهية . ولكنه كان قبل كل شيء نابليوناً . وكانت فرنسا قد نسيت ماجلبه عليها نابليون من آلام ومهانة فلم تعد تذكر إلا المجد والانتصارات والمكانة السامقة التي حققها لفرنسا . وقد كتب عنه ثيير Thiers مؤخراً في مجلدات قرأها الكثيرون ، ورغم أنها لم تؤلف بروح عبادة الأبطال فإنها قد ألهمت خيال الفرنسيين . فبدت الانتصارات التي حققها العهد الأورلياني - أن جاز أن تسمى انتصارات - حقيرة بالقياس إلى تلك الأمجاد النابليونية . على أن المجد لم يكن الشيء الوحيد الذي يمكن أن تنتظره فرنسا من نابليون . فقد بدا أنه يقدم لها فرصة للأمن والاستقرار في ظل حكومة قوية . ذلك أن أيام المتاريس كانت قد تركت انطبعا عميقاً في أذهان الفرنسيين فباتوا يرغبون في وجود حاكم قوى الشكيمة صلب الإرادة يحول دون عودة ذلك الشبح الرهيب . وقد أظهرت انتخابات الجمعية مدى الشعبية التي كان يتمتع بها لويس بوناپرت بالفعل . فما أن رشح نفسه للرئاسة حتى اجتاحت البلاد نيران من الحماسة أتت على كل فرصة لنجاح أى من المرشحين الآخرين . فقال كافنيك الذي قمع التمرد مليوناً ونصف مليون من الأصوات ، وليدرو - رولان الراديكالى المخلص حوالى ٣٧٠.٠٠٠ صوت ، بينما لم ينل لامارتين الذى بدا أنه هيمى على باريس ببلاغته سوى ١٧.٠٠٠ صوت . أما لويس نابليون فقد فاز بخمسة ملايين ونصف مليون صوت . فتولى منصب رئيس الجمهورية في ديسمبر ١٨٤٨ ، وحلف اليمين التالى : « ائنى سوف أعتبر علموا للوطن كل من يحاول بوسائل غير مشروعة تغيير ما أقامته فرنسا » .

ولم يكن الرئيس الجديد رجلاً عادياً . فقد كان صاحب أفكار

وأحلام تحول بعضها الى حقائق • وقد سبق الآخرين الى التفكير في شق قنوات السويس وبناها ، وساهم في اتمام تنفيذ المشروعين • ولم تكن له أى من طباع الجندى ، ولكنه كتب عن استخدام المدفعية كتابة تحمل اقتراحات مفيدة ، وكان ينظر الى أحد أوضاع أوروبا الدبلوماسية بخيال نافذ مكنه من التنبؤ بالمستقبل في بعض الأحيان . وكانت له أفكار واضحة طريفة في السياسة ، بدا له أن عصر البرلمانات آيل الى الزوال وأنها لا يمكن أن تلعب مرة أخرى ذلك الدور البالغ الأهمية الذى لعبه البرلمان الانجليزى فى الماضى ، فهى تمت الى عصر ام تكن وسائل المواصلات فيه قد تطورت على هذا النحو الشامل ، أما الآن فان بوسع الحكومة التنفيذية أن تتصل اتصالا مباشرا بالشعب ولم تعد بها حاجة للاعتماد على جمعية كبرى الى نفس الحد الذى كانت تعتمد عليها به فى الماضى • وفى رأيه أن حياة الدولة يلزمها أمران جوهريان ، الاقتراع العام للرجال وحكومة تستند على هذا الاقتراع مباشرة • ونحن نجد فى حمله لاسم نابليون سبب انتصاره وسر القضاء على مستقبله كله فى آن واحد • اذ كان ذلك يدفعه دفعا لا يقاوم الى المغامرة بالحرب ، بيد أنه لم يظهر فى الحرب نبوغا وعن طريقها جاءت سقطته المنكودة •

ولم يكن المنصب الذى قبله رئيس الجمهورية بالمنصب الهين • فقد واجه المتاعب منذ البداية مع الجمعية التأسيسية التى كانت تخالفه فى السياسة الخارجية ولا سيما فيما يتعلق بإيطاليا ، والتى بدت راغبة فى مد دوراتها أكثر من اللازم . ولم يهون من الأمر شيئا يذكر اخلاء الجمعية التأسيسية (١٨٤٩) مكانها للجمعية التشريعية التى تم انتخابها وفقا للدستور الجديد • فقد تضاعل الجمهوريون المعتدلون الذين كانوا يشغلون مقاعد الجمعية التأسيسية فباتوا يعدون على الأصابع فى الجمعية الجديدة . وظهرت جماعة أكبر — بلغ عددها حوالى ١٨٠ — من الجمهوريين الثوريين الذين ما برحوا يعتزون بالمثل

ألعليا التي بدا أنها قمعت أيام المتاريس • أما أكبر حزب فكان « حزب النظام » وقوامه الكاثوليك والملكيون الذين يرون في « اليسار المتطرف » الخطر الأكبر على مبادئهم وعلى فرنسا . وكان لويس بوناپرت يتمتع شخصيا بتأييد شعبي كبير في البلاد ، ومع ذلك فلم يظهر أى أثر تقريبا لحزب بوناپرتى فى الجمعية •

كان الخوف من الثورة هو الشعور الغالب على أعضاء الجمعية • على أنه لا يبدو أن الخطر كان فى الحقيقة جسيما • فقد قمعت المظاهرة المسلحة التى تزعمها ليدرو - رولان احتجاجا على سياسة الرئيس الإيطالية بيسر بالغ • وطرد على أثرها عدد من أعضاء الجمعية • ولكن الدوائر الانتخابية أرسلت رجالا يحملون نفس الآراء لشغل مقاعدهم فوطدت الجمعية العزم وقد استولى عليها الفرع ، على تطهير (épurer) . صفوف الناخبين . لقد كان الاقتراع العام أساس الدستور ولبه ، فلم يهاجمه أحد بالاسم ، على أن ممارسته علفت بشروط - أخصها استمرار الإقامة لمدة ثلاث سنوات فى مكان واحد - أدت إلى انقاص عدد الناخبين المقيدين فى الجداول بحوالى ثلاثة ملايين ناخب . وكان معظم الذين استبعدوا من سكان المدن الكبرى المشتغلين بالصناعة الكثيرة الثقيل .

وهكذا أزيل « الخطر الأحمر » . ولكن النتيجة كانت تفاقم التوتر بين الجمعية والرئيس • فان قبول الجمعية له انما كان بوصفه حليفا ضد الثورة ، أما وقد انجلى خطر الثورة فيما بدا فقد أخذ الخلاف يظهر ويحتمد من جديد . فأغلبية الأعضاء كانوا من الملكيين ، وهو لا يمكن الا أن يكون مناوئا للأغراضهم . وكان هؤلاء الملكيون منشقين على أنفسهم ، ففريق منهم - وهم الشرعيون Legitimists - يرغب فى عودة البوربون فى شخص الكونت دى شامبور (Count de Chambord) الذى كانوا يطلقون عليه لقب الملك هنرى الخامس ، بينما يتطلع الفريق الآخر الى قيام ملكية يرأسها أحد أبناء

بيت أورليان • ولن يلبث هذا الخلاف الواسع المدى أن يؤدي الى اقامة الامبراطورية كما سيؤدي فيما بعد الى قيام الجمهورية الثالثة .

ويجب أن نقرر أن لويس بونابرت لم يظهر أيا من النزاهة وخلوص النية اللذين يجب أن يتحلى بهما رئيس الدولة • فإن موقفه من الأزمة الخطيرة كان موقف المغامر المتآمر لا موقف رئيس الجمهورية أو الرجل الوطني • فقد رأى الفرصة متاحة للاستيلاء على تاج امبراطوري فدفعته عاطفة الطموح المدمرة الى ازالة كافة الاعتبارات الأخرى من طريقه . ومع هذا فليس من العسير على المرء أن يلتبس لسياسته المبررات والأعذار . ففرنسا كانت قريبة عهد بأيام المتاريس ، ولم تزل تخشى عودة « الخطر الأحمر » ، والعداوة المريرة بين الأحزاب كانت تهدد وجود الجمهورية ذاته ، والمؤامرة الدهمائية التي تحدث عنها الرئيس في إحدى خطبه كانت حقيقة ، والملكيون كانوا حتما أعداء للدستور . ثم ان نابليون كان يتمتع شخصيا بتأييد الشعب الأمر الذي سيوضحه الاستفتاء الذي لن يلبث أن يجرى ، والنظم البرلمانية لم تكن قد ضربت لنفسها جذورا عميقة في البلاد ، فكانت فرنسا بحاجة الى يد قوية تحفظ النظام حتى يستقر الشعب حقا على رأى في شكل الحكومة التي يرغبها • وكان الموقف يحمل أوجه شبه كثيرة واضحة بالموقف الذي واجهه نابليون الأول أيام برومير (١٧٩٩) . وكان ابن الأخ يضع سيرة عمه نصب عينيه على الدوام ، وقد راح ، شأن عمه ، يفكر كثيرا في فرنسا ، وان فكر أكثر في نفسه وفي المركز الذي ستمكّنه الأزمة من الفوز به لشخصه .

ان مدة السنوات الأربع المحددة لرياسته توشك أن تنتهى . فهل تراه يذعن للقانون فيبتلعه النسيان ويعود الى عيشة الفقر النسبي في حياته الخاصة ؟ لقد صمم على اطالة أمد حكمه • وكان يأمل — شأن نابليون الأول في ثورة برومير — في تحقيق أهدافه بالوسائل

الدستورية • كان الدستور يسمح بتعديل مواده اذا ما أقر التعديل
ثلاثة أرباع أعضاء الجمعية . وفي يوليو ١٨٥٠ نظرت الجمعية في
اقتراح بالسماح للرئيس بالاستمرار في منصبه لمدة أخرى ، فأيدته
الجمعية بـ ٤٤٦ صوتاً ضد ٢٧٠ • على أن هذه لم تكن أغلبية الثلاثة
الأرباع المطلوبة . ومن هنا سيضطر نابليون - كما اضطر عمه الأكبر
- الى امتشاق الحسام • ولسوف يتخذ لنفسه سيماء البطل المدافع
عن الشعب وعن النظام . فزعم أنه لم يكن قد اعترض على القانون
الذى قيد حق الاقتراع عند اقراره ، فانه قد أنشأ الآن يطالب بنقضه
باسم سيادة الشعب • وأتاحت له الجمعية برفضها الاستجابة لمطالبه
الفرصة التى كان يتناها للظهور بمظهر البطل المدافع عن الديمقراطية
المجنى عليها • وقد أدرك الكثيرون مراميه • اذ كان قد أحضر
سان أرنو Saint-Arnaud الذى يعد أكثر أعوانه تمتعاً بثقته ، الى
فرنسا من الجزائر ومنحه قيادة الجيش فى البلاد • وفى يناير ١٨٥١
أعرب ثيير عن اعتقاده بأن « الامبراطورية قد قامت بالفعل » •

كانت خطة نابليون أن يحل الجمعية ويلجأ مباشرة الى الشعب
ليصوت على دستور جديد يمنحه سلطات شخصية ضخمة • وفى ٢
ديسمبر ١٨٥١ ضرب ضرابته . ففى الليل امتلأت الحوائط ببيان موجه
الى الشعب الفرنسى يعلن فيه أن الجمعية قد حلت وأن الدستور
الجديد سوف يطرح - فى خطوطه العريضة - على الشعب بأكمله
ليبدى فيه رأيه . فاذا لم يمنحه تأييده اعتزل الحياة العامة « أما إذا
رأيتهم أن القضية التى يرمز لها اسمى ، ألا وهى قضية فرنسا التى
تبعثها الثورة وتنظمها الامبراطورية ، هى أيضاً قضيتكم ، فاعلنوا
ذلك على الملأ بمنحى السلطات التى أطلبها » ، وتم احتلال قصر
البوربون الذى كان مقراً للجمعية ، واعتقال عدد من أعضائها
البارزين ، ومن هؤلاء ثيير وكافنيك وشانجرنييه Changarnier • لم

يرق حتى تلك اللحظة أية دماء ، وعله يكون في غناء عن اراقتها .
لولا أن تمردا نشب في شوارع باريس فكان بمثابة عودة «المتاريس»
على نطاق أضيق . وقد قمع هذا التمرد بيسر وسهولة ، ومن الجائز
أنه كان من المستطاع تفادى وقوع الصدام أصلا . ولكن الدماء
التي أريقَت في تلك الأيام لم تنس قط ، فقد وضع فيكتور هوجو
قلبه البليغ في خدمة أعداء الامبراطور الجديد ، وراح يصمه بأنه
المجرم الذي أسال الدماء البريئة ليقب دستوراً أقسم على الدفاع
عنه . وقد بلغ عدد الضحايا نحواً من ٨٠٠ ، ورحل عدد أكبر أثر
تلك الحوادث الى كاين Cayenne والجزائر .

ولم يلبث الدستور الجديد أن طرح على الناخبين . كان يقضى
بأن يتولى الرئيس منصبه لمدة عشر سنوات وأن يعين بنفسه جميع
الوزراء ، كما يقضى بتشكيل مجلس للدولة - يعينه الرئيس بالطبع
- مهمته اعداد القوانين ، وتأليف جمعية تشريعية بطريق الانتخاب
العام للتصويت على القوانين والميزانية ، وأخيراً بتشكيل مجلس
للسيوخ بطريق التعيين مهمته « السهر على الميثاق الأساسى والحريات
انعامة » . وكان الكثير مما تضمنه الدستور متسماً بالغموض . على
أنه كان من الجلى أن السلطة الحقيقية تتركز كلها في يد الرئيس ، وأن
الجمعية لن يكون لها في أحسن الفروض الا سلطة تعطيل (تلك)
التدابير التى يرى عرضها عليها . وقد دعى جميع الناخبين في فرنسا
للتصويت بعد أيام معدودة بـ « نعم » أو « لا » على القرار التالى :
« يرغب الشعب في الإبقاء على سلطة نابليون بونابرت ويعهد اليه
بالسلطات اللازمة لاقامة دستور على الأساس المقترح في اعلانه
الصادر في ٣ ديسمبر » . وبذلت الحكومة كل جهد ممكن لضمان
الحصول على موافقة الشعب ، ولم تتصف الوسائل التى استخدمت
بالنزاهة غالباً . على أننا اذا استبعدنا كل ما يمكن استبعاده من

الأصوات ألفينا أن الشعب قد أيد الرئيس في مهمته الجديدة تأييدا ساحقا . فقد صوت بالموافقة ٧٤٣٩٠٠٠ بينما لم يصوت بالرفض سوى ٦٤٠٠٠ (١) . وهكذا أصبح لويس بوناپرت رئيسا للجمهورية وفقا لتلك الشروط في ٢١ ديسمبر ١٨٥١ . فلم يلبث أن استبدل لقب الامبراطور بلقب الرئيس ولما يمض على ذلك التاريخ عام كامل . وقد تحققت هذه النتيجة بالجوء - مرة ثانية - الى الكثير من الدسائس والأساليب الفاسدة . ولكننا لا نملك - مرة ثانية - أن نشك في وجود الكثير من الحماسة الشعبية الصادقة لاستعادة لقب الامبراطورية المجيد . ومن الأشياء التي ذكرت ضده دائما أنه قال في بوردو « يبدو أن فرنسا ميالة الى العودة الى الامبراطورية . حسنا ان الامبراطورية تعنى السلام » . وقد جاء الاقتراح باسباغ لقب الامبراطور عليه وجعله لقبا وراثيا لابنائهم ، من مجلس الشيوخ الخاضع له . ثم طرح للاستفتاء العام وكانت النتيجة التي أعلنت أن ٧٨٢٤٠٠٠ قد أيدوه ولم يعارضه سوى ٢٥٣٠٠٠ فقط ! فحكم نابليون على الفور بلقب « الامبراطور نابليون الثالث » ذلك أن ابن نابليون الدوق ريخستادت Duke of Reichstadt المتوفى عام ١٨٣٢ كان يعد في نظر جميع أنصار الامبراطورية الغيورين « نابليون الثاني » رغم أنه مات دون أن يتوج .

كانت الامبراطورية الجديدة التي نشأت على النحر الذي ذكرنا مثالا أعلى من الوجهة النظرية للملكية الأبوية ، وقد جمعت بين أفضل

(١) يقول ف. أ. سيمسون في كتابه « لويس نابليون وابلال فرنسا » (الطبعة الثانية ١٩٣٠) صفحة ١٦٢ .

أن صفحة هذه الأرقام قد اوضحت أمرا معترفا به بصفة عامة . وإن الضبط الرسمي لم يكن مصدر الأغلبية التي حازها لويس نابليون وإنما أدى الى تضخيمها فحسب ومما يذكر أنه يدافع في الصفحات ١٦٣ - ١٧٦ دفاعا قويا عن الانقلاب .

F.A.Simpson : " Louis Napoleon and the Recovery of France " (2nd edition, 1930) p. 162.

« فى مبادئ الثورة الكبرى وخير صفات الكفاءة التى توفرت فى ، نظام نابليون الأول • وقد ذكر نابليون فى الاعلان الذى أصدره بعد انتخابه رئيسا للجمهورية أنه « قد نقب الماضى بحثا عن أفضل الأمثلة التى تحتذى ، وأنه يفضل مبادئ العبقريّة على تعاليم ذوى الافكار المجردة البراقة فى مظهرها » وأنه لما كانت فرنسا تدين بتقدمها فى الخمسين عاما الأخيرة للنظم الادارية التى وضعتها قنصلية نابليون ، فإنه قد رأى من الأفضل أيضا تطبيق النظم السياسية لتلك القنصلية • سيكون الامبراطور اذن على اتصال وثيق دائم بشعبه ، سيكون مثله الصادق والمعبر عن ارادته ، كافلا له الحرية ، مخففا عنه الفقر ، واضعا تحت تصرف الأمة زبدة ذكائها فى مجلس الدولة ، مجنبا اياها دائما الأخطار والتعطيلات المترتبة على الصراع الحزبى • لقد وجد مثله الأعلى كما ذكرنا فى قنصلية نابليون ، ولعله كان بوسعه أن يجد بعض ما يشبه حلمه فى الملكية الانجليزية على عهد التيودور وفى طوبائية الملك الوطنى بولنجبروك (١) .

أما الحقيقة فكانت شيئا مختلفا • فلئن كان نابليون الثالث قد كن بلا مراء حبا صادقا لفرنسا وللشعب الفرنسى ، فان تملك السلطة الفردية كان أول ما يلزم لتحقيق أهدافه الشخصية والعامة جميعا ، وهو لم يظهر فى الأساليب التى عمد اليها لتأمين سلطته الفردية أى ، وازع من ضمير وان أظهر الكثير من الحيلة والبراعة • كانت لفرنسا جمعية تشريعية منتخبة بوساطة الاقتراع العام للبالغين من الرجال ، ومن طبيعة مثل هذه الجمعيات أن تحاول توسيع سلطانها وأن تبدى أنفة من أى تدخل • فرأى نابليون فيها أخطر خصومه ،

Utopia of Bolingbroke's Patriot King

(١)

وبولنجبروك سياسى انجليزى معروف عاش فى الفترة ما بين ١٦٧٨ - ١٧٥١ (المترجم)

وصمم على اخضاعها لسيطرته • وقد تحقق له غرضه أولاً بالتحكم في الانتخابات ، فرغم الابقاء على الاقتراع العام تقرر حرمان جميع الذين أدينوا في جرائم سياسية من التصويت . وقد أولت تلك المادة تأويلاً واسعاً للغاية حتى أصبحت عضوية أى ناد مذموم سبباً يفقد المرء صوته ، واستطاعت رفع معظم خصومها المعروفين من جداول الانتخاب • ثم تحقق غرضه كذلك عن طريق ترتيب الدوائر الانتخابية اذ كان تقسيم هذه الدوائر في يد الحكومة فتمكنت باستخدام تلك السلطة من اغراق المدن الراديكالية الميول في الريف المحافظ ، فنادرًا ما سمح لمدينة ما أن تمارس حقها في الانتخاب كدائرة واحدة وانما كانت تقسم الى عدة أقسام يؤلف كل منها مع المناطق الريفية المجاورة دائرة واحدة • كما عمدت الحكومة الى تقديم « مرشحين رسميين » مستخدمة كل نفوذها لتأمين انتخابهم • فكان مأمورو الأقاليم وعمد المدن ، وجميعهم معينون من قبل الحكومة ، يستغلون كل سلطاتهم لتأمين نجاح أنصار الامبراطورية . ولم يخل الأمر فيما يبدو من حدوث تلاعب في الاصوات بعد اعطائها •

ولما انتخبت الجمعية راح ينظر اليها بغيرة قصوى ، فحرمت من حق المبادأة باتخاذ أى إجراء أو تعديل الميزانية . وكان التصويت فيها يجرى سرا • فاذا ما أقرت الجمعية اجراء لا يرضى الحكومة أمكن الغاؤها بوساطة مجلس الشيوخ المحافظ الخانع ، على مقولة أنه يتعارض مع « العهد الاساسى » الغامض . ومن الغريب أن هذه الجمعية التى تم انتخابها والتحكم فيها على النحو الذى ذكرنا قد تمكنت في بعض الأحيان من اطلاق راحة الحكومة .

وقد أدرك نابليون كذلك أن له في رأى العام الخاضع لنفوذ أو سيطرة الأدباء والصحفيين والقائمين على التعليم ، عدواً آخر يتعذر الامساك به . لقد كان التحكم في الأدب مستحيلاً . ولئن

كان قد وجد كتابا يؤيدون عهده فان لوى بلان وفيكتور هوجو وكثيرين غيرهما لم يكفوا عن مهاجمته من منفاهم في الكتب وشتى أنواع النشرات . لقد كان قلم فيكتور هوجو عدوا لا تتوقف هجماته أو تهدأ ، وقد ظل صوته طوال فترة الامبراطورية تقريبا أقوى الأصوات بين كتاب أوروبا . أما التعليم فالسيطرة عليه كانت ممكنة وحدثت فعلا عن طريق وزير التعليم العام الذي كان يتصرف وفقا لما تمليه عليه مصلحة الحكومة . وتحقيقا لتلك السيطرة وضع أساتذة الجامعة تحت اشراف الوزير المباشر ، وصدرت اليهم الأوامر بمراعاة حسن الهدام والامتناع عن اطلاق لحاهم « كى تزول آخر بقايا الفوضى » . وتقرر منع تدريس التاريخ والفلسفة في مدارس المعلمين التى يتلقى فيها المعلمون تدريبهم . أما المدارس الخاصة فقد لاقت - ولا سيما تلك التى يديرها القساوسة - تشجيعا طيبا . على أن المدارس بأنواعها قد وضعت تحت رقابة دقيقة لصالح الحكومة . كما أخضعت الصحف للاشراف والمراقبة الصارمة ، فلم يكن من المستطاع اصدار صحيفة دون الحصول على اذن سابق من الحكومة وفرضت على الصحف ضريبة تمغة باهظة ، وكان من الميسور إيقاف الصحف أو تعطيلها اذا ما خالفت في كتاباتها رغبات الحكومة . ولم تتح لنشر الكتب حرية أكبر . أما حق تشكيل الجمعيات وعقد الاجتماعات العامة فقد فرضت عليه قيود كادت تقضى عليه قضاء كاملا .

فماذا كان رأى فرنسا فى هذا كله ؟ لم يفلح نابليون قط فى كسب المدن الكبرى الى جانبه . فما برحت باريس تضرر له ، رغم كل ما فعله لمبانيها وتجارها ، خصومة مريرة . بيد أن الإقاليم ظلت تكن له الود دائما ، ولا يمكن أن نفسر التأييد الذى كان يلقاه فى شتى استفتاءاته الا بأنه أماراة من أمارات هذا الود . وقد ذهب بعض كبار المؤرخين الى أنه كان يوفق فى تثبيت حكمه لو أنه استطاع المحافظة على السلام ، غير أن تاريخ فرنسا لا يشجعنا على الاعتقاد بإمكان

استمرار أى عهد لا يشبع الرغبة فى المجد أو يهمل الحرية أو ينكر حرية الرأى •

ان طريق التآمر والمغامرة الذى سلكه الى الامبراطورية قد ضيق مجال اختياره للأعوانه تضيقا مهلكا . فقد رفض الجمهوريون أمثال كافنياك وأنصار ملكية أورليان أمثال ثيير الدخول فى خدمته ، ولم يكن بوسعه الاطمئنان الى ولاء كثيرين غيرهم ، فاضطر الى قبول خدمات رجال كانوا ، بدرجات متفاوتة ، شركاءه فى التآمر . فأصبح برسينى Persigny ووالوسكى Walewski ومورنى Morny وسان - أرنو Saint-Arnaud أقرب أعوانه وأكثرهم تمثعا بثقته • ولم يكن بوسعه - لكونه مغامرا - الفوز بمخالفة أى من البيوت المالكة فى أوربا . وقد كان له فى زواج نابليون من مارى لويز نذير أى نذير • الا أن الزواج كان ضروريا ليستكمل الضرح الامبراطورى عقده ، فتزوج فى يناير ١٨٥٣ من كوتيسة تبا أوجينى دى مونتيجو Countess of Teba, Eugénie de Montijo وهى أسبانية حسناء تجرى فى عروقتها بعض الدماء الاسكتلندية وقد أضفى وجودها سحرا بالغيا على حياة البلاط وأدت دورها بنجاح عجيب ، وافتتح نابليون - عن سياسة وعن هوى - سلسلة من الحفلات الراقصة والاستقبالات ، وانغمست باريس كلها لا البلاط وحده فى نوبة من الجور والطرب سرعان ما جعلت المدينة قبلة للباحثين عن المتعة فى أوربا ، الأمر الذى لم تكنه من قبل • وأعيد بناء المدينة بأشراف المأمور هوسمان (Prefect Hausmann) فحلت الطرقات العريضة محل الشوارع الضيقة واكتسبت المدينة صحة ورواء جديدين • ومما يذكر كذلك أن تنظيم الشوارع الجديدة جعل احوالها الى قلاع عن طريق نصب المتاريس ، أمرا أشد صعوبة على أى ثورة تنشب •

لقد تم لنابليون أرجاع النظام والدين ، واكتست باريس ثوب
المرح والبهاء ، وباتت أغلبية سكان فرنسا قانعة راضية بكل تأكيد •
ولكنه لم يلبث وهو الذى وعد بأن تجلب الامبراطورية السلم فى
ركابها ، أن اشتبك فى حروب أوربية كبرى ولم يمض على الانقلاب
الا ما يزيد قليلا عن عامين •

الفصل الثاني عشر ثورة ١٨٤٨ - ١٨٤٩ في ألمانيا وفي امبراطورية النمسا وفي المجر

قال مترنيخ في أكتوبر ١٨٤٧ ان النمسا تعاني من داء مميت . ولقد كان هذا صحيحا وقد عجلت سياسته هو نفسه استئثار الداء ، فان انتهاج سياسة قوامها القمع الخالص ومناوأة الاتجاهات القومية والتحررية قد انتهت - كما كان من المحتوم أن تنتهي - الى الافلاس لافي النمسا وحدها بل في ألمانيا وأوروبا في مجملها . فقد بات النظام القديم في ألمانيا وفي النمسا كليهما أشبه بقطعة من الأثاث مازال ظاهرها أخاذا وان كان نخر السوس في باطنها ، حتى لم يعد يلزم لظهور فسادها الداخلي التام الا تسديد ضربة جريئة اليها من الخارج . فما ان أتت تلك الضربة حتى انهار البناء كله ومن أساسه وولت ألمانيا والنمسا كما عرفهما عهد مترنيخ الى غير رجعة . أما الحكم الرجعي الذي قام في ١٨٤٩ فانه لم يكن يستطيع العودة الى الماضي فلم يبق أمامه الا أن يرتجل للمستقبل .

وقد أتت الشرارة التي أوقدت النيران في ألمانيا والنمسا من فرنسا ، وزاد تلك النيران اشتعالا بالنسيم الثوري القادم من إيطاليا . والحق أن الثورة كان يمكن أن تنتصر في كافة أنحاء ألمانيا والنمسا لو أن الجمهورية الفرنسية قدمت عوناً إيجابياً لكفاح العناصر التحررية في ألمانيا ، ولو أن ملك سردينيا وفق في سحق النمساويين في إيطاليا ، غير أن الذي حدث فعلا هو أن الرجعيين تمكنوا في النهاية من التغلب في ألمانيا وفي النمسا وفي المجر على الثوريين ، الذين كانت تعوزهم التجربة وتنقصهم المعونة .

وقد اتخذت الثورة أشكالا متباينة في أنحاء أوروبا الوسطى المختلفة . فقامت الحركة في المانيا على الرغبة القوية في تحقيق الوحدة القومية المقترنة بايمان راسخ بأن الاتجاهات التحررية (أى الاتجاهات المناهضة بقيام الحكومات النيابية والدساتير) سوف تحقق هذه الغاية . ووجدت هذه النزعات بين الأساتذة والطلاب الذين باتوا يحلمون بالوحدة وبين العمال الراغبين فى التمتع بحق الاقتراع والفلاحين التواقين الى القضاء على الحقوق الاقطاعية . وفى القسم الألمانى من النمسا كانت الحركة مشابهة للحركة فى المانيا الا أن الأهالى فى مجموعهم كانوا أكثر تعلقا بالاتجاهات التحررية منهم بالاتجاهات القومية . أما فى المجر والجهات غير الألمانية من الامبراطورية النمساوية فكانت النزعة قومية دائما فى جوهرها وان اتخذت فى بعض الأحيان مظهرا تحرريا سطحيا . وقد أخذت تتحرك هناك مجموعة من القوى المتباينة تماما . فقد راح التشيكيون فى بوهيميا يناضلون ، وهم الوطنيون الأشداء من أيام هوس Huss نضالا غنيها للفوز بحقوقهم من النمساويين البغيضين . أما المجريون الفخورون بدستورهم القديم وبرلمانهم ، فقد جعلوا يكافحون بنفس القوة ليخضعوا لسيطرتهم العنصرية جموع السلافيين والرومانيين الذين كانوا يشكلون ما يربو على نصف السكان وكانوا متمسكين أشد التمسك بحقوقهم الذاتية . فمن عجائب المتناقضات اذن أن نجد أن الصربيين والكرواتيين والرومانيين قد راحوا يحاربون فى النهاية لصالح النمسا ضد المجر بغية تأمين حقوقهم القومية . بل ان مما يثير عجبنا أشد أن قيصر روسيا قد تقدم لمعاونتهم . وهكذا نجد أن النمسا قد أُلْقِدت بسبب انقسام أعدائها من ناحية ومجئ العون لها من انخارج من ناحية أخرى وصحب انتعاش النمسا فوز الرجعية فى ألمانيا . لقد اتخذت الأحداث مجرى دراميا للغاية بحق . ففي مارس

١٨٤٨ كانت العروش تهتز في جميع أنحاء أوروبا الوسطى وكانت الثورة ظافرة في كل مكان . على أن العام لم يكبد ينتهى حتى أعنمت فرص نجاح الثورة ، ولم تلبث الرجعية أن سادت من جديد في كل مكان في ١٨٤٩ .

لقد آمن الأحرار والثوريون طويلا بأن ألمانيا في حاجة الى أشياء ثلاثة : هي حرية الرأى والصحافة ، وحكومة برلمانية ، ودستور قومى (أو اتحادى) بدلا من بنيان الاتحاد الألماني أو البوند (Bund) الواهن المنفسخ الذى نخر فيه السوس . فلما قامت ثورة فبراير في فرنسا أتاحت لألمانيا فرصة تحقيق أحلامها ، ففي شهر مارس ١٨٤٨ حدث تحول عجيب في ألمانيا . فما من ملك أو دوق أو أمير الا وقد أقسم يمين الولاء لدستور تحررى أو عين وزارة من الأحرار . وأقبل الملوك يضافحون زعماء الثورة ، وتأخى جنودهم في كل مكان مع جموع لعامة ، وغدا من الأساتذة رؤساء الوزارات ومن الطلاب والحرفيين وأصحاب الحوانيت نواب في المجالس التشريعية الشعبية التى دعيت حديثا . لم تكن ثمة مقاومة تذكر ، فلم ترق بالتالى أى دماء تذكر ، ولا عمد أحد الى خلع الملوك وأصحاب التيجان بالعنف والقوة . ولئن كان ملك بافاريا قد تنازل عن العرش لابنه في ١٦ مارس ١٨٤٨ فان هذه الخطوة ترجع الى أسباب خاصة وهى تعتبر استثناء للقاعدة العامة . وثمة تقطتان يجدر بنا أن نلاحظهما بوجه خاص ، هما أن فرتمبرج وهانوفر قد عارضتا فكرة الوحدة القومية الألمانية وان أخذتا بالمبادئ التحررية ، أما في سائر الجهات فكانت فكرة الوحدة هى الطاغية ، فلم تلبث الترتيبات أن اتخذت بناء على حركة نشأت في هس - دارمستادت (Hesse - Darmstad) وبادن Baden لدعوة برلمان قومى ألمانى . وانعقد قبل نهاية مارس ضمانا لاجتماع ذلك البرلمان برلمان تمهيدى شكل نفسه بنفسه Vorparlament

على أن نجاح الثورة قد تأكد لا بما حدث في ألمانيا وإنما بما حدث في النمسا حيث كانت مقاليد الحكم في أيدي واهنة . فالامبراطور كان شبه معتوه ومتربخ كان قد بلغ من العمر عتيا . أما المستشارون فكانوا جناء جهلاء . فلم يكن ثمة من هو على استعداد لأن يتولى زمام القيادة أو يقدم ترصيات سخية . وقد اتسم موقف الامبراطور في الأسبوعين الأولين من مارس بالجبن والتخاذل ولم يكد الشهر ينصرم حتى كان الصراع قد انتهى . ففي ١٢ مارس توجه الطلاب والأساتذة على رأس مظاهرة إلى الامبراطور ، وفي اليوم التالي وقع صدام بين الغوغاء والجنود انتهى بانضمام الأخيرين إلى صف الثورة . فاستقال مترنيخ في تلك الليلة ، وهرب من البلاد وهو يتصايح - أو هكذا يقولون - بأن الطوفان آت من بعده .

لقد كان لهروبه مغزى فائق ، فقد جاء علماء على أن الحقبة حقبة انتصار للثورة . فهاهو ذا أقوى رمز للرجعية يسقط لدى أول لمسة من لمسات الثورة . وهاهو ذا الرجل الذي كرم الصحافة طوال ثلاثين عاما وأرهب البرلمانات أو حطمها تحطيمًا وسجن الثوريين في شتى أرجاء أوروبا الوسطى ، يطارد من عاصمته بل من القارة الأوروبية كلها يلاحقه ازدراء العالم ولعناته . كان معنى سقوط مترنيخ وهروبه أن مدا صاعدا يجتاح أوروبا وأن الملوك يجرون أمامه فرعا .

وفي ١٥ مارس أصدر الامبراطور مرسوما من فيينا ضمنه الوعد بإقامة دستور متحرر واطلاق حرية الصحافة وعقد برلمان (ريخستاغ Reichstag) كما تقرر تشكيل حرس وطني (رمز سلطان البورجوازية) فدل ذلك على أن الثورة قد كتب لها الفوز حتى في عاصمة الرجعية الكبرى نفسها . وكانت الثورة قد انتصرت في اليوم السابق (١٤ مارس) في بودابست فطالب المجريون بأن يكون الوزراء

مسئولين أمام أغلبية المجلس الأدنى (١) وفقا لدستورهم القديم .
فوافق الامبراطور بوصفه ملك المجر على ذلك المطلب (١٧ مارس) .
كما طالبت الثورة في بودابست في ١٥ مارس باطلاق حرية الصحافة
وانشاء حرس وطنى ، فأقرت هذه المطالب كذلك فى النهاية واقرن
ذلك بالاعتراف بالاستقلال الذاتى للمجر . والواقع أن ماحدث فى
بودابست كان مغايراً تماماً لما حدث فى فيينا . فقد سادت فى العاصمة
الآخيرة حركة شعبية تحررية ليس الا ، أما فى بودابست فقد أمسكت
بزام الأمور حكومة مجرية قومية شديدة العداء للألمان وللهابسبورج
لقد أحنى الهابسبورج رقابهم الجامدة وأسلموها للنير فى فيينا
وبودابست ، ولم يلبث نصر الثورة أن اكتمل باستسلام الملك
الهوهنزولرنى فى برلين (١٩ مارس) . كان فردريك وليهم الرابع قد
سلم بوضع دستور نيابى واطلاق حرية الصحافة (١٨ مارس) ولكن
أعقب هذه الأنباء صدام بين الغوغاء والجنود فى برلين . ولعله كان
فى استطاعة الجنود أن يصمدوا فى المعركة لو أن فردريك وليهم الرابع ،
الذى أصيب بنوع من الخبل الدينى ، لم يعمد الى سحبهم فى ١٩
مارس وترك قصره بلا حراسة . بل لقد فتح الملك مخزن أسلحته
وزود الغوغاء بالسلاح وحيا موكبا حمل أمامه جثث المدنيين الذين
قتلهم جنوده . وفى ٢١ مارس أصدر بياناً أعلن فيه اندماج بروسيا فى
ألمانيا ، وكان قد عين قبل ذلك وزارة من الأحرار . وطاف ركب
بالعاصمة تحت لواء يضم الألوان الاسود والأحمر والذهب (وهى
ألوان الوحدة الألمانية (٢)) وجعل يتوقف فى الطريق ليخطب فى الطلبة
ويتحدث الى الشعب . وفى اليوم التالى تم تهريب ولى عهده أمير
بروسيا ، الملقب لرجعته ، من العاصمة فتكن من القرار الى

(١) أى مايقابل مجلس النواب فى أى برلمان يشكل من مجلسين (الترجم)

(٢) تبتت الجمهورية الألمانية هذه الألوان فى ١٩١٩ .

انجلترا . لقد كان الأمير (الذى سوف يصبح فى يوم من الأيام وليهم الأول) يشارك بسمارك يومذاك شرف كونه أبعد الناس عن قلوب الشعب فى ألمانيا ، وهى نفس ألمانيا التى سيكتب لهما أن يوحداها ويحكمها بنجاح باهر وتأييد شعبى كبير قبل مضى عشرين عاما .

وفى ٣١ مارس اجتمع البرلمان التمهيدى فى فرانكفورت ليمهد السبيل لقيام الجمعية الوطنية الألمانية . ولم يمثل النمسا فيه سوى مندوبين اثنين رغم أن سائر جهات ألمانيا كانت ممثلة فيه تمثيلا وافيا . ولم يكن هيئة تسودها الحكمة تماما وقد مزقته شتى أنواع الخلافات، ولكنه كان متمتعا بتأييد الرأى العام فتمكن من أن يتجاهل كلية ديت الاتحاد القديم أو البوند Bund . وكان البوند قد وضع لنفسه دستورا جديدا محافظا فى جملة فقره أعضاء البرلمان التمهيدى بعد أن أدخلوا عليه بعض التعديلات . وقد استقر رأيهم على الأخذ بنظام الانتخاب المباشر لمجلس واحد وعمدوا الى تجنب كل مامن شأنه تعزيز الاتجاهات الجمهورية . وفى النهاية تم انتخاب الجمعية الوطنية (أو البرلمان القومى) على هذه الأسس وانعقدت فعلا فى منتصف مايو .

تألف البرلمان القومى أساسا من الطبقة الوسطى أو البورجوازية وهى الطبقة التى تدين بالوطنية . أما أصحاب الأرضى و « كبار رجال الأعمال » فلم يكونوا ممثلين تمثيلا كافيا ، أما العمال فلم يكن لهم تمثيل يذكر . وقد كان للأساتذة والمحامين ورجال الأدب من أعضاء الجمعية تأثير كبير عليها . وبعد صدام أولى أحرز النفوذ النمساوى نصرا على النفوذ البروسى ، فعين الأرشيدوق جون الذى كان هابسبورجيا متحررا له شعبيته فى منصب الرايخسفرز Reichsverweser . (أى النائب الامبراطورى) . وهكذا تألفت

هيئة تنفيذية تجاهلت وجود الحكومات المنفصلة ووضع على رأسها رجل كان نمساويا وأميرا . لقد انطوت هذه السياسة أيضا على تجاهل

لأهواء المحافظين والراديكاليين جميعا ، فالأولون كانوا يناصرون قيام الحكومات المنفصلة والأخرون كانوا يكرهون اعطاء مثل هذا المنصب لأمير . ولكن لا الحكومات الالمانية المنفصلة ولا الراديكاليون في ذلك الوقت كانوا من القوة بحيث يستطيعون الاحتجاج ولم تكند الجمعية تبدأ نشاطها حتى قبل أول عمل قامت به تقريبا بالاستسكار والرفض المهين . ذلك أن البرلمان التمهيدى كان قد قام بمحاولة لتحرير دوقيتى شليزفيج وهولشتاين Schleswig-Holstein من الحكم الدانيمركي . الا أن الدانيمركيين هزموا القوات التي أرسلتها بروسيا لاحتلال الدوقيتين ، فعقدت هدنة لصالح الدانيمرك . وقد اضطرت الجمعية بعد مذلة بالغة الى قبول تلك الهدنة . فما ان عرف هذا النبأ حتى تحرش الغوغاء في فرانكفورت بأعضاء الجمعية وأرهبوهم . ولئن كان النظام قد أعيد آخر الأمر بوصول القوات البروسية والنمساوية (١٨ سبتمبر) فان ذلك لم يتم الا بعد أن قتل نائبان محبوبان لاذنب لهما في الأمر . وهكذا يبدو واضحا - حتى في خريف ١٨٤٨ - أن العنصر الثورى قد أخذ ينفلت عياره وأن الحكومات القديمة هي وحدها القادرة على حفظ النظام .

وينجدر بنا أن نتبين الآن الى أى حد تمكنت حكومتنا فيينا وبرلين من تدبير شئونهما الخاصة حتى سبتمبر ١٨٤٨ . كان الألمان النمساويون في مجموعهم يظهرون أقل الاهتمام ببقية ألمانيا فقد كانت تشغلهم شئونهم الخاصة وشئون الجهات الأخرى من أراضى الهابسبورج . اذ كان المجريون قد قطعوا بزعامة كوشوط Kossuth شوطا بعيدا في طريق الانفصال وراحوا يقضون على الاقطاع ويعطون الأرض للفلاحين ، وقد أوضح كوشوط في الوقت نفسه بجلاء تام أن المجريين لن يمنحوا في مملكتهم أية حقوق عنصرية للصربيين أو الكرواتيين أو الرومانيين . وهكذا نرى أنه في نفس اللحظة التي كانت تتحطم فيها السلطة

النمساوية في فيينا ، كان كوشوط يوجد لها بحماقته حلفاء ضده من بين العناصر غير المجرية الداخلة في عداد رعايا التاج المجرى . وقد نشر في فيينا دستور متحرر في ٢٥ أبريل . كان الامبراطور عاجزا لا حول له ولا قوة ، اذ لم يكن بوسعه الاعتماد على قواته في لعاصمة . وقد أرغمته في ١٥ مايو جموع من الطلاب لم يتعرض لها الحرس الوطنى على الاقدام على مزيد من الترضيات للاتجاهات التحررية . فما كان منه الا أن هرب سرا الى انزبروك (١٧ مايو) . فدل هروب الامبراطور من عاصمته على أن الأحوال قد قاربت حد الفوضى ، وكانت النتيجة المباشرة هى اطلاق العنان للمزيد من الأمانى القومية . فكان أن هب التشيكيون في براغ في ١٣ يونيو . الا أن القائد النمساوى ويند شجراتز Windischgratz لم يلبث بعد شئ من التخاذل أن قصف التشيكيين في عاصمتهم بالقنابل وأرغمهم على التسليم (١٧ يونيو) وبذلك حقق ويند شجراتز أول نصر للرجعية في النمسا بل في أوروبا كلها ، فأنشأ جميع مؤيدى العهد القديم يرفعون رءوسهم من جديد . وسرعان ما أعقب هذا النجاح الأولى ورود أنباء هزيمة السردنيين في ايطاليا (٢٥ يوليو) واعادة احتلال ميلانو (٦ أغسطس) على يد راديتسكى Radetzsky وهكذا أخذ الجنرالات النمساويون يحرزون الانتصارات وبدأت الروح المعنوية لقواتهم تقوى بالتالى . وبعودة الامبراطور الى فيينا (١٢ أغسطس) اتضح جليا أن من المتوقع حدوث حركة رد فعل رجعية .

وقد جاءت عودة البلاط الى فيينا في نفس اللحظة التى أصبح فيها وقوع صراع مع المجر أمرا محتوما . ان هذا الصراع يرجع الى حد بعيد الى رجلين هما كوشوط زعيم المجر الثائر وجلاكيثش Jellacic « بان » كرواتيا - أى حاكمها - الداهية . كان كوشوط يعمل بخطوات ثابتة في سبيل استقلال المجر ويتسلح علنا لنسحق الصربين والكرواتيين

الثائرين . أما جيلا كيتش الذى عين حاكما لكرواتيا فى يونيو فقد راح يستخدم سلطته لدفع الحركة القومية الكرواتية الى الأمام وإثارة الصربيين والكرواتيين جميعا ضد المجر . ولقد أجاد جيلا كيتش الذى كان متآمرا حاذقا ومقامرا جسورا فى آن معا ، اللعب بأوراقه . فقد أوقف عن العمل ولكنه خف لزيارة الامبراطور فى انزبروك مبينا له مزايا استرضاء السلافيين ، فأعيد آخر الأمر الى الحكم (٤ سبتمبر) . وما كان منه الا أن سارع الى عبور نهر درايف Drave ، مستعينا بالكرواتيين والصربيين معا ، ليغزو المجر على رأس جيش أعده لهذا الغرض (١٧ سبتمبر) . ومع أن مغامرته العسكرية لم توفق فقد كان لها أثر هام واحد . ذلك أن عبور الدرايف كان بمثابة « عبور الروبيكون » (١) ليس فقط بالنسبة لجيلا كيتش وانما بالنسبة للبلاط النمساوى كذلك . فقد ألقى الامبراطور الهابسبورجى نفسه قد تورط نهائيا فى دخول الحرب ضد المجر ، ولم تلبث الحكومة النمساوية أن أعلنت الحرب رسميا فى ٣ أكتوبر .

بيد أنه بقى أمل واحد ، ألا وهو أن يرغم زعماء الثورة فى فيينا الحكومة النمساوية على وقف تدخلها فى المجر ، وأن يمدوا أيديهم لأقرانهم فى بودابست كيما تنتصر الثورة فى العاصمتين . وقد وعد كوشوط بارسال قوات مجرية لمعاونة اخوانه الثوار فى فيينا . وسارت فى فيينا المظاهرات ضد الحرب مع المجر فى سبتمبر وبلغت ذروتها بقيام الاضطرابات ومصرع وزير الحربية النمساوى ونصب المتاريس فى الشوارع وفرار الامبراطور للمرة الثانية (٧ أكتوبر) . لكن الحكومة النمساوية سيكتب لها الخلاص هذه المرة على يد جنرالاتها . فعفى ١٣ أكتوبر اقترب جيلا كيتش من فيينا ، وفى ١٧ منه ظهر ويندشجراتز على رأس قوات أضخم من جهة براغ . وقد قرر

(١) تعبير يقصد به اتخاذ الخطوة الحاسمة (المترجم) .

ويندشجراتز ألا يعرض على الثوار أية شروط وأبى التفاوض معهم مطالباً إياهم بنزع سلاحهم والتسليم له بلا قيد أو شرط . وبقي ثمة أمل في أن يتمكن المجريون من تحرير اخوانهم في الثورة ، لأنهم كانوا قد شارفوا أبواب فيينا ، الا أنهم هزموا على يد جيلاكيثش في ٣٠ أكتوبر على مرأى من العاصمة فتبددت كل الآمال . وبذلك انتهت مقاومة المدينة فدخلها ويند شجراتز في اليوم التالي دخول الفاتحين . لقد كان ، شأن جيلاكيثش ، يتصرف في كثير من الأحيان دون أوامر البلاط أو على عكس تلك الأوامر فكان أن أنقذ الأسرة المالكة رغم أنفها .

وقد انتهت الثورة بالنسبة للنمسا بسقوط فيينا . وعين ويندشجراتز صهره الأمير فليكس سفارزنبرج وزيراً أول ، وكان هذا رجلاً حديدى الإرادة عظيم المقدرة ، راح يحكم البلاد حكماً مستبداً ويتجاهل في برود الوزارة الثورية والريخستاغ النمساوى . وفي ٢ ديسمبر تنازل الامبراطور العاجز عن العرش لصالح ابن أخيه فرنسيس جوزيف البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً . وظل سفارزنبرج الحاكم الفعلى للنمسا ، ومضى يعمل لتنفيذ برنامجه الذى يتلخص في قيام ملكية نمساوية لا تتجزأ تحكمها الطبقة البيروقراطية . وكان يهزأ بالدستور الجديد فألغاه في ازدراء وحل الريخستاغ النمساوى في أوائل مارس ١٨٤٩ .

وقد تحقق القضاء على الاتجاهات التحررية في بروسيا في نوفمبر ١٨٤٨ بعد أن قمعت في النمسا بحوالى أسبوعين . فقد ظل فردريك وليهم يتذبذب طويلاً بين موقفى الاحترام المشين للأعمال العنف الغوغائية والاصرار العقيم على حقه الالهى . ولكنه حزم أمره في النهاية واستدعى لمعوثته كونت براندنبورج Count Brandenburg وأوتوفون مانتيوفل (Otta van Mantauffual) (أول نوفمبر) فسارعا الى العمل وأعلننا

(٩ نوفمبر) نقل الجمعية التحررية الجديدة من برلين الى براندنبورج . ودخلت القوات العاصمة في ١٠ نوفمبر فانقطع الأمل في نجاح أى مقاومة أخرى . وفي ٥ ديسمبر حلت الجمعية لرفضها التصويت على الضرائب والانتقال الى براندنبورج . وهكذا أدى جنود الجيش البروسى دورهم مرة أخرى ونصبوا الهوهزلى ملكا من جديد ، وأكدت الدولتان الألمانيتان الكبيرتان سلطانهما فى عاصمتيهما ثانية . لقد أثبتت التجربة أن الشدة تجدى وأن الثقة بالجنود أمر مستطاع وتمكنت بروسيا من المحافظة على النظام تماما . أما النمسا التى اطمأن بالها الآن بالنسبة لأقاليمها الموروثة فقد بقى عليها أن تقمع الثورة فى المجر وإيطاليا .

وإذا كانت نهاية عام ١٨٤٨ قد آذنت بانتصار الرجعية فى ألمانيا والنمسا فإن فرص النجاح للثورة ظلت قائمة فى جهات أخرى . فالرجاء لم يكن قد انقطع بعد من فوز قضية الوحدة القومية فى إيطاليا ، والمجر لن تلبث أن تبذل العالم بحيويتها الفائلة . لقد كانت المقاومة التى أبدتها خارقة بأكثر مما يبدو لأول وهلة ، ذلك أنها لم تضطر فقط الى أن تؤلف جيشها ارتجالا لتحارب به قوات نظامية تفوقها عددا وتنظيما وعتادا بل تعين عليها كذلك أن تواجه قوات غير نظامية من الصربيين والرومانيين والسلوفاكيين فى عقر دارها . ورغم هذا كله فإن من المشكوك فيه أن النمسا كانت ستتمكن من التغلب عليها لو أنها لم تدع جيوش روسيا الى نجدتها . ومن حسن حظ المجر أنها تمتعت بطبقة حاكمة استجوذت على مواهب سياسية ظاهرة ، على أن دينها الأكبر كان للحماسة التى أثارها كوشوط والمقدرة العسكرية العظيمة التى أظهرها جورجى gorzei . أبرز القادة العسكريين المجريين . ومن سوء حظها أن كوشوط كان على جهل بالشئون العسكرية لا تضارعه الا حماقة جورجى فى الشئون السياسية ، وكان الرجلان

دائما على خلاف ، فلم تتم السيطرة الفعلية على الجيش المجرى لجورجى - بسبب عوامل الغيرة والخلاف هذه - الا فى مارس ١٨٤٩ .

وتعد المجر مدينة بسلامتها ابان شتاء ١٨٤٨ - ١٨٤٩ للبطء الذى كان يتحرك به ويند شجراتز . لقد كانت تحدوه الى ذلك حقا بعض الاعتبارات السياسية ، ولكنه كان بصفة عامة حذرا الى درجة الجبن ، فلم يبذل رغم سيطرته على بودابست وفيينا أية محاولة تذكر للتحرش بخصوصه ناهيك عن مطاردة جورجى فى المناطق الجبلية التى راح يعيد تنظيم جيشه فيها . فما كان من الأخير الا أن اندفع للاشتباك به فى أوائل ابريل فباغته وهو غير مستعد للقتال فى ايزازج Isaszeg (٦ ابريل ١٨٤٩) وأنزل به هزيمة منكرة . ثم واصل انتصاره بتخليص كوماروم Komarom أقوى حصون المجر وارغام جيش نمساوى على التقهقر الى فيينا وآخر بقيادة جيلاكيتش الى زغرب . كان فوزه العسكرى مذهلا حقا ، فقد شنت الجيوش النمساوية وفرقها ، وبات استرداده لبودابست مسألة وقت ليس الا .

على أن هناك علامات ثلاثا تشير الى تحول الموقف : هى سحب الحكومة النمساوية لقيادة الجيش فى الميدان من ويند شجراتز ، ومناشدتها روسيا تقديم العون ، ودفعها كوشوط الى التمرد الصريح . فقد شعر الأخير عند انعقاد برلمانه فى دبرزن Debreczen بأن فوته قد بلغت حدا يسمح له بخلع الامبراطور الهابسبورجى وتعطيل الملكية وتنصيب نفسه حاكما واصدار اعلان باستقلال المجر (١٤ ابريل) (١) . لقد بلغ مركز المجر درجة فائقة من القوة حتى أنها لم تهتز لهزيمة ملك سردينيا الفادحة فى نوفارا (٢٣ مارس) . بل ان كوشوط راح يحث جورجى على الزحف على فيينا ، وان يكن الأخير

(١) أرخ هذا العنوان خطأ فى ١٩ مارس .

قد أبى الاقدام على هذه المخاطرة لأسباب عسكرية . على أنه لم يلبث أن تحرك في أوائل مايو صوب بودابست فاستولى عليها بعد أسابيع ، ودخلها كوشوط مظفرا في ٦ يونيو حيث راح يتمتع بضعة أسابيع بمظاهر السلطة البراقة . على أن مركزه كان في الحقيقة مزعزا . أما جورجى فكان عليما بضعفه العسكرى الذى يرجع الى قلة عدد رجاله وضآلة مؤنه . بيد أنه كانت هناك مواطن ضعف سياسية خطيرة كذلك . فجورجى والجيش كانا يؤمنان بالملكية الدستورية فى حين كان كوشوط يؤمن بالثورة ايماننا عاطفيا . وقد أثار تطرفه الثورى نزاع الأعيان والطبقات المثرية ، وأخذت قيمة العملة الورقية التى أصدرتها الثورة تهبط يوما بعد يوم . ولعل جورجى كان على حق فى ظنه أن تنصيب ديكتاتور عسكرى هو وحده الكفيل بانقاذ البلاد . على أنه لم يكن يملك ، وهو المرشح الوحيد المحتمل لهذا المنصب ، أية فراسة سياسية ، كما أن كوشوط كان مصمما على الاحتفاظ بالسلطة المدنية الكاملة طالما أمكنه ذلك . وهكذا تأخر البت فى هذه المسألة البالغة الحيوية حتى فات الأوان ، فلم تجد الخطوة عند اتخاذها فتيلاً فى انقاذ الموقف .

والحق أن نتيجة الحرب كانت قد تقررت فعلا . فقد عرف فى أول مايو أن قيصر روسيا قد استجاب لنداء النمسا وأنه يوشك أن يرسل الى المجر جيشا مستقلا كامل العتاد بقيادة الفيلد مارشال باسكيفتش Paskiévich وقد قدر لهذا التدخل أن يكون حاسما فى النهاية . وطالما ناقش المؤرخون دوافع القيصر . الا أنها تبدو فى الواقع بسيطة واضحة . فان تقرا غفيرا من البولنديين قد حاربوا فى صفوف الجيش المجرى ، وقد برز من هؤلاء كثيرون واحتلوا مناصب القيادة العليا فيه . والقوات الروسية كانت قد دخلت ترانسلفانيا فى مارس فطردتها منها القوات المجرية . وقد رابطت فرقة مجرية بالقرب من حدود

عالميسيا تحقيقا لهدف صريح هو تشجيع البولنديين على الثورة ضد النمسا . ولما كان القيصر نيقولا حساسا بصفة خاصة ازاء كل مايتعلق بالبولنديين ولما كان يؤمن بضرورة اتحاد جميع العواهل ضد الثوار فقد رأى أن يتدخل لقمع الثورة البولندية في مهدها من ناحية وتعزيز الحق الالهى لحاكم شقيق ضد الثوار من ناحية أخرى ، وهما هدفان متوازنان على نفسه وسيكتب لهما التحقيق . فكان أن اجتمع العاهلان في ٢١ مايو بوارسو واتفقا على خطة القتال (١) .

وقد تقرر أن يتم غزو المجر من ثلاث جهات : وذلك بأن يزحف هيناو Haynau القائد النمساوى الجديد من فيينا ، وجلاكيث من زغرب ، في حين يعبر باسكيفيتش جبال الكربات ليهاجم المجرين من المؤخرة . وهكذا ألقى جورجى نفسه في موقف دقيق ، فقوات العدو تفوقه عدداً بدرجة تبعث على اليأس والضرورات السياسية تفرض عليه التمسك بالدفاع عن كوماروم وبودابست مما يشل يده عن الحركة . وقد تمكن جيلاكيث رغم مامنى به من خسائر من اللحاق بقوات هيناو في ١٤ يوليو ، وفي ١٨ منه دخل الجيش النمساوى الموحد بودابست . فانتقلت العمليات بعد ذلك الى تيسو Theiss أو Tisza . وقد تجنب جورجى في براعة الاشتباك مع القوات الروسية التى يقودها باسكيفيتش ، ولكن هيناو لحق بالجيش المجرى الجنوبى فحره دحزا تاما في تيمزفار Temsvar (٩ أغسطس) .

(١) سأل نيقولا سفير النمسا بعد خلافه معها في ١٨٥٤ عما اذا كان يعرف من هم احمق ملكين في تاريخ بولنده . ثم اجاب بنفسه على سؤاله كالاتى : « ان الاول هو الملك جون سويسكى John Sobieski الذى حرر فيينا من الحصار الذى ضربه عليهما الاتراك (١٦٨٣) . اما التالى فهو اتنا ... اتقد بيت الهاسبويج » انظر كتاب ج . ردليش : «امبراطور النمسا فرنسيس جوزيف» (١٩٢٩) ص ١٥٦ .
J.Redlich : "Emperor Francis Joseph of Austria" (1929) p.156.

كان جورجى قد توقع الهزيمة وأبلغ كوشوط فى « أراد » Arad فى ١٠ أغسطس أنه سوف يستسلم اذا انتصر هيناو فى تيمزفار . فأجاب كوشوط بطريقة مسرحية بأنه سيجهز على نفسه ان حدث ذلك . وفى ١١ من نفس الشهر وصلت أنباء الكارثة التى حلت بالمجرىين فى تيمزفار فاستعد جورجى للتسليم وطالب كوشوط بالتخلى عن الحكم بغية رفع مسؤولية التسليم عن زعيم البلاد السياسى . ان الكثير من الغموض يكتنف المفاوضات التى دارت بين الرجلين ، وقد أكد كوشوط فيما بعد أنه أمر جورجى بالاصرار على استقلال المجر الذاتى واتهمه بالخيانة وتسليم البلاد عمدا للعدو ، وهو اتهام بانغ السخف ومن الجائز أن القصد منه كان مجرد ايجاد تبرير شعبى للكارثة التى حاقت بالمجر ، ذلك أن كوشوط كان يعلم تمام العلم ، شأن جورجى ، أن المقاومة باتت مستحيلة . (١) وحتى لو طالب جورجى باستقلال المجر الذاتى لما قبل هيناو أو باسكيفيتش أى مطلب سوى التسليم بلا قيد ولا شرط على أساس عسكري بحت .

وفى ١٣ أغسطس سار جورجى ، أبرز القادة العسكريين الذين أنجبتهم انتفاضات ١٨٤٨ ، على رأس ما يربو على ٢٣٠٠٠ رجل الى فيلاجوس Világos حيث استسلم للروس وألقى سلاحه فكتب باسكيفيتش الظافر الى القيصر يقول : « ان المجر تجشو تحت أقدام جلالتهكم » . على أن جيش جورجى وأمر التسوية المجرية

(١) وجه كوشوط اتهام الخيانة فى لحظة من الانفعال البالغ عند فراره من المجر . ومع أنه لم بسحبه فيما بعد فان الكتاب الجادين لم يعودوا يؤيدونه . وينصب الاتهام الاساسى على أن كوشوط قد اشترط لاحتفاظ فى حالة التسليم ، بالاستقلال الذاتى للمجر . وحتى لو كان هذا صحيحا (ويحتمل الا يكون كذلك) فان كوشوط كان يصر على شرط لم يكن بوسع جورجى أن يناله . انظر مجموعة كامبردج فى التاريخ الحديث ١٠ و ١١ ، المجلد الحادى عشر ص ٢١٢ - ٢١٤ .

قد تركا كلاهما لهيناو ، فانصرف صاحبنا الى معاقبة الثوار . وقد تم انقاذ حياة جورجى نتيجة لتدخل القيصر ، ولكن قواده الثلاثة عشر (« شهداء أراد ») أعدموا شنقا أو رميا بالرصاص ، وألقى نحو ٤٠٠ من ضباطه فى غياهب السجون . وأعدم باتثيانى Batthyány الذى كان رئيسا لوزراء المجر وما يربو على مائة من الساسة الآخرين أما كوشوط فقد صنعوا له و للكونت جوليوس أندراسى Count Julius Andrassy وأربعة وسبعين شخصا آخر نماذج علقت على أعواد المشانق . وأنزلت بالمجرين شتى ضروب البطش والتشقى ، فى حين تركت الفظائع التى ارتكبتها السلافيون والرومانيون فى حرب العصابات دون ماعقاب . ان حكم هيناو الوحشى قد أكسبه اسما مستعارا هو « الضبع » وجلب عليه ، عند زيارته لانجلترا بعد ذلك ببضع سنوات ، عقابا صارما على يدى السائقين « باركلى » و « بيركينز » السخيتين . ولا مراء فى أنه قد أظهر ضراوة لا داعى لها ، ولعله من المفيد أن يقارن المرء « الرأفة التى أبداهها الشمال الظافر فى الحرب الأهلية الامريكية نحو ساسة الجنوب وقواده ، بالأساليب الوحشية التى عمدت اليها النمسا فى المجر وايطاليا ١٨٤٩ .

لم يقدم كوشوط على الانتحار عندما حدث التسليم كما قال انه سيفعل . لقد دفن فى ١٧ أغسطس التاج المجرى بالقرب من مدينة أورزفا Orsova الكائنة على الحدود وهرب من المجر التى لم تقع عليها عيناه بعد ذلك قط ، الى تركيا . فغدا صوتا بليغا يتردد صدها فى البيداء وراح يستعرض ، فى انجلترا وفى الولايات المتحدة ، قدرته الفذة على اثارة العواطف البشرية تلك القدرة التى جعلت منه الرجل الأول فى المجر . وقد عاش زهاء خمسين عاما وظل على عدائه الذى لا يلبس لها بسبورج . وفى ١٩٠٢ حمل رفاقه ليرقد فى وطنه وسط مظاهر من العاطفة لم تشهد لها المجر مثيلا من قبل . والحق أنه كان (٢٤)

بركانا نائرا وأنه مارس سلطانا لا يوصف على النفوس . فالتقوى المحافظة كانت لها سطوتها في المجر ولولاه ما قامت للثورة قائمة . وبحلول صيف ١٨٤٩ كان القضاء على الثورة تم تقريبا ، فرغم استمرار الكثير من القلاقل لم يعد ثمة مجال للشك في أن السلطات القائمة ستتغلب في النهاية على الثوار . لقد كانت الثورة أشبه بموجة أو هجمة من هجمات الفرسنان تكتسح برهة من الزمن بقعة واسعة من الأرض دون مقاومة ثم لا تقوى على المحافظة طويلا على ما اكتسبته . وقد ردت على أعقابها بفعل القوة المادية وعاد الملوك الى عواصمهم بمجرد عودة الجنود الى طاعتهم . وكانت أول ضربة سددت الى الثورة هي الاستيلاء على براغ في ١٧ يونيو والثانية سقوط فيينا في نهاية أكتوبر والثالثة تأكيد سلطة ملك بروسيا من جديد على برلين في نوفمبر . أما آخر مقاومة وأعندها ألا وهي مقاومة المجرين الذين أذكت العاطفة القومية نيران ثورتهم ، فلم تنته الا باستدعاء جيش أجنبي بل روسي . وفي جميع الحالات بدأت الثورة دون اسالة دماء ، أما انتصار الرجعية في جميع الحالات فقد تم بالعنف والقوة العسكرية . لقد انهزمت النزعات التحررية العاطفية والثورات الرقيقة الحاملة بل والاتفاضات الوطنية العنيفة كذلك أمام يده السلطة الحديدية وقوتها السافرة ، وبقي أن تتبين ما اذا كانت هذه الثورات قد ذهبت كلها سدى وما اذا كان يمكن للردة الرجعية أن تدوم .

الفصل الثالث عشر الحكم الرجعي في ألمانيا والنمسا والمجر ١٨٤٩ — ١٨٦٠

بدأ عام ١٨٤٩ في ظلام دامس . كانت الملكية قد ردت الى سلطانها السابق في بروسيا ، وتمكنت النمسا من اعادة النظام في أقاليمها الألمانية ، وبذلك استردت الى حيز الوجود أكبر دولتين في ألمانيا كبائهما . غير أن البرلمان القومي الألماني ظل قائما ومعه الهيئة التنفيذية المركزية والنائب الامبراطوري ، كرمز حي للوحدة الألمانية وكجهاز مازالت تعلق عليه الآمال في أن يحقق أحلام كل ذلك العدد الغفير من الألمان وأن يجعل من ألمانيا ليس مجرد اسم وانما أمة بمعنى الكلمة . فقد كانت الدول الصغيرة الملتزمة بسياسته من الكثرة ، وكان تأييد الرأي العام له من القوة بحيث يتعذر الاستهزاء به كلية وعلى الفور . لقد كان البرلمان على ذلك في مركز يمكنه ، بل ويمكنه فعلا ، من أن يفرض على النمسا قرارا خطيرا بالنسبة للمستقبل . فقد قررت الجمعية الوطنية بعد مناقشات طويلة عدم استبعاد النمسا من الاتحاد المزمع انشاؤه (أو الامبراطورية كما سميت غالبا) مع اشتراط استبعاد أى من أقاليم النمسا غير الألمانية (كالمجر وغيرها) من ذلك الاتحاد الألماني الجديد . وهكذا عرضت الجمعية على النمسا مكانا في الامبراطورية الألمانية الجديدة ولكنها اشترطت عليها ابقاء أقاليمها غير الألمانية (المجر .. الخ) خارج تلك الامبراطورية . فما كان من سفارزنبرج Schwarzenberg الا أن رد على هذا العرض في ٣١ ديسمبر ١٨٤٨ ، بأن النمسا وجميع أقاليمها ستصبح في المستقبل دولة مركزية ذات كيان عضوي واحد ، وأنها يجب أن تدخل البوند أو الاتحاد بهذه

الصفة . واقترح بدلا من فكرة الامبراطورية الألمانية الجديدة التى رفضها كلية ، بعث البوند القديم على أن تصحبه هيئة تنفيذية أقوى . فأتاح رده لبروسيا فرصة عظيمة لتولى الزعامة فى ألمانيا ، فقد توجهت الجمعية الوطنية وقد آذى شعورها اقتراح شفارزنبرج ، الى بروسيا بحثا عن العطف والمعونة وبعد تلقى المزيد من الالهانات من شفارزنبرج أكملت الجمعية الوطنية دستورها ، واختارت ملك بروسيا امبراطورا لألمانيا (٢٧-٢٨ مارس ١٨٤٩) . ولو كان فردريك وليهم حاكما عظيما ، وهو مالم يكنه باعترافه الشخصى ، لفازت بروسيا ، يومذاك بالزعامة فى ألمانيا . الا أن فردريك وليهم رفض بعد الكثير من التردد ، العرش المعروض عليه (٣ أبريل) (١) فضيع الغنيمة التى سوف يحظى بها خلفه فى يوم من الأيام .

كان رفض ملك بروسيا ضربة كبرى . ولكن قيام ألمانيا المتحدة ظل أمرا ممكنا بفضل التأييد الشعبى والخلافات الخطيرة القائمة بين النمسا وبروسيا . فان ثمانيا وعشرين دولة أعربت عن موافقتها الرسمية على قرارات الجمعية الوطنية القاضية بانشاء الدستور الجديد والامبراطورية الألمانية (٤ أبريل) ، فسارعت النمسا الى سحب ممثلها من فرانكفورت فى اليوم التالى ، فكان رد الجمعية أن أكدت من جديد تمسكها بالدستور . الا أن بروسيا لم تلبث هى الأخرى أن أنكرت على الجمعية سلطة اتخاذ هذه القرارات وسحبت ممثليها منها ، فكانت تلك بمثابة الخطوة الحاسمة . وقد ظلت الجمعية قائمة بعد ذلك وانتقلت من فرانكفورت الى شتوتجارت غير أن وجودها قد أضحى صوريا . فلم تلبث النمسا وبروسيا أن تولنا عنها فى ٣٠ سبتمبر ١٨٤٩ مهام السلطة الألمانية المركزية فانتهتا بذلك سلطة جمعية فرانكفورت ان لم يكن وجودها ذاته . وبسقوط الجمعية سقط

(١) لعل من الأصوب أن نقول أنه أرجأ الأمر الى أجل غير مسمى .

دستورها ، ذلك الدستور الذى كان بعيدا كل البعد عن الدستور الألماني الذى ولدته الانتصارات الألمانية فى ١٨٧٠ ، وان كان - من عدة أوجه - قريب الشبه بالدستور الذى ولدته الهزائم الألمانية فى ١٩١٨ ، فقد احتوى على نفس التوكيد لحقوق الامبراطورية حيال حقوق الدول الألمانية ، وأتاح للعناصر الشعبية نفوذا قويا فى المجلس الأعلى^(١) وقام بمحاولة جدية لادخال نظام التمثيل الشعبى وسعى الى اقرار الحرية الفردية باعتبارها حقا أساسيا من حقوق المواطن الألماني .

وفى أبريل ومايو ١٨٤٩ نشبت ثورات أو حركات تمرد عسكرية فى بادن وفى امارة « البلاتين على الراين » Rhenish Palatinate (وهى جزء من بفاريا) وفى سكسونيا . فأرسلت القوات البروسية على الفور لاعادة النظام فى سكسونيا ، كما استخدمت فى قمع بعض الاضطرابات الجديدة - غير الخطيرة - فى بروسيا نفسها . ودخلت القوات البروسية كذلك بادن وامارة البلاتين البافارية Bavarian Palatintea وقرتمبرج . واذا كانت بروسيا تنتهج فى نفس الوقت سياسة التودد والصداقة نحو بعض الدول الصغرى فقد تملكت النمسا الشكوك والريب ، ولسان حالها أنه لو تمكنت بروسيا من اعادة النظام الى هذه الدول فانه قد تتمكن من السيطرة عليها ، واذا ما سيطرت على عدد كبير منها فانه - أى النمسا - لن تظل الدولة الأولى فى المانيا . كان شفاوزنبرج مصمما فى قسوة لا تلين على اعادة البوند القديم وتوكيد سيادة النمسا فى المانيا من جديد وازاحة كل المشروعات الأخرى من طريقه باعتبارها عبئا لا طائل من ورائه . ولم يكن بوسعه أن يحقق هذه الغاية دون أن ينزل ببروسيا مهانة تخطف الأبصار .

(١) ما يقابل مجلس الشيوخ فى البلاد التى تأخذ بنظام المجلسين
(الترجمة)

وفى أواخر ١٨٥٠ أشعلت الاضطرابات التى قامت فى هيس - كاسل Hesse - Cassel عود الثقاب فوق برميل البارود . وشفارزنبرج لم يكن ليرضى بأن تكسب بروسيا المزيد من الهيبة باعادة النظام هناك . لقد عزم على أن تلعب النمسا ذلك الدور وتأهب لدخول هيس - كاسل بجيش نمسوى (تعززه فرق من بفاريا وقر تمبرج) قوامه ٣٠٠٠٠ رجل . فأعلنت بروسيا التعبئة ردا على ذلك ، ووقع الصدام فعلا بين القوات البروسية والبفاروية . ولكن فردريك وليهم لم يلبث أن اضطرب وتراجع كعهده أبدا فى الأزمات وفى أولمütz Olmütz فأملى شفارزنبرج الحديدى الارادة على بروسيا تسوية لمسألة هيس تركت الفضل كله للنمسا وان تضمنت محاولة واهية لانتقاذ ماء وجه بروسيا فى الظاهر (٢٨ نوفمبر ١٨٥٠) . وقبل نهاية العام تمكن شفارزنبرج من اعادة البوند أو الاتحاد القديم بزعامة النمسا طبعا كسابق العهد والزمان . فأجمعت الظواهر على أن النمسا قد غدت أقوى مما كانت فى أى وقت مضى وعلى أن الرجعية قد عادت فى شخصه لتحكم وتسود .

ان المهانة المؤسفة التى حاقت ببروسيا فى أولمütz تمثل أسفل درك بلغتته فى هاوية الجبن والاستسلام . فقد بدا شفارزنبرج « مترنخا » جديدا فى صورة أعظم ، وبدا أن بروسيا قد هانت ودس أنفها فى الرغام على نحو لا يقل عبا حدث لها بعد « بينا » . بل ان الأمر قد انطوى هذه المرة على المزيد من الهوان . اذ كانت بروسيا مخلصة على الأقل لقضية الوحدة الألمانية يوم أن قهرها نابليون ، أما الآن فقد بدأت بالوعد برفع لواء تلك القضية ولكنها لم تلبث أن خانت أولئك الذين آزروها وأذعنت لمطالب النمسا المتعالية . فبدت المانيا يومئذ أضعف ماتكون وأشد وهنا وتفككا . لقد أتاحت لبروسيا الفرصة كى تصبح الدولة الأولى فى ألمانيا ، وأتيحت لمليكتها الفرصة لأن يضع فوق رأسه التاج الامبراطورى ، فكان كل ما فعلته أن زادت الأغلال التى تقيد

ألمانيا وهى راقدة تحت أقدام سفارزنبرج احكاما على احكام . وبدا
أن « مهانة أولمتر » سوف تجعل الوحدة الألمانية أبعد منألا من أى
وقت مضى وتجرد بروسيا نهائيا من أهليتها لحمل لواء هذه الوحدة .
على أن هذه النظرة للأمور خداعة للغاية فى الحقيقة . فلئن كان
سفارزنبرج قد تمكن حقا بفضل ارادته القوية وهمته التى لا تعرف
كللا أو هوادة ، من تحقيق انتصارات دبلوماسية فى الخارج وقرار
النظام فى الداخل ، فإن الخطة التى رسمها لمستقبل الممتلكات
الهابسبورجية كان مقدرا لها الفشل منذ البداية . لقد كان سفارزنبرج
على حق فى سعيه الى تجربة شىء جديد ، ولكن الشىء الذى حاوله
فعلا كان قد جرب من قبل وحكمت عليه التجربة بالفشل . كانت
فكرته هى باختصار معاملة جميع أراضى النمسا والمجر ككتلة من
المعدن المنصهر توضع فى قالب واحد وتطبع بطابع واحد ، فيجعلها
تتحدث لغة واحدة وتتبع قانونا واحدا وحكومة واحدة وتدعن لسيد
واحد . كان يريد أن يوحدنا ويمركزها وييسط سلطان البيروقراطية
عليها . غير أن هذا المشروع جاء منافيا لطبيعة الأمور ، وقد حاول
جوزيف الثانى تنفيذه عبثا من قبل فى ظروف أنسب وأشد ملائمة .
وحتى لو جاز أن تنبذ عظام التاريخ وتداس أمانى اثنى عشر
عنصرا (١) ، فلم يكن ثمة احتمال فى أن تنجح الخطة مالم يتوفر لها
عشرون عاما من السلم المتصل على الأقل . وقد تعرضت النمسا فى
غضون ثمانية عشر عاما لهزيمتين ساحقتين ، جاءت ثابتهما على يد
بروسيا التى نقضت ، بعد معركة لم تدم الا ستة أسابيع ، حكم الادانة
الذى صدر ضدها فى أولمتر .

(١) كان هناك الى جانب الالمان سبعة عناصر سلافية هى التشيكيون
والبولنديون والرثينيون The Ruthenes والكرواتيون والصربيون
والسلوفاكيون والسلوفينيون وثلاثة عناصر لاتينية هى الرومانيون
واللديون The Ladins والايطاليون وعصران أجرينيان Ugrian هما
المجريون والزكاريون The Szeklers

وفي الواقع أنه كان بمقدور شفارزنبرج أن يسترضى العناصر المختلفة في النمسا وأن يشل يد المجريين في مملكة المجر . ولعل التوسع في تطبيق نظام الحكم الذاتي على مختلف العناصر^(١) كان أفضل خطة يستطيع انتهاجها . فان ذلك كان سيمكنه من حصر المجريين البالغ عددهم خمسة ملايين في نطاق الأراضي التي يقطنونها وعزل السلافيين البالغ عددهم خمسة ملايين والرومانيين البالغ عددهم مليونين، عن الكيان السياسي المجري . وبذلك ينتزع من المجر موارد اقتصادية قيمة وسكانا أقوياء غرباء لتوضع ويوضعوا تحت امرة الهابسبورج . ولكن اصرار شفارزنبرج على سحق المجيار والسلافيين واخضاعهم على السواء لنير مشترك عده المجيار خطأ فاحشا . فكانوا يقولون ساخرين « ان ما يعطى لنا كعقاب يعطى لكم (أى للسلافيين) كتاب » . وهكذا أفلتت الفرصة الذهبية لتشكيل الدولة النمساوية من جديد على أساس الحكم الذاتي المتحرر المعتدل . ولم يؤد السبيل الذي انتهجه شفارزنبرج الى كارثة في الخارج فحسب بل أدى كذلك الى تسوية Ausgleich ١٨٦٧ في الداخل ، وأوجد في النهاية نظاما ثنائيا (النمسا - المجر) أصبح المجريون فيه العنصر الأقوى في الواقع ، وهي نتيجة كان بوسع أية سياسة حكيمة أن تنفادها بسهولة .

قد عملت الاجراءات التي بدأها شفارزنبرج وواصلها باخ لاقامة حكومة مركزية على تحطيم ملكية الهابسبورج بصورة مطردة طوال الفترة ما بين ١٨٤٩ - ١٨٦٠ . فان تطرف الرجعية أدى في الواقع الى بعث الاتجاهات القومية التي قمعت في كل مكان عام ١٨٤٩ واعادت

(١) من الطريف حقا أن هذه الخطة هي في جوهرها نفس الخطة التي تبناها فرانز فرديناند في ١٩١٤ كما هو معروف . إذ كان مقتنعا بأن خير سبيل للابقاء على امبراطورية الهابسبورج هو إلغاء النظام الثنائي وجعل جميع العناصر متساوية تحت حكم البيت النمساوي .

أليها الحيوية والنشاط. وقد احتدمت كراهية الهابسبورج في أعنف صورها في الأراضي الإيطالية التابعة للنمسا ، وإن لم تقل شدتها كثيرا بين المجريين والتشيكيين . ولما نزلت الجيوش النمساوية ساحة الحرب في ١٨٥٩ و ١٨٦٦ لم يبد السلافيون ولا المجريون أدنى استعداد للقتال من أجل الهابسبورج . ولا وراء في أن مثل هذه السياسة التي وحدث بين المجريين والسلافيين ليست الا سياسة بالغة الحماقة .

لقد حكمت النمسا اذن على نفسها بالفشل عندما انتهجت سياسة مركزية في الداخل لأنه كان من المحتوم أن يفضى ذلك في النهاية الى الكوارث في الخارج . كما أن من يتابع الأمور عن كثب يلاحظ كذلك أن السياسة النمساوية قد لقيت ، رغم انتصار النمسا الباهر في أولمütz ، فشلا ذريعا حتى في ألمانيا . حقا لقد أصيبت بروسيا باذلال وقتي ، ولكن النمسا عجزت عن تحقيق برنامج شفارزنبرج الأشمل . فلم تتمكن من ادخال أراضيها كلها كدولة موحدة في البوند ، كما كان يتمنى . وأخفقت كذلك في فض الزولفرين البروسي أو استبداله باتحاد جبركي عام يضمها . وعلى هذا فان مركز النمسا رغم انتصارها الوقتي كان في الحقيقة خطيرا ومزعزا .

ولعله يحسن بنا أن نجمل الآن نتائج أحداث ١٨٤٨ - ١٨٤٩ . لقد غمر أوروبا الوسطى طوفان لا مثيل له من العواطف البشرية . ورغم أن المد أخذ ينحسر فيما بدا فقد ترك آثاره في كل مكان وهي آثار لم تقو الأحداث غالبا على محوها وسددت ضربه قوية ، في ألمانيا وفي النمسا وفي المجر ، لنظام استعباد الفلاح ، وأصبحت الأرض الحرة الخالصة هي القاعدة بالنسبة له . وهكذا توافر للفلاحين في شتى أرجاء أوروبا الوسطى قدر كبير من الحرية الاقتصادية حتى بعد عودة الطغيان السياسي في أشد صورته .

كانت الدعوة الى التحرر التي ظهرت في كل مكان حركة بورجوازية قبل كل شيء . وكانت من النوع العاطفي الرومانتيكي ، وكان

زعماءها بصفة عامة رجالا يفتقرون الى التجربة السياسية والتنظيم ، فبدأ أن الحكم البوليسى فى برلين وفيينا قد تمكن بالجوء الى أساليب البطش والشدة من سحقها . وهذا القول قد يصدق فى بعض الحالات اذ لم يعد النشاط السياسى الى تعريض النظام القائم فى فيينا أو المانيا للخطر من جديد حتى سنة ١٩١٤ • ولكن جميع الحكام الألمان قد أرغموا على منح رعاياهم دساتير أو ادخال الأفكار المتحررة فى دساتيرهم القائمة فعلا ، فأدى ذلك الى الحد نوعا ما من سلطة الحكام والى نمو الحياة البرلمانية الحققة فى بعض الدول مثل بادن وبفارىيا ، وحتى بروسيا نفسها قد اضطرت الى منح دستور أزعج حاكمها فى بعض المواقف ، الأمر الذى تبينه بسمارك فيما بعد^(١) . ورغم أن معظم عواهل المانيا قد ظلوا على تشبثهم الشخصى بفكرة الحق الالهى فان عام ١٨٤٨ قد أدى الى تحرير رعاياهم من تلك الخرافة . فمنذ ذلك الحين فصاعدا أصبحت الاعتبارات القومية هى المحك الأول وأصبح الولاء يمنح للحكام على حسب كفايتهم أو فوتهم أو نجاحهم . فانتصار حكم بسمارك الاستبدادى فى بروسيا لا يرجع الى شيوع روح التصوف أو الى تقديس التاج وانما الى احترام الناس لهذا الحكم لما اتصف به من ذكاء وقوة وحكمة . وقد حققت النزعة القومية ، وان تكن أقل ظهورا من نزعة التحرر فى ١٨٤٨ ، نجاحا أكبر فى اجتياز العاصفة . فلئن كان الحكم الرجعى الذى ساد بعد ١٨٤٨ قد تمكن من وقف تيار الوحدة القومية الألمانية فإنه لم يقض عليه بحال من الأحوال . لقد شكل لألمانيا برلمان ألمانى وقامت بالفعل هيئة تنفيذية ألمانية ، وبات معظم الناس يشعرون أنهم

(١) ترك فردريك وليم وصية سرية لتتلى على كل من خلفائه بدعوههم فيها الى القضاء على الدستور ، وقد مزقت هذه الوصية بأمر القيصر وليم الثانى ملك بروسيا، ولولا أن الدستور كان يعترض فعلا سبيل حكام بروسيا بصورة أو أخرى لما كتبت هذه الوصية أصلا ولمزقت بعد كتابتها.

سوف يرون في حياتهم عودة هاتين الهيئتين الى الوجود مرة أخرى ، على أن مواطن الضعف الداخلية في النمسا وتعدد رعاياها الغرباء جعلهم يستبعدون احتمال قيادتها لألمانيا في هذا الاتجاه . وقد كان بوسع من يراقب الأمور بنظر ثاقب أن يدرك أن الخطر الذي يتهدد النمسا انما يكمن في قمعها للنزعات القومية داخل أراضيها . فأعرب بالمرستون في ١٨٤٨ عن رأيه في أن ممتلكات النمسا في ايطاليا هي موطن ضعف يجدر بالنمسا التخلص منه ، وفي أن بوسعها ترضية المجر بمنحها حكما ذاتيا كريما . وكان بالمرستون مصيبا في الناحيتين ، ولكنه لو توافرت له معرفة الحقائق التي نعرفها اليوم لمضى شوطا أبعد فقال ان التشيكيين لن يرضوا مطلقا حتى تتحقق أمانهم القومية وان على النمسا ان شاءت لنفسها البقاء أن تسترضى حتى العناصر المعهورة مثل السلوفينيين والكرواتيين والصربيين . ولكن أحدا لم يكن ليحلم بالطبع في ١٨٤٨ بأن الهابسبورج سيضطرون الى محاربة صربيا في ١٩١٤ لأن مطامع اليوغوسلافيين باتت متعارضة مع وجود النمسا . على أنه سوف يقدر لخميرة القومية التي بدأت تعمل في ١٨٤٨ أن تفعل فعلها في شتى أرجاء أوروبا الوسطى وأن تثير في النهاية فورا نا لا تسكنه الا حرب عالمية .

أكان بوسع أحد أن يرى في ١٨٤٩ أن بروسيا هي التي سترفع لواء الوحدة الألمانية بعد عشرين عاما ؟ أغلب الظن أن الجواب بالنفي ، على أنه كانت هناك رغم ذلك شواهد طريفة يصح أن تسجل . وبروسيا ظلت ممسكة بنصف المانيا في حبائل الزولفرين ، وأهالي بروسيا وجنودها لم يبدوا ، رغم تأثرهم بموجة الثورة ، بغضا ايجابيا لمليكتهم بل ظل الملك والجيش والشعب يشكلون ذلك الكل العضوى انواحد المعروف باسم الدولة البروسية . وقد منح الملك البلاد دستورا تلاقى الى حد ما مع حاجات العصر والزمن ، ولم يجلب على نفسه العار بالفناء ذلك الدستور ونقض كلمته كما فعل امبراطور

النمسا . لم يعد اذن ثمة ما يرجى من النمسا ولكن كان من الممكن أن يجيء من بروسيا شيء ، وشيء طيب يوم يمسك بزمامها رجال أشداء وقادة شجعان .

ولو رجع فردريك وليم الى التاريخ السابق لما فاته أن يذكر أنه قد مرت في تاريخ المانيا فترة عشر سنوات خدعت النمسا المتعالية العالم فيها بمكائنها أو دبلوماسيتها وأنزلت العار بحاكم بروسيا ضعيف ، وما ان انتهت تلك الفترة حتى تولى زمام السلطة في بروسيا رجل قوى ضرب النمسا حتى دس أنفها في الرغام . ولقد أوشك التاريخ أن يعيد نفسه . واذا كان الملك قد عرف أن اسم الرجل الذى بدأ الحقبة الأولى من مجد بروسيا هو فردريك فانه كان يجهل أن اسم الرجل الذى سوف يكتب له أن يبدأ الحقبة الثانية هو وليم .

الفصل الرابع عشر الحركات الثورية في إيطاليا

أوضحنا من قبل أن إيطاليا كانت تشهد غليانا فكريا بالغ الخطورة على كل الحكومات القائمة فيها . فقد تمكنت المشاعر القومية وسيطرت على أفئدة جائب كبير من الطبقات المتعلمة وأصبح الشعور بأن إيطاليا التي كانت في يوم من الأيام مقر دولة كبيرة تعد مشلا للمركزية يجب أن تحقق الوحدة المركزية من جديد ، كما تطرق نفس هذا الشعور بصورة مبهمّة الى بقية السكان كذلك . كان بالبو (Balbo) قد أبرز في تاريخه لإيطاليا تعلق البلاد بالأمل في الخلاص من استعباد البرابرة لها ، وأشار جيوبرتي (Gioberti) في كتابه الشهير *Del Primato moralee civile degli Italiani* (١٨٤٣) الى البابوية بوصفها السلطة التي تقع على كاهلها مهمة إعادة تنظيم وتوحيد دول إيطاليا المختلفة ومنح الايطاليين زعامة أوروبا ، وبشر مازيني (Mazzini) بالقومية المتحالفة مع الديمقراطية على نحو جعله مرهوبا بوصفه عنصرا ثوريا خطيرا على كيان المجتمع والحكومات القائمة ولكن لم تظهر رغم هذا كله بادرة أى تغير كبير ، بل ظل مترنخ يحكم في إيطاليا بنفس السطوة التي يحكم بها في فيينا ، دون أن يبدو في الأفق ثمة احتمال بتبدل حال البلاد بحيث لا تعود مجرد ذلك « الاصطلاح الجغرافى » كما حلا له أن يصفها في ١٨١٥ . ومع ذلك فإن الخطوة الأولى في حركة الثورة التي سيكتب لها أن تهز جميع عروش أوروبا تقريبا ، قد جاءت من هذه البلاد التي سادها الطغيان ، بل من ذلك المكان الذى كان يبدو أوثق رباطا بأراء الماضى من أى جزء آخر ونعنى به البابوية نفسها .

ففى يونيو ١٨٤٦ اختير الكاردينال ماستاى فريتى Mastai-Ferretti بابا فاتخذ لنفسه لقب بيوس التاسع . ورغم أنه لم يكن معروفا وقت اختياره الا فى دائرة محدودة فقد أصبح طوال العامين التاليين أبرز زعماء أوروبا ومحط آمال أحرارها ، ولقى من ضروب التقريظ والثناء ما لم يلقه الا القليلون من الساسة فى العصور الحديثة . ثم جاءت ردهته الى الرجعية فخابت فيه الآمال وبات يعتبر خائنا أكبر وعدوا لتقدم البشرية . والحق أن الرجل كان بسيطا حسن النية صادقا فى حبه لايطاليا ونفوره من السيطرة النمساوية . فكان يقول « اننى أمثل ايطاليا وأمت لايطاليا » وقد تشرب من كتاب جيوپرتى فكرة تبني البابا لقضية البلاد وتوليه قيادتها وتحريرها . وأرضى غروره الايمان بأن الأقدار قد اختارته هو لتلك المهمة العظيمة . ومع ذلك فقد قال أيضا فى صدق تام انه يجهل كل شئ عن السياسة . والحق أنه كان خالى الذهن تماما عما تتطلبه تلك المهمة من شجاعة وهمة وحكمة ، ولم يكن مذكرا للأخطار المحيطة به . لقد أشعل — بمنتهى حسن النية — عود ثقاب ليوقد شمعة ، وسرعان ما اكتشف لفرعه الشديد أنه كان لحظتها داخل مستودع بارود . فلا عجب أن حاول — مذعورا — الانسحاب من العمل الذى بدأه . على أنه قد عاش قبل ذلك عامين من الحماسة والأمل والتأييد الشعبى الفائق . كان أول عمل اتخذه بعد اعتلائه كرسي البابوية هو اصدار عفوه عام عن المنفيين والمسجونين السياسيين ، ففسر ذلك — وسط الانفعال السائد فى أذهان الناس — بأنه علامة تدل على أنه المحرر الذى اختارته الأقدار للبلاد ، والرجل الذى سوف يدخل فى الولايات البابوية « الغاز والسكك الحديدية والدستور » . وراحت الجماهير تحتشد بصورة تلقائية لتهلل له وتصفق ، واتفق الرأى على أنه « رسول مبعوث لا لشعبه فحسب وانما للعالم أجمع » . فلعبت برأسه مظاهر التأييد الشعبى التى لا قاعا وظلها تعنى أكثر من حقيقتها . وقد رأى السفير الفرنسى

أن ثمة خطراً في أن يظن البابا أن بوسعه « أن ينام على شعبيته كما لو كانت فراشا من الورود » .

ومع أن اجراءاته الأولى لم تمض بعيداً ، فإنها كانت كلها في الاتجاه المنشود . فقد أعقب العفو بتخفيف الرقابة على الصحف وتعديل طبيعة الحكومة التي كانت فيما مضى استبدادية كنسية خالصة . فأنشأ في أبريل ١٨٤٧ مجلساً للدولة يختار هو أعضائه من بين الأسماء التي يعرضها عليه حكام الأقاليم . وعين في يونيو مجلساً للوزراء ليناقدش - وإن لم يكن ليراقب - تصرفات الحكومة البابوية . وأطلق سراح اليهود من « الغيتو » (١) في روما . فبات الناس يتوقعون الكثير من وراء هذه الإصلاحات المعتدلة ، ويؤمنون بأنها نفذت بمشيئة البابا وحده في مواجهة محيطه الرجعي .

أشعلت هذه الأحداث التي وقعت في روما نيران الحماسة في إيطاليا كلها . وانزعج مترنيخ انزعاجاً بالغاً ، لأنه كان قد تنبأ بكل شيء على حد قوله إلا ظهور بابا متحرر . وأطلت « النزعات التحررية » برأسها (إذ كانت هذه التسمية تطلق في تلك الحقبة حتى على الأفكار الثورية العنيفة كذلك) في شتى أنحاء إيطاليا : في صقلية وفي نابولي وفي نوسكانيا وفي بارما وفي ميلانو وفي البندقية وحتى في سافوي . وأصبح الشعار الذي يميز أنصار التحرر في كل مكان هو التهليل للبابا . حتى لقد فرضت العقوبات الصارمة في بعض الولايات على كل من تسول له نفسه أن يهتف باسم البابا بيوس التاسع . إلا أن كل هذه الحماسة وذلك الأمل في النصر المبكر للنزعات القومية التحررية كان مبنياً على الوهم . فإن التغيرات التي أدخلت في روما كانت في حقيقتها أبعد ما تكون عن روح الثورة . فالبابا كان في صميمه محافظاً (« ما من بابا يمكن أن يكون متحرراً ») والمهمة التي تصدى لها مهمة عسيرة

(١) الغيتو ghetto هو الاسم الذي كان يطلق على حي اليهود في كل عاصمة أوربية (المترجم) .

تستعصى حتى على من كان ألمع منه ذهنًا وأقوى ارادة . فمن الواضح
أذ القومية الإيطالية لم تكن لترضى آخر الشوط بأى شىء يقل عن
تنازل البابوية الكامل عن سلطتها الزمنية ، الأمر الذى لم يخطر
ليوس على بال . فلما كف عن الانسياق فى تيار الحماسة الشعبية
عاد الى الدولة النمساوية يلتمس منها النجدة والمعونة .

ولعله يجعل بنا أن نتابع سيرة بيوس حتى نهاية طوره التحررى ،
وان تكن ثمة حركات هامة قد بدأت قبل نهاية ذلك الطور فى جهات
أخرى من إيطاليا ، فكان لها أثر حاسم على الأحداث فى روما ، التى
لن تلبث أن تنزوى عن مكان الصدارة على المسرح الإيطالى . لقد
مضت الاصلاحات الموعودة شوطا ما الى الأمام ، فأنشئ مجلس بلدى
لروما أخضعت له بعض المباني العامة ، وعادت الحروف الشهيرة
S.P.Q.R. الى الظهور من جديد على حوائط روما (١) . وقد دلت
المظاهرات الحماسية التى قامت للترحيب بهذه الخطوات على أن التأيد
الشعبى للبابا مازال باقيا على ماكان عليه دون نقصان . بل لقد انجرف
أصحاب الآراء المتطرفة أحيانا فى نفس التيار ، فنشر مازينى خطابا
مفتوحا أعرب فيه عن استحسانه لما فعله البابا « لأن ذلك سيؤدى الى
اختصار الطريق ويوفر علينا الأخطار والدماء والكوارث ، ولأن إيطاليا
ستوضع دفعة واحدة على رأس التقدم الأوروبى » . على أن البابا
استخدم لغة كان يصح أن تلفت الأنظار الى عدم استعدادده للمضى الى
الحد الذى يرجوه منه الثوريون ، فقد تحدث فى خطاب عام عن
تصميمه على التمسك بحقوق مجمع الكرادلة المقدس وحذر سامعيه من
أن يشتط بهم الخيال فيتصوروا قيام دولة تتعارض مع سيادة البابا .
والحق أنه بدأ ينزعج انزعاجا جديا لعواقب تصرفه تلك العواقب التى

Senatus Populusque Romanus مجلس شيوخ وشعب روما . المترجم

تمثلت في الثورات التي أخذت تنشب في شتى أرجاء إيطاليا . فأنشأ ينزوي عن التهليل العام ليحلهم بنكسة رجعية .

ومع هذا فقد استمر تقدم الحركة التحررية في روما فترة وجيزة أخرى . ذلك أن الثورات التي نشبت في جهات أخرى — في نابولي وفي ميلانو وفي فرنسا — والتي أثارت رعب البابا الشديد قد جعلت توقفه في تلك اللحظة ضرباً من المحال . فأضحى دافعه إلى المضي قدماً هو الخوف لا الحماسة . وعلى هذا فقد عين وزارة معظم أعضائها من غير رجال الدين ثم عجل بإصدار دستور في مارس ١٨٤٨ . واستقبل الدستور بحارة ولكن دون تمحيص ، فلم يفتن أحد إلى دلالة إبقائه على «مجمع الكرذلة المقدس جزءاً رئيسياً من النظام السياسي ونصه على استحالة إقرار أى قانون يتعارض مع قوانين الكنيسة أو تقاليدها . إلا أنه كان دستوراً ذا مجلسين و « الدستور » كلمة كان لها فعل السحر في تلك الحقبة .

أما قصة بقية مشروعات البابا الدستورية فأمرها مرتبط بصفة مباشرة بالحرب التي شنتها إيطاليا الشمالية ضد النمسا والتي لا بد أن تنتقل إليها بعد برهة . فقد أعلن البابا معارضته لفكرة الاشتراك في الصراع ، فكان أن فقد على التو تأييد القوميين في كل مكان (١) . وكان لا يزال يأمل في تطبيق الدستور الذي أصدره ، ولكن السيطرة على زمام الموقف في روما بدأت تؤول سراعاً إلى العناصر الميالة إلى العنف . فقد اغتيل وزير البابا الأول « روسي Rossi » الذي كان يعطف على جوانب عدة من الاتجاهات التحررية أثناء توجهه إلى مجلس النواب في نوفمبر ١٨٤٨ ، وربما تم ذلك بتدبير الجناح القوضوي من

(١) أذاع البابا في ٢٩ أبريل خطة رسمية ضمنها استنكاره لفكرة الاشتراك في حرب ضد النمسا وإن ذكر فيها أن قواته ستدافع عن سلامة دولة روما . وكانت القوات البابوية في تلك اللحظة في الأراضى الندقية .

الثوريين . فشاعت الفتنة في روما ونبذ البابا ، وقد أخذ منه الرعب كل مأخذ ، فكرة تطبيق الدستور بروح متحررة ، ولم يلبث أن غادر روما ملتجئاً الى جايتا Gaeta في أراضى نابولي مخافة أن يضطر الى الاقدام على مزيد من التنازلات . لقد رفض ضعفاً منه ولا نقول جينا الدور الذى حاول الأحرار فرضه عليه . ولم يعد له أى نفوذ على النضال من أجل الحرية والوحدة الإيطالية ولا عادت روما مركز الصراع .

كانت إيطاليا مهية تماماً لانتشار الحركة الثورية . ذلك أن جمعيات إيطاليا الفتاة السرية كانت قد اكتسبت الى صفوفها أعضاء كثيرين في شتى أنحاء البلاد ، وكان أبناء الطبقات الوسطى عموماً مجمعين تقريباً على تأييد مبدأ الوحدة القومية الإيطالية فما ان سنحت الفرصة حتى اتخذت الحركة مظهرها شاملاً وتلقائياً بمعنى الكلمة . واذا كان أعجب ما فى الحركة أن اطلاق اشارتها الأولى جاء من روما وبوساطة البابا نفسه ، فإن مجيء الخطوة الحاسمة التالية من فرديناند ملك نابولي وصقلية لا يكاد يقل عن ذلك عجباً . فما من جهة في إيطاليا كانت تعاني من سوء الحكم وافتقار السكان الى التعليم أكثر من مملكة نابولي وصقلية ، وما من حاكم كان أقل استعداداً للتأثر بنداء الدعوات القومية والدستورية من فرديناند الذى كان ، رغم تحليه بشيء من الطيبة وسماحة الخلق ، يضرر كراهية آل البوربون التقليدية لجميع الحركات الشعبية ويحس بأنه غريب في بلاده . ولا نكاد نجد دافعاً لنزوله على رغبات شعبه سوى الخوف . فان همهمات التذمر كانت قد بدأت تسرى في مملكته وأصبح اسم ييوس التاسع يتخذ تكأة في نابولي ، كما في سائر الجهات ، للمطالبة بتطبيق أساليب حكم أكثر تحملاً . ورغم أن فرديناند كان قد أقدم على بعض التنازلات الظاهرية أكثر منها حقيقة فان الأحداث لم تلبث أن تطورت تطوراً جدياً ، فقد صدر في يناير ١٨٤٨ بيان في بالرمو Palermo يطالب « باصلاحات تتفق

مع تقدم العصر وتنمى مع رغبات أوروبا وإيطاليا وفرنسا » وتحدد يوم ١٢ يناير موعدا لبدء الثورة ، ونشبت فعلا في ذلك اليوم ، وسيطرت على بالرمو طوال خمسة عشر يوما قوة تضم بين صفوفها أفرادا ينتمون الى كافة طبقات المجتمع بما في ذلك الارستقراطية نفسها أما قوات الحكومة التي كانت شبه متمردة فلم تفلح في مقاومة العصاة واضطرت في النهاية الى اخلاء المدينة . وسرعان ما امتدت الثورة ، وقد شجعها ذلك النجاح ، حتى شملت الجزيرة كلها . على أن القتال لم يكن عنيفا قط ، فلم تزد خسائر القوات الملكية عن خمسمائة شخص ما بين قتيل وجريح .

وقد انزعج فرديناند للأنباء الواردة من بالرمو بأكثر مما يستدعي الأمر فيما يبدو ، إلا أنه كان مدركا لضعف سيطرة حكومته على الأهالي ، وكانت تعوزه الشجاعة الكافية والقدرة على المبادأة ، فاستسلم للخطر بلا كرامة ودون أن يخدع أحدا في أمر دوافعه الى اتخاذ موقفه الجديد . لقد أصدر عفوا عن المسجونين السياسيين ولم يلبث أن أقر دستورا بالفعل . وقد كان أجل هذا الدستور قصيرا للغاية بحيث أنه لا يستحق منا أن نوليه أى عناية وحسبنا أن نذكر أنه قد خلا من مبدأ التسامح الدينى . على أنه كان كافيا على أية حال لأن يجعل من فرديناند منافسا في الشعبية للبابا بيوس التاسع . كان له أثر مباشر على الحكومات الأخرى في شبه الجزيرة . اذ لم يكن بوسع الشمال أن يتخلف طويلا بعد أن سلك الجنوب المزدري به طريق الإصلاح .

كما كان أثره مباشرا في دفع البابا الى منح الولايات البابوية الدستور الذى أشرنا اليه . كما حفز دعاة القومية في توسكانيا الى العمل . لم تكن حكومة الدوق الأعظم ليوبولد الثانى من أشد حكومات إيطاليا جورا واستبدادا ، وكانت الصحافة في تسكانا تمارس نفوذا كبيرا بالفعل . بدأ الدوق الأعظم بالاقدام على تنازلات صغيرة ، ولكن

هذه كانت أبعد ما تكون عن ارضاء أهالى فلورنسة ولجھرون وسائر مدن توسكانيا ، فاتتهى به المطاف الى اصدار دستور فى فبراير ١٨٤٨ على غرار دستور نابولى .

ولم يكن الذى حدث فى تسكانا بذى أهمية كبيرة . اذ أنها لم تكن لتستطيع أن تنتهج سياسة مستقلة حقا الا فى أضيق الحدود . فان مستقبل ايطاليا بات مرهونا أساسا بنقطة واحدة : هل يمكن أن تتزعزع سلطة النمسا فى شمال شبه الجزيرة ؟ ومن هنا نجد أن مصير ايطاليا قد تقرر فى بيدمونت (وهى القاعدة الحقيقية لمملكة سردينيا) وفى لومبارديا حيث كانت النمسا تمارس سلطانا لم يكف الأهالى قط عن اعتباره أجنيا وجائرا . كانت سردينيا بين الدول الايطالية أقلها ايطالية ، فملكها شارل ألبرت كان يؤثر التحدث بالفرنسية على الايطالية ، والألفة العنصرية ما بين أهليها وسكان جنوب الجزيرة كانت ضعيفة . كان وضع بيت سافوى الذى يحمل تاج مملكة سردينيا فى ايطاليا أشبه بوضع بيت الهوهنزرن البروسى فى ألمانيا . ورغم أن هذه المملكة كانت نصف ايطالية فان سكانها كانوا أكثر تشربا للروح العسكرية من أقرانهم فى سائر جهات ايطاليا ، وأسرتها المالكة كانت على حظ وافر من الهمة والطموح . لقد كانت القوة العسكرية والحنكة السياسية المقترنة بقسط من النزاهة هى التى أدت الى الاعتراف ببيت سافوى مثالا لأمانى ايطاليا القومية ، وقد أدت نفس الصفات تقريبا الى نتيجة مماثلة بالنسبة لبيت الهوهنزرن فى ألمانيا . كان شارل ألبرت يتمتع بسمعة طيبة لما عرف عن مناوآته الصريحة للبيت الحاكم النمساوى وكان قد أعرب من قبل عن أمله فى أن تتحد قوى ايطاليا كلها لطرد الأجنبى . ورغم أنه كان رجلا شجاعا تتسم شخصيته بمسحة صادقة من البطولة فان تصرفاته السياسية كانت مشوبة بالتردد البالغ حتى أنه سمي Re tentenna أى ملك التردد ووصفت سياسته بأنها سياسة التذبذب ، والتاريخ يعرفه بصفة عامة باسم « هاملت سافوى » وترجع

شدة تعلقه الى طبعه الشخصى من جهة والى ولائه الشديد للكنيسة الكاثوليكية من جهة أخرى ، ولكنها ترجع قبل كل شىء الى ريبته فى الاتجاهات التحررية بوصفها خطرا على وحدة الدولة ونشاطها . وقد كان يود لو استطاع أن يطرد النمساويين من ايطاليا دون التسليم للشعب بحقه فى الحرية السياسية ، ويتمنى أن يحكم ايطاليا المتحدة ملكا قويا ان لم يكن ملكا مستبدا . ولم يدرك الا بمر الأيام أن الحرية السياسية شرط لازم لتحقيق النصر القومى .

وقد غدا شارل ألبرت بالفعل محط أنظار الوطنيين الايطاليين . فقد كانت تصريحاته المؤيدة لقيام ايطاليا المتحدة قاطعة صريحة . وكانت الصحافة تتمتع فى « تورين » بقسط أوفر من الحرية مما تتمتع به فى أية جهة أخرى فى ايطاليا ، وكان الوطنيون المنفيون من ولاياتهم يجدون فيها مأوى وملاذا . وكان من أبرز كتاب الصحف فيها الكونت كافور Count Cavour الذى سيقدر له أن يضطلع بنصيب كبير من مهمة تحرير ايطاليا . كان يومذاك يرأس صحيفة البعث Risorgimento وهو الذى حض - فى اجتماع عقده رؤساء التحرير - لبحث الموقف ، على المطالبة صراحة بالدستور مؤكدا لهم أن جميع الاصلاحات الأخرى التى يتبعونها ستنبع من الدستور ان لم تتضمنها بالفعل نصوصه . فتوجه هؤلاء برأيهم الى الملك ولكنهم لم يتلقوا ردا . على أن شارل ألبرت وجد نفسه مضطرا الى الاختيار بين موقف المقاومة الحازمة لرغبات شعبه أو الاستجابة الصريحة لها . ولما كان الموقف الأول يعنى الحرب الأهلية والاتحاد مع السلطة النمساوية البغيضة فقد اختار الثانى ، لا على مريض كما فعل فرديناند وليوبولد ، وانما عن سلامة قصد وحسن طوية . فأصدر فى فبراير ١٨٤٨ مرسوما أعلن فيه قرب منح الدستور ، ولم تمض أيام قلائل حتى صدر هذا الدستور الذى مالبث أن أودى به الى الحرب ثم النكبة والنفى والموت ، وان حمل ابنه الى عرش ايطاليا المتحدة فيما بعد . وقد أنشأ الدستور ملكية

دستورية مقيدة على غرار الدستور الانجليزى ، وكان صالحا للتطبيق
لا فى مملكة سردينيا وحدها وانما فى مملكة ايطاليا التى لا تلبث أن
تقوم ، وقد ظل هو الدستور المعمول به فى ايطاليا ، بعد ادخال تعديلات
طفيفة عليه ، حتى جاء موسولينى .

لقد اشتعلت الآن نيران الثورة لا فى ايطاليا وحدها بل فى شتى أرجاء
أوروبا . ففى فبراير ١٨٤٨ سقطت ملكية لوى فيليب فى فرنسا . وفى
مارس فر الأمير مترنيخ أمام المظاهرات العدائية فى فيينا ، وكان قد
حكم النمسا - وعن طريقها حكم ايطاليا - ردحا طويلا جدا من
الزمن حتى بات من المحتم أن يؤدى سقوطه الذى أثبتت الأيام أنه
نهائى الى أخطر العواقب . فقامت المظاهرات الشعبية على الفور فى
«ميلانو» وأحاط الطلاب والصناع والصحفيون والتجار بالقلعة مضميرين
نوايا عدائية . وتصادف أن نائب الملك كان متغيبا عن ميلانو فأقدم
مساعدته على بعض التنازلات ، ولكن هذه كانت أبعد ماتكون عن
ارضاء مطالب الثوار . وسرعان ماتخذت الثورة شكلا واضحا وتنظيما
محددا ، وتحقق لها بعد خمسة أيام من القتال العنيف طرد القوات
النمساوية فأضحت المدينة العظيمة فى حيازة الوطنيين . وفى نفس الوقت
تقريبا تم طرد حكومتى بارما ومودينا وقد كانتا نمساويتين فى حقيقة
الأمر . وأهم من ذلك ثورة البندقية ضد حكامها النمساويين . فقد

تمكنت من اطلاق سراح الزعيم الوطنى دانييل مانين Daniel Manin
من السجن فتولى على الفور قيادة الحركة وأشرف على تشكيل حرس
مدنى . واذاك ألفت الحامية النمساوية نفسها محاطة بخصوم يفوقونها
عددا الى حد يبعث على اليأس ، فاستقر رأى الحاكم على سحب جنوده
من المدينة ، وقوبل رحيلهم بالهتاف للقديس مرقص وايطاليا ويوس
انتاسع . على أنه لن تمض الا فترة وجيزة حتى يكف الناس عن
الربط بين اسم البابا والآمال القومية !
لهم يكن ثمة مفر من الحرب ، فان النمسا لن تقبل بكل تأكيد أن

تعتبر استسلامها المشين للايطاليين - وهم موضع ازدراءها - فصل الختام . ولا كان بوسع ميلانو والبندقية ولومبارديا أن تأمل في مقاومة جيوش النمسا بعد أن وصلت لها الامدادات ، فأضحى كل شيء متوقفا على شارل ألبرت ومملكة سردينيا . وقد أبدى شارل في شن الحرب ترددا أقل مما أبداه في منح الدستور . فأصدر في ٢٣ مارس بياناً لشعبى لومبارديا والبندقية أعلن فيه أن شعبه يعطف على كفاح جيرانه البطولى ضد الظالمين وأنه قادم لينجهم تلك المعونة التى يتوقعها الأخ من أخيه والصديق من صديقه ، وأكد أنه يثق فى معونة الله الذى أعطى إيطاليا ييوس التاسع ليرشدها الى السبيل لمعاونة نفسها ، ثم نشر علم إيطاليا المتحدة المثلث الألوان ، فعبّر الجيش السردىنى المؤلف أساسا من جنود بيدمونتيين نهر تيشينو Ticino على الفور وبات مصير إيطاليا معلقا على حكم السيف . وقد أثبتت الأيام أن سيف النمسا كان أمضى وأبتر .

جاءت الحرب مخيبة لآمال الوطنيين . والحق أنه لم يكن لديهم ما يعتمدون عليه سوى حماسة معظم المحاربين فى صفوفهم وغيرتهم الصادقة . فلم يكن لديهم تنظيم يذكر خارج بيدمونت ، والعون الذى جاءهم من ولايات الوسط والجنوب كان ضئيل الجدوى . ومع أن شارل ألبرت قد دخل المعركة بجماع قلبه ، كما اتضح بجلاء عندما حلت النكبة ، ومع أن شجاعته الجسمانية كانت أصيلة لا يتطرق اليها اللوم ، فانه كان على حظ ضئيل من البراعة فى الفنون العسكرية ولم يجد من القواد من يلى فى الحرب بلاء حسنا . أما النمساويون فكان مركزهم أفضل رغم المتاعب الداخلية التى كانت تزعزع دولتهم . فمع أنهم اضطروا الى الانسحاب أمام أول هجوم من الايطاليين فقد ظلوا يسيطرون فى الرباعى الشهير (فيرونا وبيشيرا ولينياجو ومنتوا) Verona, Peschiera, Legnago and Mantua على مواقع حصينة أتاح للجيوش النمساوى طريقا مأمونا للاتصال بالنمسا وتلقى الامدادات . كما

وجدوا في رادتسكى رغم تجاوزه الثمانين من عمره ، قائدا يعترف له
ألد أعدائه بالبراعة والهمة (١) . وكان مستوى النظام والكفاية العامة
لدى جيوش النمسا أعلى كثيرا منه لدى خصومها . فلم يكن ثمة
مايحتمل أن ينقذ الايطاليين من الهزيمة الكاملة سوى انهيار السلطة
النمساوية انهيارا كاملا شمال الألب .

كانت الولايات الايطالية تفتقر الى الوحدة الحقة . فالشعور المحلى
كان قويا في ميلانو وفي البندقية ، وفي دوقيات الوسط وفي نابولي
وصقلية قبل غيرهما . ومعظم الولايات لم تكن على استعداد لاتباع
نفسها لمملكة سردينيا ناهيك عن الاندماج فيها حتى أوشكتدفةالحرب
أن تنقلب ضد هذه الولايات . وكان ثمة احتكاك بين ميلانو والبندقية
ونزاع داخلى عنيف بين الجمهوريين والملكيين فى جميع الولايات . وقد
قدم مازينى الى ميلانو آملا توجيه الحركة وجهة جمهورية ، اذ كان
ايمانه بالجمهورية عقيدة لا تكاد تؤثر فيها أى اعتبارات تقوم على
الحذر والفتنة . وتحت السطح كانت الجماعات القوضوية تعمل ضد
مازينى والملكيين معا . وقد أثبت فكرة انشاء رابطة أو جامعة ايطالية،
ولكنها لم تكن قط من الأفكار المحببة الى نفس شارل ألبرت فاتتهت
الى لا شىء . وقبل نهاية الحرب صوتت ولايات عديدة لصالح الاندماج
فى سردينيا ، وهى بياتشنزا Piacenza وبارما Parma ومودينا
Modena وميلانو Milan والبندقية venice . ولكن تلك
البادرة جاءت متأخرة عن أوانها فلم تنتج أثرا فعلا ، وان مهدت
السبيل للخطوة التى سوف تتخذها جميع الولايات الايطالية بعد
ذلك بعشر سنوات .

(١) تبين العبارة الشهيرة التى قيلت لرادتسكى (١) وهى أن النمسا
كلها فى معسكرك (مدى شعور النمسا بحرج موقفها واعتمادها على
النصر العسكرى .

تقهقر النمساويون بعد طردهم من ميلانو الى الشرق ، وأظهرت القوات الإيطالية شجاعة فائقة في بعض المواقف وحق لها أن تفاخر ببعض الانتصارات ، وأعظمها الاستيلاء على حصن بيتشيرا الهام Peschiera . ولكن سرعان ما أزفت النهاية عندما اكتمل استعداد رادسكى لشن هجوم مضاد . فقد التحم بالايطاليين في ٢٥ يوليو ١٨٤٨ في ساحة القتال بكستوزا Custozza - وهي الساحة التي قدر لهم أن يصابوا فيها بضربة قاضية مرتين - فأنزل بهم هزيمة فادحة مما اضطر شارل ألبرت الى الانسحاب الى ميلانو . وقد حنق الميلاينيون بالطبع لانهايار آمالهم ، وزادت الهزيمة من شدة احتكاكهم بالبيدمونتيين ، بل انهم راحوا يتهمون شارل ألبرت بخيانة القضية الوطنية . ولا نحسب أن الطريقة التي جعل الوطنيون يتقاذفون بها الاتهامات ساعة الأزمة من الأشياء التي تطيب لذكرها نفوس مؤرخي إيطاليا الحديثة . لقد دخل النمساويون ميلانو من جديد وسمحوا لشارل ألبرت والجيش السرديني بالانسحاب الى ما وراء الحدود ، فأعلن مازيني أن الحرب الملكية قد انتهت وأن الألوان قد آن لحرب الشعب أن تبدأ ، ورفع علما نقش عليه شعاره المفضل « الله والشعب » وانسحب غاريبالدي الى الجبال حيث راح يحلم بمواصلة القتال عن طريق حرب العصابات . ولكن أصبح جليا للعظم الناس أن فرص نجاح مقاومة العدو قد ولت .

بقى علينا أن ننظر بايجاز في مسلك حكام مختلف الولايات الإيطالية أثناء تلك الحقبة الحافلة بالأمل والاضطراب ، فهو وحده الكفيل بأن يفسر لنا السر في أن الوحدة الإيطالية قد تمت عندما تحقق لايطاليا النصر في النهاية لا عن طريق نظام اتحادى كذلك الذى اختارته ألمانيا - رغم أن الفروق المحلية بها في اللغة والعنصر والطباع كانت أقل ضخامة منها في إيطاليا - وانما باندماج ايطاليا كلها في مملكة سردينيا . ذلك أننا لن نجد - اذا استثنينا شارل ألبرت - حاكما إيطاليا واحدا

أثبت إخلاصه الصادق لقضية الوطن ، فلا غرو اذن في أن إيطاليا لم يجد عند انتصارها من يستأهل أن تبقية في خدمتها سواء .

وقد سبق لنا أن تتبعنا سيرة بيوس التاسع حتى فراره الى جايتا . لقد اختفى اسمه من يومها من فوق الأعلام وشرائط القبعات ومن هتافات الجنود الايطاليين في المعارك . أما ملك نابولى فقد اغتتم - وهو الذى لم يخالجه قط ذلك الايمان الصادق الذى حفز بيوس التاسع الى مناصرة قضية إيطاليا والمبادئ الدستورية في يوم من الأيام - اغتتم أول فرصة للانضمام الى صفوف الرجعية ، والحق أن الحركة الوطنية كانت تهدد بتمزيق أملاكه ، اذ لم تبد صقلية أدنى استعداد للقناعة بحقوق المساواة في دستور نابولى . فقد أزال الأهالي تماثيل ملوك البوربون ، وأعلنوا أن صقلية ستشكل من ذلك الحين فصاعدا دولة مستقلة ، وسيطر التمرد على الجزيرة بأسرها ، وبلغ الأمر بالشوار ان عرضوا تاج دولتهم الجديدة على الابن الثانى لشارل البرت ، الذى رأى ، على أية حال ، أن الحكمة تقتضيه أن يرفضه .

ولقد كان قبول فرديناند للدستور مبنيا على الرياء أصلا ، فلما استنكر البابا الحرب شجعه ذلك على التخلي عن كل تظاهر . وقد أعلن حقا بادئ الأمر أن « مشيئته الحازمة الثابتة » هى ضمانة الدستور ، ولكنه أسرع الى سحب القوات التى كان قد أرسلها لمعاونة القضية الوطنية في شمال إيطاليا . ثم أعطته الاضطرابات التى نشبت في نابولى والتي وفق في القضاء عليها بسهولة ، الذريعة التى يستند عليها لحل البرلمان وسحب الدستور من الوجهة العملية وشرع بعد ذلك في غزو صقلية ، فاستولى على ميسينا Messina وأنزل بأهلها عقابا قاسيا . وقد أوقف تدخل الأسطولين الفرنسى والانجليزى استمرار العمليات الحربية ولكن بدا واضحا أن عودة النظام القديم الى مملكة نابولى باقليمينها قد باتت وشيكة .

أما ليوبولد دوق توسكانيا الأعظم فلم يكن معدنه خسيسا بنفس

درجة فرديناند ملك نابولي ، وقد شاهدنا مدى السهولة التي حصلت بها توسكانيا على دستورها . وسرعان ما تم تشكيل البرلمان وألفت وزارة شعبية ، بل ان الدوق الأعظم مضى شوطا أبعد من ذلك فأعلن استحسانه لفكرة دعوة جمعية تأسيسية تتألف من ممثلى دول ايطاليا المختلفة لتقرر شروط الوحدة وقيام حكومة اتحادية فى ايطاليا ، وهى الفكرة التى بدأ للكثيرين ، بما فى ذلك مازينى ، انها تتيح لايطاليا فرصة تحقيق حريتها ووحدتها بعد أن تحطمت قوات سردينيا فى القتال الذى انتهى فى كستوزا . وقد فشل هذا المشروع وكان من المحتمل له أن يفشل لأن سردينيا التى ظلت حتى فى هزيمتها أقوى الدول الايطالية طرا ، رفضت الأخذ به قطعيا . ولم يلبث البابا أن استنكره بعد قليل . فوجد ليوبولد دوق توسكانيا فى معارضة البابا سببا أو مبررا للتخلى لاعن فكرة « الجمعية التأسيسية » وحدها وانما عن القضية الوطنية بأسرها كذلك . فتوجه أولا الى سينا Siena ثم فر من هناك الى جايتا حيث انضم الى البابا فى أراضى ملك نابولي . وعلى هذا لن يجد دوق توسكانيا لنفسه مكانا فى ايطاليا الحرة التى ستقوم بعد عشر سنوات . ولم يكن الدور الذى لعبه دوقات الولايات الأقل شأنًا بأفضل من دوره ، فلم تلبث مودينا وبارما أن تقبلتا عن طيب خاطر الحكم النمساوى الذى كاتتا قد تخلصتا منه بعض الوقت .

أما سردينيا فقد سلكت مسلكا مختلفا تماما فجوزيت عنه خير الجزاء . لم تكن الهدنة التى وقعت اثر الاحتلال النمساوى لميلانو تسوية نهائية لمستقبل ايطاليا . فقد طالب البرلمان فى تورين باستئناف الحرب وهددت جنوه باعلان الجمهورية اذا قبلت شروط النمسا . فما كان من شارل ألبرت الآن خرج من جديد ليواجه خصومه الظافرين على رأس قواته التى ثبت الفشل من عزائمها . ولما هزم الجيش البيدمونتى (فالجنود البيدمنتيون كانوا يؤلفون الدعامة الرئيسية للجيش السردىنى) فى نوفارا Novara (٢٣ مارس ١٨٤٩) هزيمة

كاملة اقترنت بالشك في خيانة بعض القادة ، أعلن شارل ألبرت أنه قد ضحى بكل مرتخص وغال في سبيل إيطاليا ، وإن كان الموت قد أخطأه في ساحة الوغى ، وأنه لما كان قد غدا العقبة الرئيسية في طريق الصالح فقد قرر النزول عن العرش . فتولى الملك ابنه فيكتور عمانويل ، وهجر الأب بلاده الى البرتغال حيث توفي بعد أشهر قلائل .

ومع أنه لم يكن بوسع فيكتور عمانويل أن يتنبأ بأن القدر يخبىء له عرشا مجيدا هو عرش إيطاليا المتحدة ، فانه قد فعل في أيام حكمه الأولى أشياء كثيرة أمنت له ذلك العرش . فقد أبى في ثبات واصرار الاذعان لما تعرض له من الحاح في المفاوضات التي أعقبت معركة نوفارا بالنخلى عن الدستور نظير منحه شروطا أفضل . وأشار في بيانه الأول للشعب الى الأعداء المتربصين للدستور في الداخل والخارج . مؤكدا تصميمه على الدفاع عنه . فكان بذلك الوحيد بين حكام إيطاليا الذي رفع لواء الحرية عاليا .

لم تبق الا بقعتان صمدت فيهما الثورة فوق التربة الإيطالية : روما والبندقية . وعلينا أن نوجز الآن هذين الفصلين الرومانطيين من التاريخ الإيطالى ايجازا شديدا . لقد ترك فرار البابا «المدينة الخالدة» في حال من البلبلة الشديدة . وعبثا حاول البابا أن يحكمها من منفاه . فقد قامت العناصر الأشد تطرفا ، ومنها مازينى ، الى المدينة . وسرعان ما أقيمت جمهورية ثورية وأنيط الحكم الى ثلاثى يتألف من مازينى وسافى Saffi وأرميلينى Armellini ، على أن مازينى وحده كان الموجه الفعلى لسياسة الجمهورية . كما جاء غاريبالدى الذى صار يعتبر بطل إيطاليا المختار فوضع سيفه تحت تصرف الحكومة الثلاثية . ومن روما راح غاريبالدى ومازينى يتحديان سلطة النمسا والبابا باسم الله وباسم الشعب .

لم يكن ثمة على أى حال أمل في هذا الصراع ، وكان متوقعا أن الجمهورية لن تلبث أن تنسحق بين قوات نابولى وقوات النمسا . الا

أن دولة نائلة رأت أن تدخل الحلبة وتحسم الأمر بنفسها . كانت فرنسا لا تزال جمهورية يرأسها بوناپرت الذى لن يلبث أن يتخذ لنفسه بعد قليل لقب نابليون الثالث ، وهو رجل كان قد وقف على أشياء عن الثورات الإيطالية وأظهر بعض العطف عليها . غير أنه كان فى حاجة الى تأييد الاكليروس ، وكان يخشى أن توطد النمسا سلطانها فى روما ، لهذا قرر التدخل وأرسل جيشا فرنسيا الى سفيتافيكيا Civita Vecchia لقلب الجمهورية وإعادة الحكم الى البابا . وقد أساء القائد الفرنسى أودينو Oudinot تقدير قوة غاريبالدى بادى الأمر ، فقبول زحفه الأول بالصد العتيف . ولكن الامدادات لم تلبث أن وصلت الى الغزاة الأجانب كما قدم اليهم النابليون بعض المعونة ، فسقطت المدينة فى أيديهم فى ٣٠ يونيو . وقد قرر غاريبالدى الانسحاب الى الجبال قبل دخول الفرنسيين وجعل يناشد الإيطاليين التطوع للحاق به : « اننى لا أعرض عليكم أجرا ولا سكنا ولا مؤنا وانما أعرض عليكم الجوع والظمأ والسير الاجبارى والقتال حتى الموت . فمن كان منكم يحب بلاده بقلبه لا بلسانه وحده فليتبعننى » . وقد استجاب لنداء البطولة عدد من المتطوعين لم يلبثوا أن طوردوا وشتتوا ولم يترك غاريبالدى نفسه من الفرار فى النهاية الا بعد عناء طويل ، ولكن الكثيرين ممن خرجوا من روما معه قد عاشوا ليلعبوا دورا فى النصر الذى تحقق بعد عشر سنوات .

أما البندقية نفسها فقد خلعت عن نفسها سبات القرون لتسهم فى الحركة الوطنية . ولقد شاهدنا كيف حفزتها أنباء الثورة فى ميلانو الى الأقدام على حركة مشابهة . وقد أثبت مانين Manin أنه زعيم عظيم . وأعلنت البندقية نفسها جمهورية مستقلة وراحت تتعاون مع الحركة فى ميلانو . ولما بدأ الحظ يعبس للقضية الوطنية وافق البنادقة على اقامة اتحاد وثيق مع ميلانو وبيلموننت يتزعمه شارل البرت . ولكن الجيوش النمساوية واصلت زحفها حتى النصر كما بينا . وقد

ظل البنادقة يحاربون على أية حال حتى بعد كستوزا ونوفارا . غير أن البندقية لم تعد تلك المدينة المنيعه التي كانتها في عصر ما قبل اختراع المدفعية البعيدة المدى فقصفها النمساويون بقنابلهم وأنزلوا بها خسائر فادحة ، ثم جاءت الكوليرا لتزيد آلام الأهالي حدة على حدة . وأخيرا وفي ٢٤ أغسطس على وجه التحديد اعترف مانين أن الأستمرار في المقاومة أضحي مستحيلا ، وانسحب الى منفاه وآلت المدينة الى الحكم النمساوى من جديد .

وهكذا انتهت الى الفشل التام محاولة إيطاليا الأولى لكسب وحدتها وحريتها . فانها لم تكن تملك يومئذ سوى الحماسة وبضعة زعماء عظام ، وقد صنعت الحماسة كل ما يمكن أن تصنعه وفعل الزعماء العظام القلائل - بنبل وشرف - كل ما يستطيعون فعله . ولكن الافتقار الى النظام والوحدة في القيادة كان واضحا وكان قاضيا . كما أن إيطاليا لم تتلق عوناً من أية جهة خارجية . ولئن كان شارل ألبرت قد أعلن بفخار واعتزاز أن بوسع إيطاليا أن تنقذ نفسها بنفسها *Italia fara da se* فإن السكونت كافور الذى كان من أنصاره والذى يعد أكثر الساسة الإيطاليين حكمة واتزاناً قد أعرب عن شكه فى قدرة إيطاليا على تقرير مصيرها دون معونة خارجية ، وأبدى اقتناعه بضرورة الاستعانة بسيف فرنسا ضد سيف النمسا ، ان وجد الى ذلك سبيل ، فراح يركز جهوده ومهارته السياسية لتحقيق تلك الغاية .

الفصل الخامس عشر المسألة الشرقية وحرب القرم

القسم الأول - مسألة الشرق الأدنى ١٨٠٤ - ١٨٥٣

في أواخر القرن الثامن عشر اتخذت مسألة الشرق الأدنى شكلها الحديث ، وقد حكمتها عوامل ثلاثة : هي ضعف الباب العالي المتزايد في القسطنطينية وظهور عدد من القوميات المسيحية الصغيرة الفتية في شبه جزيرة البلقان وأثر الأمرين على سياسة الدول العظمى . فقد تعرضت تركيا في السنوات ما بين ١٧٨٨ و ١٧٩١ لهجوم روسي مساوي مشترك ، وتقدمت روسيا التي ما برحت تؤكد أنها حامية حمى المسيحيين في الامبراطورية التركية حتى وصلت ميناء أوجزاكوف (Ogzakov) على البحر الأسود . فأنشأ « بيت » Pitt الأصغر يندد باسم انجلترا بخطر الزحف الروسي والتهديد القائم لسلامة تركيا . ومع أن البرلمان لم يؤازر « بيت » في موقفه يومذاك إلا أنه استن به قاعدة سوف يحتذيها خلفاؤه من بعده ، فما برح هؤلاء ينتهجون سياسة موالية لتركيا ومناهضة لروسيا طوال ما يقرب من تسعين عاما . وكذلك أظهرت اعتدالا ازاء تركيا في ١٧٩١ فأعادت اليها معظم الأراضي التي انتزعتها منها بطريق الفتح ، وأخذت تسعى منذ ذلك الوقت الى حمايتها . ذلك لأن انجلترا والنمسا قد أدركتا في ١٧٩١ أن تركيا أصبحت تشكل خطرا لا بسبب قوتها ، وإنما بسبب ضعفها .

لقد بدأت روسيا تتسلل اذن في فجر القرن التاسع عشر الى جنوب ساحل البحر الأسود شاخصة ببصرها على الدوام الى القسطنطينية باعتبارها الهدف النهائي . وربضت النمسا على جناحها كأنها كلب

حذر من كلاب الصيد يهدد بالقفز بمجرد اشتباكها مع تركيا ، بينما راحت انجلترا ترقب الموقف من بعيد ، عاقدة العزم على حماية تجارة شرق البحر المتوسط والدفاع عن القسطنطينة نفسها ضد الهجوم . وكانت المتاعب تبدأ دائما بقيام محاولات من جانب قوميات البلقان الصغيرة لتوكيد استقلالها عن تركيا ، لا تلبث الدول العظمى أن تتدخل على أثرها لتنظيم أو تحسين أوضاع هذه القوميات . أما موقف تركيا فكان ثابتا لا يتغير ، اذ كانت ترى في تمرد « الرعايا » المسيحيين عليها تطاولا لا يحتمل ، فكان الباب العالي يسعى تارة الى سبق الحوادث باقامة المذابح - وهى مذابح كانت تزداد عنفا كلما زادت قواه وهنا - ويعمد تارة أخرى الى التهرب من تنفيذ الامتيازات أو الأوضاع التى يكون قد اضطر الى منحها للأفراد أو العناصر المسيحية ، فان الأتراك لم يمنحوا قط هذه الاصلاحات والترضيات لأى من هؤلاء الرعايا الا بضغط من الدول العظمى ، فاذا كانوا قد منحوها نظريا فقد حرصوا دائما قدر المستطاع على سحبها عند التطبيق . وقد أظهر الأتراك براعة محسوسة فى الايقاع بين الدول العظمى . وعلى هذا يمكننا أن نحدد عناصر المشكلة الثلاثة كالاتى : أولا حكومة شرقية قائمة فى أوروبا تسمى حكم ملايين المسيحيين وسلطانها آخذ فى الانهيار البطيء ، وثانيا مجموعة من الدول العظمى ، تسعى روسيا وحدها من بينها الى التعجيل عموما بانهييار تركيا . وأخيرا مجموعة من القوميات المسيحية الصغيرة الخاضعة لتركيا قد طفقت تنظم وتعلم وتقوى نفسها تدريجيا بغية التخلص من النير التركى . وقد أسفر هذا الموقف ابان القرن التاسع عشر عن ثورات لا حصر لها من جانب هؤلاء الرعايا ضد السلطان ، وثلاث حروب روسية تركية ، وحربين اشتركت فيهما فرنسا وانجلترا علاوة على روسيا اما الى جانب تركيا أو ضدها . فاذا بدأنا بالرومانيين الذين يؤلفون إحدى هذه القوميات التابعة ، وجدناهم يسكنون اقليمى مولداfia ووالاشيا (البغدان

والأفلاق) (رومانيا الحديثة) (١) اللذين كانا يحكمان على اعتبار أنهما ولايتان منفصلتان لكل منهما وضع شبه مستقل ووال يختار من بين الأهالي . أما المناطق التي كان يتركز فيها يومذاك كل من الصربيين والبلغار واليونانيين فهي تقابل اجمالاً الحدود المرسومة لأراضي هذه العناصر في ١٩١٣ . وقد كانت الصرب واليونان أكثر خضوعاً للقسطنطينية من مولداڤيا وولاشيا ، وإن لم يقطن بأى منهما أنثراك كثيرون . أما بلغاريا فقد كانت متاخمة للقسطنطينية ، ومن هنا السر في تأخر تحررها عن الصرب واليونان .

وقد جاءت الشرارة الأولى في سبيل حرية البلقان من الصربيين لا اليونانيين . اذ بدأت ثورتهم في ١٨٠٤ بزعماء قره (الأسود) جورج Kara George سليل أسرة قره جورجفيتش Kargeorgevic الصربية ، فكانت قصة زاخرة بالمعارك البطولية والمذابح الدموية من الطرفين . وبعد ثمانية أعوام من الثورة تمكن قره جورج من تدعيم مركزه فحصل في المعاهدة الروسية التركية ١٨١٣ ، على وعد بالاستقلال الذاتي لبلاده ، على أنه لم يلبث أن هزم في ١٨١٣ وفر من البلاد . ثم أشعل منافسه وعدوه وقاتله في النهاية ميلوس أوبرينوفيتش Milos Obrenovic ثورة أخرى في ١٨١٥ فنجح على الفور في توكيد استقلال الصرب الفعلي de facto وتمكن بعد الكثير من التسويات المضيئة من الحصول على دستور لبلاده والاعتراف به أميراً للصرب (٢) .

(١) ضمت رومانيا ، بالصورة التي شكلت عليها في ١٩١٣ ، كل من مولداڤيا وولاشيا وجانباً من دوبرجا the Dobruja ويقدر مجموع سكانها يومذاك بحوالى سبعة أو ثمانية ملايين نسمة . وقد تضاعف عدد سكانها بعد حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ وأضيفت إلى أراضيها كلا من بيسارابيا Bessarabia وبوكوفينا Bukovina وترانسيلفانيا Transylvania رجانسا من الجبر .

(٢) حصل ميلوس على التأكيدات الأساسية في ١٨٢٩ وإن كان تنفيذ المعاهدة قد استغرق سنوات طويلة .

وقد ظل كفاح الأبطال الفلاحين ضد الجيوش التركية التى تفوقهم عددا ثلاث مرات ، مغمورا لا يثير الا أقل الانتباه فى أوروبا . ولكن المشاعر تحركت فى جميع الدول العظمى عندما ثار اليونانيون فى ١٨٢٠ . فقد هاجت الخواطر فى روسيا لاعدام بطريرك القسطنطينية وللمذابح التى ارتكبت ضد المسيحيين اليونانيين . فشاع الخوف من أن تهاجم روسيا تركيا على الفور . وأسرت النمسا وانجلترا الى اتخاذ التدابير اللازمة لتفادى ذلك الخطر . وقد ظل كاننج Canning ومتريخ متفقين ، بضع سنوات ، من حيث المبدأ على أن الصراع بين تركيا وثوارها اليونانيين أمر لا يخص أحدا سواهما ، وأن واجب الدول العظمى هو أن تحد من ميدان الصراع فلا تسمح لأى منها باستخدام القوة . ذلك أن كاننج كان يؤمن بأن روسيا سوف « تلتهم اليونان ووراءها تركيا ! » ان هى حاولت تسوية النزاع بينهما بطريق الحرب . وقد استمر الموقف على هذا الحال من ١٨٢٠ حتى نهاية ١٨٢٥ . ثم حدث تحول ملفت للنظر . فقد استنجد السلطان بوالى مصر محمد على . فأرسل هذا ابنه ابراهيم على رأس جيش منظم الى الموره جاء نجاحه فائقا الى درجة حدث بروسيا أن تعلن أنه لابد من التدخل لاقاذا اليونانيين من الفناء .

وهنا قرر كاننج أن اشتراك انجلترا مع روسيا فى الضغط على تركيا هو السبيل الوحيد لتفادى الحرب . أما النمسا فقد رفضت الفكرة وآثرت الوقوف بمنأى عن الأمر . ف وقعت انجلترا وروسيا اتفاقية لهذا الغرض فى ٤ أبريل ١٨٢٦ تقرر بمقتضاها حث تركيا على عقد هدنة مع اليونانيين ومنحهم قدرا من « الحكم الذاتى » . على أن النية لم تكن قد اتجهت بعد الى استخدام العنف ، فان المعاهدة القاطعة فى شأن استخدام القوة حيال تركيا فى حالة رفضها الاصغاء الى اقتراح « الحلفاء » بقبول الهدنة واعطاء الاستقلال الذاتى لليونان لم توقع الا فى ٦ يوليو ١٨٢٧ وبعد انضمام فرنسا طرفا ثالثا فى التحالف . وقد

أدت هذه المعاهدة - بعيد موت كاننج - الى معركة تفارين (١٢ أغسطس ١٨٢٧) التى تحطم فيها الأسطول التركى المصرى على يد الأساطيل البريطانية الفرنسية الروسية المشتركة . فلم يعد مناص بعد هذه الكارثة الكبرى التى ألت بتركيا من أن تنال اليونان لا حكما ذاتيا فحسب وانما استقلالا كاملا ، وان كان لموت كاننج أثر كبير فى أغلب الظن فى الشكل الذى اتخذته ذلك الاستقلال .

وفى أوائل ١٨٢٨ أقدمت روسيا على الخطوة التى حاول كاننج منعها بالذات فأعلنت الحرب على تركيا مباشرة وبمفردها^(١) على أنه بالرغم من أن القيصر نيقولا قد أقدم على تلك الخطوة ضاربا عرض الحائط باعتراضات انجلترا وفرنسا ، فليس ثمة ما يدل على أنه كان يزمع يومذاك القضاء على الامبراطورية التركية أو حتى ضم اجزاء كبيرة منها على الفور .

وقد تمكن الجيش الروسى بعد عدد من الهزائم الأولية من الوصول الى أدرنة فى صيف ١٨٢٩ . فاتخذ قائده ديبيتش Diebitsch لنفسه ، رغم ضآلة جيشه وتدهور روحه المعنوية ، مظهر الفاتح ودعا الأتراك لعقد الصلح . فخارت عزيمة السلطان وقبل توقيع معاهدة أدرنة دون إبطاء (١٤ سبتمبر ١٨٢٩) ومع أن روسيا قد فازت فى تلك المعاهدة ببعض الأراضى فى آسيا على حساب تركيا مما أدى الى توسعها فى منطقة القوقاز ، فانها لم تحصل بل لم تحاول الحصول على كسب مماثل فى أوروبا . فظل نهر بروت الواقع الى أقصى شمال

(١) ذهب الحلفاء كما هو معروف جيدا الى أن معركة نفارين كانت «حادثا طائشا» ورفضت انجلترا طول الوقت اعتبار نفسها فى حالة حرب ضد تركيا . وفعلت فرنسا بالمثل وان تكن قد اتخذت فى ١٨٢٨ خطوة عنيفة هى ارسال قواتها لارغام تركيا على الجلاء عن المورة والواقع أن معاهدة لندن الموقعة فى ٦ يوليو ١٨٢٦ كانت من صنع كاننج ولم تحظ بموافقة خلفه « ولنجتون » Wellington أو فرنسا .

مولدافيا هو الحد الفاصل بينها وبين تركيا . ذلك أن سياسة روسيا في أوروبا لم تكن تسعى إلى الضم وإنما إلى التغلغل السلمى . ولما كانت فرنسا وانجلترا تخشيان أشد الخشية من تحول اليونان إلى دولة تابعة لروسيا فقد اقترح ولنجتون رئيس الوزارة البريطانية تقسيمها إلى نصفين بحيث تصبح أصغر وأضعف ما يمكن . بل لقد ذهب أبردين وزير الخارجية إلى أبعد من ذلك فاقترح تقسيمها إلى ثلاثة أقسام . ومن حسن الحظ أن ولنجتون وأبردين خرجا من الحكم وحل محلهما بالمستون وجرى اللذان سلكا مسلكا أحكم ، فكان أن وسعت حدود اليونان بحيث تضم أرطه Arta وفولو Volo ، وأعلن استقلالها ومنحت قرضا وملكا (١٨٣٢) . وهذا الاعتراف من جانب روسيا وفرنسا وانجلترا باستقلال اليونان ، الذى شاركت فيه روسيا بمنتهى التردد ، يعتبر علما من أهم معالم تاريخ البلقان . وقد أظهرت تجربة السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر أن دول البلقان التى تنال استقلالها تغار عليه وتحرص على صيانتها وتتمسك بمراعاة مصالحها الخاصة أولا ، وهذه قلما تتفق مع مصالح روسيا أو أية دولة أخرى من الدول العظمى . وهكذا يتبين أن الاعتراف باستقلال أى دولة من دول البلقان عن تركيا لم يكن فى الواقع إلا سبيلا لمعاونتها على الاستقلال عن روسيا . فقد تخلصت اليونان من النفوذ الروسى فور حصولها على استقلالها . كذلك لم توفق روسيا بحال فى توكيد نفوذها فى الاشيا ومولدافيا ، فالرومانيون باتوا يضمرون لها أشد الكراهية وقد داوموا على اتخاذ هذا الموقف منها . أما الصرب فقد وفق أميرها الحاكم (ميلوس أوبرنيوفيتش) فى استخدام روسيا مخلب قط فى مشاحناته العديدة مع الأتراك .

ومن الغريب أن روسيا قد خرجت من التجربة بنتيجة مغايرة تماما بالنسبة لتركيا نفسها ، فلن يلبث نيقولا أن يفوز لها بنصر بدا عظيما

مذهلاً . اذ تحولت سياسة روسيا بعد ١٨٢٩ ولمدة عشر سنوات على الأقل الى النقيض التام من سياستها التقليدية الرامية الى مواصلة الزحف حتى القسطنطينية وضم كل ما تستطيع ضمه من الأراضي في الطريق . وقصة ذلك أن القيصر نيقولا عين في ١٨٢٩ لجنة من كبار الساسة الروس لبحث نتائج انحلال الامبراطورية التركية المتوقع . فأفتت اللجنة ، على عكس سياسة روسيا التقليدية ، بأن المحافظة على سلامة الامبراطورية التركية أمر مستحب . اذ رأت ببصيرة ثاقبة تكاد تقرب من النبوءة أن دولا بلقانية صغيرة ستنشأ اذا ما استمر انحلال تركيا ، وأن روسيا لن تتمكن من السيطرة على هذه الدول ، في حين أن لها في تركيا بوضعها الراهن اذ ذاك حقوقا تكفلها المعاهدات ونهوضا تستطيع أن تضاعفه عن طريق السيطرة الاقتصادية والتغلغل السلمى . وأشارت اللجنة بأنه اذا شاءت روسيا السعى لكسب المزيد من الأراضي فان عليها أن تتجه صوب أرمنيا أو بغداد لا القسطنطينية . فأبدى نيقولا تأفقه لأول وهلة ولكنه لم يلبث أن قبل تقرير اللجنة ، فقامت سياسته طوال عشر سنوات على الابقاء على الوضع الراهن والمحافظة على سلامة تركيا .

وقد أسر نيقولا بأرائه الى النمسا فنال تأييد مترنيخ مدى عشر سنوات ، ولكن كبرياءه منعه من شرح سياسته لانجلترا ، فاستمر بالمرستون في مناوآته لروسيا وايمانه بأنها تنوى ضم القسطنطينية والاستيلاء على الدردنيل . ولعله كان بوسع بلمرستون أن يخمن الحقيقة ازاء ما لمسه من مظاهر الود بين النمسا وروسيا ، ولكنه لم يفعل (١) .

(١) كان بالمرستون يعتقد عن خطأ بالغ ان اتفاقية مونيشجرانز Munchengrat (١٨ سبتمبر ١٨٣٣) هي في حقيقتها عملية تقسيم لتركيا على يد النمسا وروسيا . وهذا دليل جديد على ما للسرية من ضرر على الدول الاستبدادية .

والواقع أن فرنسا هي التي راحت تنتهج في همة ونشاط سياسة تمزيق أوصل تركيا في الفترة ما بين ١٨٣٠ - ١٨٤١ ، ففي هذه الفترة استولت فرنسا على الجزائر وفيها أيدت ثورة مصر ضد تركيا وسعت عن هذا الطريق الى الحصول على العون لتحقيق مشروعاتها الخاصة بالبحر المتوسط . أما انجلترا فقد ظلت على حرصها المعهود على المحافظة على الامبراطورية العثمانية فجعلت تناوىء بطبيعة الحال مشاريع فرنسا .

كانت المشكلة الحقيقية تكمن في مصر . كانت تبعية محمد علي ، الباشا الطموح الجريء ، للسلطان قد تحولت الى تبعية اسمية منذ أمد بعيد ، ولكنه أرسل مع ذلك قواته لمعاونة السلطان في اخضاع اليونان . وكان قد فاز بولاية جزيرة كريت وأخذ يتطلع الى الفوز بولايات الشام علاوة على ولاية مصر . فأظهر السلطان غيرة وارتيابا وراح ينصت لمشورة أناس كانوا من خصوم محمد علي الشخصيين ، فلما خيل لذلك الباشا الجريء أنه بات في خطر ، ولعل ذلك كان صحيحا بالفعل ، قرر أن يتوقى أية محاولة لطرده من مصر بمهاجمة السلطان والاستيلاء على دمشق وسائر بلاد الشام ، فاستدعى ابنه ابراهيم وأصدر اليه تعليماته بشن « حرب وقائية » ضد السلطان .

وفي نوفمبر ١٨٣١ غزا ابراهيم فلسطين بحرا وبراً على رأس جيش حسن النظام وان يكن صغيرا . وقد وفق في زحفه توفيقا يضارع توفيق النبي في ١٩١٨ . اذ سقطت بين يديه يافا وغزة والقدس في تتابع سريع ثم توقف فترة من الزمن ، شأن نابليون ، أمام عكا ، ولكنه استولى عليها في النهاية (مايو ١٨٣٣) . وسقطت دمشق في يونيو وحلب في يوليو فعبر ابراهيم سلسلة جبال طوروس ليحقق نصرا جديدا في ممر يبلان ولما ينته نفس الشهر . ولم يكن نجاحه الدبلوماسي بأقل من نجاحه الحربى ، فقد تمكن من الظهور بمظهر الرجل المتحرر والتابع المخلص للسلطان في آن معا . وفي ديسمبر

١٨٣٢ أرسل السلطان محمود آخر جيوشه لمحاربة إبراهيم ، فدمره ذلك المقاتل العظيم دحرا تاما في قونية وبات السلطان تحت رحمة تابعه 'الشائر المظفر' .

كان السلطان قد استحث انجلترا من قبل على أن تمد له يد العون ، ولكن بالمرستون لم يبد لحظتها ، على غير ما أثر عنه ، ميلا لمعاونة تركيا ، فكانت سياسة جريئة خطيرة معا (١) . ففي لحظة وقوع كارثة قونية وصلت الى القسطنطينية بعثة روسية ، واذا بالسلطان يتجه ساعة يأسه الى عدوه التقليدي طالبا العون . لقد ذكر أحد مستشاريه أن « الغريق يتعلق بالحية » فتعلق السلطان بروسيا . كان القيصر يكره « الثائرين » شأن السلطان مما سهل اتمام الصفقة . وفي فبراير ١٨٣٣ طالب « الغريق » رسميا بمساعدة « الحية » . فرسا في ٢٠ فبراير أسطول بحري روسي أمام شاطئ القسطنطينية ، وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي ظهر فيها هناك مثل هذا الأسطول برضاء تركيا . وفي أبريل نزل ٦٠٠٠ جندي روسي الى الشاطئ الآسيوي المواجه للقسطنطينية ، فغدا السلطان بذلك في مأمن . وراحت فرنسا وانجلترا تضغطان في تلك الأثناء على تركيا للتراضى مع محمد على فنزل السلطان له في أواخر أبريل ١٨٣٣ عن فلسطين وحلب ودمشق وسائر بلاد الشام ، وأذن له باحتلال موانئ أطنة ، وانسحب إبراهيم الى الشام فبدأ أن الأزمة قد انتهت .

وكذلك شرعت روسيا في سحب قواتها من آسيا ، ولكنها أرغمت سلطان تركيا قبل ذلك على توقيع معاهدة سرية معها . كانت معاهدة هنكيار سكلسي (٨ يوليو ١٨٣٣) حلقا دفاعيا هجوميا بين الدولتين

(١) خالف سترايفور كاننج سفير انجلترا في القسطنطينية رأي « بلمرستون » ونادى في تلك الآونة باتباع سياسة هي في جوهرها نفس السياسة التي اتبعها بلمرستون في ١٨٤١ .

في واقع الأمر . وقد تنازلت روسيا ، بموجب نص سرى لم يتسرب مضمونه الا تدريجيا ، عن حقوقها في الحصول على المعونة العسكرية من تركيا نظير موافقة الأخيرة على اغلاق الدردنيل في وجه السفن الحربية « عند الحاجة » (كانت عبارة « عند الحاجة » تعنى في الحقيقة عند طلب روسيا) ولو فقدت هذه المعاهدة فعلا لغدت تركيا دولة تابعة لروسيا بكل معانى الكلمة . وقد بدا يومذاك أن نيقولا بات يتحكم من الوجهة العملية ، وإن لم يكن بصفة علنية ، في المضيقيين والقسطنطينية والسلطان جميعا (١) . على أن نصره كان أكمل من أن يدوم والعقبات الماثلة في الطريق كانت أعظم مما يتصور . فان دخول سفن روسيا الحربية في المضيقيين كان معناه الاشتباك في حرب مع إنجلترا ، ثم ان فرنسا كانت لديها أسباب قوية لمناصرة مصر ضد السلطان . أما بالمرستون فقد راح يبدى تأييده المطلق لسلامة الباب العالي في مواجهة مصر ، فبات يتمتع بحظوة بالغة لدى السلطان . ولسان حاله في ذلك أن السلطان يمكن أن يستند في المستقبل على إنجلترا لا روسيا ان هو تمكن من التغلب على الخطر المصري . وما دامت تبعيته لروسيا مقنعة فلن تكون به حاجة الى الشعور بالحرج عند التهرب من التزامات هنكيار سكلرسى .

وقد كان السلطان محمود على استعداد للعدو بمصر مثلما كان عازما على العدو بروسيا . وقد تهيأت له الفرصة لاحتراز نصر على ابراهيم ، اذ سرعان ما استثار ابراهيم ، وهو الذى كان يفاخر بميوله التحررية ، عداوة رعاياه من أهالى الشام بطغيانه (٢) فأدرك السلطان

(١) مازال الجدل قائما حول معنى هذا النص السرى . ومن الملاحظ أن مضيق الدردنيل يقع في الطرف الغربى لبحر مرمرة . وأن النص لا يشير للمضيق الواقع في الطرف الشرقى أى مضيق البسفور .
(٢) نرى المؤلف - ولعله تناسى - أن يذكر دسائس عملاء الإنجليز في إثارة الأهالى على الحكم المصرى . (المراجع)

محمود أن أهالي الشام قد يشورون ضده إن وجه قواده الضربات إلى جناحه . ولا مرأى في أن السلطان كان البادى بالاستفزاز ، إذ أرسل في أبريل ١٨٣٩ جيشاً تركيا إلى بيرة جك على نهر الفرات ، وجعله يعبر النهر من ضفته اليسرى إلى اليمنى بحيث يتمكن من تسديد الضربات إلى خطوط مواصلات إبراهيم بين فلسطين وموافى أطنه . فانزعجت الدول العظمى على الفور ، واتفق رأى فرنسا وبريطانيا على إيفاد أسطول مشترك إلى البسفور في حالة دخول الروس تركيا . بيد أن الأوان قد فات ، إذ كان آخر عمل قام به السلطان قبل وفاته هو إصدار الأمر إلى قواده بمهاجمة إبراهيم . تحرك الأتراك لمقاتلة إبراهيم في أوائل يونيو وسرعان ما تلقوا ضربات عنيفة ثلاثاً تابعت عليهم دون هوادة . ففي ٢٤ يونيو دحرهم إبراهيم عن بكرة أبيهم في نصيبين وأسر منهم ١٥٠٠٠ رجل بسلاحهم ومهماتهم . وفي أول يوليو مات محمود الشيخ فخلفه عبد المجيد الذي كان ضياغيراً في السادسة عشرة من عمره . وعلى أثر ذلك مباشرة أبحر الأسطول العثماني إلى الأسكندرية حيث استسلم لمحمد علي متذرعاً بأن القسطنطينية قد بيعت إلى الروس . فأسكر محمد علي الفخر بانتصارات ابنه وأسلحة مصر ، وحسب أنه يستطيع المحافظة على حكمه وغنائمه للجميع . ولكنه أساء التقدير على نحو خطير . فلئن كان بوسع أن يتحدى تركيا أو حتى أوروبا فثمة شخص واحد لم يكن ليستطيع أن يتحداه ألا وهو بالمرستون .

وإذا كان بالمرستون قد تردد في ١٨٣٢ فإنه لم يتردد قط في ١٨٣٩ . لقد طفق السلطان الصبي يتذبذب بين الفزع والادلاء بالتصريحات الطنانة ، وجعلت فرنسا تناصر مصر سرا ، بينما راح نيقولا يلعب لعبته الخاصة ، أما النمسا فكانت متبهة تساورها الهواجس ولكن

بالمرستون كان يملك ميزتين : تصميمه الشخصى وقوة بريطانيا البحرية وعلى هذا أسرعت بريطانيا الى ضرب الحصار على الاسكندرية رغم رفض فرنسا التعاون معها . وقد رد بالمرستون على هذا الرفض بالدعوة الى عقد مؤتمر للدول العظمى فى فيينا . فلما مضت المفاوضات فى ببطء وتشاغل وتدخلت روسيا فى الأمر وعمدت فرنسا الى المماطلة الصريحة أمسك بالمرستون الزمام بيديه وساق القطيع الأوروبى فى اندفاع وحدة حتى داس مصر وفرنسا تحت أقدامه .

وفى ما يلى مجمل لما حدث . دفع بالمرستون ، وقد توافرت لديه أسباب توجيهه للشك فى انحياز فرنسا الى صف مصر ، كلا من النمسا وبروسيا وروسيا الى توقيع اتفاقية معه فى ١٥ يوليو ١٨٤٠ بلندن تقرر فيها أن تكون لمحمد على ولاية مصر الوراثة وولاية عكا مدى الحياة ، فإذا ما امتنع عن الجلاء عن بقية الأراضى التى فتحها وقبول ذلك اعرض خلال عشرة أيام تركت له ولاية مصر وحدها (١) . وقد أحاطت بالاتفاقية صعوبتان أولاهما أنها قد وقعت فى غياب فرنسا والثانية أن اللجوء الى القوة سيكون ضروريا لفرض أحكامها على محمد على .

(١) بذلت كل من النمسا وبريطانيا العظمى وعدا قاطعا بتقديم المعونة البحرية لتركيا اذا رفض محمد على الشروط المعروضة عليه (المادة ٢) . ونضيف أن معاهدة لندن تضمنت أيضا أن محمد على اذا أصر على الرفض فى مدى عشرة أيام أخرى نزعته منه ولاية مصر وساعدت الدول الموقعة تركيا عسكريا لأخضاع محمد على .

المعروف أن بالمرستون كان شديد الحقد على محمد على وكان يعتبره عميلا لفرنسا فى المشرق لجلب الروس الى المضيقين ، وامتد حقه الى مصر ، فعمل على تحطيم قوتها ونفوذها وخاصة فى المناطق التى اعتبرها (حساسية) للمواصلات الامبراطورية الى الهند وهى جنوب الجزيرة العربية وساحل الخليج العربى وقد وضعت إنجلترا منذ ذلك الوقت أساس سياستها الاستعمارية فى تلك المناطق فاحتلت عمان (١٨٣٩) وأنذرت مصر بالانسحاب من منطقة الخليج العربى ووطدت سلطانها على الأمراء والمشايع العرب فى تلك المنطقة عن طريق (المعاهدات) التى عقدها معهم . (المراجع)

غير أن « بالمرستون » لن يلبث أن يظهر قدرته على التصدى لهاتين الصعوبتين بطريقته البشة المعهودة .

وقد وصف « جيزو » Guizot استبعاد فرنسا عندما أبلغه « بالمرستون » أنباء الاتفاقية ، بأنه « اهانة شنعاء » ، وأعلن « ثيير » رئيس الوزراء أن العلاقات الطيبة مع إنجلترا قد انهارت وراح يتعجل الاستعدادات العسكرية ، بينما انطلقت الصحافة الفرنسية كلها في صراخ محموم . ولكن بالمرستون لم يؤمن قط بأن فرنسا يمكن أن تحاربه وقد أثبتت الأيام صدق إيمانه في تلك المرة . إذ سرعان ما تبددت غضبة فرنسا باطلاق الكلمات النارية . وقد كان « سولت » Soults ذلك الرجل الطيب الهرم الذى تولى رئاسة الوزارة فى أكتوبر يدرك أن الحرب مع إنجلترا ستعرض البيت المالك للخطر ، وفى تلك الأثناء حقق بالمرستون نصرا عظيما على خصمه الآخر .

ترك محمد على الأيام العشرة التى حددتها الدول العظمى ، تمر دون ابلاغ أى رد رسمى . فظهر أسطول بريطانى نمساوى أمام ساحل بيروت مطالبا بجلاء المصريين عن الشام (١١ أغسطس) . وفى ٩ سبتمبر قصف الأميرال ستوفورد Stopford المدينة بقنابله وأنزل إليها قوة تركية . وفى ٩ أكتوبر تم له الاستيلاء عليها فهبت بلاد الشام على الفور ضد ابراهيم ، وتحرك الأسطول البريطانى الى عكا . ان تلك المدينة قد صمدت عامين أمام الصليبيين وستة أشهر أمام ابراهيم وشهرين أمام نابليون ، ولكن الاميرال ستوفورد ، دمرها فى ٣ نوفمبر فى ثلاث ساعات ! وهكذا فوت اميرال بريطانى على ابراهيم غرضه للمرة الثانية (١) .

(١) منع السير ٠ كودرنجتون Sir E. Codrington ابراهيم من فتح اليونان فى ١٨٢٧ بتدمير الاسطول التركى المصرى فى نفارين . (المراجع) : يؤسفنا ان يتحدث المؤلف الانجليزى هنا وفى امكنة اخرى من هذا الفصل عن عدوان البحرية الانجليزية بهذه اللهجة الحماسية !

واذ كان ابراهيم مدركا تماما لما للقوة البحرية من أثر وللخطر الذى يتهدد خطوط مواصلاته ، فقد تأهب للجلاء عن الشام فى عجلة . بل ان مصر نفسها باتت فى خطر . فقد استجمع السلطان الصبى أطراف شجاعته وخلع محمد على (١) . فاستقبل صاحبنا النبأ فى هدوء قائلا ان تلك هى المرة الرابعة التى يخلع فيها . وأعرب عن أمله فى تغلب بعون الله ورسوله على تلك المحاولة كما فعل فى المرات الثلاث السابقة . الا أنه غير لهجته عند ظهور الأميرال ناير Napier أمام الاسكندرية مهددا بلغة الحديد والنار . فقبل التسليم على الفور ووقع اتفاقية وعد فيها بالاذعان لرغبات الدول العظمى والجلاء عن بلاد الشام بشرط ضمان ولايته الوراثة لمصر (٢٧ نوفمبر) . وقد أبدى السلطان والدول العظمى بعض التردد فى قبول هذه النتيجة . ولكن « بالمرستون » أفتد رأيه فى النهاية وانتصر على جميع معارضيه . فاجتاز محمد على مأزق الخلع للمرة الرابعة ، وان أرغم على الاكتفاء بولاية مصر وحدها فى المستقبل . كانت التسوية نهائية دائمة ، فبدأ الناس يرون أن انتصارات أى حاكم شرقى آخر أو بعبارة أخرى انتصارات مراد الرابع Amurath . على مراد الرابع ليست فى جوهرها الا انتصارات زائلة ، وهو ما فاتهم أن يروه أولا . فأهالى الشام الذين رحبوا بابراهيم بوصفه مخلصا لم يلبثوا أن انقلبوا ضده بوصفه طاغية . ومحمد على الذى هدد القسطنطينية فى يوم من الأيام لم يتجاسر ثانية لا هو ولا ابنه على تهديد حتى فلسطين . ومصر التى جعلها محمد على وابراهيم أعظم من تركيا ، أمسبت أضعف منها فعلا فى غضون

(١) كان هذا خطأ بينا ومخالفة صريحة لشروط اتفاقية الحلفاء الموقعة فى ١٥ يوليو ١٨٤٠ . (المراجع) ليس فى خلع السلطان محمد على فى ذلك الوقت - بعد ان انقضت المهلة الاولى ثم الثانية مخالفة صريحة لاتفاقية لندن ، بل ان الخلع يتمشى وهذه الاتفاقية .

أربعة عشر عاما . ثم غدت في ١٨٥٤ ، بعد أن حرمت من قادتها وأثقلت الديون كاهلها وبليلتها المنازعات الداخلية ، أكثر ولايات الامبراطورية التركية وهنا وعجزا . أما فرنسا التي كانت تهدف الى اعطاء بلاد الشام لمصر أو الاستيلاء عليها لنفسها فقد ضاع اعتبارها في حين فاز بالمرستون بامتنان السلطان الدائم .

وقد اكتمل نصر « بالمرستون » بتوقيع اتفاقية في ١٣ يوليو ١٨٤١ تعهدت بموجبها الدول العظمى والسلطان بعدم السماح بدخول « السفن الحربية التابعة لدول أجنبية » الى الدردنيل والبسفور . على أن روسيا ظلت تؤمن في سريرتها بإمكان التمسك بمبادئ معاهدة انكيار سكليسى وراحت تبدي شعورا وديا للغاية نحو انجلترا التي كانت تظنها مستغفلة في الأمر كله . والواقع أن القيصر كان مخطئا في ظنه تماما . فالسلطان كان يعتبره طاغوتا مغرضا اضطرت ظروف الخطر التي مر بها لطلب حمايته والرضوخ لتهديداته في حين يستطيع الآن اللجوء الى انجلترا (المنزهة عن الغرض) لدرء شره ! . ولما كان فيقولوا بعيدا كل البعد عن ادراك ذلك ، فقد سعى في محادثته الشهيرة مع اللورد ابردين وزير الخارجية البريطانية في ١٨٤٤ (١) الى ايجاد «تقارب» Reapprochement مع انجلترا والوصول الى تفاهم بالنسبة للمستقبل . ولا تترك أقواله في تلك المحادثة مجالا للشك في نواياه . فقد وصف السلطان بأنه « رجل مشرف على الموت » وأعرب عن رأيه

(١) خرج الأحرار (بولمرستون) من الحكم في ١٨٤١ فتولى بيل Peel رئاسة الوزراء وأبردين وزارة الخارجية . ومحادثة ١٨٤٤ واردة في «مذكرات ستوكمان» المجلد الثاني ، الصفحة ١٠٦ والصفحات التالية ، وكتاب مارتين «سيرة الأمير القرين» (وهو اللقب الرسمي لزوج الملكة فيكتوريا - المترجم) المجلد الأول صفحة ٢١٥

Stockmar, "Memoirs" vol.II.pp.106 sqq., and Martin's "Prince Consort", vol.I.p.215.

انظر كتابه تمبرلي «انجلترا والشرق الأدنى : بالقرم» الصفحات من ٢٥٣ الى ٢٥٧ (طبعة لونجمان ١٩٣٦)

H.Temperley : England and the Near East : The Crimea, pp.253-7 (Longmans. 1936).

في أن امبراطوريته في سبيلها الى الانحلال وانه يحسن اتخاذ الأبهة
للأمر مقدما . وأبدى عزمه على الفوز بالقسطنطينية وموافقته على أن
تحصل انجلترا نظير ذلك على مصر وكريت أيضا اذا شئت . وقال
يقولوا انه بهذا يبرهن على استعداداه لمراعاة مبدأ التوازن الدولي
واعطاء تعويض عادل لانجلترا . ولقد صور هذا العرض بصورة
مشوهة الى حد بعيد أثناء حرب القرم حين جعلت الصحافة الانجليزية
المتعصبة لوطنها تصم القيصر نيقولا بأنه « كذاب أشر » وترسم انجلترا
في صورة الصليبي المدافع عن الحق . ولكن من الأمور الجديرة حقا
بالتسجيل أن اقتراح نيقولا هذا الذي ينم عن حكمة وحكمة سياسية
قد قدر له أن يقبل فعلا في ١٩١٥ . اذ وافق السير ادوارد جراي في تلك
السنة على حصول روسيا على القسطنطينية ودفاعه الى ذلك جلي
واضح ، فقبرص ومصر كانتا قد باتتا بالفعل في عداد الممتلكات
البريطانية وقناة السويس وهي الطريق الى الهند أصبحت هي الأخرى
في أيد بريطانيا . فلم يكن ثمة داع والأمر كذلك لامتناع بريطانيا عن
تأييد مطالب روسيا في القسطنطينية . ولما كانت الضمانات التي عرضت
على انجلترا في ١٨٤٤ لا تقل قوة عن تلك التي عرضت عليها في ١٩١٥
فلا يبدو لنا أنه كان هناك مبرر لامتناعها عن قبول ذلك العرض من
البداية .

أما سر رفضها فقد سبق أن شرحه « بالمرستون » في غلظة وقسوة
عام ١٨٣٩ حين قال « ان كل هذا الذي نسمعه يوميا عن تحلل
الامبراطورية التركية وكونها جسما ميتا أو جذعا يابسا أو ما شابه
ذلك انما هو هراء محض » (١) . لم يكن الوصول الى تسوية تقوم

(١). انظر كتاب ب. جودالا « بالمرستون » (١٩٢٦) صفحات ٢١٢-٢١٣

P.Guedalla : Palmerston (1926), PP. 212-213.

(المراجع) يؤسفنا مرة أخرى أن يبدو النزعة الاستعمارية على لسان المؤلف.
فيعتبر عرض القيصر نيقولا اقتسام تركيا ومصر بين انجلترا وروسيا ...
« اقتراحا ينم عن حكمة وحكمة سياسية »

على التوفيق بين روسيا وانجلترا أمرا ممكنا اذن في الوقت الذى يصفه فيه القيصر السلطان بأنه « رجل مشرف على الموت » فيرد « بالمرستون » « هراء ! » وهنا تكمن جرثومة حرب القرم .

القسم الثانى - حرب القرم

تشغل حرب القرم مكانا فريدا في تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر . ان الأساليب الحربية التى اتبعت فيها أشبه بأساليب العصر النابليونى منها بأساليب الفترة التى يوشك أن يبدأها مولتيكه Moltke والنظام العسكرى الروسى . وقد استخدمت فيها السفن البخارية ولكن أهميتها لم تكن قد قدرت حق قدرها بعد . وكان البرق قد أدخل في فيينا ولكن القسطنطينية والقرم كانتا لا تزالان أبعد من مداه أما النواحي المتصلة بتغذية الجيوش وأجوالها الصحية فكانت أقرب كلها الى طابع العصور الوسطى . وعلى هذا تعد حرب القرم آخر حرب دارت على نطاق واسع دون الاعتماد على امكانيات العلم الحديثة . واذا كانت أساليبها وأدواتها تبدو غريبة للطالب العصرى ، فان أهدافها وديبلوماسيتها تبدو أغرب وأعجب . فنحن نجد أن القضايا الكنسية التى يصح أن تنسب الى عصر الحملات الصليبية قد ساهمت بنصيب وافر في أسبابها ، وأن المنتصرين فيها لم يحققوا منها كسبا كبيرا ان كانوا قد خرجوا منها بشيء على الاطلاق . فالواقع أن سلامة تركيا لم تصن ولا تم ايقاف الزحف الروسى ايقافا دائما . وسوف تنفق فرنسا وبريطانيا آلاف الأرواح وملايين الجنيهات في حرب ١٩١٤ العظمى لالغاء بعض نتائج انتصارهما في حرب القرم التى بذلتا لكسبها دماء وأموالا طائلة . على أن هذه الحرب تبدو لنا مع ذلك شيقة جدا من عدة أوجه . فهى تزودنا على الأخص بنموذج مفيد للغاية للكيفية التى تشب بها الحروب ، ونحن نرى فيها تصرفات بعض

شخص القصة مجردة تماما من المواربة والتظاهر بالدوافع الزائفة التي يحلو للديبلوماسيين التستر وراءها في العادة .

وقد كانت لحرب القرم ، شأن جميع الحروب ، أسباب عديدة مجتمعة . ولكن أحوال شبه جزيرة البلقان كانت بين جميع هذه العوامل أكثرها أهمية على الإطلاق . كان الحكم التركي يمتد على شبه الجزيرة كلها فيما عدا مملكة اليونان الحرة . وقليلون هم الذين كانت لديهم في تلك الحقبة أدنى فكرة - حتى بين الديبلوماسيين الأوروبيين - عن تلك الشبكة من العناصر والديانات واللغات التي تكتظ بها شبه الجزيرة . ولم يكن الحكم التركي متسما بالقسوة المتعمدة ، بل انه لم يكن يتسم بالقسوة على الإطلاق الا في الأوقات التي يتعرض فيها لتحذ خطير ، أو بعبارة أصح في الأوقات التي يظن فيها الأتراك عن حق أو باطل أنه يتعرض لمثل هذا التحدى . ولم يكن هذا الحكم يتمثل في جميع جهاته في أكثر من حامية احتلال تحفظ - دون نجاح كبير - نوعا من النظام ، وتجبى الضرائب تاركة الأهالي الخاضعين لها يسرون فيما عدا ذلك في طريقهم الخاص ويتبعون أفكارهم الخاصة في شئون الحياة الاجتماعية والدين . على أنه لا جدال في أن الحكم التركي كان أخذاً في الضعف ، وفي أن كفايته العسكرية كانت آخذة في التناقص مع ازدياد ملموس في فساد . وهو لم يتأثر الا أدنى التأثير بالتقدم العلمى والصناعى الذى بدل طابع أوروبا الغربية تبديلاً عظيماً . وكان يضم أشد النفور للحرية السياسية لفكرة اشتراك الشعب في تصريف شئون الحكم . وبازدياد ضعف تركيا ، بل وبسبب هذا الضعف الى حد ما ، أخذ أبناء القوميات والديانات الخاضعين لها يزدادون وعياً بذاتيتهم واحساساً بكيانهم . كان اليونانيون قد شقوا عصا الطاعة من قبل وأنشأوا دولتهم المستقلة . فلم يكن مناص من أن يشير المثل الذى ضربوه تحركات بين العناصر الأخرى . وقد وفرت المعاهدات الأخيرة لسكان ولايتى والاشيا ومولدافيا فيما وراء الدانوب ، الذين لم

يكونوا قد عرفوا بعد باسم الرومانيين ، قدرا كبيرا من الحكم الذاتى فراحوا يبدون لهفتهم الى الحصول على المزيد . وكان الصربيون معتدين بتاريخهم العظيم غير قانعين بالقدر المحسوس الذى فازوا به من الحكم الذاتى من قبل . أما أهالى الجبل الأسود فكانوا لا يزالون يحتفظون باستقلالهم فعلا وراء جبالهم الحضيئة . ومع أن البلغار والألبان والمقدونيين لم يكونوا قد أحسوا بعد بأن لهم كيانا مستقلا ، فإن مناطقهم كانت تزخر بالاضطرابات الناجمة عن احساسهم بالفروق التى تفصلهم عن حكاهم . وكان الدين عاملا قويا من العوامل المثيرة للغليان فى بلاد المنطقة . فمع أن الشعوب المقهورة كانت تضم أعدادا كبيرة من المسلمين فإن المسيحية هى التى كانت غالبية فى شكلها الأورثوذكسى أو اليونانى . بين أكثرية هذه الشعوب ، وكان القيصر الروسى هو الرئيس الرسمى للكنيسة الأورثوذكسية . وما برح الدين يتخذ فى شبه جزيرة البلقان طابعا سياسيا قويا ، وهو ما يحدث غالبا فى البلاد التى يكون فيها النشاط السياسى المباشر مستحيلا .

كان عدم الاستقرار سنة ظاهرة على الموقف فى البلقان . وقد بات محتملا أن تشب فى إحدى جهاته ثورة تقلب التوازن الدولى رأسا على عقب ، فجعلت الدول العظمى الواقعة شمال الدانوب ترقب الأحداث بقلق يمتزج فيه الخوف والطمع . فامبراطورية النمسا كانت مدينة بنشأتها لضرورة سد الطريق فى وجه أى غاز يأتى من مجرى الدانوب الأدنى ، ووجودها كله كان مرتبطا أوثق الارتباط بمقاومة سلطان تركيا . ومع أن دواعى الخوف من ذلك السلطان كانت قد زالت فإن خوفا جديدا قد أعقبه ، ألا وهو الخوف من الدولة التى يمكن أن تحل محل تركيا فى شبه جزيرة البلقان . كانت النمسا تتطلع الى كسب نفوذ فى البلقان ان لم يكن كسب أراض منه ، وكانت تخشى من نوايا روسيا ومطامعها . ولم يكن ثمة شك على الإطلاق فى طبيعة تلك المطامع . إذ كانت روسيا الدولة السلافية الكبرى ، وأكثريّة سكان

البلقان كانت تتحدث بلغات سلافية ، وحتى البلغاريين الذين لم يكونوا سلافيين تماما كانوا قد اصطنعوا لأنفسهم لغة سلافية . ثم ان روسيا كانت لديها كما شاهدنا من قبل مبررات دينية للتدخل لصالح أعضاء الكنيسة الأرثوذكسية . وكانت تزعم أيضا أن لها حقوقا في التدخل تكفلها المعاهدات ، وكان تحديد المدى الذى تطبق فيه هذه الحقوق موضع نزاع متصل . فقد تضمنت معاهدة كوتشك كنارجى Kutchuk Kainarji المعقودة بين روسيا وتركيا في ١٧٧٤ مادتين أثار تفسيرهما خلافا كبيرا . فقد نصت احدى المادتين وهى المادة (١٤) على السماح لروسيا ببناء كنيسة مسيحية في غلطه - وهى جزء من القسطنطينية - وبإبقاء تلك الكنيسة تحت حمايتها على الدوام . ووعدت تركيا في مادة أخرى وهى المادة (٧) بحماية الكنيسة والديانة المسيحية في ممتلكاتها وبالسماح لسفراء روسيا بمخاطبة السلطات نيابة عن كنيسة غلطه . وقد ادعى الروس أن لهم بناء على هاتين المادتين حقا في تمثيل الطوائف المسيحية في البلقان وحمايتها . ولما كان من شأن الاعتراف بهذا الحق قيام خطر التدخل بصفة دائمة (فكر فيما كان يحدث لو كان للفرنسيين في القرن الثامن عشر حق « حماية » كاثوليكي أيرلندا) فقد أصرت تركيا على رفض الاعتراف بهذا الحق المزعوم (١) .

وليس في مطامع روسيا يومذاك ما يتحتم وصفه بالشر أو الضعة . فلا مراء في أن القيصر كان يرى أن واجبه الدينى القوى يملى عليه

(١) على أن الدول العظمى الأخرى وتذكر منها : النمسا ، المجر ، وبريطانيا العظمى على وجه التخصيص ، كانت قد أقرت منذ أمد طويل ان لروسيا حقا ما في المسألة . فقد اعترف مترنيخ في ١٨٢٣ بذلك ، وصرح كاننج بأن لروسيا حقا خاصا في أسداء المشورة الودية نيابة عن مسيحيى تركيا في زمن السلم . ولكنه تحفظ بأبداء شكه فيما اذا كان هذا الحق « يمتدالى التدخل نيابة عن الرعايا الذين خرجوا من طاعة السلطان »

انظر كتاب هـ . تمبرلى « سياسة كاننج الخارجية » (١٩٢٥) ص ٣٢٥
H. Temperley: The Foreign Policy of Canning (1925), P.325.

بذل قصارى جهده من أجل أولئك الذين ينتسبون الى نفس الطائفة
الهندية ويتحدثون نفس اللغة التى يتحدثها شعبه الروسى . على أنه لم
يعد هناك أدنى شك على أية حال فى وجود تلك المطامع بعد المحادثة
الشهيرة التى دارت فى يناير ١٨٥٣ بين القيصر نيقولا والسفير الانجليزى .
كان القيصر صديقا قديما للورد أبردين رئيس الوزارة الانجليزية ،
وكان على علاقة ودية للغاية بالسير هاملتون سيمور سفير انجلترا فى
القسطنطينية وقد وصف القيصر تركيا فى تلك المحادثة التى رفع السفير
كل مدار فيها الى لندن على الفور والتى أذيعت عند اندلاع حرب
القرم ، وصفها بأنها بلد « آخذ فى الانهيار فيما يبدو » . وبأنها « رجل
سريض للغاية » ، قد يموت بغتة بين أيديهم . فمن الأهمية بمكان أن
يستقر الرأى على كيفية التصرف فى أراضيه قبل وقوع ذلك الحادث .
وأشار الى امكان تسوية الأمر فيما بين انجلترا وروسيا دون حاجة
الى قيام أى حرب . ثم ألمح بصراحة تكاد أن تكون تامة الى التسوية
التي ينشدها ، ألا وهى استقلال دول البلقان تحت حماية روسيا ،
واحتلال روسيا للقسطنطينية دون ضمها ، واستيلاء بريطانيا على مصر .
كان هذا هو التقسيم الذى اقترحه القيصر لأراضى تركيا فيما بين
بريطانيا وروسيا مع اسقاط فرنسا من الحساب (١) . ولكن بريطانيا

(١) لم يكن عرض القيصر الا تكرارا فى الواقع لمحادثة كان قد اجراها مع
أبردين فى وندسور فى ١٨٤٤ ويبدو أنه كان يعتقد أن الأخير يوافق فى
الرأى . ونص هذه المحادثة . منشور فى مذكرات ستوكمار . المجلد الثانى
صفحة ١٠٦ . "Stockmar's Memoirs" vol. II. P. 106.

وكتاب مارتن «سيرة الأمير القرين» المجلد الأول صفحة ٢١٥

Martin's "Prince Consort" vol. I. P. 215.

وقد عرض امر هذه الصفقة على كل من تولى وزارة الخارجية البريطانية
حتى عام ١٨٥٣ ، ولكن احدا منهم لم يقبلها قبولا صريحا ولم تصدق
عليها اية وزارة . ومن المقطوع بأن دربي Derby قد رفضها باسم حكومته
انظر كتاب هـ . تمبرلى « انجلترا والشرق الادنى » الصفحات ٢٥٣ -
٢٥٧ .

H. Temperley : "England and the Near East" PP. 253-7.

لم تبد ميلا للتجاوب مع هذا المشروع ، اذ كان الاحتفاظ بسلامة تركيا سياسة بريطانية تقليدية ولم تكن لديها رغبة في تبديلها . فلم تؤد تلك المحادثة الا الى اثاره أبلغ الشكوك ، ربما عن غير حق ، في نوايا روسيا .

ثم ظهرت مسألة الأماكن المقدسة وهي مسألة كانت لها جديتها أو كانت تثير بعبارة أصبح عواطف جديدة . كانت تنصب على ادارة أماكن الحج في القدس ولا سيما كنيسة الميلاذ في بيت لحم . وقد دأبت الحكومة التركية على حفظ التوازن بين الدعاوى المتضاربة للأتين أو الروم الكاثوليك من ناحية والأرثوذكس أو المسيحيين اليونانيين والروس من ناحية أخرى . وقد كان للحكومة الفرنسية حق تقليدي يرجع الى زمن الصليبيين في أن تعتبر حامية للمسيحيين في الشرق ، ولكن القيصرية بدعوا يتقدمون منذ نمو سلطان روسيا بدعواهم الخاصة في هذا الصدد . فكان أن عزز الشعور الديني الصادق الخصومات القومية والمطامع السياسية ، وأثارت مسألة حيازة مفاتيح كنيسة بيت لحم ووضع نجمة في مغارة المذود المقدس أشد العواطف تأججا .

على أن العالم لم يكن من الجنون بحيث تسوقه الى الحرب هذه القضايا وحدها فلم يتسم الموقف بالخطورة الا عندما أوفد القيصر الأمير منشيكوف Prince Menschikov - الذي كان من أبرز الشخصيات في البلاط الروسي - الى القسطنطينية ليطالب الالبامتيازات حول هذه النقاط فحسب وانما بالاعتراف كذلك بما تزعمه روسيا لنفسها من حق اعتبارها حامية لمسيحيي شبه جزيرة البلقان . وقد لعب الدور الرئيسي في الجانب الآخر اللورد ستراتفورد دي ردكليف Lord Stratford de Redcliffe (أسبق كاننج هذا اللقب على ستراتفورد في ١٨٥٢) . كان ستراتفورد يكره روسيا ويخشها ، ورغم أنه

كان يرى مواطن ضعف تركيا بجلاء تام فقد كان مصمما على دعم سيادتها واستقلالها ولو أدى ذلك الى الحرب . ولم يتوان عن تحمل جانب كبير من المسؤولية بنفسه ، اذ كان الاتصال بلندن يحتاج الى وقت طويل لأن خطوط البرق لم تكن قد امتدت الى القسطنطينية بعد . لقد أقنع السلطان ببذل الترضيات للروس في مسألة «الأماكن المقدسة» التافهة نسبيا مع التمسك برفض الاعتراف بحماية روسيا لمسيحيي البلقان ، تلك الحماية التي كان من شأنها أن تؤدي حتما الى ضياع استقلال تركيا . فعادر منشيكوف القسطنطينية في مايو ١٨٥٣ احتجاجا على قرار السلطان ، وتلبد الجو على الفور بغيوم الحرب . ان الرأي القائل بأن الحروب تدور دائما من أجل مصالح اقتصادية لا يجد تعزيزا يذكر في أصول حرب القرم . ذلك أن المطامع والمخاوف والخصومات القومية هي الدوافع التي زجت الأمم في تلك الحرب التي لن تلبث الأيام أن تظهر مدى عنفها .

كان انسحاب منشيكوف من القسطنطينية خطوة خطيرة الشأن ، وكادت الحرب التي تجمعت نذرها في الأفق أن تقع فعلا عندما عبر جيش روسي في يوليو ١٨٥٣ نهر بروث واحتل مولدافيا وولاشيا . واذ كان لا يزال من المستطاع تصوير عمل روسيا بأنه عمل لا يبلغ مبلغ الحرب الفعلية على اعتبار أن لها في الولايتين حقوقا معينة تكفلها المعاهدات ، فقد بذلت الدبلوماسية محاولة أخيرة لتجنب نشوب القتال . كانت النمسا تتبع مجرى الأحداث باهتمام بالغ لأن الصراع كان قريبا من حدودها وفوق أراضي كانت لها فيها مطامع ان لم تقل مطالب . فدعت الى عقد مؤتمر في فيينا وصيغ فيه اعلان يهدف الى حماية المسيحيين في البلقان دون الاقرار بحق روسيا في التدخل . فبرز الأمل برهة من الزمن في امكان صيانة السلام . وقد رفضت تركيا قبول التصريح في شكله البسيط ، أما روسيا فقد قبلته ولكنها أولته تأويلا خطيرا . وما برحت العواطف تتأجج في البلدين حتى أعلنت تركيا الحرب

ضد روسيا في ٤ أكتوبر ١٨٥٣ . ومن الجائز أن اللورد ستراتفورد دى
ردكليف قد جاول عبثا وفي آخر لحظة منعها من الاقدام على تلك
الخطوة (١) .

فما هي الدول التي مستخوض غمار القتال ؟ لم تكن دواك أوروبا
تسمح بأن تدور الحرب ثنائية بين تركيا وروسيا وحدهما فان مصالحها
المشتبكة في الأمر كانت من الضخامة بحيث لا تسمح لها بذلك . وقد
راحت النمسا تمزق النزاع عن كثر ، وبدا المرة تلو المرة أنها توشك
أن تتدخل ولكنها لم تفعل ذلك قط . أما بروسيا فكانت حائرة، ولكن
خذلانها ابان فترة الثورات كان قد أفقدها ثقتها بنفسها . وقد رأى
بعض ساستها بما فيهم بسمارك الآخذ نجمه الآن في الصعود ، أن مثل
هذا الموقف الذي يشغل قوات روسيا واهتمام النمسا يتيح فرصة
القيام بدور حاسم هام ، ولكن مليكه أبني أن يتزحزح عن موقف
النفور من الدخول في أية مغامرة ، فلم يكن لبروسيا على ذلك أثر
محسوس في مجرى الحرب . بل جاء المتحاربون من جهات أبعد .
فسياسة انجلترا الخارجية التقليدية كانت تقوم على تأييد تركيا
والغيرة من روسيا معتقدة أن توسع سلطان الأخيرة في البحر المتوسط من
شأنه أن يهدد مصر والطريق الى الهند . وقد ساعد نفوذ بالمرستون
والصحافة الانجليزية على اذكاء حمى الحرب في نفوس الانجليز . أما
فرنسا التي كانت حينذاك في عهد الامبراطورية الجديدة ، فلم يكن
يلعب الرأي العام فيها مثل ذلك الدور الهام ، بل كان كل شيء متوقفا
على نابليون الثالث ، وكان هذا قد أعلن في كلمات لا تنسى أن

(١) يشهر مسلك ستراتفورد خلافا كبيرا . فقد شكوا أبردين من « عدم
أمانته » وأكد البعض انه كان يحث السلطان سرا على الدخول في الحرب .
في الوقت الذي كان يسعى فيه من الوجهة الرسمية الى ثنائيه عن ذلك .
ولسنا على يقين من وجود جميع أوراقه السرية ، ولكن تردده في طلب
الأسطول يساعد على تبرئة ساحته .

« الامبراطورية تعنى السلم » . على أن هناك عوامل قوية لم تلبث أن زجت به في غمار تلك الحرب ، ألا وهى حرصه على المحافظة على هيبة فرنسا في الشرق ، واعتماده على الحزب الكاثوليكي الكنسى في فرنسا وقبل هذا كله احساسه الفطرى بضرورة منح البلاد ما تتوقعه من سمي^١ نابليون - أى المجد والنصر . لقد اجتازت الأساطيل الفرنسية الانجليزية المشتركة الدردنيل في نهاية أكتوبر ١٨٥٣ اظهارا لتأييد الدولتين الأدبى لتركيا . وبينما كانت هذه الأساطيل على مقربة من القسطنطينية حدث أن هاجم أسطول روسى أسطولا تركيا فدمره بالقرب من سينوب Sinope ، فرأت الدولتان الغريبتان الكبيرتان في هذا العمل الطبيعى للغاية من أعمال الحرب ، اهانة لهما ، وسرعان ما جاءت الحرب الصريحة ، اذ أعلنتها فرنسا وبريطانيا على روسيا في مارس ١٨٥٤ . وقد سجل ظهور الجنود الانجليز والفرنسيين حلفاء ورفاقا في السلاح تحولا عظيما في السياسة الأوروبية (قيل على سبيل المبالغة انها المرة الأولى التى يحدث فيها ذلك منذ الحروب الصليبية) ويمكن القول بأن تلك كانت بداية « الاتفاق الودى » الذى توطدت أركانه في أوائل القرن العشرين .

كان الروس قد احتلوا ولايتى الدانوب (١) فعدا الهدف الأول للحلفاء هو اخراجهم منهما . وسرعان ما تحقق ذلك ، بل ان السرعة الفائقة التى تحقق بها هى السر في أنه لم يعتبر اذ ذاك نصرا عظيما وسببا وجيها بالتالى لانهاء الحرب . اذ كان الروس قد ضربوا الحصار على سيلستريا Silistria على أمل العبور منها الى البلقان وشن طريقهم الى القسطنطينية ، ولكن تحصينها كان أمنع مما كانوا يتوقعون ولما كان موقف النمسا منذرا بالخطر طوال بقاء روسيا على الدانوب،

(١) أى مقاطعتى مولداfia وولاشيا اللتين تقابلان - على وجه التقريب رومانيا بالصورة التى عرفت بها في ١٩١٣ ، وكان يحكم كلا منهما حاكم منتخب من الأهالى في ظل السيطرة التركية ، يلقب بالأمير او الهوسبودار =

فقد قرر الروس التخلي عن الحصار وانسحبوا كلية من الولايتين ، فأرسلت النمسا حامية للمحافظة عليهما ريثما يتم الصلح فتسلمان الى تركيا . ولولا أن الحرب كانت قد أثارت مشاعر عنيفة في النفوس لأتى السلم اذ ذاك ، ولكنه كان سيبدو نهاية خاملة لكل تلك الاستعدادات الهائلة . وقد تم الاتفاق بعد تبادل الرسائل مع النمسا على نقاط أربع يتلخص فيها برنامج الحرب ألا وهى :

١ - الغاء الحماية الروسية على الأقاليم الدانوبية .

٢ - حرية الملاحة في الدانوب .

٣ - اشراك تركيا اشراكا تاما في « التوازن الأوروبي » .

٤ - تخلى روسيا عن رعايتها المنفردة لمسيحيي البلقان .

لا بد اذن أن تستمر الحرب ولكن على أى مسرح ؟ لقد ثبت - كما حدث مرارا من قبل - أن اكتشاف موطن الضعف الحقيقى في أراضى تلك الدولة الشاسعة المفككة النظام هو أمر من الصعوبة بمكان . ورغم أن الكوليرا كانت قد ظهرت بالفعل في صفوف الحلفاء وأخذت تحصد الأرواح بصورة مروعة ، ورغم أن الجيوش الانجليزية والفرنسية لم تكن على استعداد كاف للاشتباك في معركة كبرى ، فقد قررت القيادة - تلبية لالاحاح الحكومات ب - شن الهجوم على قاعدة سياستبول البحرية على ظن أن المهمة ستكون سهلة ميسرة ، وذلك باستخدام قوة الحلفاء البحرية فيؤدى ذلك الى القضاء على السيطرة الروسية في البحر الأسود، وهو أحد الأهداف الصريحة التى كان الحلفاء يستهدفونها في الحرب .

وفي سبتمبر ١٨٥٤ هبطت قوات الحلفاء - وهم الأتراك والفرنسيون والانجليز - في أوباتوريا Eupatoria شمال سياستبول . فبدأ المارشال سان أرنو Marshal Saint Arnaud واللورد راجلان Lord Raglan

Hospodar= وقد احتلتهما روسيا عسكريا أكثر من مرة منذ بداية القرن التاسع عشر .

زحفهما صوب المدينة نفسها . وفى ٢٠ سبتمبر التقيا بالقائد الروسى منشيكوف الذى كان مرابطا على الضفة الشمالية لنهر ألما Alma وبعد قتال عنيف أظهر فيه « الزواف » الفرنسيون مضاء واندفاعا يقابل أساليب الانجليز الأكثر أناة وتدييرا ، تحققت هزيمة الروس الكاملة وبات الطريق مفتوحا الى سباستبول . ولعل الخطأ الذى ارتكبه الحلفاء فى تلك اللحظة كان أكبر أخطائهم العديدة ابان تلك الحملة ذلك أنهم لم يهاجموا المدينة على الفور مع أن القائد الروسى تودلين Tode Iben كان يرى أنه أعجز من أن يقاوم مثل هذا الهجوم ، ولا هم بذلوا أية محاولة لإقامة حصار على الضفة الشمالية للنهر الذى تقع عليه سباستبول ، بل شرعوا بدلا من ذلك فى حركة التفاف شاقة طويلة الى جنوب المدينة حيث أقاموا معسكرهم . فما كان من تودلين الا أن استغل بذكاء وبراعة المهلة التى أتاحوها له ليشيد فى عجلة استحكاماته التى أوقفت المحاصرين عند حدهم من سبتمبر ١٨٥٤ حتى سبتمبر ١٨٥٥ .

وقد تميز الحصار العظيم ببعض الخصائص الفريدة . فهو لم يكن قط حصارا بالمعنى المفهوم . اذ لم تبذل فيه أية محاولة جدية لقطع اتصالات المدينة بروسيا . فرغم أن الهجمات كانت تشن مزارا على المخازن والامدادات الا أن وصول الرجال والمؤن الى سباستبول من روسيا بعد رحلة طويلة شاقة لم ينقطع طوال فترة الحصار . وكان الأمير منشيكوف يربط على رأس جيش كبير فى المنطقة الجبلية شرقى المدينة ، فراح يهدد من هناك الجيوش المحاصرة تهديدا متصلا ويشن عليها الهجمات منزلا بها خسائر فادحة أحيانا . كانت خطة الحلفاء تقضى بالاستيلاء على سباستبول لا عن طريق تجويتها وانما بقصفها بالقنابل ثم شن الهجوم المباشر عليها . وكان تفوق الحلفاء البحرى هو الدعامة الاولى التى ارتكز عليها الحصار كله ، ولكن دور البحرية المباشر فى القتال كان ضئيلا ، فلم تستطع أساطيل الحلفاء أن تنزل

بالروس خسائر فادحة بمعنى الكلمة لا في بحر البلطيق ولا في البحر الأسود . وقد تم اغراق الأسطول الروسى فى مدخل ميناء سباستبول فباتت أساطيل الحلفاء عاجزة عن دخوله ، وكان مرمى مدفعتها أقصر من أن يصل الى المدينة من خارج المدخل ، فعمد الحلفاء الى ذلك استحكامات تودلين بمدفعتهم من الجنوب ثم هاجموا قلاع المتداعية وراح منشييكوف يرقب الموقف فى تلك الأثناء محاولا قطع الحصار من الخارج . كان السؤال البالغ الأهمية هو : هل يتمكن الحلفاء من شق طريقهم الى المدينة أم لا ؟

لم يكن ثمة شك فى تفوقهم العسكرى . فلما حاول منشييكوف فى ٢٢ أكتوبر قطع اتصالهم بقاعدتهم البحرية فى بلاكلافا *Balaclava* تمكنوا من صدّه ، وان سقطت فى يده طواب هامة وتعين عليهم اختيار طريق جديد يشيدونه بأنفسهم . ولما شن هجوما جديدا على الانجليز فى ٥ نوفمبر فى أنكرمان *Inkerman* تمكنوا بالاشتراك مع حلفائهم الفرنسيين من صدّه فى النهاية . ولما هاجم فى ١٦ أغسطس ١٨٥٥ الفرنسيين والسردينيين (سنشاهد بعد هنية ملابس دخولهم فى الحرب) رد على أعقابهم مرة أخرى بعد قتال عنيف . غير أن هذه الهجمات لم تضع هباء بحال من الأحوال ، فقد عرقلت الهجوم على المدينة بصورة جدية وأدت الى تأجيله أكثر من مرة .

وقد وقفت فى طريق الهجوم صعوبات شتى : فأولا لم يظهر فى صفوف الحلفاء أى قائد عظيم . فالقوات الانجليزية كان يقودها اللورد راجلان حتى وفاته فى يونيو ١٨٥٥ . وكان قد حارب فى ووترلو ولعله كان مسنا الى درجة لا تسمح له بمواجهة ظروف الحرب الجديدة . وقد خلفه الجنرال سمبسون الذى لم يكن يحظى بمثل سمعة سلفه الطيبة . أما الفرنسيون فكان يقودهم فى البداية سان أرنو الذى كان قد لعب دورا هاما فى الانقلاب فى بلاده ، ولما اختطفته الكوليرا فى سبتمبر ١٨٥٤ ، خلفه كانروبير *Canrobert* .

أولا ثم بليسييه Pélissier وقد زاد من مشاكل القيادة ما كان يظهر من حين لآخر من تباين في الأهداف بين الفرنسيين والانجليز ، على أن أحدا من قواد الحلفاء لم يظهر نبوغا أو ابتكارا . ولعل « تودلين » المهندس الروسى المنحدر من أصل ألماني هو القائد الوحيد من الجانبين الذى كسب لنفسه الإعجاب والتقدير . ثم انه كان على الحلفاء أن يحاربوا عدوين بدا في وقت من الأوقات أنهما أشد مراسا من الروس ألا وهما المرض والمناخ . فقد ظهرت الكوليرا في مراحل الحرب الأولى ، ورأى فيها البعض مبررا لمعارضة الذهاب الى القرم أصلا . وقد هاجم الوباء المعسكرات القائمة أمام سباستبول بضراوة مروعة ، ولم يكن أقل فتكا بالرجال في ثكنات القاعدة والمستشفيات . وتعد الطريقة التى راحت تهاجم بها فلورنس نايتنجيل Miss Florence Nightingale ذلك العدو الرهيب حتى قهرته ، تعد من فصول البطولة الفذة في التاريخ الانجليزى . لقد أنقص المرض عدد القوات المهاجمة الى حد خطير وأضعف الروح المعنوية في صفوف القوات التى لم يمسه . ثم جاء الشتاء - الشتاء الروسى - الذى لم تتخذ لمواجهة الاحتياطات . ان الحرب العظمى (الأولى) نفسها لا تقدم لنا فيما قدمت من صور التعاسة والشقاء صورا أبشع وأكثر اشاعة للانتفاض في النفس من صورة تلك الخنادق المتجمدة والمخيمات البائسة التى خيم عليها شبح الكوليرا فوق المرتفعات القائمة أمام سباستبول ، حتى لقد بدا في وقت من الأوقات أن استمرار الحصار سيغدو مستحيلا ازاء لعنتى البرد والكوليرا ، اذ هبط عدد الانجليز القادرين على القتال حتى وصل في وقت من الأوقات الى ١١٠٠٠٠ وقد كابد الروس أهوالا مماثلة ، بل ربما أهوالا أعظم وأكسبتهم شجاعتهم وقوة احتمالهم اعجاب أعدائهم اعجابا لا يشوبه حقد أو ضغينة .

سار الزحف على سباستبول وسقط كل هذه الصعاب سيرا أبطأ بكثير مما كان متوقعا في بداية الأمر . ولما أخفق قصف الحلفاء العنيف

المتواصل في الفترة ما بين ١٧ و ٣٠ أكتوبر ١٨٥٤ في زحزحة الروس عن مواقعهم ، أدرك الناس لأول مرة أن الجيوش « انما جاءت لتقضي ثمة فصل الشتاء » .

وقد نشطت الدبلوماسية ابان الشتاء ، وراحت تجاهد لاجتذاب حلفاء جدد في المعركة ضد روسيا . الا أن النمسا أبت الاستجابة لأى أغراء . وقد عقدت الدول العظمى مؤتمرا في فيينا استمر من مارس حتى مايو ١٨٥٥ . وكان القيصر الروسى يقولوا قد تم في أثناء الحصار فخلفه اسكندر الثانى . وقد أوفد هذا الأخير مندوبا عنه الى فيينا

وقبلت روسيا اتخاذ « النقاط الأربع » أساسا للمفاوضة ، فبدأ في لحظة من اللحظات أن السلام قد يأتى فعلا . ولكن الدبلوماسية نادرا ما تجدى في وقف القتال اذا ما بدأت الحرب ، قبل أن يتم تسديده ضربة حاسمة من هذا الجانب أو ذاك ، وهو قول ثبتت صحته هذه المرة أيضا . فلئن كانت النمسا قد رأت أن الترضيات التى أبدى الروس استعدادهم للتنازل عنها كافية ، ورفضت بالتالى الاشتراك في الحرب ، فإن فرنسا وبريطانيا وتركيا قد صممت على مواصلة القتال . وقد عثرت هذه الدول على حليف في جبهة لا تخطر على بال . كان كافور في ذلك الحين وزيرا لملكمة غربية الاسم ، هى « مملكة سردينيا » . ولم تكن للأراضى الإيطالية التى تشملها تلك المملكة أية مصلحة مباشرة في حرب القرم ، ولكن كافور كان يضع نصب عينيه هدفا أبعد . كان يثمنى أن يرى مليكه على رأس إيطاليا المتحدة . وقد رأى أن إرسال القوات السردينية الى القرم سيعزز مطالب سردينيا في أن تعتبر ضمن الدول العظمى ، ويكسبها حقا في تأييد فرنسا ، ويفسح لمثلها مكانا على مائدة مؤتمر الصلح . فكان أن بعث الى القرم ١٥٠٠٠ جندي ايطالى .

وما ان بدأ الشتاء يتجلى حتى عاد الهجوم على القلاع من جديد . وقد تحققت بعض المكاسب وان باء الهجوم المشترك الذى اختير له

موعد يوافق ذكرى معركة ووترلو (١٨ يونيو) بفشل ذريع كلف الحلفاء كثيرا . وقد أدت وفاة اللورد راجلان فضلا عن الهجوم الذى تعرضت له خطوط الحلفاء وأسفر عن موقعة سرنايا Cernaya ، الى تأجيل موعد الهجوم النهائى . وبعد قصف عنيف بدأ فى ٥ سبتمبر واستمر لمدة ثلاثة أيام (ما كان يسمى عنيفا لو أنه حدث ابان الحرب العظمى !) افتتح الهجوم فى ٨ سبتمبر . ومع أن الانجليز قد فشلوا فى هجومهم على قلعة ردان Redan ، إلا أن الفرنسيين (بقيادة ماكماهون) تمكنوا من الاستيلاء على قلعة ملاكوف ولم يعد من المستطاع طردهم من ذلك الموقع الذى يسيطر على المدينة . فخرج الجيش الروسى منها لينضم الى قوات منشيكوف . ودخل الحلفاء قاستولوا على القلاع والميناء وعدد كبير من المدافع والمستشفيات التى اكتظت بجموع بائسة من الجرحى والمرضى الروس الذين تعذر نقلهم فتركوا ليوажوا مصيرهم فى أشنع الظروف (٨ سبتمبر ١٨٥٥) . لم يكن فى سقوط سباستبول ما يستتبع بالضرورة انتهاء الحرب . فاستمرت بالفعل ردحا قصيرا من الزمن ، وتمكن الروس فى نهاية المطاف من احراز نصر ما باستيلائهم على قلعة قارص فى آسيا الصغرى من القوات التركية التى يقودها ضباط من الانجليز . إلا أن ما كابدهته روسيا من خسائر وارهاق مالى قد جعل الصلح أمرا مرغوبا فيه للغاية (١) . ولما كان القيصر الجديد خريصا على منح بلاده السلم فقد تم توجيه الدعوة بواسطة النمسا لعقد مؤتمر فى باريس .

لقد صمدت العلاقات بين بريطانيا العظمى وفرنسا لضغط الحرب على أفضل ما يرام . فلقد ظهرت حقا بعض الخلافات فى رأى حول

(١) من المفارقات الطريفة بين حرب القرم وحرب ١٩١٤ العظمى أن الحكومة الروسية استمرت طول حرب القرم فى دفع الفوائد لحملة سندات القرض الروسى من البريطانيين ، بينما حالت الحكومة البريطانية دون محاولة رغبة المجر دفع الفوائد لحملة السندات البريطانيين فى ١٩١٥ على أساس أن ذلك يعتبر « متاجرة مع العدو » .

سير العمليات ، كما وجهت بعض الانتقادات السياسية ولكن الامر لم يكن بذى بال . على أن الامبراطور الفرنسى قد بدأ يظهر فتورا في علاقاته مع انجلترا أثناء مؤتمر الصلح في باريس متجها بعطفه واعجابه الى الروس أعدائه السابقين . فان مزايا عقد تحالف روسى فرنسى قد بدأت تداعب تفكيره في تلك الآونة . وقد دام المؤتمر زهاء ثمانية أسابيع .

ولسوف نتناول بالنظر أولا - وان خرجنا بذلك عن الترتيب الزمني - بعض النقاط التى لاتعد ذات صلة مباشرة بالمسألة الشرقية . فأولا أعربت الدول العظمى المشتركة في المؤتمر - بناء على اقتراح من اللورد كلارندن Lord Clarendon عن رغبتها في أن تلجأ الدول «الى المساعى الحميدة لدولة صديقة عظمى» قبل اللجوء الى السلاح . فيالها من معالجة بالغة العقم والتردد لأعظم المشاكل الأوروبية جميعا ! على أن الخطوة جديرة بالتسجيل فعلا باعتبارها من المظاهر الدالة على أن مسألة التنظيم الدولى وحكمة اللجوء للتحكيم منعا لقيام الحرب كانتا قد بدأتا تستوققان أنظار أوروبا منذ ذلك التاريخ المبكر .

تلا ذلك اصدار « التصريح » الخطير الخاص بالقانون البحرى وتنظيم الحرب البحرية الذى وافقت فيه بريطانيا العظمى أخيرا على شروط ظلت تقاومها أمدا طويلا . وتعتبر النقاط التى تضمنها التصريح من النقاط القانونية الدقيقة . فقد ألغى نظام الترخيص للمراكب الفردية بمصادرة مراكب العدو Privateering وحظر الاستيلاء على البضائع المحايدة التى يحملها العدو . وقرر أن الحصار « لا بد أن يكون فعالا ليكون ملزما » ، فلم يعد من المستطاع تطبيق نظام الحصار العام من النوع الذى أعلنته بريطانيا ضد نابليون . كانت تلك المحاولة شريفة المقصد لتنظيم الحرب البحرية وصنفتها بالصيغة الانسانية ، غير أن « مهربات الحرب » اصطلاح أثبتت الأيام

مرونته ، وقد تعلم الناس من حربى ١٩١٤ و ١٩٣٩ الشك فى امكان اصفاء الصبغة الانسانية على شىء هو بحكم طبيعته مجرد من الانسانية .

كانت مهمة المؤتمر الحقيقية هى البت فى مستقبل تركيا والحد من تقدم روسيا (أى نفس الشىء ولكن من زاوية أخرى) . ولقد حقق المؤتمر الكثير بالفعل فى هذا المضمار ، وان لم يبلغ مجموع ما حققه مبلغ التسوية النهائية . فقد قرر حيدة البحر الأسود بحيث لا يسمح فيه بظهور سفينة حربية أو اقامة منشآت حربية أو بحرية . كما قرر اغلاق المضيقين فى وجه السفن الحربية الأجنبية ، وأكد المؤتمر استقلال تركيا وأنه ليس لأية دولة من الدول العظمى حق التدخل بين السلطان ورعاياه ، وضمن امتيازات مولدافيا وولاشيا والصرب ولكن تحت سيادة تركيا فى جميع الحالات ، وأحاط المؤتمر علما « بنوايا السلطان الكريمة تجاه رعاياه » دون تفرقة على أساس الدين أو العنصر ، كما قدرما للمقترحات التى ضمنها السلطان أخيرا من « قيمة كبرى » .

وهكذا تم انتهاء الحرب وانقاذ تركيا من الهلاك الذى كانت مهددة به بلا جدال . وبات من المنتظر أن تغدو من هذا التاريخ فصاعدا (ان أجدت الدبلوماسية والمعاهدات فى ذلك شيئا) بلدا متحدا مستقلا متسامحا تقدميا ، يلحق سراجا بركب الحياة الدستورية كما عرفها الغرب ويتخلى عن المذابح والفساد وينضم - على قدم المساواة الى سائر أعضاء الجماعة الدولية^(١) Comity of nations فلنلق الآن

(١) Comity of nations اصطلاح يقصد به أصلا مجموعة قواعد المجاملة الدولية ويستخدم كذلك فى الإشارة الى مجموعة الدول التى تطبق فيما بينها هذه القواعد لذلك آثرنا ترجمته هنا بعسارة «الجماعة الدولية» (المترجم)
(١ مكرر) - كان قبول تركيا فى «الجماعة الدولية» عملا جديدا لا نظير له

نظرة الى السنوات القليلة المقبلة لنرى نتائج هذه الخطط كلها .
لم تلبث الآمال التي عقلت على الاصلاحات التركية ان خابت
جميعا ، فالأتراك لم يكونوا يؤمنون بها ، وقد كانت جموع الشعب
تفتقر الى ضبط النفس ومراعاة الغير ، وهما الشيطان اللذان يتوقف
عليهما وحدهما نجاح النظم الحرة في التطبيق ، أما المساواة الدينية
فكانت ماسة بالأساس الذي قامت عليه الحياة الاسلامية منذ نشأتها (١) ،
وقد كان السماح للجميع بالدخول على قدم المساواة في الخدمة
العسكرية ضمن الاصلاحات الموعودة ، ولكن معظم الرعايا المسيحيين
كانوا ينفرون من الخدمة العسكرية ويؤثرون دفع البدل ، والأتراك

من قبل . وهو يرجع بوضوح الى رغبة كل من فرنسا وبريطانيا والنمسا في
تخليص تركيا من سيطرة روسيا الدينية او تدخلها (راجع الحاشية
(١) ص ٤٢٢) على أن الدول العظمى ككل قد رأت في الواقع ضرورة
اتخاذ تدابير مدروسة لحماية مصالحها داخل الامبراطورية التركية .

(١) المراجع : هذه العبارة تحتاج الى اوضح
فاولا : أن تقسيم المجتمع العثماني الى طوائف دينية أو « ملات » قصد
به تنظيم (وضع) كل طائفة بالتزاماتها وحقوقها ومن أهم هذه الحقوق ان
تقوم كل طائفة على تدبير شئونها بنفسها دون تدخل من السلطات
الحاكمة ، ولهذا فان الطوائف المسيحية كانت تتمتع - في ظل الحكم
العثماني - بقدر من الحرية اكبر مما كانت تتمتع به في ظل الحكم
البيزنطي .

ثانيا : وقد حفظ هذا اللون من الحكم للطوائف المسيحية كيائها القومي
والثقافي ، حتى كان ظهور الروح القومية في القرن التاسع عشر فوجدت
تلك الطوائف الدينية كيائها مصونا ، وعلى أساسه بنت حياتها القومية
المستقلة .

ثالثا : ترتب على ذلك اللون من الحكم أنه لم يكن ثمة مجال لنزاع
ديني يؤدي الى اضطهاد في الوقت الذي امتلأ فيه التاريخ الأوربي بأحداث
الاضطهاد الديني ، لا ضد المسلمين واليهود فقط ، بل ضد المخالفين
للنذهب « المسيحي » الرسمي للدولة ، حتى كان القرن التاسع عشر
وشرعت الدول الطامعة في الدولة العثمانية تثير بدسائسها نزعات
التعصب الطائفي ، ف وقعت المذابح والاضطهادات .

كانوا يرون أن الفوز بنقود هؤلاء أفضل من الفوز بخدماتهم (١) . بل لقد بلغت خيبة الأمل حدا دفع البعض الى التصريح بعد مضي بضع سنوات بأن الوعد بالاصلاح قد انتهى الى شيء واحد : هو خلق عدد من المناصب الجديدة لا أكثر ولا أقل . أما الاحتجاجات والشكاوى فلم تكن تسفر عن شيء سوى تأكيد المسؤولين لحسن نيتهم والوعد باجراء التحقيق اللازم . وفي ١٨٦١ ، اعتلى عبد العزيز العرش التركي ، فوعد باجراء اصلاحات كثيرة منها خفض المصروفات والقضاء على الفساد واكتفائه بزوجة واحدة . ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، فلم يلبث السلطان ان أنشأ لنفسه «حريما» قوامه ٩٠٠ زوجة (٢) بما يستتبعه ذلك من تضخم في مصروفات البلاط . ولقد قال اللورد ستراتفورد «ان تركيا لا يمكن أن تظل طافية على سطح الماء فاما أن تسبح أو تغرق » ولكن السلطان كان يرى فيما يبدو رأيا آخر .

وبينما كانت تركيا تطفو نحو الهاوية أخذت القوميات التابعة تنتفض انتفاضات أثارت المتاعب في كثير من الأحيان لأبنائها وجيرانها فضلا عن حكامها . كانت اليونان قد تمتعت حتى تلك الآونة بما يربو على عشرين عاما من « الحرية » ، ولكنها خيبت الكثير من الآمال التي علقت عليها . وثمة عوامل عديدة كانت تقف ضدها . فرقعنتها كانت صغيرة ، وحدودها كانت تعرضها لشتى الأخطار ، وماضيها ووضعها كممثلة لجميع من يلقبون أنفسهم باليونانيين كانا يجتذبانها نحو مطاعم خطيرة . وقد كرس مليكها « أوتو » Otto نفسه للعمل في اخلاص بالغ من أجل خير البلاد ، ولكنه أخفق في اكتساب تأييد الأمة وولائها . اذ كان الرأي العام اليوناني أميل الى

(١) أعيد في ١٨٦٩ قصر التجنيد صراحة - في الامبراطورية التركية على المسلمين دون غيرهم .
(٢) كذا ! لعل المؤلفين يقصدان «جارية» (المراجع)

الروس منه الى الحلفاء ابان حرب القرم ، فجلب « أوتو » على نفسه كراهية الشعب لرفضه الاشتراك في مغامرة طائشة لاعلان التمرد في الأراضي التركية . وفي ١٨٦٢ نشبت ضده ثورة في البلاد ، ورغم أنه تمكن من قمع تحركاتها الأولى فقد ألغى نفسه مضطرا للتنازل عن العرش . وقد خلفه الملك جورج الذى كان ينحدر من أصل دانييركى . ورغم أن بريطانيا قد أتاحته له ، بنزولها لليونان عن الجزائر الأيونية Ionian Islands فرصا أفضل للنجاح فان مهمته بدت شائكة للغاية . فالجيوش كانت فى حالة عصيان تقريبا ، وحياة البلاد السياسية كانت أبعد ما تكون عن الاستقرار ، ومشاعر الشعب كانت تثيرها أبلغ اثارة أنباء المقاومة المستعرة ضد السلطان فى مختلف أنحاء ممتلكاته ، والى هذه ينتقل بنا البحث .

أحرز سكان الأقاليم الشمالية الغربية - الصرب والجبل الأسود - تقدما محسوسا نحو الاستقلال . فقد ضمنت معاهدة باريس حق الصرب فى الحكم الذاتى تحت سيادة تركيا . وقد ظلت هناك بضع حاميات تركية - فى قلاع بلغراد وغيرها من البلدان - يعيش فى حمايتها عدد من الأتراك . ولكن الصربيين باتوا مصممين على زيادة الحريات التى كسبوها . وكان معظمهم من الفلاحين الأشداء الذين يتعيشون أساسا من تربية الخنازير وبيعها ، ويؤلفون خامة عسكرية جيدة تستطيع الاتيان بشتى أعمال البطولة والجساسة . على أن فعاليتهم كانت تضعفها المنازعات المحلية العنيفة وتحفزهم لمتابعة المشاجرات العائلية بروح الثأر والانتقام ، والتنافس القائم على رئاسة الدولة بين عائلتى أوبرينوفيتش وقره جورجيفتش اللذين ذكرنا طرفا من سيرتهما من قبل . كان اسكندر قره جورجيفتش يحكم الصرب فى زمن حرب القرم ، وقد ظهر للكثيرين من أبناء شعبه بمظهر من ضيع باحجامه الفرصة التى أتاحتها الظروف للإقدام ، كما تعرض لمتاعب جمة

مع شعبه فى أمر ادخال بعض أشكال الحرية الدستورية -
وفى ١٨٥٩ استعصت عليه مواجهة الموقف فتنازل عن العرش
وطالب « السكوبشتينا » The Skupshtina - وهو الاسم الذى
كان يطلق على برلمان الصرب العاصف - برجوع ميلوس أوبرينوفيتش
وكان قد مضى على طرده من العرش عشرون عاما . ورغم أن عودته قد
نمت بموافقة تركيا فقد أظهر استقلاله عنها بإعلانه وراثية حكمه على
غير مشيئة السلطان ، فخلفه عند موته فى ١٨٦٠ ابنه ميخائيل . ولقد
اعتلى عرش الصرب ملوك أوفر من هذا الأخير بطولة وأكثر
رومانطيقية ، ولكن أحدا منهم لم يفقه فيما أحرز من نجاح . فقد نظم
الحكومة والجيش وأضفى على الصرب مظهر الدولة الأوروبية
المتدينة . وبذلت فى عهده جهود ضخمة من أجل تعليم الصربيين وتنمية
ثقافتهم ، فظهرت اللغة من الشوائب وجمعت الأساطير بعناية لتصبح
مبعث فخر للشعب ومصدر الهام للشعور الوطنى . ولكن الأهم من
هذا كله - من حيث أغراض هذا الكتاب - أن نلاحظ ما أحرزه
شعبه ، بتحقيق جلاء الحاميات التركية ، من تقدم عظيم فى طريق
الاستقلال ، فقد بلغ السيل الزبى بوقوع عدد من حوادث قتل الأفراد
الصربيين على يد الجنود الأتراك وقصف الأتراك المرابطين بقلعة بلغراد
للمدينة ، فنال ميخائيل تأييد الدول الكبرى ، مما أدى فى النهاية
الى انسحاب جميع القوات التركية فلم يبق لسلطة تركيا فى الصرب من
أثر سوى رفع العلم التركى بجوار العلم الصربى فوق أسوار بلغراد .
وقد وضح أن الصرب لن تلبث أن تقدم على خطوة جديدة قبل مضى
زمن طويل ، ورأى بعض الديبلوماسيين أن هذه الخطوة ستكون
الاندماج فى النمسا أو روسيا ، ولكن الصربيين أنفسهم لم يكونوا فى
مزاج يسمح لهم باستبدال سيد بآخر .

أما امارة الجبل الأسود فكان يسكنها شعب وثيق القرابة بالصربيين .

عنصرا ولغة . وقد حافظت هذه الولاية الجبلية الصغيرة على استقلالها عن تركيا دائما ، وان لم يعترف الأتراك قط بهذا الاستقلال كحق لها . وقد حاول الأتراك في ١٨٥٨ فرض دعاواهم على أهالي الجبل الأسود بالقوة ولكن هؤلاء هزموهم وسط الجبال . وأنزلوا بهم خسائر فادحة في معركة جراهوفو Grahovo التي تستحق أن تدرج في صف واحد مع معركة ماراثون Marathon ومورجارتن Morgarten باعتبارها عملا من أعظم أعمال البطولة التي قام بها رجال يدافعون عن حريتهم ضد الغزاة . ولكن الخطر التركي ظل ماثلا ، فكان ميخائيل يسعى الى تحقيق اتحاد أوثق بين الصرب والجبل الأسود عندما اغتيل في ١٨٦٨ . ولقد كان ميخائيل رجلا على قسط وافر من المقدرة والطموح ، وكانت مشروعاته تمتد الى ما وراء الجبل الأسود والصرب وترمى الى تشكيل شكل من أشكال جامعة بلقانية ضد تركيا . فعقد لهذا الغرض معاهدة سرية مع ممثلي البلغاريين الذين كانوا من رعايا تركيا المغلوبين على أمرهم ، وأقام علاقات دبلوماسية وثيقة مع كل من رومانيا واليونان ، وهذه كلها وقائع ثابتة يمكن القطع بصحتها . بالإضافة الى ما يستطيع المرء أن يتوصل اليه بطريق الاستدلال ، الا أن وفاة ميخائيل قد انتهت بهذه المشروعات البعيدة المدى الى لا شيء .

ظل سلطان تركيا ينحصر في الصرب والجبل الأسود ، شأنه في كل مكان ، تارة ببطء وأخرى بسرعة حتى مجيء الحرب العظمى الأولى . أما في ولايتي الدانوب (ملدافيا وولاشيا) فكان الحكم التركي أضعف منه في الصرب والجبل الأسود نفسيهما ، وقد أصيب فيهما بخيبة مماثلة . اذ نقلت معاهدة باريس الحماية المفروضة على كل منهما - مع الابرار المتعمد لضير المثنى - من تركيا الى الدول العظمى مجتمعة : وكان الدبلوماسيون يرمون بذلك الى الفصل بين الولايتين بحيث تظلان ضعيفتين ، والى منعهما من تحدى سيادة تركيا . ولكن الشعور

القومى لدى هذا الشعب الرومانى الغربى كان قويا رغم تكوينه المتباين وانقسامه الاجتماعى الظاهر، فالبون كان شاسعا بين المدن والريف ، والرومانيون الأصليون كانوا يختلفون اختلافا بينا عن الأقلية اليهودية الضخمة ، ولكن الجميع كانوا يتحدثون باللاتينية التى يعد احتفاظهم بها عبر العصور الوسطى أمرا بالغ الغرابة . وقد كانوا جميعا فخوريين بحضارتهم اللاتينية يعتبرون أنفسهم ممثلى الثقافة الغربية وسط الهمجية السلافية ويسيطرون قدر المستطاع على منوال باريس فى أفكارهم الاجتماعية والسياسية . ولقد قررت معاهدة باريس العمل على انشاء دولتين منفصلتين لكل منهما دستورهما الخاص ، ورفض السلطان السماح للولايتين بالاتحاد تحت اسم رومانيا ، فكان أقصى ما استطاعتا انحصلوا عليه هو اطلاق اسم « الولايتين المتحدتين » عليهما وتشكيل لجنة مشتركة لتنظيم الشؤون التى تعنيهما معا . ولكن الرومانيين استطاعوا التحايل على تحقيق مطلبهم رغم أنف تركيا وأوروبا . اذ كان شلى كل ولاية أن تختار رئيسها أو « هسبودارها » ، فاختارت الولايتان رجلا واحدا هو نبيل مولدا فى اتخذ لنفسه لقب « اسكندر الأول أمير رومانيا » وأعلن قيام الأمة الرومانية وتوحيد البرلمانين . ونظرا لانشغال أوروبا بمسائل أخرى فى تلك اللحظة ثم قبول الأمر الواقع ، وغدت بوخارست عاصمة رومانيا المتحدة : وقد أثبت الحاكم الجديد أنه من أعظم حكام البلقان . فقد راح يتابع الأحداث فى الغرب ولاسيما فى فرنسا ، عن كثب ، ويرسم سياسته - فيما هو واضح - على غرار سياسة نابليون الثالث ، بل ان طريقته فى تنفيذها تحمل أيضا بعض الشبه « بالانقلاب » الذى دبره الأخير فى فرنسا . وقد اقترنت باسمه ثلاثة تدابير كبرى : أولها أنه لاحظ أن الأديرة تملك نسبة ضخمة من أراضى رومانيا ، فعمد بسلسلة من الاجراءات الى تحويل هذه الأراضى كلها تقريبا الى أغراض مدنية ، ومنح رومانيا فى الوقت نفسه قدرا كبيرا من الاستقلال الدينى . وثانيها اجراءاته الخاصة بحياسة الأراضى ،

وقد قوبلت اقتراحاته الأولى في هذا الصدد بمقاومة من البرلمان ، فما كان منه الا أن طرد الأعضاء بالقوة وطلب من الشعب أن يختار في استفتاء عام بينه وبين البرلمان فأيدته في الاستفتاء أغلبية تثير لضخامتها الشبهات هي ٦٨٢,٠٠٠ صوتا ضد ١,٠٠٠ فقط فعمد الى تمليك الأراضي للفلاحين على نطاق واسع ، كما حررهم في الوقت نفسه من الأعباء « الاقطاعية » التي ظلوا يدفعونها حتى تلك الآونة . فكان العمل الذي حققه أشبه بما حققته الثورة الفرنسية ولكن دون أرامة دماء ، أما ثالث هذه التدابير الكبرى ، وآخرها فهو إصداره لقانون التعليم المجاني الإلزامي ، وما زالت رومانيا الحديثة تستند حتى يومنا هذا الى الأساس الذي وضعه .

ولكن المدن لم تستسغ ما بدا لها من استئثار الريف بجل اهتمامه ، وحنقت عليه طبقة الأشراف أشد الحنق لقضائه على امتيازاتها ، وراح رجال الدين ينظرون الى معالجته المستبدة للمسائل الكنسية نظرتهم اني انتهاك صارخ للحرمات المقدسة . فكان أن دبرت ضده ثورة — في البلقان تصنع الثورات بسهولة لا يكاد يوجد لها نظير في أى مكان آخر — انتهت بتنازله عن العرش عندما ألقى قواته قد تخلت عنه . وقد جده المتآمرون في البحث عن أمير أجنبي ، فوجدوا بغيتهم في شخص الأمير شارل هوهنزولرن سيجمارينجن Prince Charles of Hohenzollern Sigmaringen الذي كان ينتمى الى أسرة ملك بروسيا وان جمعته صلات القربى بنابليون الثالث كذلك وحظى بتأييده (١) . وقد قبل ، استجابة لنصيحة بسمارك ، العرش المعروض عليه . وأذيع أن ٦٨٥,٠٠٠ صوتوا له في الاستفتاء مقابل ٢٢٤ ضده . لقد كان وجود هوهنزولرن على عرش رومانيا أمرا هاما ابان حرب

(١) خلع اسكندر الاول (كوزا Cuza) في فبراير ١٨٦٦ واختير شارل في مايو .

١٨٦٦ ، وقد يليق بنا أن نشير هنا الى أن شقيقه ليوبولد هو الذى لعب دورا بارزا جدا فى الأحداث التى أدت الى الحرب الفرنسية-انبروسية عام ١٨٧٠ . ولا حاجة بنا لأن تتابع أحداث البلقان بأكثر مما فعلنا ، وحسبنا أن نقول انه لم يعد ثمة احتمال كبير فى أن تعود تركيا الى احتلال مركزها السابق كالدولة المعترف لها بالسيادة الفعلية على شبه جزيرة البلقان . اذ أن أقاليم البلقان قد أخذت تنفصل عن الحكم التركى اقليما بعد آخر ، ولم تلبث عدوى الانفصال أن انتقلت من شبه الجزيرة الى سائر العناصر والأقاليم فى خارجها .

الفصل السادس عشر بعث إيطاليا وتحقق الوحدة الإيطالية

لهم يلبث قول نابليون الثالث ان الامبراطورية تعني السلم أن تعرض لامتحان جديد . وفي هذه المرة أيضا تعد آراء الامبراطور ومصالحة الشخصية مسئولة الى حد بعيد عن نشوب الأعمال الحربية التي ساقط جيوش فرنسا ثانية الى تلك الساحة الشهيرة من ساحات القتال ألا وهي شمال إيطاليا . وهذه الحرب الجديدة تختلف من عدة أوجه اختلافاً بيننا عن حرب القرم ، فقد حسمتها معركتان هامتان ، ولم تسبب نزاعاً طويلاً كذلك الذي سببته حرب الخنادق الطويلة حول سيباستوبول وهي فوق هذا كله أول حرب تدور بصراحة حول مبدأ القومية الذي أصبح الطابع الجديد المميز للمشكلات الدولية في القرن التاسع عشر . فالقومية هي الكلمة التي باتت توقد الحماسة في النفوس والتي تعلق بها العصر تعلقاً كاد يصل الى حد الخرافة . وهي تعد من ناحية استمراراً وتكملة للعملية التي كانت تسرى منذ عصر الإصلاح الديني ، فقد تراجعت كافة المؤسسات التي تمثلت فيها الوحدة الانسانية الى المؤخرة أو سقطت (زالت الامبراطورية وفقدت الكنيسة نفوذها السياسي القديم) وغدت الدولة هي الوحدة التنظيمية التي لها كل الأهمية ، ولم تعد تعترف بأية سيادة تعلو سيادتها أو تقر بأي حد لسلطانها . على أنه بازدياد أهمية الدولة وسلطانها تجلت أهمية النظر في الأساس الذي يرتكز عليه هذا السلطان . كانت الحركة الدستورية التي تزعمتها انجلترا قد بلغت من العمر ما يربو على مائتي عام وأحرزت انتصارات كبرى . فقد انتشرت الدعوة الى تحقيق الوحدة بين الدولة والشعب وقيام مشاركة ايجابية بين الحكومة والأهالي ، ونالت هذه

الدعوة الاعتراف والتأييد في أحوال كثيرة . فنشأت عن ذلك قضية جديدة : ماهى الصفات التى ينبغى توفرها فى الشعب كى يؤلف دولة؟ وهل تعد أية مجموعة من الأفراد مهياة لحياة الدولة ؟ لقد صحا الناس على وعى واحساس جديد بمعنى القومية. وتجلى هذا الوعى والاحساس الجديد أقوى ماتجلى لا بين تلك الأمم التى فازت من قبل بقدر موفور من الاستقلال القومى والوحدة مثل الفرنسيين أو الانجليز أو الأسبان، وانما بين تلك الأمم التى لم تظفر بعد بدولة قومية والتى ألفت نفسها نتيجة للتطور التاريخى ، مختلطة بأمم أو قوميات أخرى فى نفس الدولة .

أثبت الشعور القومى قوته فى شبه جزيرة البلقان على غموضه البادى فى كثير من الحالات . وبلغ هذا الشعور مبلغ العاطفة الدينية لدى أعداد هائلة من البولنديين . وكان له شأن كبير فى اخفاق الوحدة بين هولندة وبلجيكا . على أن البلدين اللذين أسفر فيهما هذا الشعور عن أبرز النتائج السياسية والعسكرية هما ألمانيا وإيطاليا . كانت ألمانيا قد جزئت ثم جزئت أجزاءها مرارا منذ العصور الوسطى . ولم يكن تكوينها الغامض الذى يضم التشيكيين وبعض البولنديين وعناصر أخرى غير ألمانية بالذى يرضى الرغبة القومية فى الوحدة . أما إيطاليا فكانت حالتها أسوأ من ذلك وأدهى . اذ كانت قد فازت بقدر موفور من الوحدة القومية فى ظل نابليون فلم تنس تلك التجربة ، ولكنها أصبحت توصم اعتبارا من ١٨١٥ بأنها مجرد « اصطلاح جغرافى » وآلت السيطرة عليها من جديد الى الأباطرة النمساويين . ولقد شاهدنا كيف انتهت الى الفشل - أو الفشل الظاهرى على الأقل - المحاولات التى بذلتها فى ١٨٤٨ ، ولكن هذا الفشل لم يؤد الى اخماد الاحساس القومى بل لعله قد عززه وأحياه . كانت هناك حقا فروق ضخمة بين سكان شبه الجزيرة من حيث العنصر والطباع، فثمة يون شاسع من اللغة والتطور التاريخى بين اللومباردى والصقلى .

الا أن القومية - الأمر الذى أصبح واضحا لنا الآن - هى مسألة شعور أكثر منها مسألة حقيقة موضوعية . وهنا يجدر بنا أن نشير الى عظمة شعوب ايطاليا . السالفة والى الذكريات الباهتة لأيام الامبراطورية الرومانية وأشعار دانتى وفنون عصر النهضة وعلومه بوصفها جميعا من الأشياء التى ساعدت على بقاء الشعور بأن الايطاليين انما يؤلفون شعبا عظيما واحدا ، فكل مامن شأنه اثاره كبرياء الايطاليين الوطنى قد ساهم فى تعزيز رغبتهم فى أن تكون لهم دولتهم الخاصة بهم . ولكن تأثير مازينى يفوق فى أهميته كل تأثير آخر على العقل الايطالى . فالدعوة الى القومية الايطالية لم تكن عنده وعند أتباعه مسألة تابعة من التحليل والمنطق وانما من الايمان الدافق الذى يكاد يبلغ مبلغ العقيدة الدينية . ولقد كان قيام ايطاليا المتحدة الحرة الديمقراطية الجمهورية هو الهدف الأوحى الذى طغى على كل ماعداه فى نفسه والمثل الأعلى الذى ما برح ينادى طوال حياته بضرورة السعى اليه بكل الوسائل ومهما كان الثمن . وقد تمسك بكل نقطة من نقاط برنامج هذا ، فلم يكن ارساء دعائم الديمقراطية فى ايطاليا واقامة الجمهورية فى ربوعها بأقل أهمية فى نظره من تحقيق وحدتها وحريتها . ولم يكن يستطيع أن يروض نفسه على قبول هبة الوحدة والحرية من يد الامبراطور أو ملك سردينيا . ولا يفوتنا أن نضيف الى ذلك أنه قد استطاع أن يمتد ببصره الى ما وراء القومية ، ليحلم بانتظام أمم أوروبا الحرة طواعية واختيارا فى رباط أعظم هدفه التعاون السلمى . وقد بدت أحلامه هذه بل أية أحلام أخرى غايتها قيام الوحدة الايطالية ، أبعد ما تكون عن التحقيق فى منتصف القرن . فقد عادت النمسا لتحكم من جديد بعناد وحماسة بل وفى كثير من الأحوال بقسوة مبعثها الخوف . ولم يقتصر حكمها على أملاكها الخاصة فى سهل لومبارديا ، فدوقيات الوسط باتت خاضعة هى الأخرى لنفوذها ، والبابا أنشأ يتطلع الآن اليها بحثا عن العطف الصادق بدلا من فرنساء

أما ملك نابولي فقد أظهر من قبل مدى اعتماده على فيينا . وإذا كان استرضاء النمسا للأهالي الخاضعين لها أمرا عسيرا على كل حال فانها لم نبذل أية محاولة جدية في هذا السبيل . وقد حدث أن أنيط الاشراف على لومبارديا في ١٨٥٧ الى « مكسميليان » ، شقيق الامبراطور فرنسيس جوزيف الأصغر ، الذي سيلعب دورا مفاجعا للغاية في المكسيك فيما بعد . وكان مكسميليان يعطف عطفًا حقيقيا على الأفكار المتحررة ، فقام بمحاولة صادقة لاصلاح الادارة ، ولكن فيينا لم تلبث أن تبرأت من أعماله وشدت النكير ماليا وعسكريا على البنادقة وأهالي ميلانو أكثر من ذي قبل .

ولقد ولدت من مملكة سردينيا ايطاليا الحرة المتحدة . نشأت هذه المملكة الغريبة الاسم في جبال سافوى ، أما قوتها الحقيقية فكانت تكمن في الوديان العليا لنهر ألبو وفي بيدمونت . ولم تكن مملكة ايطاليا خالصة ، وقد انتهجت في الماضي سياسة ضيقة الأفق قوامها الحرص على مصلحة بيتها المالك دون غيرها . ولم يكن في تاريخها أو تاريخ بيتها المالك حتى مجيء ثورات ١٨٤٨ ثمة ما يرشحها لتكون حاملة لواء الحرية والوحدة الايطالية ، ولكنها أرست دعائم عظمتها المقبلة بانضمامها في ١٨٤٨ الى ميلانو في مقاومة النمسا ، وقبل كل شيء بمنحها شعبها دستورا تحرريا بمعنى الكلمة . ولما تولى فكتور عمانويل عرشها بعد شارل ألبرت بذلت المحاولات الضخمة لإغرائه بسحب الدستور وحكم الولاية حكما مستبدا ، فأجاب عليها بقوله « لسوف أرفع العلم المثلث الألوان عاليا وبيد ثابتة » . والى هذا التصميم يرجع الفضل في فوزه بعرش ايطاليا المتحدة . فقد اختار أن يقف في صف ايطاليا وفي صف الحرية ونأى بنفسه عن كل صلة بالنمسا وأهدافها ، فنال جزاءه الحق .

وسيلظل اسمه دائما مقترنا أوثق الاقتران باسم كافور الذي بدأ « وزارته الكبرى » عام ١٨٥٢ . كان الكونت كافور ابنا لنبييل

بيدمونتى شديد الولاء للمبادئ الاستبدادية . وكان أبوه يعده لخدمة الجيش إلا أنه اعتنق منذ باكورة شبابه آراء تحررية متقدمة ، وهجر الجيش . وقد سافر كثيرا ودرس الحياة السياسية فى كل من فرنسا وانجلترا بعناية خاصة . وقامر وخسر جانبا كبيرا من ميراثه على موائد اللعب . وبدأ فى وقت من الأوقات أنه يوشك أن يتخلى تماما عن فكرة الاشتغال بالسياسة ليتفرغ لزراعة ضياع أبيه ، إلا أن العمل السياسى لم يلبث أن ناداه من جديد فلبى النداء . وقد أظهر أثناء عضويته فى البرلمان السردينى معرفة واسعة بشئون أوروبا السياسية واستبشارا عظيما بمستقبل بيدمونت وإيطاليا . وراح يعلن أن رسالة دولة سردينيا هى « أن تجمع حولها كل القوى الحية فى إيطاليا وتقود وطننا الى المصير السامى الذى ينتظره » وطق يشير فى استحسان الى ما أقدم عليه ساسة انجلترا من ترضيات لمطالب شعبهم ، داعيا الى اتباع سياسة الثقة فى الشعب بوصفها آمن سياسة . وكانت بعض التدابير قد اتخذت فى بيدمونت قبل صعوده الى الحكم للحد من الامتيازات القانونية والمالية للكنيسة . فلما أصبح رئيسا للوزراء فى ١٨٥٢ بعد أن تولى منصبا ثانويا فى ١٨٥٠ كان حل الأديرة من أول التدابير التى اتخذها . وقد فاز لنفسه بصيت ذائع بوصفه من دعاة التحرر بالمعنى الذى كانت تستخدم به هذه الكلمة فى ذلك الحين ، وقد كان صادقا حقا فى ميوله التحررية ، إلا أنه كرس نفسه لقضية القومية الإيطالية قبل غيرها . وكانت غايته هى نفس غاية مازينى بل نفس غاية أغلب عظماء الإيطاليين منذ أمد طويل ، ألا وهو قيام إيطاليا الحرة المتحدة . ولكن السمة التى كانت تنفرد بها سياسته هى الواقعية^(١) وإدراك الصعوبات العملية التى تنطوى عليها المشكلة .

(١) كانت الواقعية هى الطابع الغالب على سياسة كافور كلها . وقد سمان يعطف أشد العطف على الآراء الانجليزية فى الشئون المالية والإدارية

فهو لم يكن يؤمن بأن إيطاليا تستطيع بلوغ هدفها بمفردها أو بالحماسة وحدها ، فراح يبحث عن الحلفاء مستخدما في ذلك كافة أساليب الديبلوماسية الحاذقة التي لا يقف في طريقها وازع . وقد جلب على نفسه بأساليبه التي كان ميالا لاستخدامها عداوة مازيني الشديدة فلم يكن مازيني يعترف له حتى بصفة الأمانة وكان يحلو له أن يسميه «المحرر المستورز الذي يرشد سيده الى السبيل لمنع وحدة إيطاليا» . ثم ان مازيني لم يكن يؤمن حتى بجدوى خططه من الوجهة العملية ، ولو فرض أنها كانت مجدية فانه كان أميل الى استنكارها بوصفها استبدالا للمادية بالمثالية والدين ، وللخيانة بالديموقراطية ، وهبوطا بالحركة كلها الى مستوى أدنى ، ولم يجد النجاح فتىلا حين واتاه ، لقد كان مازيني يحلم بدنيا جديدة فلم يقدم له كافور سوى الدنيا القديمة ذاتها في شكل جديد .

وقد هيأت حرب القرم الفرصة لكافور ليضرب ضربة من ضرباته لديبلوماسية الموفقة . لم يكن لايطاليا حقا أية مصلحة في النزاع القائم بين روسيا والحلفاء ، ولكن أعداء روسيا كانوا في مسيس الحاجة الى العون والتأييد ، فاذا دخلت سردينيا الحرب الى جانبهم ظهرت بمظهر الدولة الأوروبية الهامة وأصبح لها حق الجلوس في المؤتمر الذي يتولى وضع شروط الصلح وربما إعادة رسم خريطة أوروبا كلها . وعلى ذلك توجه الجنود السردينيون الى القرم ، وحاربوا بنجاح مرموق في معركة سرنايا Gernaya مثبتين بذلك أن الهزيمة التي منى بها الايطاليون في معركة نوفارا لم يكن مردها الى عجز في طبيعتهم عن القتال . وقد قال أحد العسكريين البيدمونتيين

بالصورة التي طبقت عليها في عهد السير روبرت بيل Sir Robert Peel وينبغي ألا نسمح للشهرة الدائنة التي نالتها سياسته الخارجية بأن تنسينا برنامجنا للإصلاح الداخلي بما تضمنه من تحسينات كبرى في النواحي المالية والإدارية .

يومذاك « ان ايطاليا سوف تصنع من هذا الطين » (طين خنادق سياستبول) . وهذه الكلمات تعبر أفصح تعبير عن هدف كافور الأساسى . وقد أتاح مؤتمر باريس لكافور بالفعل الفرصة التى كان يتمناها للمجاهرة بشكاوى ايطاليا . وقد نال تأييدا حارا من كلارندون وزير الخارجية الإنجليزية ، واستمع المؤتمر لبيان رسمى عن سوء الحكم فى ايطاليا جنوبا وشمالا، وعن الأخطار الدولية الناشئة عن ذلك . وهكذا أصبحت سردينيا جزءا معترفاف به من نسيج أوروبا الديبلوماسية . ولقد كانت المهمة التى كرس لها كافور حياته ووقف عليها دهاءه هى إعادة تشكيل ذلك النسيج بحيث تدخله ايطاليا الحرة المتحدة .

ولم يكن كافور يعتد كثيرا بعبارة *Italia farà da sè* (ان ايطاليا ستتولى أمرها بنفسها) التى تباهى بها البعض فى فترة سابقة ، اذ كان له فى الأمر رأى قاطع هو أن ايطاليا اذ تتولى الأمر بنفسها لن تتمكن من بلوغ الهدف المنشود ، فجعل شغله الشاغل كسب محالفة فرنسا لايطاليا فى كفاحها . وكان نابليون الثالث قد عرف فى شبابه طرفا من الحركة الثورية فى ايطاليا . وقد اجتذبه الى صف كافور عطفه الصادق على مبدأ القومية الذى ما برح يدعوه له فى اخلاص . ولكن الأمر اقتضى كل دهاء كافور وحنكته لتحويل هذا العطف المبهم الى عمل محدود والحيولة دون تراجع نابليون عندما تجلت أخطار المهمة .

وفى يناير ١٨٥٨ وقع اعتداء القيت فيه القنابل على نابليون والامبراطورة بينما كانا فى طريقهما الى دار الأوبرا . وقد نجوا من الحادث ولكنه أسفر عن قتل واصابة كثيرين . واعتقل على أثره عدد من الايطاليين ومالبث التحقيق أن كشف أن اليد الأولى فى المؤامرة لايطالى يدعى أورسينى . ورغم أن هذا كان على ضلة وثيقة بمازىنى فى يوم من الأيام فقد تعذر اثبات عطف مازىنى على محاولة الاغتيال . وقد أعلن أورسينى أنه انما أقدم على فعلته لاعتقاده أن نابليون قد خان قضية

إيطاليا ، وكتب من سجنه رسالتين الى الامبراطور يناشده فيهما العمل على تحرير إيطاليا ، وكانت صيحته الأخيرة من فوق خشبة المقصلة « لتجيا إيطاليا ! » . وبدلا من أن تؤدي تلك الأحداث الى إبعاد نابليون عن قضية إيطاليا نراها قد أدت - على ما في ذلك من غرابة بادية - الى زيادة قربها منها ، وما لبث أن اتخذ في يونيو ١٨٥٨ الخطوة التي تعد حاسمة بمعنى الكلمة .

كان نابليون ميالا الى ابقاء دفعة الشؤون الخارجية في يديه والتصرف في بعض الأحيان دون علم وزرائه المسؤولين . فبعث برسالة الى كافور عن طريق مصدر من مصادره الخاصة يبلغه فيها أنه يزمع قضاء الصيف في بلومبيير Plombières وأنه يسره أن يراه هناك . فأدرك كافور لتوه ما يكمن وراء هذه الدعوة البسيطة المظهر من أمور جلية ، وكتب الى أحد أصدقائه يقول « ان الدراما تقترب من ذروتها » . وتم اجتماعه بالامبراطور يومي ٢١ و ٢٢ يوليو حيث أجريا محادثات طويلة في قصر نابليون أولا ثم في نزهة طويلة حول المدينة قاد فيها نابليون العربة بنفسه . كانت الحرب هي هدف المتآمرين . (فقد كانا في الحقيقة متآمرين مهما يكن من مثالية أهدافهما) . وقد وعدت فرنسا بتأييد سردينيا في حرب ضد النمسا على شرط أن يتولى كافور إيجاد الذريعة التي تبرر مسلك فرنسا في نظر أوروبا ، وفي هذه الحرب يتم طرد النمساويين من شبه الجزيرة الإيطالية ، فيؤلف الشمال مملكة إيطالية برئاسة فكتور عمانويل ، ثم ترتبط البلاد كلها بعد ذلك برباط اتحادى يرأسه البابا . كان كافور يعلم حق العلم أنه لن يتمكن من بلوغ هذه النتيجة دون سيف فرنسا ونابليون . فماذا عساه أن يكون الثمن ؟ لا مرأى في أن نابليون سيرحب بخدمة قضية يؤمن بها إيمانا صادقا ، وفي أنه سيفوز بمكانة عظيمة تدعم عرشه وذلك أمر له أهميته البالغة . ولكن هل تراه يكتفى بذلك ؟ لقد طلب أيضا جزءا ماديا هو التنازل لفرنسا عن سافوى ونيس (سافوى مهد

البيت المالك والدولة السردينية ، ونيس مستقط رأس غاريبالدى !)
وموافقة فكتور عمانويل على تزويج ابنته البالغة من العمر ستة عشر
ربعا الى ابن عمه الأمير نابليون . ولن يلبث المستقبل أن يثبت مدى
ما فى اصراره على هذه الشروط أو أى شروط أخرى من مجافاة
للحكمة والسداد . فلربما كان بوسعها أن يتحاشى كارثة ١٨٧٠ لو لم
يسىء الى مشاعر الايطاليين الذين ساهم مساهمة كبرى فى تحقيق
حريتهم . ولكن علينا أن نذكر أنه كان مضطرا لتبرير مسلكه أمام
الفرنسيين لا أمام الايطاليين وحدهم .

لقد فاز كافور اذن بالوعد الذى كان يصبو اليه بدخول فرنسا
الحرب الى جانبه ، وبقي عليه أن يشعل تلك الحرب على نحو تبدو
معه كأنها عمل عدوانى من جانب النمسا ، وقد توفرت لديه مرارا أثناء
سعيه لتحقيق تلك الغاية أسباب للشكوى من الامبراطور شريكه فى
المؤامرة ، ذلك أن القصور كان يعقب ثوبات الحماسة دائما عند
نابليون . وقد سارت الأمور على ما يرام حتى نهاية ١٨٥٨ فقد وقعت
فى ديسمبر من تلك السنة معاهدة سرية بين فرنسا وسردينيا سميت
حلفا دفاعيا ، وتقرر فيها أن تقدم فرنسا لحليفها فى حالة الحرب
٢٠٠٠٠ رجل وأن تعمل على اجلاء النمسا عن ايطاليا . فأحس
كافور بالثقة والطمأنينة ، وكتب يقول : « لقد وضعنا النمسا فى مأزق
لن تستطيع الاقلاص منه دون اطلاق المدافع » . وعم الانفعال شمال
ايطاليا ، وراح الناس يهتفون لفكتور عمانويل ومملكة ايطاليا
وينادون « فلتحيا الحرب ! » .

ورغم هذا فقد مرت خلال الشهور التالية لخطوات بدا فيها أن
فرصة الحرب تكاد أن تفلت من يد كافور . فمخ أن نابليون قد صرح
للسفير النمساوى فى عيد رأس السنة أنه يأسف لأن « علاقاته
بالامبراطورية النمساوية لم تعد طيبة كسابق عهدها » ومع أن كتيبا
صدر بموافقته بعنوان « نابليون وايطاليا » ينادى من جديد بمبدأ

القومية مشيرا الى انطباقه على المانيا وايطاليا جميعا ، فان الحماسة للحرب لم تظهر في فرنسا اللهم الا في صفوف الجيش نفسه ، بينما راحت بريطانيا - وروسيا الى حد أقل - تدعو الى تسوية المشكلة الايطالية بواسطة مؤتمر أوروبى . ولما كان عقد مثل هذا المؤتمر من « الافكار » التى نادى بها نابليون من قبل فقد تعذر عليه أن يرفض النظر فى أمره ، ولم تستقر ارادته على حال مما حدا بكافور الى اليأس . وبدأ فى لحظة من اللحظات أن السلم بات محققا ، فقال كافور « لم يعد أمامى الا اطلاق الرصاص على نفسى » . ثم وقع فى تلك الآونة حادث مازال يحيط بأسبابه الكثير من الغموض . ولعل النمسا كانت قد سئمت التسويات الطويلة ، ولعلها قد تلتقت من آيات الولاء من أنحاء مختلفة من ممتلكاتها ماشجعها على سلوك المسلك الذى سلكته ، ومهما يكن من أمر فقد وجهت انذارا نهائيا الى تورين تطالبها بنزع سلاحها « فى غضون ثلاثة أيام » ، وأرسلت فى ١٩ أبريل ١٨٥٩ قواتها الى بيدمونت . ولا نكاد نجد مغامرا عسكريا أو حاكما مستبدا رحب بنشوب حرب بمثل الحماسة التى أبدىها يومذاك كافور الذى كان مدنيا وسياسيا برلمانيا يستند سلطانه كله الى التأييد الشعبى والنظام الديموقراطى . لقد صاح قائلا « ان الزهر قد ألقى والتاريخ قد صنع » . ورغم أن الامبراطور النمساوى أعلن أنه انما يحارب من أجل « حقوق كافة الشعوب والدول ومن أجل أقدس النعم التى وهبتها البشرية » فقد ساد الشعور بأنه هو الذى خرق السلم . وسرعان ما نادى برلمان بيدمونت بفكتور عمانويل دكتاتورا على البلاد وبدأت الحرب .

وقد أثارت الحرب الايطالية اهتمام معظم الدول العظمى فى أوروبا . وكثر الحديث عن التدخل ، وراح الناس يتساءلون فى قلق عن الموقف الذى تزمع اتخاذه كل من بريطانيا وروسيا . ولكن الموقف الذى كان أجدر بالتساؤل فى الحقيقة هو موقف المانيا وبروسيا . فالنمسا كانت

تعد ، رغم تعدد أجناس سكانها ، دولة المانية أولا وقبل كل شيء ، وكانت تقف على رأس الاتحاد الألماني فلم يكن متوقعا من بروسيا رغم شكاواها من النمسا أن ترى هزيمة جيوشها على يد القوات الفرنسية والايطالية دون أن تحرك ساكنا ، وعلى هذا وضع الجيشان الاتحادي والبروسي على أهبة الاستعداد للحرب ، ولم تتمكن الدبلوماسية النمساوية بادية الأمر من اغرائها بالمضى الى أبعد من هذا الحد ولكن احتمال التدخل الألماني أو البروسي ظل ماثلا على أية حال أمام نابليون الثالث وكان له أكبر الأثر على تصرفاته .

ومهما يكن من أمر فقد تعين على الجيوش النمساوية أن تتحمل عبء هجوم الأعداء وحدها ودون حلفاء . وقد أظهر العسكريون النمساويون شجاعة حميدة ، وفاز أحد القواد وهو الجنرال « بنيدك » Benedek بسبعة طيبة لحسن ادارته لدفة القتال . الا أن جيشه كان يتألف من خليط من أبناء قوميات مختلفة لا تشعر بأن لها مصلحة في القضية التي يدور من أجلها القتال ، والمناصب العليا فيه كانت مقصورة على النبلاء . ومع أن الجيوش الفرنسية قد تأخرت في دخول ايطاليا عما كان متوقعا فان الموقف هناك كان في صالح القضية الوطنية الى أبعد حد . فقد عمت الهبات التلقائية شمال ايطاليا . فثار الأهالي في أراضى مودينا ، وطردت بارما حاكمها . كما قامت حركات بالغة الأهمية في توسكانا وعاصمتها فلورنسة ، ذلك أن بيت لورين Lorraine الذي خلف آل ميدتشي the Medici في القرن الثامن عشر لم يكن قد ضرب لنفسه جذورا عميقة في الأرض ، فعقدت فلورنسة اجتماعات شعبية كبرى تردد فيها الهتاف « للحرب والاستقلال وفكتور عمانويل » ، وناشد الأهالي ملك سردينيا أن يقبل تنصيبه ديكتاتورا عسكريا على توسكانا ، ومع هذا كله فأننا نستطيع أن نرى في هذا الموقف أول بادرة من بوادر تلك الصعاب التي قضت فيما بعد على شعبية نابليون الثالث لدى الايطاليين . ولعلمهم

قد أساءوا فهمه ، ولكنهم بدأوا يظنون الظنون على أية حال فيه حماسته لاندماج توسكانيا في مملكة سردينيا ، وأخذت الشكوك تساورهم في أنه يبيت لتلك البلاد نوايا أخرى ، ويحلم برؤية الأمير جيروم وقد ارتقى عرش الدوقية على نحو ما . وقد امتدت الحماسة للقضية الوطنية جنوبا حالما أحرزت القوات المتحالفة انتصاراتها الأولى : فطردت القوات البابوية من رومانا Romagna . والمفوضيات the Legations وترددت هتافات الأهالي للوحدة مع إيطاليا . ولفكتور عمانوئيل . ولئن كان الأمل قد تبدد في انضمام نيبوس التاسع للقضية الوطنية فقد بذلت المحاولات لاجتذاب نابولي - أو « الصقليتين » اذا شئنا أن نسميها باسمها الصحيح - الى تلك القضية . اذ كان فرديناند الثاني قد توفي لتوه فسعى الوطنيون الى كسب ابنه فرنسيس الثاني ، على أن جهودهم ذهبت أدراج الرياح ، فقد أصر الملك الشاب الذي كان متزوجا بشقيقة امبراطورة النمسا على التمسك بسياسة أبيه رغم ما أبداه بعض الوزراء والأهالي من عطف على القضية .

ورغم أن نابليون الثالث قد استشار جوميني Jomini الذي كان من قواد نابليون الأول في أمر الخطة التي يتبعها في القتال فانه لم يكن قد استقر على رأى نهائى عند وصوله الى الميدان ، ولم تنم قيادته للحملة عن أية موهبة بارزة . وقد أظهر النمساويون ترددا لا يقل عن تردده ، وتباطأت قواتهم في دخول المعركة ، وكان قائدهم الأعلى هو الكونت جيلاي Count Gyulai الذى يدين - فيما يعتقد - بترقيته الى هذا المنصب متخطيا من هم أقدر منه لصلاته بالبلاط . أما في الجانب الإيطالي فقد تركزت الأبصار على « صيادى الألب » قبل سواهم ، وهم جماعة رائعة من المحاربين غير النظاميين ضمت أكثر الوطنيين حماسة في إيطاليا ، ويقودهم غاريبالدى الذى أضحى الرأى العام يعتبره ملحمة نابضة من ملاحم الوطنية وأسطورة

حية من أساطير الجسارة والاقدام . على أن نابليون لم يكن يضمر له حبا ، ولعله كان يوسعه أن ينتفع من مواهبه العظيمة على نحو أكمل مما فعل . وقد أبدى غاريبالدى عندما أخذت القوات المتحالفة تتقدم فى أراضى ميلانو ، نشاطا طيبا فى الميسرة وسط سفوح الألب ، ولكن عبء القتال الأكبر وقع على كاهل الفرنسيين ، ومن الواضح - دون اقلال من شأن شجاعة الجيش الايطالى واخلاصه الفائقين - ان القضية الوطنية كانت ستصادف متاعب جمة لولا مؤازرة الجيوش الفرنسية لها . ولعل الحكمة كانت تقتضى من النمساويين أن يتبعوا رأى القائل بوجوب اتخاذ موقف الدفاع وراء حصون « الرباعى » الشهير ، ولكنهم آثروا الدفاع عن أراضى دوقية ميلانو ، فكان أن اشتبكوا مع أعدائهم فى معركتين كبيرتين تقرر قيتهما مصير الحرب . ففى ٤ يونيو دارت معركة ماجنتا Magenta وبعد قتال عنيف وقع عبؤه على عاتق الفرنسيين وحدهم تقريبا هزم النمساويون ولكنهم لم يتفرقوا بل عمدوا الى التقهقر صوب « الرباعى » . على أن الغلبة صارت من جديد للرأى المنادى بالاقدام ، فالتحم الفريقان مرة أخرى فى ٢٤ يونيو فى معركة أضخم من ماجنتا عند سولفرينو Solferino المتاخمة جنوبا لبحيرة جاردا كان النزال دمويا مهلكا . وقد أحرز الفرنسيون والايطاليون نصرا كاملا فى الوسط والميمينه ، وصمد النمساويون فى ميمنتهم بقيادة بنيدىك فى شجاعة واصرار فلم ينسحبوا الا عندما تأكدت خسارة المعركة فى جبهات الميدان الأخرى . وبلغت خسائر الجانبين عدة آلاف ، وزادت الأنباء الواردة عن عجز الأجهزة الطبية عن مواجهة الموقف من بشاعة الصورة التى ارثست فى الأذهان عن المعركة وكانت سببا فى ظهور فكرة الصليب الأحمر .

واذا كانت النمسا قد منيت فى سولفرينو بهزيمة فادحة جدا فان الضربة التى تلقتها لم تكن تعد من الشدة بحيث تحسم القتال كله .

ومع ذلك فان القتال قد توقف بالفعل عند هذا الحد نتيجة لمسلك نابليون الثالث . فما هي دوافعه ؟

كانت الحرب نصرا عظيما له . وعام ١٨٦٠ قد شاهد ذروة قوته وسمعته في أوروبا . فقد وصفه الكثيرون بالبراعة الدبلوماسية الخارقة ، وخيل اليهم أنه سوف يبنى لنفسه سلطانا في أوروبا لا يقل عن سلطان نابليون الأول . فهو قد تمكن في حرب القرم من صد سلطان روسيا وتثبيت أقدام تركيا من جديد ، وها هو ذا يسحق النمسا ويدعو إيطاليا الحرة الى الخروج الى حيز الوجود . وقد استقبل عند دخوله ميلانو بعد معركة ماجنتا بآيات التمجيد ومظاهر الترحيب التي لم يحظ بمثلها الا فاتحون قلائل . فلقبته الجماهير المتحمسة « محررنا ومخلصنا وراعينا » ونشرت نساء ميلانو الزهور في طريقه . وقد ضاعفت كلماته من تلك الحماسة . اذ قال انه لن يفعل شيئا « لفرض مشيئته على شعب إيطاليا » وأهاب بالايطاليين أن « اغتنموا الفرصة السعيدة السانحة أمامكم ، فان حلمكم بالاستقلال يوشك أن يتحقق اذا برهنتم على جدارتكم به ، فلتتحدوا في مجهود عظيم واحد لتحرير بلادكم » .

وقد استنشق نابليون البخور الذي أحرق له بغبطة لا خفاء فيها . على أن حماسة الايطاليين لم تلبث أن تبدلت شكسا وسرعان ما انقلب امتنانهم نفورا . ولقد كان نابليون دائما مغامرا حالما تعوزه القدرة على تمييز الممكن من غير الممكن ، تلك القدرة التي تعد من ألزم لوازم السياسى المحنك . فكان خياله يصور له مشاهد رائعة وانتصارات مجيدة وان لم يرشده قط الى الطريق السوى لتحقيقها . ونحن نراه طوال حياته يقدم ثم يحجم تحدوه الرغبة في بلوغ الهدف ويثنيه الخوف من الوسيلة التي لا مفر لبلوغه من اللجوء اليها . وقد توفرت لديه وسط أمجاد الحملة الايطالية أسباب كثيرة للقلق . اذ كان للمجد ثمن لا بد أن يدفعه . وقد تركت المجزرة التي شاهدها

ساحة القتال في سولفرينو انطباعا عميقا في مخيلته . ثم انه قد تبين أن قياد الإيطاليين ليس بالسهولة التي كان يتصورها . فقد انهارت كل الخطط التي رسمها لمستقبل توسكانا ازاء اصرار التوسكانيين على أن يكونوا سادة مصيرهم ، وهو لم يكن فوق هذا كله جنديا قديرا رغم الاسم الذي يحمله ، وانما كانت ملكاته تكمن في اتجاه آخر : في قدرته على تكوين ائتلافات دبلوماسية غير متوقعة ، وفي قوة تأثيره على مخائل الرجال . لقد كانت لديه اذن أسباب وجيهة للرغبة في انهاء الحرب ، ولكن خوفه من العاصفة التي توشك أن تهب عليه من المانيا كان سببا أقوى من كل ما تقدم . فرغم أن بروسيا كانت على خصومة مريرة مع النمسا ، فانها لم تكن لتستطيع أن تنظر بعين الرضا الى اذلال دولة المانية على يد فرنسا وايطاليا . وكان جيشها قد وضع من قبل على أهبة الاستعداد للحرب ، فسارعت الآن الى تعبئة جميع قواتها والمطالبة بمنحها قيادة الجيش الألماني ، ودعت بريطانيا وروسيا للانضمام اليها في عرض الوساطة على المتحاربين . فبدا جليا أن الجيوش الفرنسية قد تلزم قبل مضي وقت طويل لحماية حدود الراين .

وعلى هذا وطد نابليون العزم على انهاء الحرب ، وراح يتصرف في سعيه الى تحقيق تلك الغاية - كعادته - تصرفا أقرب الى تصرف المتآمر منه الى تصرف رجل الدولة . فبينما كان الجميع يتوقعون تجدد القتال ، أوفد نابليون الجنرال فليرى Fleury في بعثة خاصة الى مقر قيادة الامبراطور النمساوى فرنسيس جوزيف ليقتراح عليه عقد هدنة تمهيدا للصلح . فأبدى العاهل النمساوي استعدادا طيبا لتلقى عروضه . ذلك أن الخسائر التي تكبدها جيشه كانت فادحة ولكن هذه لم تكن السبب الوحيد . فالمجر كانت تنذر بالثورة والحاجة تدعو الى توفير القوات اللازمة لقمعها . ثم ان احتمال تدخل بروسيا لم يكن ملائما بالمرّة للدبلوماسية النمساوية لما سيصحبه حتما

من تنازلات لبروسنيا في المانيا لم يكن فرنسيس جوزيف راغباً في القيام بها بحال . وعلى هذا اجتمع الامبراطور النمساوى بنابليون في فيلافراانكا Villafranca وسرعان ما وضعت مقدمات الصلح (١) . وقد تم الاتفاق على تسليم لومبارديا الى نابليون ليتولى تسليمها بدوره الى فكتور عمانويل ، وعلى تأييد فرنسا والنمسا بعد ذلك لقيام اتحاد ايطالى برئاسة البابا الاسمية ، واستمرار تبعية البندقية للنمسا مع اشتراكها في الاتحاد الايطالى وعودة حكام مودينا وبارما وتوسكانا الى مناصبهم ، وحث البابا على ادخال الاصلاحات فى الاراضى التابعة له ، وعقد اجتماع يضم ممثلى جميع الدول المعنية لاقرار هذه المقترحات وتطويرها .

ونحن نعلم أن تلك الخاتمة كانت بداية لاستقلال ايطاليا ووحدتها وأن البناء لم يلبث أن اكتمل بسرعة فائقة . ولكن الأمر بدا فى نظر الكثيرين من الايطاليين اذ ذاك وكافور قبل سواء ، خيانة لقضيتهم وقضاء على آمالهم وانكارا لحريتهم ووحدتهم المنشودتين . وغلب اليأس على كافور فقال « لن يأتى هذا السلم بشئ . ولسوف ألقب متآمرا ثوريا ولا تنفذ هذه المعاهدة » . واستقال من رئاسة الوزارة بعد مشهد عاصف مع مليكه . ولكن سرعان ما لاح له الأمل من جديد ، اذ وقعت فى وسط ايطاليا أحداث مذهشة .

فلم يكن الأهالى فى توسكانيا ومودينا وبارما ورومانا على استعداد لتسليمهم للامبراطورين بتسليمهم الى حكاهم القدماء من جديد . وقد كان بينهم نفر من القادة الوطنيين الذين أبلوا بلاء حسنا فى خدمة القضية وان طغت شهرة كافور وغاريمالدى ومازىنى على شهرتهم . فقد رفع فارينى Farini صديق كافور الحميم ، راية القومية عاليا

(١) وقعت الهدنة فى ٨ يوليو واعقبها توقيع مقدمات الصلح فى فيلافراانكا فى ١١ يوليو دون استشارة سردينيا

ع مودنيا وبارما . ولعرب ريكانزولى Ricasoli في توسكانا دورا
أهم وأبرز . فكان أن أصدرت الجمعية النيابية في فلورنسة بيانا
باجماع الأصوات أعلنت فيه « رغبة توسكانيا في أن تصبح جزءا من
دولة ايطالية قوية تحت الحكم الدستوري لفيكتور عمانويل »
(أغسطس ١٨٥٩) . فأبدى فيكتور عمانويل عطفه على هذه الرغبة
وأشاد « بالمثل الرائع » الذي ضربته توسكانيا في « الاعتدال والوحدة »
قائلا انه سيعرض مطالبها في المؤتمر القادم . وبفلس القوة طالبت بارما
ومودينا وبولونا بالاتحاد مع مملكة فيكتور عمانويل ، فلم يسعه في
البداية الا الاعراب عن عطفه ليس الا ، وقد أحبطت معارضة نابليون
الاقتراح الداعي الى تعيين أمير من بيت سافوى وصيا على أراضى
ايطاليا الوسطى .

ومالبت الأيام أن أكدت صعوبة تحقيق المشروعات التى تضمنتها
مقدمات الصلح الموقعة في فيلا فرانكا . فلقد اجتمع ممثلو فرنسا
والنمسا وسردينيا في زيورخ ، وألحقت لومبارديا بسردينيا ، ولكن
البابا لم يبد أقل استعداد للقيام بالدور المرسوم له في تشكيل الاتحاد
الايطالى ، واستمرت القلاقل في ولايات ايطاليا الوسطى تنذر بالخطر ،
فاتجهت النية الى احالة تسوية هذه المسائل الى مؤتمر آخر يعقد في
باريس ويضم الموقعين على صلح فيينا . ولكن هذا المؤتمر لم ينعقد
قط . فقد رفض البابا الاشتراك فيه بأى حال من الأحوال بعد أن
صدر في فرنسا بموافقة الامبراطور كتيب يعلن وجوب انقاص أراضيه
الى أقل حد ممكن ، وأبدت النمسا معارضة لا تقل عن معارضته ، فلم
يعد ثمة مفر من التخلي عن فكرة عقد المؤتمر .

ولم يبق كافور خارج الحكم طويلا . اذ عاد الى رئاسة الوزارة في
يناير ١٨٦٠ وقد مارس حتى من قبل عودته نفوذا كبيرا على مجريات
الأمور . وقد راح يسعى الى تسوية مسألة ايطاليا الوسطى عن طريق
المفاوضة السرية مع نابليون مباشرة . ونحن نذكر أن نابليون كان قد

طالب بادىء الأمر بسافوى ونيس ثمنا لتحالفه مع سردينيا ، ولكنه لم يعمد الى المطالبة بسداد هذا الثمن لأنه لم يف بنصيبه من الصفقة . فاذا آلت الآن دوقيات الوسط الى فيكتور عمانويل حق له أن يفعل ذلك . ورغم أن النزول عن سافوى ونيس يعد ضربة مروعة لمشاعر الإيطاليين فقد استقر رأى كافور على ضرورة اتمامه ، وتم الاتفاق على اتباع طريقة نابليون المفضلة وذلك بإجراء استفتاءات فى كل من إيطاليا وفرنسا ، وقد فازت الوحدة مع مملكة فيكتور عمانويل بأغلبية هائلة فى توسكانيا وبما يشبه الاجماع فى سائر الجهات . ورغم أن اسم المملكة الرسمية كان لا يزال « سردينيا » فقد باتت تعرف باسم « إيطاليا » وأظهرت تصميمها على اثبات جدارتها بهذا الاسم . ثم جاء دور التصويت فى سافوى ونيس . ففاز مبدأ الانضمام الى فرنسا فوزا كاملا الى حد يبعث على الريبة ، اذ أعلنت سافوى بأغلبية ١٣٠٥٣٨ صوتا ضد ٢٣٥ فقط ، ونيس بأغلبية ٢٤٤٨ر ٢٤٠ ضد ١٦٠ فقط ، رغبتهما فى الانضمام للامبراطورية الفرنسية ، فبدا انتصار نابليون فى تلك اللحظة أعظم من انتصار كافور . ولكنه فقد فى الواقع امتنان الإيطاليين الذين باتوا يشعرون أنه تقاضى الثمن ، وياله من ثمن جزاء الخدمات التى أداها . وقد اتسم تنفيذ حركة اندماج أقاليم إيطاليا الوسطى فى إيطاليا المتحدة (اذ من الجلى أن سردينيا لم تكن سوى خطوة أولى نحو تكوين إيطاليا) بالهدوء وضبط النفس والوقار رغم الحماسة الدافقة البادية فى كل مكان . فبدا أن الطبع السياسى للجمهورية الرومانية القديمة قد عاد للظهور فى إيطاليا الجديدة التى أنشأها فيكتور عمانويل وكافور .

لقد فازت هذه السلسلة العجيبة من الأحداث لإيطاليا المتحدة بقاعدة راسخة فى شمال شبه الجزيرة ووسطها ، ولكن هذه القاعدة لم تكن تمثل الا ما يزيد قليلا على نصف شبه الجزيرة كلها ، وبقي أن تضم كل من البندقية وروما ومملكة نابولى الى أراضى إيطاليا الحرة

حتى يتم تحقيق حلم الوحدة القومية المنشودة ، كان البابا بيوس التاسع قد تخطى عن كل أثر من آثار ميوله التحررية السابقة ، وبات يطلق الآن على الاتجاهات التحررية والقومية والديمقراطية كلمة « الثورة » ، ويعتبرها خطرا على الكاثوليكية لا يعدله الاخطر الاسلام في العصور الوسطى ، ولكن أهالي الولايات البابوية كانوا متبرمين ، وقد أبدى جانب كبير منهم عطفهم على الآراء التي انتصرت في الشمال . أما في نابولي فقد ارتقى العرش فرنسيس الثاني كما ذكرنا من قبل في ١٨٥٩ ، ولم يكن طاغية قاسيا مجردا من كل عطف على الآراء الجديدة ، ولكنه ورث مهمة تستعصى في أغلب الظن على أى حاكم مهما تكن مقدرته . ومن العسير علينا بصفة خاصة أن نتفهم ظروف مملكة نابولي وصقلية ، فثمة فوارق كبرى في الطباع بين الأهالي هناك وأقرانهم في شمال أوروبا . فجمهرة الشعب في الجنوب كانوا من الأميين غير المتعلمين الذين لم يبدوا الا أقل الاهتمام بالثورة السياسية التي تجتاح البلاد . وسلطان الكنيسة على النفوس كان عظيما جدا ، فكان الأهالي متعلقين برسومها وعقائدها تعلقا صادقا وان لم يصدر عن وعى والجمعيات السرية - ولا سيما جمعية كامورا Camorra الشهيرة - كانت مصدر خطر دائم يعرقل إقامة مجتمع يحترم القانون . وكان أحد وزراء الملك الرئيسيين على اتصال وثيق بتلك الجمعية ، فجاء انحيازه الى صف الغزاة عاملا حاسما في الصراع . على أن ثمة قطاعا من السكان كان لا يقل في حماسه للحرية الإيطالية عن سكان لومبارديا وتوسكانيا ومهما يكن من أمر فإن تفسير الصقليين للحرية والوحدة ظل ردحا من الزمن أمرا بعيدا عن الوضوح كل البعد . فلم يكن مؤكدا بحال أنهم سيرضون بضياح استقلال نابولي وصقلية واندماجهما في مملكة سردينيا ، حتى لو اتخذت الأخيرة لنفسها اسم إيطاليا ، فقد كان ثمة حزب قوى يرغب في قيام شكل من أشكال الاستقلال الذاتي . وقد أصبح التأمر والتبرد سمتين ثابتتين من سمات الموقف في تلك

المملكة الجنوبية ، وقد شجعهما ايما تشجيع نجاح انوطنيين في الشمال . وكان الملك فرنسيس مدركا للخطر المحقق به ، فراح يفكر في امكان اجراء اصلاحات ترضى المشاعر القومية لشعبه . ولكن غاريبالدى سبق بالهبوط في ارض صقلية قبل أن يتخذ فرنسيس أية خطوة جدية في هذا السبيل . وبهبوطه بدأت أعظم وأنجح مغامرة شاهدها أوروبا في القرن التاسع عشر . ويتعين علينا لكى نجد شبيها لها أن نعود انقهقرى الى مغامرات روبرت جيزسكار Robert Guiscard النورماندى في نفس البقعة تقريبا أو الى حملة كورتيز على المكسيك في مطلع القرن السادس عشر . انها تعد حقا قصة مذهلة من قصص البطولة والتأمر . وقد استحوذ غاريبالدى على أنظار أوروبا كلها وما زال يستأثر باهتمام كل من يقرأ تاريخ تلك الفترة . فان الشجاعة والبراعة اللتين أظهرهما في قيادته لقواته غير النظامية ، وحماسه النبيلة لقضية إيطاليا ، وبساطة طبعه وسمو خلقه ، كل هذه قد انطبعت على أجداث تلك السنوات بنفس الوضوح الذى انطبع به قصوره السياسى وجهله بالكثير من القوى التى كانت تهيمن على العالم الأوروبى في ذلك الزمان . وكان على صلة ضعيفة بمازىنى الذى رأى في هذه الحركات الجنوبية فرصة لإقامة إيطاليا الحرة المتحدة على أساس مختلف عن ذلك الأساس الملكى الدستورى الذى انتصر في الشمال . فقد كان مازينى يأمل في رؤية « الله والشعب » ترتفع في مواجهة راية إيطاليا وفيكتور عمانويل ، ويحلم بانشاء نظام جمهورى أو على الأقل بداية لذلك النظام في الجنوب . ولما تحقق النصر للوحدة الإيطالية جاءت في صورة بعيدة كل البعد عن تلك التى كان ينشدها مازينى ، حتى أنه أعلن أن عينه « لن تفر بعد اليوم في إيطاليا » ، فقد قتلت تلك البلاد روحى بازدرائها لكل المثل العليا . ولقد اجتذب سيف غاريبالدى المصقول أنظار الناس جميعا ، فلم يكذب أحد يذكر في تلك الآونة الأهمية البالغة لمسلك كافور وحكومة مملكة سردينيا (كان

هذا لا يزال اسمها الرسمي) . على أن انضمام نابولي وصقلية جاء ثمرة لجهود كافور مثلما جاء ثمرة لجهود غاريبالدى . فقد علم كافور بأمره قبل وقوعه ، وذكر لغاريبالدى أنه « عندما يكون الأمر أمر مشروعات من هذا القبيل فإن أحدا لن يسبق الكونت كافور إليها مهما تكن جسارتها » . ولم يكن غاريبالدى يرتاح قط الى العمل مع كافور ، بل كان يبغضه ويرتاب فيه كل الريبة ، ولكن ضرورة الحصول على تأييده قد تجلت في كل فصل من فصول الرواية المجيدة . وقد منحه كافور هذا التأييد بشجاعة ودون أن يشعر في ذلك بأى حرج . فلم يعرف عن الديبلوماسية أنها استخدمت الألفاظ المزدوجة المعانى وانصاف الحقائق بل والأكاذيب الصريحة بصورة أبرع من تلك التى استخدمها بها كافور . ان وحدة ايطاليا التى طالما حلم بها دانتى . قد تحققت ولكنها أنجزت ، ولا سيما فى طورها الأخير ، بروح مكيا فيلى (١) .

وفى ٥ مايو ١٨٦٠ غادر غاريبالدى ميناء جنوة بسفينتين و ١١٣٦ متطوعا وزعت عليهم أثناء الرحلة القمصان الحمراء التى قدر لها بطريق الصدفة المحضة أن تنال كل تلك الشهرة الذائعة فى أوروبا . وفى ١١ مايو نزل مع رجاله الى البر فى مارسالا Marsala . ولم تكن هذه العصبة الصغيرة كفوا بطبيعة الحال لمنازلة الحاميات الملكية فى صقلية ، فأضحى كل شئ متوقفا على نوع التأثير الذى يحدثه غاريبالدى على مخيلة الصقليين ولهذا لم يعد ثمة جدوى للتبصر والحذر ، وانما أصبحت الشجاعة المتهورة أسمى مراتب الحكمة ، تلك الشجاعة

(١) فى ١٨٧٠ هنا السياسى الاسبانى كاستلار Castelar راتازى Rattazzi خليفة كافور ، على انجاز الوحدة الايطالية التى « لم يتمكن سافونا رولا من تحقيقها بالتضحية بنفسه فى سبيل الله ، ولا مكيا فيلى بمنح نفسه للشيطان ! » . أما كافور فلم يمنح نفسه لاحد وانما احسن الاستفادة من الدين والدنيا معا .

المنهورة التى كان غاريبالدى يتمتع منها بأوفر نصيب . شرع على الفور فى الزحف على بالرمو ، التى كانت المقر الرئيسى لحكومة نابولى ، والفضل فى النصر العجيب الذى أحسرزه خارج بالرمو واستيلائه بعد ذلك على المدينة نفسها انما يرجع الى براعة قيادته وشجاعة رجاله وتأيد الصقليين وما أبداه لانزا Lanza قائد حامية بالرمو من ضعف مزر ، كما يرجع الى شىء من حسن الحظ والتوفيق العجيب . وقد حدد هذا النصر الأول مصير القتال فى صقلية ، وسرعان ما ألقى الملك فرنسيس نفسه بلا أعوان هناك خارج حصن مسينا . ولكن غاريبالدى لم يلبث أن وطد العزم على تسديد ضربة أجراً وأشد جسارة ، ذلك أن أحداث صقلية أثارت حركات مشابهة فى نابولى ، وراح القوميون هناك يناشدون غاريبالدى العون . أما فكتور عمانويل فقد نهاه عن اجتياز المضيق ، وان أوحى له فى الوقت نفسه بالعبارات التى يستخدمها ، لرفض أوامره . نزل غاريبالدى فى أقصى الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة ، ومن هناك زحف على نابولى ماراً بمناطق مهيأة بطبيعتها للمقاومة ، دون أن يصادف فيها أدنى مقاومة . لقد خان الملك فرنسيس الكثير من وزرائه وجنوده ولم يبق على الولاء الصادق له أحد تقريباً . فما كان منه الا أن غادر نابولى قاصداً جايتا فى ٦ سبتمبر فدخلها غاريبالدى فى اليوم التالى وبلغت حماسة الشعب حد الهوس ، اذ كان انتصار المحرر ذى القميص الأحمر خارقاً حقاً ، وقد تقبله فى تواضع جم وبساطة عظيمة . أما نهاية القصة فتختلف اختلافاً بينا عن بدايتها . فقد حل الديبلوماسية محل الجندى مما يمنعنا من مواصلة سردها على أنها مجرد ملحمة من ملاحم البطولة .

لقد تتبع كافور ما حدث فى صقلية ونابولى بمزيج من الغبطة والقلق . فلئن كان سقوط عرش الملك البوربونى قد أدخل السرور الى قلبه فانه كان حريصاً كل الحرص على تبين الوضع الجديد الذى

سيحل محل ذلك العرش . حقا ان غاريبالدى ما برح يعلن أنه انما يعمل باسم ايطاليا وفكتور عمانويل ، ولكن تفسيره العملى لهذا الشعار لم يكن قاطعا بحال . فقد رفض أن يعلن على الفور انضمام صقلية الى مملكة سردينيا ، ولعله كان ثمة اعتبارات عسكرية بررت ذلك . ومهما يكن من أمر فان المستقبل لم يكن قد اتضح بعد بصورة مؤكدة . فمازنى وأتباعه كانوا يعملون من أجل اقامة جمهورية . وثمة حزب قوى كان يرغب في منح نابولى وصقلية مركزا مستقلا نوعا ما داخل ايطاليا الحرة المتحدة . وقد ظل هناك بعض الاحتمال في أن يسترد أنصار الملكية البوربوننة قواهم ، فقد ظل الملك فرنسيس صامدا في جايتا ، وأخذت خيبة الأمل التى لم يكن ثمة مفر من أن تأتى في أعقاب الحرية ، تمده ببعض التأييد . ولم يكن كافور يثق بقدرة غاريبالدى الذهنية على معالجة الموقف ، فبدا له أن الأوان قد آن كى بأخذ مملكته دورا صريحا في الرواية التى ما برح يمارس فيها نفوذا بالغ الأهمية وان يكن مستترا . كما رأى أن الفرصة ليست متاحة فقط لانجاز تسوية مستقبل نابولى وانما ليضيف أيضا الى أراضى ايطاليا جانبا على الأقل من الأراضى البابوية التى طالما تطلعت اليها الأبصار .

وقد أحس بيوس التاسع بالخطر الداهم ، اذ أن بوادر الثورة كانت قد بدأت في ال « مارش » (١) وفي أومبريا Umbria . وكانت الحكومة البابوية قد أخفقت تماما في كسب تأييد الأهالى منذ أحداث ١٨٤٩ . الا أن الجيش البابوى كان قد زيد عددا وأدخلت عليه تحسينات كبيرة . وكان يتألف من رجال جاءوا من بلاد مختلفة ولاسيما فرنسا وأيرلندة وبلجيكا ، وكان يقوده الجنرال لاموريسيير Lamoricière الذى كان قد أبلى بلاء حسنا في خدمة الجيش الفرنسى . ثم ان الحكومة البابوية كانت تحظى بالاعتراف العام

(١) the Marches وهى منطقة في وسط ايطاليا متاخمة للأدرياتيكي وتقع بين أبروزى abruzzo واميليا Emilia (المتروم) (٣٠١)

بوصفها جزءا من النظام الدولي في أوروبا ، فكان من العسير إيجاد مبرر مقبول لمهاجمتها . ومهما يكن من أمر فقد أعلن كافور في رسالة وجهها الى بيوس التاسع أن ملك سردينيا يجد لزاما عليه « من أجل الإنسانية » أن يمنع قوات البابوية من اخماد الحركات الشعبية في اومبريا بالقوة . (قال كافور في مناسبة أخرى : « لو فعلنا من أجل أنفسنا ما نفعله من أجل بلادنا لكننا أوغادا أى أوغادا ! ») . وبهذه الذريعة دخل الجيش الايطالى الولايات البابوية حيث دحر الجيش البابوى فى كاستلفيداردو Castelfidardo بعد قتال مشرف لقوات الجنرال لاموريسير . ثم واصلت قوات فيكتور عمانويل الزحف الى أراضى نابولى حيث آلت اليها السلطة التى ظل يمارسها ، حتى ذلك الحين ، غاريبالدى بوصفه ديكتاتورا على البلاد . وقد أعلن غاريبالدى بادئ الأمر أنه لا يثق بكافور وأنه يعلن الانضمام الى مملكة فكتور عمانويل حتى يتم ضم روما ، وبدا ثمة خطر وقوع صدام بين القمصان الحمر والقوات النظامية . ولكن هذا الخطر لم يلبث أن تبدد . وقد أرغم الملك فرنسيس على التخلي عن جايتا والانسحاب الى روما . وقابل غاريبالدى فيكتور عمانويل فشكره الأخير بحرارة على كل ما فعله ، بيد أنه رفض كل جزاء مظهرا بذلك نكرانا للذات يكاد أن يكون منقطع النظير ، وآثر الانزواء فى بيته بجزيرة كابريرا Caprera ثم أجريت الاستفتاءات فى نابولى وصقلية والاراضى البابوية التى ضمت مؤخرا ، فأعلن الأهالى بالأغلبية الساحقة المألوفة رغبتهم فى الانضمام فورا الى « مملكة فكتور عمانويل الدستورية » .

واجتمع أول برلمان ايطالى فى تورينو فى فبراير ١٨٦١ . وفى مارس صدر مرسوم دستورى جديد يتألف من مادة واحدة : « يتخذ فكتور عمانويل الثانى لنفسه ولخلفائه من بعده لقب ملك ايطاليا » . لقد تحقق أعز أحلام الحرية فى أوروبا . ولسوف نرى فيما بعد كيف تم انضمام البندقية الى اراضى ايطاليا فى ١٨٦٦ وروما فى ١٨٧٠ .

الفصل السابع عشر . تطور الامبراطورية الفرنسية

اضطربنا الحديث عن حرب القرم وأحداث إيطاليا الى ذكر الكثير عن نابليون الثالث وسياسته الخارجية . وسوف نحاول هنا أن نتبع تطور تاريخ فرنسا الداخلى حتى عام ١٨٦٦ .

كان نابليون الثالث مغامرا استولى على السلطة بالعنف انتهاكا بذلك الدستور الذى أقسم يمين الولاء له . وما برحت ذكرى الانقلاب عالقة به « كالثقل الحديدى العالق برسغ المذنب » ، ولكن حكمه نال فى سنواته الأولى تأييد عناصر ضخمة قوية من المجتمع الفرنسى . وما فتئ أهالى الريف يمنحونه تأييدهم المتصل حتى سقوطه . وقد رأت فيه الطبقات المشتغلة بشئون المال - فى ميادين الصناعة والتجارة والبورصة - خط دفاعها ضد الاشتراكية والارهاب الأحمر . ونظر اليه الحزب الكاثوليكي - الذى يشكل عنصرا هاما فى الحياة السياسية الفرنسية - بعين الرضا الصريح فى البداية . وهكذا بدأت تجربته فى الحكم بداية ميمونة ، ولو دام نجاحها لترك أثرا عظيما على التفكير السياسى الأوروبي وتطور النظم السياسية .

وقد كان بوسع الامبراطور أن يعتمد على نفر قليل من الأعوان المخلصين ، ومنهم شركاؤه فى مؤامرة الانقلاب ، مورنى Morny وبرسينى Persigny ووالوسكى Walewski وقلائل غيرهم ، ولكنه كان محدثا فلم يكن من اليسير أن يتقبله الناس ممثلا حقيقيا للثرات النابليونية ، ولم يكن بوسعه أن يركن الى ولاء تلقائى يذكر . فتعين عليه أن يسعى الاحراز انتصارات براقة . ورغم زعمه أن

« الامبراطورية تعنى السلم » فان اسمه والتراث النابليوني ما برحا يدفعانه الى انتهاج سياسة المغامرة واطهار القوة . ذلك أن فرنسا كانت ستغفر له الكثير بل قد تغفر كل شيء ان هو منحها المجد والرخاء ، على أن الهزيمة من أى نوع كانت كفيلة بالقضاء عليه .

ولم يكن على صلة بأحد من أفراد أسرة نابليون الأكبر اللهم الا الملك السابق جيروم وابنته ماتيلدة وابنته جيروم . ولكنه لم يكن ليأمل فى الحصول على عون كبير من هؤلاء ، فقد اتخذ جيروم الصغير لنفسه سيما الديموقراطى المناوىء للكنتسيين ، وظل مصدر متاعب لا تنقطع للامبراطور . ورغم أن نابليون الثالث قد نال حق تعيين من يخلفه فقد جعل يتطلع الى الزواج لانجاب وريث يدعم مركزه ويضمن استمرار حكمه . وقد راودته ردها من الزمن فكرة مصاهرة بيت أو آخر من البيوت المالكة فى أوروبا ولكنه تبين أنه لن يكون موضع ترحيب منها طالما حامت الشكوك حول استتباب عرشه . ولقد ذكرنا من قبل كيف أنه تزوج آخر الأمر فى ١٨٥٣ من أوجينى دى مونتيجو وهى سيدة أسبانية جميلة من أسرة نبيلة وان لم تكن من سلالة أمراء . وقد سلكت فى المركز السامى الذى رفعت اليه بغنة ودون توقع مسلكا متسما بالكياسة والوقار . ورغم أنها لم تنس بلدها فقد باتت تعتبر نفسها فرنسية أولا وقبل كل شيء . وقد كانت كاثوليكية متمسكة بكاثوليكيته ، وخصما عنيدا للآراء التحررية ، ولما أنجبت ولّى العهد الامبراطورى جعلت تنظر الى سياسة فرنسا من حيث مساسها بمصير ابنها قبل كل اعتبار آخر . وفى الواقع أن أثرها السيئ على مستقبل الامبراطورية قد صور بصورة مباه فيها وان جاز أن نستثنى من ذلك مسلكها فى ١٨٧٠ . فان مصير لويس السادس عشر ومارى أنطوانيت قد ظل ماثلا أمامها على الدوام وترك أثرا ملحوظا على تصرفاتها .

لم تظهر بادىء الأمر معارضة رسمية تذكر لنابليون ، فان أعمال النفى والتشريد التى أعقبت الانقلاب كانت قد لقنت الناس درسا فى

خطورة المعارضة ، والجمعية كانت مجردة من كل سلطة ، أما الصحافة فكانت تراقب عن كثب وتعطل دون ابطاء ان هى تجاسرت على انتقاد العهد الجديد . بيد أن هذا الهدوء لم يكن ليدوم طويلا ، والامبراطور كان مدركا لقوى المعارضة الكامنة تحت السطح مباشرة . فهناك الملكيون بجماعتهم : الشرعيون the legitimists الذين يناصرون البوربون القدماء والأورليانيون الراغبون فى عودة الأسرة التى طردتها ثورة ١٨٤٨ من الحكم . كان ممثل أنصار الملكية القديمة هو الكونت دى شامبور Comte de Chambord الذى كان رجلا مترمنا مستقيما الى أبعد حد يعتبر الملكية جزءا من عقيدته ولا يضمر أية رغبة شخصية فى الفوز بالعرش ويأبى السعى الى كسبه بطريق المساومة . وكان مقيما فى فروسدورف فى النمسا ، ولم يكن لحزبه فى تلك الآونة شأن يذكر . أما الأورليانيون فكانوا يحظون بتأييد أقوى بكثير داخل فرنسا وخارجها على السواء ، وقد درج أمراء هذا البيت على اعلان عطفهم على الكثير من آراء العصر المتحررة . على أن مكمن الخطر الحقيقى كان يتمثل فى المعارضة الجمهورية التى كانت تتمتع - رغم عجزها عن الافصاح عن وجودها فى الجمعية أو الظهور سافرة فى الصحف - بتأييد أهالى المدن الكبرى ولا سيما باريس . ففى هذه المدن صادف نابليون أكبر الفشل ، اذ أخفقت كل محاولاته لاجتذابها الى صفه أو حتى التخفيف من عداوتها . ثم ان معظم قادة الفكر الفرنسيين كانوا أيضا من مناهضيه . لقد فاز حقا بتأييد المؤرخ الروائى بروسير ميريميه Prosper Mérimée والمؤرخ ديورى Duruy ولم يعارضه لامارتين ، ولكن هؤلاء جميعا كانوا يمثلون قوة واهية بالقياس الى قوة الأسماء التى وقفت ضده : ثيير وميشليه Michelet ولوى بلان ورينان Renan وجورج سانند وقبل هؤلاء جميعا فكتور هوغو الذى أبى الاستفادة من قرار العفو الذى أصدره الامبراطور وراح يهاجمه من منفاه فى جزر بحر

المائش أو بلجيكا في كتابات كانت لها أهمية بالغة على الصعيد الأوروبي .

وقد حقق النظام الامبراطوري النجاح المرجو في الانتخابات العامة عام ١٨٥٧ . فلا ريب في أن نتيجة حرب القرم قد أكسبت العهد نابليونى تأييدا صادقا من جانب الكثيرين ، ثم ان الأوضاع السائدة كانت تطبق على أنفاس المعارضة الى حد يدفعنا الى التعجب من تمكنها من ايفاد نائب واحد الى الجمعية ناهيك بالنواب الخمسة الذين نجحوا فعلا وبذلوا غاية الجهد في انتقاد تدابير الحكومة ، وكان أبرزهم أولففيه Ollivier وجول فافر Jules Favre وداريمون Darimon على أن الضربة الخطيرة الأولى التي زلزلت مركز نابليون قد جاءت من سياسته الايطالية التي أثارت عليه الكنسيين الذين أيدوه بحرارة من قبل . فقد آذى شعورهم أن يروا بيت سافوى البغيض يرتفع بفضل تأييد فرنسا الى مكانة لن تلبث أن تقوده الى عرش ايطاليا . ثم ان مسئولية نابليون الثالث عن الهزيمة التي حاقت بقوات البابا في كاستلفيداردو وانتقاص أراضيهِ الى درجة لا تكفى لدعم سلطانه ، لم تكن أقل كثيرا من مسئولية كافور . فأصبحت صحافة الكنسيين - وعلى رأسها صحيفة (العالم) L'Univers تعارض سياسة الامبراطور بعنف لا يقل عن معارضة الجمهوريين . ولم يظفر نابليون بعد ذلك قط بتأييد قلبى مطلق من جانب الكنسيين . واذا كانت سياسته الايطالية قد أفقدته تأييد هؤلاء الكنسيين فانها لم تكسبه تأييد القوميين في ايطاليا أو الأحرار في بلاده . فقد شاهدنا كيف اتهمه الايطاليون بأنه قد خذلهم وتقض العهد الذى أعطاه لكافور في بلجيير . أما الأحرار الفرنسيون فلم يغفروا له قط تأييده لبقاء سلطة البابا ، وقد ازدادت معارضتهم له عندما تعرض غاريبالدى في ١٨٦٢ للصد والأسر في أسبرومونت Aspromonte أثناء محاولته الوصول الى الولايات البابوية لضمها الى صف القضية الوطنية .

كما أنه جلب على نفسه عدااء الطبقات المشتغلة بشئون المال وعلى الأخص طبقة المنتجين الصناعيين . إذ كان يضمر الكثير من العطف على النتائج الاقتصادية والأهداف الاجتماعية لحركة حرية التجارة التى كتب لها النصر فى إنجلترا . وحدث أن سافر كوبدن Cobden الى باريس فى ١٨٦٠ ليعرض عليه مزايا عقد معاهدة تجارية تتضمن تخفيض التعريفات الجمركية على البضائع الانجليزية عند دخولها فرنسا . وقد أبدى كوبدن عظيم تقديره « لاستقامة الامبراطور وعدالته » ، وأفصح عن ايمانه بأنه معنى أصدق العناية بالتخفيف عن الفقراء . وطد نابليون العزم على عقد المعاهدة دون اعتبار للرأى العام الفرنسى الذى كان يعارض المشروع فى رأى كوبدن . وكان نابليون يسعى بذلك الى اقامة علاقات ودية أوثق مع بريطانيا التى ما برح يعلق على محالفتها أعظم الأهمية . ولكنه أخفق فى تحقيق هذا الغرض وجلب على نفسه عدااء الطبقات المشتغلة بالمال التى طالما منحتة حتى ذلك الوقت تأييدها الحار باعتباره حاميا من قوى الفوضى .

ولابد أن نشير هنا أيضا - وان خرجنا بذلك بعض الشيء عن الترتيب الزمنى - الى مغامرته المكسيكية الكبرى التى ساهمت بنصيب وافر فى فشل حكمه . فلن تجد حادثا أشد من تلك المغامرة دلالة على شخصية الرجل وأساليه وعلى خياله الحاد المنطلق وأسلوبه فى الخلط بين الوهم والواقع ، وطريقته فى تناول المشروعات بحماسة بالغة ثم طرحها جانبا فى اشمئزاز حالما تظهر أول صعوبة .

كانت المكسيك غارقة فى فوضى شاملة . فلم تنعم منذ استقلالها فى ١٨٢٣ الا بأضال نصيب من الحكم المستتب ، ولكن جواريز Juarez نصب نفسه رئيسا لها فى أوائل ١٨٦١ وأعلن وقف دفع الفوائد على ديون بلاده لمدة عامين . فما كان من الدائنين الذين كانوا ينتسبون الى جنسيات مختلفة ، وان كان معظمهم من الفرنسيين والأسبان والانجليز ، الا أن توجهوا الى حكوماتهم يناشدونها العون .

كان الموقف الى هذا الحد بسيطا لا تعقيد فيه ، ولكن خيال نابليون رأى وراءه فرصا كبرى . ذلك أن الحرب الأهلية كانت تمزق أوصال الولايات المتحدة الأمريكية ، وخيل الى المراقبين الأجانب أن اخماد مقاومة الولايات الجنوبية بات مستحيلا . فلم يعد ثمة ما يدعوها الى التمسك بمبدأ مونرو الذى يمنع الدول الأوروبية من الحصول على أى أملاك جديدة فى أمريكا (١) . ومن هنا قد تسنح الفرصة لإنشاء دولة فى المكسيك تخضع لسيطرة الدول الأوروبية العظمى وتقف حاجزا منيعا فى وجه الأنجلو سكسونيين ، « ذلك الشعب العدواني الذى سيجتاح أمريكا كلها ثم العالم بأسره ان لم يوقف عند حده » . وحتى لو لم تكن هذه الدولة فى يد الفرنسيين فانها قد تستخدم فى كسب حلفاء لهم قيمتهم لفرنسا . ومن يدري فربما كانت تلك بداية فصل جديد فى تاريخ العالم .

أبحرت الى فيراكروز Vera Cruz بعثة فرنسية أسبانية بريطانية مشتركة لتقوم بالضغط على المكسيك حتى تدفع الفوائد المطلوبة على ديونها ، ولكن سرعان ما تبين أن الأمر سوف يقتضى دخول البلاد ، فما كان من بريطانيا وأسبانيا الا أن انسحبتا بأعذار مختلفة تاركتين لفرنسا فرصة العمل بمفردها ، الأمر الذى كان حاكمها على أتم استعداد له . بيد أن المهمة جاءت أصعب مما كان متوقعا ، فقد أبدت بوبلا Puebla مقاومة ناجحة للغزاة ، ولم يتمكن هؤلاء من بلوغ العاصمة المكسيكية الا فى صيف ١٨٦٣ .

وفى تلك الآونة خطرت لنابليون فكرة نابهة هى عرض عرش « امبراطورية المكسيك » - كان ذلك هو الاسم الذى اختاره للدولة

(١). انظر كتاب دكستر بيركنز « مبدأ مونرو ١٨٢٦ - ١٨٦٧ » ص ٣١٨ والصفحات التالية طبعة بالتيمور سنة ١٩٣٣
Dexter Perkins: The Monroe Doctrine, 1827-67, pp.318 sqq.
(Baltimore, 1933).

الجديدة - على مكسميليان شقيق فرنسيس جوزيف امبراطور النمسا ، وكان هذا رحالة كثير الأسفار وعالما مرموقا يعتقد - فيما يظن - آراء متحررة في الشؤون السياسية . وقد رمى نابليون بتلك الخطوة - فيما رمى - الى كسب صداقة النمسا وربما محالفتها وبعد شيء من التباطؤ قبل مكسميليان العرض دون اعتبار لنصائح فرنسيس جوزيف وبريطانيا ، فسانده القائد الفرنسي فواري Forey على رأس جيش قوامه ٢٣,٠٠٠ رجل . واستقبل بحماسة ظاهرية عند وصوله الى مدينة المكسيك .

على أن هذه « البروج المشيدة في الهواء » لم تلبث أن انهارت . سراعا وبصورة مفاجئة . ذلك أن أعوان مكسميليان انقسموا على أنفسهم في حين وطلد خصومه العزم على مقاومته . وقد أضحى من الجلى الآن أن الغلبة في الحرب الأهلية الامريكية قد صارت للشمال انذى أبى الاعتراف بالنظام الجديد في المكسيك لمخالفته لمبدأ مونرو . كما أن نابليون نفسه مالبت أن سئم - على طريقته المعهودة - ذلك المشروع الذى تحمس له كل الحماسة بادىء الأمر ، اذ أنه بدأ يسبب له خيبة أمل متصلة ويجلب عليه باهظ النفقات . وقد حل بأزين Bazaine - الذى سيقدر له أن يكتسب فيما بعد شهرة بغیضة - محل فواري ، ووطد نابليون العزم على سحب القوات الفرنسية وترك مكسميليان آملا أن يدرك الأخير حكمة الانسحاب (فبراير ١٨٦٧) . ولكن مكسميليان رفض أن يتراجع واستمر يحارب أعداءه بشجاعة ردحا قصيرا من الزمن حتى يونيو ١٨٦٧ حين اضطر الى الاستسلام للقوات الأهلية في كيرتارو Queretaro ، وأعدم في ساحة تلك المدينة . فكانت تلك النهاية ضربة عنيفة لهيبة نابليون استعصت على العلاج بعد ذلك .

لقد سبقنا مجرى الأحداث في فرنسا بعدة سنوات ، فيجمل بنا أن نعود الآن الى حيث كنا . لقد شاهد نابليون بعين الانزعاج صعود مد

المعارضة في وجهه فسعى منذ تاريخ مبكر هو ١٨٦٠ الى استرضاء
الرأى العام بتعديل الطابع الاستبدادى لحكمه . فخفض بعض الشىء
من غلواء رقابته على الصحف ، وصرح لمجلس الشيوخ والجمعية
التشريعية بمناقشة سياسة الحكومة مرة في العام الواحد . ومنح
«لوزراء « بلا وزارة » - أى غير المكلفين بمهام ادارية محددة -
مقاعد في الجمعية كى يتولوا شرح سياسة الحكومة والدفاع عنها .
وسمح بتسجيل مناقشات الجمعية ونشرها . على أن هذه التنازلات
قد شجعت المعارضة بطبيعة الحال دون أن تسترضيها ، تلك المعارضة
التي ما فتئت تطالب بدستور حر على النمط الانجليزى وبمسئولية
الوزراء أمام الجمعية لا أمام الامبراطور ، وما انفكت تهاجم طريقة
تصرف الشئون المالية للامبراطورية .

وقد أتاحت انتخابات ١٨٦٣ فرصة هامة للحكومة لاختبار قوتها .
فعملت على السيطرة عليها بكل وسيلة ، وأخذ برسينيه Persigny
على عاتقه الحصول للامبراطور على أغلبية طيبة ، وأطلق للعمل كل
الأجهزة المألوفة . ومع هذا كله جاءت النتيجة مخيبة للآمال . فلئن
كانت الحكومة قد فازت حقا بأغلبية كبيرة فقد ازدادت قوة المعارضة
داخل الجمعية من خمسة أعضاء الى خمسة وثلاثين عضوا ، ولم تجد
جهود برسينيه فتيلا في حمل مدينة باريس على انجاح ولو مؤيد
واحد من مؤيدى الحكومة ، وظهرت بين الأعضاء مجموعة جمهورية
صريحة قوامها سبعة عشر عضوا يتزعمهم قادة من طراز بيريه Berryer
وجول سيمون Jules Simon وفافر وقبل هؤلاء جميعا ثيير الذى
دخل الحلبة البرلمانية من جديد ، وبلغ مجموع الأصوات التى أعطيت
ضد الحكومة مليونى صوت . لقد تبدت النذر جلية أمام أعين أوروبا .
وقد خطا عضوان بارزان خطوات لها أهميتها للالتقاء مع نابليون .
كان ثيير أعظم ساسة فرنسا وأكثرهم تمتعا بالتقدير والاحترام ، وقد
حطاب في خطاب مأثور باعطاء فرنسا ما أسماه « الحريات الضرورية »

— أى الحريات الدستورية التى كان يحظى بها الانجليز فى ذلك العصر — وأعلن أنه سيؤيد الامبراطورية اذا تحقق ذلك ، وان يكن مصمما على عدم الانخراط فى خدمتها بأى حال من الأحوال . وعلى مخطوته من أهمية فقد فاقتها فى الأهمية المباشرة خطوة اميل أوليفيه Emile Ollivier الذى كان بحكم تقاليد أسرته مرتبطا بحزب الأحرار . وقد كابده أبوه النفي بسبب آرائه وكان هو واحدا من أقوى « الخمسة » بيانا ، أولئك « الخمسة » الذين ظلوا ردحا من الزمن ممثلى المعارضة الوحيديين فى الجمعية . ولكنه كان على ذلك معتدلا محافظا بطبعه ، فلما تقدم نابليون باقتراح من شأنه اضعاف صفة الشرعية على بعض « الاتحادات » العمالية — على خلاف التقاليد المعمول بها فى فرنسا منذ عهد الثورة الكبرى — صمم أوليفيه على معاوئته . ذلك أنه لم يكن يلتزم على حد قوله بمبدأ « كل شىء أولا شىء » على الإطلاق » الذى كان يراه مبدءا خطرا ، بل كان يرضيه الحصول على النزر اليسير كل يوم .

وبهذا النظام المعدل الذى مازال يتسم بالمركزية الشديدة وتحكم السلطان وان بدت عليه بعض آثار لاتجاه تحررى ، واجهت فرنسا صعوبات الحرب الدانمركية والحرب النمساوية البروسية . وهذا النظام هو الذى تعين عليه أن يتحمل ضغط الصدمة بل الفاجعة المكسيكية . ولسوف تتناول فيما بعد ديبلوماسية فرنسا أثناء الحرب النمساوية البروسية وبعد انتصار بروسيا فى تلك الحرب . ويهنا الآن أن تتناول تطور الدستور الفرنسى حتى عشية نكبة الامبراطورية — أى حتى الحرب الفرنسية البروسية .

تظاهر نابليون بالاستخفاف بانتصارات بروسيا الباهرة . وأكد فى بلاغ رسمى ايمانه بمبدأ القومية ، ولكنه ذكر أيضا أن فرنسا ستبذل ما فى وسعها لزيادة قواتها المسلحة وللعمل على ابقاء ألمانيا فى المستقبل على ماهى عليه من انقسام . فناقض القول الثانى الأول ونم القول

الثالث أما عن خوف فرنسا أو عن نزعتها الحربية . على أن بلاغه لم يجد شيئا في تسكين خواطر الفرنسيين ، فقد أعلن ثير أن سادووا Sadowa هزيمة كبرى لا تقل خطورة على فرنسا عن معركة بافيا Pavia التي وقعت قبل نحو ثلاثة قرون ونصف ، ولا مرأى في أن الكثيرين كانوا يوافقونه الرأي .

وقد أخذت فرنسا تراجع أمورها اثر انتصار الجيش القومى البروسى . كان النظام الفرنسى قائما على التجنيد بالقرعة ، أى اجراء القرعة بين جميع الصالحين للجندية واعفاء من لم تقع عليهم القرعة من جميع الأعباء العسكرية ثم تدريب هؤلاء المجندين تدريبا صارما لمدة سبع سنوات واعدادهم ليكونوا جنودا محترفين . وقد جرت العادة على مقارنة ذلك النظام بالنظام البروسى والزعم بأن البروسيين ليسوا - بالقياس الى جنود فرنسا - الا هواة لن يثبتوا فى ميدان القتال أنهم أفضل كثيرا من قوات «حرس وطنى» أدخلت عليه بعض التحسينات ولكن سادوا بدلت ذلك كله ، فقد بات واضحا للجميع أن الجيش الفرنسى يجب أن يعزز وأن النظام الفرنسى يجب أن يعدل . وأبدى البعض ، وعلى رأسهم تروشو Trochu (الذى سيصبح فيما بعد قائدا لباريس فى الحصار الكبير عام ١٨٧٠) رغبتهم الشديدة فى الأخذ بالنظام البروسى القائم على الخدمة العسكرية الاجبارية للجميع ، ولكن رأى العام الفرنسى لم يكن مهيا لقبول ذلك . وفى النهاية تقرر اطالة مدة الخدمة العسكرية وتأليف احتياطى جديد باسم الحرس المتحرك garde mobile . غير أن عاصفة ١٨٧٠ هبت على فرنسا ولم يتم تطبيق هذه التعديلات تطبيقا كاملا .

أما النظام السياسى فكانت عملية اعادة بنائه أشمل . فقد تجلت الحاجة الماسة الى عمل شئ ما . واستخدمت الصحافة القدر الأكبر من الحرية التى منحتها لشن هجوم بالغ العنف والمرارة على نابليون . فاستعرض هنرى روشفور Henri Rochefort فى صحيفة « لا لا تترن »

La Lanterne قدرته الهائلة على السخرية دون ماحرج ، وأظهر ديليسكلوز Delescluze حدة في النقد لا تكاد تقل عن تلك التي أظهرها مارا في سالف الأيام . وكشف جامبيتا Gambetta في دفاعه عن ديليسكلوز عندما قدمته الحكومة للمحاكمة عن مواهب فذة في الخطابة وإثارة الخواطر . لقد أخذت الآراء والعواطف التي انطلقت أيام كوميون باريس تختمر تحت السطح مباشرة . وكان نابليون قد تخلى في ١٨٦٩ عن بعض التدابير التي كان يستخدمها من قبل للتحكم في نتائج الانتخابات . ومع أن المناطق الريفية قد ظلت على تأييدها له فإن المدن الكبرى قد انتخبت نفرا من أعنف خصومه . وقد نال أبصاره أغلبية المقاعد في المجلس ولكن عدد الأصوات التي أدلى بها الناخبون ضده بلغ ثلاثة ملايين صوت ، فأحس الامبراطور أن دعائم حكمه أخذت تميد تحت قدميه .

وعلى هذا وطد نابليون العزم على اتخاذ خطوة جريئة والشروع في إقامة نظام جديد تماما أعلن عنه عند افتتاحه لدورة الجمعية الجديدة . كان قراره ذلك بمثابة خطوة كبرى في اتجاه النظام البرلماني الانجليزي الذي اعتبره نابليون في يوم من الأيام نظاما عفى عليه الزمن ، اذ تضمن النظام الجديد السماح للمجلس باصدار مايشاء من التشريعات وبالرقابة على الميزانية بشتى تفاصيلها ، وأباح الجمع بين عضوية الهيئة التشريعية ومناصب الوزارة ، فبدأ أن النظام الوزاري الانجليزي المستند الى تأييد أغلبية برلمانية يوشك أن يطبق . وقد حددت لمجلس الشيوخ اختصاصات وثيقة الشبه باختصاصات مجلس اللوردات . وأضيفت فقرة قد تعنى الكثير أو القليل ألا وهي أن الامبراطور يحتفظ لنفسه بالحقوق الخاصة التي أسبغها عليه الشعب والتي تعد لازمة للمحافظة على النظام والجماعة . وفي يناير ١٨٧٠ طلب نابليون انى اميل أولففيه الذى اشتهر في يوم من الأيام بحماسته للاتجاهات التحررية أن يشكل الوزارة . فحمل أولففيه نابليون على طرح نظامه

الجديد للتصويت الشعبى كما فعل باقتراحاته السابقة . ودعا جميع ناخبى فرنسا الى التصويت بنعم أولا على بيان بتأييدهم للاصلاحات التحررية التى أدخلها الامبراطور على الدستور بمعاونة الهيئات الدستورية الرئيسية فى الدولة . وقد نظر أولففيه الى النتيجة بعين الرضى التام . حقا ان المدن الكبرى لم تبد أى تراجع عن معارضتها الراسخة ، اذ صوت فى باريس ١٨٤٠٠٠ بلا و ١٣٨٠٠٠ فقط بنعم ، كما وقفت ليون ومارسيليا وتولوز جميعا ضد الحكومة ، ولكن عدد المؤيدين فى فرنسا كلها بلغ ٧٣٥٨٠٠٠ بينما لم يزد عدد المعارضين على ١٠٥٧١٠٠٠ . ومع أن الممتنعين عن التصويت كانوا أكثر من المعارضين ، فان أولففيه كان اجمالا على صواب فى اعتباره أن النتيجة نصر كبير لما أصبح يسمى : « الامبراطورية السمحة » (١) . فلو توفرت سنوات قليلة من الهدوء والسلم لغدا هناك بعض الاحتمال على الأقل فى أن يقود النظام الجديد فرنسا سلميا الى الحياة الدستورية البرلمانية برئاسة أو دون رئاسة نابليون . ولكن الطوفان جاء ولما تنح لفرنسا الفرصة لفهم النظام الجديد أو ادراك السبيل لانجازه ! ولا بد أن تنتقل بسرعة الى بحث الموقف فى أوروبا الوسطى ، هذا الموقف الذى يمثل مؤخرة الصورة التى تحتل فيها الحرب الفرنسية البروسية مكان الصدارة ، على أننا سنلقى أولا نظرة على العلاقات بين نابليون وإيطاليا باعتبارها فرعا جانبيا هاما من التيار الرئيسى للأحداث . لقد قيض لنابليون فيما يبدو ألا يجنى مطلقا أى ثمار لنفسه أو لفرنسا من سياسته الايطالية كلها على حسن مقاصدها وضخامة ثمارها الايطالية فى أكثر الأحيان . كان نابليون قد وعد فى اتفاقية سبتمبر ١٨٦٤ بجلاء الحامية الفرنسية عن روما ، وقدم ملك إيطاليا تأكيدا بأن فلورنسة لا روما هى التى ستتخذ عاصمة للدولة الايطالية.

الجديدة . ولكن ما ان انسجت القوات الفرنسية في ديسمبر ١٨٦٦ حتى بدأت برضاء غاريبالدى حركة لغزو روما وضمتها . ومن الواضح أن قوات الزواف المراقبة بالأراضى البابوية كانت أعجز من أن تواجه مثل هذا الموقف الطارئ ، وكانت الحامية الفرنسية لا تزال في مرسيليا فكان أن أعيدت الى سفنها ، فوصلت ايطاليا في الوقت المناسب للانضمام الى القوات البابوية والحق الهزيمة بالغاريبالدين في منتانا . Mentana فراح الأحرار الايطاليون ينددون اثر ذلك الحادث بنابليون بمرارة أشد من أى وقت مضى . وحدث أن أعلن قائد الحامية دى فاييه De Failly أن البندقية الفرنسية الجديدة « تشاسبو » ، « قد فعلت الأعاجيب » ، فوجد الناقدون في هذه الملاحظة نوعا من الوحشية البالغة . وعلى هذا لن تجد فرنسا ساعة مخنتها استعدادات لمعاونتها من جانب مملكة ايطاليا التى فعلت من أجل انشائها كل ما فعلت (١) . وقد شغلت الامبراطورية الفرنسية في شهورها الأخيرة كثيرا بمسألة أخرى تتصل بروما . فقد دعا البابا مجمعا عالميا (٢) جديدا الى الانعقاد في ١٨٦٩ . وكان قد أعرب من قبل في عبارات لا تقبل الشك أو التأويل عن معارضته للآراء العصرية التحررية والديموقراطية فبات مؤكداً أن المجمع الجديد سيصدر مراسيم من شأنها أن تغضب أصحاب الآراء المتحررة سواء في ايطاليا أو في غيرها من الجهات ، وذهب الكثيرون الى وجوب استخدام فرنسا لما يتيح لها مركزها من نفوذ خاص لمنع اجتماع المجمع ، ولكن أولفبيه لم يعر هذه الآراء أذنا

(١) أعلن م . روهو M. Rouher في ٤ ديسمبر ١٨٦٧ عند استجوابه في الجمعية باسم الحكومة انها لن تسمح «مطلقا» باحتلال بريطانيا لروما وانظرا لأن بسمارك لم يتخذ نفس الموقف ، فقد حدا هذا التصريح في البرلمان الفرنسى بايطاليا الى الميل نحو بروسيا بدلا من فرنسا ، وحال دون ابدائها أى اهتمام جدي بالمفاوضات التى أخذ يجريها نابليون ابتداء من عام ١٨٦٨ لعقد تحالف فرنسى نمسوى ايطالى .

(٢) Ecumenical Council

مصغية فانعقد بالفعل . وفي اللحظة التي كانت العلاقات بين فرنسا وألمانيا تتدهور فيها تدهورا يندر بنشوب حرب كبرى بين البلدين ، كان المجمع العالمي يناقش مسألة عصمة البابا . وحينما فرغ المجمع من تلك المناقشة وأعلن في ١٨ يوليو ١٨٧٠ أن البابا يكون معصوما « عندما يحدد بسلطته الرسولية وأثناء مباشرته لرسالته بوصفه المعلم الأعظم لجميع المسيحيين ، ما ينبغي أن تستمسك به الكنيسة العالمية في شئون العقيدة أو الأخلاق » كانت الحرب قد بدأت فعلا .

الفصل الثامن عشر
ألمانيا حتى حرب الأسابيع السبعة
١٨٤٨ - ١٨٦٦

جاءت نتيجة ثورات ١٨٤٨ و ١٨٤٩ مخيبة الى أبعد حد
لآمال جميع « الأحرار » في ألمانيا وأوروبا . فلم يتحقق شيء مما
كانت تصبو اليه حركة التحرر . فقد ظلت النمسا تحكم شعوبها
المتنوعة حكما استبداديا باطشا . ولم تقترب ألمانيا من الوحدة القومية
ولم تنظر بحكم قائم على رضا الشعب . حقا لقد قدر لألمانيا بعد ذلك
أن تقطع شوطا كبيرا في سبيل الوحدة القومية فيما لا يتجاوز كثيرا
العشرين عاما ، ولكن كان يتعين على مبادئ التحرر السياسى أن تنتظر
زمننا أطول كثيرا قبل أن تحرز أى نصر حقيقى فوق أرض ألمانية .
وقد كان نظام الحكم فى النمسا نظاما استبداديا بكل معانى الكلمة
من ذلك النوع الذى أبدت جميع حكومات أوروبا ميلا الى الأخذ
به حالما كف الخوف عن ارغامها على تقديم الترضيات لشعوبها .
فسرعان ما ألغيت جميع المكاسب التى حققتها الثورات ، فسحب
نظام المحلفين وأضحى الوزراء من جديد مسئولين أمام الامبراطور
رأسا ، وأعيد ادخال عقوبة الجلد فى تطبيق القوانين بل وسع نطاق
تطبيقها ، وبات الارتياب فى الشعب طابعا سائدا فى جميع دوائر
الحكومة .

ولم يحدث تغير أساسى يذكر حتى قيام الحرب الايطالية عام ١٨٥٩ .
على أن التغير الذى طرأ بعدها على طابع الحكم كان كاملا . فالهزيمة
العسكرية لابد أن تؤدى حتما الى زعزعة أية حكومة ذات طابع
عسكرى . وعلى هذا لهم يعد ثمة مناص من ادخال بعض التعديلات على

نظام الدولة الأساسى . ولكن مامن بلد كان يلقى عناء فى وضع الدساتير مثل النمسا بأجناسها العديدة المتنافسة ، وخليطها المتضارب من اللغات والأديان ، وتقاليدها العريقة فى الحكم العسكرى . فالمجر كانت تمثل مشكلة دائمة برفضها الاعتراف للأجناس التابعة لها بحقوقها فى أن يكون لها الكيان القومى المستقل الذى تطلبه هى لنفسها . ثم كانت هناك أيضا مشكلة طراز الدستور الجديد : أياكون مركزيا قائما على الوحدة الكاملة أم اتحاديا يعترف لكل قومية بذاتها الخاصة ؟ لقد وجد كل من الأسلووين أنصارا ، وإن كادا يستويان فيما يثيران من صعوبات . وفى أكتوبر ١٨٦٠ أصدر الامبراطور بأمر ملكى عرف باسم «منحة أكتوبر» The October Diploma دستورا قصد له أن يكون دستورا متحررا . وبموجبه تقرر تشكيل مجلس امبراطورى (رايخسرات Reichsrat) يضم بعض الأعضاء المنتخبين ويختص ببحث جميع المسائل التى تمس الامبراطورية بأكملها ، الى جانب برلمانات اقليمية (لاندتاج Landtage) تتولى معالجة المسائل ذات الصبغة المحلية الخالصة . فكانت تلك تجربة كبرى فى ميدان الحكم المحلى . كما تقرر تهدئة خواطر المجريين بالاعتراف بلغتهم - لغة المايجار - لغة رسمية . ومالبث العام التالى (١٨٦١) أن جاء بمزيد من الترضيات ، اذ تقرر الأخذ بنظام أقرب الى النظام التمثيلى الصحيح . ولولا أن ذلك كله كان مقضيا عليه بالزوال السريع لبحثنا بعض تفاصيله باهتمام ، غير أن النقاط الجديدة بالنظر قليلة معدودة . وقد رحب العنصر الألمانى فى الدولة بالدستور الجديد ، وعلى الأخص بذلك الجزء الذى يتيح للصحافة حرية أفسح (فى تلك الفترة دخلت النمسا عهد الصحافة) ، بينما لم تظهر العناصر غير الألمانية ترحيبا صادقا به فى أى مكان ، وقد عارضه المجرىون اجمالا معارضة صريحة ورفضوا التعاون فى تنفيذه ، ولكن الأمل فى نجاحه لم ينقطع حتى جاءت حرب ١٨٦٦ فتعين على النمسا أن تنصرف بعض

الوقت عن تجارب الحكم الى مهمة الدفاع .
على أن القوة الدافعة للأحداث في أوروبا الوسطى لم تكن توجد
في النمسا وانما في بروسيا وألمانيا ، والى بروسيا يجب أن تتوجه الآن
بعنايتنا . كان النظام البروسى أكفأ كثيرا من النظام النمساوى وان لم
يزد عنه تحررا . فعندما أطلق مجنون الرصاص على الملك في ١٨٥٠ ،
اتخذت الحكومة من ذلك الحادث ذريعة لفرض المزيد من اجراءات
القمع الصارمة . فشددت القيود على تطبيق نظام المحلفين ، ووضعت
الصحف تحت المراقبة الدقيقة وبسطت سيطرتها المباشرة على عدد
كبير منها ومما يذكر أن (رياض الأطفال Kindergarten) التى أنشأها
فروبل Froebel قد عطلت للشبهة فى أن لها هدفا سياسيا . وكان القول
يتردد صراحة بأن بروسيا ليست دولة دستورية وانما هى دولة الموظفين
والعسكريين . وقد بدا فى وقت من الأوقات أن الاتحاد (الزولفرين)
يوشك أن يختفى وسط موجات الرجعية . فقد أبدت الولايات الجنوبية
ميلا الى الاتحاد مع النمسا ، ولكن بروسيا كانت تمنع بشدة قيام
أى نوع من الاتحاد التجارى مع غريمته الكبرى فى ألمانيا . على أن
ذلك الخطر مالبت أن تبدد . فقد اتسع الزولفرين بانضمام هانوفر اليه
وجددت مدته اثنى عشر عاما أخرى فى ١٨٥٣ .
كان الأسطول الألمانى من المنشآت قصيرة الأجل وقد اعتر به
الشوريون الألمان أيما اعتزاز . ولسوف يقدر له فيما بعد أن يوقظ فى
نفوس الألمان أزهى الآمال . ولكن البقاء لم يكتب له فى عهد الردة
الرجعية . كان الأسطول الألمانى قد خرج الى حيز الوجود بالفعل ،
ورابط فى بريمرهافن Bremerhaven ، وكان فى نظر الكثيرين ،
رمزا لانفتاح مجال جديد أمام الطاقات الألمانية . غير أن الحماسة
لوجوده خبت بعد الفشل الذى منيت به الحركة القومية ابان
الثورة ، فأعلن الدايت الاتحادى حله ، ثم بيع فى المزاد .
وفى ١٨٥٨ انطلقا ذهن الملك البروسى تماما ، فخلفه أخوه وليهم وصيا

على العرش أولا فى ١٨٥٨ ثم ملكا بعد وفاته فى ١٨٦١ . وقد خيل
الى البعض أنه أقل رجعية من سلفه . والحق أنه كان أكثر استقامة
وأصفى بصيرة وأوفر قدرة ، الا أنه كان أبعد مايكون عن التحرر .
ولقد تحدث باللهجة الهوهنزرنية الأصلية عند تنويجه فقال « اننى
أول ملك يرتقى العرش منذ ارتكازه الى النظم الحديثة ، ولكنى
لا أنسى أن العرش جاءنى من الله وحده وأنتى تسلمته من بين
يديه (١) » . وكان يبدى بعض العطف على أمانى الألمان فى الوحدة
القومية ، فلم تلق « الجمعية القومية National Association »
بشعارها المأخوذ عن شيللر « اتحدوا ، اتحدوا ! » معارضة منه . على
أنه لم يكن يصر أى ميل للنظم المتحررة أو يبدى أى ايمان بها .
لقد كان بحق خلفا لفردريك الأكبر وان كان آنس طبعاً . وقد كان
يدخر حماسته الصادقة للجيش ، وينظر الى جميع المشاكل بعين الجندى
وسرعان ما أوقعه تعصيبه للجيش فى نزاع مع ممثلى الدولة .

وقد توفرت له أسباب وجيهة للظن بأن بروسيا تحتاج الى جيش
أقوى مما كان عندها . فان المهانة التى تعرضت لها فى أولمتر كانت
لا تزال ماثلة فى الأذهان ، ثم ان الطابع العسكرى كان يغلب على تاريخ
بروسيا كله ، ولم يكن ثمة مجال للتفكير فى تغيير ذلك الطابع . ولقد وجد
الملك فى تلك اللحظة الدقيقة عوناً كبيراً من وزير حربيته « رون »
وهو أحد صانعى بروسيا الحديثة . فقد كان هذا المنظم الحقيقى للنصر
بؤمن بمصير بروسيا ومصير ألمانيا كعقيدة دينية ويعتقد اعتقاداً راسخاً
بأن الجيش البروسى هو الأداة التى تحقق لبروسيا المصير الذى
ينتظرها . فلم يكن الجيش فى نظره يمثل مجرد القوة فحسب وانما
الأخلاق والدين كذلك . ولقد أبدت الجمعية رغبتها فى الاقلال من

(١) كان واحد من الملوك البروسيين القلائل الذين توجهوا ، ومن الامور
التي تفصح عن اتجاهه انه توجه نفسه بنفسه .

استعداد بروسيا العسكرية بخفض مدة الخدمة من ثلاث سنوات الى سنتين . ولكن رون تقدم بمشروع عكسى تماما يقضى ببقاء مدة الثلاث سنوات مع اضافة أربع سنوات أخرى يقضيها المجند في الاحتياطى . كما قرر احداث تعديلات في النظم العسكرية وادخال البندقية ذات الابرة ضمن أسلحة الجيش . ولم ترفض الجمعية هذا كله رفضا قاطعا ، ولكنها كانت تزمع بوضوح انتقاده وتعديله .

ثم جاءت الانتخابات العامة في ١٨٦١ ، ففاز أنصار التقدم بالأغلبية ، وكانوا يطالبون بشتى ضروب الاصلاحات التحريرية التى كان من شأنها أن تدفع بروسيا في طريق للتطور مناقض تماما لما كان يريده رون ، اذ كانوا يدعون الى التوسع في تطبيق نظام المحلفين ، واصلاح المجلس الأعلى من مجلسى البرلمان ، وتحرير التعليم من كل نفوذ كنسى ، والمسئولية الوزارية أمام البرلمان ، وقبل هذا كله خفض مدة الخدمة العسكرية الى سنتين . وهكذا أصبح الملك يواجه تحديا صريحا لا يقل عن التحدى الذى واجهه شارل الأول على عهد البرلمان المديد (١) . وما لبثت كل الشكوك أن تبددت عندما طلب رون الى الجمعية في سبتمبر ١٨٦٢ التصويت على اقتراحاته الحربية جملة ، فرفضتها الجمعية بأغلبية ٣٠٨ أصوات ضد ١١ صوتا . وهكذا رد ممثلو الأمة على تحدى الملك ردا يكاد أن يكون اجماعيا . ولو استنبأنا التاريخ الانجليزى والفرنسى لقال لنا ان الملك لابد وأن يذعن . حتما وان القدر يدخر لألمانيا شكلا من أشكال الحياة الدستورية قد

(١) Long Parliament وهو البرلمان الانجليزى الذى انعقد من نوفمبر ١٦٤٠ حتى مارس ١٦٥٣ ثم عاد للانعقاد فترة وجيزة خلال عام ١٦٥٩ ثم حل في ١٦٦٠ ، كما تطلق نفس التسمية على البرلمان الثانى فى عهد شارل الثانى الذى انعقد من عام ١٦٦١ حتى عام ١٦٧٨ (المترجم)

تناه بطريق الثورة . ولكن مصير ألمانيا جاء على عكس ذلك تماما فلا رون ولا سيده فكريا في الامتثال لرغبات الجمعية وان تكن فكرة التنازل عن العرش قد راودت وليم بصفة جدية . ولكنه كان مصمما - طالما ظل ملكا - على ألا يتخلى عن تلك التدابير التي بدا له أن وجود الدولة قد يتوقف عليها . وقد حدثه رون عن امكان القيام بانقلاب واستمرار الحكومة في مباشرة سلطاتها وذلك بأن تجمع بالقوة الضرائب التي رفضت الجمعية اقرارها ، ولكن فكرة أخرى كانت تجول في خاطر رون . اذ كان يعرف بسمارك منذ زمن وكان يكن اعجابا كبيرا لشخصه وآرائه ، وقد شعر أنه الآن الرجل الوحيد الذي يصلح لقيادة سفينة بروسيا وسط العاصفة التي توشك أن تهب في تلك اللحظة . فحمل الملك على التخلص من الوزارة القائمة (كان رئيسها

الاسمى هو الأمير أدولف هوهنلوهي Prince Adolph Hohenlohe ووضع أمانة الحكم في يد بسمارك، وكان بسمارك في ذلك الحين ممثلا ديبليوماسيا لبلاده في باريس ، وكان قد وصل اليها لتوه ، حين أصدر الملك تعليماته الى رون باستدعائه . فأرسلت اليه برقيتان أكدت ثابتهما ضرورة عدم التأخر « للخطورة البالغة » . فحضر بسمارك الى برلين على الفور وقابل الملك ، ووعد بتأييد الاجراءات المتخذة لاعادة تنظيم الجيش ، فأدى هذا الوعد الى تخلى الملك نهائيا عن فكرة التنازل عن العرش . وقد أعلن بسمارك من جانبه معارضته الأكيدة. الراسخة لمطالب البرلمان بقوله : « خير لى أن أهلك مع الملك من أن أتخلى عن جلالتك في صراعكم مع الحكم البرلماني » . وهكذا باتت الحلبة معدة لاشتباك بالغ الخطورة .

وقد فاز بسمارك والملك . فهزمت المبادئ البرلمانية وفقدت اعتبارها ودخلت ألمانيا ذلك السبيل الذي قادها - عبر انتصارات مذهلة في ميدان القتال وفي قاعة المجلس - الى الدمار الذي أنزلته بها حربان كبيرتان مهلكتان . ولكي نفهم السر في أن الصراع الداخلى البالغ

الأهمية الذي دار في ١٨٦٢ ، قد انتهى الى تلك النتيجة ، لابد لنا أن نذكر أن بسمارك لم يهاجم البرنامج الشعبى بأكمله . وإنما على العكس حقق بسمارك نصف ذلك البرنامج وهو بالذات النصف الذى كان البروسيون يصبون اليه قبل سواه فى أغلب الظن . ذلك أن الحركة القومية لم تكن تتجاهد من أجل قيام حكم دستورى فقط وإنما من أجل تحقيق الوحدة القومية كذلك . وقد أفلح بسمارك فى حمل ألمانيا على التجاوز عن المطلب الأول باعطائها المطلب الثانى بأكمله ممزوجا بجرعة مسكرة من المجد العسكرى .

وقد كان بسمارك شخصية معروفة فى الدوائر الحكومية عندما تلقى قرار تعيينه رئيسا للوزارة . وقد مثل بروسيا فى «دايت فرانكفورت» عندما كانت الحاجة ماسة الى رجل قوى يأبى الإذعان لمزاعم النمسا فى السيادة على كافة الولايات الألمانية الأخرى . وحكى قصص طويلة - وبعضها على الأرجح من نسج الخيال - عن بروده ونجاحه الخارق فى ذلك . وكان قد شاهد بمرارة وحسرة استسلام الملكية أيام ثورة ١٨٤٨ . وأخبر الملك فى كتاب شخصى أنه يستطيع الاعتماد على الجيش وأن القوى الشعبية ليست بالقوة التى يتصورها . وقد درجت الأجيال التى خلفته فى ألمانيا على اعتباره بطل الأمة العظيم فى ميدان العمل والاقدام ، ولكنه لا يعد فى بعض النقاط الهامة شخصية فريدة بالمرّة . فأولا كانت آراؤه ونزعاته تستند الى أساس من الايمان الدينى الراسخ . وقد روى عنه أنه قال « لو لم أكن مسيحيا لكنت جمهوريا » . ثم انه لم يكن يدين الا بالقليل ، إن كان يدين بشئ على الاطلاق ، للدراسة الأكاديمية التى تدين لها ألمانيا الحديثة بالكثير . كان قد التحق بجامعة جوتنجن Göttingen ، ولكنه أهمل دراساته فيها غير آسف . وصار يتحدث بعبارات لاذعة عن أثر التعليم الجامعى الضار واتجاهه الى الحد من الأصالة الفردية . وكان ينظر الى السياسة الأوروبية دائما من زاوية بروسية أكثر منها ألمانية .

فكان يقول : « انما نحن بروسيون وسنظل بروسيين » . فلم تكن الوحدة الألمانية في نظره الا امتدادا لسلطان روسيا . وهو يكاد يخلو من كل صفات « الأوروبي الصالح » الذي راح تاليران يبحث عنه دون طائل في مؤتمر فيينا . ولم يكن معروفا تقريبا خارج دائرة البلاط والحكومة . بل حسبه البعض من الأحرار ذوى الميول الخطرة الذين ينادون بالتحالف مع فرنسا . الا أنه أعلن على الفور استعدادا لمجاربة الآراء الدستورية . ولما ألمح الملك الى أوجه الشبه بين الموقف الذي يواجهه وبين التاريخ الانجليزي مشيرا الى مصير شارل الأول الذي كان ماثلا في الأذهان ، لم يحفل بسمارك من التشبيه بل قال « لسوف أسقط مثل اللورد سترافورد Lo raf ford وتسقطون جلالتكم لا مثل لويس السادس عشر وانما مثل شارل الأول . انه شخصية تاريخية محترمة للغاية » (١) .

وسرعان ما ظهرت مشكلة عويصة تحتاج الى الحل . فقد نصبت النمسا نفسها متحدثة بلسان حركة التحرر الألمانية ، ودعت روسيا لايفاد مندوبيها الى فرانكفورت لبحث خطة الاقامة اتحاد فيدرالى ألماني . كانت الخطة تنطوي على مقترحات طريفة ، منها انشاء « حكومة ادارة Directory » تتألف من ممثلى ست دول تكون من بينها بصفة دائمة بروسيا والنمسا وبقاريا ، وتأليف مجلس اتحادى وجمعية اتحادية . فأبدى الملك ميلا لقبول الدعوة حرصا منه على التعاون دائما مع النمسا ، ولو نظرنا للمسألة من زاوية « أوروبية » ، لوجدناه بلا جدال على صواب . الا أن الدستور الجديد كان من شأنه أن يحد من حرية بروسيا في التصرف ، فرفض بسمارك قبوله . وكان في العادة ينفذ مشيئته على مشيئة مليكه . وقد كان أن وافق

(١) ونحن نراد يردد نفس المعنى حتى في السنوات المتأخرة من حياته اذ قال لوليم الثانى في معرض النصيح ان ملك بروسيا يجب ان يموت شاكى السلاح ولا يستسلم لمطالب الديمقراطية .

الملك بعد صراع طويل أضناها معا - على الامتناع عن قبول الدعوة
فقتضى رفض بروسيا التعاون على المشروع كله . لقد كان التنافس بين
بروسيا والنمسا على زعامة ألمانيا حقيقة جلية ، ورأى الكثيرون أن
الأمر سينتهى لا محالة الى الاحتكام للسيف .

ثم جاءت المشكلة البولندية . فبولندية لم تكن قد استسلمت
لأجراءات القمع التي عمدت اليها السلطات بعد ثورة ١٨٤٨ . وحلم
الاستقلال الوطنى لم يكف عن مراودة أذهان الطبقات المستنيرة .
وما برح هؤلاء يرجعون بأبصارهم الى ماضيهم وسط ضباب من
الرومانطيقية والأسى ، ويرون أن بولندية يجب أن تعود الى كل
ماكانت عليه فى القرن السادس عشر . وقد انطوت معاملة القيصر
اسكندر الثانى لبولندية على الكثير من النوايا الطيبة . فقد كان يرغب
فى تحرير رقيق الأرض وإيجاد طبقة من الفلاحين الذين يعترفون بجميل
روسيا ويردونه ولاء خالصا لرباط بلادهم بها . ومما يؤسف له أنه
قرن هذه المشروعات ببعض التدابير التي تمس الطبقات الوسطى
والعليا فى بولندية بصورة مباشرة ، ونخص منها بالذكر فرض الخدمة
العسكرية عليهم . وبذلك أصبح على الطبقات المرتبطة بالحركة
الوطنية أن ترى أبناءها يدفعون دفعا الى صفوف الجيش الروسى فى
الوقت الذى يترك فيه الفلاحون فى حقولهم ، الأمر الذى لم يلبث أن
أدى الى نشوب ثورة فى بولندية أحرزت بعض النجاح أولا ثم تقدمت
الى ماوراء حدود بولندية داخل أراض روسية خالصة . ولكن انتصار
روسيا كان محققا . ما لم تتدخل أوروبا .

على أن احتمال التدخل الأوروبى لم يكن مستبعدا ، اذ كان اسم
بولندية يلهب خيال جميع « الأحرار » فى ذلك الزمان . وقد دعم الانفعال
باريس ، وكانت المشاعر فى انجلترا فى صف بولندية بصورة قاطعة .
ولو أظهرت بروسيا أدنى استعداد للتعاون مع دول الغرب العظمى ،
لواجهت روسيا احتمال قيام ائتلاف بالغ الخطورة . ولكن بسمارك

كان يعارض على طول الخط تأييد الثائرين أيما كانوا ، ويحس احساساً قوياً بأن بروسيا ستحتاج فيما ينتظرها من منازعات لصداقة روسيا . فلم يعر احتجاجات الأحرار الألمان والجمعية البروسية ، ولا حتى اعتراضات ولي العهد البروسي ، أدنى اهتمام ، بل راح يؤكد للقيصر الروسي عطف بروسيا وتأييدها ، فكان أن أفلحت روسيا في اخماد الثورة البولندية . وظل التفاهم مع روسيا الذي قام على هذا النحو من أعمدة السياسة البروسية طوال المدة الباقية لبسمارك في توجيه دفعتها ، ولم يظهر القيصر من جانبه نكرانا لذلك الجميل .

أرغى البرلمان البروسي وأزيد . وصار أصحاب الآراء المتحررة في ألمانيا يعتبرون بسمارك عدوهم الأول . وتردد الشك في أنه سيستطيع أن يمضى بسياسته الى النصر في مواجهة معارضة البروسيين الشاملة . غير أن مشكلة شلفيج هولشتين Schleswig-Holstein التي أدت الى اندلاع حربين أفتقدته من المأزق .

وهذه المشكلة تعد مضرب المثل في الغموض والابهام ، فهي أشبه ما تكون بمحاكمة قانونية معقدة يتغير رأى المشاهد فيها كلما استمع الى مرافعات المحامين عن أطراف الدعوى . كانت الدانمرك مملكة عريقة محترمة تربطها أواصر القربى بعدد من البيوت المالكة في أوروبا . وكان سكانها يقفون من حيث الاجتهاد والذكاء والشخصية على قدم المساواة مع أكثر سكان أوروبا تقدماً . بيد أن حدودها الجنوبية كانت منذ أمد طويل مصدر متاعب لها زادت حدة في السنوات الأخيرة . فعليها تقع مقاطعتا شلفيج وهولشتين اللتان لا تشكلان - فيما هو معترف به - جزءاً من الدانمرك وان ارتبطتا منذ أمد بعيد بعرش الدانمرك . وقد كان الطابع الدانمركي غالباً في شلفيج التي منحت « ديتا » مستقلاً . ولكن هولشتين كانت ألمانية الى حد بعيد ، وكانت تشكل في سالف الأيام جزءاً من الامبراطورية

الرومانية المقدسة التي راح الألمان في تلك الآونة يتذكرون عهدها بحسرة رومانطيقية . وقد اعترفت معاهدة فيينا بعضوية هولشتين في الاتحاد الألماني ومع أنها كانت منفصلة عن شلفيچ فقد كانت لهما وزارة واحدة . وبنمو الاحساس بالقومية الألمانية في ألمانيا ، أخذت الآمال تساور الألمان في ايجاد وسيلة ما لادماج « الدوقيتين » معا في الدولة الألمانية . وقد أشرنا من قبل الى اضطرابات ١٨٤٨ ، وقلنا ان محاولة الدوقيتين الانسلاخ عن الدنمرك قد سقطت ، ثم سويت المشكلة الدنمركية برمتها في معاهدة لندن ١٨٥٢ تسوية كان المأمول أن تكون نهائية . ولقد نصت تلك المعاهدة أولا على أن يخلف ملك الدنمرك الحالي - الذي لم ينجب وريثا - زوج ابنة شقيقه كريستيان أمير جلوكسبورج Christian, Prince of Glücksburg ، وذلك في جميع ممتلكاته كما هي ، على أن هذه الممتلكات تشمل الدوقيتين . ونصت مادة أخرى على أن المعاهدة لا تؤثر بحال في علاقة هولشتين بالاتحاد الألماني . وقد وقعت المعاهدة الدول الخمس العظمى - فرنسا وبروسيا والنمسا وروسيا وبريطانيا . لكن « ديبث » فرانكفورت رفض اقرارها بوصفه الجهاز «الناطق بلسان» الاتحاد الألماني ، كما رفضها فردريك أوف أوجستنبورج المطالب الآخر بعرش الدنمرك . ولكن أحدا لم يأخذ الديبث مأخذا جديا ، ولم يكن من المحتمل أن يزج بأوروبا في أتون الحرب مطالب فرد بالعرش ان تمسك الموقعون على المعاهدة بموقفهم .

وارتقى الملك الجديد كريستيان التاسع العرش الدنمركي بالفعل في ١٨٦٣ ، فكان من أول أعماله التصديق على الترتيبات التي اتخذها سلفه لإصدار دستور جديد يوحد ممتلكاته متجاهلا الاستقلال الذاتي التقليدي للدوقيتين . وقد كانت عضوية هولشتين في الاتحاد الألماني من العوامل التي أدت الى النتائج المشؤمة لهذا الاجراء . فقد زود ألمانيا التي كانت حساسة بصفة خاصة لما يحدث في الدوقيتين بالنسب

الذى تحتاجه لاشعال الحرب . فكان أن أعلن فردريك أوف أوجستنبورج مطالبته بعرش الدانمرك ، وأيده فى ذلك « الديت » فرانكفورت .

كان الموقف فى ذاته بسيطا - اذا أسقطنا من الحساب أنه اتخذ سببا مباشرا لاشعال الحرب - فهو لا يخرج عن وجود نزاع حول عرش الدانمرك ، وخلاف بين الدانمرك والاتحاد الألماني على الدوقيتين . وقد خرجت الدانمرك من الأمر خاسرة ، ولكن الاتحاد لم يكن هو الفائز . فمن سخریات القدر أن المغانم قد عادت على بروسيا والنمسا وكلتاهما من الدول التى وقعت معاهدة لندن واعترفت بحق الأمير كريستيان فى اعتلاء عرش الدوقيتين . الا أن الوقوف على سر هذا التطور الغريب ليس عسيرا ، ذلك أن الدول القوية هى التى تكسب غالبا من مشاحنات الدول الضعيفة . ولقد كانت قوة بروسيا وتصميم بسمارك وبراعته هى العامل الحاسم فى ذلك النزاع الذى بلبل أوروبا . احتج فردريك أوف أوجستنبورج ، كما ذكرنا ، على ارتقاء الأمير كريستيان عرش الدانمرك اثر وفاة الملك وطالب لنفسه به ، وبحث « الديت » الألماني الموضوع ثم قرر تأييده ونظرا لأن الديت لم يكن قد وافق قط على معاهدة لندن ، فقد كان مطلق اليد تماما . وعلى هذا أصدر أوامره « بالتنفيذ الاتحادي » وبعبارة أخرى قرر « الديت » تدعيم قراره بالقوات الهزيلة التى كانت تحت امرته . ولعل الدانمرك كانت تستطيع الصمود فى وجه هذه القوات ، لولا أن محاربين أشد بأسا قد دخلوا الحلبة . ذلك أن بروسيا والنمسا ما كانتا لتقفان موقف المتفرج وتتركان هذه القرارات الكبرى بين يد الدول الصغرى . ولم تسمح لهما الغيرة القائمة بينهما بترك الأمر لتصرف فيه كل منهما على حدة . فأسرع بسمارك الى عقد تحالف مع النمسا ، أعلنت بروسيا على أثره أنها ستكونان المنفذتين لمشیئة « الديت » . ورغم أن الدولتين كانتا قد وقعتا معاهدة لندن فأنهما لم تضمنا

تنفيذها ، فزعمتا أن لهما حرية التصرف في الموقف الجديد الذى نشأ
وفقا لما تريان فيه مصلحتهما . وعلى هذا سحب الجيش الاتحادى
ودخل أرض الدانمرك بدلا منه جيش نمساوى بروسى مشترك .

نظرت أوروبا الى هذه الخطوة بعين الانزعاج والعطف العام على
تلك الدولة الصغرى التى تعرضت لهجوم دولتين كبيرين . وما نحسب
أن الدولتين الغازيتين كانتا ستمضيان في عملهما لو ووجهتا باحتجاج
أوروبى عام . ولكن أوروبا لم يكن لها في تلك الآونة وجود اللهم الا
كوحدة جغرافية وثقافية . وفكرة « الوفاق الاوروبى »

European Concert التى ظهرت في أوائل القرن التاسع عشر ، باتت
عديمة الأثر الا فيما يتصل بتركيا ، والى درجة محدودة فقط . أما
أفكار القرن العشرين التى تمثلت في عصبة الأمم أولا ثم في الأمم
المتحدة ثانيا فلم تكن قد ولدت بعد . ولم تكن هناك دولة بذاتها أو
مجموعة من الدول على استعداد للتدخل . فالترويج والسويد جعلتنا
تتابعان الموقف بعين العطف على الدانمرك ، الا أنهما لم تحركا ساكنا
مما أثار استياء ايسن البسالف (١) . واستخدم بالمرستون عبارات يفهم
منها أن بريطانيا لن تقف مكتوفة الأيدي حيال غزو الدانمرك ، ولكنه
لم يتجاوز حد الكلام ، فعندما آن أوان الجهد لم تؤيده المعارضة
ولا الملكة وانقلبت عليه أغلبية أعضاء وزارته . لقد شهر بلمرستون
سيفه في وجه خصم أقوى منه ، وأخذ نجمه يأفل بصعود نجم
بسمارك . أما نابليون الثالث فكان مشغولا بالمسألة المكسيكية
الشائكة ، ولم يكن في تلك اللحظة على علاقة طيبة ببريطانيا . ثم انه
كان قد نصب نفسه مدافعا عن مبدأ القومية ، والأعذار كانت تلتبس
للدولتين الألمانيةين باعتبار تصرفهما خطوة نحو الوحدة القومية
الألمانية . وهكذا حالت أقواله وأفعاله بالنسبة لاييطاليا دون تصديه
لبروسيا والنمسا في ألمانيا . لم يبق اذن الا روسيا ، ولكن بسمارك

(١) Ibsen شاعر ومؤلف مسرحى نرويجى ذو شهرة عالمية
وقد عاش في الفترة ما بين ١٨٢٨ - ١٩٠٦ . (المترجم)

كان قد ضمن حيادها بموقفه من الثورة البولندية . وعلى هذا سارت الحرب الى نهاية سريعة مؤكدة . وقد أظهر الجنود النمساويون - فيما شاع - تفوقا على البروسيين . ولما باتت هزيمة الدانمرك محققة دعى مؤتمر للاجتماع فى لندن ، ولكن الشروط التى عرضها المنتصرون كانت أقسى من أن تسمح بتسوية الموقف ، فكان أن استمرت الحرب حتى تم طرد الحكومة الدانمركية من أراضيها الأصلية مما اضطرها الى قبول الشروط التى أملاها العدو الظافر ، وهى شروط تثير الدهشة والعجب . فالمفروض أن بروسيا والنمسا كانتا تتصرفان بوصفهما منفذتين لمشية الاتحاد الألماني ومصلحة فردريك أوف أوجستنبورج ، ولكن موكلهم خرجوا من الأمر صفر اليدين ، بينما استأثرتا هما بكل شئ . لقد ضربت هذه الشروط عرض الحائط بمصالح أوروبا وقواعد الانصاف الدولية دون خفاء أو مواربة . فقد أعلنت معاهدة الصلح التى تعجل عقدها بسمارك - اذ كان أخشى ما يخشاه دائما هو تدخل مؤتمر أوروبى - أعلنت تخلى ملك الدانمرك « عن جميع حقوقه على دوقيات شلزيڤج وهولشتين ولاونبرج Lauenburg لصالح صاحبه الجلالة ملك بروسيا وامبراطور النمسا (١) » . لقد أغفل الاتحاد الألماني اغفالاتا ،

(١) المادة الثالثة من معاهدة فيينا الموقعة فى ٣٠ أكتوبر ١٨٦٤ بين النمسا وبروسيا والدانمرك . هذا وقد أعطت اتفاقية جاستين **Gastein Convention** فى ١٤ أغسطس ١٨٦٥ ، شلزيڤج لبروسيا وهولشتين للنمسا على أن يكون لهما حق ادارتها فقط ثم نقلت معاهدة براغ فى ٢٣ أغسطس ١٨٦٦ بنص المادة الخامسة جميع حقوق النمسا الى بروسيا ولكنها أشارت بإجراء استفتاء عام فى منطقة شمال شلزيڤج للبت فى أمر عودتها الى الدانمرك . وقد جعل بسمارك يماطل فى إجراء هذا الاستفتاء ، فلم يتم شئ فى أمره حتى ١٩١٩ . ثم نصت المواد ١٠٩ - ١١٤ من معاهدة فرساي على إجراء هذا الاستفتاء . وقد أجرى فعلا وفيه قررت المنطقة الشمالية من شلزيڤج العودة الى الدانمرك ، فاعيدت اليها .

وأهملت مساعي انجلترا وفرنسا للتدخل في التسوية ، وعومل دوق أوجستنبورج الذى تدخلت بروسيا والنمسا نيابة عنه فيما بدا ، بازدراء تام . وقد أجرى فى برلين بحث فى الوضع القانونى لوراثه عرش الدانمرك ، أعلن على أثره أن كرستيان التاسع هو الوريث الشرعى الوحيد للتاج الدانمركى والدوقيتين جميعا وأن له بناء على ذلك مطلق الحق فى التنازل عنهما فى المعاهدة . وهكذا لم يبق على النمسا وبروسيا أن تقدمهما حسابا للأحد عن احتلالهما للدوقيتين . وفى هذه الأحداث المتشابكة تكمن بوادر تلك الأوضاع فى أوروبا التى لن تلبث أن تفودها الى حريين أوروبيتين كبيرتين ، ثم الى الحرب العالمية الأولى بعد ذلك بأربعين عاما . « لقد خذلت انجلترا وفرنسا ، وخذلت فرنسا وانجلترا وخذلت كلتاهما أوروبا ، فأصبح النصر من نصيب بسمارك وحده . لقد تحسس قلب فرنسا وتبين ضعف نبضاته ، وأدرك قصور انجلترا عن الحركة ، وشل يد روسيا بذكرىات المشكلة البولندية » .

وهكذا وقعت شلزفيج وهولشتين بلا حول ولا قوة بين يدى النمسا وبروسيا . وقد طفق كل من الشريكين ينظر منذ البداية الى الآخر بعين الريبة والعداء . فلم يحمل احتلالهما المشترك للدوقيتين بين طياته عنصر الدوام ، ولن يلبث أن يؤدى قبل أن يمضى عليه عامان الى قيام حرب كبرى بينهما . حقا ان الحالة فى أوروبا كانت غير مستتبة وثمة مشاكل عديدة كان يمكن أن تؤدى الى نشوب الحرب ، الا أن القوة الدافعة الى الحرب قد تمثلت بلا كبير شك فى قوة وطموح بروسيا ووزيرها العتيد . فقد كان الحلم الذى لم يبرح مخيلة بسمارك قط هو توحيد ألمانيا على يد بروسيا وبسط السيطرة البروسية عليها ، وكانت تقاليد النمسا ومزاعمها هى العقبة الكأداء فى سبيل تحقيق ذلك الحلم .

أما المشكلة التى ساعدت على تحقيق خطط بسمارك فقد ظهرت فى الطرف الآخر من كتلة أراضى أوروبا الوسطى . اذ كانت الحكومة

الايطالية جنوب الألب تحرص كل الحرص على كسب أراض جديدة رغم الصعوبات التى تلاقيها فى ادارة الأراضى التى فازت بها مؤخرا . وكانت روما هى المدينة والأرض المشتهاة قبل غيرها ، ولكن فرنسا كانت تقف حجر عثرة فى الطريق إليها . وكانت ايطاليا قد وقعت فى سبتمبر ١٨٦٤ معاهدة مع فرنسا وعدت فيها بالامتناع عن مهاجمة روما وباتخاذ فلورنسة عاصمة لها بدلا منها ، وبناء على تلك الشروط وعدت فرنسا بسحب حاميتها من روما . على أنه اذا كانت روما قد حرمت على مملكة ايطاليا فان البندقية لم تحرم . حقيقة أن البندقية كانت من عدة أوجه منفصلة سواء من حيث التاريخ أو الطباع عن بقية ايطاليا ، الا أنها كانت راغبة فى الاندماج فى ايطاليا ، وكانت ايطاليا تشعر بأن وجودها لن يكتمل طالما ظلت البندقية تحت حكم الهابسبورج . وقد شرع بسمارك الذى كان يدرك أن بلاده مقدمة على صراع مع النمسا فى مفاوضة ايطاليا ، فتوصل معها بشيء من الصعوبة الى اتفاق على أن يدخل البلدان بجميع قواهما المعركة ضد النمسا فى حالة نشوب الحرب معها ، وعلى أن تمتنع بروسيا عن عقد الصلح حتى تحصل ايطاليا على البندقية . ولكن ما القول فى فرنسا ؟ ان نفوذها قد يكون حاسما . فنابليون الثالث كان لا يزال يتطلع الى اعتباره الفيصل بين السلم والحرب فى أوروبا . لقد قام بسمارك فى أكتوبر ١٨٦٥ بزيارته الشهيرة له فى بياريتز Biarritz ، وهناك تمكن فى جو من المرح الظاهرى من ضمان حسن نية فرنسا . كان نابليون يعيش فى عالم من الأحلام فقال : « ان بروسيا وفرنسا هما من بين بلدان أوروبا البلدان اللذين تكاد تتماثل مصالحهما » . قالها ولئن تمضى خمس سنوات حتى تقع معركة سيدان !

وقد بدا فى وقت من الأوقات أن الحرب توشك أن تقع فى ١٨٦٥ ، فقد أثارت شركة النمسا وبروسيا فى الدوقيتين صعوبات ومشاكل عديدة ، ولكن اتفاقية جاستين لم تلبث أن «رأبت الصدع من الظاهر»

فى أغسطس فاققسم الشريكان الغنائم ، وتقرر أن تتولى بروسيا ادارة شلزيڤيج وهى الدوقية الأقرب الى الشمال ، على أن تتولى النمسا ادارة هولشتين وهى الدوقية التى يغلب عليها الطابع الألمانى . لقد كان الموقف شائكا ولكنه ما كان ليستعصى على الحل السلمى اذا ما توفرت الرغبة القوية فى السلام .

على أن الموقف السياسى داخل بروسيا قد ساعد على ابعاد احتمال انتهاجها لسياسة السلام . ذلك أن معارضة الأحرار لم تتوقف عن مهاجمة بسمارك وجميع أعماله ، وان تكن التسوية الدنمركية قد وفرت بعض دواعى الرضى - اذ آتته الى وضع الدوقيتين من ذلك الحين فصاعدا فى أيد ألمانية . وقد تقدمت هذه المعارضة فى فبراير ١٨٦٦ بمشروع قرار بلوم الحكومة لملاحقتها بعض أعضاء الجمعية ، فعادت من جديد ذكرى شارل والبرلمان المديد التى لم تكن قد برحت الأذهان قط ، وأقر لوم الحكومة بأغلبية ٢٦٣ صوتا ضد ٣٥ صوتا . فما كان من بسمارك الا أن عطل الجمعية مؤقتا ثم حلها . ومن الغرابة بمكان أن القلاقل السياسية الداخلية قد قوت من عزيمة بسمارك بدلا من أن تفت فى عضده .

وقد وقع الصدام مع النمسا حول التأييد الذى قيل انها أبدته لمطالب فردريك أوف أوجستنبورج . ذلك أن النمسا وبروسيا كانتا تتبعان فى ادارة المقاطعتين سياسة مختلفة تماما . فقد بذل الممثل النمساوى قصارى جهده لكسب مودة أهالى هولشتين ، ووصف فى أحاديثه مطالب فردريك أوف أوجستنبورج بأنها لم تعد باطلة . بينما راحت بروسيا تحكم منطقها بيد من حديد دون أن تقيم وزنا لمشاعر الشعب وأمانيه . فلما عقد اجتماع فى ألتونا Altona - الواقعة بالقرب من هامبورج وفى المنطقة الخاضعة للنمسا - تأييدا لمطالب أوجستنبورج ، اعتبرت بروسيا ذلك عملا عدائيا ، وعذرا كافيا لاشغال نيران الحرب التى ما برح موجهو السياسة البروسية يتنبأون

بها ويتطلعون اليها منذ زمن وهو أمر يمكن أن نجزم به دون أدنى شك . حقيقة أنه ما من حرب تنشأ عن سبب واحد أو نتيجة لتصرف فرد واحد ، فهناك دائما أسباب ثانوية وعوامل مساعدة عديدة . ولكن من الأمور المؤكدة أن بسمارك ومولتكه ورون كانوا في ١٨٦٥ راغبين في قيام حرب مع النمسا لاعتقادهم بضرورتها لمصالح بروسيا وسياستها في ألمانيا . ثم ان التغلب على المتاعب الداخلية والمقاومة العنيفة التي تبديها المعارضة البرلمانية لم يكن مستطاعا ، فيما يبدو ، الا بهذه الطريقة . وقد وصف مولتكه تلك الحرب فيما بعد بأنها « حرب تطلعت اليها الأبصار قبل وقوعها بأمد طويل » ، ودبرت عن قصد ، واعتبرها مجلس الوزراء ضرورية لا لتحقيق توسع اقليمي وانما لضمان زعامة بروسيا في ألمانيا » . وقد أدرك بسمارك أيضا أن مركزه الشخصي كان متوقفا على نتيجة الصراع فقال « لو فشلت لقفزت بي عجائز النساء الى البالوعة مشيعا بلغناتهن » .

لقد كان لمصير شلزيڤيخ وهولشتين أهمية كبرى ، ولكنه سرعان ما تراجع الى مؤخرة الصورة . ذلك أن الأفق أخذ ينذر بنشوب حرب بين دولتين عسكريتين كبيرتين ، فراح ساسة أوروبا يبحثون في قلق محموم المشاكل التي قد تنجم عن مثل هذا الموقف . وما أكثر النوايا الطيبة والخطط الرامية لمنع الحرب التي أعلنتها الدول غير المعنية بالأمر بصفة مباشرة ، في الوقت الذي أخذت تتأهب فيه للظفر بمنعم ما سواء من أرض أو نفوذ اذا ما نشبت الحرب فعلا . على أن الجو انسائد كان مفعما بالتنافس والريبة بل والخوف قبل كل شيء ، مما وضع أشد العراقيل في وجه المحاولات التي بذلت لصيانة السلام . وقد كان « للدويت » الألماني بفرانكفورت بعض الحق في أن يعتبر حكما في النزاع ، ولكن بروسيا والنمسا لم تكونا على استعداد لقبول أى تدخل من جانبه . فكان أن سارت أوروبا ، على نحو شاهده مرارا من قبل وستشاهده ثانية من بعد ، بخطى مترنحة الى الحرب عبر متاهة

من المقترحات والمقترحات المضادة ومشروعات نزع السلاح والدعوات الى تسوية الموقف عن طريق مؤتمر . على أن بسمارك لم يزغ قط لافى إيمانه بأن السيف هو السبيل الوحيد لحل المعضلة ولا فى عزمه على اللجوء اليه ، فلم يكن أمام الملك وليم الا الاذعان شيئا فشيئا لإرادة وزيره القوى .

وثمة أمر واحد كان مؤكدا وسط الحيرة والغموض ألا وهو أن إيطاليا ستحصل على البندقية مهما حدث . فبروسيا قد وعدت بالأ تعقد صلحا الا بهذا الشرط . والنمسا من جانبها قد أعربت - حرصا منها على كسب حياذ فرنسا قبل كل شئ - وتأييدها أيضا اذا أمكن - عن استعدادها للتنازل عن البندقية حتى لو سارت الحرب فى صالحها فى إيطاليا وألمانيا . على أن وازع الشرف العسكرى قد منعها من تسليمها الى إيطاليا فى التو واللحظة والخيالة بالتالى دون اشتراك إيطاليا على أى وجه فى الحرب المقبلة .

وقد بدا أن الامبراطور الفرنسى هو الذى يمسك الميزان بين يديه . فلم تتوقف المفاوضات بينه وبين النمسا وبروسيا وإيطاليا . وظل الموقف الذى ستتحذه فرنسا غير مؤكد حتى آخر لحظة رغم مقابلة بسمارك الشهيرة مع نابليون فى بياريتز . وكان الامبراطور قد وقع فريسة للداء الذى ثبط - فيما يبدو - همته وأضعف عزيمته منذ ذلك الحين حتى وفاته . فلم يكن - على النقيض من بسمارك - يرى شيئا بوضوح وجلاء ولم يكن متأكدا من رغباته الخاصة ، بل كان يعيش فى عالم من المشروعات الغامضة التى هى خليط من الحقائق والأوهام ، ورغباته كانت عديدة متضاربة فهو يريد أن يظهر فرنسا بمظهر حارسة السلم فى أوروبا ، وهو يريد أن يفعل شيئا من أجل قضية القومية التى طالما بشر بها ، وهو يريد أن يساعد إيطاليا فى الطريق الى الوحدة ، وهو يريد قبل هذا كله أن يحقق لفرنسا فى حالة نشوب الحرب كسبا ماعلى حدود الراين اذا وجد الى ذلك سبيلا . وكان

يعتقد أن قوات بروسيا والنمسا متكافئة تقريبا وأن الحرب ستكون على ذلك حربا طويلة غير حاسمة ، وأن سيف فرنسا في النهاية هو الذى سيتدخل لترجيح إحدى الكفتين . وقد أخذ يتجه قبيل اندلاع يران الحرب اتجاها واضحا الى صف النمسا . فوقع معها في يونيو ١٨٦٦ اتفاقا وعدت فرنسا بمقتضاه بالتزام جانب الحياد وبذل قصارى جهدها لابقاء ايطاليا أيضا على الحياد ، بينما وعدت النمسا بتسليم البندقية لاطاليا في نهاية الحرب أيا كان مجراها وبالتشاور مع فرنسا حول أية تغييرات في الدستور الألماني أو في توازن القوى بين أعضائه . وقد شهد « داييت » فرنكفورت آخر مراحل النزاع الدبلوماسى ، فقد أثارت اتفاقية جاستين حفيظة الدول الألمانية الصغرى على النمسا وبروسيا جميعا . ولكن نفوذ هذه الدول على مجرى الأحداث كان ضئيلا . فقد باتت الكلمة الأخيرة ، كما رأى ترايتشك Treitschke في سرور بالغ ، للقوة لا للآراء والأصوات ، ولقد أظهرت الحرب الدائمركة مدى ضآلة نصيب « الداييت » من القوة . وكانت فكرة إصلاح الدستور الألماني قد أخذت تداعب ذهن بروسيا منذ بعض الوقت . فعمدت في يونيو ١٨٦٦ الى تقديم اقتراح محدد بحل « الديت » القائم والغاء الدستور ، وانتخاب جمعية وطنية جديدة للنظر في وضع دستور قومى تستبعد منه النمسا والأراضى النمساوية . فأجابت النمسا على ذلك بإعلانها أن بروسيا قد خرقت معاهدة فيينا واتفاقية جاستين ، وراحت تدعو الى تعبئة الجيش الاتحادى ضدها . وقد حصل الاقتراح النمساوى على سبعة أصوات ضد ستة . وكانت بفاريا وسكسونيا وهانوفر وبادن ضمن مؤيدى النمسا . واحتج سافينى Savigny مندوب بروسيا رسميا على تصرف النمسا باعتباره تصرفا غير دستورى ، وأكد من جديد انتهاء الدستور القائم واستعداد بروسيا للتعاون فى وضع دستور جديد . ولكن ذلك كله كان عبثا لا طائل من ورائه الى أن يفصل فى الموقف قرار عسكرى . وقد جاء ذلك القرار الحاسم بسرعة فائقة غير متوقعة بالمرة .

الفصل التاسع عشر

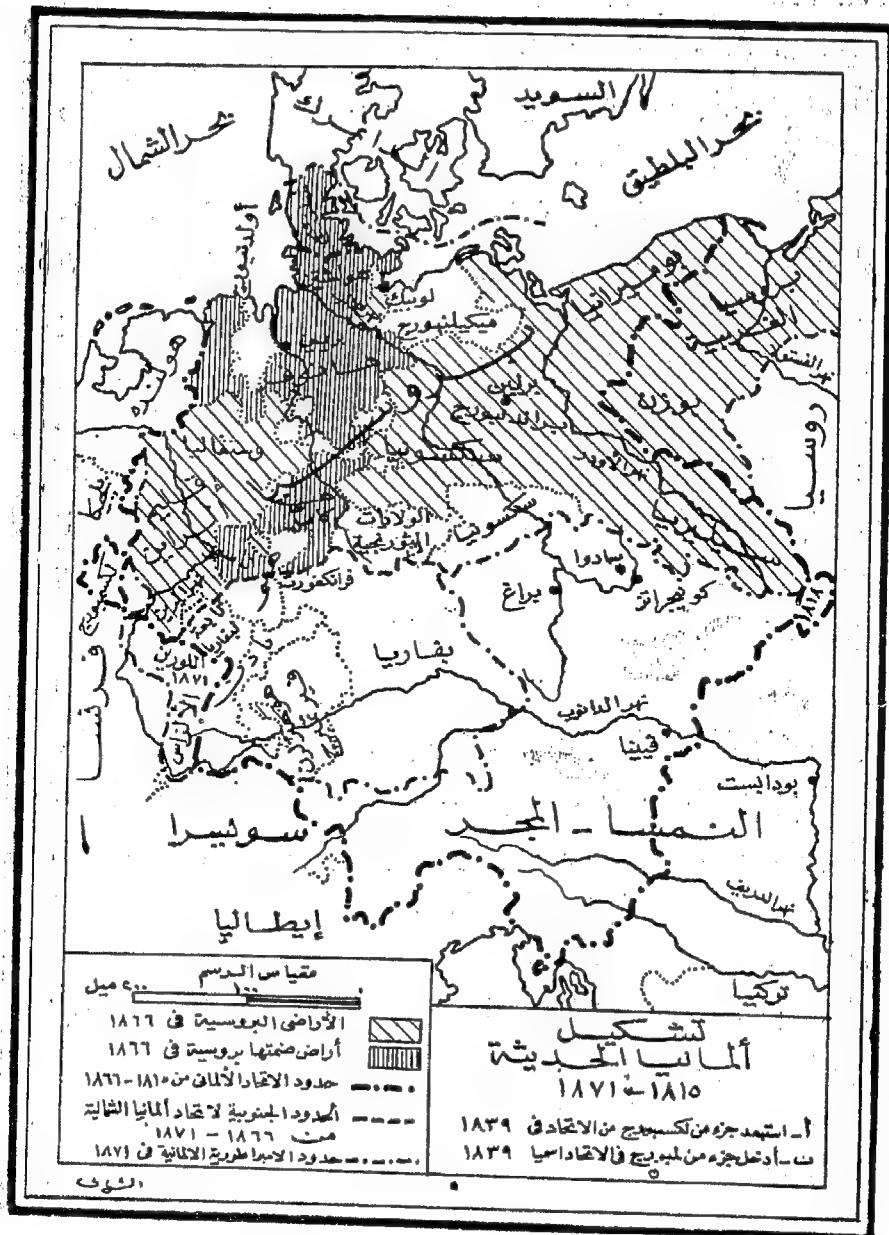
هزيمة النمسا واقتراب الحرب مع فرنسا

راحت أوروبا ترقب الحرب بين بروسيا والنمسا بعين الدهشة. وكان الرأي السائد هو أن فرصة النمسا في النصر أقوى من فرصة غريماتها ذلك أن النظام العسكري البروسي لم يكن وضع موضع التجربة وشاع الاعتقاد بأن الجنود البروسيين الذين لم يقضوا في الخدمة العسكرية الا فترة صغيرة لن يثبتوا أمام الجنود النمساويين ذوي التدريب الطويل والتقاليد العسكرية العريقة أنهم أكفأ كثيرا من قوات « حرس وطني » . وكان نابليون الثالث يأمل أن يكون الصراع متكافئا حتى يتيح له فرصة التدخل ويمكنه من الظهور مرة أخرى بمظهر جالب السلم والنصر .

ولكن الصورة الفعلية التي قدمتها الحرب جاءت مخالفة تماما لما كان متوقعا . فقد أدى الجهاز العسكري البروسي دوره بدقة رهيبه ، وثبت أن البندقية ذات الابرّة سلاح يفوق بندقية الشاسبوت الفرنسية . وقد تعرضت استراتيجية مولتكه حقا لبعض النقد ، ولا مرأى في أن الصراع بدا في بعض اللحظات متكافئا تماما ، وفي أنه كان يمكن لأي نقل صغير يلقي في الكفة الأخرى أن يرجحها ويؤدي الى انتهاء الحرب نهاية مغايرة . على أنه اذا كان الحظ قد لعب دورا فانه قد لعبه في صالح بروسيا وحدها . فانتصر مولتكه دون أن يصادف مقاومة جديّة تذكر وقد أديرت الحملة بالأسلوب الذي أصبح يعرف فيما بعد باسم الأسلوب البروسي الكلاسيكي . فلم يحدث أى تأخير في بدء القتال ، وكان كل شيء معدا من قبل ، فتمكنت بروسيا من اتخاذ

موقف الهجوم منذ اللحظة الأولى ، وتقررت النتيجة بعد ثلاثة أسابيع . قامت الحرب في ١٤ يونيو عقب الجلسة الأخيرة من جلسات الديت الألماني . وتعين على بروسيا أن تواجه قوات عدوين : فهناك الجيش النمساوى في بوهيميا ، والجيش الهانوفرى الذى كانت خطته تقضى بالانضمام الى البافاريين والألمان الجنوبيين . وفي ٢٨ يونيو - أى بعد أسبوعين تماما من اعلان الحرب - وقع الجيش الهانوفرى في براثن العدو ففى عليه قضاء مبرما في لانجسالزا Langensalza . وبعد ذلك بخمسة أيام (٣ يوليو) التحم مولتكة بالجيش النمساوى في ساحة القتال التى يطلق عليه المؤرخون الانجليز عادة اسم سادوا ويسمى بها المؤرخون الألمان كونيغراتز Koniggratz . وقاتل النمساويون بقيادة بنديك Benedek ببراعة وعناد ، ومرت لحظات جعل بسمارك يرقب فيها وجه مولتكة بعين القلق محاولا أن يقرأ فيه ما يشير الى مصير اليوم . على أن وصول ولى العهد البروسى الى ميمنة الجيش النمساوى بعد مسيرته الشهيرة ، مالبث أن قرر مصير اليوم ووهب النصر للبروسيين .

وقد اضطرت النمسا بسبب تحالف ايطاليا مع بروسيا الى الاحتفاظ بقوة ضخمة جنوب الألب كان يمكن أن تكون لها فائدة كبرى في سادوا . ولم يظهر الايطاليون مهارة تذكر أمام الأرشيدوق ألبرخت Archduke Albrecht فى سهل لومبارديا ، وقد انتهى بهم المطاف الى الهزيمة الفادحة . ففى ٢٤ يوليو سحقته قواتهم فى كستوزا Custozza وهى الموقع الذى منيت فيه أمانى الوطنيين الايطاليين فى مرة سابقة بضربة شديدة . كما منى الأسطول الايطالى الذى كان تفوقه على الأسطول النمساوى مؤكدا فيما يظن ، بهزيمة فادحة فى معركة ليزا Lissa . ولو أن ايطاليا كانت تقف بمفردها لتبددت جميع ثمار عام ١٨٥٩ . ولكن بسمارك كان قد وعد بالامتناع عن عقد الصلح مانهم تمل ايطاليا البندقية . فكان أن أكمل نصر البروسيين فى سادوا



العمل الذى أنجز فى ماجنتا Magenta وسولفيرينو Solferino ولم يكن انتهاء الحرب بعد سادوا مؤكدا . فان هزائم الايطاليين والمطامع العسكرية لمولتكه وملك بروسيا كانت تشير بالأحرى الى أن القتال سيستمر حتى يتم الزحف على فيينا . والفضل فى انتهاء القتال واجراء مفاوضات الصلح بعد أن أحرزت الجيوش البروسية بعض التقدم فى زحفها نحو هدفها ، يكاد يرجع الى بسمارك وحده . فهو لم يثبت قط أنه أستاذ فى الدبلوماسية كما أثبت خلال السنوات الأربع بين ١٨٦٦ و ١٨٧٠ ، ولا يصح أن نصف ما أظهره فى تلك الفترة بأنه مجرد براعة دبلوماسية بل هو من قبيل الحنكة السياسية الأصلية كذلك . لقد كانت وحدة ألمانيا بزعامة بروسيا هى الفكرة التى تحتل المقام الأول بين أفكاره . وهذه الوحدة لم تكن لتحقيق النصر العسكرى على جيوش هى فى جوهرها جيوش ألمانية . لقد كانت مصالحه الألمان الجنوبيين أمرا لازما ، وكان من الضروري أن تعامل النمسا على نحو لا يدفعها الى النظر الى بروسيا نظرة الحقد الذى يطغى على كل ماعداه من الاعتبارات . ثم ان بسمارك كان يخشى أمرا آخر ألا وهو تدخل الامبراطور الفرنسى . ولئن كانت الأيام قد أثبتت حقا أن الصراع جاء أبعد ما يكون عن التكافؤ الذى كان يأمله نابليون الثالث ، فانه قد ظل حريصا على أن تقبله الدولتان وسيطا ، وقد أرسل السفير الفرنسى بنيديتى Benedetti الى مقر القيادة البروسية فى نيكولسبورج Nikolsburg لهذا الغرض . وبسمارك يحدثنا فى فصل شيق للغاية من كتابه « خواطر وذكريات » (١) عن الأسباب التى حدت به الى الاصرار على عقد الصلح . ومحور تفكيره يتمثل فى هذه العبارة « ان علينا أن نفرغ بسرعة ، قبل أن تجد فرنسا

(١) "Reflections and Reminiscences" الفصل العشرون
الترجمة الانجليزية الصادرة فى ١٨٩٨ .

وقتاً لممارسة الضغط الدبلوماسى على النمسا . وعلى هذا أجبر الملك على التخلي على مضمض عن فكرة الزحف الى فيينا وقبول شروط بدت له فى أول الأمر غير كافية بالمرّة . ووقعت معاهدة براغ فى ٢٣ اغسطس ١٨٦٦ فألت البندقية والأراضى الملحقة بها الى ايطاليا . اذ سلمتها النمسا لنابليون - الذى أسعده أن يلعب دوراً ما فى الدراما العظيمة - ليقوم بتسليمها لايطاليا . ولقد جرح هذا الاجراء كبرياء الايطاليين جرحاً بالغاً وجاء مثلاً جديداً على عجز نابليون عن كسب تأييد ايطاليا بعد كل ما فعله من أجلها . وأعلنت المادة الرابعة من المعاهدة أنه لم يعد للنمسا أن تطالب بالمساهمة بأى نصيب فى تنظيم ألمانيا . وتقرر بموجبها تشكيل « اتحاد ألمانيا الشمالية » وربط دول ألمانيا الجنوبية فى كيان دولى مستقل . وتقرر أن تذهب شلفيچ وهولشتين الى بروسيا وان تضمنت المعاهدة نصاً لم ينفذ قط بإعادة جزء من شلفيچ الى الدانيمرك اذا أعرب هذا الجزء عن رغبته فى ذلك فى استفتاء عام . لقد عاد الجنود ظافرين الى برلين ، وأثبت مولتسكه عبقريته كجندى وأظهر الملك وليم شيئاً من عظمتة الشخصية ، ولكن العقل المدبر من أول الأمر الى آخره كان عقل بسمارك .

وقد تفاوتت المشاعر فى أوروبا حيال هذه الأحداث الجسام من بلد لآخر . فقد قبلت فى بريطانيا بارتياح عام . وأدلى اللورد ستانلى Lord Stanley وزير الخارجية بتصريح سيبرز المستقبل أهمية كلماته : « اذا كنتم تعيرون المحافظة على السلم معنا أى اهتمام ، فعليكم أن تتجنبوا مسائل ثلاثاً : مصر والقسطنطينية وبلجيكا » . أما فى فرنسا فقد اعتبر نصر بروسيا كارثة كبرى . فقد قضى انتصار بروسيا فى سادوا على تفوق فرنسا فى أوروبا . فقال الماريشال راندون Randon : « ان فرنسا هى التى هزمت فى سادوا » . وقال ثير « ان ما حدث ليعد بالنسبة لفرنسا أعظم كارثة نكبت بها طوال أربعمائة

عام « - أى منذ نهاية حرب المائة عام . ولا مرأى فى أن نابليون الثالث شعر بأعمق الحزن لانتصار بروسيا . ولكنه حاول اخفاء غمه بقوله ان ذلك النصر هو نصر لمبدأ القومية الذى طالما دافع عنه بحماسة . وأضاف الى ذلك ، فى شىء من التناقض ، أن ألمانيا قد قسمت الى ثلاثة أقسام مستقلة وأن كل قسم على حدة يعد أصغر حجما من فرنسا ، وأعلن صراحة أن فرنسا ستحول مستقبلا دون قيام أى اتحاد جديد بين هذه الأقسام ، وأنها ستعمل على إعادة تنظيم جهازها العسكرى . كما أعرب عن أمله فى الحصول لفرنسا على تعويض ماعن الزيادة الضخمة فى سلطان بروسيا ، تمشيا مع فكرة التوازن الدولى . ولكن المرض كان قد اشتد به فى تلك الآونة ، فتعين عليه أن يترك لوزرائه جانبا كبيرا من المسئولية فى تصريف شئون فرنسا الدبلوماسية . ومجريات النشاط الدبلوماسى فى تلك الفترة تثبت امتياز بسمارك الخارق فى كافة النواحي ، فقد كان يعرف ما يريد وكان يعرف طريقه للحصول عليه . وقد أظهر فى القوة والنعمه ، وفى الأمانة والخداع ، تفوقا أكيدا على الدبلوماسيين الفرنسيين الذين واجههم فبدوا أمامه هواة يتبارون مع أستاذ لا يشق له غبار .

وقد أوعز نابليون أولا وقبل عقد الصلح بين بروسيا والنمسا ، الى بنيديتى سفيره فى بروسيا أن يشير الى أن فرنسا قد تستمال الى قبول ضم بروسيا للأراضى التى تنوى ضمها فى ألمانيا ، اذا ماسمح لها (أى لفرنسا) أن تمتد حدودها الى الراين بل وأن تضع يدها على مينز Mainz كذلك . ومعنى هذا أن تضم فرنسا أراضى ألمانية خالصة من حيث الأصل والطباع . فضلا عن ذلك فإن جزءا من هذه الاراضى كان تابعا لبافاريا ، زعيمة الألمان الجنوبيين ، التى كانت فرنسا تحرص على كسب ودها بصفة خاصة . وقد تعمد بسمارك ألا يظهر باذى الأمر نفوره التام من هذه المقترحات ، بل حث بنيديتى على تقديم بيان

رسمى بمطالب فرنسا . وما ان تم ذلك حتى جوبهت تلك المطالب بالرفض القاطع ، فأعلن ملك بروسيا أنه لن يتخلى بحال من الأحوال عن قرية ألمانية واحدة وأنه يؤثر على ذلك المغامرة بدخول حرب جديدة . فاضطر الامبراطور الفرنسى الى سحب مقترحاته لأنه لم يكن مستعدا لرفضها بقوة السلاح . وكانت تلك صدمة مهينة للديبلوماسية الفرنسية لم يقف أمرها عند هذا الحد ، فقد أبلغ بسمارك المقترحات الفرنسية الى مراسل صحيفة « لو سيكل Le Siècle » الفرنسية فنشرتها على الملأ وعرفها العالم أجمع . وهكذا لقن الألمان الجنوبيون درساً ، لقنوا أن يروا في نابليون صديقاً خئولاً ، وأن يروا في بروسيا المدافع الصلب عن وحدة ألمانيا وسلامتها بل وسلامة تلك الدول التى كانت تحارب ضدها (١) . ولم يعد بوسع نابليون أن يلجأ فى تبرير مسلكه هذه المرة الى مبدأ القومية الأثير عنده .

لقد فشلت فرنسا فى الحصول على تعويض على حدودها الشرقية ، فهل يكون حظها أسعد فى الشمال ؟ لقد حذرنا بسمارك من مغبة الاقتراب من الأراضي الألمانية ، فهل تراه يزود عن أراضي بلجيكا بنفس الصلابة ؟ كان مد حدود فرنسا الى الشمال حلماً من أحلام ساستها مدى قرون طويلة . وكان جانب كبير من البلجيكيين يتحدثون بلسان فرنسى . ولم تكن بلجيكا دولة عريقة وانما كانت من الدول التى أنشأتها الديبلوماسية الأوروبية منذ زمن قريب نسبياً . وكان بسمارك

(١) وقعت المعاهدات البروسية مع دول ألمانيا الجنوبية فى تلك الأونة أى قبل صلح براغ . وقد نصت المادة الرابعة من معاهدة الصلح هذه على أن حدود اتحاد ألمانيا الشمالى الجديد تقع « شمال خط نهر المين Main بينما نصت المعاهدات التى وقعتها بروسيا مع الدول الجنوبية على امتداد النفوذ البروسى جنوب ذلك النهر مما يدفعنا الى القول بأن المادة الرابعة من معاهدة براغ قد انتهكت من قبل أن توقع على ما فى ذلك القول من تناقض ظاهر .

قد استخدم عبارات يفهم منها - على ما بدا - أن احتلال فرنسا لبلجيكا لن يعتبر حتما عملا عدائيا لروسيا . فصدرت التعليمات لبنيديتي، بعرض هذه الفكرة الجديدة على الحكومة البروسية. ويحيط بهذه الواقعة وتفاصيلها الكثير من الغموض وتضارب الأدلة . بل ان تاريخها نفسه ليس مؤكدا بحال وان ساد الاعتقاد بأنها كانت في أغسطس . على أنه من المؤكد أن بنيديتي قد عرض الفكرة بالتدريج ، ثم قدم لبسمارك في النهاية اقتراحا مكتوبا بأن تساعد بروسيا فرنسا وتحميها من التدخل الأجنبي في حالة غزوها لبلجيكا . الا أن الموقف في أوروبا كان يتطور باستمرار لصالح بروسيا مما أدى الى تساؤل أهمية حصولها على معاونة فرنسا . وعلى هذا رفض بسمارك فكرة توسع فرنسا صوب بلجيكا بنفس الحزم الذي رفض به تعويضها على حدود الراين . وقد احتفظ بأصل المشروع الذي قدمه بنيديتي ، ثم استخدمه بعد ثلاث سنوات ليحدث به أثرا حاسما في لحظة حرجة . فعندما نشبت الحرب في ١٨٧٠ بين فرنسا وألمانيا، وظهر الخوف من انحياز الرأي العام الانجليزي الى صف فرنسا ، أعطى بسمارك الوثيقة الى مراسل صحيفة التايمز The Times ، وينشرها تبين القراء الانجليز أن الإمبراطور الفرنسي كان يسعى في وقت من الأوقات الى انتهاك حياد تلك الأراضي البلجيكية التي طالما قدروا أن استقلالها أمر لازم لمصالحهم ، فأدى ذلك الى تحول مشاعر الانجليز لصالح ألمانيا .

لقد حرم على فرنسا بلوغ حدود الراين كما حرمت عليها بلجيكا . ولكن ما القول في لوكسمبورج ؟ ان ضم الدولة الصغيرة سيعد نصرا عظيما ، وربما أمكن أن يتم دون اثاره معارضة رجل الدولة البروسي العظيم . كانت دوقية لوكسمبورج مجموعة غريبة حقا من المتناقضات . فقد كان معترفا بها كدولة مستقلة ، وكان ملك هولندا هو دوقها الأعظم بحكم الوراثة . ولكنها كانت في الوقت نفسه عضوا

فى الاتحاد الألماني والزولفرين ، وكانت هناك حامية بروسية تحتل منذ ١٨١٥ قلعتها المنيعة على سبيل الوقاية من أى هجوم تشنه فرنسا على ألمانيا .

وقد تولى وزير خارجية فرنسا دى موستييه De Moustier أمر هذه المفاوضات الدقيقة . كان ملك هولندا يعانى من صعوبات مالية ، ولا يحقق فائدة حقيقية من حكمه الاسمى لأهالى لوكسمبورج الذين يتحدثون الفرنسية ولا يتجاوز عددهم مائتى ألف نسمة . فعرضت عليه فرنسا مبلغا من المال على سبيل التعويض ولكنه طالب بالمزيد ، فعارض نابليون فى ذلك ثم أذعن فى النهاية . وقد كان يمكن للمشروع أن يتم فتواجه أوروبا وبروسيا بالأمر الواقع لو لم يضيع نابليون الوقت فى المساومة ، ولو لم ير ملك هولندا ضرورة اخطار الدول العظمى الموقعة على ضمان حياد لوكسمبورج فى ١٨٣٩ . بالمقترحات المعروضة . واذ كانت بروسيا ضمن هذه الدول فقد طرح الموضوع الذى كان بسمارك قد عرفه من قبل بصفة شخصية على الحكومة البروسية بصفة رسمية . فثارت ثائرة المشاعر القومية الألمانية التى ألهبها وعززها الانتصار على النمسا ، ضد هذا الاقتراح الذى يرمى الى تسليم أرض قد تعد ألمانية الى منافسهم الأكبر . ورفضت بروسيا الموافقة على الاتفاق المزمع عقده ، فانهار المشروع من أساسه . وبدا أن ذلك قد يؤدى الى نشوب حرب كانت ستلقى ترحيبا من القادة العسكريين فى بروسيا ومن حزب كبير فى ألمانيا . ومهما يكن من أمر فقد ارتفعت أصوات تنادى بالتوفيق ، فكتبت الملكة فكتوريا الى ملك بروسيا فى هذا الشأن ، واستخدمت روسيا كذلك نفوذها من أجل السلم . وكان بسمارك نفسه ضد الحرب . ومن ثم فقد عقدت تسوية بشأن لوكسمبورج ، لم تتضمن الا سحب الحامية البروسية التى لم يعد لبقائها أى مبرر فيما هو جلى . الا أن الحرب كانت قد

أوشكت على الوقوع . وقد قال مولتكه « ما من شيء كان سيلقى منا الترحيب مثل الحرب ، وهى آتية لا محالة على كل حال » . واصطبغت المشاعر فى ألمانيا وفرنسا على السواء بصبغة العداء المرير .

وهكذا بينما كانت فرنسا تبذل المحاولات المرتبكة الفاشلة لاستعادة مكائنها واسترداد هيبتها فى أوروبا ، أخذت بروسيا تزداد قوة على قوة وراحت تعبد الطريق الذى ستمضى منه فى غضون أربع سنوات من معركة سادوا ، الى الوحدة فى ألمانيا والتفوق فى أوروبا .

لقد تحدث صلح براغ عن قيام دستور اتحادى لألمانيا الشمالية . وقد أصبحت بروسيا صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة هناك . فقد تعين على هانوفر أن تدفع ثمن تحالفها مع النمسا ودول ألمانيا الجنوبية فى الحرب الأخيرة ، بفقدان استقلالها وضم أراضيها الى بروسيا . أما دول ألمانيا الشمالية الأخرى مثل أولدنبورج Oldenburg ومكلنبورج Mecklenburg وبرونسويك Brunswick وأنهالت Anhalt

وكوبورج - جوتا Coburg-Gotha ودمولد Detmold فكانت عاجزة عن ابداء أية معارضة لمشئبة بروسيا . ولو شاء بسمارك أن يضمها جميعا لما لقى مقاومة تذكر ، وقد أشار عليه البعض بأن يتخذ لألمانيا الجديدة شكل الدولة المركزية الموحدة بدلا من الرابطة الاتحادية . الا أن ذلك كان ينطوى على مخالفة لمنطوق معاهدة براغ ، فى حين أن تفوق بروسيا كان أعظم من أن يثير الخوف من قيام أية منافسة جدية لها من سائر الدول الألمانية . كما أن هذا الاقتراح من شأنه أن يثير الصعوبات فى وجه قيام اتحاد بين ألمانيا الشمالية والجنوبية ، الأمر الذى كان بسمارك يعقد عليه أعظم الآمال .

وقد ظهرت تكهنات كثيرة حول الشكل الذى سيتخذه الدستور الجديد . ونشطت فى وضعه عقول كثيرة ، ولكن النفوذ الحاسم كان لبسمارك . وقد جاءت النتيجة شيئا جديدا فى تاريخ أوروبا الدستورى ،

ألا وهى ظهور دولة اتحادية من نوع لم يسبق له مثيل فى أوروبا . وقد التزم واضعو الدستور أهدافا معينة هى قيام دولة جديدة ، لا مجرد اتحاد أو رابطة تضم دولاً قائمة بالفعل ، وأن تكون الكلمة العليا فى هذه الدولة الجديدة لبروسيا ، وأن تستند الحكومة التنفيذية الى الملك لا الى أغليات متقلبة فى الجمعية ، وفوق هذا كله ، ألا اتقف أية صعوبات دستورية فى وجه انضمام الدول الجنوبية الى شقيقاتها الشمالية اذا ما رغبت فى ذلك فى أى وقت من الأوقات . وقد تم العمل على وجه السرعة فصدر فى يوليو ١٨٦٧ دستور مكن بسمارك من تحقيق جميع أغراضه .

وفيه تقرر أن تكون رئاسة الاتحاد وراثية لملك بروسيا وهو الذى يعين موظفيه ويراقبهم عن طريق المستشار . وهذا المستشار ليس رئيسا للوزارة يستند الى تأييد الجمعية ولا ندا من الوجهة القانونية للوزراء الذين يرأسهم ، وانما هو يستند استنادا كليا الى الملك ، والوزراء يعتبرون مرءوسيه لا زملاءه . وقد كان اختبار بسمارك ليكون أول مستشار أمرا محتوما شأنه شأن اختيار وليم ملك بروسيا ليكون أول رئيس للاتحاد .

وتقرر أن يتألف مجلس الاتحاد (البوند سرات Bundesrat) من ممثلين عن دول الاتحاد المختلفة . وهؤلاء يمثلون حكومات الدول لا شعوبها . وقد حدد الدستور عدد الأصوات التى تملكها كل دولة . فكان لبروسيا سبعة عشر صوتا ، بينما لم يكن لأية دولة أخرى أكثر من أربعة أصوات . وعن طريق هذا المجلس سيطرت بروسيا على سياسة ألمانيا الشمالية ودستورها .

أما المجلس الآخر وهو ديمت الاتحاد ، فقد تقرر أن يكون انتخابه « بطريق الاقتراع السرى العام المباشر » . الا أن مظهر الدستور الديموقراطى قد شوه تماما فى التطبيق . على أنه يجمل بنا أن نترك

القصة هنا لنعود فنتابعها عند ادماج هذا الدستور في دستور
الامبراطورية الألمانية في ١٨٧١ .

وما ان بدأ تطبيق الدستور حتى بات جليا أن بسمارك قد أحرز نصرا
هاما آخر . ذلك أن معركة سادوا لم تسفر عن هزيمة النمساويين
فحسب بل أسفرت كذلك عن هزيمة المعارضة الداخلية لسياسة
بسمارك في بروسيا ودول ألمانيا الشمالية . فلقد وهب بسمارك الألمان
المجد العسكرى واعجاب أوروبا بدلا من الحرية . ولقد نالوا عوضا
عن كل ما هو غير شرعى في تصرفاته ، فصاروا يعتبرونه على مر الأيام
بطل ألمانيا القومى ، وسرعان ما انكششت المعارضة لسياسته حتى لم
يعد لها شأن يذكر .

وثمة نصر آخر كان ينتظره . فالدول الجنوبية كانت قد حاربت في
صف النمسا وضد بروسيا ، فراح الساسة الفرنسيون يمنون أنفسهم
بالأمل في تفاقم عداوتها لبروسيا نتيجة للهزيمة ، وفي أنهم قد يتمكنون
من الاعتماد عليها كقوة مناوئة ثابتة في جنب بروسيا . ولكن العكس
هو الذى حدث . فلقد قاربت بينها وبين بروسيا عوامل عدة هى
اشتراكها معها في قومية واحدة هى القومية الألمانية وارتباطها بها في
الزولفرين ، ودفاع بسمارك عن مصالحها ضد فرنسا وهو ما أشرنا
اليه من قبل ، واعجابها بالمجد العسكرى الذى أضفته بروسيا على اسم
ألمانيا . وما كان الجنوب ليستطيع أن يوفر لنفسه القوة لو أنه وقف
بمفرده . وقد عرف بسمارك كيف يسهل على هذه الدول تغيير موقفها .
ووجد العون من بعض سياستها وخاصة فارنبولر Varnbul er من
فورتمبرج Wurtemberg فكان أن وقعت معاهدات هجومية
ودفاعية بين بروسيا وكل من هذه الدول على حدة ، مما يعنى دخول
ألمانيا أى حرب تالية جبهة عسكرية موحدة .

ان أهم ما يعنينا فى هذه السنوات هو متابعة تجمع القوى التى أدت الى الصدام الكبير بين فرنسا وألمانيا فى ١٨٧٠ . ولكن علينا أن نعود أولا الى النمسا لنرى التغير الهائل الذى طرأ على طابع تلك الدولة وتنظيمها .

لقد أخفقت جميع المحاولات التى بذلت لاصلاح دستور الممتلكات الهابسبورجية فى تحقيق الاستقرار المنشود للدولة . فالقوميتان الرئيسيتان - الألمانية والمجرية - كانتا تقفان وجها لوجه وتصطف خلفهما أو تحت حكمهما ما يقرب من اثنى عشرة قومية أخرى . ولم تلق المحاولات التى بذلت لاختضاع جميع أقسام الدولة لبرلمان مركزى واحد ، قبولا فى كافة الصور التى اتخذتها . وكان الامبراطور قد شرع قبل نشوب الحرب مع بروسيا فى ١٨٦٦ فى التفاوض لاسترضاء المجرين وارساء دعائم الدولة على أساس جديد . فلما جاءت ضربة سادوا القاصمة عجلت من هذه العملية . فلو أن أمد الحرب قد طال للقى البروسيون عونا كبيرا من العناصر المتذمرة فى الدولة ولا سيما المجرين . ولم يكن البيت المالك النمساوى ليستطيع أن يعلق أى آمال على مستقبله مالم يوفق الى اقرار تفاهم النذ للنذ مع المجر ، ومما يذكر بالفضل للامبراطور فرنسيس أنه استطاع أن يدرك تلك الحقيقة . ولقد أسهم أجل اسهام فى تحقيق أهدافه الجديدة رجلان قديران أولهما الكونت بيوست Count Beust الذى استدعاه الى مجالسه وكان حتى ذلك الحين فى خدمة ملك سكسونيا ، فكان بذلك بعيدا عن التأثير بالأهواء والاحن التى كانت تعترض أى حل للمشكلة النمساوية . أما الثانى فهو فرنسيس ديك Déak الذى تقدم بمطالب المجر فى ثبات اقترن بالاعتدال وخلا من كل أثر للانذفاع

الثورى^(١) . رقد تعين على هذين الرجلين أن يكافحا الآراء المتطرفة بين أتباعهما . ولقد كان حكم المجريين لعدد من القوميات التابعة - من الرومانيين والصربيين والكرواتيين والسلوفاكيين - وحرصهم الشديد على ألا يتيحوا لها أية فرصة للاحتجاج أو الثورة عاملا يسر انجاز التسوية . فكان أن عقدت في ١٨٦٧ التسوية التى عرفت باسم The Ausgleich ^(٢) فأنشأت نظاما ثنائيا يقوم على المساواة الكاملة بين دولتين تكون السيطرة على الشؤون الداخلية للألمان فى احدهما وللمجريين فى الأخرى .

وعلى أثرها توج فرنسيس جوزيف رسميا ملكا على المجر لأول مرة . وقسمت ممتلكاته الى قسمين يفصل بينهما نهر ليثا Leitha ، وهو رافد ضئيل الأهمية من روافد الدانوب ، وأصبح لكل قسم إدارة مستقلة وحكومة خاصة - واحدة فى بشت Pesth والأخرى فى فيينا - تتولى كافة شؤونه الداخلية (فسرت عبارة الشؤون الداخلية تفسيراً فضفاضاً) وأصبح فرنسيس جوزيف يحمل فى النمسا لقب الإمبراطور وفى المجر لقب الملك . وباتت الإشارة إليه علنا فى المجر باسم الإمبراطور جريمة تقع تحت طائلة القانون . وقد قامت الى جوار هاتين الحكومتين حكومة ثالثة تتولى الشؤون الحربية والخارجية

(١) كانت فى المجر مدرستان من مدارس الفكر السياسى : مدرسة كوشوط Kossuth التى انتهت الى الثورة والمطالبة بخلع آل هابسبورج ، ومدرسة زيشيني Szechenyi التى كان محافظاً بناء حتى أن فكرة «الملكمة المشتركة» Combined Monarchy قد دأبت ذهنه فى وقت من الأوقات . وكان ديك ممثلاً للمدرسة زيشيتى فكان ينادى بالنظام الدستورى المعتدل القائم صراحة على النموذج الانجليزى - ولقد قال لفرنسيس جوزيف انه لا يطلب بعد سادوا أكثر مما كان يطلبه قبلها أى وضعاً دستورياً حقيقياً لبلاده .

(٢) ومعناها بالعربية « التسوية » . (المترجم) .

والمالية التى تمس الحكومتين وتتصرف فى هذه النواحي نيابة عن الدولتين . وقد عرفت هذه الحكومة الثالثة التى تعد أقوى من النمسا ومن المجر كل على حدة باسم المملكة المشتركة Common Monarchy ويعتبر هذا النظام الثنائى آية من آيات التوفيق والحكمة السياسية . ولقد منح النمسا والمجر زهاء نصف قرن من الهدوء والاستقرار النسبيين . ولكنه أحل من حيث الجوهر حكومتين قوميتين استبداديتين محل واحدة . فالوضع الجديد لم يشبع الأمنى القومية للتشيكيين والسلوفاكيين والبولنديين والرومانيين والسكرياتيين والصربيين ، ولم تجد هذه القوميات ما يرضيها فى مبادئ الدستور الديموقراطية المتحررة فى ظاهرها . فراحت بوهيميا تطالب بالمساواة مع المجر واستغلت الاحتفال بالذكرى المئوية الخامسة لميلاد هس Huss للمناداة بحقوقها . كما تفشت القلاقل وعم التدمير بين التشيكيين والروثينيين . ولئن كانت هذه الحركات موجهة ضد الأغلبية الألمانية فى دولة شمال ليشيا Cis-Leithan State (كان هذا الاسم يطلق عليها أحيانا) فإن المجرين فى جنوب ليشيا Trans-Leitha لم تنقصهم المتاعب . فالكرواتيون والصربيون والرومانيون كانوا حائزين أشد الحق على النير المجرى ، وقد ظل تدميرهم مصدر تهديد مستمر للدولة الثنائية حتى جاءت الحرب العظمى عام ١٩١٤ فسلطت الأضواء القوية على كل الاحز والضعائن القومية التى ظلت تعمل داخل « النمسا - المجر » الى أن انتهت بالقضاء على تلك « المملكة - الامبراطورية » .

وعلى هذا يمكننا أن نجمل الوضع فى أوروبا الوسطى عام ١٨٦٧ كما يلى : أصبح اتحاد المانيا الشمالى يسيطر على ألمانيا شمال نهر المين ، بينما ظلت ألمانيا الجنوبية تتألف من مجموعة من الدول المستقلة وحقت المملكة المشتركة التى أقامتها تسوية ١٨٦٧ الانسجام بين النمسا والمجر بدرجة تفوق أى وقت مضى ، وبدا من المحتمل أنها

ستشكل قوة توازن قوة ألمانيا الشمالية التي سيطرت عليها بروسيا .
أما إيطاليا فكانت قد فازت باستقلالها وإن لم تحقق وحدتها الكاملة
بعد ، اذ ظلت روما - وهي العاصمة التقليدية - خارج أراضي المملكة
الإيطالية . ومهما يكن من أمر فإن الوضع كان أبعد ما يكون عن
الاستتباب . ففي جميع القطاعات كانت توجد عناصر غير مستقرة
تتطلع إلى حدوث تغيير في المستقبل . وقد سنحت لها الفرصة بمجئ
الحرب الفرنسية البروسية التي قامت حول مشكلة أسبانيا .

* * *

كانت أسبانيا الممثلة الأولى « للنزعات التحررية » في أوائل القرن ،
وكان دستور ١٨١٢ الأسباني شعارا يلتف حوله الأحرار في أنحاء
عديدة من أوروبا . إلا أن الحكم الدستوري لم يسر في التطبيق سيرا
حسنا أو سهلا في شبه الجزيرة الأسبانية . فالوزارات كانت تتغير
والبرلمانات (كورتيز Cortes) تتعاقب فيما يبدو فوق السطح
الخارجي للدولة فقط ، أما تحت السطح فكانت تكمن حركة ثورية
تناصر اشتراكية بل وفوضوية المفكرين الفرنسيين والألمان . ورغم وجود
الأحزاب السياسية فقد كانت الخصومات والمطامع الشخصية هي القوة
المحركة الرئيسية بين المشتغلين بالسياسة . وقد أثبت الجيش وأثبتت
الكنيسة مرارا أن قوتها تفوق قوة الحكومة . وكانت كل حكومة
جديدة تصعد إلى الحكم تقيم في البلاد ديكتاتورية عسكرية . وقد
ظل إقرار الحرية الدينية أمرا متعذرا اللهم إلا بالاسم حتى نهاية القرن
التاسع عشر بسبب مقاومة الكنيسة الكاثوليكية الشديدة ونفور
الأهالي من كل خروج على العقيدة الرسمية .

ومع أن بلوغ الملكة إيزابيلا سن الرشد قد أعلن في ١٨٤٣ فإن

«السلطة الفعلية ظلت طوال السنوات العشر التالية - وحتى بعد زواج الملكة من ابن عمها فرنسيس - في يد الملكة الأم كريستينا ، وكانت الخصائص الرئيسية للحكومة هي كاثوليكيته المتطرفة ووقوفها في وجه أى اصلاح . وقد نشبت في ١٨٥٤ ثورة بمساندة الجيش - كما هو الحال دائما تقريبا في الثورات الأسبانية - فأيدها معظم السياسيين الذين يزخر بأسمائهم تاريخ أسبانيا البرلماني المضطرب في السنوات الخمس عشرة التالية وعلى رأسهم نارفايز Narvaez واسبريرو Espartero وأودونيل O'Donnel ، وسيت الملكة الأم كريستينا الى المنفى . فبدأت تلك بداية لحقبة أكثر تحررا .

على أن التغير الذى طرأ على طابع الحكومة لم يكن فى الواقع كبيرا ولا بد من أن يعزى جانب كبير من المسؤولية عن متاعب أسبانيا خلال السنوات التالية ، الى الملكة ايزابيلا نفسها . فقد كانت متعلقة بالخزعات أكثر منها بالدين الصحيح ، ولم تخل حياتها الخاصة قط من الفضائح الشنيعة ، وهى لم تظهر الى ذلك شيئا من الوطنية الصادقة أو البصيرة السياسية . وقد دأبت على تبديل الوزارات ، فكانت تعهد بالحكم تارة الى نارفايز الذى كان محافظا استبداديا وأخرى الى أودونيل زعيم « اتحاد الأحرار » الذى كان يلقي عسرا في تصريف شئون الحكم فى ظل الملكة ، فكان ميالا بالتالى الى تغيير شخصية الحاكم . وثمة شخصية أخرى كانت بارزة فى ميدان السياسة فى ذلك العصر هى شخصية بريم Prim الذى نال سمعة عسكرية طيبة فى الحرب المراكشيه وكان قاطعا فى رأيه . بأن الملكة ايزابيلا يجب أن تذهب . وقد مات أودونيل فى ١٨٦٧ ومات نارفايز فى ١٨٦٨ . وأدت محاولة الحكومة اعتقال القواد المتهمين الى المعارضة وتفهم ولا سيما أعضاء « اتحاد الأحرار » ، الى حدوث الانفجار . فوقف الأسطول والجيش ضد الملكة التى لم تكن تستحق ، ولم تجد فعلا ،

أى تأييد إيجابى . فما كان منها الا أن لاذت بالفرار (٣٠ سبتمبر ١٨٦٨) ،
فأعلن الثوار انهاء حكمها على البلاد .

وقد كان فى أسبانيا حزب جمهورى ، غير أنه رأى أن من الأفضل
تجنب استفزاز الدوائر الأوربية باعلان الجمهورية ، واستقر رأى
على إقامة ملكية دستورية . ولكن أين يمكن العثور على ملك ؟ لم
يكن العرش الأسبانى مريحا لشاغله فلم يقدم اغراء كبيرا للأمراء
أوروبا . وقد تناول البحث أو فوتح فى الأمر سبعة مرشحين . وأخيرا
ساد الاعتقاد فى يوليو ١٨٧٠ بأن المشكلة قد حلت وأن الأمير ليوبولد
أوف هوهنزرن سيجمارنجن Prince Leopold of Hohenzollern
Sigmaringen قد أغرى بقبول التاج . وهذا الترشيح هو الذى
هيا السبب المباشر لقيام الحرب الفرنسية - الألمانية التى بدأت فعلا
فى ١٥ يوليو ، بالرغم من أن الأمير ليوبولد سارع الى الغاء ترشيحه
عندما تبين شدة العاصفة التى يثيرها . ولم يعد ثمة مناص من استئناف
البحث عن ملك مرة أخرى . ولئن كان بريم قد وفق فى نوفمبر ١٨٧٠
الى استمالة دوق أوستا Duke of Aosta ابن ملك ايطاليا لقبول
التاج الأسبانى ، فان هذا الملك الجديد رفض بعد سنتين من الحكم
المضطرب الاستمرار فى منصبه الشائك وتنازل عن العرش . فأعقبت
ذلك تجربة قصيرة للنظام الجمهورى تلتها العودة الى النظام القديم فى
شخص الفونسو بن ايزابيلا . وفى عهده اقتربت أسبانيا من الاستقرار
الدستورى .

* * *

وقد بدأ الموقف الدولى فى منتصف صيف ١٨٧٠ هادئا هدوءا فريدا
حتى لقد قيل للورد جرانفيل Lord Granville عند تقلده منصب
وزير الخارجية أثر وفاة اللورد كلاريندون ، أنه ليس ثمة بالأفق الدولى

ما ينبىء بقرب هبوب أية عاصفة . وكان اميل أولففيه قد تولى رئاسة الحكومة فى فرنسا ، وكان مخلصا لقضية السلم فعقد العزم على تجنب العراك مع ألمانيا ، ومع هذا كله فإن الحرب أعلنت على ألمانيا فى ١٥ يوليو . ولا تزال أسباب هذا التغير المفاجئ موضع نقاش حاد . فكل من المؤرخين الألمان والفرنسيين يذهب مخلصا الى أنها كانت حربا دبرها الأعداء وأن صفحة بلاده بيضاء من أية ثبة سيئة أو مسلك استفزازى . فنبليون الثالث هو فى نظر الألمان شرير المأساة الذى أحس بترنح عرشه فراح يسعى الى تثبيتته باحراز نصر على العدو القومى لبلاده . بينما يرى الفرنسيون وراء الأمر كله يد بسمارك تفرض على فرنسا حربا لا تريدها لغرض فى نفسه هو استكمال بناء الوحدة القومية الألمانية ومهما يكن من أمر فثمة حقائق معينة لا تقبل الجدل تكمن وراء الحشد الهائل من التفاصيل التى لجأ اليها كل من الطرفين لتعزيز وجهة نظره . فالتوتر بين البلدين كان بلا شك كبيرا ، وطموح ألمانيا وغيره فرنسا وخوفها كانت بواعث لا جدال فى أهميتها ، والنظام الدولى فى أوروبا لم يكن ليهيئ سبيل التسوية السلمية للمشاكل العديدة التى تنجم عن الخصومة بين دولتين عظميين . ومما يذكر أن أحد الساسة الفرنسيين شبه البلدين بقايرتين تسيران فى اتجاهين مضادين على شريط واحد ، وخلص من ذلك الى أن التصادم بينهما واقع لا محالة .

وقد بلغ الخصام ذروته بظهور مشكلة العرش الأسباني . وليس هناك الآن أدنى شك فى أن ترشيح ليوبولد أوف هوهنزولرن سيجمان نجين قد تم بموافقة بسمارك وتأييده . فقد نوقش هذا الترشيح فى اجتماع غير رسمى عقد فى برلين برئاسة ملك بروسيا وحضور بسمارك ومولتكه ورون ، وانتهى البحث الى رفضه وقتئذ . ولم تمنح برهة وجيزة من الزمن حتى أعيد بحثه فيما بين بسمارك وبريم سرا ودون علم الملك وليم . وقد كان الأمير ليوبولد على صلة قرابة بعيدة

بملك بروسيا ، وكان كاثوليكيًا ، وكان شقيقه قد نصب مؤخرًا أميرًا على رومانيا ، فرؤى أن اعتلاءه العرش الأسباني سيحقق كسبًا عظيمًا لبروسيا من الوجهتين السياسية والتجارية . وخشى الفرنسيون الأمر لنفس الأسباب . فقد رأوا فيه بعثًا لامبراطورية شارل الخامس التي ظلت فرنسا تحاربها مدى قرنين من الزمان . ولذلك صمم وزير الخارجية الفرنسية دي جرامون De Gramont عند تلقيه برقية من برلين تقيده بقبول ليوبولد للتاج صمم على المقاومة بكل وسيلة ، وصرح منذ البداية أن اصرار بروسيا على الترشيح سوف يعنى الحرب . وقد حاول أولا الاحتجاج بالطرق الدبلوماسية العادية في برلين ، ولكن بسمارك كان متغيبًا عن العاصمة ولم يكن هناك من يستطيع أن يولى المطالب الفرنسية عناية جدية . فقبول الاحتجاج بالزعم بأن المسألة ليست الا مسألة عائلية تخص آل هوهنزولرن وحدهم ، وبالتأكيد الكاذب بأن الحكومة البروسية تجهل كل شيء عنها (١) . واذ كان دي جرامون يخشى ضياع الوقت وقبول البرلمان الأسباني لليوبولد قبل أن يبلغه اعتراض فرنسا فتظهر فرنسا بعد ذلك بمظهر من تسيء الى أسبانيا ، فقد قرر عرض الأمر على الجمعية الفرنسية . فألقى في ٦ يوليو خطابًا قصيرًا كان قد عرضه على مجلس الوزراء من قبل ونال موافقته عليه ، أوضح فيه في عبارات تحمل طابع الجدل أن فرنسا ستعتبر الامتناع عن سحب الترشيح سببًا للحرب . وتبعه أولفبييه فأعلن في كلمات ليست أقل خطورة : « ان الحكومة ترغب في السلم ورغبتها فيه حارة ، ولكنه ينبغي أن يكون سلمًا مشرفًا » .

(١) ونضرب مثلاً لذلك بالتأكيد الذي اعطاه فون تايل VonThile وكبل وزارة بسمارك الذي كان ممن حضروا الاجتماع الذي اشرنا اليه آنفا !

وتلبد الجو بغيوم الحرب وان بدا في بعض اللحظات أن هذه الغيوم
توشك أن تنقشع . فقد نشطت الوساطات من أربع جهات على الأقل
لحمل الأمير ليوبولد على سحب ترشيحه ، وفي ١٢ يوليو جاءت
الأنباء السارة بموافقته على ذلك . وبدا أن بروسيا تراجعت ازاء
التهديد الفرنسي ، فقال ثيير ان الانتقام لسادوا قد تحقق . وقال جيزو
ان ذاكرته لا تعي نصرا دبلوماسيا أعظم من ذلك النصر .

ثم جاءت الغلطة الانتخابية . فقد تقرر في اجتماع لمجلس الوزراء عقد
في سان كلو دون أن يحضره رئيس الوزراء أميل أوليفيه (ما أبعد
فرنسا يومذاك عن الحكم الدستوري الصحيح !) عدم الاكتفاء بترك
الموضوع عند هذا الحد والمطالبة بضمانات ضد تجديد الترشيح
وصدرت الى بنديتي ، السفير الفرنسي في برلين ، تعليمات بأن يطلب
من ملك بروسيا مباشرة أن يقرن سحب الترشيح باسمه أولا وأن يتعهد
ثانيا بالامتناع عن تأييد ترشيح الأمير الهوهنزرنرني اذا ما أثير من
جديد . وقدم بنديتي هذين المطليين في ايمز Ems في ١٣ يوليو .
ولما تلقى الملك عصر اليوم نفسه أنباء رسمية بامتناع ليوبولد عن
ترشيح نفسه أرسل الى بنديتي يخبره بأنه يعتبر المسألة منتهية .
فلاحق فرصة السلم في الأفق من جديد .

ولكن مسلك بسمارك هو الذي تسبب في نشوب الحرب وسط جو
منبئ بالتسوية . اذ كان يعتقد أن الحرب واقعة لا محالة ان أجلا أو
عاجلا وأن وقوعها في مصلحة بروسيا وألمانيا . الا أنه كان ميالا للتريث
حتى تسنح الفرصة لإظهار فرنسا بمظهر الدولة المعتدية ، ولم يكن
راضيا عن مسلك الملك في المفاوضات فبيت النية على
الاستقالة على سبيل الاحتجاج ، واجتمع بزميله الكبيرين مولتكه
ورون على مائدة العشاء في ١٣ يوليو ببرلين وأبلغهم قراره . وأثناء
العشاء وردت برقية من الملك تخبره أن بنديتي قدم مطالب لا يمكن
قبولها ، وأنه علم بعد الظهر بصفة رسمية بسحب ترشيح الأمير

ليوبولد ، وأنه أرسل بناء على ذلك ياورانه ليخبر بنيديتى أن المسألة تعدّ منتهية وأنه لا يستطيع أن يقابله ثانية بخصوص هذا الموضوع . فبدأ لبسمارك ورفاقه أن ما حدث يعد استسلاما مهينا لفرنسا ورائت عليهم الكتابة . على أن البرقية تضمنت التصريح لبسمارك بأبلاغ الحادث الى الصحافة ، فأعد لذلك نصا عرضه على زميله . ولاشك أن هذا النص قد انطوى على تحريف للأصل ، لأنه عزا رفض الملك مقابلة بنيديتى ثانية لا الى تلقيه أنباء قاطعة بسحب ترشيح ليوبولد وانما الى طبيعة مطالب السفير . ولم يكن هذا النص على حد قول مولتكه بمثابة نداء للمفاوضة ، وانما كان دعوة للنزال وقبولا للتحدى . وقد أبلغ النص للصحافة ووزع على المفوضيات البروسية فى ألمانيا فى نفس الليلة ، فأثار انفعالا بالغا فى شتى أنحاء ألمانيا .

وقد أحدثت رسالة بسمارك أثرا لا يقل ازعاجا فى الرأى العام فى باريس وسائر فرنسا فكان أن وقعت الحرب لا بسبب ما حدث فى ايمز وانما بسبب التصوير الزائف لما حدث . ولم تبذل أية محاولة لتبين صدق ذلك التصوير من كذبه . بل عالج ساسة فرنسا - بما فيهم أولففيه المسالم - مسألة تمس حياة الملايين بالأسلوب الذى تنتم به المبارزات الفردية . لقد أهينت فرنسا وتلقت صفعه على صدغها ، فالشرف يقتضى اعلان الحرب فورا . واتتهى الاجتماع الذى عقده مجلس الوزراء فى ١٤ يوليو بالتصويت الاجماعى مع الحرب . وفى ١٥ يوليو أيدت الجمعية هذا القرار . ولم يرتفع صوت مخالف واحد تقريبا ، وان يكن ثبير قد طلب المزيد من التفاصيل الدقيقة لما دار فى ايمز ورأى أولففيه آماله العزيزة فى السلم تنهار أمام عيتيه ، ولكنه تقبل الحرب «عن طيب خاطر» على حد قوله لأنه كان مرتاح الضمير . وبالطبع كانت هناك أسباب للحرب أعظم وأعمق من « عبث » بسمارك ببرقية ايمز ، الا أن التبليغ الذى أعده بسمارك للصحافة فى تلك الليلة على مائدة العشاء فى برلين كان بالفعل الشرارة التى أشعلت

نيران هذه الحرب العظمى التى ستفضى الى حرب ١٩١٤ الأعظم منها
بمراحل . ولو أن مهلة قصيرة قد أتت لتهدأ الأعصاب الشائرة وتفتت
العواطف الجامحة ، ولو أن القضية قد أحيلت الى حكم خارجي مما
قد يسكن من ثورة الكرامة الجريحة ، لو أن شيئاً من هذا قد حدث
لأمكن تفادى نشوب الحرب على الأقل بالصورة التى جاءت بها .

الفصل العشرون

الحرب الفرنسية - الألمانية وآثارها

كان الاعتقاد السائد في أوروبا آن فرنسا هي التى ستخرج ظافرة من الحرب العظمى التى بدأت لتوها . فسمعة فرنسا العسكرية كانت سامقة ، والجنود الألمان يعتبرون أفقر الى التدريب العلمى من الجنود الفرنسيين ، ولاعتبارات شتى أسقط انتصارهم على النمسا من الحساب . غير أن الفرنسيين لم يحرزوا فى القتال الدائر أية انتصارات هامة ، بل سارت الحرب وفق الخطة التى رسمتها ألمانيا الى أبعد حد . وقد سدد الهجوم الأول الذى اتسم بالاندفاع الشديد ضربة عنيفة الى مقاومة الفرنسيين لم تنهض منها قط . ولئن كان حصار باريس قد استمر وقتا أطول مما كان متوقعا ، فإن بسمارك قد نجح على أية حال فى الوصول بالحرب الى النهاية المنشودة بدون انعقاد أى مؤتمر أوروبى ، وهو ما كان يخشاه أكثر من أى شىء آخر . وليس من العسير علينا أن نتبين العناصر الأساسية لنجاح الألمان : فالجيش الألمانى كان معدا ومنظما على أسس علمية ، وقد درس الألمان جميع مشاكل الحرب دراسة وافية ، والقيادة كانت موحدة فى يدي مولتكة الذى اشتهر من قبل بحسن توجيهه لدفة الحرب النمساوية . وكان الجيش الألمانى مستعدا للقتال بفضل توزيعه الاقليمى قبل أن يكتمل استعداد الجيش الفرنسى بزم من طويل ، وتفوقه العددي فى المراحل الحاسمة الأولى من الحرب كان ظاهرا ، فقد قدر عدد الجنود الألمان فى الجبهة فى المعارك الأولى بنحو خمسمائة ألف رجل مقابل مائتى ألف فرنسى . وقد كان تفوق هؤلاء الجنود على خصومهم فى المدفعية

وأعمال الاستطلاع والمعلومات الجغرافية مؤكدا . وفضلا عن ذلك فقد اجتاحت ألمانيا موجة هائلة من الحماسة أخذت الروح الحزبية تماما ، في حين كانت الآراء في الجانب الفرنسي موزعة . وقد تولى الامبراطور الفرنسي القيادة بنفسه ، على أن توجيهه لدفة القتال ظل اسما بسبب اعتلال صحته ، ولا شك في أن الحماسة كانت ستجتاح البلاد لو كملت دلائل فرنسا بالنصر ، ولكن ما ان جاءت الهزيمة الأولى حتى برزت الانقسامات الداخلية . وهكذا دارت الحرب بين الوحدة والعلم ووضوح القصد من ناحية وبين الانقسام والأساليب التقليدية وتبدل الخط من الناحية الأخرى . وقد أسندت القيادة في الألزاس لماكماهون Mac Mahon وفي اللورين الى بازين Bazaine الذي كان يعد بادىء الأمر بطلا قوميا ، فلم تكد الحرب تقرب من نهايتها حتى صار يعتبر أحق أو خائنا .

وفي ٦ أغسطس ١٨٧٠ هاجم ولى العهد الألماني ماكماهون في وورث Würth فأنزل به هزيمة أدت الى فتح الألزاس للغزو الألماني وقد تقهقر ماكماهون بقلوبه المتداعية صوب شالون Châlons وفي نفس اليوم هزم بازين وجيش اللورين عند شبيشيرين Spicheren كانت تلك الأحداث خطيرة بل مروعة . فما هو المسلك الباقي أمام القادة الفرنسيين ؟ وماذا عساهم فاعلون ؟ كانت الفكرة الأولى هي التقهقر صوب باريس بحيث تدور المعركة التالية في جيرة العاصمة ، وهي فكرة لاقت ومازالت تلاقى استصواب الخبراء العسكريين عامة . ولكن الاعتبارات السياسية ما برحت تتغلب طوال الحملة على الاعتبارات العسكرية ، وهو ما حدث هنا أيضا . فقد أدت الأنباء السيئة الواردة من الجبهة الى سقوط وزارة أولفييه ، فأُطيح بالحكم الى الكونت باليكاو Count Patikao الذي كان جنديا قديما عديم الخبرة السياسية وشيخا في الخامسة والسبعين من عمره . فأصبحت الكلمة الأولى في كل ما يتصل بسير الحرب للامبراطورة أوجينى طوال

عهدده الى أن أطاحت الكارثة بالامبراطورية . وقد كان من شأن
التقهقر صوب باريس أن يؤدي - فيما يعتقد - الى القضاء على
الحكومة الجديدة . فكان أن اقتنع الامبراطور وبازين بضرورة الدفاع
عن متز Metz ، ولكن ضربات الألمان توالى واحدة بعد أخرى .
فقد طورد الجنود الفرنسيون أولاً الى الداخل عند بورني Borny
شرقي متز ثم قامت الجيوش الألمانية بحركة التفاف جنوب متز بقصد
تطويقها وعزل بازين وجنوده . فقام بازين في عزيمة فائرة بمحاولة
للافلات من الفخ انتهت الى الفشل بعد سلسلة من الاشتباكات تعرف
عادة باسم معركة جريفلوت Gravelotte وعلى هذا حوصر
بازين مع جيش يربو عدده على ٢٠٠٠٠٠ رجل . وقد تمكن نابليون
نفسه من الافلات وتخلي عن القيادة التي لم يعد قادراً على مباشرة
أعبائها . وأثبتت جميع العمليات تفوق الألمان الظاهر في القيادة وفي
صفوف عامة الجند ، في النظام وفي المبادرة ، في السلاح وفي الجلد .
وبانت فرنسا مهددة بكارثة مروعة ، على أن قيادتها كانت تستطيع
باتباع سياسة حكيمة أن تمنحها الأمل وتطيل أمد الحرب حتى تدخل
الحلبة دول أوروبية أخرى : كان ماكماهون الذي تنازل له الامبراطور
عن القيادة مرابطاً بالقرب من شالون على رأس قوة ضخمة وان تكن
خائرة العزيمة . وقد قرر ماكماهون التقهقر نحو باريس حتى يحصل
على كل ما يمكن الحصول عليه من امدادات ويحارب معركته القادمة
بمساندة مدافع حصون العاصمة ، وهو قرار له حكمة لا تنكر ، الا
ان الاعتبارات السياسية قد تغلبت عليه هذه المرة أيضاً . فقد أحست
الامبراطورة أن هناك ثورة في دور الاعداد ، وأن انسحاب الامبراطور
والتخلي عن البطل الشعبي بازين سيعجلان بوقوعها . وكانت تخشى
من هذه الضربة على زوجها وعلى ابنها ولي العهد الامبراطوري أولاً
وقبل كل شيء . وعلى هذا اتخذ في باريس قراراً أبلغ الى ماكماهون ،

بضرورة انقاد مئيز وبازين بأى ثمن . وقبل ماكماهون القرار على مناقضته لرأيه الشخصى الأصوب . ولعل سلسلة الأحداث التالية كانت كفيلة فى ذاتها بالقضاء على فرنسا ، على أنه لو فرض أنه كانت أمامها فرصة واحدة للنجاح فان تلك الفرصة كانت تكمن فى سرعة تنفيذ الخطة ووضوحها . ولكن الخطة كانت تتغير فى الجانب الفرنسى تغيرات تفوق الحصر ، بينما راح مولتيكه يشرف على تحركات الألمان فى نقطة وانتباه مستفيدا من كل خطأ من أخطاء العدو . وقد سار ماكماهون نحو سيدان من الطريق الشمالى ، متحاشيا قدر استطاعته ملاقاته العدو فوصلها فى ٣٠ أغسطس . وكان أمل الفرنسيين فى بلوغ مئيز قد تبدد اذ ذاك ، فقوة الألمان كانت أضخم بمراحل وكانوا قد احتلوا جميع الكبارى . ثم ان بازين لم يقدم الا أضال العون للجيش الذى جاء لنجده . بيد أن الأمل لم يكن قد انقطع فى تمكن الجيش ، أو جزء كبير منه ، من العودة الى باريس عن طريق ميزير Mézières ولكن ماكماهون أخطأ ، رغم تصميمه على تنفيذ تلك الخطة ، فى تقدير مدى اقتراب الخطر ، فتمهل فى وقت كانت لكل دقيقة فيه أهميتها . وقد شن الألمان هجومهم فى صباح غرة سبتمبر . ولم يبق أمام الفرنسيين الا طريق واحد للتراجع ، وقد صمم ماكماهون على اتخاذه ، غير أنه جرح فى أوائل المعركة ، فحل محله فى القيادة بأمر حكومة باريس « ويمبفين » Wimpfen الذى كان لا يزال يحلم بإمكان تحقيق النصر . وقد طوردت القوات الفرنسية الى داخل المدينة فى كل حذب وصوب ، وراحت المدفعية الألمانية تصب نيرانها المستمرة عليها . وفى ساعة متأخرة من اليوم نفسه استسلم الامبراطور والجيش بأكماله لملك بروسيا ، وبلغ عدد الأسرى ١٠٤٠٠٠ أسير .

قوبلت أنباء الكارثة بالانكار والتكذيب فى باريس بادى الأمر . ولكن باليكاو أذاع فى ٣ سبتمبر نبأ تسلمه برقية من الامبراطور هذا

نصها : « لقد هزم الجيش وأسر ، وأنا نفسى أسرت » . كانت الأسرة النابليونية تعيش على تراث المجد العسكرى العالق باسمها ، فلما أتت الهزيمة لم يعد ثمة مفر من انهيارها ، وبات نشوب ثورة ما أمرا محققا ، فانعقدت الجمعية آملة السيطرة على الموقف والامساك بمقاييد الأمور بين يديها ، وان أبدى البعض رغبته فى الإبقاء على سلطة الامبراطورة ولو اسميا ، على أن امراجل الثورة كانت تغلّى فى باريس ، والأعضاء لازالوا يتداولون فى الأمر . وقد كان من واجب قوات الحرس الوطنى أن تحمى قاعة اجتماعهم ولكنها انضمت الى الشوار الذين اقتحموا القاعة والأروقة . وحين همت الجمعية بالتصويت فى غمرة الفوضى . على قرار بانهاء حكم أسرة نابليون وقف جول فافر مناديا بأن دار البلدية Hotel de Ville هى المكان الصحيح لمثل هذا القرار الثورى ، وأقنع الجمهور بالزحف الى هناك . وفى البلدية كان يوجد حزب جمهورى دستورى معتدل ، وحزب آخر أكثر تطرفا ارتبط فى الأذهان بالكوميون فيما بعد . واستبعادا لهذا الحزب الأخير من الحكم ، قدم اقتراح بتشكيل حكومة مؤقتة تتألف من جميع نواب مديرية السين ، بما فى ذلك أولئك الذين انتخبوا عن هذه المديرية أولا ثم انتقلوا الى دائرة انتخابية أخرى . وهكذا أمسكت باريس الدفة بين يديها ، ولم تستشر بقية فرنسا فى الأمر . وقد اختير تروشو Trochu وزيرا للحرية وجول فافر للخارجية وجامبتا Gambetta للداخلية . وسميت الحكومة الجديدة « حكومة الدفاع الوطنى » . ولم يرد ذكر لكلمة الجمهورية ولا كان هناك أى مساس بالامبراطورة أوجينى ، الا أن ذكريات ثورات باريس كانت تثير فزعها ومصير مارى انطوانيت ظل ماثلا على الدوام أمام عينيها ، فتركت القصر واستطاعت أن تجد مأوى للبلتها لدى طبيب أسنان أمريكى فى

الضواحي ، وفي الصباح التالي شقت طريقها الى منفاهها في انجلترا حيث أقامت بقية عمرها .

لقد كسب الألمان الحرب . فهل تراها تنتهى عند هذا الحد ؟ ان بسمارك قد أظهر من قبل بصيرة ديبلوماسية ثابتة بانتهاء الحرب مع النمسا في أقرب فرصة ممكنة . فهل تراه يسلك نفس المسلك في هذه الحرب التى هى أعظم من سابقتها ؟ لقد قهرت ألمانيا الامبراطورية الفرنسية ، فهل تراها تقر السلم مع الجمهورية الفرنسية ؟ لم يكن هناك فيما يبدو ما يحتم عدم حدوث ذلك ، ولو جاءت النهاية على الفور لمنح بسمارك أوروبا السلم وجعل التحالف بين فرنسا وألمانيا أمراً ممكناً ، ولسار مجرى التاريخ الأوروبي في طريق مختلف عن طريق الفلاقل والاضطرابات الذى سارت فيه ألمانيا وأوروبا فعلاً مدى ثلاثة أرباع قرن من الزمان . ولكن بسمارك كان قد بدأ يهيم رأى العام الألماني لضم الألزاس واللورين مما سبب استحالة اقرار السلم أو التوفيق بين البلدين .

ولما أخذت القوات الألمانية تدق أبواب العاصمة الفرنسية قرر جول فافر أن يطلب مقابلة خصمه العظيم بسمارك ، وتمت المقابلة في ١٨ سبتمبر بفريير Ferrieres بالقرب من باريس . وقد أوضح فيها بسمارك أن ألمانيا تطالب بأرضى الراين قائلاً « انكم ماكنتم لتتورعون عن الاستيلاء على ضفاف الراين منا ، رغم أن الراين لا يمثل حدودكم القومية . أما نحن فاننا نسترد أراضينا ونعتقد أننا بهذا نضمن لأنفسنا السلم في المستقبل » . ولكن جول فافر أعلن أن فرنسا لن تتنازل عن شبر واحد من أراضيهما أو حجر واحد من حصونها ، وبذلك بات السلم مستحيلاً . وقد التقى الرجلان مرة أخرى وذرف فافر الدموع أمام خصمه الحديدي الارادة ، ولكنه لم يستطع الفوز منه بأى تنازل فكان أن استمرت الحرب

ولم يصف الألمان شيئاً ذا بال لانتصاراتهم طوال الفترة الباقية من الحرب . فلم يقوموا بأية محاولة للاستيلاء على باريس بالهجوم المباشر بل ظلوا قانعين بأحكام الحصار عليها وصد المحاولات التي تبذلها حاميتها للافلات من هذا الحصار . اذ كانوا يعتقدون أن نقص الموارد الغذائية سيؤدي الى تسليم عاجل ، فأثارت مقاومة المدينة الطويلة التي استمرت من ٣٠ سبتمبر الى ٢٨ يناير ، في نفوسهم الضيق والدهشة . ولم تكن باريس تعاني نقصاً في الرجال : فقد كان بها ٨٠٠٠٠٠ من قوات الجبهة بما في ذلك اللواء البحري ، و ١١٥٠٠٠ من قوات الحرس المتحرك Garde Mobile وهي قوات شبه احتياطية كانت تنتخب ضباطها بنفسها وسرعان ما أصبحت مضرب المثل على سوء النظام ، وحوالي ٣٥٠٠٠٠ على الأرجح من رجال الحرس الوطني الذين كانوا ينتخبون أيضاً ضباطهم بأنفسهم ولم يكن لديهم أدنى استعداد للخضوع لأي نوع من النظام . وقد تولى القيادة تروشو الذي كان يهاب الباريسيين فلم يحاول أن يفرض عليهم التدابير الصارمة التي تتطلبها الموقف . لقد توفرت لباريس الشجاعة والوطنية والحماسة ولكن النظام كان يعوزها ، وقد كانت غلطة تروشو الكبرى أنه لم يصّر على فرضه فرضاً .

أما خارج العاصمة فقد توفر لفرنسا باعثنان على الأمل . فقد غادر جامبتا ، وهو أحد الشبان القلائل في حكومة كانت تتألف في معظمها من المسنين ، باريس في منطاد لينظم الحرب في الأقاليم . وقد استطاع هذا الشاب الذي يعد الشخصية البطولية الوحيدة في الحرب من الجانب الفرنسي ، أن يفاخر عن حق بأن اليأس لم يتطرق الى قلبه قط ، وقد أعطى الأمل لفرنسا كذلك . ولئن كان المطاف قد انتهى بمساعيه الى الفشل فإن ذكرى محاولته قد أتاحت لفرنسا أن تعود ببصرها الى تلك الشهور المفجعة بشيء من الفخار لا الانكسار فقط . وقد تلقى

أجل العون من مهندس يدعى فريسنيه Freycinet الا أن الفضل الأول في النتائج الباهرة التي حققها لما يرجع لهما هو وبلاغته وحماسته المؤثرة كأنها العدوى تسرى في النفوس . فقد أفلح في تكوين جيش قوامه ٦٠٠.٠٠٠ رجل وجهزه بالسلاح والغذاء الذي اشترى معظمه من إنجلترا . وتمكن من العثور على بعض القواد الممتازين حقا مثل دوريل دي بالادين d'Aurelle de Paladines وفيديرب Faiderbe وشانزي Chanzy قبل سواه . وفي ١٩ نوفمبر هاجم دي بالادين الألمان في كولميه Coulmiers شمال أورليان Orleans فأحرز نصرا كبيرا . وقد رفع هذا النصر - وهو النصر الحقيقي الذي أحرزه الفرنسيون ابان الحرب ، رفع من روح الجنود المعنوية الى حد كبير ، فبدأ الفرنسيون يحلمون بطرد الألمان من فرنسا كما طردوا الانجليز من قبل على يد جان دارك في وقت بدا فيه المستقبل أشد اظلاما في وجه فرنسا (١)

ولكن ثمة عاملا ثالثا كان يتوقف عليه كل شيء ألا وهو بازين وميتز اذ كان يترتب على صمودهما شل جيش ألماني كبير عن الحركة ، وكان واجب بازين الواضح أن يصمد حتى آخر لحظة . ولا يزال مسلكه الفعلي مثار نقاش كبير . فهو لم يتقبل الحكومة الجديدة قط بولاء صادق ، وتفكيره لم يكن منصبا على الحرب نفسها قدر ما كان منصبا على ما ينتظر أن يليها من الأحداث . فكان يتحدث عن جيشه على أنه الجيش الذي سيقدر له أن يكون « مؤثلا للنظام » ، ويأمل في القيام

(١) كانت تلك هي المناسبة الوحيدة التي ترددت فيها القيادة العليا للجيش الألماني أو أساءت معالجة الموقف . ولقد أشار سير لونسديل هال Sir Lonsdale Hale في كتابه « حرب الشعب » الى أن التكهن بتحركات الجيوش النظامية المألوفة ومقاومتها كان أيسر من التكهن بالتحركات الهوجاء المباشرة التي كانت تقوم بها جيوش جامبيتا الفقيرة العدد المفتقرة الى النظام .

بدور مشابه لدور مونك Monk (١) وفي أن يتم رد الأسرة الامبراطورية الى الحكم على يديه . ولكن مسلكه في الحصار لا يجد من يدافع عنه ، وكانت الهجمات التي حاول شنها على المحاصرين فائرة . وقد كان رجال جيشه بل وسكان ميتر المدينون أنفسهم يرون ضرورة مواصلة القتال ولم تكن المؤن قد نفذت تماما ، عندما سلم نفسه وجيشه البالغ ١٧٣٠٠٠ رجل للعدو في ٢٧ أكتوبر ١٨٧٠ .

واذا جاز القول بأن صيحة جامبيتا « لقد خانتنا بازين » لم تكن في محلها ، فانه كان على حق لا مراء فيه عندما قال ان ذلك السيل الجارف من الجنود الألمان الذي انهمر عليه من ميتر كان كفيلا بالقضاء على كل خطئه . وقد حوكم بازين بعد الحرب وأدين بتهمة التقصير في أداء « كل ما يفرضه الواجب والشرف » ، وصدر عليه حكم الاعدام ولكن هذا الحكم مالبث أن خفف الى السجن عشرين عاما . وقد تمكن من الفرار ومات في أسبانيا عام ١٨٨٨ .

ورغم أن الفرنسيين بذلوا جهدا كبيرا في القتال فان الحظ لم يتسهم لهم من تلك اللحظة فصاعدا . وقد أظهر شانزى مواهب عسكرية رفيعة في قيادته للقتال في الغرب ، ولكن زمام الجنود أفلت من يديه فهزم في لومان Le Mans وسرح جيشه . ولم يصادف فيدير حظا أفضل في الشمال ، وهو يعد أيضا جنديا ممتازا بمعنى الكلمة ولكن روح جنوده المعنوية كانت منهارة فهزم في ١٩ يناير بالقرب من سان كوتنتين Saint Quentin هزيمة نهائية فاصلة . وفي الجنوب الشرقي حاول بورباكي Bourbaki ، وهو من قواد الامبراطورية القدامى ، انقاذ بلفور Belfort التي كان الفرنسيون يدافعون عنها ببسالة

(١) جورج مونك جنرال انجليزى عاش في الفترة ما بين ١٦٠٨-١٦٧٠ (المترجم)

ضد الحصار الذى يعمل الألمان على ضربه عليها . وقد انضم اليه فى ذلك غاريبالدى الذى هب لنجدة الفرنسيين فى محنتهم . الا أن بطل الحرية الايطالية أخفق اخفاقا ذريعا فى تحقيق الآمال التى عقدت على اسمه . فقد فعلت به السن مافعلت ، ووجد الجنود الألمان بعيدين عن التأثير بالوسائل التى نجحت معه نجاحا باهرا فى صقلية وايطاليا . وعندما جاءت الهدنة كانت محاولة بوريياكى فى هذا الاقليم قد انتهت الى الفشل ، ولكن شروطها لم تتضمن ، نتيجة اهمال جول فافر ، أية إشارة الى جنوده ، فكان أن طوردوا الى سويسرة حيث ألقى ٨٠.٠٠٠ منهم سلاحهم بعد أن عضهم الجوع وهدهم الصقيع .

كان الهدف الصريح لكل هذه العمليات فى الأقاليم هو تخفيف الحصار عن باريس . فلم يكن ثمة مناص من أن يؤدى فشلها الى استسلام العاصمة . وقد بذلت القوات المحاصرة أولا عدة محاولات اللافلات ولكن دون طائل . وكانت أكبرها المحاولة التى بذلت فى ٣١ نوفمبر بقيادة ديكرو Ducrot الذى أعلن أنه « لن يتراجع » مهما حدث . وقد حققت المحاولة بعض المكاسب الأولى ، ولكن هذه المكاسب ضاعت بعد برهة وجيزة فاضطر ديكرو الى التراجع رغم وعده . وأخيرا استقر رأى الألمان على قصف المدينة بالقنابل ولكن ذلك لم يفت فى عضده الأهالى . وقد بذلت آخر محاولة لشق الحصار فى ١٩ يناير ولكنها باءت أيضا بالفشل الذريع . وكان الأمل قد انقطع تماما فى نجاح جيوش الأقاليم وأوشكت المؤن الغذائية على النضوب ، فتوجه جول فافر لمقابلة بسمارك فى فرساي ووقعت الهدنة فى ٢٨ يناير . وقد رفض بسمارك الاعتراف بأهلية « حكومة الدفاع الوطنى » للتحدث باسم فرنسا . فتقرر اجراء انتخابات على الفور لتشكيل جمعية جديدة تجتمع فى بوردو للنظر فى قبول شروط الصلح أو رفضها .

وهكذا انتهت الحرب ، ولكن الحركات الدبلوماسية والسياسية الهامة التي صاحبها وأعقبها قد أضافت المزيد الى دلالتها التاريخية . لقد دارت الحرب مبارزة ثنائية بين الخصمين العظمين . وكان أخشى ما تخشاه ألمانيا وأعظم ما تأمله فرنسا هو أن تتدخل أوروبا فتتطور الحرب الى حرب أوروبية تستدعى الجيوش الألمانية من قلب فرنسا . وأسدى القيصر الروسى ، الذى كانت صداقته من الأهداف الثابتة التى حرص على تحقيقها بسمارك ، أجل الخدمات لألمانيا فى هذا الصدد . فشكره بسمارك علنا فيما بعد لمنعه تطور الحرب الى حرب أوروبية عامة .

ولم يكن بين السياسة الفرنسيين من يحظى على الصعيد الأوروبى بمثل السمعة الرفيعة التى كان يحظى بها ثير . فقد أدرجته غزارة علمه وسعة بياحه وترفعه عن سياسة نابليون الثالث ، فى عداد أبرز الشخصيات الأوروبية . وقد قبل فى سبتمبر ١٨٧٠ الدعوة التى وجهتها اليه «حكومة الدفاع الوطنى» للطواف بحكومات أوروبا للعمل على كسب عطفها ومعاونتها لفرنسا : كان الرجل مسنا وكانت المهمة شاقة عسيرة ، ولكنه نفذها بهمة ونشاط ، وليس يعيبه أنها فشلت . وقد وجد شعور النمسا - المجر وديا ولكنه أحس بضعفها ، ولمس من إنجلترا تشبها بعزلتها عن أوروبا ، ومن روسيا انحيازها الى بروسيا ، ومن إيطاليا اسرافا فى عبارات الود الذى يشوبه الحرص على عدم إثارة عداوة بروسيا . وقد حاول عند عودته التفاوض لعقد هدنة يمكن الرجوع أثناءها الى رأى الشعب الفرنسى ، ولكن محاولته فشلت ازاء رفض الألمان السماح بتموين المدينة المحاصرة .

وقد بدا فى لحظة من اللحظات أن روسيا قد تساعد عن غير قصد على انتقاد فرنسا من محنتها . ذلك أن الدول الأوروبية العظمى الظافرة فى حزب القرم - وعلى رأسها فرنسا وبريطانيا - كانت قد فرضت على

روسيا في « معاهدة باريس » نصا يعلن حياد البحر الأسود ويحرم روسيا بالتالى من حق اقامة أية منشآت حربية أو بحرية فيه . ولعله لم يكن منتظرا من روسيا أن تصبر طويلا على هذا النص على أية حال . ومهما يكن من أمر فانها قد وجدت في تلك اللحظة التى دس فيها أنف فرنسا فى الرغام فرصتها السانحة ، فأعلنت انتهاء المعاهدة . وقد كانت فرنسا أعجز حقا من أن تفرض تنفيذها فرضا ، ولكن البعض رأى فى تصرف روسيا تحديا مباشرا لبريطانيا لا بد وأن ترد عليه . غير أن جلاستون رئيس الوزارة البريطانية حينذاك رأى فى الأمر رأيا آخر ، اذ كان مصمما على المحافظة على السلام ما أمكن ، فبعث برسول الى بسمارك فى فرساي - ومما يشهد على عظم مكانة بروسيا أنه قد رأى من الضرورى استشارة القطب الروسى فى مثل هذه المسألة التى لم تكن تعنى بروسيا بصفة مباشرة . وتم ايجاد مخرج من المأزق بدعوة مؤتمر الى الانعقاد فى لندن انتهى الى انقاذ ماء وجه بريطانيا باصدار تصريح بأنه ليس لأى دولة أن تلغى من جانبها أية معاهدة تكون طرفا فيها وبالإشارة مجددا الى القواعد التى تحكم اغلاق مضيقى البسفور والدردنيل . على أن المؤتمر لم يبذل أية محاولة للابقاء على حياد البحر الأسود ، ولم يشترك فيه مندوب فرنسا الا فى الجلسة الأخيرة . وهكذا أهملت فرنسا فرصة عظيمة - فيما يعتقد - لعرض قضيتها ضد بروسيا أمام المؤتمر أو اشغال « حريق أوروبا عام » قد يمكنها من أن تجنى لنفسها منه مغنما

ولقد تحقق لبسمارك قبيل عقد الهدنة وفى اللحظة التى بات فيها النصر على فرنسا محققا ، هدف من أعز أهداف حياته باتحاد معظم الأراضى الألمانية فى امبراطورية تحتل فيها بروسيا مركز الصدارة . فقد وحد الانتصار الساحق الذى أحرزته القوات الألمانية شمال ألمانيا وجنوبها ، وطنى - فى تلك اللحظة على الأقل - على كل ماكان بينهما

من احن قديمة وقبل أن يتم هذا الاتحاد جرت مفاوضات دقيقة تولاهما بسمارك بنفسه بالطبع . ذلك أن ملك بروسيا كان قد رفض في ١٨٤٩ قبول لقب امبراطور ألمانيا عندما عرضته عليه أيد بدت في نظره ملوثة بالديموقراطية ، وسوف يكون من الضروري تفادى تكرار نفس الخطأ هذه المرة ، وعلى هذا تم اقناع ملك بافاريا بأن يتقدم بنفسه الى ملك بروسيا بهذا العرض . وقد ظهرت بعض الصعوبات التي تعين حلها قبل انجاز الأمر . فملك بروسيا كان فخورا بلقبه الملكى ولم يكن يطيّب له النزول عنه لقاء الفوز بلقب الامبراطور البراق ، ولم يجد في اقناعه بالتخلي عن هذا الاعتراض الا الحاح بافاريا . ثم كانت هناك مسألة تحديد اللقب الذى يحمله الحاكم الجديد . أيكون « امبراطور ألمانيا » أم « الامبراطور الألماني » ؟ وقد أثارت هذه المسألة انفعالا بالغاً لدى بعض رجال السياسة ، وسويت آخر الأمر باختيار لقب « الامبراطور الألماني » على اعتبار أنه لا يتضمن معنى السيادة على أرض ألمانيا . كما راح الناس يتساءلون عن العلاقة بين هذه الامبراطورية والامبراطورية الرومانية المقدسة القديمة التى اختفى شبحها الأخير في ١٨٠٦ . فهل يعتبر الأمر انشاء لامبراطورية ألمانية جديدة أم اعادة للامبراطورية القديمة ؟ ولم يستقر الرأى على شىء في هذا الصدد ، وان أجمع الساسة والمؤرخون على وجود استمرار فعلى بين الامبراطوريتين القديمة والجديدة . ووقع المشهد الختامى في قاعة المرايا بفرساي في ١٨ يناير ١٨٧١ حيث نودى بوليم امبراطورا ألمانيا ، وأعلن ولى العهد أن « حالة خلو العرش التى دامت خمسة وستين عاما قد انتهت ، والحقبة الرهيبة التى مضت دون عاهل قد ولت » . أما الملك نفسه فلم يبد ترحيبا كبيرا بوضعه الجديد . بل وصف بأنه ظل « مكتئبا » طوال اليوم ، وقد صرح الملكة برغبته في « التخلي عن العرش والنزول عن كل شىء » لولى العهد .

ولم يثر اللقب الجديد أية مشاكل دستورية . ذلك أن احتمال انضمام دول ألمانيا الجنوبية كان قد روعى عند وضع دستور اتحاد ألمانيا الشمالية . فكان أن اتخذت بافاريا وفرتمبرج وبادن أماكنها الى جانب بروسيا وسكسونيا دون أن يثير ذلك الا أقل الاعتراض . وأعلن مؤرخ بروسي أن الدم المشترك الذى يراق فى المعارك الظافرة انما هو أقوى رباط .

ولعل بسمارك لم يكن راغبا فى قيام دولة ألمانية قومية موحدة قدر رغبته فى تحقيق زعامة بروسيا للدول الألمانية . ولقد قام الصرح الجديد على هذه الفكرة على أية حال ، فحمل الدستور الجديد (١٨٧٣) طابع الانفصال والتجزئة الغالبين على الاتحاد الألماني من قبل ، ولم يكن الوضع الجديد فى حقيقته الا تطبيقا لدستور اتحاد ألمانيا الشمالية الذى وضع بعد الحرب النمساوية البروسية ، على سائر أنحاء ألمانيا . فتزعم ملك بروسيا ومستشاره بسمارك الرابطة الاتحادية الجديدة ، كما كانا فى ١٨٦٦ ، وأطلق على التنظيم الجديد اسم الامبراطورية الألمانية . ولم يكن هذا الرئيس الذى سمي القيصر الألماني (١) لا قيصر ألمانيا ، فى الواقع الا رئيسا وراثيا للاتحاد . أما مفتاح سلطته الحقيقية فكان يكمن فى كونه ملكا على بروسيا ، وهى دولة تعدل فى مساحتها مساحة الدول الأعضاء فى الامبراطورية الجديدة مجتمعة بل وتفوقها أهمية . لقد كان الامر أشبه بشرذمة من الحيوانات المنتظمة فى سرب للصيد يتصدرها جميعا ذئب رمادى ضخيم هو بروسيا يجرى فى أعقابها أبناء آوى من أمثال بافاريا وسكسونيا وفرتمبرج ، ويسير فى ركابه خمسة وثلاثون حيوانا أصغر تتفاوت أحجامها بين الجرذان الكبيرة والفئران الصغيرة .

وقد ظلت حقوق الدول الصغيرة مصونة من الوجهة النظرية

فالبوند سرات Bundesrat أو المجلس الأعلى الذى تتركز فيه السلطة التشريعية كان يتألف من ثمانية وخمسين عضواً ، ليس لبروسيا منهم الا سبعة عشر عضواً ، وان تكن قد استطاعت أن تحصل لنفسها فى النهاية على ثلاثة أصوات أخرى . وبذلك كان يمكن للدول الأخرى أن تشكل أغلبية ضد بروسيا فى أعمال التشريع العادية . غير أنه بالنظر الى المادة ٧٨ التى كانت تنص على ابطال أى تعديل للدستور اذا اعترض عليه أربعة عشر عضواً فقد أصبح لبروسيا حق الفيتو الدائم على كل تعديل للدستور (١) . ثم ان بروسيا كانت من الوجهة العملية تؤلف بممثليها الذين يتبعهم عادة ممثلو الدول الصغرى ، جبهة متماسكة تكفل لها انفاذ مشيئتها فى معظم الأحيان فى أعمال التشريع العادية كذلك . ولقد كان البوندسرات Bundesrat هيئة محافظة الى أبعد حد على كل حال .

أما الريخستاغ Reichstag أو المجلس الشعبى فهو يعد آية من آيات بسمارك . كان أعضاؤه ال ٣٩٧ ينتخبون بطريق الاقتراع السرى العام ولكنه كان رغم مظهره الديموقراطى مقيدا فى الحقيقة من جميع الوجوه . فنفوذه كان أضعف . وخبرته فى تسيير الأمور كانت أقل كثيرا من البوند سرات . ورغم أن المستشار الاتحادى وأعضاء وزارته كانوا يحضرون جلساته ، فانهم لم يكونوا يعتمدون فى بقائهم فى مناصبهم على تأييده ولم يكن عليهم أن يستقيلوا اذا ماخذل التدابير التشريعية التى يقترحونها عليه . وأنصبة الدول فى الجيش كانت محدودة باتفاقات سابقة مع كل دولة على حدة ثم أدمجت فى صلب الدستور ، فلم يكن من المستطاع تغييرها الا بتعديل الدستور وكل

(١) كانت الأصوات تؤخذ فى البوندسرات على أساس الدول الأعضاء لا الأفراد . فاذا ادلت بروسيا مثلا بصوتها مع المشروع المعروض او ضده اعتبر هذا الصوت مساويا لسبعة عشر صوتا .

ما كان يملكه الريخستاغ هو التصويت بالرفض على أى اقتراح بزيادة هذه الأنصبة . ونظرا لأن ألمانيا لم يكن لها أسطول ولا مستعمرات تقريبا في ١٨٧٣ فقد أصبح الريخستاغ يملك في السنوات التالية سلطة التصويت على تزويدها بالامدادات وكان بوسعها أن يرفض ذلك متى شاء . أما سلطته على السياسة الخارجية فكانت ضئيلة ، اذ كانت المعاهدات الدبلوماسية والتجارية على السواء تعقد في العادة لمدة أطول من مدة الريخستاغ الواحد بقصد الحيولة صراحة دون تعرضها للنقد عند اجراء الانتخابات . وهكذا لم يكن ثمة مجال كبير لتوكيد رقابة البرلمان على المسائل الهامة . وقد زاد من ضعف سلطة الريخستاغ انقسامه الدائم الى أحزاب عديدة ، مما جعل معارضة الحكومة أمرا من الصعوبة بمكان . لقد كان الألمانى يفتقر في ١٨٧٠ الى العقلية البرلمانية ، ولم تظهر حتى ١٩١٤ أية دلائل على أنه كون تلك العقلية . وكان عضو الريخستاغ العادى يتذبذب في موقفه من الحكومة بين الطاعة العمياء والمعارضة المتحيزة . ومع ذلك فقد استطاع الريخستاغ بغم كل هذه القيود أن يثبت وجوده في بعض الأحيان ! ومرت بكل من بسمارك ووليم الثانى لحظات أحسا فيها باستحالة تجاهله .

وهكذا سوى بسمارك أمر الحكم الداخلى في ألمانيا باعطائها مجلسا أعلى مؤلفا على أساس الدول ومجلسا أدنى ديموقراطى المظهر مؤلفا على أساس عددى ، ودستورا يخرج الكثير من المسائل من اختصاص المجلسين ولا يمكن تغييره دون موافقة بروسيا . لقد أقام بناء ألمانيا كله على قاعدة محافظة راسخة . وباتت بروسيا تمثل بنفوذها وأموالها وقوتها « الشريك المتحكم » بكل معانى الكلمة . أما الأعضاء الآخرون فأحرى بنا أن نسميهم مديرى أقسام لا أعضاء في مجلس ادارة مؤسسة « بسمارك وشركاه » . ولقد ظل بسمارك في الواقع فوق مستوى الهجوم والنقد طوال نصف جيل .

لقد عقدت الهدنة حتى تتاح الفرصة لانتخاب مجلس نيابى فرنسى تعرض عليه شروط الصلح لرفضها أو ابرامها . وكانت فرنسا قد كلت الحرب بصفة عامة وان تكن بعض الأصوات قد ارتفعت تطالب باستمرارها . فجامبتا كان يؤمن بضرورة مواصلة القتال ، وقد اقتضى الأمر استخدام القوة للتغلب على معارضته . وفديرب وشانزى ناديا بأن المضى فى القتال لازال ممكنا ولعلهما كانا يؤمنان بذلك فعلا . ولكن فرنسا كانت تواقه الى السلم . وكانت قضية السلم هى القضية الوحيدة التى طرحت فى المعركة الانتخابية ، وقد جاء معظم النواب المنتخبين ممن تعهدوا بالعمل على انتهاء الحرب . واجتمع الأعضاء الستمائة فى بوردو حتى يكونوا يعيدين عن التأثير بنفوذ الجيش الألمانى . وعين ثيير الذى نجح فى ست وعشرين دائرة « رئيسا للسلطة التنفيذية للجمهورية الفرنسية » . ورغم أن جول فافر ظل متوليا وزارة الخارجية فقد أصبح التوجيه الفعلى للمفاوضات فى أيد آمن هى أيدى ثيير الذى توجه فور انعقاد الجمعية فى بوردو ، لمقابلة بسمارك فى فرساي . ولم يكن أمامه مجال كبير للمفاوضة طالما لم يكن مستعدا للمخاطرة باستئناف الحرب . وكان رأى بسمارك قد استقر على المعالم العامة للصلح . فصمم على ضم الألزاس ومعظم اللورين ، ورغم أنه لم يكن يمانع شخصيا فى إعادة مدينة ميتز وقلعتها الى الفرنسيين ، فانه أذعن فى النهاية لإلحاح العسكريين وأصر على ضرورة نزول الفرنسيين عن ميتز وستراسبورج كذلك . وتمسك بأن تدفع فرنسا تعويضا كبيرا وان يكن ثيير قد وفق الى خفض الرقم من مائتين وأربعين مليون جنيه أسترلينى الى مائتى مليون . وتضمن الصلح المعروض شروطا عديدة بشأن دفع التعويض - ثم شددت هذه الشروط بعد قيام الكوميون فى باريس - وبشأن الاحتفاظ بحامية احتلال ألمانية ريشتايم تنفيذ شروط الصلح . على أن هناك نقطة واحدة حصل فيها ثيير على تنازل هام .

اذ كانت النية متجهة بادىء الأمر الى ضم بلفور Belfort الى ألمانيا بالاضافة الى ستراسبورج وميتز ، وكانت لبلفور قيمة كبرى باعتبارها تتحكم في مدخل بالغ الأهمية من مداخل فرنسا من ناحية جنوب ألمانيا . فهدد ثيير باستئناف الحرب ان أصر الألمان على تخلى الفرنسيين عنها ، وفي النهاية وافق بسمارك بعد التشاور مع الملك ومولتكه على تركها للفرنسيين ، اذا وافق ثيير على السماح للجندود الألمان بدخول باريس دخول الظافرين . كان هذا الاقتراح البديل مستغربا من المستشار الذى اشتهر بواقعيته ، وقد قبله ثيير على الفور . وأسرع ثيير بالعودة الى بوردو ليعرض هذه الشروط على الجمعية ومع أن رفضها كان مستحيلا فان بعض الأصوات قد ارتفعت بالاحتجاج العنيف عليها . وكان كيلر M. Keller قد أعلن باسم الألزاس واللورين « رغبتهما التى لا تنزعزع في أن تظلا فرنسيتين » . فلما تليت الشروط وقف ممثلو الاقليمين السليبيين يعلنون أن ما حدث يعد « استهانة بكل مبادئ العدالة واساءة منكرة لاستخدام السلطة » . ويكررون القول « بأن أية معاهدة تتصرف فينا دون موافقتنا تعد باطلة كأن لم تكن » . كما صدرت احتجاجات عنيفة من جانب بعض ممثلى باريس كذلك . فقد أعلن هؤلاء أن الجمعية فقدت صفتها في تمثيل البلاد بعد أن مزقت أوصالها وسلمت اقليمين من أقاليمها للعدو ، واستقال الكثيرون منهم أثر ذلك . وممن استقالوا فيكتور هوجو الذى ما برح اسمه يذكر مقرونا بالتبجيل في كافة أنحاء أوروبا . ويجدر بنا أن نذكر هنا تلخيصه للموقف : « هناك أمتان أوروبيتان ستصبحان رهيبتين من الآن فصاعدا ، الأولى لأنها انتصرت والثانية لأنها هزمت » .

وقد تم التصديق على المعاهدة في أول مارس . ثم وقعت في صورتها النهائية في ١٠ مايو بفرانكفورت . ودخل باريس ثلاثون ألف جندي.

ألماني ، ولبشوا بها فترة قصيرة موغرين بوجودهم صدور الباريسيين
التي لن تلبث أن تنفجر في تمرد رهيب^(١) .

(١) ملحوظة :

أدت الحرب فيما أدت الى انسحاب الفرنسيين من الأراضي البابوية ١٩١
أغسطس ١٨٧٠) ودخول قوة إيطالية ضخمة الى روما (٢٠ سبتمبر)
وانحادها مع إيطاليا في ٣ أكتوبر اثر استفتاء أجرى لهذا الغرض .

أوروبا

(في عام ١٩٢٧)

حدود تركيا في أوروبا وفقًا لمعاهدة سيفر

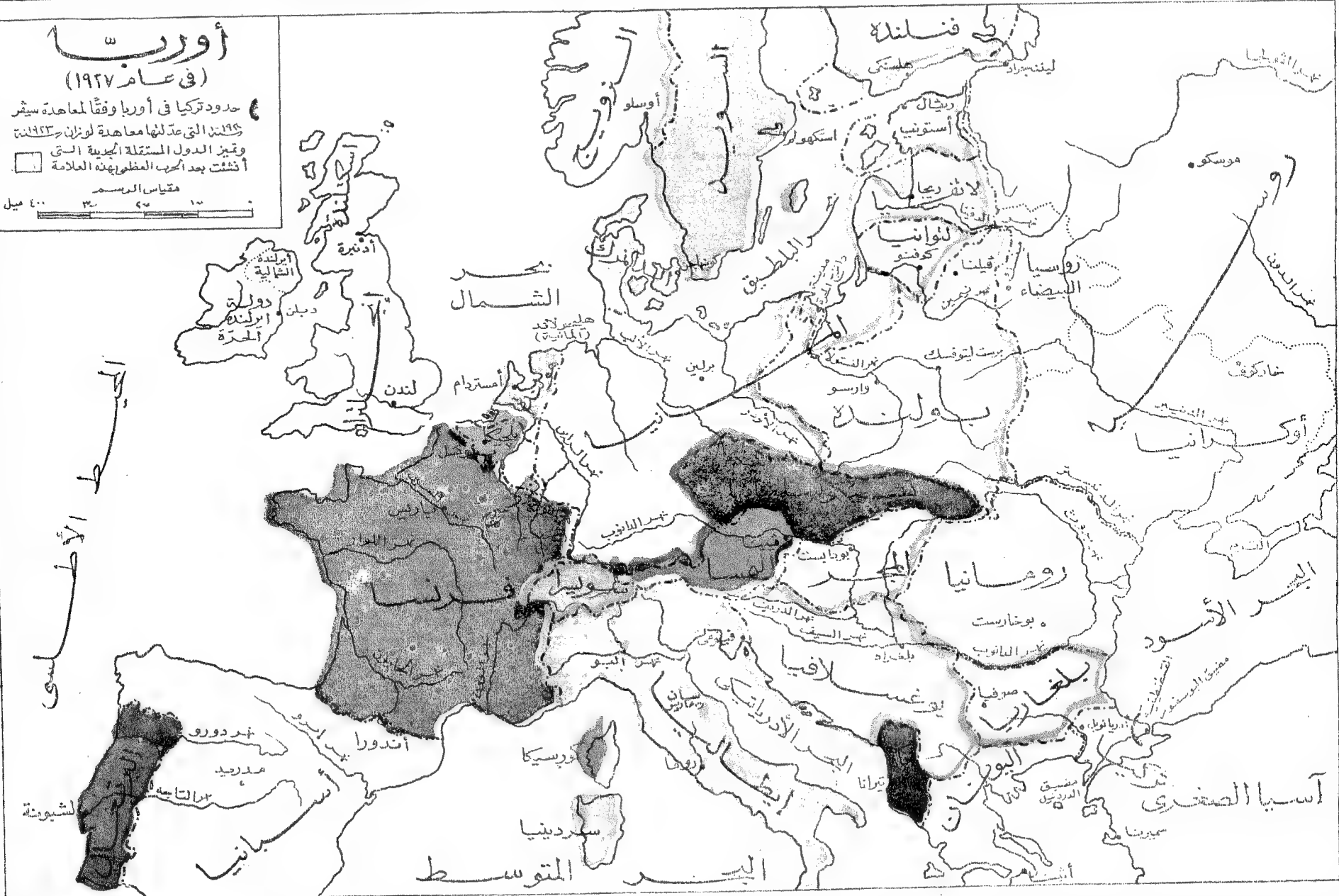
والتي تم تعديلها بمعاهدة لوزان ١٩٢٣

وتميز الدول المستقلة الجديدة التي

أُنشئت بعد الحرب المظلمة بهذه العلامة

مقياس الرسم

١٠ ٢٠ ٣٠ ٤٠ ميل



الفصل الحادى والعشرون قيام الجمهورية الفرنسية الثالثة

لقد انتخبت الجمعية فى بوردو لغرض واحد هو اقرار الصلح مع ألمانيا ، فذهب الكثيرون الى أنها ليست مكلفة بأى عمل آخر وأنها يجب ان تنحل بمجرد الفراغ من توقيع الصلح . غير أن فرنسا كانت تواجه الكثير من المشاكل الملحة ، وقد بدا أن من الخطورة بمكان اجراء انتخابات عامة جديدة ولم تمض على الانتخابات الأخيرة الا فترة وجيزة . فأصرت الجمعية على اعتبار نفسها جمعية مطلقة السيادة تولدت عن اختيار الشعب الفرنسى ولها بالتالى أهلية البت فى أية مسألة تنشأ . وكانت أهم هذه المسائل مسألة شكل الحكومة التى تتولى مقاليد البلاد فى المستقبل . كان الثثنان على الأقل من أعضاء الجمعية الستمئة من أنصار العودة الى شكل من أشكال الملكية سواء فى صورتها الشرعية أو الأورليانية أو الامبراطورية . الا أن المطاف قد انتهى بهذه الجمعية الملكية النزعة الى اقامة الجمهورية . وتلك هى الظاهرة المتناقضة التى اتسم بها التاريخ الفرنسى فى السنوات العشر التالية .

كان لثورة كوميون باريس أثر هام . فلقد كان هناك تناقض ظاهر بين باريس والأقاليم منذ قيام الثورة الكبرى فى ١٧٨٩ فصاعدا . فباريس كانت فى العادة تقدمية راديكالية فى حين ظلت الأقاليم محافظة . والفلاحون خاصة كانوا على استعداد دائما لرفض أى اجراء يبدو لهم مماسا بسلامة أراضيهم أو معرضا اياها للخطر . ولقد

استطاع النابليون الأول والثالث الاعتماد على مؤازرة جمهرة الفلاحين الذين نصبوا من نفسيهما حاميين لهم . أما باريس فقد ظلت متشعبة للجمهورية في عناد واصرار رغم جميع محاولات نابليون الثالث . وقد قاست المدينة الأمرين في أثناء الحصار، وساورها الاحساس بأنها عوملت أسوأ معاملة في معاهدة الصلح . فقد أثار دخول القوات الألمانية الشعور العام الذي صار نهبا كذلك للمخاوف بشأن مستقبل البلاد السياسى . اذ ساد الاعتقاد بأن الجمعية ستقيم ملكية ، فهبت باريس تحتج احتجاجا مهيبا على ذلك . فالخوف من إعادة الملكية كان - فى رأى ثير نفسه - من بين الأسباب التى جعلت من ثورة الكوميون أقواها جميعا . وكان عدد ضخم من المواطنين الموسرين قد ترك المدينة بعد الهدنة مما أضعف العنصر المحافظ بين الأهالى . ثم ان الحرس الوطنى لم يكن قد جرد من سلاحه ، بل احتفظ رجاله بأسلحتهم وتنظيمهم فقاموا بالدور الرئيسى فى الانفجار لاسيما فى أحداثه الأولى .

ما برحت باريس زاخرة منذ ١٨٤٨ بالحماسة للأفكار والنظريات المختلفة فى شتى المسائل الاجتماعية . وقد كان لكل من سان سيمون وفورييه أنصاره ، على أن الاشتراكية باتت الشعار المفضل وان كانت تعنى كالعادة برامج مختلفة باختلاف الأشخاص . وكان كتاب ماركس « رأس المال Das Kapital » قد نشر منذ ١٨٦٧ ولكنه لم يكن قد بدأ يحدث تأثيرا كبيرا على العقل الفرنسى . واذا كان ماركس قد هلك حقا للكوميون باعتباره فاتحة حركة كبرى لاحداث تغيير عالمى فان برنامج رجال الكومون Communists (١) الفعلى لم يحمل أثرا يذكر لآرائه . ولقد اتسمت أقوال معظم زعمائهم بالتنديد بنظام المركزية

(١) وهو الاسم الذى اتخذه الشيوعيون فيما بعد (المترجم) .

في الدولة . فكانوا يقولون « ان المركزية تعنى الاستبداد » . ومع أن الوقت لم يكن يسمح بالتفكير الواضح أو التخطيط الدقيق ، فقد كان للشوار هدف رئيسى هو استقلال كوميونات فرنسا أو مجالسها البلدية مع اتحادها في كل واحد وتنظيمها على أساس جماعى . وذلك أمر يوضحه بيان الكوميون الذى نشر في ٢٠ أبريل عام ١٨٧١ :

« ماذا تريد (باريس) ؟ انها تريد الاعتراف بالجمهورية وتدعيمها باعتبارها الشكل الوحيد للحكم الذى يتمشى مع حقوق الشعب ... وتريد تعميم الاستقلال الذاتى الكامل للكوميون في كافة أرجاء فرنسا ... فلا يجد من استقلال الكوميون الذاتى شيء الا حق الاستقلال الذاتى المماثل للكوميونات الأخرى ... ان أولئك الذين يتهمون باريس بأنها ترمى الى تحطيم وحدة فرنسا التى حققتها الثورة انما هم مخدوعون أو مخادعون للبلاد ... ان الوحدة السياسية كما تريدها باريس هي الالتقاء الحر لجميع المبادرات المحلية » .

لقد كانت باريس مدينة ضخمة تضم قوميات عديدة ، وكانت الدولية من الخصائص الجوهرية للكوميون . فلا غرو أن وجدنا بين الشخصيات البارزة فيه (لم يكن هناك قط زعيم بالمعنى المعروف) عددا من الأجانب فقد كان ديليكلوز Delescluze وفيلكس بيا Felix Pyat فرنسيين وكانا يمثلان الجناح الأكثر اعتدالا ، بينما كان كلوزيريه Cluseret فرنسيا أمريكيا اشترك في الحرب الأهلية الأمريكية .

وكل من دومبروفسكى Dombrowski البولندى ولاسيساليا

La Cecilia الايطالى لعب فيه دورا بارزا بعض الوقت .

ويمكننا أن نؤرخ بدء الحركة بيوم ١٨ مارس . كانت الجمعية قد انتقلت من بوردو الى فرساي لأسباب عدة منها توقعها للانفجار . وكان عدد القوات التى تأتمر بأمر ثبير صغيرا جدا لا يتجاوز ٣٠٠٠ جندي . وقد أصدر اليهم الأمر بإزالة عدد من المدافع من مونتارتر ، وهى مدافع كان أهالى باريس قد نصبوها في أثناء الحصار ثم رفضوا تسليمها . ولما

هم الجنود بتنفيذ الأمر أحاط بهم جمهور هائل منعهم من نقل المدافع. وقد رأى ثيير أن عدد الجنود في باريس ليس كافيا لحفظ النظام بالمرة وأن التيار قد يجرفهم ، فأصدر اليهم الأمر بالجلء عن المدينة . وبحلول يوم ٣٠ مارس كانت باريس قد تركت لنفسها ، واستمر الصراع حتى ٢٨ مايو أى حوالى شهرين . وقد وقعت مسئولية اخماد الثورة وفتح باريس من جديد على كاهل ثيير بوصفه رئيسا للحكومة التنفيذية . وكان قد بلغ الرابعة والسبعين من عمره ، ولكنه كان يبدى دائما اهتماما كبيرا بتنظيم العمليات الحربية وتوجيهها ، وقد ظلت عزمته وثقته بنفسه كاملتين لم يبد عليهما أى وهن . وكان قد خدم كما رأينا بيت أورليان وكان يفضل من الوجهة النظرية الملكية الدستورية على غرار الملكية الانجليزية على الجمهورية ، ولكنه كان قد قطع على نفسه عهدا رسميا ألا يسعى الى التأثير على الجمعية فى قرارها بأية طريقة غير عادلة . وكانت ثقة جميع الأحزاب به مكسبا كبيرا لفرنسا فى تلك الأزمة . وقد وفق الى اقناع المارشال ماكماهون ، وكان قد أبل من الجرح الذى أصابه فى سيدان ، بقبول القيادة العليا . وقد رفض ثيير دون ما تردد عرض ألمانيا بمد يد العون له ، الا أنه أعاد الى الوطن بطريق البحر من هامبورج ١٠٠٠٠٠ أسير من أسرى الحرب الفرنسيين ، وهؤلاء هم الذين قاموا بالدور الأكبر فى اخماد الثورة . على أن عدد الجنود الذين توفروا له لاختضاع المدينة الكبرى لم يزد قط على ١٥٠٠٠٠ جندي . وقد تبددت كل فرص الكوميون فى النجاح ، ان تكن هناك أية فرص ، بسبب المنازعات والمنافسات المستمرة بين السلطات . كانت السلطة من الوجهة الاسمية فى يد الكوميون (أو المجلس البلدى) الذى انتخب فى ٢٦ مارس ، وكان لونه ثوريا خالصا . وقد أناب عنه فى مباشرة الجانب الأكبر من سلطاته لجنة مكونة من خمسة أعضاء سميت لجنة « الأمن العام » وآلت السيطرة الكاملة

عليها فيما بعد لديليكولوز . ولكن الحرس الوطنى كان يشكل فى الحقيقة قوة مستقلة وقد انتخب لجنة مركزية رفضت الانصياع للكوميون .

وقد أبدى أنصار الكوميون أول الأمر ثقتهم بالنصر وأملهم بأن معجزات الثورة الفرنسية الأولى ستكرر ، وبأن سائر المدن الكبرى فى فرنسا ستخف لنجدتهم وبأن قضية الحرية والبعث الاجتماعى التى يناضل من أجلها جنودهم ستحدوهم الى بذل جهود تفوق طاقة البشر . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، بل اتضح من اشتباكات الباريسيين الأولى مع جنود فرساي انهم لا يمكن أن يأملوا فى التغلب على جنود فرنسا المدربين حتى وان تكن هزيمة الحرب الألمانية قد زعزعت من روحهم المعنوية . وقد أحسن ماكماهون اعداد مدفعيته . فشاهد الجنود الألمان ، وكانوا لا يزالون يعسكرون خارج باريس ، قصف المدينة المحاصرة للمرة الثانية بالقنابل . وقد بدأ الهجوم المنظم فى ٢٩ أبريل واستولى المهاجمون على قلعتين هامتين فحدد للهجوم العام يوم ٢٣ مايو . على أن باريس لم تكن لتستطيع أن تقاوم حتى ذلك التاريخ . لقد صدرت بيانات لا حصر لها وأعدت تشريعات طيبة ، ولكن المشاحنات بين الزعماء كانت دائمة متصلة . وقد حل روسل Rossel محل كلوزيه Cluseret فى منصب القيادة العسكرية ،

ثم حل محل روسل ديليكولوز الذى كان موفور الشجاعة منزها عن الغرض ، ولكن ذلك لم يجد شيئاً فى تحسين القوة المحاربة . ولم يشترك السواد الأعظم من الباريسيين فى صف الكوميون أو ضده . وأخيراً وردت فى ٢١ مايو اشارة من الاستحكامات الى الجنود بأن أسوار المدينة قد هجرت ، فأشرف ثبير على دخول الجنود الى ضواحي باريس دون أن تلقى أية مقاومة .

على أن الأيام كانت لاتزال تخبىء ما هو أشد وأبكى ، فقد اعتصم الثوار بشوارع باريس الرئيسية ونصبوا فيها المتاريس واستماتوا فى

الدفاع عنها ، فلم يتم الاستيلاء عليها الا بعد قتال بالغ الوحشية من الجانبين . وقد استخدم البترول في اشعال النيران ببعض مباني باريس العريقة فأتى الحريق على عدد من أشهرها ، ونخص منها بالذكر دار البلدية والتويلرى . وفى ٢٤ مايو قتل الثوار عددا من الرهائن بينهم رئيس الأساقفة احتجاجا على المعاملة التى لقيها نفر من رجالهم على يد جنود فرساي . ولم يتم سقوط آخر المتاريس الا فى ٢٨ مايو . ثم تلا ذلك انتقام بشع مع مراعاة الشكل القانونى أحيانا ودون مراعاته أحيانا أخرى . فأعدم كثيرون وسيقت جموع غفيرة الى المنفى فى المستعمرات المخصصة للمجرمين . ويلخص هانوتو Hanotaux المؤرخ والسياسى الفرنسى نتائج تلك الحركة فى الكلمات التالية : « قدر عدد الذين هلكوا فى ذلك الاشتباك الرهيب بسبعة عشر ألف جندى ... وبلغ مجموع المواطنين الذين فقدتهم باريس ثمانين ألفا (١) » . وقد ظلت ذكرى الكوميون حتى الحرب العظمى الأولى عاملا مؤثرا فى السياسة الفرنسية يحول دون تصالح الأحزاب ويصنع الحياة السياسية بروح المرارة وترقب الخطر على أن أحداث باريس قد ساهمت على الأرجح أكبر مساهمة فى تأمين قيام الجمهورية . فلقد أظهر الكوميون تصميم عاصمة فرنسا العنيف على ألا تشهد عودة الملكية .

وقد تركت هزيمة الكوميون الجمعية وجها لوجه أمام مهامها الكبرى ، وكانت أولها تسوية أمر العلاقات مع الألمان . اذ كان من الضرورى أن توقع المعاهدة ، وأن يدبر المال اللازم لدفع التعويض كما يتم جلاء القوات الألمانية عن البلاد . وقد أفادت فرنسا كثيرا من شخصية

(١) جبريل هانوتو : « تاريخ فرنسا المعاصر » الجزء الاول الصفحات من ٢١١ - ٢١٤ .

Gabriel Hanotaux: "Histoire de la France Contemporaine", vol. I. pp. 211-214.

ثبير وسمعتة في التعامل مع بسمارك الذى كان ميالا الى استخدام
نبرة الارتياب والصرامة مع فرنسا . وقد وقع الصلح النهائى فى ١٠
مايو ١٨٧١ بفرائكفورت كما أسلفنا ، ولكن القوات الألمانية كانت
لا تزال تحتل مديريات عديدة ، وقد تقرر أن تبقى فيها حتى تتمكن
فرنسا من جمع المبلغ المطلوب منها ، وكان ثبير على دراية كبيرة فى
الثبوت المالية ، وكان يحظى بسمعة طيبة فى عالم المال ، فتم جمع المبلغ
بسهولة مذهلة ، وراحت ألمانيا تنظر بعين الريبة والاستياء الى ابلال
فرنسا الذى حدث بسرعة غير متوقعة ، فقد تم الجلاء قبل الموعد
المتوقع له بستتين ، ولكن شروط الصلح نفذت بأمانة ، فرجل الجنود
الألمان وأعلنت الجمعية أن ثبير قد « استحق تقدير الوطن » .

كان ذلك نصرا كبيرا للرئيس الشيخ ، ولكنه أدى على الفور الى
قيام معارضة أشد عنفا له فى الجمعية . فلقد كان وجوده ضروريا جدا
للمفاوضات مع ألمانيا بحيث لم يكن هناك أى مجال للتفكير فى زحزحته
من منصبه حتى تتم . أما الآن فقد أصبح من المحتم ايجاد حل نهائى
لمشكلة دستور فرنسا المقبل ، ولم يكن موقف الرئيس فى هذه المشكلة
مما يرضى عنه أعضاء الجمعية اللهم الا نقر قليل منهم . وإذا كان ثبير
قد وعد بالألا يسعى الى التأثير بصورة غير عادلة على الجمعية فى قرارها ،
فانه لم ير أن ذلك الوعد يمنعه من ابداء النصيح ، فلم يفوت مناسبة
لاستخدام حقه بوصفه رئيسا فى مخاطبة المجلس فى أى موضوع يعن
ه . لقد كان يتحدث كثيرا حقا ولعله يجعل بنا أن نضيف أنه كان
يتحدث ببراعة كبيرة مما أدى الى تقييد ذلك الحق فيما يعد بنص
صريح . وقد كانت آراؤه واضحة تمام الوضوح ، فقد كان يفضل
الملكية الدستورية ذات النمط الانجليزى على الجمهورية ، الا أنه كان
يعتقد أن الموقف الراهن يجعل من قيام الملكية ضربا من المستحيل .
فكان يقول : « ان جميع الحكومات القائمة ، هى الآن مهما تعددت

أسماءها حكومات جمهورية في جوهرها » و « اذا لم تشاءوا عبور المانش فاعبروا الأطلنطي » . لقد أصر على أن الأحداث أعطت فرنسا نظاما جمهوريا بالفعل وأن اقامة أى نوع من الملكية يعد في الظروف القائمة ثورة بمعنى الكلمة .

بيد أن النزعة الملكية كانت غالبية على الجمعية ، فلم يكن منتظرا منها أن تقبل الحل الجمهوري عن طيب خاطر . ولم يكن هناك الا القليلون ممن ينادون علنا بعودة الامبراطورية ولو كان نابليون الثالث على قيد الحياة لجاز أن تبذل محاولة ما في هذا الاتجاه ولكنه مات في انجلترا . فلم يعد هناك الا منهاجان وشخصان يتنازعان ولاء الملكيين ، أولهما الكونت دي بارى Comte de Paris الذي يمثل تقاليد بيت أورليان الدستورية ، وهو رجل خبر الدنيا وكان يعتقد - فيما يعتقد - آراء متحررة . والثاني هنري كونت دي شامبور Henri, Comte de Chambord الذي انعقدت عليه آمال الشرعيين المنشئين. يحق الوراثة غير القابل للالغاء وبضرورة قيام رباط وثيق بين العرش والهيكمل (أى بين الدولة والكنيسة) ، وكان هذا الأمير يعيش بالقرب من فيينا وكان مجردا من الأطماع السياسية ، فلم يكن تواقا الى ارتقاء منصة الحكم في فرنسا أو مستعدا للتضحية بمبادئه السياسية أو الدينية من أجل تلك الغاية . ولقد أثارت العلاقات بين هذين الحزبين الملكيين صعوبات بالغة فيما بعد ، ولكن الهدف الأول في تلك الآونة كان التخلص من ثبير . وعلى هذا قدم للجمعية مشروع قرار ، هو في حقيقته قرار بسحب الثقة من الحكومة ، بالاعراب عن « الأسف لأن سياسة الحكومة ليست محافظة على وجه قاطع » ، فانبرى ثبير يدافع عن قبوله للنظام الجمهوري بقوله « ان مبعث تفكيرى هو أن قيام الملكية بعد اليوم من جهتكم وجهتى أمر مستحيل في الواقع تمام الاستحالة ، فليس هناك سوى عرش واحد ولا يمكن لثلاثة أشخاص

أن يجلسوا عليه في آن واحد » . غير أن المجلس صوت ضده بأغلبية
ضئيلة فاستقال .

وخلفه في الرئاسة المارشال ماكماهون الذي جرح في سيدان وتولى
قيادة الجيش ضد الكوميون . ولم يكن قد خاض غمار السياسة من
قبل ، ولكنه كان معروفا بميوله الملكية وولائه للكنيسة . وكان عاطلا
من ذكاء الفكر والقول ، وقد تناقلت الألسن في باريس نوادر ارتبأكه
وسوء تصرفه في المجتمعات ، ولكن الجميع كانوا يعترفون باستقامته
وأمانته وجدية قصده . وكانت الجمعية قد قاست الكثير من ألمعية تثير
فرحبت بالتغيير . كانت المهمة الموكولة اليه واضحة جلية ، ألا وهى
الاشراف على عملية اقامة الملكية ، وقد كانت تلك أمنيته الخاصة
وأمنية أتباعه ، بيد أن الذى حدث فعلا هو أن الجمهورية تأسست
في عهده !

ولم يكن متصورا أن تقوم الملكية دون صراع عنيف حتى لو التأم
شمل الملكيين . على أن جميع المحاولات التى بذلت لضم صفوفهم
قد ذهبت أدراج الرياح . فقد توجه الكونت دى بارى لمقابلة الكونت
دى شامبور ، ولما كان هذا الأخير منقطع الذرية فقد بدا الحل الطبيعى
أن يحكم هو أولا ثم يخلفه بيت أورليان . ولكن ماذا عساها أن تكون
المبادئ التى يحكم شامبور على أساسها ان صار ملكا ؟ أيصمم على
التنكر لكل ماكانت تعنيه الثورة الفرنسية أم تراه يرضى بقبول بعض
مبادئها ؟ لقد تركزت المشكلة يومذاك في علم البلاد بوصفه رمزا . فهل
يتمسك الكونت دى شامبور بعلم بيت البوربون الأبيض التقليدى —
علم هنرى نافار ولويس الرابع عشر — أم تراه يقبل العلم المثلث الألوان
بما له في الأذهان من ارتباطات بالثورة والمجد الحربى ؟ لقد رفر
هذا العلم حقا في معركة أوسترلتز ، ولكنه رفر أيضا الى جوار

المقصلة عندما هبوت على عنق لويس السادس عشر . ان العلم ليس الا رمزا ، غير أنه رمز هام ، وقد كان في نظر الكونت دى شامبور رمزا دينيا ، فمانع من تبني العلم المثلث الألوان ممانعة المسيحي في استبدال الهلال بالصليب . وبذلت الجهود لحمله على العدول عن قراره وترددت الشائعات بأنه قد عدل عنه فعلا ، الا أن رده النهائي كان أنه لا يستطيع التضحية بشرفه . فشعر الناس أن قيام الملكية بات مستحيلا في ظل تلك الظروف ، وروى عن ماكهاون أنه قال ان رفع العلم الأبيض فوق دار البلدية كفيل بأن يؤدي الى « انطلاق بنادق الشاسبوت من تلقاء ذاتها » - أى أن الثورة ستتشب على الفور . وقد سعى الكونت الى حل الاشكال بالحضور بنفسه الى قرساي عسى أن تحدث معجزة لصالح القضية التى يمثلها . وكان يتعشم أن يزوره ماكهاون على الأقل ، الا أن ماكهاون رأى - رغم أنه كان يشايع الكونت - أن فى قيامه بزيارة المطالب بالعرش خروج على كرامة منصبه كرئيس للجمهورية وعلى اليمين التى أداها بهذه الصفة ، فما كان من الكونت دى شامبور الا أن استقبل أشياعه وزار باريس حيث ألقى نظرة عابرة على أطلال قصر التويلرى ثم قفل راجعا الى النمسا . وباتت قضية الملكية خاسرة . ولكن الجمعية لم تتوصل الى اتخاذ القرار الكريه الا ببطء وعلى مضض . فمنحت أولا المارشال ماكهاون « السلطة التنفيذية » لمدة سبع سنوات ، وعينت لجنة للتوفر على دراسة المشروعات الدستورية . وقد تقدمت اللجنة اليها بقرارات مختلفة قوبلت بالرفض . ولكن نتائج الانتخابات الفرعية جعلت تأتى ضد أنصار الملكية على طول الخط ، فكان لها أثر ملحوظ على الجمعية . وقد جاء القرار الحاسم فى ٣٠ يناير ١٨٧٥ عندما طرح للتصويت تعديل تقدم به نائب يدعى والون Wallon لتحديد طريقة انتخاب رئيس الجمهورية ، فأقرته الجمعية بأغلبية صوت واحد ، وبهذه

الأغلبية التي ليس أقل منها أغلبية تقرر أن تصبح فرنسا جمهورية .
ثم وضعت سلسلة من القرارات حددت شكل هذه الجمهورية
الفرنسية الثالثة . ان الدستور الجديد لم يكن واجدا من تلك
الدساتير المنطقية المرتبة التي أحبتها فرنسا كثيرا ، بل جاء حصيلة
سلسلة من التوفيقات والحلول الوسطى التي أقرتها الجمعية على
مضض وان كانت تأمل ألا يكتب لها الدوام . وقد قال أحد الذين
ساهموا بدور بارز في المناقشة «ان عامل الصدفة هو الذي كان يحكمنا»
"Le hasard fût notre maitre"

لقد تقرر لفرنسا أن تصبح جمهورية يرأسها رئيس ينتخبه المجلسان
(مجلس النواب ومجلس الشيوخ) في جلسة مشتركة . وقد أبدت
ضد هذه الطريقة حجج قوية ، ولكن الحجة الوحيدة التي كانت في
صالحها كانت كافية : ذلك أن البديل الوحيد لها ألا وهو انتخاب
الرئيس بطريق الاستفتاء العام ، قد أتى من قبل نابليون الثالث الى
الحكم في ١٨٥١ فلم يكن مستبعدا بالمرّة أن يسفر مرة ثانية عن نتيجة
مماثلة . وعلى هذا أقرت تلك الطريقة التي أسلمت فرنسا الى سلسلة
من رؤساء الجمهورية عرفوا بضالة الشأن وضعف السلطان السياسى
وأصبح مركز رئيس الجمهورية في الدستور الفرنسى مماثلا تقريبا لمركز
ملك بريطانيا وسلطاته (١) .

(١) الفارقان الوحيدان هما أن الرئيس الفرنسى يرأس جلسات
مجلس الوزراء وهو مالايفعله ملك بريطانيا ، وأن الأول ينتخب لفترة
محدودة بينما الآخر يتولى منصبه بالوراثة . ومن الأمور التي لها دلالتها
أن كل رئيس حاول الاسهام بدور شخصى مباشر فى شئون السياسة قد سقط ،
ومثال ذلك ما حدث لما كماهون وجريفى Grévy وميليران Millerand
ولما كان الملك يستطيع أن يمارس أحيانا بحكم دوامه تجاربه نفوذا
حقيقيا على سياسة بلاده فقد يصح القول بأنه يعد أقوى سلطانا من
رئيس الجمهورية .

وأعطى حق الانتخاب العام لكل من تجاوز العشرين من الرجال .
وحددت مدة مجلس النواب بأربع سنوات ، ومجلس الشيوخ بتسع
سنوات . وتقرر بادىء الأمر أن يضم هذا المجلس الأخير خمسة وسبعين
عضوا يعينون مدى الحياة ، إلا أن النص الخاص بذلك ما لبث أن
ألغى . أما الباكون فقد تقرر أن يجرى انتخابهم بطريقة عجيبة ، يقوم
بالدور الأول فيها مندوبون تعينهم خصيصا لهذا الغرض مجالس فرنسا
البلدية ، مما حدا بجامبتا الى تسميته « المجلس الأعلى لكوميونات
فرنسا » . وفازت الأقاليم بقدر كبير من الحكم الذاتى ، وإن تبنت
الجمهورية الجديدة نظاما تميزت به الامبراطورية الأولى ألا وهو نظام
المأمورين Prefects الذين يعدون خلفاء للنظار Intendants
فى الملكية القديمة . وهؤلاء تعينهم الحكومة المركزية التى تدير شئون
فرنسا على نحو أكثر مركزية وأقل تأثرا برأى الشعب عما هو مألوف
فى انجلترا .

جاء النظام الجديد قريبا جدا بصفة عامة من النظام الانجليزى ،
وقد أمل الكثيرون من أعضاء الجمعية فى أن يخلى الرئيس مكانه فى
الوقت المناسب للملك دستورى . كما ظهر الأمل فى الأخذ بنظام
مماثل لنظام الوزارة ومجلس الوزراء الانجليزى (١) . غير أن الأيام
أثبتت أن هناك فروقا ضخمة بين النظام البرلمانى الفرنسى والنظام
الانجليزى . فالوزارات الفرنسية كانت أقل استقرارا من الوزارات فى
انجلترا . فقد تعاقبت على فرنسا فى الفترة ما بين ١٨٧٣ و ١٨٨٨ تسع عشرة
وزارة ، أى أن متوسط مدة الوزارة الواحدة كان أقل من العام الواحد ، بينما
لهم يزد عدد الوزارات التى تعاقبت على انجلترا فى نفس الفترة على

(١) ministerial and cabinet system فمن المعروف أن الوزراء فى
انجلترا نوعان فهناك أعضاء الوزارة الذين يتألف منهم مجلس
الوزراء habinet members ثم الوزراء العاديون الذين لا يعتبرون
أعضاء فى مجلس الوزراء . (المترجم)

خمس وزارات . وليس الفارق الوحيد أن مدة الوزارات الفرنسية في الحكم كانت أقصر من مدة الوزارات الانجليزية ، فان قدرتها على السيطرة على أنصارها وعلى الجمعية في مجموعها كانت كذلك أقل كثيرا مما هو مألوف في إنجلترا . ومرد ذلك ليس الى طباع الفرنسيين فقد جرت العادة في القرن السابع عشر على مقارنة ولاء الفرنسيين الثابت بنزعات الانجليز الثورية الجامحة . ولهذا السبب استن لويس الرابع عشر لنفسه قاعدة الامتناع عن الدخول في أى علاقات تترتب عليها التزامات مع الحكومة الانجليزية . ولكننا نستطيع أن نرد عدم استقرار الوزارات الفرنسية ولو جزئيا الى العوامل التالية : أولا : ان تنظيم الأحزاب السياسية الفرنسية لم يبلغ من الصرامة ما بلغه في إنجلترا . فأعضاء الأحزاب الفرنسية لا يلتزمون بمبدأ الولاء للحزب كما يلتزم به أعضاء الأحزاب الانجليزية ، فهم أكثر استعدادا للتصويت ضد أحزابهم ، وهذا الاتجاه يعد سببا ونتيجة في الآن نفسه لتعدد الأحزاب . أما سبب هذا الاختلاف في موقف الأعضاء من أحزابهم فمسألة أخرى ليس لنا أن نتصدى لها هنا . ثانيا : ان سقوط الوزارة في فرنسا لم يكن يستتبع اجراء انتخابات عامة . وقد كان من حق الرئيس نظريا أن يأمر بحل مجلس النواب بعد الحصول على موافقة مجلس الشيوخ ، ولكن ذلك لم يحدث في الحقيقة الا نادرا . وعلى هذا لم يكن من المحتم أن يؤدي طرد الوزارة من الحكم الى نفس العواقب الخطيرة بالنسبة للعضو التي يؤدي اليها بالنسبة لمثيله في إنجلترا ، فلم يكن يتعين عليه أن يواجه على الفور معركة انتخابية جديدة غير مضمونة النتائج وان تكن مضمونة التكاليف (١) . ثالثا مكنت هذه

(١) فشلت المحاولة التي قام بها مسيو دومرج M. Doumergue لتحقيق التماثل بين الدستور الفرنسي والدستور البريطاني من حيث سلطة الحل ، وانتهت الى استقالته في نوفمبر ١٩٣٤ .

الحقيقة مجلس النواب الفرنسى فى مجموعه من أن يلعب دورا أكثر فاعلية فى تصريف شئون الحكم من مثيله فى انجلترا حيث يتولى حزب الأغلبية تصريف جميع الأعمال تقريبا . ففى فرنسا كان الوزراء هم الذين يتقدمون عادة بمشروعات القوانين ولكن تطورها بعد ذلك ونجاحها أو فشلها كان يتوقف بدرجة أكبر كثيرا على المجلس بأكمله عاملا عن طريق لجانه أو مكاتبه التى لم تكن تشكل على أساس حزبي . فكان المجلس وهو مدرك لضخامة سلطانه - ينظر فى شئ من عدم الاكتراث النسبى الى سقوط الوزارة الحزبية التى عهد اليها بالسلطة التنفيذية منذ زمن وجيز .

وهكذا تأسست الجمهورية واستمرت على قيد الحياة حتى قضى عليها طوفان ١٩٤٠ . بيد أنها جاءت بطريق الصدفة المحضة تقريبا . وكان لها فى الخفاء أعداء كثيرون . فقد ظلت الأحزاب الملكية قائمة رغم أن أنصار الامبراطورية لم يتمكنوا بعد وفاة ولى العهد الامبراطورى من الاتفاق على شخصية من يرشح لخلافته ، ورغم أن وفاة الكونت دى شامبور لم تؤد الى توحيد صفوف الشرعيين والأورليانيين . والرئيس ماكماهون لم يبد أدنى استعداد لقبول ما كانت تعنيه الجمهورية فى نظر معظم أنصارها من قيام عهد أساسه الديموقراطية والمساواة . بل كان يرمى الى الاحتفاظ ، بالتحالف الوثيق مع الكنيسة والاستعانة بجميع أدوات الحكم ، بمقاليد السلطة التنفيذية فى يديه وحكم البلاد دون الرجوع لمجلس النواب . والحزب الكنسى أو الكاثوليكي كان قويا للغاية وهو لم يقبل الجمهورية قط . وقد كان ماكماهون أشد اخلاصا لمبادئ هذا الحزب منه للمبادئ الملكية نفسها ، فراح يدعم سلطان الكنيسة فى ظل الجمهورية . وقد وقعت المشاحنات والمنازعات المتكررة بين الكنيسة والدولة وأن دارت حقا حول المسائل التعليمية قبل المسائل السياسية ، وباتت المهمة الماثلة

أمام الجمهورية هي السيطرة على السلطة التنفيذية ، وتوكيد سلطتها على الكنيسة الكاثوليكية واجبات الجهود التي يبذلها - في السر والعلن - الملكيون على اختلاف أنواعهم .

وتعد الانتخابات العامة التي أجريت عام ١٨٧٧ معلما بارزا من تاريخ التطور السياسي لفرنسا . فقد رضخ ماكماهون حقا للوزارات الجمهورية ولكنه فعل ذلك على مضض . وقد راح ثير حتى وفاته ومن بعده جرينفى Grévy وفيرى Ferry وفوق هؤلاء جميعا جامبتا يثرون الخواطر من أجل تفسير أكثر ديموقراطية . ولكن ماكماهون تصدى لنظرية الأخير القائلة بأن « سلطة المجلس مطلقة لا يحدها شيء » معلنا « ضرورة الاحتفاظ باستقلال رئيس الجمهورية في حدود الدستور » . وانهى به الأمر الى حل المجلس وطرح الخلاف على الناخبين في ١٨٧٧ . وقد حاول ، شأن نابليون الثالث ، أن يضمن لنفسه الأغلبية باستخدام شتى ألوان التأثير لصالح المرشحين الذين يريدهم . ولكن النتيجة جاءت فشلا ذريعا له . اذ عبرت البلاد عن تأييدها « لآراء جامبتا » بأغلبية ساحقة وعلى الأخص في جنوبي فرنسا وشرقها . وقد رفض ماكماهون بادئ الأمر أن يذعن لرغبات الناخبين أو يستقيل ، وظل يشغل منصب الرئاسة ردحا آخر من الزمن . ولكن استمرار الموقف على ما هو عليه كان مستحيلا . فاستقال في يناير ١٨٧٩ ، أى قبل أن يضطره الدستور الى ذلك بسنة كاملة .

وجاء اختيار خلفه نصرا للجمهورية ، اذ وقع هذا الاختيار على جول جرينفى Jules Grévy ، وهو رجل من أبناء الطبقة المتوسطة عرف بشدة عطفه على الفلاحين دون انحياز الى الملكية أو ميل الى اعلاء شأن الكاثوليكية . وقد أخذت البلاد تحرز في تلك الآونة تقدما كبيرا في الصناعة والتجارة ، وأقدمت من جديد على تحقيق مشروعات

استعمارية . كان احتمال أستيلائها على تونس قد نوقش في برلين في أثناء المؤتمر المنعقد هناك . وقد رأى بسمارك أن الاقدام على مغامرات خارجية من شأنه أن يصرف فرنسا عن الامعان في التفكير في ماضي الألزاس واللورين ومستقبلهما . فكان أن احتلت فرنسا تونس في ١٨٨١ . وفي ١٨٨٤ بسطت سيطرتها على مدغشقر ، وبدأت الحركة التي انتهت بالاستيلاء على تونكين Tonking في ١٨٨٢ . وقد راحت جمهرة الشعب في فرنسا تنظر الى هذه المغامرات بعين الانزعاج مقارنة اياها بالحملة المكسيكية التي كان لها أكبر الأثر في القضاء على حكم نابليون الثالث . وفي الداخل كانت المنازعات مع الكنيسة حول اعداد برنامج قومي للتعليم هي أهم ما يلفت النظر . وقد لعب فيري Ferry الذي تعد وزارته أطول وزارة شاهدها فرنسا منذ سنوات عديدة (من فبراير ١٨٨٣ الى مارس ١٨٨٥) الدور الأكبر في اعداد هذا البرنامج . وللعمل الذي أنجزه أهمية قصوى ، فقد وضع - متأثرا الى حد بعيد بالنموذج الألماني - نظاما كاملا للتعليم الحكومي العلماني في مراحله الثلاث : الابتدائية والثانوية والجامعية ، وكان له أبعاد الأثر على تطور فرنسا المقبل . ولا يفوتنا أن نذكر كذلك أن المجلس قد انتقل في ١٨٨٠ من فرساي الى باريس التي اتخذها مقرا دائما له . وفي العام التالي صدر عفو شامل عن أولئك الذين اشتركوا في ثورة الكوميون . وبذلك بذلت محاولة لرأب الصدع الذي أحدثته ثورة كوميون باريس في ١٨٧١ بين الأحزاب والطبقات . وبدأت الدولة تتخذ تدريجيًا طريقا ديموقراطيا صريحا . فألغيت في ١٨٨٦ قاعدة شغل خمسة وسبعين مقعدا بمجلس الشيوخ بالتعيين مدى الحياة ، تلك القاعدة التي كان يعتز بها ماكماهون أيما اعتزاز . وأصبحت جميع مقاعد مجلس الشيوخ تشغل من ذلك التاريخ فصاعدا بالانتخاب . كما دُعيت المساواة بدرجة أكبر في طريقة الانتخاب . وكفلت الحرية

للصحافة واتسعت حدودها . ومنح المواطنون حرية الاجتماع مما أدى الى تكوين نقابات عمالية على النسق الانجليزى . واتسع استقلال البلديات باعطاء المجالس البلدية فى كل مكان عدا باريس حق اختيار رؤسائها أو عمدتها mayors على أن طابع الدولة ظل مع ذلك متسما بسطوة ومركزية أشد كثيرا مما هو مشاهد فى إنجلترا ، وظل المأمورون (prefects) كما لا يزالون حتى يومنا هذا ، يشكلون جزءا أساسيا من دولاب الحكم فى فرنسا .

وقد كانت معظم هذه التغيرات من الأشياء التى جاهد من أجلها جامبتا الذى يمثل أكثر من أى شخص آخر مبادئ الجمهورية الراديكالية ، على أن آراء ذلك الرجل الذى وصفه ثيير ذات مرة بأنه « مخبول يهذى » كانت تنطوى دائما على عنصر محافظ ، وقد أخذت عباراته تزداد اعتدالا على مر الايام ، وقد أسندت اليه فى نوفمبر ١٨٨١ رئاسة الوزارة ، غير أن وزارته لم تدم أكثر من ثلاثة شهور ولم تترك أثرا باقيا فى حياة فرنسا . وفى الانتخابات العامة ١٨٨٥ لم يعد ثمة صراع صريح بين الملكيين والجمهوريين ، ولئن كان المحافظون قد فازوا بسبب انقسام الجمهوريين بعدد كبير من المقاعد فإن الجمهورية ذاتها لم تتعرض لأى خطر جدى .

وقد انتخب جرينفى للرئاسة لمدة ثانية ، ولكنه رأى فى ١٨٨٧ ، أثر اكتشاف فضيحة مالية ماسة بشرف زوج ابنته ، ان الحكمة تقتضيه أن يستقيل . وقد شاهدت الشهور الأخيرة لرياسته بداية الحركة البولانجية Boulangist movement وهى الحركة التى اكتسبت المزيد من الأهمية فى ظل خلفه الرئيس كارنو Carnot ، وان يكن من الأليق بنا أن نعرض لها هنا فى ايجاز . ان الكثير من الغموض مازال يحيط حتى يومنا هذا بنشأة هذه الحركة وتنظيمها ، ولكن

طابعها العام واضح جلى . فلقد كانت محاولة أخيرة بذلها الكارهون على اختلاف الأسباب للجمهورية البرلمانية الديمقراطية ، من أجل تعديل الدستور . ولم يكن الوضع الذى يحل محلها واضحا بحال من الأحوال ولكن أنصار بولانجيه Boulanger كانوا مجمعين على ضرورة تدعيم السلطة التنفيذية والاقبال من تدخل الجمعية فى شئون الحكم ! وهو أمر كان يمكن أن يؤدى اما الى قيام جمهورية أقرب الى النموذج الأمريكى واما اتاحة الفرصة لمغامر جديد من طراز نابليون الثالث لينصب نفسه حاكما واما عودة أحد البيوت المالكة القديمة . ولا شك فى أن الجنرال بولانجيه نفسه لم يكن ليستطيع السيطرة على زمام تلك الحركة لأمد طويل . وهو لم يكن أبله كما تصوره خصومه ، فهو رجل أبلى بلاء حسنا فى خدمة الجيش وشغل فى وقت من الأوقات منصبا محترما هو منصب وزير الحربية ، على أن خير تزكية له كانت قدرته على اثارة خيال الشعب ومظهره الشخصى الأنيق وحصانه البديع وبلاغته الرنانة الغامضة . وقد بدأت شهرته فى أوساط الشعب اثر حادث من حوادث الحدود . فقد ألقى الألمان القبض دون سند شرعى على ضابط فرنسى يدعى شينايل Schnaebeli ورأى الفرنسيون أن جريئى لم يتخذ موقف الحزم اللازم إزاء هذا الحادث . فما كان من بولانجيه الا أن نصب من نفسه متحدثا باسم القومية الفرنسية وحظى فى ذلك بمساندة « رابطة الوطنيين » . ولكنه لم يكتف بذلك ، بل مضى الى حد المطالبة بتغيير الدستور من أساسه وقد لخص برنامجه فى عبارة « حل الجمعية وتعديل الدستور بواسطة جمعية تأسيسية تنتخب تخصيصا لهذا الغرض » . لقد بدا الخطر على الدستور الجمهورى جسيما حقا برهة من الزمن ، وعند البولانجيون لى التأثير على الناحيين بوسائل مستعارة من أمريكا لم تعرفها فرنسا

من قبل ، فقد جعلوا يرشحون زعيمهم في كل دائرة تخلو ، فكان أن انتخب فعلا في كثير من الدوائر بأغلبية ضخمة ، بل انه انتخب في باريس ذاتها ، ولكنه أخفق في التأثير على مناطق الجنوب والشرق الثابتة على مبادئها الجمهورية . وقد انتهت الحركة الى الفشل نتيجة ضعف الجنرال بولانجيه نفسه والاجراءات القوية بل العنيفة التي اتخذتها الحكومة ضده . فقد عمدت الى تعديل قانون الانتخاب واتهام بولانجيه « بالتآمر على سلامة الدولة » فهرب من فرنسا وانتحر بعد ذلك ببرهة وجيزة في بروكسل . فكانت النتيجة العامة لحركته هي تعزيز الشعور بقوة النظام الجمهوري واستتبابه في فرنسا .

تصويب

الصواب	المخطأ	السطر	الصفحة
تطبيقها	تطبيقاً	٧	٣٦
مى أهم	م أهم	١٦	٥٠
أبو السياسة	أبو السياسى	١٢	٥٥
السيادة	السعادة	١٠	٧٨
Illustrative	Illustrative	٢٣	٧٩
الأمة	الأمم	٢٠	٨٠
المطلق	المطق	١٥	٨١
غريمتين قديمتين	غريمتان قديمتان	٢٠	٩٢
محموده	محميوه	٨	١٠٦
بالأساليب	بأساليب	٦	١٢٢
الثلاثين	الثلاثاء	١٥	١٢٤
انبهارهم	انبهارهم	٢	١٤١
منها	منهم	١٣	١٩٩
Whitworth	Whitwite	٢٨	٢٠٤
« بالم »	« بالم »	٥	٢٢٥
Tugendbund	Tugendbunt	١٨	٢٣٢
Cambridge	Acmbriage	١٩	٢٨٩
والمغامرة	والمغامرة	٣	٣٥١
وزيراً	وزيراً	١١	٣٦٣
وكلائنا أنفذ	أنفذ	٢٧	٣٦٧
لجهرون	لجهرون	١	٣٨٩
حساسية	حساسية	٢٤	٤١٢
ولعب	ولعب	١	٤٥٩

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤٧٩	٢٢	بريطانيا	إيطاليا
٤٧٩	٢٤	البرلاني	البرلمان
٤٨٤	٢٤	واحد	واحداً
٥٥٥	٢٤	تجاربه	وتجاربه
٥٥٦	٢٥	Babinet	Cabinet

جاء في متن الكتاب في أكثر من موضع اسم « ثبير » وصحته « تبير »

القاهرة
مطابع دار الكتاب العربي بمصر
محمد حلمى النياوى

